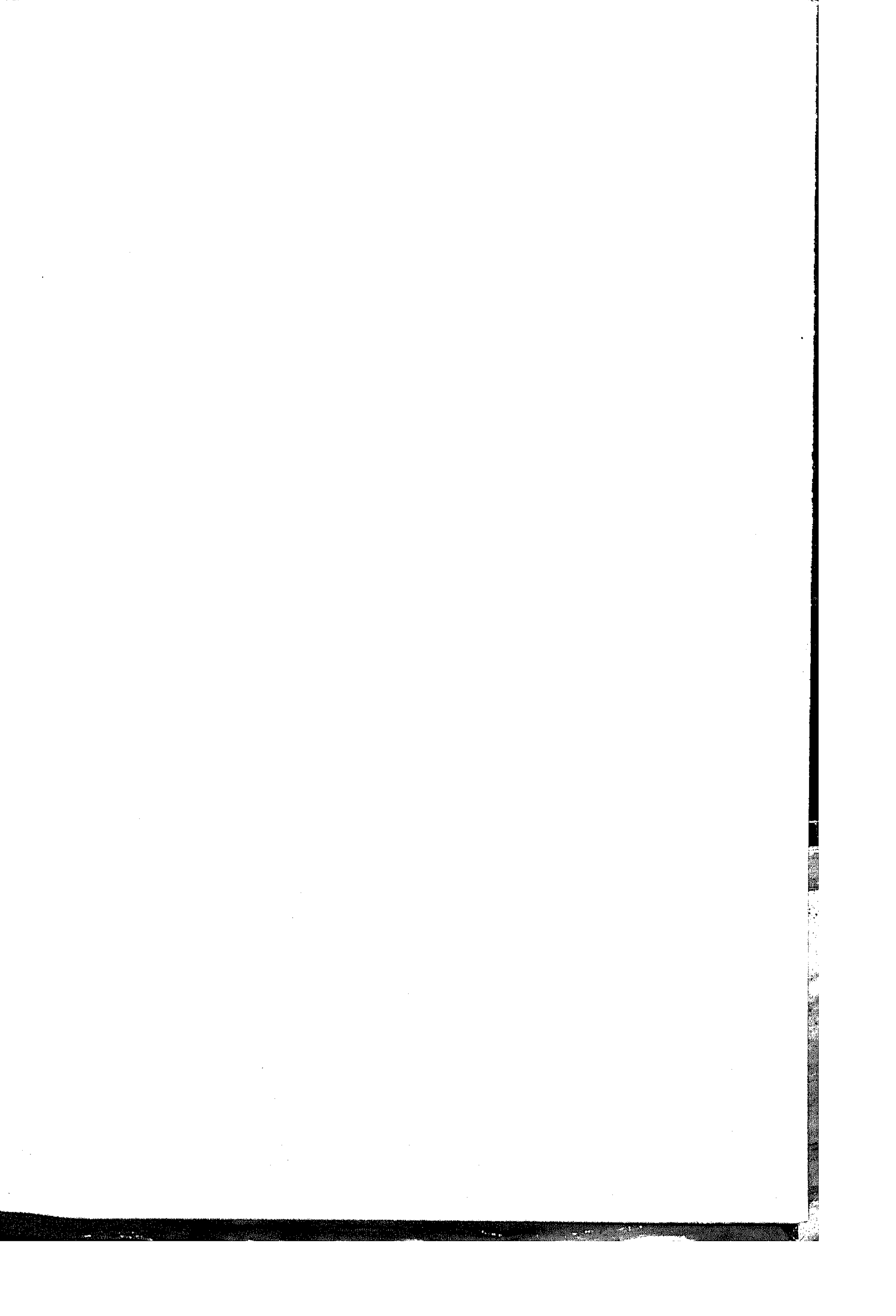
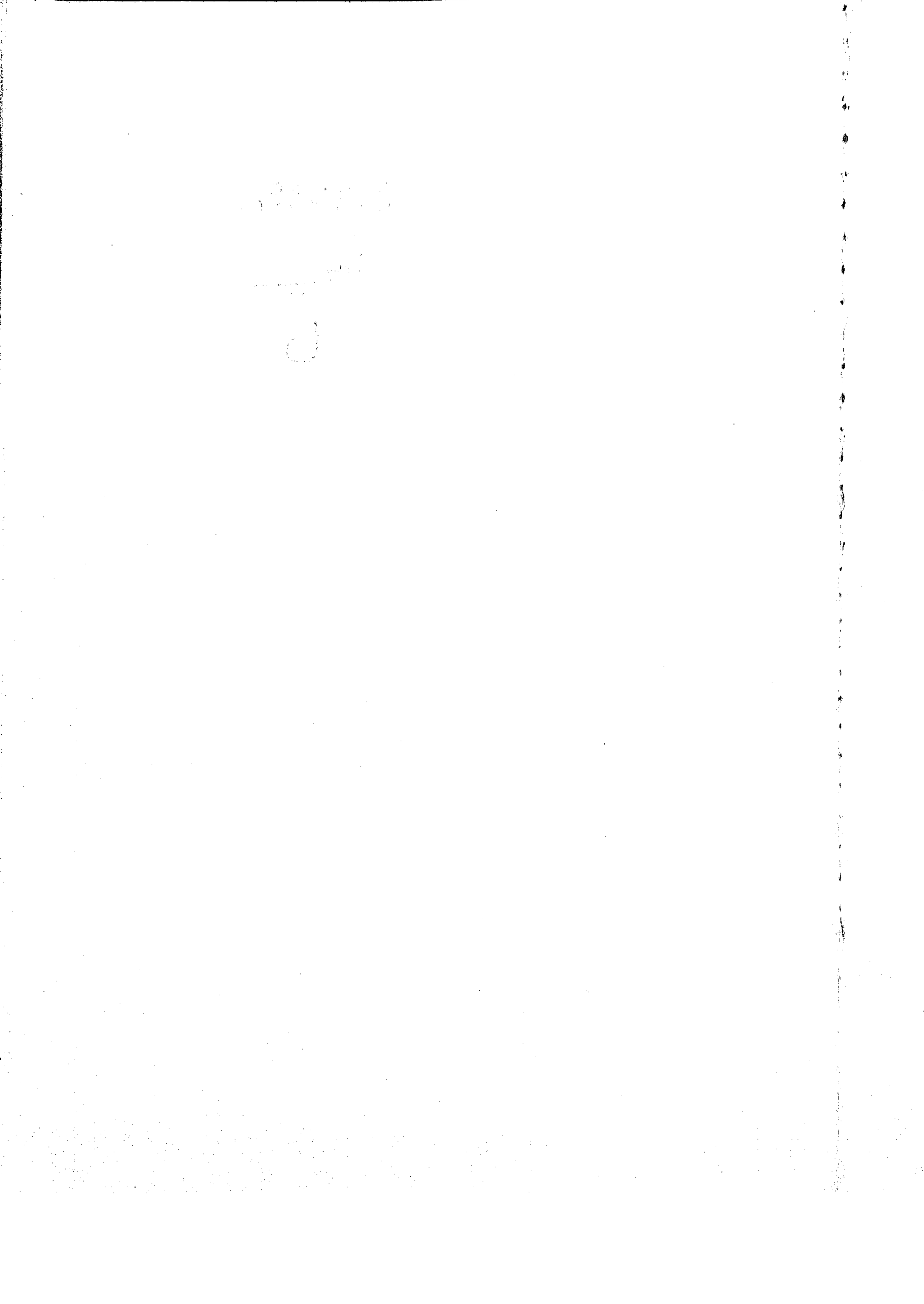
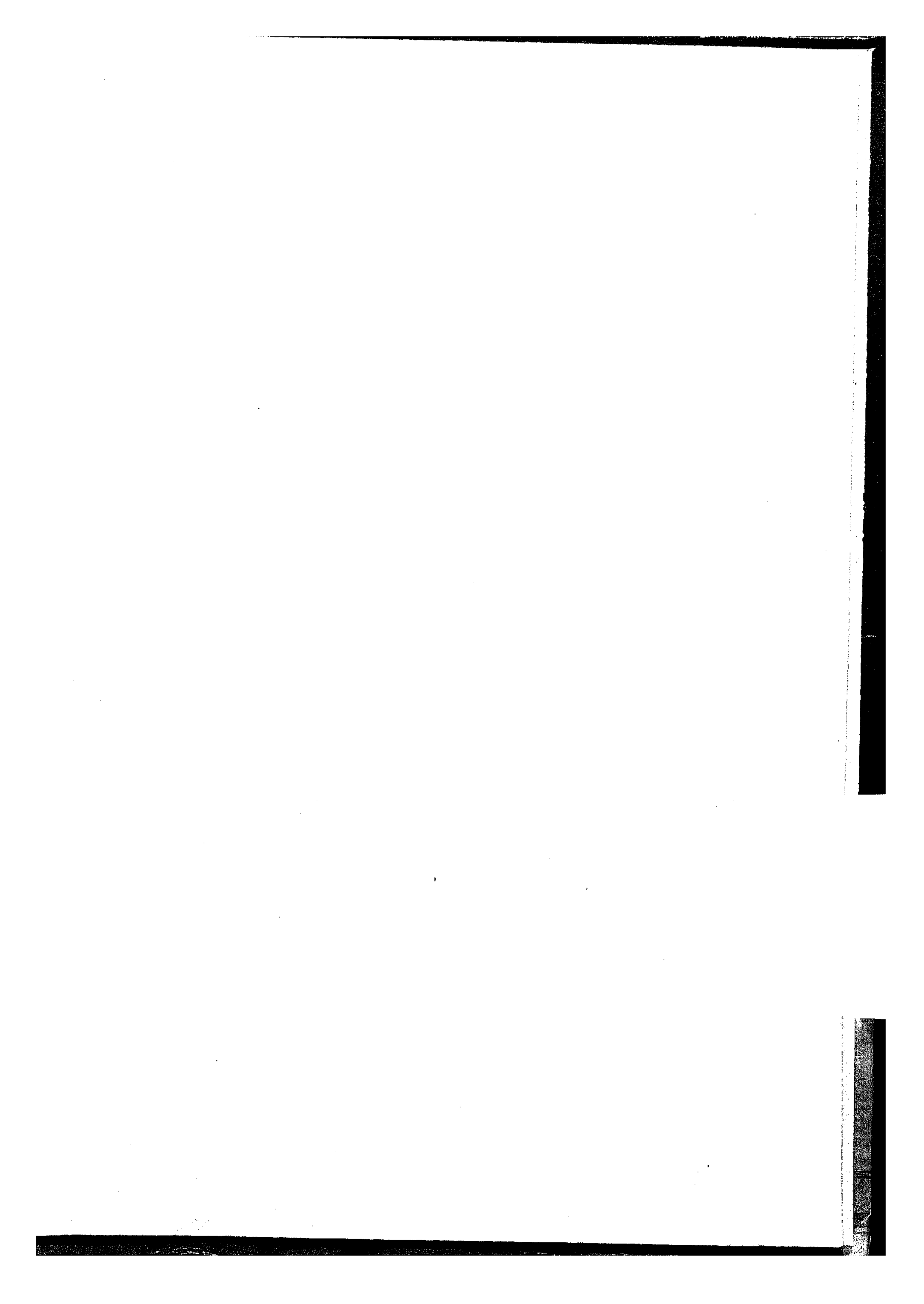
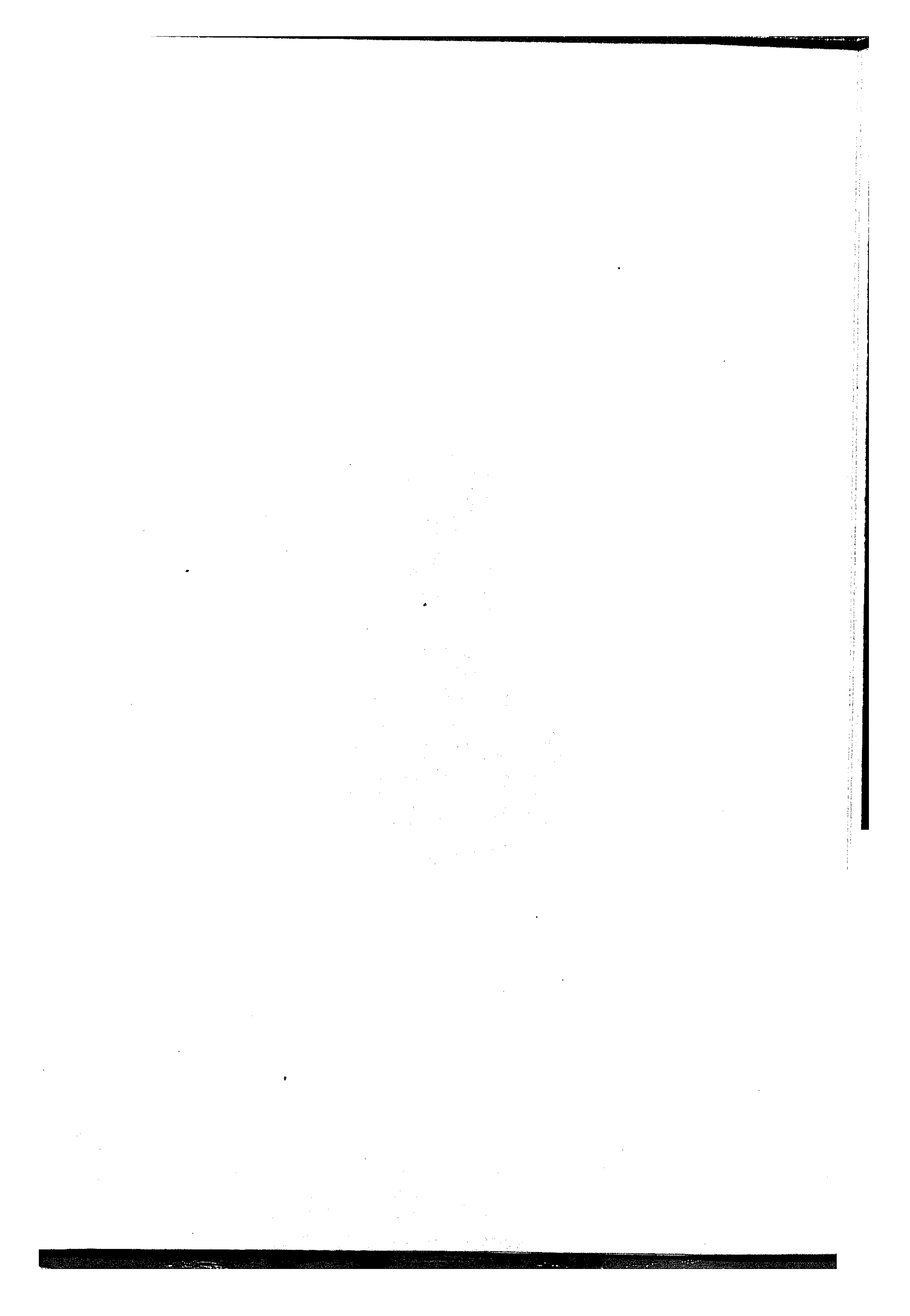




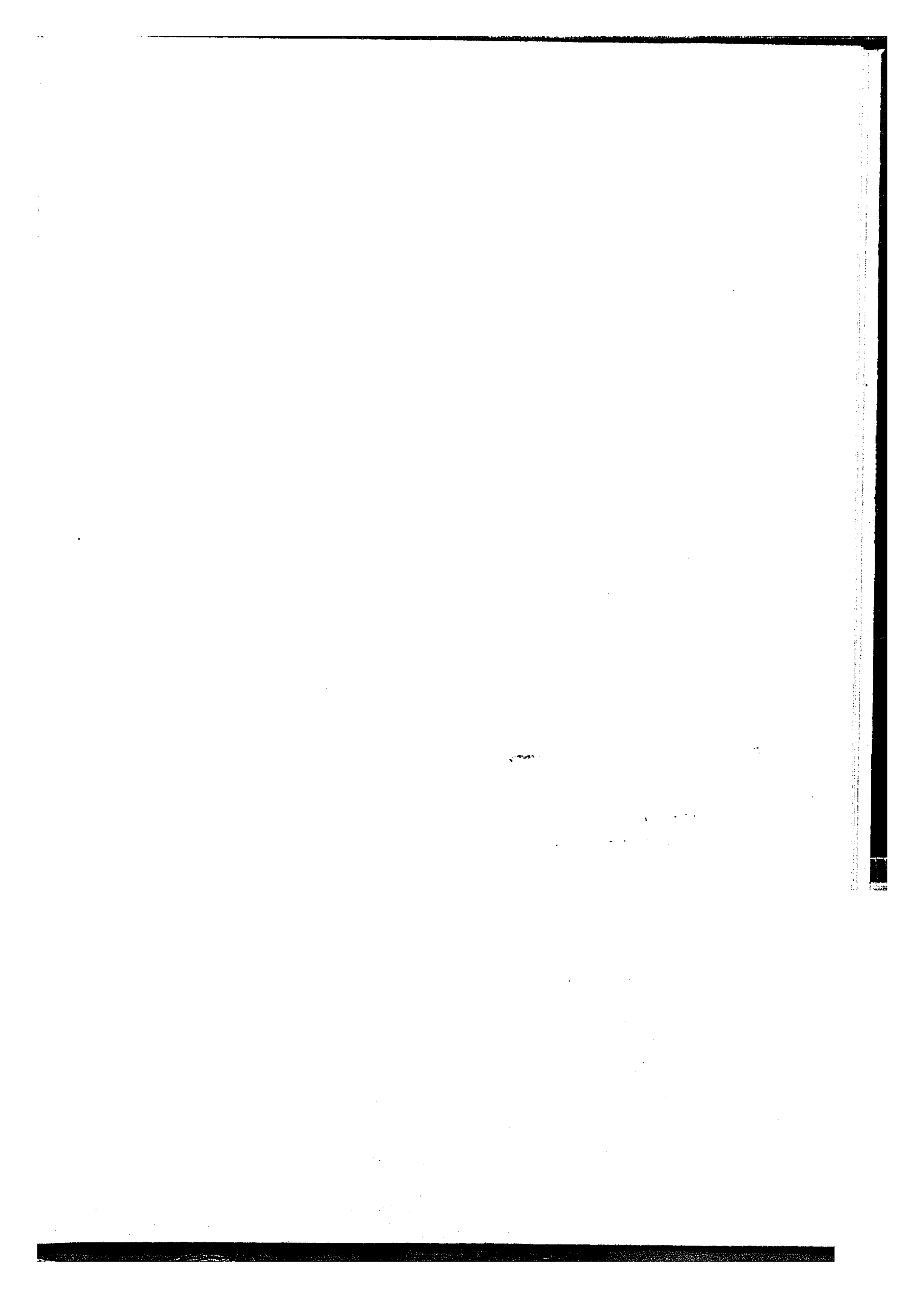





بسم الله الرحمن الرحيم

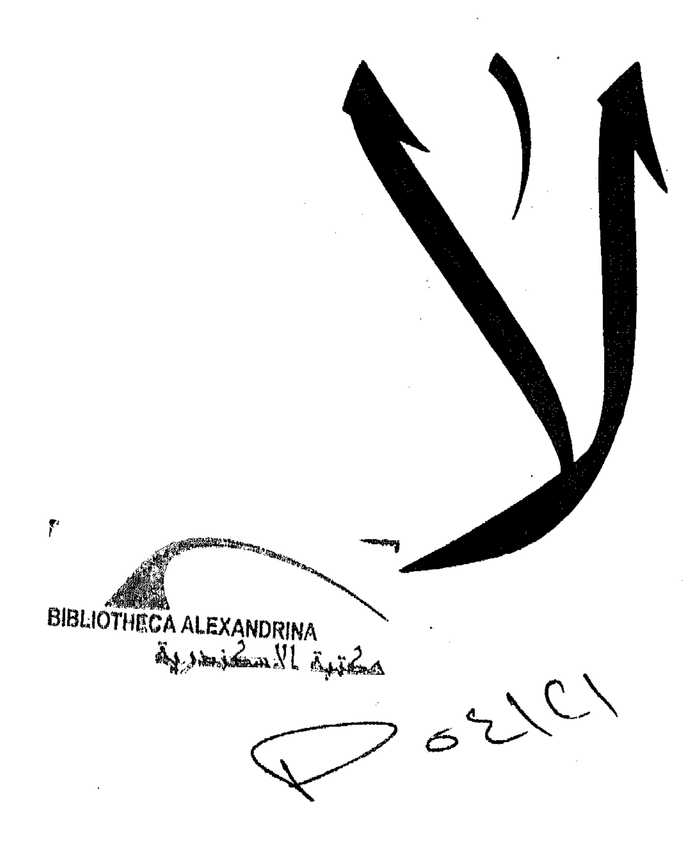


لا



مصطفى أمين

لا



دار الجيل
بيروت - لبنان

دار الجيل
للنشر والتوزيع والطباعة
ص.ب: ٨٧٣٧
بيروت ـ لبنان

الفصل الأول

كتبت هذه القصة في زنزانة طولها ثلاثة أمتار في مترين. نوافذها مغطّاة بالقضبان الحديدية في سجن ليمان طرّه. كان زملائي في السجن يهربون أوراق القصة ورقة بعد ورقة. ويتعرضون للمخاطر. ويتعرضون لأقصى العقوبات. القلم والورق ممنوعان كالحشيش!..

تحية لكل مسجون أو صديق مجهول خارج السجن اشترك في تهريب القصة أو مراجعتها! عدد هؤلاء أكثر من عشرين..

□□□

نفخ الباشجاويش عبد الجبّار في صفارته. دوّى صوت صفيرها المزعج الكئيب في أرجاء السجن العمومي. ثم صاح الباشجاويش في صوت أجشّ، أكثر إزعاجاً من صوت الصفارة: التمام!

وتتابعت صفارات الحراس، كأنها صوت الكَورَس في أغنية بكائية جنائزية، تعلن أن الوقت قد حان لدخول المسجونين إلى زنزاناتهم. كان الحراس ينفخون في صفاراتهم في نغمة آمرة، كأنهم يرددون أمراً إلهياً لا يقبل نقضاً ولا إبراماً. أو كأنهم الملائكة الذين ينفخون في الصُّور يوم القيامة. مع فارق واحد هو أن الملائكة في يوم القيامة يدعون الموتى إلى الخروج من مقابرهم، يعلنون البعث

والنشور، أما الحراس فإنهم يدعون الأحياء للدخول في مقابرهم. المسجون يموت مرة في كل يوم، في مثل هذه الساعة التي يدخل فيها إلى زنزانته، ويغلقون عليه الباب ١٧ ساعة!

وهرع بعض المسجونين نحو غرفهم وتباطأ البعض الآخر. وأسرع آخرون إلى دورة المياه كأنهم يفضلون الهواء الفاسد في دورات المياه على الهواء المخنوق داخل الزنزانات. وانهال الحراس ضرباً وصفعاً على المسجونين الذين يتجهون إلى غرفهم على مهل. إن معنى صفارة الباشجاويش أن يطير المسجون إلى زنزانته لا أن يمشي فوق قدميه!

وأسرع الحراس يغلقون الزنزانات، وهنا بدأت تجارة الهواء!

إنها أغرب تجارة في الدنيا. الهواء مجاني في كل مكان في العالم، أما في السجن فإنه يباع بثمن.. خمس دقائق من الهواء تساوي سيجارة.. عشر دقائق تساوي سيجارتين.. الساعة تساوي علبة سجائر!..

إن الموعد المقرر للإقفال هو الساعة السادسة بعد الظهر. الساعة الآن الثالثة. الفرق بين هذه الساعات هو موعد سوق الهواء. إن المسجون القادر من حقه أن يستمتع بالهواء النقي حتى موعد الإقفال الرسمي. المسجون المعدم يغلق عليه الباب مع صفارة الباشجاويش عبد الجبار!

وكان المسجون عبد المتعال محجوب كالعادة، أول من دخل إلى زنزانته فهو لا يملك سجائر يشتري بها الهواء! ولم تشفع له طاعته وامتثاله لتنفيذ الأمر الإلهي. تقدّم نحوه الحارس حمدان وصفعه على وجهه وهو يقول له: ألم تسمع الصفارة يا ابن الكلب؟

ومسح عبد المتعال من فوق خده أثر الصفعة بيده، واستأنف دخوله إلى زنزانته، بغير أن يعترض أو يفتح فمه، فقد علّمته الأيام التي أمضاها في السجن أن الضرب هو أساس الملك!

وعاد الباشجاويش عبد الجبار يلهث ويقول إن اليوزباشي الضابط شاذلي عبد الجواد يطلب التمام على وجه السرعة، لأن لديه موعداً مع خطيبته للذهاب إلى حفلة الماتينيه في سينما مترو، ولهذا يريد أن يقفل العنبر قبل موعده بساعة..

وأسرع الحراس يغلقون الزنزانات ولم يأبهوا لاحتجاج المسجونين الذين دفعوا ثمن الهواء ولم يقبضوا شيئاً، وساد سكون رهيب في أنحاء العنبر. انصرف المسجونون إلى طهي طعام العشاء. الفقراء يأكلونه بارداً، والمتوسطون يسخنونه على علبة من الصفيح فيها غاز ويسمونها «توتو» والقادرون يطهون طعامهم فوق سخانات يصنعها المسجونون بأيديهم.

□□□

وفجأة سمع المسجونون صوت المفتاح يدور في باب العنبر الحديدي وسمعوا صوت ضجة، وأقدام غليظة تدق الأرض. وسرى الرعب في قلوب المسجونين. لا بد أن هناك كبسة تفتيش. وأسرعوا يطفئون النار، ويخفون «التوتو» والسخانات وكل شيء خفّ وزنه وغلا ثمنه، حتى لا تسحقه أقدام الحراس أثناء عملية التفتيش. لقد تعوّدوا أن يفعل الحراس بهم عند التفتيش ما تفعله جيوش الجراد عندما تهاجم المزروعات!

وصرخ الباشجاويش عبد الجبار بصوته الأجش: فيه غلط في التمام!

وتنفّس المسجونون الصعداء. إنها غلطة في إحصاء المسجونين. فالسجن يقوم بإحصاء المسجونين أربع مرات في اليوم، حتى يتأكد أن أحداً من المسجونين لم يهرب. وتمنّى المسجونون أن يكون أحد منهم قد تمكن من الهرب. إنهم يعرفون أنهم سيدفعون ثمناً غالياً لهذا الهرب. التقاليد أن تحرق كل ملابس المسجونين في السجن، وتداس أطعمتهم بالأقدام، ويحرمون من الرياضة، عقاباً لهم جميعاً لأن واحداً منهم جرؤ على ارتكاب جريمة الهروب. ولكنهم مستعدون أن يتحملوا كل هذا الأذى الجماعي، من أجل أن يستنشق واحد منهم نسيم الحرية!

وبدأ الحراس يحصون عدد المساجين في كل غرفة: ٢٧ مسجوناً، ٣١ مسجوناً، ٢٨ مسجوناً، ٢٥ مسجوناً.. ثم راح الباشجاويش عبد الجبار يقوم بعملية الجمع ويساعده الحراس. وقال الباشجاويش في صوت حزين:

ـ عدد الموجودين ١٦٦٤ بينما عدد المسجونين الرسمي هو ١٦٦٣، يوجد مسجون زيادة!

وضج المسجونون بالضحك. وقال المسجون أبو عوف:
ـ لا بد أن أحد الناس هرب إلى داخل السجن!
ـ الناس عادة تهرب من السجن إلى الحرية!
ـ الدنيا الآن تمشي بالمقلوب.. كان الناس في الماضي يهربون من السجن إلى الحرية، وأصبحوا الآن يهربون من الحرية إلى السجن.
ـ هذا يدل على الإصلاحات العظيمة التي أدخلت في السجون!
ـ ربما السبب هو أزمة المساكن!
ـ السجن هو الفندق الوحيد الذي تجد فيه دائماً أماكن خالية!

- والطعام مجاناً!
- ولا توجد أزمة مواصلات!

وصرخ الباشجاويش عبدالجبار:

- إخرس يا ابن الكلب. . هذا ليس وقت المزاح. إنها مسألة حياة أو موت. يوجد مسجون زيادة!

ودخل الرائد فتحي أبو زيد مأمور العنبر مهرولاً، وصرخ الباشجاويش عبد الجبار «انتباه» بصوت جهوري مرتعش. . وبدأ الرائد يحصي عدد المسجونين من جديد، مرة، مرتين، وثلاث مرات، ثم ضرب كفاً بكف وقال:

- مصيبة كبرى! يوجد مسجون زيادة. . مسجون يزيد على العدد الرسمي!

ثم التفت إلى الحراس وهو يرتجف ويقول:
- المدير الجديد رجل صعب جداً، وسيقدمكم جميعاً إلى مجلس عسكري!

وارتعش الحراس، وراحوا يحصون المسجونين من جديد. . وفي نهاية كل إحصاء يهزون رؤوسهم في ذلة وأسى ويقولون: يوجد مسجون زائد؟

وهنا صرخ الرائد فتحي أبو زيد بصوت كالرعد:

- يوجد هنا شخص مختبىء في زنزانة ليس مسجوناً. . سأعد من واحد إلى عشرة. . إذا لم يخرج هذا الشخص الغريب فسوف أجلد كل المسجونين في العنبر.

وبدأ الرائد فتحي يقول: واحد.. إثنين.. ثلاثة.. ثم يتمهل ويقول: أربعة.. خمسة.. ستة.. ثم يبطىء أكثر: سبعة.. ثمانية.. تسعة... وتوقّف نصف دقيقة ثم صرخ: عشرة!

وتلّفت الرائد حوله فلم يخرج أحد!

وبدأ الرائد يشتم المساجين والحراس، ويهددهم جميعاً بالويل والثبور، وعظائم الأمور!

وانصرف الرائد فتحي، وصرخ الباشجاويش عبد الجبار: انتباه. ورفع الحراس أيديهم المرتعشة إلى رؤوسهم يحيّون القائد عند انصرافه..

وساد عنبر السجن سكون عميق.

وماتت التمتمات فوق الشفاه عندما انطلق صوت الباشجاويش عبد الجبار في زئير مدوٍّ: انتباه!

والمسجونون يستطيعون أن يعرفوا رتبة الضابط الذي دخل العنبر من طول كلمة انتباه.. كلما طالت، دلّ امتدادها على أهمية القادم.. وأحسّوا على الفور أن القادم هو سعادة مدير السجن. وكتم المسجونون أنفاسهم. الذي كان يدخّن أطفأ سيجارته. والذي كان يأكل وقف الطعام في حلقه. والذي كان يتكلم أغلق فمه. والذي كان يطهي رمى الطعام في جردل البول. والذي كان يقرأ في كتاب طواه وأخفاه تحت البرش!

إنها المرة الأولى التي يدخل فيها اللواء فكري القواص إلى عنبر السجن. لقد عينّ في هذا المنصب منذ يومين، خلفاً للواء شاكر عبد المولى مدير السجن الذي توفي بأزمة قلبية. الإشاعات سبقت

المدير الجـديد تؤكـد أنه رجـل عنيف وقاس، غليظ القلب، جـامد العاطفة، حاد النظرات. المسجـونون جميعـاً يتوقعـون أن يجيء الهول مع المدير الجديد..

وقال اللواء القواص وهو ينتفض غضباً:

- اسمعـوا جميعـاً يـا اولاد الكلب! إنني جئت إلى هنـا لأعلق المشانق! يوجد في داخل السجن غريب! هذه جريمة خطيرة، معناها أن شخصـاً غير محكـوم عليه دخـل هنا ليسـاعد في عملية هروب! معناه أنه يوجد شركـاء له! إذا لم يخـرج هذا الشخص الغـريب من الزنزانة فوراً، فسأفتش بنفسي كل زنـزانة! وإذا وجـدته فسـأضرب بالرصاص جميع الموجودين في الـزنزانـة! فسكوتهم عليـه معْناه أنهم شركاء معه. ومعناه أنهم يريدون الهرب بمسـاعدتـه والتعليمات التي عندي أن أطلق الرصاص على كل من يحاول الهرب!

وسكت اللواء القـواص وتوقـع أن يخرج المجـرم الأثيم. أو على الأقل ترتفع بعض الأصوات تشي به. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث على الإطلاق!

ودخل مديـر السجن كل زنـزانة، وفتشهـا تفتيشاً دقيقـاً، وسأل الباشجاويش عبد الجبار عن كل مسجون فكان يؤكد لـه أنه يعـرف جميع المسجونين وليس بينهم أي شخص غريب!

ولم يَنَم السجن في تلك الليلة. ورفض المدير أن يسمح للضباط والحراس بالعودة إلى بيوتهم. وقـال لهم: كل واحـد منكم مقبوض عليه إلى أن تجيئوني بالرجل الغريب الذي دخل خلسة إلى السجن!

لقد راجع المدير بنفسه أسماء المسجونين المسجلين مع الباشكاتب

فوجد أن عددهم طبقاً للدفاتر الرسمية هو ١٦٦٣ مسجوناً. . فمن أين جاء المسجون رقم ١٦٦٤؟

واستمرت عملية المراجعة إلى الصباح. . واستحضرت جميع ملفات المسجونين. . وأحصيت كلها فوجد المدير أنها ١٦٦٣ ملفاً!

وجنّ جنون المدير، وشتم الضباط وشتم الباشكاتب. . ولكن كلٍ ما في القاموس من سباب وشتائم لم يستطع أن يحل اللغز الذي حيّر الجميع. .

وبقي المدير في مكتبه إلى الصباح. . وفي كل ساعة يجمع الضباط ويتجه بهم في طابور طويل إلى العنبر، ويحصي المسجونين من جديد ولكنه كان يجد أن عدد المسجونين لا يزال يزيد واحداً عن العدد المسجل في الدفاتر الرسمية!

وعندما جاء الموظفون في الصباح، وسمعوا نبأ الكارثة التي حلت بالسجن اقترح محمد أفندي معتوق وكيل الباشكاتب أن يراجعوا أسماء المسجونين في العنبر على ملفات المسجونين.

وأعجب المدير بالفكرة، وتصوّر أنها فكرة جهنمية عبقرية، والواقع أن سرّ هذه العبقرية أن معتوق أفندي كان قد نام الليلة السابقة نوماً هادئاً، بينما زملاؤه لم يعرفوا النوم أو يذوقوه ولذلك كان فكره صافياً، بعكس جميع الساهرين الذين احمرّت عيونهم وثقلت رؤوسهم، وتفككت أوصالهم من السهر وعصبية اللواء مدير السجن!

وبدأت عملية مراجعة الملفات على أسماء المسجونين. . وبعد ساعتين صرخ الباشكاتب:

ـ يوجد مسجون اسمه عبد المتعال محجوب في زنزانـة رقم ٢٧٤ ليس له ملف!

وانتفض اللواء القواص وقال للباشكاتب:

ـ إذهب واحضر ملفه!

ـ إنني أحضرت جميع الملفات!

ـ لا بدّ أنك أضعت ملفه.. سوف أحيلك إلى مجلس تأديب.

ـ إن الملفات كلها موجودة في خزانة حـديديـة مفتاحهـا معي، ولا يمكن أن يضيع منها ملف!

ـ اتصل بالمصلحـة واطلب أن ترسـل لنا صـورة من ملف المسجون عبدالمتعال محجوب..

واتجه الباشكاتب، وهو يرتجف إلى الباب، لينفِّذ أمر المدير ولكن المدير صرخ فيه صرخة جعلته يتسمر في مكانه:

ـ اطلب المصلحة من تليفوني الخاص!

ـ سأطلبه من التليفون العمومي.

ـ لا، اطلبـه أمـامي. إنني لا أطمئن لكم. كلكم كـذابـون، مزيفون. أريد أن أسمع المحادثة بنفسي.

وتقدّم الباشكـاتب بخطوات مـرتعشة إلى تليفـون المديـر، وأدار القـرص، وطلب باشكـاتب المصلحـة وسـألـه عن ملف المسجـون عبد المتعال محجوب.

ووضع الباشكاتب يده على سماعة التليفون وقال للمدير هامساً:

ـ إنه يسألني عن السبب، هل أخبره؟

وأراد المدير أن يصرخ، ثم أطبق فمه على الضرخة، وقال هامساً:

- يا حمار! أتريد أن نذهب جميعاً في داهية؟ قل له إنه كان مسجوناً ونسأل عن بعض أوراقه!

ورفع الباشكاتب يده المرتجفة عن السماعة وكرر كلمات المدير كالببغاء.

ووقف الباشكاتب ينتظر في هلع، والسماعة ترتعش في يده، بينما كان اللواء القواص يشتمه ويسبّه، ويهدده ويتوعّده، ويتحدث عن الفوضى والجهل والفساد في عهد المرحوم اللواء شاكر عبد المولى رحمه الله وأسكنه فسيح جناته!

وفجأة لاحظ المدير أن عيني الباشكاتب خرجتا من حدقتيه، اصفرّ وجهه، ارتجفت ساقاه، فتح فمه في ذهول، كاد يسقط فاستند بيده على مكتب المدير.

وسأله المدير في لهفة:

- ماذا حدث؟

وتردد الباشكاتب في أن يجيب.. ثم قال وهو يتلعثم:

- أخبرني باشكاتب المصلحة أنه لا يوجد مسجون بهذا الإسم لا في سجننا ولا في أي سجن في الدولة!

وسقطت سماعة التليفون من يد الباشكاتب. وتقدم المدير ليلتقط السماعة، وما كاد يمسكها بيده حتى رماها كأن يده تكهربت.

وأنقذ الموقف محمد أفندي معتوق وكيل الباشكاتب، وقد كان الوحيد الهادىء الأعصاب بين أعصاب الموجودين المنهارة، وأسرع يضع السماعة فوق آلة التليفون حتى لا تسمع مصلحة السجون فضيحة سجن معتادي الإجرام!

وانتفض اللواء القوّاص واقفاً وهو يصيح:

ـ سوف أذهب بنفسي وأحقق مع المجرم عبد المتعال محجوب!

□□□

وسار اللواء بخطوات سريعة في اتجاه عنبر المسجونين والضباط يهرولون خلفه ودخل المدير إلى العنبر وصرخ الباشجاويش عبد الجبار: انتباه.

وصاح اللواء القوّاص: أين الزنزانة رقم ٢٧٤؟

وتقدم الباشجاويش عبد الجبار وهو يعدو، وفتح باب الزنزانة.. ورأى المدير في ركنها رجلاً ضئيلاً، في ثياب السجن الزرقاء الممزقة، حافي القدمين، مشوش الشعر، رث الهيئة، أشعث اللحية..

وسأله المدير في صوت يبرق ويرعد:

ـ ما اسمك؟

قال الرجل الضئيل وهو يستند إلى الحائط:

ـ عبد المتعال محجوب.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ أقرأ القرآن!

ـ أنا أقصد ماذا تفعل في السجن؟

ـ مسجون!
ـ ما هي جريمتك؟
ـ لا أعرف!
ـ هل يوجد مسجون لا يعرف جريمته؟
ـ ثلاثة أرباع المسجونين لا يعرفون جرائمهم!
ـ أقصد ما هي التهمة؟
ـ لا أعرف!
ـ ما هو الحكم الذي صدر ضدك؟
ـ لا أعرف!
ـ كم مضى عليك في السجن؟
ـ سنة ونصف!
ـ هل معقول أن يوجد مسجون في السجن لمدة عـام ونصف ولا يعرف سبب وجوده في السجن؟
ـ أنا!
ـ ما هي المحكمة التي حوكمت أمامها!
ـ لم أحاكم أمام محكمة!
ـ حوكمت غيابياً؟
ـ لا غيابياً ولا حضورياً!
ـ هل يوضع في السجن مسجونون بغير محاكمة؟
ـ كثيرون!
ـ أنت مجنون!
ـ أتمنى لو كنت مجنوناً!
ـ ماذا كنت تعمل قبل أن تجيء إلى هنا؟
ـ مدير مصنع القاهرة للبسكويت!
ـ لا بد أنك سرقت أموال الشركة!

ـ لم أسرق!

ـ كل المجرمين ينكرون جرائمهم!

ـ إن أحداً لم يوجه إليّ أي تهمة!

ـ ولا النيابة؟

ـ لم أرَ النيابة!

ـ إذا كنت لم تر النيابة قبل المحاكمة، ألا تعرف أن رئيس النيابة يزور السجن كل شهر؟

ـ أعرف ذلك!

ـ اذن لماذا لم تقدم شكوى إليه بأنك محبوس بغير جريمة؟

ـ لأن الضابط يمر معه!

ـ هل يمنعك الضابط من الكلام؟

ـ كلا، الباشجاويش يقول: كل من يشكو لرئيس النيابة سوف أقطم رقبته!

ـ أنت خائف من الباشجاويش؟

ـ أنا خائف من كل شيء.. أنا لم أخالف الشاويش ودخلت إلى السجن، فما بالك إذا خالفت الباشجاويش،

ـ ولكن، من الذي جاء بك إلى السجن؟

ـ جاء إلى بيتي أحد الضباط، وقبض عليّ، ووضع في يدي الحديد، ثم جاء بي في سيارة الشرطة إلى هنا، وسلمني إلى اللواء شاكر عبد المولى مدير السجن السابق، فأمر بأن أخلع ملابسي، وأرتدي ثياب السجن الزرقاء، وأوضع في زنزانة رقم ٢٧٤ في سجن انفرادي بالدور الأرضي.

ـ بغير جريمة!؟

ـ بغير جريمة.. وبغير حكم!

وهنـا تقدم البـاشجاويش عبـد الجبار وانهال ضربـاً وصفعاً عـلى عبد المتعال وهو يصيح فيه:

ـ لا تكـذب عـلى سعـادة البـاشـا يـا ابن الكب! اعـترف! قـل الحقيقة!

وتركه المدير يصفـع عبد المتعـال كما يشـاء.. وعندمـا سقط على الأرض، ركله المدير بقدمه وقال:

ـ اعترف!
ـ ليس عندي ما أعترف به
ـ قل الحقيقة.. إن الذي تقوله لا يصدقه أحد!
ـ لأن الحقيقة لا يصدقها أحد!
ـ لم أسمع أن بريئاً يوضع في زنزانة بالسجن.
ـ لأنك لم تدخل كل زنزانات السجن!
ـ لماذا لم تتقدم بشكوى طوال هذه المدة؟
ـ كتبت حتى الآن ١٨٠ شكوى، بعدد الايام التي أمضيتها هنا!
ـ وماذا حدث نتيجة لهذه الشكاوى؟
ـ إنني هنا!
ـ إذا كـانت إدارة السجن لم تبلغ الشكـاوى، فلماذا لم تكتب إلى أسرتك؟
ـ المـدير السـابق قال إنني ممنـوع من كتـابـة الخـطابـات أو تلقي الخطابات.
ـ لماذا لا تشكو لأسرتك عندما تجيء لزيارتك؟
ـ إنني ممنوع من الزيارات!
ـ إذن أسرتك لا تعرف أنك هنا؟!
ـ لا تعرف طبعاً!

ـ والسجن لا يعرف أنك هنـا، والمصلحة لا تعـرف أنك هنـا، ولا توجد ورقة تقول أنك دخلت إلى هنا!

ـ إذن دعني أخرج من هنا!

ـ هذا أمر صعب جداً

ـ ولكن الدخول إلى هنا سهل جداً!

ـ دخول الحمام موش زي خروجه!

ـ أنت تقول أنه لا يوجد سبب قانوني لبقائي هنا!

ـ ولا يوجد سبب قانوني لإخراجك من هنا!

ـ معنى هذا أنك لا تستطيع أن تفرج عني!

ـ وظيفتي سجان. . أما الإفراج فهو ليس من اختصاصي.

ـ اختصاص من إذن؟

ـ الجهة التي قبضت عليك. . من يملك القبض يملك الإفراج!

ـ وما العمل؟

ـ لن أسكت عـلى هـذه الفـوضى، إن هـذه جـريمـة لا يمكن السكوت عليها!

ـ أشكر لك نبلك وإنسانيتك!

ـ لا بد من تصحيح الأوضاع!

ـ إنك أول رجل عادل قابلته هنا.

ـ أنا رجل أحب النظام. أحب أن يكون كل شيء مضبوطـاً، لا أحب الحال المائل.

ـ إنني أحيي فيك شهامتك!

ـ أعدك بأن أصحح هذا الوضع المقلوب.

ـ سوف تتصل بالوزارة؟

ـ سوف أتولى الأمر بنفسي.

ـ أكثر الله من أمثالك. . ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ سوف أبحث لك عن تهمة!
ـ تهمة؟
ـ نعم! لأنه لا يجوز أن يبقى بريء داخل السجن!
ـ ولكني بريء فعلاً!
ـ ولهذا يجب أن نبحث لك عن جناية!
ـ جناية؟
ـ نعم جناية بسيطة!
ـ تريد مني أن أرتكب جناية؟
ـ لا، يكفي أن تعترف بارتكابها..
ـ لماذا أعترف بارتكاب جريمة لم أرتكبها؟
ـ حتى تكون أوراق السجن مضبوطة!
ـ وهل الطريقة الوحيدة لكي تكون أوراق السجن مضبوطة أن أعترف بارتكاب جريمة لم أرتكبها؟
ـ إنك بهذا تنقذ عشرات الأسر البريئة.. إن معنى اكتشاف وجود شخص غير محكوم عليه في السجن سوف يؤدي إلى قطع عيش الباشكاتب وخمسة من الكتبة وعدد من الضباط!
ـ إنك إنسان فعلاً!
ـ هذه نقطة الضعف الوحيدة فيّ!
ـ ولا يمكن إنقاذ هذه البيوت إلا بخراب بيتي أنا؟
ـ يجب على الفرد أن يضحي في سبيل المجموع!
ـ ولكن وجودي في السجن ليس غلطتي أنا.
ـ ولا غلطتي أنا!
ـ غلطة الحكومة!
ـ الحكومة لا تخطىء. الأفراد وحدهم يخطئون. هل سمعت عن حكومة قدمت إلى محكمة الجنايات؟ هل سمعت عن حكومة

وضعت في السجن؟ هل سمعت عن حكومة علقت في المشنقة؟

ـ لا.

ـ لأن الحكومات لا تخطىء، ولا ترتكب جرائم!

ـ هل يكفي أن أعترف بجريمة لم أرتكبها لأخرج من السجن؟

ـ لا أعدك أن تخرج من السجن، ولكن فائدة هذا أن تسجن لمدة محددة تخرج بعدها من السجن!

ـ وما هي المدة؟

ـ هذا يتوقف على نوع الجريمة؟

ـ ومن الذي سيحكم علي؟

ـ المحكمة!

ـ معنى ذلك أن أحال إلى النيابة، ثم أحاكم، ويحكم علي؟

ـ أنا لا أريد أن أتعبك. ممكن أن يحدث كل هذا وأنت جالس هنا واضعاً ساقاً على ساق!

ـ يا سلام!

ـ والله!

ـ لا أصدق أن هذا ممكن!

ـ كل شيء ممكن.. المهم أن تتعاون معنا لإنقاذ عشرات البيوت من الخراب المحتم.

ـ ما هي الجريمة المطلوب مني الاعتراف بارتكابها؟

ـ جريمة قتل!

ـ إن عقوبتها الإعدام!

ـ إنني أعطف عليك من كل قلبي، ولذلك سوف أختار لك جريمة قتل مشرفة!

ـ ما هي!

ـ القتل دفاعاً عن الشرف!

ـ ولكن أحداً لم يعتد على شرفي!

ـ إنني أفكر في جريمة ترفع من شأنك، وتجعل لك مكانة في المجتمع، وتضمن لك أن القضاء سوف يحكم عليك حكماً بسيطاً . . إنك ثرت لشرفك عندما رأيت رجلاً غريباً يغرر بشقيقتك ويعتدي على عفافها. عندئذ أبت عليك نخوتك وشهامتك إلا أن تقتل هذا الفاسق الحقير!

ـ ولكن ليس لي شقيقات!

ـ إذن اعتدى على أمك!

ـ أمي ماتت منذ عشرين عاماً!

ـ إن لدينا هنا بعض المسجونين انتقموا لشرفهم بعد عشرين أو ثلاثين عاماً!

ـ أنا لا أؤمن بجرائم الثأر!

ـ أنا لا أطلب منك أن ترتكب جريمة . . المطلوب أن تعترف بها!

ـ ومن هو الرجل الذي سأقتله؟

ـ هذه مسألة بسيطة جداً . . ممكن أن أختار لك أي إسم من صفحة الوفيات!

ـ وبماذا سأقتله!

ـ بالرصاص!

ـ أنا لم أحمل مسدساً في حياتي!

ـ إذن ذبحته بسكين!

ـ أنا لم أرَ في حياتي فرخة مذبوحة ولا أطيق أن أراها!

ـ أنت لا تريد أن تتعاون معي من أجل المصلحة العامة!

ـ وهل المصلحة العامة أن أعترف بجريمة لم أرتكبها؟

ـ طبعاً . . لأنه ليس من المصلحة العامة أن يوجد في السجن رجل غير محكوم عليه ولم يرتكب جريمة!

ـ المفروض أن تعترفوا أنتم بجريمة ارتكبتموها فعلاً.. لا أن أعترف أنا بجريمة لم أرتكبها!

ـ لقد كنت أتصور أنك مواطن صالح!

ـ إنني على استعداد لأن أفعل ما يفعله المواطن الصالح.

ـ ألم تسمع عن اليابانيين الذين يقتلون أنفسهم من أجل «الامبراطور»؟ ألم تسمع عن الذين يضحون بحياتهم من أجل بلادهم؟

ـ إنني مستعد لأن أنتحر..

ـ انتحارك لن يحل المشكلة!

ـ سوف يصبح عدد المسجونين مضبوطاً!

ـ وسوف يثير مشكلة أكبر!

ـ ما هي المشكلة؟

ـ مشكلة جثتك! إن خروج الجثة من السجن له إجراءات وقواعد.. وسوف تسأل المصلحة كيف دخلت الجثة إلى هنا! إن هذا سوف يجعل الموقف أسوأ مما هو الآن!

ـ اذن الحل أن أهرب!

ـ تهرب؟ هل أنت مجنون؟ إن معنى هروب مسجون من السجن أن يفقد مدير السجن منصبه، أو أن تفوته الترقية ولو كان له صداقات مع ولاة الأمور!

ـ لن أعترف بجريمة لم أرتكبها!

ـ إنك لا تعرف مصلحتك يا عزيزي عبد المتعال. إن اعترافك سوف يجعلني آمر المخبز أن يصرف لك يومياً ثلاثة أرغفة بدلاً من رغيفين!

ـ هل أبيع حريتي برغيف؟

ـ ما أكثر الذين فقدوا حريتهم من أجل هذا الرغيف!

ـ كل ما في الدنيا من طعام لا يساوي يوماً يمضيه المسجون في السجن!

ـ سوف آمر المطبخ أن يصرف لك لحماً كل يوم!

ـ لم أكن أعرف أن لحم الانسان يساوي لحم الخروف!

وتجهم وجه مدير السجن وقال في غضب:

ـ إنني صبرت عليك كثيراً.. الذوق والانسانية والرحمة لا تنفع مع أمثالكم.. الكلمات الطيبة لا تقنعكم السوط وحده هو الذي يستطيع أن يتولى إقناعكم!

الفصل الثاني

جلس عبد المتعال في زنزانته غارقا في ذهوله.

لم يستطع أن يغمض عينيه وينام دقيقة واحدة.

لا يريد أن يصدق أذنيه بأنه مطلوب منه أن يختار تهمة، ويحتضن جناية، ويعترف بجريمة لم يرتكبها، كل هذا ليخرج من السجن!

ويا ليته سيخرج في الحال. إن عليه أن يمضي مدة العقوبة على الجريمة التي يختارها!

أيكون يحلم؟ أم أنه فقد عقله، وأصبح يتوهم أموراً لا حقيقة لها؟

أيكون المدير قد دخل زنزانته فعلاً؟ أيكون قد قال كل ما سمعه؟ أم أنه من هول السجن أصبح يتخيل أشباحاً تتكلم؟.

ولكنه على ثقة من أن المدير دخل زنزانته. والدليل على ذلك هو الآثار الزرقاء والخضراء والحمراء التي تركتها عصا الباشجاويش عبد الجبار على ذراعيه وبطنه وساقيه.

إن هذه العلامات ليست وهماً. هذه الآلام المبرحة ليست

خيالاً . . لا يمكن أن يكون المدير يمزح معه ويطلب إليه أن يصحح غلطة ارتكبتها إدارة السجن بالاعتراف بجريمة لم يرتكبها .

لقد قرأ عشرات القصص عن الظلم ، ولكنه يرى لأول مرة نوعاً جديداً من الظلم لم يسمع عنه ، ولم يتخيله !

واستيقظ عبد المتعال من ذهوله على صوت المفتاح وهو يدور في باب الزنزانة ، ورأى سيد أفندي رجائي الباشكاتب ومحمد معتوق أفندي وكيل الباشكاتب يدخلان عليه .

كانا يمشيان على أطراف أصابعهما فلم يتنبه لاقترابهما من باب الزنزانة .

ولم يصرخ الباشجاويش (انتباه) كما جرت العادة عند دخول زائرين الى العنبر .

ونظر إليه الباشكاتب في ضيق واكتئاب وقال له :

ـ هل جننت يا عبد المتعال؟ لقد كنت أظن أنك رجل طيب .
ـ أنا لم أفعل شيئاً !
ـ أنت أغضبت سعادة الباشا المدير !
ـ أنا؟؟ . .
ـ نعم . لأنك رفضت أن تعترف بالحقيقة ! !
ـ إن المدير يريد مني أن أوقع علي شيء غير حقيقي !
ـ عندما يقول المدير شيئاً غير حقيقي يصبح هو الحقيقة !
ـ ولكني لم أرتكب جريمة !
ـ ما دام المدير قال إنك ارتكبت جريمة فلا بد أنك ارتكبتها !
ـ حتى ولو لم أرتكبها؟

ـ طبعاً . .
ـ هذا شيء لا يرضي الله !
ـ ألم يطلب الله منا أن نطيع أولياء أمورنا؟
ـ نعم طلب ذلك . .
ـ في السجن . . الباشا المدير هو ولي أمرك!
ـ لم أكن أعرف ذلك!
ـ لأنك لم تمضِ في السجن مدة كافية!
ـ أنا مظلوم!
ـ إخرس! إياك أن تذكر هذه الكلمة البذيئة على لسانك مرة أخرى!
ـ ألا أستطيع أن أقول إنني مظلوم!
ـ معنى أنك مظلوم أن هناك ظالماً! وهذه إهانة لا يمكن أن نقبلها! هذا اتهام باطل لقومٍ مهمتهم أن يحافظوا على القانون!
ـ الصدق أصبح جريمة!
ـ الصدق مسألة نسبية! كل شيء تقوله الحكومة هو صدق. كل شيء يقوله المخالف للقانون هو كذب!
ـ أنا لم أخالف القانون!
ـ القانون يقول أنه لا يجوز وضع أحد غير محكوم عليه في السجن!
ـ أنا لم أضع نفسي في السجن.
ـ أنت دخلت السجن بغير إذن!
ـ إنني دخلته مقيداً بالأغلال!
ـ هذه ليست مسؤوليتنا . . إنها مسؤوليتك أنت!
ـ ماذا كنت أفعل؟
ـ تجيء معك بالحكم الصادر ضدك!

ـ ولكني لم أقدم للمحاكمة. . ولم يصدر حكم ضدي!

ـ هذه غلطتك!

ـ غلطتي أنا؟

ـ والدليل أنها لم تحدث قبل هذه المرة؟

ـ يرضى القتيل وليس يرضى القاتل!

ـ إننا لم نقتلك. . أنت الذي قتلت نفسك بنفسك عندما خدعت السجن ونصبت عليه وأقمت في زنزانة عاماً ونصف العام، تسكن مجاناً، وتأكل مجاناً. . إن الدولة أنفقت عليك في هذه المدة آلاف الجنيهات!

ـ لم أعرف أن نفقات الإقامة في السجن أكثر من نفقات الإقامة في فندق شبرد!

ـ أكثر من فندق شبرد. . لا تنس مرتبات حضرات الضباط والحراس. . إن كل هذا محسوب عليك!

ـ إنني مستعد أن أدفع نصيبي من هذه النفقات وأخرج!

ـ إنها جريمة اختلاس أموال أميرية، وجريمة دخول بناء حكومي بغير إذن، وجريمة نصب على الدولة، وجريمة تزوير في أوراق رسمية!

ـ ولكن المدير يقول إنه لا توجد أوراق في السجن تقول أنني مسجون فكيف أكون قد زورت أوراقاً غير موجودة؟

ـ وجودك في هذا المكان دليل مادي على التزوير.

ـ إن المدير طلب مني أمس أن أختار تهمة. . وأنت تجيء لي الآن بأربع تهم!

ـ لأنك أغضبت الباشا المدير!

□□□

وهنا تدخّل محمد أفندي معتوق وكيل الباشكاتب يحاول أن يلطف الجو، فقال لعبد المتعال:

ـ يجب أن تشكر حضرة الباشكاتب.. لقد دخل بنفسه عند الباشا المدير وتشفع لك، وبعد أن كاد يقبل قدم الباشا سامحك وغفر لك!

ـ إذن لم يعد مطلوباً مني أن أعترف بجريمة لم أرتكبها.

ـ إن الباشا المدير رجل رحيم، وقلبه كبير، ولا يحب أن يؤذي إنساناً، ولهذا لم يتمسك بأن تعترف بأنك قتلت أحداً دفاعاً عن الشرف، لقد قال لنا فعلاً إن هذا الرجل طيب ولا يبدو عليه أنه قاتل أو سفاح.. ولو كنت قاضياً لبرأته على الفور من تهمة القتل دون أن يفتح فمه..

ـ ما دامت ثبتت براءتي من تهمة القتل فسوف تخرجونني من هنا.

ـ طبعاً!

ـ لا أعرف كيف أشكر لكم هذا النبل.. أنا سعيد بأن المدير مقتنع ببراءتي من تهمة القتل.

ـ بشرط؟

ـ إنني مستعد لقبول شروطكم!

ـ بشرط أن تعترف بتهمة أخرى!

ـ تهمة أخرى؟؟

ـ الباشا المدير لن يفرض عليك تهمة معينة.. إنني جئت لك بقانون العقوبات، وأنت حر في اختيار أي تهمة تشاء.

ـ هذه حرية عجيبة!

ـ الحرية هي حق الاختيار!

ـ شيء ظريف!

ـ اشكر الله أنه هيأ لك مثل هذا المدير التقي الـورع. لقد مضى علـي وأنا أعمـل في المصلحة ثـلاثين عـاماً، ولم أشهـد مديـراً يمنح مسجوناً حرية الاختيار!

ـ تماماً كما لو أعطاني المدير حرية أن أموت كيف أشـاء، أضرب نفسي بـالـرصـاص، أو أعلق نفسي في الحبـل، أو ألقي بنفسي من النافذة!

ـ نعم.. هذا هو الفرق الوحيد بين الحرية والاستبداد!

ـ فرق عظيم جداً!

ـ ها هو قانون العقوبات بـين يديـك.. فيه ٣٩٥ مـادة.. ومن حقك أن تختار المادة التي تعجبك!

□ □ □

ونـاول الباشكـاتب سيد أفنـدي رجائي قـانـون العقـوبـات إلى المسجـون عبد المتعـال محجوب، وأمسـك عبد المتعـال القانـون بيد مرتعشة، وقلب صفحاته، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة وقال:

ـ اخترت المادة ٣٨٧

ـ بارك الله فيك! لقد قلت للباشا المدير لا بد أنك ستتعاون معنا لتكون أوراق السجن مضبوطة!

وأمسك الباشكـاتب بقانـون العقوبـات وقرأ المـادة ٣٨٧ فتجهم وجهه، ورفع ذراعه وانهال على عبد المتعال صفعاً وضرباً وهو يقول له:

ـ يا أفاق! يا نصاب! أتريد أن تضحك على الحكومة؟ هـل تظن أننا أطفال أمامك تعبث بنا، وتضيع وقتنا؟

ـ إنني اخترت مادة في قانون العقوبات كما طلبت مني!

ـ إنك اخترت مادة، تقول: «يجازى بغرامة لا تتجاوز خمسة وعشرين قرشاً مصرياً من زحم الطريق العام بلا ضرورة أو بلا إذن من جهة الاقتضاء»!! إن هذا تزوير!

ـ أنا لم أزور شيئاً. إن هذه مادة موجودة في قانون العقوبات..

ـ ولكننا نريد مادة تعاقب بالحبس؟

ـ إذن أختار المادة ٣٨٠

ـ إنها (تعاقب بالحبس مدة لا تزيد على خمسة أيام، على من يحصل منه في الليل لغط يكدر راحة السكان)!

ـ هأنتذا ترى أنني اخترت مادة فيها حبس!

ـ إنك مسجون هنا منذ عام ونصف العام.. فماذا نقول عن المدة الزائدة التي أمضيتها في السجن؟ المطلوب منك أن تختار جريمة.. لا مخالفة!

ـ اختر لي المادة التي تريدها!

ـ ما رأيك في المادة ٧٧؟

ـ ماذا تقول؟

ـ «يعاقب بالإعدام كل من ارتكب عمداً فعلا يؤدي إلى المساس باستقلال البلاد»!

ـ أعوذ بالله!

ـ إنني وجدت مادة تنطبق على حالتك.. إن بختك من السماء!

ـ ما هي هذه المادة؟

ـ المادة ٩٠ مكرر.. «يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة، أو المؤقتة كل من حاول بالقوة احتلال شيء من المباني العامة، أو المخصصة لمصالح حكومية»!

ـ ولكني لم أحتل مبنى عاماً!

ـ دخولك إلى السجن بغير تصريح هو احتلال!

ـ ولكني لم أستعمل القوة عندما دخلت السجن!

ـ إن دخـولك إلى هنـا معناه أنـك اقتحمت السجن. . إذ كيف يمكن أن تدخل إلى هنـا بغير إذن بـرغم وجود الحـراس المدججـين بالسلاح؟

ـ أرجـوك أن تبحث لي عن جـريمة بسيـطة. مـا رأيـك في أنني هتفت بسقوط الحكومة؟

ـ إن عقوبتها الإعدام!

ـ أعوذ بالله!

ـ وجدت لك جريمة تعجبك!

ـ الجرائم كلها لا تعجبني؟

ـ لا. . هذه جريمة تعجبك! «من واقع أنثى بغير رضاها يعـاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة»!

ـ إنها جريمة بشعة!

ـ عثرت لك على جريـمة أبسط. . «كل من هتـك عرض إنسـان بـالقوة أو بـالتهديـد أو شرع في ذلك يعـاقب بالأشغـال الشاقـة من ثلاث سنين إلى سبع»!

ـ لا، يفتح الله!

ـ أنت رجل متعب جداً. . لا يعجبك العجب!

ـ ألا توجد جريمة عقوبتها سنة ونصف؟

ـ بختك من السماء! وجدت في قانـون العقوبـات مادة تـرضيك وترضي الادارة. . إنها المادة ٢١٦ التي تعاقب كل من تسمى بإسم غير اسمه الحقيقي. .

ـ وما هي عقوبتها؟

ـ مدة لا تزيد على سنتين!
ـ يا بلاش!
ـ إنك ولدت في ليلة القدر.. تعترف الآن بأنك ارتكبت هذه الجريمة وعليه نحصل لك على حكم بالسجن عامين!
ـ خليها سنة ونصف!
ـ الحكومة لا تساوم.. سنتين يعني سنتين!
ـ أي أنني أخرج من هنا بعد ستة أشهر..
ـ نعم.. وتمر الشهور الستة بسرعة كأنها ستة أيام!
ـ إنك رجل كريم فعلاً!
ـ إنها توصية سعادة الباشا المدير فيجب أن تشكره!
ـ إنني أشكره من كل قلبي!
ـ إن المدير مصمم على أن يكافئك على تعاونك معنا لتصبح أوراق السجن سليمة ومضبوطة!

□□□

وتنهد عبد المتعال وقال:

ـ إنه وعدني برغيف خبز زيادة، وبأن أحصل على لحم من المطبخ..

فقال الباشكاتب:

ـ إن كرم المدير فوق مستوى تصورك.. لقد أمرنا أن نكرمك ونعاملك معاملة ممتازة!
ـ هل ستزيد الرغيف إلى رغيفين؟
ـ أكثر، أكثر.. إنك رجل متواضع ولا تعلم قدرك عندنا!
ـ الله يحفظكم!

ـ المدير أمر أن نزوجك!
ـ تزوجوني أنا؟
ـ طبعاً.
ـ لقد سمعت أن السجون في فرنسا وانجلترا في الماضي كانت تسمح للمسجونين أن يتزوجوا، ويجيئوا بزوجاتهم ليعشن معهم داخل السجن..
ـ هذا ممنوع عندنا..
ـ هل أتزوج مسجونة من سجن النساء؟
ـ لا.. تتزوج مسجوناً.
ـ أتزوج رجلاً!
ـ نعم.
ـ هذا غير معقول.
ـ في الماضي كان يباح للمسجون أن يعقد قرانه على مسجون آخر، بموافقة ضابط العنبر، ويزف إليه، ويقام له فرح يشترك فيه جميع المسجونين.. وقد انتهى هذا النظام.. ولكن من أجل عينيك قرر المدير أن يسمح لك أن تتزوج على سبيل الاستثناء، ما دمت تعاونت معنا لتكون أوراق السجن مضبوطة!
ـ أشكر المدير.. فأنا رجل متزوج فعلاً.
ـ متزوج من مسجون؟
ـ لا.. من مسجونة في بيتي خارج السجن.
ـ لا.. أوامر الباشا المدير هي أن تتزوج داخل السجن.
ـ أنا أكره الشذوذ.
ـ الشذوذ هو قاعدة في السجن!
ـ أنا أشكر المدير..

ـ المدير رجل ذو أخلاق.
ـ هذا واضح جداً!
ـ وما عليك إلا أن تختار مسجوناً.. ونحن نزوجك إياه!
ـ أنا لا أعرف المسجونين المصابين بالشذوذ الجنسي.
ـ ليس مهمًّا أن يكون مصاباً بالشذوذ الجنسي.. إن من حقك أن تختار مسجوناً بكراً!
ـ بكر؟
ـ نعم.. والمدير يأمره أن يتزوجك.
ـ هذه جريمة!
ـ جريمة خارج السجن فقط.
ـ وإذا رفض المسجون؟
ـ هنا لا يستطيع مسجون أن يرفض أمر المدير.
ـ إنني أفضل الرغيف الزائد وطبق اللحم!
ـ يمكنك أن تبيع العروسة؟
ـ أبيعها؟
ـ نعم.. إنه بعد الزواج يصبح المسجون ـ العروسة ـ من حقك وحدك، ولا يستطيع أحد أن يشاركك فيه.. وأنت حر أن تفعل بعروسك ما تشاء.. يمكنك أن تبيعها مثلا بمائة علبة سجائر!
ـ رخيصة .. والله!
ـ أنت وشطارتك!

□□□

ـ أرجوكم أن تعفوني من هذا.
ـ إنك ترفس النعمة!
ـ كل ما أريده أن أخرج من هنا.

ـ نحن نريد أن تخرج منعماً مكرماً.
ـ أفضل أن أخرج من هنا بمبادئي!
ـ نحن نريد أن تخرج عريساً!
ـ يكفي أن أرتكب جريمة واحدة.
ـ إذا أردت سجائر حشيش نحن تحت أمرك!
ـ حشيش هنا!
ـ وأفيون كمان..
ـ ومن أين تجيئون بالمخدارات؟
ـ من المضبوطات..
ـ هذا شيء لم أسمع به!
ـ أنت كالأطرش في الزفة!
ـ إنني أسمع أن المسجونين الذين يضبط معهم حشيش يقدمون إلى محكمة الجنايات.
ـ الذي معه سيجارة حشيش يقدم للمحاكمة.. أما تاجر الحشيش الكبير في السجن فلا يتعرض له أحد!
ـ هذا شيء غريب!
ـ إن ما يحدث خارج السجن هو نفس ما يحدث في السجن!
ـ إذا كان من حقكم أن تخالفوا القانون كما تشاؤون فلماذا لا تخرجون بريئاً من السجن؟
ـ كله.. إلا هذا!
ـ ومكتوب على باب السجن أنه للتأديب والتهذيب والإصلاح!
ـ تماماً كما يسمي صبي القهوة الفنجان الفارغ بالفنجان الملآن!
ـ كل هذا مباح!
ـ ما دام الورق مضبوطاً.. المفتشون لا يهتمون إلا بالورق.. لا يتفقدون إلا الورق.. وما دام الورق سليماً فكل شيء سليم!

ـ والبشر؟
ـ أعداد مكتوبة في الورقة!
ـ هذا شيء عظيم!
ـ هذا هو النظام!

□□□

وأخرج الباشكاتب قلمه الحبر من جيبه، وناوله وكيل الباشكاتب عدداً من الأوراق، وبدأ الباشكاتب يكتب بسرعة مذهلة، كأنه متعود على كتابة الاعترافات الملفقة طول حياته..

ووقع عبد المتعال إقراراً بأنه يعترف بارتكاب جريمة التسمي باسم غير حقيقي!

ثم وقع إقراراً بالعلم بالحكم الذي صدر عليه بالسجن عامين..

والتفت عبد المتعال إلى الباشكاتب وسأله:

ـ ولكن من الذي سيصدر الحكم؟!
ـ هذه مسألة ليست من شأنك!
ـ المفروض أن محكمة الجنايات هي التي تصدر الحكم!
ـ ما دمت وقعت بعلمك بصدور الحكم فهذا يكفي!
ـ وأين الحكم؟
ـ ضاع!
ـ وإذا سأل المفتش عن الحكم؟
ـ عقوبة فقد الحكم من الملف هي لفت النظر أو خصم ثلاثة أيام!

ـ وتقدم محمد أفندي معتوق وكيل الباشكاتب، ومد يده إلى المسجون عبد المتعال، وصافحه، وهو يشد على يده عدة مرات ويقول:

ـ مبروك!

ـ مبروك على ماذا!

ـ لقد أصبحت سجيناً بصفة رسمية!

□□□

وعاش المسجون عبد المتعال بضعة أسابيع في بحبوحة.

ثلاثة أرغفة تصل إليه يومياً، بغير أن يضطر أن يزاحم زملاءه من أجل أن يحصل على حقه..

كل رغيف كامل ونظيف، ليس مليئاً بالأتربة، ولا أسود اللون، كما اعتاد أن يتسلم قبل أن يتعاون مع إدارة السجن.

في كل يوم يحضر إلى الزنزانة مسجون من المطبخ يحمل إليه نصيبه من اللحم.

الباشجاويش عبد الجبار لم يعد يصفعه على قفاه إلا مرة كل يوم. بعد أن كان يصفعه عشر مرات في اليوم الواحد!

الإشاعات تملأ العنبر عن هذا العز الذي يعيش فيه عبد المتعال..

بعض الناس يؤكدون أنه قريب الباشا المدير، وبعض المسجونين يقسمون أنه (خباص) المدير، وأن هذا الرغيف وطبق اللحم هو أجره من التقارير التي يكتبها ضد زملائه من المسجونين!

وفوجىء عبد المتعال بزملائه يقدمون له السجائر، ويرسلون له الأطعمة، وكأنهم يشترون بها سكوته، حتى لا يبلغ المدير عن بيعهم للشاي، أو اتجارهم في الممنوعات..

□□□

وفجأة، اهتزت أركان السجن على صرخة الباشجاويش عبد الجبار الملتاعة وهو يصيح: انتباه!

ودخل اللواء القوّاص مدير السجن والشرر يتطاير من عينيه، وصاح بصوت كالرعد:

ـ أين الكلب ابن الكلب المذنب عبد المتعال محجوب؟
وارتاع عبد المتعال.. تسمر في مكانه.

وتقدم نحوه الباشجاويش عبد الجبار يدفعه بعنف وقسوة إلى حيث يقف المدير..

وصرخ فيه المدير في غضب:

ـ يا كذاب! يا نصاب! يا أفاق! يا مزور!

وارتعش عبد المتعال.. وقف مذهولاً لا يعرف ماذا يفعل أو ماذا يقول!؟

وعاد المدير يزأر: ما اسمك؟!

قال عبد المتعال وهو يرتعد:

ـ عبد المتعال محجوب
ـ ماذا كانت صناعتك قبل أن تدخل السجن؟

ـ مدير شركة مصر للبسكويت!
ـ كذاب! نصاب! مزور!
ـ أنا؟ . .
ـ نعم: إن عبـد المتعال محجـوب مديـر شركة مصر للبسكـويت مات! . .
ـ مات؟
ـ نعم مـات. . هذا نعيـه منشور منـذ أكثر من عـام في صفحـة الوفيات في جريدة «الاهرام»!

الفصل الثالث

أمسك المسجون عبد المتعال محجوب نسخة جريدة «الاهرام» بيده المرتعشة، وانحنى على صفحة الوفيات، وحملق بذهول في كلمات النعي المنشورة.

قرأ في رعب نبأ انتقاله إلى رحمة الله إثر حادث أليم!

هذا هو اسمه فعلاً. عبد المتعال محجوب! ربما تشابهت الأسماء؟ وربما أنه ليس «عبد المتعال محجوب» الوحيد في مصر؟ قد يوجد كثيرون يحملون نفس الإسم!

ولكن الجريدة تقول في النعي أنه مدير شركة مصر للبسكويت، ولا يوجد في مصر إلا شركة واحدة إسمها شركة مصر للبسكويت. قد يخلق الله من الشبه أربعين، ولكن من المستحيل أن توجد في مصر شركتان باسم واحد. وخطر بباله خاطر أبعده على الفور، فغير معقول أن تكون الشركة عينت بعد اختفائه مديراً جديداً يحمل نفس الإسم!

وما لبث أن ارتجف عندما وجد أن النعي يقول أن الجنازة شيعت من دار الفقيد رقم ٢٣ شارع أبو الفدا بالزمالك. إن هذا هو عنوان بيته بالضبط، نفس الشارع، نفس الرقم، نفس الحي.

وهو يعرف جميع أسماء سكان العمارة، وليس فيهم سواه يحمل إسم عبد المتعال محجوب!

إنه فعلاً الذي انتقل إلى رحمة الله في حادث أليم. فالنعي يذكر أن المتوفى هو زوج السيدة خديجة مراد حسين ابنة المرحوم مراد بك حسين سكرتير عام وزارة الأشغال. هذا هو اسم زوجته. واسم حميه، ولا يمكن أن تكون زوجته تزوجت برجلين كل منهما يحمل اسم عبد المتعال محجوب!

وفوجىء بأن الجريدة تقول أن جنازته شيعت في موكب مهيب يتقدمه حافظ سري بك سكرتير حضرة صاحب الدولة شفيق باشا فتحي رئيس مجلس الوزراء، نائباً عن دولته!

واضطرب عبد المتعال. إنه لا يعرف رئيس الوزراء، ولا رئيس الوزراء يعرفه، فكيف أرسل مندوباً لتشييع الجنازة؟ لا بد أن الدولة اكتشفت أهميته بعد انتقاله إلى رحمة الله.. أو أن رئيس الوزراء كان يأكل بسكويت الشركة كل صباح، ولهذا أرسل مندوباً لتشييع جنازة المدير الفقيد.

وبينما كان عبد المتعال منهمكاً في قراءة تفاصيل وصف جنازته فوجىء بصوت المدير يصرخ فيه قائلاً:

ـ لماذا سكت يا ابن الكلب، يا مزور، يا أفاق، يا نصاب!!

وأحس عبد المتعال بأن صرخة الباشا المدير أنزلته من السماء إلى الأرض، فاصفر وجهه، وماتت الكلمات على شفتيه..

وعاد المدير يقول له وهو يجز على أسنانه:

ـ إنك مجرم معتاد الإجرام!

قال:

ـ هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها السجن!
ـ كبار المجرمين لا يدخلون السجن عادة!
ـ أنا لم أفعل أي شيء!
ـ أنت ادعيت كذباً أنك المرحوم عبد المتعال محجوب!
ـ أقسم لسعادتك أنني المرحوم!
ـ إخرس.. تقسم بالله كذباً؟
ـ المرحوم هو أنا.. وخديجة مراد حسين هي زوجتي.. والبيت الذي شيعت منه الجنازة هو بيتي!
ـ إذن أنت تعترف أن المعلومات المنشورة في الجريدة صحيحة.
ـ صحيحة جداً!
ـ إذن، كيف تقول أنك عبد المتعال محجوب؟
ـ لأنني عبد المتعال محجوب!
ـ مدير شركة مصر للبسكويت؟
ـ مدير شركة مصر للبسكويت
ـ ولم تمت؟
ـ معلوماتي أنني ما زلت على قيد الحياة!
ـ كيف تطلب مني أن أصدقك ورئيس الوزراء أوفد مندوباً للسير في جنازتك؟
ـ لأنني أمامك!
ـ ما دام رئيس الوزراء اعترف بأن عبد المتعال محجوب مات، فهذا دليل رسمي على أنه مات!
ـ الدليل أنني أتكلم معك، والموتى لا يتكلمون!

ـ عندما تتعارض كلمة رئيس الوزراء مع كلمة مسجون هلفوت. . من أصدق؟

ـ رئيس الوزراء طبعاً!

ـ ولهذا فأنا واثق أن عبد المتعال محجوب قد مات!

ـ ومن أكون أنا اذن؟

ـ أنت رجل أفاق، نصاب، مزور، تسميت باسم رجل محترم فاضل إسمه عبد المتعال محجوب.

ـ أشكرك لأنك اعترفت بأنني رجل محترم وفاضل!

ـ أنا لا أقصدك أنت. . أقصد المرحوم!

ـ أقسم لك أنني المرحوم!

ـ إنها ليست المرة الأولى التي ترتكب فيها جريمة أن تتسمى بغير اسمك الحقيقي!

ـ أنا تسميت بغير اسمي الحقيقي؟

ـ إن لدي المستند بخط يدك!

ـ خط يدي أنا؟

ـ نعم. . أليس هذا توقيعك الذي تعترف فيه بأنك ارتكبت جريمة تزوير بأن تسميت باسم غير اسمك الحقيقي؟ إن من يرتكب هذه الجريمة القديمة ممكن أن يرتكب الجريمة الجديدة!

ـ إن هذا الاعتراف كتبته بناء على أمرك!

ـ أمري أنا؟! هأنتذا ترتكب جريمة للمرة الثالثة، وتدعي أشياء على الناس لم تحدث.

ـ الباشكاتب سيد رجائي أفندي هو الذي طلب مني أن أوقع هذا الاعتراف المكذوب!

ـ متى حدث هذا؟

ـ يوم ٧ يونيو الماضي. وقد حضر هذه المقابلة وكيل الباشكاتب محمد معتوق.

ـ يا باشجاويش عبد الجبار أحضر الباشكاتب ووكيل الباشكاتب على وجه السرعة واحضر دفتر البوابة!

وأسرع الباشجاويش عبد الجبار ينفذ أمر المدير..

وعاد المدير يقول لعبد المتعال وهو يهز رأسه في أسى:

ـ إنك رجل سيىء النية. لقد أردت أن توقع إدارة السجن في مصيبة كبرى!

ـ إنني نفذت ما أمروني به!

ـ أنت ذكرت أن اسمك عبد المتعال محجوب لتضعنا في ورطة أمام المصلحة!

ـ أي ورطة؟

ـ عندما تكتشف المصلحة أننا نسجن رجلاً ميتاً!

ـ ولكني كنت أقول أن اسمي عبد المتعال محجوب قبل أن تطلب مني سعادتك أن أوقع هذا الإقرار بعام ونصف عام!

ـ النصاب يضع دائماً خططاً بعيدة المدى!

ودخل الباشكاتب ووكيل الباشكاتب مهرولين إلى عنبر المسجونين، وتقدم الباشجاويش عبد الجبار، ورفع يده بالتحية العسكرية، وهو يقول «تمام يا افندم!»

والتفت المدير إلى الباشكاتب ووكيل الباشكاتب وقال لهما مشيراً إلى عبد المتعال:

ـ هل تعرفان هذا المذنب؟

وحملق الباشكاتب ووكيل الباشكاتب في وجه عبد المتعال بدهشة وقالا في صوت واحد:

- لم نره قبل الآن!

وفتح عبد المتعال فمه وقال:

- ألم تجيئا إلي في الزنزانة؟

- لم يحدث!
- ألم تطلبا مني أن أوقع إقراراً بجريمة التزوير؟
- حاشا لله!
- إن الإقرار بخط يد الباشكاتب والإمضاء بخطي.. فكيف يحدث هذا والباشكاتب يقول أنه لم يرني؟
- الله يعلم أنها المرة الأولى التي أراك فيها!
- إنك كتبت الإقرار أمامي!
- هذا ليس خطي، وسعادة الباشا يعرف خطي!
- وأخرج المدير من جيبه الإقرار واطلع عليه ثم هز رأسه وقال:
- فعلاً.. إن هذا ليس خط الباشكاتب.. خط الباشكاتب جميل.. وهذا الخط رديء!
- أنا أطلب أن تجيئوا بخبير خطوط!

وفقد المدير أعصابه وقال:

- هذا هو دفتر بوابة العنبر.. وفيه يثبت حارس البوابة أسماء كل من يدخل العنبر من موظفين وغيرهم وساعة دخولهم وساعة خروجهم.. أنت تقول أن الباشكاتب ووكيل الباشكاتب قابلاك في زنزانتك!
- نعم..

ـ في أي يوم؟

ـ يوم ٧ يونيو الماضي . .

ـ ها هي الصفحة المكتوب فيها حركة البوابة يوم ٧ يونيو وليس فيها إسم الباشكاتب ولا وكيل الباشكاتب!

وهز الكاتب رأسه وهو يقول:

ـ ماذا تنتظر يا سعادة الباشا من مجرم معترف بأنه مزور ونصاب؟

قال وكيل الباشكاتب في أسى:

ـ أفهم أن ينصب ويزور خارج السجن. . أما أن يزور وهو داخل السجن، فهذه جريمة كبرى يا سعادة الباشا!

ـ إنه أخطر مجرم رأيته في حياتي لا تنفع فيه المروءة، لا تنفع فيه الإنسانية، لا تنفع فيه المعاملة الطيبة!

ـ يفعل كل هذا بعد ما رآه من عطف سعادتكم. . إذا أنت أكرمت الكريم ملكته، وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا!

ـ فعلاً إنه رجل لئيم، ناكر للجميل، وسوف أعرف كيف أربيه. . هذا الكلب يكذب على الدولة، ويتسمى باسم رجل ميت. . ويسجل هذا التزوير في أوراق رسمية. . يجب أن أبلغ النيابة لإحالته إلى محكمة الجنايات!

وتدخل معتوق أفندي وكيل الباشكاتب متظاهراً بتهدئة الجو العاصف وقال:

ـ عبد المتعال مستعد لتنفيذ أوامركم وهو رهن إشارتكم!

ـ يجب أن أؤدي واجبي!

ـ الرحمة فوق العدل!

ـ أنا أقسمت اليمين بالمحافظة على القانون، ولا أستطيع أن أترك مجرماً يعتدي على القانون!

ـ ولكن سيادتكم غفور رحيم

ـ اتركني يا معتوق أفندي. يجب أن تسود كلمة القانون يا باشجاويش عبد الجبار!

وتقدم الباشجاويش عبد الجبار إلى المدير رافعاً يده بالتحية العسكرية، وأشار المدير إلى عبد المتعال بازدراء قائلاً:

ـ استعمل طريقتك المعروفة مع هذا المذنب المزور حتى يعترف باسمه الحقيقي!

وتهلل وجه الباشجاويش عبد الجبار. إنه اعتاد أن يضرب المسجونين بغير أوامر، ولكن عملية الضرب تصبح ألذ وأشهى عندما يباركها المدير. التصريح له بضرب عبد المتعال هو تصريح له بضرب جميع المسجونين..

وانتفخ الباشجاويش في مكانه.. شعر أن المدير أسبغ عليه شرفاً عظيماً عندما اختاره هو دون سائر الحراس لعملية الضرب. إنه يشعر بلذة عجيبة عندما يضرب هؤلاء المسجونين الضعفاء. يحس بقوته وضعفهم، بجبروته وضآلتهم، بسلطته وهوانهم!

إن زوجته حسنية تضربه كل يوم.. لا تحترم الشرائط التي يضعها على كتفه ويتباهى بها، وتستغل صغر سنها لتتحكم فيه وتستبد.. تسميه «عرة الرجال».. وهو يخرج كل صباح من بيته منكس الرأس. ولا يستطيع أن يسترد كرامته المهانة إلا إذا ضرب

أو صفع أو ركل مسجوناً . . هنـا فقط يشعر بـرجولتـه التي يفقدهـا على باب بيته . . وها هو المدير يعطيـه اليوم (رخصـة) ليقوم رسميـاً بما كان يقوم به بصفة غير رسمية!

ومـا كاد المـديـر ينصرف حتى انفـرد البـاشجـاويش عبـد الجبـار بـالمسجون عبـد المتعال في الـزنزانـة. وفتح بـابها حتى يسمـع جميع المسجونين أصـوات الضرب والصراخ. هذه مسـألة يجب الإعـلان عنها بكل الوسائل، ليعرف من لم يعرف أن الباشجاويش أصبح لـه حق الضرب كما يشاء. وسوف يضطر كل مسجون أن يدفع مـزيداً من السجائر للباشجاويش ليشتري سلامتـه، وليفلت من الصفعات والركلات . .

ورفع الباشجاويش يده إلى السماء، داعياً لسعـادة الباشـا المديـر بالعمر الطويل وأن يكثر الله من أمثاله في مصلحة السجون!

□□□

تحول عبد المتعال إلى شبه جثة . . ترك الباشجاويش بصماته عـلى كل جزء في جسـده . . كل شيء فيـه يتألم ويشكـو ويتوجـع . . كلما كان يقع مغمى عليه من هول الضرب كان الباشجاويش يلقي فوقه الماء البارد، ليفيق من إغمائه، ويستأنف الضرب من جديد . .

لم يكن عبـدالجبار وهـو يضربه يؤدي واجبـاً، إنمـا كـان يمـارس لذة . . منظر الـدم الذي كـان ينزف منـه، كان يثـير الباشجـاويش ليضربه أكثر وأكثر!

لم يعد عبد المتعال يستطيع أن يقف على قدميه بسبب ما فيهما من جـروح. لا يستـطيـع أن يلمس الأشيـاء لأن كفيــه تـورمتـا من

الضرب. كلما انكسرت عصا من الضرب كان الحراس يسارعون بتقديم عصا أغلظ للباشجاويش. لم يتقدم أحد لإنقاذه من يد الجلاد. المسجونون كانوا ينظرون إليه في رعب. الحراس ينظرون في شماتة وحسد.. كانوا يحسدون الباشجاويش لأنه استأثر وحده بلذة الضرب لعبد المتعال!

لولا أن الله أنقذ عبد المتعال بأعجوبة لمات بين يدي عبد الجبار!

بينما كان الباشجاويش ينهال عليه باللكم والضرب والصفع جاء نوبتجي المدير يقول أن هناك «مرور» طلبة السنة النهائية من كلية الحقوق جاءت لتزور السجن. وأسرع الباشجاويش عبد الجبار يشرف على نظافة العنبر، وغسيل البلاط!

وتكوم عبد المتعال في داخل زنزانته يتحسس أعضاء جسمه، ليتأكد أن الباشجاويش لم يفصل ساقاً أو ينزع ذراعاً، أثناء عملية الضرب!

ولكن آلام عبد المتعال الجسدية المبرحة، كانت أقل عذاباً من آلامه النفسية. لقد تصور أن أقصى ما يصل إليه الظلم أن يدخل السجن بلا جريمة.. واذا به يفاجأ بظلم أكبر وهو أن يعترف بارتكاب جريمة لم يرتكبها!

وخيّل إليه أن هذا أبشع ظلم في الدنيا.. وها هو اليوم يفاجأ بظلم أفدح.. مطلوب منه أن يعترف بأنه ميت، وهو حي! مطلوب منه أن يقول أنه ليس عبد المتعال محجوب وهو يعلم جيداً أنه عبد المتعال محجوب..

ولكن السؤال الذي يحيره هو كيف تقول الصحف أنه انتقل إلى

رحمة الله، بينما هو انتقل إلى جحيم السجن؟ كيف تشيع جنازته وهو لا يزال على قيد الحياة؟ ولكن كيف يرسل رئيس الوزراء مندوباً لتشييع الجنازة إلا إذا كان قد مات حقيقة؟ ألا يمكن أن تكون الجريدة صادقة ويكون قد مات فعلاً؟ ألا يكون هذا السجن هو جهنم التي أشارت إليها الكتب السماوية؟ إن كل ما قرأه عن جهنم رآه داخل السجن.. حتى الزبانية، إنهم الحراس والباشجاويش والمأمور والمدير هم رؤساء الزبانية.

إن كل أوصاف الزبانية تنطبق عليهم.. القسوة، البطش والوحشية.. إن كل الصفات التي قرأها عن الزبانية في جهنم أقل كثيراً من الصفات التي لمسها في الزبانية بالسجن!

تبقى مسألة النار. النار مسألة نسبية. نار الجحيم التي تحرق الجلد ليست أقسى من نار فقد الحرية التي تحرق الروح.. جلود المعذبين في جهنم تتغير وتتبدل حتى تحترق من جديد.. وقلوب المسجونين في السجن تبقى لتحترق أكثر وتتعذب أكثر!..

الظلم أشد هولاً من هذه الأسياخ التي يعلق فيها سكان الجحيم.. الحريق يريح الإنسان عندما يحوله إلى رماد، ولكن الظلم هو حريق مستمر لا ينطفىء أبداً. العدل البطيء لا يطفىء الظلم، إنه يترك في القلب ندوباً وقروحاً لا تندمل أبداً!

لا بد أن عبد المتعال محجوب مات حقيقة. ولم يشعر أنه مات لأن الموتى لا يشعرون.. ولا بد أنه بعث من قبره في يوم القيامة وحوسب على سيئاته وصدر الحكم بإدخاله النار!

ولكنه لا يتصور أن الحساب في الآخرة يعقد في جلسات سرية. فهو يعلم أن الجلسات السرية تعقد لإخفاء فضيحة المحاكمة،

للتستر على عملية ذبح العدالة.. ومن غير المعقول أن تكون المحاكمات ظالمة في الآخرة كما هي ظالمة في الدنيا.. إن أحد أسماء الله هو «العدل» والعدل لا يرضى بالمحاكمات السرية أو المحاكمات الاستثنائية.. لا يمكن أن يرضى الله أن يدخله جهنم بغير حساب وبغير محاكمة، وبغير سؤال الملكين!

إذن، هذه هي الدنيا بشرورها وآثامها. قوم قلدوا الله. وانتزعوا اختصاصاته.. وأقاموا جنة لمن يؤمنون بهم، وناراً لمن يكفرون بهم.. يرفعون ويذلون، يغنون ويفقرون، يميتون ويحيون!

ولكن هؤلاء الآلهة الجدد عجزوا عن أن يقلدوا الله في أعظم صفاته، عجزوا عن أن يرحموا.. الآلهة الجدد سخطوه.. كان مدير شركة فأصبح مذنباً، كان يسكن شقة فأصبح يسكن زنزانة، كان حراً فصار عبداً!

ولكن، أي ذنب ارتكبه لكي ينزل عليه هذا العقاب الإلهي!

إنه كان طوال عمره رجلاً مؤمناً، تقياً عفيفاً لم يأثم مرة واحدة في حياته. لم يمس امرأة إلى أن تزوج من زوجته خديجة. لم يذهب طوال حياته إلى ناد ليلي أو كباريه. لم يدخل حانة. لم يقرب الخمر. كان يعود من مكتبه في الساعة الثانية ظهراً فيبقى في بيته لا يفارق زوجته أبداً.. يدخل معها ويخرج معها. كان زوجاً نموذجياً بمعنى الكلمة. يؤدي عمله في الشركة بذمة وأمانة وصدق. إنه لم يرتكب جريمة ولم يقترف إثماً حتى يقبض عليه ويزج في السجن، ويضرب، ويهان، ويرغم على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها، ويحكم عليه بغير محاكمة ويعلن أنه مات وهو على قيد الحياة!

□□□

وصرخ الباشجاويش عبد الجبار:

ـ إنتباه . .

وسمع عبد المتعال صوت أقدام كثيرة تدخل العنبر، وتعلق على قضبان نافذته، ورأى طلبة كلية الحقوق يدخلون فناء العنبر يتقدمهم الرائد فتحي أبو زيد مأمور العنبر، ورأى المأمور يشير إلى زنزانة مفتوحة ويقول:

ـ كل مسجون ينام على سرير! عنده مرتبة. عنده مائدة. ومقعد.

وتلفت عبد المتعال حول زنزانته فلم يجد سريراً ولا مرتبة ولا مقعداً لم يجد إلا الأسفلت والبرش!

ولم يخطر ببال أحد طلبة كلية الحقوق أن يطلب من المأمور فتح إحدى الزنزانات المغلقة ليرى الحقيقة!

الحقيقة كانت كلها مقفلاً عليها بالمفاتيح!

ومضى الرائد فتحي أبو زيد يقول للزائرين:

ـ إننا نعامل المسجونين كأولادنا! نعوضهم بالعواطف الإنسانية عما فقدوه من الحرية إنهم لا يجدون في بيوتهم الطعام الذي يجدونه هنا.

وابتسم عبد المتعال في زنزانته ساخراً. تطلع إلى الكدمات والجروح التي في جسمه ورأى أثرالعواطف الإنسانية، وتطلع إلى طبق الطعام الخالي وتذكر الطعام الذي كان يأكله في بيته! . .

وعاد الرائد فتحي أبو زيد يقول للزائرين:

ـ العدالة هنا ليست آلهة القصاص، بل آلهة الرحمة، ونحن هنا ملائكة العدالة!

وهز عبد المتعال رأسه في إعجاب بكلمة المأمور البليغة.. وتأمل الباشجاويش عبدالجبار بوجهه القاسي وملامحه الصارمة وعينيه المليئتين بالشرر.. وعجب أن يكون هذا الجلاد أحد آلهة الرحمة. لقد كانت العدالة هي البلسم والدواء للمظلومين فأصبحت الجرح والسكين!

وتمنى عبد المتعال أن تطول مدة زيارة طلبة كلية الحقوق، لتطول راحته من عصا الباشجاويش عبد الجبار ملاك العدالة. ولكن الزيارة لم تطل، اكتفى الزوار بأن يتفرجوا على الجدران اللامعة من الطلاء الجديد الذي لم يجف بعد، وعلى السلالم البراقة التي انحنت ظهور المسجونين وهم يغسلونها بالماء والصابون ليدوس عليها حضرات الزائرين!

وسمع عبد المتعال أصوات الزائرين وهم يغادرون العنبر. وارتجف في زنزانته انتظاراً لاستئناف الهول من عصا الباشجاويش ملاك الرحمة.. وتطلع إلى السماء يتوسل إليها أن تمطر زائرين جدداً يشغلون ملائكة الرحمة عن استئناف عملية الضرب والصفع والركل بالحذاء!

□ □ □

وسمع رعداً.. وخيل إليه أن السماء استجابت لدعائه وأمطرت عدداً آخر من الزائرين. ثم تبين أن هذا الرعد هو صوت اللواء القوّاص مدير السجن!

وأسرع الباشجاويش عبدالجبار يعدو نحو المدير وهو يصيح: انتباه! ولكن كلمة انتباه ضاعت في ضوضاء صراخ المدير!

ولم يتبين عبد المتعال كلمات المدير المتدافعة كطلقات مدفع رشاش.. فإن صراخه العالي، وصدى هذا الصراخ على قضبان حديد السجن كان يحدث صوتاً شبيهاً بصوت مرور قطار البضاعة فوق القضبان!

وقرب عبد المتعال أذنه من باب الزنزانة الحديدي ليتبين كلمات المدير، وإذا به يسمع كلمات «الكلب.. ابن الكلب.. المجرم..»!

وفهم عبد المتعال على الفور أن المدير يتكلم عنه.. فإن هذه الألقاب أصبحت خاصة به من كثرة ما أطلقها عليه المدير. ولكنه لم يلبث ان اكتشف أنه ليس هو الكلب ولا ابن الكلب، وإنما الكلب ابن الكلب الجديد هو الباشجاويش عبد الجبار.. ورأى عبد الجبار وهو يتضاءل ويكش أمام المدير حتى أصبح كالكلب تماماً..

وتطلع عبد المتعال إلى السماء وشكر الله الذي يمهل ولا يهمل.. ولكنه في هذه المرة، لم يهمل الباشجاويش الطاغية سوى دقائق فقط بعد ما فعله بعبد المتعال من تعذيب وتنكيل!

وتضاعف ذهول عبدالمتعال عندما سمع المدير يقول:

ـ كيف تضرب المذنب عبد المتعال؟ ألا تعرف أن هذا ممنوع بأمر القانون؟

ـ إنني لم أضربه!

ـ بلى ضربته. وقد أخبرني بذلك بعض المسجونين.. ألا تعرف

أن عبد المتعال هذا مثل ابني؟

ووضـع عبد المتعـال إصبعه في أذنيـه ينظفهـما ليسمـع جيـداً. . ابنه! . .

وكرر المدير الكلمة مرة أخرى. . وتـأكد عبـد المتعال أن أذنـه لم تخدعه. . المدير يقول إنه مثل ابنه! لقـد فهم الآن لماذا كـان المديـر يناديه دائماً بابن الكلب!

وتقدم الباشجـاويش عبد الجبـار إلى زنزانـة عبد المتعـال، وربت على كتفه في رفق وحنان، وأخذه إلى المكـان الذي يقف فيـه المديـر وقال له:

ـ يا أستاذ عبد المتعال. . هل أنا ضربتك!

وذهل عبد المتعال وهو يسمع اسمه، لأول مرة منذ عـام ونصف عام، مسبوقاً بلقب أستاذ!

ولم يذهل من أن عبد الجبار أنكـر أنه ضربـه، ولكن ذهولـه كله كان منصباً على لقب (أستاذ). . إنـه طوال هـذه المدة كـان يلقب، بالمذنب، وبالمجرم، وبابن الكلب، وبابن. . . أشياء كثيرة أخرى، ولكنها المرة الأولى التي يعود فيها أستاذاً كما كـان وهو يتـولى منصب مدير شركة مصر للبسكويت!

ووجد عبد المتعال نفسه يقول للمدير:

ـ كلا. . إنه لم يضربني!
ـ إنني واثق أنه ضربك!
ـ كان يزغزغني!

ـ يزغزغك؟

ـ نعم، كان يمزح معي!

ـ وهذه الكدمات والجروح والدماء؟

ـ سقطت على درجات السلم!

دهش عبد المتعال لأنه كذب.. وأحس أنها كذبة لا إرادية، انطلقت من فمه دون أن يحس بها.. أتكون هذه الكذبة هي ثمن رشوة الباشجاويش عبد الجبار له عندما أطلق عليه لقب (أستاذ) أم أنه صوت الخائف الواجف فيه الذي كان يريد أن يسترضي الباشجاويش حتى لا يستأنف الضرب بعد انصراف المدير!!

ووضع المدير ذراعه على كتف عبد المتعال وقال له في صوت يسيل رقة وعذوبة:

ـ تعال معي يا أستاذ إلى مكتبي!

واهتز عبد المتعال وهو يسمع كلمة (أستاذ) من فم المدير إن لها نغمة أحلى من نغمتها عندما نطق بها الباشجاويش عبد الجبار.. لقد شعر أن اللقب أصبح رسمياً.. كأنه صدر به مرسوم ملكي!

ومشى المدير إلى مكتبه، وتبعه عبد المتعال، ودخل معه إلى المكتب الفاخر، وجلس المدير على كرسيه..

ثم أشار إلى مقعد أمامه، وقال:

ـ تفضل يا سعادة البك!

وتلفت عبد المتعال حوله في أنحاء الغرفة يبحث عن سعادة البك الذي دعاه المدير للجلوس، فلم يجد أحداً غيره وغير المدير في

المكتب. . واعتقد أنه يتخيل أصواتاً. . غير معقول أن يترقى في أقل من ساعة من ابن الكلب إلى أستاذ إلى سعادة البك. . إنه سمع عن العلاوات الاستثنائية والترقيات الاستثنائية، ولكنه لم يسمع أن إنساناً يترقى من ابن الكلب إلى سعادة البك في ساعة واحدة، حتى لو كان قريباً لأحد الوزراء!

وعاد المدير يلح على سعادة البك بالجلوس على المقعد، وتردد عبدالمتعال، ثم جلس على أطراف المقعد، وفوجىء بالمدير يقول له:

- قهوة؟ شاي؟
- العفو يا سعادة المدير!
- لا أريد أن يكون بيني وبينك تكليف. . أطلب ما تشاء!
- ليمون!
- هل تحب الليمون؟
- لا. . إنني فقط أشعر بدوخة!
- هل أنت مريض؟
- لا. . وإنما حدث لي دوار من الصعود المفاجىء!
- إنني تأكدت أنك مظلوم!
- أشكرك يا سعادة المدير
- لا شكر على واجب. . أنا أشعر أنني أثق بك وواجبك أن تثق بي!
- أنا واثق بك جداً يا سعادة المدير!
- إنني درست علم النفس جيداً وقد اكتشفت أنك مريض بضعف الذاكرة!

ـ أنا ذاكرتي كالحديد!

ـ كل الذين يفقدون ذاكرتهم يتصورون أن ذاكرتهم جيدة جداً. هذا مكتوب في كتاب علم النفس الذي قرأته..

ـ اسألني سعادتك عن أي شيء في الماضي. امتحن ذاكرتي!

ـ ما اسمك؟

ـ عبد المتعال محجوب.

ـ ما هي صناعتك قبل أن تدخل السجن؟

ـ مدير شركة مصر للبسكويت

ـ أين كنت تسكن؟

ـ ٢٣ شارع أبو الفداء

ـ هذا يؤكد تشخيصي!

ـ ما هو التشخيص؟

ـ إنك فقدت ذاكرتك، وتصورت أنك شخصاً آخر!

ـ أقسم لك أنني عبد المتعال محجوب.

ـ أنا لا أقول أنك كاذب.. أنا أعرف جيداً أعراض مرض فقدان الذاكرة.. إنك تعتقد فعلاً أنك عبد المتعال محجوب الذي توفي، ودفن منذ أكثر من عام!

ـ أؤكد لك أنني حي!

ـ إن علم النفس لا يكذب. حالتك مكتوبة بالحرف الواحد في صفحة ٢١٤ من الكتاب!

ـ أتوسل إليك أن تصدقني!

ـ أنا مستعد أن أصدقك، ولكن العلم لا يصدقك. إنني اكتشفت الآن كل قصتك. الدليل على أنك فقدت ذاكرتك أنك نسيت أنك ارتكبت جريمة.. ونسيت أن النيابة حققت معك،

ونسيت الحكم الذي صدر عليك ونسيت اسمك.

ـ أنا أستطيع أن أذكر لسعادتك كل ما فعلته خلال الثلاثين عاماً الماضية!

ـ وهذا أيضاً متكوب في كتابْ علم النفس بالحرف الواحد، «إن الرجل الذي فقد ذاكرته يتقمص شخصية أخرى، ويتصور أنه عاش حياة كاملة بتفاصيلها ودقائقها، وهي في الواقع حياة شخص آخر سمع عنه أو قرأ عنه»!

ـ إذن، كل حياتي هذه كانت خيالا!

ـ خيال في خيال!

ـ وما هي الحقيقة؟

ـ الحقيقة الوحيدة أنك هنا في السجن..

ـ وماذا تريد مني أن أفعل؟

ـ تختار لنفسك اسماً جديداً!

ـ وماذا أفعل إذا ظهر أن صاحب الإسم الجديد قد مات أيضاً؟

ـ سوف أختار لك اسمك الجديد بنفسي.

ـ الاعتراف الذي وقعته باسمي القديم؟

ـ نغيره باعتراف جديد!

ـ والحكم بحبسي؟

ـ يتغير طبعاً!

ـ بهذه السهولة؟

ـ كل شيء يصبح سهلاً إذا توافرت النية الطيبة!

ـ ومدة السجن؟

ـ باقية كما هي!

ـ والمدة السابقة؟

ـ لا يمكن أن نسلب من إنسان حقه.. سوف نحسب لك المدة

السابقة التي أمضيتها باسمك الآخر.

ـ وهكذا تصبح أوراق السجن مضبوطة.

ـ مضبوطة جداً.

ودق المدير الجرس وطلب الباشكاتب ووكيل الباشكاتب وهرول الرجلان إلى مكتب المدير. .

وقال المدير في غطرسة:

ـ إنني مضطر أن أعمل كل شيء في السجن بنفسي، لو أنني اعتمدت عليكم لارتبك العمل وفسد النظام.

ـ الكل يشيد بهمة سعادتكم!

ـ في خمس دقائق أمكنني أن أحل مشكلة عبد المتعال محجوب وأنقذكم من الرفد ومن مجلس تأديب!

ـ أطال الله عمرك يا باشا!

ـ وجدت الحل. . أن يغير عبد المتعال إسمه باسم جديد. !

ـ فكرة عبقرية. . فكرة جهنمية. . فكرة عظيمة جداً!

ـ وماذا نسميه؟

ـ نسميه جرجس بطرس!

وصرخ عبد المتعال وقال:

ـ هذا إسم مسيحي!

ـ وما الضرر؟ إنه اسم موسيقي!

ـ موسيقي!

ـ نعم.

ـ يا عالم، يا ناس، قبلت أن أسجن بغير تهمة . .

قبلت أن أعترف بجريمة لم أرتكبها

قبلت أن أموت وأنا على قيد الحياة . .

قبلت أن تغيروا اسمي . .

حتى ديني . . تريدون أن تغيروه؟

الفصل الرابع

وقف عبد المتعال أمام مكتب سيد أفندي رجائي باشكاتب السجن.

كان ينتظر دوره في طابور المفرج عنهم..

كان يرتدي جلابية مخططة بالألوان الزرقاء والصفراء والخضراء والحمراء. إنها جلابية الإفراج التي تصرفها إدارة السجن للمسجونين المفرج عنهم، الذين لا يملكون ملابس مدنية يخرجون بها إلى عالم النور..

كان عبد المتعال يملك بذلة أنيقة، وساعة ذهبية، وقلم حبر، ومحفظة نقود عندما دخل السجن، وقيل له عندما جردوه منها، وألبسوه البذلة الزرقاء المهرولة الممزقة، أنهم سيحتفظون بها في مخزن الأمانات.. وعندما جاء يوم الإفراج لم يجد البذلة، ولا ساعة اليد، ولا محفظة نقوده، ولا قلمه الحبر. كل هذه (الأمانات) اختفت من (مخزن الأمانات)، كأن أحد فئران السجن أكلها، ولم يترك لها أثراً، وما أكثر الفئران الآدمية في السجون!

ولم يحزن عبد المتعال لأنه فقد كل هذا، فاليوم يوم الحرية، يوم الإفراج، يوم يخرج عبد المتعال من قبره إلى الحياة!

وكان زملاؤه المسجونون يهزون يده ويقولون له: مبروك، مبروك، مبروك!

ورفع سيد أفندي رجائي رأسه من بين أكداس الأوراق التي أمامه وابتسم وقال: مبروك!

وشجعت الابتسامة عبد المتعال. أعطته جرعة من الشجاعة. إنها أول ابتسامة رسمية يراها منذ دخل إلى السجن. وجوه الرسميين كانت دائماً عابسة، مقطبة، مكفهرة، كان كل المسؤولين في السجن يضعون فوق وجوههم أقنعة قاسية متجهمة!

ما أجمل أن يرى الإنسان ابتسامة بعد عامين من العبوس!

قال عبد المتعال، والكلمات تخرج من شفتيه وكأنها تقدم ساقاً وتؤخر ساقاً:

- هل أصبحت اليوم حراً يا سعادة البك!
- طبعاً.. أنت حر الآن!
- حر أن أقول ما أشاء
- طبعاً حر أن تقول ما تشاء!
- إنني مكثت في السجن عامين لا أستطيع أن أقول «لا»..
- لأن من يقول في السجن «لا» يتمرد على الأوامر، والقانون يقول أن المتمرد يجلد... أو يوضع في التأديب!
- ولكنك قلت لي أنني حر الآن.. ومعنى الحرية أن يستطيع الإنسان أن يقول «لا»!
- أنت الآن تستطيع أن تقول كل ما تشاء!
- أنا لا أريد إلا أن أقول كلمة واحدة!

ـ ما هي؟

ـ لا . . لا أوافق على إسم جرجس بطرس . . وإنما أنا مصر على اسمي القديم عبد المتعال محجوب!

ـ هل جننت؟

ـ أنا لم أعترض على فقد البذلة والساعة والمحفظة وقلم الحبر، كل اعتراضي هو على فقد اسمي!

ـ هل تريد أن أزور في أوراق رسمية؟

ـ هذا هو اسمي الحقيقي.

ـ إسمك الحقيقي هو جرجس بطرس . . قرار الإفراج الذي جاءنا من المصلحة يقول: افرجوا عن جرجس بطرس . . أوراق السجن تقول أن جرجس بطرس أمضى عامين في السجن . . بصمات تحقيق الشخصية تقطع بأنك جرجس بطرس.

ـ أنتم أخذتم بصماتي وكتبتم عليها اسم (جرجس بطرس).

ـ البصمة اعتمدتها مصلحة تحقيق الشخصية، فأصبحت ورقة رسمية!

ـ ولكنك تعرف أنني لست جرجس بطرس!

ـ والحكومة لا تعرف إلا أنك جرجس بطرس!

ـ وأنت تعلم العكس!

ـ علمي أو عدم علمي لا يستطيع أن يعارض الأوراق الرسميّة. الورقة البيضاء عندما تختم عليها الدولة بخاتمها تصبح مستنداً رسمياً . . أنت في الأوراق الرسمية جرجس بطرس!

ـ ولكني في الحقيقة عبد المتعال محجوب.

ـ عندما تصطدم الحقيقة مع الورقة الرسمية تصبح الحقيقة أكذوبة!

ـ هذه مصيبة!

ـ وما وجه المصيبة؟

ـ إنني متزوج من سيدة اسمها خديجة مراد حسين، والقانون يعتبر زواج المسيحي من مسلمة باطلاً!

ـ طبعاً!

ـ معنى ذلك أن تكون زوجتي طالقا!

ـ هذه مسألة بسيطة!

ـ بسيطة؟

ـ نعم، يمكنك أن تشهر إسلامك وتتزوجها!

ـ كل هذا لتبقى أوراق السجن مضبوطة؟

ـ خلال ثلاثين سنة في خدمتي للمصلحة لم يحدث مرة واحدة أن كانت ورقة عندي في الملفات غير مضبوطة!

ـ وكم عدد الذين أخرجتهم من دينهم، وطلقتهم من زوجاتهم، وأدخلتهم السجن بغير حكم قضائي؟

ـ ليس هذا بالأمر المهم!

ـ ما المهم إذن؟

ـ أن تكون الأوراق الرسمية مستوفاة شروطها!

ـ على حساب حياة الناس!

ـ ما قيمة حياة فرد بجانب نظام أمة؟

ـ هل النظام أن يكون القانون في حجم الناس، أم أن يكون الناس في حجم النظام؟ النظام هو ثوب يرتديه الشعب، ولم يقل أحد أبداً أن أقطع رأس الناس ليدخلوا في هذا الثوب!

ـ من السهل أن نغير الناس، ولكن من الصعب أن نغير القانون!

ـ من قال هذا؟
ـ القانون!
ـ أي قانون؟
ـ قانون الحياة!
ـ إنني لا أعترف بهذا القانون؟
ـ إذن سوف تشرف السجن مرة أخري!
ـ ولكنك قلت أن من حقي الآن أن أقول «لا». .
ـ تقول «لا» صغيرة. . لا «لا» كبيرة!
ـ هل أصبح للكلمات حجم؟
ـ طبعاً. . إذا قلت «لا» لصعلوك مثلك، فهذا من حقك. . ولكن إذا قلت «لا» لرئيس الوزارة فهي محاولة انقلاب!
ـ يا ساتر!
ـ هذه هي الحقيقة!
ـ ألا توجد طريقة أستعيد بها اسمي!
ـ تذهب إلى وزارة الصحة وتغير اسمك، بعد أن تدفع عشرين قرشاً!
ـ وكم يكلفني هذا؟
ـ بضعة جنيهات، لأنك ستنشر إعلاناً بذلك في الصحف.
ـ أنا لا أملك مليماً!
ـ تستطيع أن تؤجل تغيير اسمك إلى أن تقتصد هذا المبلغ!
ـ أرجوك، أتوسل إليك، اكتب في قرار الإفراج أن اسمي عبد المتعال محجوب، وخلصني من دفع هذه المبالغ، وطلاق زوجتي، وشهر إسلامي، ثم الزواج بها من جديد!
ـ أنت ليس لك في الطيب نصيب!
ـ ما هو «الطيب» في كل هذا؟

ـ بدلاً من أن تشكرني لأنني خدمتك هذه الخدمة العظمى، تجيء وتطلب مني هذا الطلب السخيف؟

ـ هل عودتي إلى اسمي الحقيقي هي طلب سخيف؟

ـ سخيف طبعاً.. هذا هو عيبك تتمسك بالمظهر وتترك الجوهر!

ـ هل اسم الإنسان مسألة مظهر؟

ـ الدول تغير أسماءها.. بريطانيا غيرت اسمها وأصبحت (المملكة المتحدة).

ـ أنا لست دولة!

ـ شارع رمسيس غير اسمه ثلاث مرات.. كان اسمه شارع عباس، ثم أصبح شارع الملكة نازلي، ثم أصبح شارع الملكة!

ـ يا سيدي أنا لست شارعاً.. أنا إنسان!

ـ المطربة شادية كان اسمها (فاطمة).. الممثلة تحية كاريوكا كان اسمها (تحية) فقط. هل أنت أحسن من شادية أو تحية كاريوكا!

ـ هؤلاء نجوم.. وأنا رجل عادي!

ـ لقد جعلناك نجماً!

ـ أنا لم أفعل شيئاً لتغيروا اسمي يا ناس!

ـ دخلت السجن من غير إذن!

ـ أنا لم أدخل من غير إذن، أنتم الذين أدخلتموني من غير إذن!

ـ لا تتكلم في هذا الموضوع.. لقد تمت تسويته، وأصبح كل شيء رسمياً!

ـ هذا تزوير!

ـ اخرس! إنك الآن تطعن في ذمة موظف عام.. هذه عقوبتها ثلاث سنوات مع الشغل!

ـ سوف أثبت هذا..

ـ لن تجد ورقة واحدة تؤيد دعواك!

ـ هل الورقة أصدق من الإنسان!
ـ عندما تكون ورقة رسمية، تكون أصدق من أي إنسان!
ـ هذا ظلم!
ـ الظلم عندما يكون مكتوباً على ورقة رسمية يصبح عدلاً!
ـ إنني في يوم الإفراج عني لا أشعر بالفرح، ولا ببهجة الحرية، ولا بسعادة الحياة، إنني أحس كأنني سأخرج من السجن حاملاً قيودي معي، أجر خلفي سلاسلي وأغلالي، أشعر كأنني سأخرج من السجن في داخل زنزانتي لأمشي بها بين الناس!

ـ هذه مسألة شخصية لا علاقة لنا بها..
ـ أرجوك.. أتوسل إليك!
ـ أنت الآن تعطل أعمال الدولة.. أنا رجل مشغول.. لقد صبرت على دلالك وثرثرتك وسخافتك.. أنا أريد أن أسألك سؤالاً محدداً.. هل أنت مستعد أن توقع على هذه الورقة باسم (جرجس بطرس)؟

ـ لا..
ـ إذن ستبقى مسجوناً هنا مدى الحياة!
ـ لقد انتهت مدة عقوبتي
ـ انتهت مدة عقوبة جرجس بطرس!
ـ وعبد المتعال محجوب؟
ـ لن يخرج من هنا..
ـ لماذا؟
ـ لأنه لم يدخل إلى هنا!
ـ لن أسكت على هذا.
ـ ما دمت أنت هنا فسيبقى صوتك مسجوناً معك!

ـ إذن سأخرج وأتكلم!
ـ لن يصدقك أحد!
ـ لماذا؟
ـ لأن الأوراق الرسمية لا تكذب!

وأحنى عبد المتعال رأسه في ذل وامتلأت عيناه بالدموع، وانحنى على الورقة الموضوعة على مكتب الباشكاتب ووقع لأول مرة بإمضائه الجديد (جرجس بطرس)!

□□□

أمضى عبد المتعال بضعة أيام في تخشيبة المحافظة.. كان قرار الإفراج عنه على الورق! كان لا بد أن يمر به أحد الحراس على جميع الأقسام ليتأكد أنه ليس مطلوباً القبض عليه في قضية أخرى!

وأسعده أنه لم يكن بين أسماء النشالين والخطافين ولصوص البيوت متهم يحمل اسم جرجس بطرس.. وحمد الله على أن سعادة اللواء مدير السجن اختار له اسماً نظيفاً خالياً من السوابق!

ورأى في قسم مصر القديمة جندياً عجوزاً طيباً، وأعطاه رقم تليفون بيته ليتصل بزوجته ويطلب إليها أن تحضر إلى القسم ومعها عشرة جنيهات!

وانتهز الجندي فرصة غياب الضابط النوبتجي، وسمح لعبد المتعال أن يدخل الغرفة ويطلب بنفسه الرقم الذي يريد.. وأدار عبد المتعال رقم بيته، فأجابه صوت غريب..

وعرف عبد المتعال أنه أخطأ في إدارة قرص التليفون، فوضع السماعة، وعاد يطلب الرقم من جديد وأجابه نفس الصوت،

فتشجع وسأل عن خديجة هانم! فانهالت عليه عبارات السباب والشتائم!

وعاد يطلب الرقم من جديد، وعادت الشتائم تمطره بلا رحمة من جديد.. أيكون قد نسي رقم تليفونه خلال هذين العامين؟

ووجد دليل التليفون. إنه لا يزال الدليل القديم ولم تطبع مصلحة التليفونات دليلاً جديداً، وفتح صفحات الدليل وقلب فيها، وفرح فرحة كبرى عندما وجد اسمه في الدفتر ووجد أن الرقم المكتوب أمام اسمه هو نفس الرقم الذي طلبه وانهالت عليه الشتائم والسباب منه. أتكون خديجة غيرت رقم التليفون؟ ولكن كيف تجرؤ على تغيير الرقم بغير استئذانه؟ وقرر أن يلومها ويوبخها على هذا التصرف الأخرق..

ثم تذكر أنه هو الآخر غير اسمه.. ربما غيروا رقم تليفونها كما غيروا اسمه.. ربما لم تستطع المسكينة أن تدفع فاتورة التليفون بعد وفاته فاضطرت إلى التنازل عن التليفون بسبب الاقتصاد!

ووقف الجندي العجوز يرقبه في شك.. وبدا على وجه الجندي أنه يرتاب في هذا الرجل الذي يرتدي الجلابية المخططة ويزعم أن في بيته تليفوناً..

ولم يكن في جيب عبد المتعال مليم واحد، وتوقع أن يصفعه الجندي على قفاه كما كان يفعل الباشجاويش عبد الجبار في السجن، وأن يتكلم عن شجرة العائلة من الكلاب.. ولكن الجندي الطيب اكتفى بأن ألقى عليه نظرة احتقار، تلقاها عبد المتعال مع الشكر والامتنان!

وعندما أفرجت عنه المحافظة مشى على قدميه إلى شارع أبو الفدا في الزمالك. .

فكر عدة مرات أن يستقل سيارة أجرة إلى بيته، ويطلب من زوجته أن تدفع أجر السائق. ولكنه تردد خشية ألا يجد زوجته في البيت، ويمسكه السائق، ويعود به إلى القسم ليسجن من جديد. .

وأحس وهو يمشي في الحرية بأنه لا يزال خائفاً، يخاف من السيارات التي تنهب الشارع، يخاف من عربات الترام بضوضائها، يخاف من المارة، ينظر خلفه في رعب كلما رأى جندياً من جنود الشرطة. . يتصور أن كل جندي هو الباشجاويش عبد الجبار. . كلما رأي جندياً يمشي على رصيف انتقل على الفور إلى الرصيف الآخر.

وهاله كثرة رجال الشرطة. . إنهم أكثر من الحراس في السجن. . وخيل إليه أن كل شارع أصبح سجناً، وأن له حراسه، وفيه شبيهاً بالباشجاويش عبد الجبار!

كان يتصور أن الشارع سوف يعطيه شعوراً بالحرية، سوف يعطيه إحساساً بالشجاعة، ولكنه لم يشعر بالحرية، بل شعر أنه ازداد جبناً. .

ووضع يده في جيب الجلابية الخالي. وهز رأسه في أسى. . أيكون من شروط الحرية أن يكون في جيبه نقود؟ هل الأحرار يحسون بشعور العبودية لأنهم فقراء؟ هل يستطيع الإنسان أن يشتري حريته بالمال. . أما القيود والسلاسل والاغلال فهي تصرف دائماً مجاناً؟

وخفق قلبه عندما وصل إلى أول شارع أبو الفدا، ورأى من

بعيد العمارة التي يسكن فيها. وفرح أنه وجدها في مكانها. . كأنه من كثرة ما حدث له من تغييرات وتبديلات خشي أن تكون العمارة غيرت مكانها في الشارع، كما غير هو اسمه، وكما غيرت زوجته رقم التليفون!

ونظر في خجل إلى الجلابية المخططة. . ماذا سيقول عم فارس البواب عندما يرى سعادة عبد المتعال بك الذي كان يعطيه جنيهاً كل شهر، وهو في هذا الزي الزري الحقير؟ سيقول له أنه قادم من العزبة. . وسوف يعطيه جنيهاً بعد أن يرتدي ملابسه الكاملة في البيت، ليضمن أن يغلق فمه، ولا يقص على السكان ما رآه!

وعندما اقترب عبد المتعال من باب البيت تنفس الصعداء، لأنه لم يجد عم فارس البواب جالساً على مقعده أمام الباب. .

ودلف بسرعة إلى فناء العمارة، وصعد بسرعة إلى الدرجات الموصلة للمصعد، وأقفل باب المصعد وضغط على الزر المكتوب عليه الطابق السادس. .

وارتفع المصعد، وارتفعت معه روح عبد المتعال المعنوية. . حمد الله على أن أحداً لم يدخل معه إلى المصعد، إن أحداً لم يقل له أن مصعد الخدم هو في الناحية الأخرى من العمارة. . كلما صعد المصعد طابقاً أحس عبدالمتعال وكأنه صعد درجة في كادر الوظائف، عندما وصل إلى الطابق السادس أحس بأنه عاد كما كان إلى درجة المدير العام. .

وتقدم في ثبات إلى الشقة رقم ٦٢ وضغط على زر الجرس الكهربائي ضغطاً متواصلاً، وخيل إليه أن رنين الجرس هو رنين الفرحة بقدومه. . خيل إليه أنها سيمفونية تعزف معلنة عودته إلى

بيته الذي حرم منه عامين كاملين . .

□□□

وفتحت الباب خادمة نوبية جميلة دفعها عبد المتعال بيده، ودخل وهو يقول:

ـ أين الست؟

ونظرت الخادمة النوبية في دهشة إلى جلابية عبد المتعال المخططة، ثم أمسكت بالجلابية وهي تقول له:

ـ انتظر، إلى أين أنت ذاهب؟

ـ لا تفتحي فمك . . أريد أن أفاجىء الست!

وصرخت الخادمة النوبية، ووضع كفه فوق فمها ليمنعها من الصراخ، ودخلت شابة ممشوقة القوام على صوت الضوضاء . .

وفوجىء عبد المتعال بهذه الشابة الغريبة، ونظر حوله، خشية أن يكون أخطأ في رقم الشقة، ولكنه تبين أن الأثاث الموجود في الصالة هو نفس أثاث بيته، فقال:

ـ أريد مقابلة خديجة هانم!
ـ خديجة هانم من؟
ـ حرم الاستاذ عبد المتعال محجوب مدير شركة مصر للبسكويت . .
ـ هذا ليس بيتها!
ـ أنا واثق أنه بيتها . . هذا الاثاث الموجود في الصالة هو أثاثها!

ـ فعلاً . . ولكني اشتريت منها هذه الشقة المفروشة بأثاثها منذ عام ونصف العام بسبعة آلاف جنيه . .

ـ سبعة آلاف جنيه فقط؟ إنها تساوي أكثر من ذلك!

ـ هذا ليس من شأنك!

ـ إن هذا شأني!

ـ من أنت؟

ـ أنا . . أنا . . أخوها!

ـ كيف تكون أخاها ولا تعرف أنها باعت هذه الشقة منذ عام ونصف العام؟

ـ كنت في اليمن!

ـ في اليمن!

ـ مقاول في اليمن!

ونظرت الشابة في دهشة إلى ملابس عبدالمتعال الرثة، فأسرع يقول:

ـ لقد وصلت اليوم فقط . . وسرقوا ملابسي وحقائبي في الطائرة!

ـ هل يوجد لصوص في الطائرات؟

ـ البلد تقدمت . . أصبح اللصوص الآن يستعملون الطائرات وغداً سوف يستعملون الصواريخ!

وضحكت الشابة الممشوقة، ونظرت إلى الرجل الذي في داخل الجلباب المخطط وأحست بخبرتها أنه رجل مثقف، وأنه ليس خادماً ولا لصاً، كما توهمت في أول الأمر فابتسمت ابتسامة حلوة، وكأنها رأته للمرة الأولى، وقالت وهي تشير إلى أحد المقاعد:

ـ تفضل، إجلس، إسترح!

وكـان عبد المتعـال يتمنى أن يجلس على أحـد مقـاعـده. . شعـر بحنين غريب إلى المقعد الذي طالما جلس فيـه، فأسرع يجلس عـلى المقعد وهو يقول:

ـ إنني سعيد بأن السيـدة التي اشترت شقـة أختي هي بكل هـذا الجمال!

ـ ولكن شقيقتك جميلة جداً!

ـ هل رأيتها؟

ـ رأيتها مرتين. . مرة عنـدما جئت أتفـرج على الشقـة. . والمرة الثانية عندما وقعت العقد. .

ـ كانت يومها حزينة على وفاة زوجها؟

ـ أبداً!

ـ أبداً؟ أبداً؟

ـ قالت لي أنها اكتشفت بعد وفاته أنه كان يخونها!

ـ يخونها!

ـ نعم، يخونها مع راقصات من الدرجة الثالثة!

ـ يا حفيظ؟

ـ الرجال ليس لهم أمان!

ـ وكيف تأكدت من ذلك؟

ـ وجدوا صورهن في مكتبه بالشركة!

ـ من وجد هذه الصور؟

ـ المدير الجديد. . ما كاد يتسلم عمله حتى فتـح درج المرحـوم، فـإذا به يكتشف أنـه ليس درج مكتب مـديـر بـل هـو درج مـديـر كباريه!

ـ كباريه؟

ـ نعم، مليء بصور هؤلاء الساقطات. . ووضع المدير جميع أوراق زوجها في مظروف كبير وأرسله إلى خديجة هانم!

ـ رجل سافل!

ـ فعلاً، إن زوجها رجل سافل!

ـ أنا لا أقصد زوجها. . أقصد المدير الجديد الذي يرسل هذه الأكاذيب إلى الأرملة الحزينة!

ـ إنها ليست أكاذيب، إنها وثائق ومستندات، إنها أوراق رسمية،

ـ كأوراق السجن!

ـ أي سجن!

ـ أقصد أنه لا بد أن هذا الزوج الخائن حكم عليه في جرائم الزنا والخيانة الزوجية والفعل الفاضح في الطريق العام!

ـ إنه مجرم حقيقي. . إن خديجة هانم قالت لي أنه لم يترك بيته بعد الساعة الثانية ظهراً. .

ـ ومتى يرتكب جرائم الخيانة الزوجية؟

ـ كان يوهمها أنه ذاهب إلى الشركة ويذهب إلى الجرسونيرة!

ـ هل قالت لك خديجة. . أختي. . هذا الكلام الفارغ؟

ـ إنه ليس كلاماً فارغاً. . إن خديجة هانم لم تصدق إلا عندما رأت بعينيها اعتراف زوجها!

ـ هل اعترف زوجها بهذه الجرائم أيضاً؟؟

ـ لقد كان من بين الخطابات التي وجدوها في المكتب خطابات من العشيقات يصفن فيها الليالي الحمراء التي أمضاها معهن!

ـ كيف يمضي الزوج ليالي حمراء وأنت تقولين أنه لم يكن يخرج من بيته بعد الساعة الثانية ظهراً؟

ـ لا بد أنه كان ينتهز فرصة نومها ويخرج على أطراف أصابعه ليرتكب الخطيئة!

ـ ولم تستيقظ زوجته مرة واحدة؟

ـ لا بد أنه كان يخدرها . . مثل هؤلاء الأزواج الخونة يستعملون وسائل جهنمية في خداع زوجاتهم!

ـ حضرتك متزوجة؟

ـ ولن أتزوج!

ـ لماذا؟

ـ كنت مخطوبة، ولكن بعد أن سمعت من خديجة هانم جرائم زوجها فسخت الخطبة وقررت ألا أتزوج أبداً!

ـ وأين تقيم خديجة الآن؟

ـ قد تكون تزوجت!

ـ لا أعرف!

ـ لا يمكن أن تتزوج بغير أن تخبرك، أنت شقيقها!

ـ لعل الصدمة أفقدتها عقلها!

ـ إنني أشفقت عليها . . كنت لا أريد أن أدفع لها في الشقة أكثر من ستة آلاف وخمسمائة جنيه . . ولكن بعد أن سمعت قصتها المؤلمة مع زوجها دفعت لها سبعة آلاف جنيه!

ـ بدل خيانة زوجها؟

ـ بدلاً من أن يأخذها رجل مني!

ـ وماذا تعملين حضرتك؟

ـ أنا سلوى وهبي نجمة السينما!

ـ أهلا . . وسهلاً!

ـ كيف لم تعرفني . . ألم تحضر أفلامي؟

ـ من الأسف أنهم لا يعرضون في اليمن الأفلام الجديدة!

ـ خسارة . .
ـ إنني لاحظت أنك غيرت رقم التليفون .
ـ طبعاً غيرته عندما علمت بفضائح عبد المتعال محجوب . . وخشيت أن تتصل بي الساقطات والراقصات وبنات الليل من صديقاته!
ـ لقد تحملت خديجة كثيراً!
ـ كانت على حق عندما قالت لي أنها اكتشفت أن الله يحبها .
ـ لأن عبد المتعال مات؟
ـ إنه لم يمت!
ـ صحيح؟ أنت تعرفين أنه لم يمت؟
ـ طبعاً، لم يمت . . إنه انتحر!
ـ انتحر؟
ـ نعم، انتحر بأن ألقى بنفسه تحت قطار حلوان!
ـ رحمه الله .
ـ بل سيذهب إلى جهنم مائة في المائة .
ـ لقد ذهب إلى جهنم وبقي فيها عامين!
ـ عامان فقط!
ـ هذا يكفي!
ـ لا يمكن، إن الرجل الذي يخون زوجته يجب أن يوضع في النار ألف سنة على الأقل!
ـ إذا كان قد خان زوجته!
ـ الأوراق تؤكد ذلك!
ـ الأوراق ربما تكذب!
ـ إلا الأوراق الرسمية!
ـ هل أنت قريبة سيد أفندي رجائي؟

ـ رجائي من؟

ـ باشكاتب السجن العام!

ـ لا أعرفه. . هل يشبهني!

ـ كلامك يشبه كلامه!

ـ أشكرك، إنك شبهت كلامي بكلام باشكاتب سجن!

ـ كلامه كله حكم!

ـ إن دمك خفيف!

ـ هذا من ظرفك!

ـ إنـــه يسرني أن أراك في أي وقت وسـأعــطيـك رقم تليفـــوني الخاص. .

ـ هذا شرف عظيم!

ـ إنك نسيت أن تذكر اسمك.

ـ إسمي. . إسمي. . عبد المتعال محجوب زوج خديجة هانم!

الفصل الخامس

ما كاد عبد المتعال ينتهي من رواية مأساته للمثلة سلوى وهبي، حتى امتلأت عيناها بالدموع. واهتز عبد المتعال وهو يرى الدموع تسقط من عيني الممثلة الحسناء كأن هذه الدموع غسلت العينين والمقلتين والوجه كله، فرأى لأول مرة وجه سلوى اللذيذ.

رآها امرأة رائعة في الخامسة والعشرين من عمرها. جمالها غريب، إنه مزيج من الطهر والفجور، من البراءة والإثارة

وكيف لم يرَ كل جمالها هذا إلا بعد أن بكت؟ لم يحس بها أنها امرأة إلا بعد أن امتلأت عيناها بالدموع! أيكون قد تصور أن الناس جميعاً تحجرت قلوبهم، فلما وجدها تبكي أحس لأول مرة أنه يجلس مع مخلوق حي لا مع قطعة حجر؟

لقد توهم عندما خرج من السجن أنه سوف يعانق كل امرأة يضع عينيه عليها، بعد أن حرم من زوجته خديجة عامين كاملين. ولكنه ما كاد يعلم أن زوجته لم تحزن لوفاته وأطلقت عليه الأكاذيب والتهم حتى كرهها، وكره كل امرأة معها.. إن غدر امرأة واحدة يجعلنا نلعن كل نساء العالم!

لقد أصبحت صورة زوجته الجميلة في عينيه هي صورة الباشجاويش عبد الجبار.. الكلمات التي قالتها عنه أشبه بصفعات

الباشجاويش وشتائمه. . وفي لحظات تصور أن كل امرأة ظالمة أشبه بالباشجاويش عبد الجبار. . حتى الممثلة سلوى وهبي كانت تبدو في عينيه إلى بضع لحظات أنها الباشجاويش عبد الجبار وإذا بدموعها تجعلها تخلع ثياب الباشجاويش وترتدي الثوب الأنيق الذي بدت فيه.

لأول مرة يلاحظ غدائر شعرها الأسود اللامع. لأول مرة يرى شفتيها وكأنهما خلقتا للقبلات. . إن بعض النساء خلق فمه للطعام والثرثرة. ولكن هذا الفم خلق للثم. . كأن الله رسمه على شفتيها وكتب عليه «لا يستعمل إلا للقبلات»!

كل ما في هذه المرأة جميل. . إنه يبحث عن عيب واحد فيها فلا يجد: يداها، ساقاها، خصرها، صدرها، أصابعها، حتى أظافرها جميلة، جميلة، جميلة!

إنه ليس الحب من أول نظرة، إنه الحب من أول دمعة!

وهيأ له الإعجاب المفاجىء أن الصالة التي يجلسان فيها ازدادت جمالاً وأناقة! إنها هي التي كان يقيم فيها منذ سبع سنوات، الأثاث هو هو، السجادة هي هي، النجفة هي هي. . ولكن كل هذا قد تغير في عينيه. ازداد جمالاً وفتنة. . كل ما تغير في الصالة أنه وجد فيه هذه الممثلة الساحرة. . إذا كانت وردة واحدة تخلق الجمال في غرفة، فما بالك بما تستطيعه امرأة فاتنة؟

وبحث عن لسانه في فمه فلم يجده. أراد أن يعبر لها عن إعجابه بجمالها وهي تبكي، فلم يجد الكلمات. . وأحس بأن قلبه يتمزق لبكائها. . كأن الذي رواه لها هو مأساتها لا مأساته. . وكأنها هي

التي فقدت حريتها عامين، وفقدت اسمها، وفقدت بيتها وفقدت زوجها . .

وأخيراً قال لها في حسرة:

ـ هل تبكين على مأساتي؟

قالت وهي تجفف دموعها بابتسامة:

ـ لا . . إنني أبكي على نفسي!
ـ هل اضطروك لأن تغيري اسمك؟
ـ كان اسمي سلوى وهبه . . والمخرج غير اسمي إلى سلوى وهبي!
ـ أنت أسعد مني . . إنهم غيروا حرفاً واحداً من اسمك، أما أنا فقد غيروا اسمي كله من عبدالمتعال محجوب إلى جرجس بطرس.
ـ إنني سعيدة بتغيير إسمي!
ـ إذن ماذا يبكيك!
ـ أبكي على الخمسمائة جنيه التي دفعتها ثمناً أكثر في الشقة . . عندما علمت من زوجتك أنك رجل سافل وخائن ونذل!

ولم يفاجأ عبد المتعال بأن مأساته لم تحرك قلب الممثلة الحسناء بل فوجىء بصدقها . . شعر أنه خرج من جحيم الكذابين إلى جنة الصادقين. عاش عامين يسمع كذباً، ويرى كذباً، ويستنشق كذباً وهذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها كلمة صادقة من ممثلة صناعتها الكذب!

إنها لم تفكر في ليالي الشقاء التي أمضاها في السجن، لم تتأثر للظلم الذي سحقه، لم تفجع لقصته الدامية. كانت وهي تسمع

قصته، تتذكر كيف استطاعت زوجته خديجة أن تمثل أمامها، وهي الممثلة الكبرى دور الزوجة المظلومة، وتقمصت الدور حتى خدعتها، وجعلتها تدفع خمسمائة جنيه أكثر مما كانت تنوي أن تدفع، مواساة للزوجة المفجوعة بخيانة زوجها الغادر.

اعتقدت أنها عندما دفعت هذا المبلغ، إنما دفعته مساهمة منها لكل الزوجات المخدوعات المغفلات، وإذا بها تكتشف أن خديجة هانم خدعتها واستغفلتها هي التي كانت تظن في نفسها أنها أستاذة في الخداع واستغفال الناس. أليست صناعتها أن تمثل دور المرأة الشقية، المعذبة، لتستدر الدموع من عيون المتفرجين؟ تضحكهم وقلبها يبكي؟ تبدو أمامهم في دور امرأة في الستين وهي في ربيعها الخامس والعشرين؟ تضع على رأسها في دور كليوباترا تاجاً من الصفيح والزجاج، وتوهم المشاهدين في المسرح أنه تاج من الذهب مرصع بالماس؟ تبدو على المسرح وشعرها الأشقر يسقط حتى يغطي ظهرها وشعرها أسود قصير؟..

أحس عبد المتعال بأن سلوى وهبي تبكي لأن امرأة أخرى خدعتها بتمثيلها، كل إنسان يحس بالغيظ عندما يخدعه إنسان آخر، كأنه شتمه وقال له أنه مغفل.. إن خديجة لم تقل لها أنها مغفلة فقط بل أخذت منها خمسمائة جنيه!

فوجىء عبدالمتعال بصدق سلوى. إنها تعترف أنها كانت مغفلة كثيرون من الناس تأبى كرامتهم عليهم أن يعترفوا بأنهم كانوا مغفلين.. شعوب ترفض أن تعترف بأنها كانت مغفلة، بل تحاول أن تستر هذه الغفلة باختراع أسباب ومبررات وأعذار لغفلتها الكبرى ولكن هذه الممثلة الشابة تعترف ببساطة أنها كانت مغفلة..

تعترف بصراحة أنها لم تتأثر لنكبة عبد المتعال، بل تصارحه أنها تبكي الخمسمائة جنيه. . كانت تستطيع أن تكذب عليه لله، ما أكثر الذين يكذبون له. يكذبون بغير مبرر، كأن كلمة الحق تقف في حلوقهم!

لو قالت له أن قصته أدمت قلبها لما صدقها، فقد علمته محنته أن يكفر بكل شيء. . وجد الإنسان كذبة ضخمة ليس فيه من الانسانية إلا اسمها. . ووجد الحياة كلها أكذوبة لغتها هي الكذب، فإذا تكلم الإنسان بصدق لم يفهمه أحد، وكأنه يتكلم لغة أجنبية!

لقد عاش عبد المتعال لمدة عامين في عالم من الكذب. دخل السجن كذباً، وخرج من السجن كذباً. . الأوراق الرسمية تكذب، والوثائق الحكومية تكذب، ومدير السجن يكذب على المصلحة، ومأمور السجن يكذب على المدير. وحراس السجن يكذبون على المأمور، والمسجونون يكذبون على الحراس، وباشكاتب السجن يكذب على الجميع!

وها هوذا يجد بعد عامين مخلوقاً صادقاً، فخيل إليه أنه رأى أعجوبة وأنه انتقل بطريق الخطأ إلى كوكب آخر. .

□□□

وقال لسلوى:

ـ إنني سعيد بصدقك!

فقالت له:

ـ ولماذا أكذب؟

ـ لأن الناس أصبحوا يكذبون وكأنهم يقولون السلام عليكم!

ـ من سوء حظك أن اليوم عيد ميلادي.
ـ وما علاقة عيد ميلادك بالصدق؟
ـ قررت بمناسبة عيد ميلادي ألا أقول ابتداءً من اليوم إلا الصدق
ـ هل أنت مجنونة؟
ـ وهل الصدق جنون؟
ـ في العالم الذي نعيش فيه!
ـ لقد تعلمت أن الصدق نجاة.
ـ هذه حقيقة ثبت كذبها.
ـ إنها حقيقة مثل الأرض كروية!
ـ كانت الأرض كروية إلى أن أثبت علماء الفضاء أنها بيضاوية!
ـ وهل أثبت علماء الفضاء أن الصدق جنون؟
ـ أثبت ذلك علماء الحياة!
ـ أحمد الله أنك رجل صادق!
ـ كنت أتمنى لو كنت رجلاً سافلاً وخائناً ونذلاً حتى لا تكوني مغفلة!
ـ أفضل أن أعرف الآن أنك رجل سافل وخائن ونذل، على أن أكتشف ذلك بعد سنوات!
ـ من سوء حظي أنني لست سافلاً وخائناً ونذلاً!
ـ من سوء حظي أنا!
ـ أنت أول امرأة تشترط في رجل هذه الشروط!
ـ إنني أحتقر الرجل الذي لا تجارب له!
ـ كنت أتصور أن المرأة تحتقر الرجل الذي يخونها!
ـ تحتقر من يخونها، وتحترم من يخون النساء الأخريات.
ـ إذن أنا لا أعجبك؟

ـ لا يعجبني الرجل الخام؟

ـ أنا خام؟ أنا متزوج من سبع سنوات!

ـ وكنت مخلصاً لزوجتك!

ـ منتهى الاخلاص!

ـ طبعاً.. أنت رجل بلا تجارب!

ـ وتجربتي مع زوجتي!

ـ هذه روضة أطفال!

ـ أنت امرأة غريبة!

ـ غرابتي في صدقي!

ـ وتعملين ممثلة!

ـ إنني كنت أمثل دور المرأة الكاذبة، لأن هذه هي المرأة المطلوبة في عالم الكذابين!

ـ وقررت أن تكوني صادقة ابتداءً من اليوم.

ـ من سوء بختك!

ـ بالعكس.. هذا من حسن حظي.. إنني ضقت بالكذب والكذابين!

ـ أنا أبحث عن رجل صادق!

ـ أنا؟

ـ ولكنك رجل ميت!

ـ من قال هذا؟

ـ أنت!

ـ أنا قلت أن الحكومة قالت أن عبد المتعال محجوب ميت..

ـ وإدارة السجن قالت أنك ميت.. وإدارة تحقيق الشخصية قالت أنك ميت.. فكيف تريد مني أن أحب رجلاً ميتاً؟

ـ لأنك تعرفين أنني حي!

ـ وَلكني ممثلة معروفة وسيعرف الناس أنني أعشق رجلاً ميتاً . . وسوف يعتبرونني أرملة، وهذا سوف يسيء إلى سمعتي بين المعجبين . . هل سمعت في حياتك أن نجمة مشهورة أرمل!

ـ وماذا تفعل النجمة إذا مات زوجها!

ـ تتزوج فوراً رجلاً آخر!

ـ ولكنك تقولين أنك تبحثين عن رجل صادق.

ـ الرجل الأسمر بين الشقر يصبح ملكاً للجمال!

ـ ها هوذا صاحب الجلالة أمامك!

ـ أنت لا تنفعني!

ـ إنني لا أفهمك!

ـ أريد رجلاً يقول لي صراحة: إنني رجل لا أستطيع أن أخلص لامرأة واحدة . . يقول لي أنه لا يعدني بأي شيء . . يقول: إنني رجل مجرم كلما رأيت امرأة أجري وراءها . . يقول لي: لا تثقي بي . . لا تطمئني إليّ . . إن عيني تزوغ كلما رأيت حواء تمشي في الشارع!

ـ إنها طلبات سهلة جداً!

ـ بالعكس، إنها صعبة جداً!

ـ بل في منتهى السهولة!

ـ كل رجل يحب امرأة يدعي أنه سوف يخلص لها طول الحياة، والرجل مثل الكلب لا يستطيع أن يخلص لأنثى واحدة!

ـ الله يسامحك!

ـ ما هي ثقافتك؟

ـ خريج كلية التجارة، قسم إدارة الأعمال!

ـ إذن أنت تعرف علم الحساب!

ـ طبعاً،

ـ أنت الرجل الذي أبحث عنه!

ـ تريدين أن أدير لك حساباتك!

ـ لا . . إن أختي سعاد تلميذة في الإعدادية وتحتاج لدروس في الحساب!

ـ تريدين مني أن أعمل معلم بنات؟

ـ كاد المعلم أن يكون رسولا!

ـ وأعرف أنه كاد أن يموت جوعاً!

ـ ظننت أنك عاطل!

ـ نعم، ولكن آخر منصب توليته هو مدير عام شركة مصر للبسكويت!

ـ هل تظن أن هذا المنصب بقي خالياً لمدة عامين في انتظار سيادتك!

ـ ربما يكون في انتظاري!

ـ إذا كانت زوجتك لم تنتظرك، فهل تنتظرك شركتك!؟

ـ ربما. . الشركات أكثر وفاء من الزوجات!

ـ مناصب المديرين في الشركات كفراش الغانيات، لا يبقى خالياً أبداً!

ـ أنا مصمم على أن أسترد اسمي وشرفي ومنصبي!

ـ هذا لن يحدث في يوم أو أسبوع!

ـ طَبعاً!

ـ ومن أين تأكل وأنت تجاهد لاسترداد حقوقك؟ هل لديك نقود في البنك؟

ـ لقد كنت موظفاً نزيهاً!

ـ إذن لا تملك مليماً!

ـ ولا مليم.

ـ ولهذا فأنت محتاج لنقود!

ـ لا . . لست محتاجاً لنقود!

ـ لتأكل!

ـ نعم . . نعم . . لقد نسيت أن الناس يأكلون!

ـ متى أكلت آخر مرة؟

ـ آخر مرة؟ لا أذكر تماماً . . أظن أن هذا كان من يومين!

ـ ماذا أكلت

ـ رغيفاً من الخبـز!

ـ اشتريته!

ـ صرفه سجن المحافظة!

ـ غريب أن تبقى معي كل هذا الوقت ولا تقول أنك جائع!

ـ كنت جائعاً للحنان وقد وجدته!

ـ والطعام؟

ـ عندما نجد الحنان ننسى الطعام!

□ □ □

ومـدت سلوى يدهـا إلى الجرس المعلق بجـوار المقعد وضغـطت عليه ودخلت الخادمة النوبية الحسناء فسألتها سلوى:

ـ ماذا عندنا من طعام جاهز؟

وتـأملت الخادمـة الأبنـوسيـة عبـدالمتعـال في جـلابيتـه المخـططة وقالت:

ـ عندنا فول مدمس!

وفزع عبد المتعال في مقعده، كأن عقربـاً لدغتـه وقال في صـوت مرتجف:

ـ فول مدمس؟ فول مدمس؟

قالت سلوى دهشة:

ـ ألا تأكل الفول المدمس!

ـ لقد أكلته عامين كاملين في الافطار والغداء والعشاء!

ـ إنني أحب الفول!

ـ عندما نأكل الفول باختيارنا يصبح لذيذاً.. ولكننا عندما نأكله مرغمين يصبح مراً!

ـ ولكنه فول في الحالتين!

ـ لا.. إن طعم الفول يتغير بتغير الهواء.. في جو السجن المخنوق يصبح حنظلاً.. وفي الحرية قد يصبح له طعم الرحيق!

ـ أنت الآن في الحرية.. ولهذا ستجد طعم الفول شهياً!

ـ ذكريات فول السجن بسوسه، سوف تجعلني لا أذوق الفول المدمس أبداً!

ـ لم أكن أعرف أن السجن بشع بهذه الصورة!

ـ لأن الحرية تاج على رؤوس الأحرار لا يراه إلا المسجونون!

ـ إنني آسفة لأننا لم نطبخ اليوم، لأنني مدعوة للغداء والعشاء خارج بيتي، ولا أستطيع أن أقدم لك طعاماً «بايت»!

ـ منذ عامين لم أضع في فمي طعاماً طازجاً!

ـ عندنا نصف فرخة من البارحة.

ـ نصف فرخة؟.. إنني مستعد أن آكلها ولو كانت من عصر قدماء المصريين.

ـ وطبق مسقعة من أمس!

ـ هذه مأدبة ملكية!

وأشـارت سلوى إلى الخادمـة أن تعد المـائدة لعبـد المتعال بـك، ونظرت الخادمة باحتقـار لعبد المتعـال الذي تضـاءل في مقعده تحت نظرات الخادمة المذهولة.

وأحس عبـد المتعال لأول مـرة بالجـوع. كأنـه شم رائحة نصف الفرخة وسلوى تنطق بها، كأنه يشهدها أمامه. اختفت فجأة صورة سلوى وظهـر مكانها نصف الفـرخة.. مثـيرة مثلها، شهيـة مثلها، تلتهم مثلها..

وارتاعت سلوى وهي ترى عبد المتعال يأكلها بعينيه.

ورأت شيئاً غريباً يرتسم فـوق شفتيه، وخيـل إليها أنـه سيهجم عليها ويغتصبها.. فـأسرعت تنتقل من المقعـد الذي كـانت تجلس فيه بجواره إلى مقعد بعيد عنه، تفصل بينهما كنبة طويلة وتظاهـرت بأنها تريد أن تفتح الراديو، ثم قالت له في عطف:

- يبدو أنك تحلم!
- فعلاً.. أحلم!
- تحلم بماذا!
- بالفخذ!
- أنت رجل قليل الأدب!
- إنك قلت لي أنك تريدين الصدق.. أنا أحب الفخذ!
- أنا ممثلة.. ولكنني سيدة محترمة!
- إنني مؤمن بأنك سيدة محترمة!
- وكيف تقول هذا الكلام لسيدة محترمة في أول لقاء معها؟
- أقول الحقيقة!
- المفروض أن تقول مثلاً أنك تحب عينيها!
- أنا لا أحب الرأس كله!

ـ إنني أعجب بالرجل الذي يحب رأس المرأة قبل أن يحب جسدها!

ـ أنا لا أتحدث عن المرأة... إنما أتحدث عن الفرخة!

ـ أي فرخة؟

ـ الفرخة التي طلبت من خادمتك أن تحضر لي نصفها!

□□□

وأطلقت سلوى ضحكة عالية.. وكهربته ضحكتها. كانت وهي تضحك أشد سحراً منها وهي تبكي.. كانت تضحك من كل قلبها.. كل شيء فيها يضحك..

وجلس عبدالمتعال مشدوهاً لضحكتها العالية الساحرة. وأسكرته الضحكة! فنسي نصف الفرخة، وعاد يشرب من هذه الضحكة الفاتنة!

وقالت سلوى وهي لا تزال تضحك:

ـ لقد تصورت أنك تتغزل فيَّ، فإذا بك تتغزل في الفرخة!

ـ في نصف الفرخة من فضلك!

ـ لقد تصورت في إحدى اللحظات أنك انقلبت إلى وحش مفترس فخفت منك.. أنا آسفة أنني قلت لك أنك قليل الأدب!

ـ لا تأسفي.. فقد تمنيت في تلك اللحظة لو كنت قليل الأدب فعلاً.

ـ إذن أنت تعترف أنك فكرت في أن تلتهمني!

ـ حدث هذا فعلاً، عندما رأيت الدموع في عينيك!

ـ أنا سعيدة أنك بدأت تقول الصدق!

ـ لقد وعدتك أن أكون صادقاً!
ـ دائماً؟
ـ حتى أموت!
ـ معي فقط؟
ـ معك.. ومع الناس!
ـ إنك أول رجل صادق قابلته في حياتي!
ـ هذا من حسن حظي!
ـ وسوف أكون صادقة معك.
ـ وهذا من حسن ظني.
ـ لا.. إنه من سوء حظك!
ـ لماذا؟
ـ لأن الصدق دمه ثقيل في كثير من الأحيان!
ـ إن دمك خفيف!
ـ عندما أكذب!
ـ وعندما تصبحين صادقة!
ـ سيكون دمي ثقيلاً جداً!
ـ على كل، فأنا أفضل أن تكوني صادقة وثقيلة الدم، على أن تكوني كاذبة وخفيفة الدم!
ـ المرأة تكذب عندما تضطر إلى الكذب!
ـ والرجل؟
ـ يكذب باختياره!
ـ أعتقد أن الكذب هو سلاح الضعفاء..
ـ إذن فالكذب من صفات العبيد!
ـ عندما لا يقوى العبد على الصراخ يكذب!
ـ وما رأيك في أن الأقوياء يكذبون؟

- أكاذيب الأقوياء لها عضلات!

- ولهذا تصرع الحقيقة!

- أكاذيب الأقوياء تعيش، لأنها تخيف الضعفاء، فيهزون رؤوسهم متظاهرين بتصديقها..

- لو أن الضعفاء قالوا «لا» لأكذوبة القوي، لتهاوت الأكذوبة تحت مطارق كلمة «لا»!

- لا يستطيع الضعفاء أن يقولوا «لا» وألسنتهم مقطوعة!

- إذا كانت ألسنتهم مقطوعة فيكفي أن يصمتوا. مجموع زفراتهم تستطيع أن تصنع عاصفة تقتلع الظالم!

- المسجونون لا يتنفسون، إنما ينزفون!

- هذا النزيف ممكن أن تكتب به على الأرض لعنات المظلومين!

- الأيدي المرتعشة لا تكتب إلا الشعارات المرتعشة!

- إنك تدافع عن أننا نكذب كثيراً!

- أنا لا أدافع عن الكذب إنما أبرر وجوده؟

- ألا توجد كلمات صادقة لتعبر عن مشاعرنا؟

- تفرغ أحياناً الكلمات الصادقة، فنضطر أن نبحث عن كلمات كاذبة، ثم تختفي الحقائق ولا تبقى إلا الأكاذيب!

- لأن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق!

- لأن الكذب له بريق خداع، أما الحقيقة فبريقها في داخلها!

- في داخل هذه الجلابية المخططة التي ترتديها!

- في داخل هذه الجلابية رجل صادق!

- ولكنك تعيش في كذبة كبيرة. إسمك كذب، تاريخك كذب، وبصماتك كذب!

- إنها أكاذيب بأمر القانون!

ـ ولكنها أكاذيب.
ـ مفروضة عليّ!
ـ إنك شريك فيها!
ـ أنا بريء منهـا!
ـ الـدليل عـلى أنك شريـك، أنك قبلت أن تكـذب لتخرج من السجن.
ـ لو ذقت مرارة السجن يوماً واحداً، لغفرت لي كل أكاذيبي!
ـ والآن.. لن تكذب مرة واحدة؟
ـ ولا نصف مرة!
ـ حتى لو أرغمـوك على أن تكذب؟
ـ حتى لو شنقوني!
ـ الآن أقول لك أنك تعجبني جداً.
ـ إنني سعيد جداً بإعجابك.
ـ لأنك أول رجل صادق في حياتي!
ـ سأكون أول رجل.. وآخر رجل!
ـ إنني الآن مستعدة أن أعطيك أي شيء تريده، أي شيء عندي أضعـه بـين يـديـك.. حيـاتي، قلبي، وجسـدي.. كلهـا ملك يديك.. أطلب مني ما تشاء!

وتلفت عبد المتعال حـوله، ثم قـام من مقعده، واتجـه إلى مقعد بجوار سلوى ومال برأسه على رأسها وقال لها هامساً:

ـ أريد نصف الفرخة!

الفصل السادس

جلست النجمة السينمائية سلوى وهبي أمام مائدة الطعام ترقب عبد المتعال في ذهول وهو يلتهم نصف الفرخة وطبق المسقعة. كان ينظر إلى الطعام في شبق غريب، كأنه ينظر إلى ملكة جمال، فيها جاذبية لا تقاوم، ولها إغراء مثير. . .

لم يرفع رأسه عن الطبق وينظر مرة واحدة إلى سلوى. . . استغرقه الطعام استغراقاً تاماً. لم يكن يأكل بفمه فقط. كان يأكل بعينيه وأذنيه وأنفه وعقله وإحساسه. تسأله فلا يجيب. تقول نكتة فلا يضحك. نصف الفرخة سلب لبه. وكأنه النصف الأسفل من النجمة الساحرة مارلين مونرو وقع بين يديه فأسرع يلتهمه قبل أن يشاركه فيه غريب. كان يحملق في طبق المسقعة وكأنه يحملق في غانية، يمد إليها أصابعه، وكأنه يلثم بأصابعه مختلف مفاتنها!

وكانت سلوى مذهولة من تصرف عبدالمتعال. إنه أول رجل في حياتها فضل نصف فرخة عليها. بهره طعامها أكثر مما بهره جمالها.

لقد عرفت رجالاً كثيرين كانوا يركعون تحت قدميها. . عرفت مجدي باشا الأسيوطي وزير المواصلات الذي كان يهرب من اجتماع هام لمجلس الوزراء ليحافظ على موعد غرام معها. . عرفت أحمد باشا داود السفير السابق الذي اعتذر عن عدم حضور حفلة ملكية

في قصر عابدين ليبقى جالساً تحت قدميها يتغـزل في جمال سـاقيها. عـرفت الكاتب المشهـور الأستاذ محسن نـور الدين الـذي رفض أن يتم مقاله الأسبوعي الذي ينتظره ألوف القراء لكي يرقص معهـا في السهرة التي تقيمها الجمعية اللبنانيـة في فندق هليـوبوليس بـالاس. عرفت المليونير أحمد باشا الأبياري الذي ألغى رحلة هامة سيقوم بها إلى لندن لعقد صفقة مالية ضخمة، ليمضي معهـا يومـين في القصر الذي يملكه في مزارعه. عرفت رجالاً يضحون بزوجـاتهم وحبيباتهم وعشيقاتهم من أجل أن يمضـوا معها سـاعة واحـدة. وها هي تـرى اليوم أمامها رجلاً لا يرضى بأن يضحي بنصف فرخة من أجلها!

أيكون الجائع عاجـزاً عن الحب؟ هل تـوجد عـلاقة بـين البطن والقلب؟ البـطون الجائعـة لا تعـرف كيف تمـارس الحب. يجب أن تشبع أولاً لتحب؟ إنها كثيراً ما مثلت روايات ومسرحيـات وأفلامـاً كان أبطالهـا الفقراء المعـدمون يفضلون أن يمـوتوا جـوعاً من أجـل لحـظة حب مع امـرأة جميلة.. أتكون كـل هذه المـواقف من أوهام المؤلفين واختراع الأدباء؟!

إنها ترى أمامها لأول مرة في حيـاتها رجـلاً يسحره طبق المسقعـة أكـثر مما يسحـره جمالهـا. ويجد في بـريق نصف الفرخـة مـا يـطفىء بريقها. إن أكثر شيء يصدم الغانية ألا تثير الإحساس بالرجـولة في أي رجـل يجلس معها عـلى انفراد في غـرفة واحـدة. الغانيـة تشعر دائماً أن فيها مغنـاطيساً يجـذب أي رجل، فـإذا لم ينجذب الـرجل فلا بد أن العيب في المغناطيس!

وخـطر ببال سلوى أن هـذا الرجـل الغـريب يتـدلـل عليهـا.. يتظاهر بأنه لا يريدها وهو واقع في هواهـا. تأملتـه طويـلاً ووجدت

أنه صادق في تصرفه.. وأنه لا يتصنع ولا يمثل ولا يتظاهر بما ليس فيه!

وشعرت بالغيظ. تمنت لو كذب عليها. لو تظاهر بأنه مهتم بها.. لو تصنع أنه يريدها.. منذ دقائق فقط كانت تحلم برجل صادق مائة في المائة، وها هو ذا أمامها.. ماذا فعلت بصدقه؟ تصرفه هذا أهان كرامتها. لقد فتحت له أبواب المتعة والنعيم، قالت له بصراحة وصدق أنها تضع جسدها تحت تصرفه، وإذا به يفضل لحم الفرخة على لحمها، وصدر الفرخة على صدرها، وفخذ الفرخة على فخذها، وزاد من ضيقها به أنه فضل عليها نصف فرخة لا فرخة كاملة!

□□□

وشعرت برغبة في أن تؤلمه. أن تعكر عليه لحظات انسجامه مع نصف الفرخة، وفكرت أن تخطف الطعام من أمامه، وتلقيه من النافذة، ولكنها فضلت أن تهينه بطريقة أخرى فقالت له ساخرة:

ـ ألاحظ أنك تأكل بأصابعك؟ ألا تعرف كيف تستعمل الشوكة والسكين؟

ـ الشوكة والسكين؟ إنهما ممنوعات!

ـ من الذي منعهما؟

ـ السجن يمنع استعمالهما!

ـ أنت لست في السجن الآن!

ـ عندما نخرج من السجن تصحبنا أوامر الباشجاويش عبد الجبار!

ـ يظهر أنك نسيت أشياء كثيرة في السجن، أشياء هامة!
ـ ماذا تقصدين؟
ـ نسيت أنك رجل؟
ـ هذا هو الشيء الذي لم أنسه أبداً؟
ـ الدليل أنك نسيت أنك رجل، إنني قلت لك أن جسدي تحت أمرك، ونصف الفرخة تحت أمرك، فأقبلت على الفرخة وأهملت المرأة!
ـ لقد وعدتك بأن أكون صادقاً!
ـ لولا حبي لصدقك لرميتك من النافذة!
ـ أعترف أن نصف الفرخة أثارني..
ـ أكثر مني؟
ـ أنت شيء.. والفرخة شيء آخر!
ـ أنا ماذا؟
ـ أنت الحلوى!
ـ عدت تغازلني؟
ـ لأنني أكلت نصف الفرخة!
ـ وجاء الآن دوري؟
ـ ليتني أستطيع أن ألتهمك..
ـ لماذا لا تلتهمني؟
ـ لا أستطيع!
ـ هل هذا أيضاً أحد ممنوعات الباشجاويش عبدالجبار في السجن؟
ـ أنا مريض بالسكر.. والحلو ممنوع!
ـ أعطيك حقنة انسولين!

ـ عندما تزوجت قررت أن أعتبر نفسي مريضاً بالسكر، وحرمت على نفسي أي امرأة حلوة!

ـ وإذا كانت امرأة دميمة؟

ـ كل امرأة حلوة، كل امرأة فيها حلاوة مختلفة، ولها مذاق مختلف!

ـ كيف تعرف ذلك وأنت لم تذق سوى امرأة واحدة هي زوجتك؟

ـ ليس ضرورياً أن أقيم في كل بلد في الدنيا لأعرف أين هو أجمل بلد في الدنيا!

ـ أنت تذوق المرأة بعينيك!

ـ بعض العيون قادرة على أن تذوق الأشياء كما يذوقها اللسان. بعض الطهاة المبتدئين يتذوقون الطعام ليحكموا عليه. ولكن الطاهي الماهر يستطيع بنظرة أن يعرف إذا كانت قطعة اللحم استوت، أو لا تزال في حاجة إلى بعض النار!

ـ عجيب أمرك! إنك تتكلم كخبير!

ـ الطبيب لا يصاب بكل الأمراض حتى يستطيع أن يشخصها!

ـ يظهر أنني لا أعجبك!

ـ أنت تعجبينني جداً!

ـ أكثر من زوجتك؟

ـ أكثر منها ألف مرة!

ـ لماذا تخاف إذن!

ـ خائف من النار!

ـ ناري؟

ـ نارك. . ونار جهنم!

ـ أتخاف أن يضعوك في السجن لأنك خنت زوجتك معي؟

ـ أنا لم أصدق أنني خرجت من السجن!

ـ اطمئن. النهضة النسائية لم تتقدم أثناء سجنك، ولم يصدر بعد قانون يعاقب الرجل الذي يخون زوجته!

ـ لقد سمعت في إذاعة السجن أن المرأة نالت كل حقوقها!. .

ـ كل الحقوق. . إلا هذا الحق!

ـ هذا شيء يؤسف له حقاً!

ـ أنت تريد أن تتساوى المرأة بالرجل!

ـ طبعاً!

ـ وهل كنت تسمح لزوجتك بالخروج من البيت كما تشاء!

ـ لا، طبعاً!

ـ إذن، أين هي المساواة!

ـ كنت أبقى معها في البيت ولا أخرج أبداً!

ـ وهل كانت سعيدة بذلك؟

ـ كانت ترجوني أن أخرج. . تتوسل إليَّ أن أذهب إلى قهوة، إلى مسرح، إلى زيارة زملائي، فكنت أرفض!

ـ لماذا كنت تقول لا؟

ـ لأنني سمعت أن أكثر الزوجات يشكون من أزواجهن لأنهم لا يبقون معهن في البيت!

ـ أنت زوج نموذجي.

ـ جداً!

ـ ولهذا قالت لي زوجتك أنك رجل سافل وحقير ودون!

ـ أقسم لك أنني لم أخرج من البيت مرة واحدة في غير أوقات العمل. لم أخرج وحدي من البيت في أيام العطلة ولا أيام الإجازة.

ـ أنا أصدقك!

ـ لماذا إذن ترمين زوجتي بكل هذه التهم الكاذبة؟

ـ لأنك لم تخرج من البيت!

ـ وأنا لا أمزح!

ـ ولا أنا!

ـ إنني واثق أن زوجتي خديجة لا تزال مخلصة لي كما أنا مخلص لها!

ـ كيف تخلص لك وقد وجدوا في مكتبك صور راقصات وخطابات غرامية؟

ـ إنها مستندات مزيفة!

ـ مثل المستندات الموجودة في السجن التي تثبت أنك مزور ونصاب..

ـ تماماً!

ـ وماذا تريد أن تفعل الآن؟

ـ سوف أبحث عنها وأقنعها ببراءتي..

ـ هل تعرف عنوانها!

ـ لا أعرفه..

ـ قد تجدها عند أبيها!

ـ أبوها مراد بك حسين سكرتير عام وزارة الأشغال مات منذ عشر سنوات.

ـ إذن ستجدها عند أمها.

ـ أمها ليست من مصر. وهي سيدة تركية ماتت منذ خمس

سنوات في اسطنبول.

ـ قد تكون زوجتك سافرت إلى أهلها في اسطنبول.

ـ لا يمكن، مستحيل!

ـ ما هو المستحيل؟

ـ إنها لا تستطيع أن تسافر إلى الخارج قبل أن تستأذنني.. ومصلحة الجوازات لا تمنحها تأشيرة خروج إلا إذا حصلت على إقرار مني..

ـ أنت نسيت أنك ميت؟

ـ ولكني ما زلت على قيد الحياة!

ـ نعيك نشر في الصحف، ورئيس الوزراء أرسل مندوباً لتشييع جنازتك، كل هذا يؤكد لمصلحة الجوازات أن زوجتك أصبحت أرملة!

ـ سوف أبحث عنها تحت الأرض!

ـ المفروض أنك أنت الموجود الآن تحت الأرض!

ـ سأنشر تكذيباً في الاهرام عن الخبر الذي نشروه عن وفاتي.. القانون يعطيني حق الرد على أي خبر كاذب ينشر عني.. والجريدة مضطرة أن تنشره مجاناً.

ـ الذي أعرفه أن هذا الحق مباح لك لمدة أسبوع أو شهرين.. ولكن خبر وفاتك منشور منذ عامين!

ـ سأنشر إعلاناً!

ـ في الصحف إعلانات عن فقد ختم.. أو فقد كلب.. أو فقد حافظة نقود.. ولكني لا أذكر أنني قرأت إعلاناً عن فقد زوجة!

ـ وماذا تريدين مني أن أفعل!

ـ يجب أولاً أن تعود إلى قيد الحياة!

ـ وكيف أعود إلى قيد الحياة!

ـ تثبت أنك عبد المتعال محجوب مدير شركة مصر للبسكويت . .

□□□

وانتفض عبد المتعال من المائدة، وانطلق في طريقه إلى الباب فلحقت به سلوى، وأمسكته من جلابيته، وقالت له:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ إلى شركة مصر للبسكويت . .

ـ لا يمكن أن تذهب هكذا . . لن يسمحوا لك بدخول الشركة وأنت في هذه الجلابية المخططة القديمة.

ـ إنها جديدة، وليست قديمة!

ـ المسألة ليست جديدة أو قديمة . . المسألة أنهم سينكرونك وأنت في هذه الجلابية!

ـ كل كبار موظفي الشركة أصدقائي!

ـ إنهم أصدقاء المدير العام!

ـ أنا كنت المدير العام . .

ـ «كان» فعل ماض لا يستعمل في هذه الأيام!

ـ لن ينكروا . . مستحيل أن ينكروا . . قلت لك أنهم جميعاً أصدقائي!

ـ أنت الآن المدير العام سابقاً . . وهم الآن أصدقاء المدير العام الحالي وأعداء المدير العام السابق!

ـ أنا لا أريد منهم إلا شهادة بأنني حي . .

ـ مصلحة المدير الحالي أنك مت . . ولهذا فسوف يقولون جميعاً أنك مت!

ـ أنت لا تعرفينهم كما أعرفهم!
ـ أنا أعرف الناس!
ـ وأنا كنت أعرف الناس!
ـ تغيرت الدنيا كثيراً في مدة العامين اللذين أمضيتهما في السجن!
ـ ماذا تغير في الدنيا؟
ـ كل كرسي مدير.. يجلس عليه الآن إله صغير!
ـ هذا من علامات يوم القيامة!
ـ القيامة قامت أثناء وجودك في السجن!
ـ ماذا حدث في الدنيا؟
ـ أصبح الناس يمشون على أيديهم بعد أن كانوا يمشون على أرجلهم!
ـ لم ألاحظ ذلك أثناء سيري في الشوارع.
ـ لأنك أنت أيضاً أصبحت تمشي على يديك!
ـ تقصدين أن كل شيء أصبح يمشي بالمقلوب!
ـ فعلاً!
ـ وماذا تغير في الدنيا أيضاً!
ـ أصبح الناس ينظرون إلى الملابس لا إلى الذين داخل الملابس!
ـ في أيامنا كان الناس يرتدون الملابس!
ـ الآن، أصبحت الملابس هي التي ترتدي الناس!
ـ وما السبب في ذلك؟
ـ ارتفعت أثمان الملابس؟
ـ وانخفضت أثمان الناس؟
ـ كل شيء ارتفع ثمنه.. والناس انخفضت أثمانهم!

ـ لعلهم أدخلوهم في التسعيرة!
ـ لو أدخلوهم في التسعيرة لارتفعت أثمانهم!
ـ وماذا حدث للناس أيضاً؟
ـ ضعفت أبصارهم . .
ـ هل انتشر الرمد؟
ـ كلا . . انتشرت الأنانية!
ـ كان الناس يبصرون بعيونهم.
ـ الآن يبصرون بمصالحهم!

□ □ □

وانتفض عبد المتعال مرة أخرى، وانطلق إلى الباب، فتشبثت به سلوى وقالت:
ـ انتظر، إلى أين أنت ذاهب؟
ـ إلى السجن!
ـ وهل السجن أحسن من خارج السجن؟
ـ كلاهما سواء!
ـ إذن ابق هنا!
ـ ماذا أستطيع أن أفعل؟
ـ أثبت أنك على قيد الحياة!
ـ ما فائدة أن أثبت أنني على قيد الحياة ولا توجد حياة!
ـ يكفي أن يسترد رجل واحد حقه ليقلده باقي الناس ويستردوا حقوقهم . . كما أنه يكفي أن يتهاون رجل واحد في حقه ليقلده باقي الناس!
ـ الناس كالقرود!
ـ لقد كان أصلهم قروداً!

ـ أتريدين أن تقولي أن الرجال مثل النساء يتسابقون الى الموضة؟
ـ إنهم يغيرون مبادئهم كما تغير المرأة ثوبها، تبعاً للموضة. . يتنقلون بسرعة مذهلة بين المبادىء القصيرة والمبادىء الطويلة. . بين المبادىء الواسعة والمبادىء الضيقة. . بين الأفكار فوق الركبة والأفكار تحت الركبة!
ـ ولا يستحون من تغيير أفكارهم!
ـ هل رأيت امرأة تستحي من تغيير موضة العام الماضي إلى موضة العام الجديد؟
ـ إن رأيك في الرجال سيىء جداً!
ـ ورأيي في النساء أسوأ!
ـ وما هو السبب في كل هذا الذي حدث؟
ـ حذفوا كلمة (لا) من القاموس!
ـ هل حذفتها الحكومة؟

ـ حذفها الناس. أصبحت هذه الكلمة موضة قديمة. . أصبحت كلمة غير مستعملة. . بل أعتقد أنها أصبحت كلمة بذيئة، لا يجوز أن يستعملها الناس في أحاديثهم ومجالسهم.

ـ لا يقولونها أبداً!
ـ قد يقولونها في سرائرهم، ولكنهم لا يجرؤون على الهمس بها. .
ـ سوف أقول لهم. . (لا)!
ـ الذي يركع أمام الإله الصغير في السجن، يسجد أمام الآلهة الكبار خارج السجن.
ـ إنني وعدتك أن أكون صادقاً معك.
ـ المهم أن تكون صادقاً مع نفسك. .

ـ سوف أذهب إلى الشركة!

ـ بعد أن تخلع جلبابك!

ـ هل الجلباب هو راية الخائفين؟

ـ الجلباب الأزرق كان دائماً في بلادنا شعار صراع الفلاحين من أجل الحرية والاستقلال.

ـ إذن لماذا تصرين على أن أخلع الجلباب؟

ـ لأن الجلابية التي ترتديها جلابية مخططة تعلن أنك كنت مسجوناً!

ـ وهذه هي الحقيقة. أنت منذ دقائق كنت تقولين أنك تريدين أن أكون رجلاً صادقاً، فكيف تريدين مني الآن أن أخفي الحقيقة؟

ـ لأن هذا الجلباب جزء من الأكذوبة.. أنت دخلت السجن كذباً.. وخرجت منه كذباً.. والجلباب الذي ترتديه هو بقية الأكاذيب..

ـ ليس عندي بذلة!

ـ عندي لك بذلة!

ـ بذلتك أنت!

ـ لا.. إنها بذلة شقيقي الدكتور منير وهبي الطبيب في إمارة شولح!

ـ هل أصبح لشولح إمارة؟

ـ إنها جزيرة صغيرة في البحر الأحمر اكتشفوا فيها بترولاً وأصبح شيخها أميراً!

ـ يجب أن تستأذنيه أولاً، قبل أن آخذ بذلته!

ـ إنه لن يعود قبل ستة أشهر!

ـ معنى هذا أنني أستطيع أن أرتدي بذلته لمدة ستة أشهر؟

- لا تهتم بهذا . . لدي بذلات كثيرة لأخي!
- ممكن أن أذهب إلى ترزي ليضبط البذلة على مقاسي؟
- إن أخي في طولك وعرضك . . في قوامك بالضبط؟
- أريد أن أقيس البذلة . .
- تعال معي إلى غرفة نومي!
- غرفة نومك؟
- نعم . . لأنني أحتفظ بملابس أخي في غرفة نومي!
- وسوف تدخلين معي إلى غرفة نومك؟
- وماذا في هذا؟
- إنني لم أدخل في يوم من الأيام إلى غرفة نوم امرأة أخرى سوى زوجتي!
- تخاف على نفسك!
- كلا . . أخاف عليك!
- أنا أعتبرك أختي!
- تقصدين أخاك . .
- لا . . أختي!
- أختك؟
- تصرفاتك وتمسكك بمبادئك وإخلاصك لزوجتك تجعلني أعاملك كأنك أختي!
- وأنت؟
- أنا أخوك!
- تقصدين أن الدنيا أصبحت تمشي بالمقلوب . . وأنني أصبحت المرأة . . وأنت أصبحت الرجل!؟
- لا أقصد ذلك، وإنما الواقع أننا دون أن نشعر تبادلنا الأدوار . . أنا تصرفت كذئب يريد أن يفترسك، وأنت تصرفت

كحمل يريد الإفلات من أنيابي.. إنك أول رجل رأيته في حياتي، يحمر وجهه خجلاً عندما أدعوه لغرفة نومي!

ـ هل احمر وجهي؟

ـ احمر وجهك، واصفر وجهك!

ـ لم أشعر بذلك!

ـ لعله خجل طبيعي!

ـ أنا لست خجلاً، أنا مضطرب!

ـ قلت لك من قبل أنك رجل عذراء!

ـ هل هذا مديح.. أم إهانة؟

ـ الإثنان معاً!

ـ خيبت أملك؟

ـ لا.. بالعكس.. ازددت رغبة فيك.. اخرج من هنا!

□□□

ونظر عبد المتعال إليها في دهشة وعجب. وارتسمت على وجهه علامة استفهام كبيرة وقال:

ـ أتطردينني!!

قالت وهي تميل إليه، وتكاد أنفاسها الملتهبة تحرق وجهه:

ـ من غرفة الطعام فقط!

ودفعته سلوى بيدها. ومشى أمامها مسلوب الإرادة.. ووجد نفسه في صالة البيت، ثم دفعته إلى دهليز صغير، وانحرفت به إلى باب غرفة مغلق.

وتسمر في مكانه. وكأنه استعاد لأول مرة سيطرته على قدميه

وقال وهو يلهث:

- أين تذهبين بي؟
- إلى الجنة

ونظر إليها في ذهول.. ثم استأنف سيره وهو يقول بصوت المغلوب على أمره:

- بشرط.. بشرط ألا أخون زوجتي!!

الفصل السابع

أطفأ الأستاذ جلال حمدي، رئيس تحرير جريدة (الصباح الجديد) سيجارته في منفضة السجائر الفضية، المجاورة لفراشه، وتأمل في استرخاء سحب الدخان، وهي ترتفع أمام عينيه في دوائر صغيرة وكبيرة، ثم تصطدم في سقف غرفة نومه، ومد ذراعه وسحب البطانية الوردية التي كانت تحت قدميه، ووصل بها إلى تحت ذقنه. وتوقف قليلاً، كأنه قام بجهد كبير ثم عاد ومد ذراعه وأطفأ نور الأباجورة.

وأحس جسمه بالدفء اللذيذ المثير.. إن هذه البطانية الكهربائية التي اشتراها أثناء رحلته الأخيرة إلى إيطاليا أغنته عن التفكير في الزواج.. كان يعتقد دائماً أن الفائدة الوحيدة للزوجة أن تدفىء فراشه في الليالي الباردة.

ثلاثة شهور في العام فقط هي التي كان يشعر فيها بحاجته الملحة إلى الزواج، وهي شهور ديسمبر ويناير وفبراير، عندما كان يدخل فراشه ويتصور أنه دخل بطريق الخطأ إلى فريجيدير ليمضي الليل فيه.. كان، وهو يرتعش من البرد، يندم على أنه لم يتزوج. وكلما اشتد البرد لعن الصحافة التي لم تترك له وقتاً للزواج وقرر أن يتزوج في صباح اليوم التالي، فإذا جاء الصباح وجاءت معه الشمس الدافئة نسي الزواج!

ولٰكنه منذ أن اشترى البطانية الكهربائية لم يعد يشعر بحاجة ملحة إلى الزواج. يكفيه أن يحرك عجلة صغيرة في البطانية فترتفع درجة حرارتها، أو تنخفض درجة حرارتها كما يشاء. هل يستطيع أن يجد في أي امرأة المزايا التي يجدها في البطانية الكهربائية؟

من مزايا هذه البطانية أنها ليس لها صوت. ما أشقى الأزواج الذين تبدأ زوجاتهم بالكلام في اللحظة التي يريدون فيها أن يغمضوا عيونهم.. البطانية لا تتكلم في الوقت الذي يريد فيه أن يخلو بنفسه. لا تتحرك أثناء نومه فتوقظه من أحلامه الجميلة. إنها لا تتشاجر. إنه يعرف أن الفراش هو المكان المختار الذي تفضله الزوجة للخلاف والشجار والخناق. كأن المرأة لا تستطيع أن تتشاجر وهي واقفة على قدميها!

الرجل العادي قد يتحمل ثرثرة امرأة في فراشه، فهو يدخل إلى الفراش ليستريح وينام. أما الكاتب والفنان والصحفي فهو يدخل فراشه ليقوم بعملية خلق، أو يستأنف عملية خلق.. وهو يتقلب في هذا الفراش يضع أجمل ألحانه أو يضع أحلى موسيقاه أو ينظم أروع شعره، أو يبتكر أعظم المواقف المسرحية!

المؤلف مثلاً يأخذ معه إلى فراشه أبطال قصصه، يستأنف معهم الحوار الذي بدأه طوال اليوم. يحرك الواقفين، وينطق الساكتين، ويصالح المتخاصمين، ويحل العقد أو يعثر على عقد جديدة.. وكثيراً ما أخبره صديقه القصاص توفيق الحكيم أنه كثيراً ما استيقظ في الصباح فوجد حلولاً لمواقف قصصه، لم يكن يجد لها حلاً وهو في يقظته. عقل الفنان يعمل أثناء نومه أسرع مما يعمل في يقظته. فراشه يتحول إلى ستديو. وسادته تتحول إلى ملهمة.

الموسيقار عبدالوهاب قال إنه كثيراً ما كان يجد ـ وهو يفتح عينيه في الصباح ـ جملة موسيقية كان يبحث عنها دون جدوى في اليوم السابق. صديقه الشاعر علي محمود طه قال إنه نظم قصيدة «الجندول» الرائعة وهو يتقلب في فراشه في فندق من الدرجة الثالثة في البندقية. . كما يذكر جلال حمدي أنه التقى بأفكار أعظم حملاته السياسية وأكبر ابتكاراته الصحفية وهو راقد في فراشه بعد منتصف الليل. . كأن الوحي راقصة تعمل في كباريه ولا تلتقي بعشاقها، إلا بعد أن تنتهي من عملها في الكباريه. . ولقد لاحظ جلال أن هذه الراقصة امرأة غيورة، لا تهبط عليه إلا إذا كان وحده، ولا يذكر طوال حياته الصحفية أن الوحي نزل عليه أثناء وجوده مع امرأة في الفراش!

وأغمض عينيه ليحلم. تذكر أنه عندما كان سعيداً في حبه مع الممثلة سلوى وهبي كان لا يستطيع أن يكتب كلمة واحدة عن الحب. توقف عن ممارسة هوايته في كتابة القصص. وعندما فشل في حب سلوى تضاعفت هوايته في كتابة قصص الحب!

كان دائماً يجد وقتاً، وسط دوامة العمل الصحفي، ليكتب قصة تخفق لها قلوب ألوف النساء. وهو لم يستطع بكل بلاغته أن يهز قلب امرأة واحدة هي سلوى وهبي. . . وقد كتب قصته المشهورة (انتصار الحب) في أيام هزيمته الكبرى مع النجمة المشهورة!

كان الوحي يهبط عليه في كل ليلة يعيش فيها وحدته المريرة. كان الوحي يطرق بابه في الوقت الذي لم تعد سلوى تطرق فيه باب شقته. وقال النقاد المغفلون يومها أن قصة (انتصار الحب) كتبت بأحمر شفاه النجمة سلوى وهبي، بينما هي في الواقع بدموع العاشق المهجور. . .

وكثيراً ما حاول جلال أثناء علاقته بسلوى أن يسجل هـواه في قصة. وكان دائماً يكتب الصفحات ثم يمزقها. كان يحاول أن ينقل الواقع إلى الورق.

حياته الصحفية الطويلة أثرت على أسلوب كتابته. فهو لا يؤلف كما يفعل كتاب القصة، وإنما يكتب تحقيقات صحفية في قلب رجل وامرأة.. يكتب القصة التي عاشها بكـل دقائقهـا وتفاصيلهـا، فاذا عاد إلى قراءة ما كتب عرف بخبرته بالقراء أنهم لن يصدقوا حرفاً مما كتب... سيعتقـدون أن القصة غـير معقـولـة، الشخصيـات غـير معقولة، الحوار غير معقول، والخاتمة غير معقولة. ذلك أن القارىء العادي لا يتخيل قصـة حب بين فنـان وفنانـة. إنها تختلف عن كل قصص الحب. تبـدأ من حيث تنتهي القصص.. العـاشقـان لا يتحاوران بل يتبارزان.. الرجـل يبكي والمرأة تضحـك.. العاشق يخلص والعاشقة تخون.. الفراش يتحـول إلى قاعـة فلسفة والمكتب يصبح غرفة نوم!

ولهـذا طوى جـلال قصته الـرائعة مـع سلوى. لم يكتبهـا، ولن يكتبهـا. لعله لا يجرؤ أن يكتبهـا خشيـة ألا تعـود إليـه في يـوم من الأيام. وهو لا يزال يحلم بأن تعود إليه بعد أن هجرتـه منذ عـامين من أجل عازف كمان صغير في فرقة أم كلثوم!

وتقلب جلال حمدي في فراشه، وغطى رأسه بـالوسـادة، وكأنـه يخفي نفسه من شبح سلوى الذي يطارده.. إنـه يجيء له دائمـاً في هذه الساعة، نفس الساعة التي كانت تـدخل فيهـا إلى غرفـة نومـه كل ليلة!

وتحسس البـطانية الكهـربائيـة، وكـأنـه يشكـرهـا، لأنها مـلأتـه

بالدفء كما كانت تملأه النجمة الحسناء. . . ولم يشعر بالراحة في الوضع الذي يرقد فيه. خيل إليه أن سلوى اندست بجواره تحت البطانية، فقد لاحظ أن درجة حرارة البطانية ارتفعت فجأة. ورفس البطانية بقدمه، ومد يده فأشعل المصباح من جديد، وتناول سيجارة وأشعلها، وخيل إليه وهو يراقب عود الثقاب وهو يحترق أنه يحرق ما بقي في قلبه من حب سلوى. وعندما انتهى عود الثقاب وتحول إلى رماد أحس براحة عجيبة كأن نار سلوى تحولت إلى رماد!

وفجأة دق جرس التليفون بجوار مخدعه، ومد يده ورفع سماعة التليفون، ووجد نفسه يقفز من فراشه ويجلس على السرير، ويقول في صوت مدهوش:

- سلوى؟ هذا غير معقول!

قالت:

- هل أيقظتك من حلم جميل؟
- كلا. . . إنك أعدتني إلى حلم جميل!
- كنت تفكر فيّ؟
- هذه هي الساعة التي اعتدت أن أفكر فيك خلالها!
- لم أكن أعرف أن الصحفيين يحبون بالساعة؟
- ساعة لقلبي وساعة لربي!
- أعرف أن مهنتك هي ربك، وهي قلبك!
- إنني أعبد مهنتي. . . وأعبدك!
- لو كنت تعبد مهنتك كما تعبدني، فلا بد أنك تكفر بالصحافة!
- قلت لك أنني كنت الآن أفكر فيك!
- كنت تلعنني!
- الشفاه التي قبلتك. . لا تستطيع أن تلعنك!

ـ ما أكذبكم أيها الكتاب، كلماتكم مخلصة وتصرفاتكم خائنة!

ـ ما أغربك من امرأة. . تقتلينني رمياً بالرصاص، وتلومينني على أن دمي ترك بقعاً حمراء في غرفة صالونك!

ـ أنا لم أقتلك، أنت الذي انتحرت!

ـ رؤوس الغانيات. . ضعيفة الذاكرة!

ـ عدت إلى لسانك الطويل!

ـ لأن جرحي لا يزال ينزف!

ـ عامان يكفيان لأن يضمدا أكبر الجروح في الانسان!

ـ أنت عرفتني إنساناً. . وتركتني جرحاً!

ـ وما زلت تحب السكين!

ـ عندما يغمد السكين في الجسم لا يؤلم كما يؤلم عندما ينتزع من الجرح!

ـ كنت أتمنى أن تصبح صديقي بعد أن كنت حبيبي!

ـ هل رأيت وزيراً في وزارة يرضى بأن يكون ساعياً في نفس الوزارة؟

ـ الوزراء يجيئون ويذهبون. . . أما الساعي فيبقى لأن وظيفته دائمة!

ـ قلبي ليس فيه الدرجات للوظائف. . . من الدرجة الثامنة إلى درجة وزير. . . قلبي فيه درجتان فقط. . . درجة حبيب أو درجة عدو!

ـ إذن أنت تعتبرني عدوتك!

ـ العداء العنيف. . . يجيء بعد الحب العنيف!

ـ لماذا تكرهني جداً!

- لأنني أحببتك جداً؟
- ولكنني لا أكرهك..
- لأنك لم تحبيني!
- أنت ظالم!
- لأنك هربت مني مع عازف كمان في فرقة أم كلثوم!
- أنت الذي دفعتني إلى هذا الهروب!
- حتى هذه الجريمة تتبرئين منها!
- إنك رفضت أن تتزوجني!
- وهل تزوجك عازف الكمان!
- أنا الذي رفضت أن أتزوجه!
- وما الذي جعلك تخونينني معه؟
- لأنني أحببتك!
- هل من المعقول أن تخون امرأة رجلاً لأنها تحبه؟
- أردت أن أغيظك.. أن أؤلمك.. أن أقول لك أنك لست الرجل الوحيد في الدنيا!
- أفهم أن تهربي مع عازف الكمان المشهور أحمد الحفناوي... أما أن تختاري هذا العازف الصعلوك فهذا ما يحيرني!
- المرأة عندما تريد أن تنتقم من عاشقها لا تبحث عن مدفع رشاش لتقتله به.. وإنما تختار أي سلاح في متناول يدها!
- ولهذا أخذت مطواة!
- لم يكن يهمني نوع السلاح الذي أذبحك به، كل ما كان يهمني أن أذبحك؟

ـ دون أن تقولي قبل الذبح «الله أكبر» كما يشترط في الذبح الشرعي؟

ـ لم تكن علاقتنا شرعية حتى أذبحك بالطريق الشرعي!

ـ أنت تعرفين أن أكثر شيء يعذب العاشق أن تفضل عليه المرأة التي يحبها شخصاً أقل منه كثيراً!

ـ ولا شخصاً أكبر منه كثيراً!

ـ إنك أهنتني.. وأنت تذبحينني!

ـ هل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟

ـ كأنك لست نادمة على ما فعلت بي!

ـ نادمة.. لأنني لم أفعل ذلك في اليوم الأول من علاقتنا!

ـ إنها أول مرة تتحدثين معي فيها بهذه الصراحة!

ـ لقد أقسمت ألا أكذب ابتداءً من اليوم... سوف أجرب أن أكون امرأة صادقة!

ـ واخترتني لأكون الفأر الذي تجرين عليه تجربتك!

ـ أنت لست الفأر الأول.. أنت الفأر الثاني!

ـ هذا شرف عظيم!

ـ إنني أزعجتك الليلة لأنني أريدك في موضوع هام.

ـ تعالي.. إنني في انتظارك!

ـ لا أستطيع أن أجيء اليك.

ـ أنا مستعد أن أجيء اليك.

ـ إنها مسألة تتعلق بإنسان يهمني جداً!

ـ هل هو العاشق الجديد؟

ـ كنت أتمنى أن يكون عاشقي الجديد!

ـ لا أعرف رجلاً في مصر لا يتمناك!
ـ سوف تعرفه!
ـ لا بد أنه أعمى!
ـ أجمل ما فيه عيناه!
ـ إنك مدلهة في حبه!
ـ إنه أول رجل قال لي «لا»!
ـ ولهذا يهمك أمره؟
ـ جداً. . .
ـ ما أعجبك من امرأة. . الرجل الذي يقول لك «لا» تقولين له ألف (نعم) والرجل الذي يتمناك تقولين له «لا». . وألف «لا».
ـ هذه طبيعة النساء!
ـ وماذا تريدين أن أفعل لهذا الرجل؟. . هل تـريدين أن أوصي عليه أحد أصدقائي الأطباء ليجري له جراحة تعيد له رجولته؟
ـ إنه كامل الرجولة!
ـ كامل الرجولة ويقول لملكة الإغراء في مصر «لا»؟
ـ هذا سر جاذبيته!
ـ لا بد أن هناك سراً في أنه يقول لك «لا»؟
ـ إنه مخلص لزوجته ولا يريد أن يخونها!
ـ لا بد أنه كان سكراناً!
ـ بالعكس، كان متمتعاً بجميع قواه العقلية!
ـ لا بد أنه أراد أن يثيرك. . فمثل دور الرجل «الثقيل»!
ـ إنه لا يمثل. إنه أصدق رجل قابلته في حياتي!
ـ أين قال لك «لا»؟

- في غرفة نومي!

- هذا موضوع صحفي مثير من الطراز الأول!

- تريد أن تنشره!

- في الصفحة الأولى!

- هل هذا خبر يهم القراء؟

- إنه أهم من قيام الحرب العالمية الثالثة.. سوف أنشر صورة هذا الرجل وأكتب تحتها (الرجل الذي قال «لا» لملكة الإغراء)!

- انت لا تنسى أنك صحفي.. حتى في غرفة النوم!

- إن أكبر الخبطات الصحفية حدثت في غرفة النوم!

- ما زلت مغروراً كما عرفتك!

- الرجل الذي أحبته ملكة الإغراء لا يستطيع أن يتواضع!

- حتى بعد أن هجرته!

- إنني مدين لك بشهرتي كدون جوان... كانت علاقتك بي أحسن إعلان عن المحل... عشرات النساء جئن إلي ليعرفن الرجل الذي عشقته ملكة الإغراء!

- إذن، فمن حقي عليك أن تؤدي لي خدمة!

- يسعدني أن أؤدي لك ألف خدمة!

- أنا أريد خدمة واحدة!

- تحت أمرك!

- بشرط ألا تطلب ثمناً!

- أوامرك يا صاحبة الجلالة!

- أريد أن تعيد لي رجلاً إلى قيد الحياة!

- النمرة غلط!

ـ لا أفهم ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنك طلبت رقم تليفون السيد المسيح عليه السلام.

ـ أنا طلبتك أنت!

ـ المسيح عليه السلام هو الوحيد الذي أقام العازر من بين الأموات!

ـ الميت الذي أريد منك أن تحييه ليس ميتاً.. إنه حي!

ـ حي وميت في وقت واحد؟

ـ هذه هي المشكلة!

ـ تقصدين أنه ميت موتاً أدبياً؟

ـ لا.. إنه ميت رسمياً!

ـ الميت الرسمي هو ميت فعلي!

ـ هو ميت على الورق فقط!

ـ وحيّ في الحقيقة!؟

ـ نعم، وهو يجلس معي الآن وأنا أحدثك!

ـ في غرفة النوم؟

ـ في السرير!

ـ شيء ظريف... شيء لطيف!

ـ ما هو وجه الظرف واللطف في هذا الموضوع؟

ـ فهمت ماذا تقصدين!

ـ ماذا فهمت؟

ـ فهمت أنه ميت فيك... ميت في هواك.. ومع ذلك لا يقوم بواجبه.. فهو حي في الواقع، وميت في نظرك!

ـ أنت لا تعرف هذا الرجل!

ـ ولكن أعرف. . أعرف سريرك!
ـ لقد قلت لك أنني أقسمت أن أكون صادقة. . ولو كان بيني وبين هذا الرجل علاقة لقلت لك ذلك صراحة!
ـ كما قلت لي عن عازف الكمان في فرقة أم كلثوم!
ـ يومها لم أكن أقسمت بأن أكون صادقة!
ـ اذن دعيني أتحدث إلى هذا المخلوق الغريب!

□□□

وناولت سلوى سماعة التليفون إلى عبدالمتعال، وسمع جلال صوت رجل يقول له:

ـ مساء الخير يا أستاذ جلال حمدي. . أقصد صباح الخير!

واغتاظ جلال حمدي عندما سمع هذا الصوت الغريب. . كان طوال الوقت يتصور أن النجمة سلوى وهبي تمزح معه، عندما تقول له أن معها رجلاً. لقد تعود مقالبها ومعاكساتها أيام علاقته بها، ولكن لم يخطر بباله أن تقول سلوى كل هذا الكلام أمام رجل غريب. .

وصمت جلال، رفض أن يرد تحية هذا الرجل الغريب. ولكن الصوت عاد يقول:

ـ صباح الخير يا أستاذ جلال حمدي.

وقال جلال بصوت يقطر احتقاراً وازدراء:

ـ صباح الخير. . من أنت؟
ـ أنا عبد المتعال محجوب

ـ من أين تتكلم؟

ـ من . . من سرير سلوى هانم!

ـ ماذا تفعل في السرير!

ـ أقرأ جريدة (الصباح الجديد)!

ـ تقرأ جريدة (الصباح الجديد) في فراش ملكة الإغراء؟

ـ إنها جريدتي المفضلة!

ـ جريدتنا تصدر صباح كل يوم . . وأنت تقرأها بعد منتصف الليل!

ـ كنت مشغولاً قبل ذلك!

ـ طبعاً . . . كنت مشغولاً بالقبلات والعناق والضمات!

ـ أستغفر الله!

ـ أين تجلس سلوى؟

ـ إنها ليست جالسة!

ـ واقفة؟

ـ لا . . . نائمة!

ـ نائمة؟ إنها كانت تحدثني من دقائق!

ـ أقصد أنها راقدة!

ـ ومنذ متى عرفت سلوى؟

ـ منذ ثلاث ساعات!

ـ ووصلت إلى غرفة نومها في ثلاث ساعات!

ـ في ساعة واحدة!

ـ وماذا كنتما تفعلان خلال هاتين الساعتين اللتين أمضيتماهما في السرير؟

ـ كانت تحدثني عن شهامة حضرتك!

ـ شهامة حضرتي تستغرق ساعتين!

ـ للحقيقة. . . ساعتان. . إلاّ خمس دقائق!

ـ هل قالت لك أنني مغفل؟

ـ قالت أنك أذكى صحفي التقت به في حياتها!

ـ ولهذا تظن أنني سأصدقك عندما تقول لي أنها مكثت في السرير تحدثك عن شهامتي لمدة ساعتين. .

ـ إلا خمس دقائق؟

ـ إذا كنت لم تقبل سلوى، ولم تعانقها، ولم تضمها إلى صدرك، فلماذا سمحت لك بأن تنام في فراشها!؟

ـ لأنه ليس لدي بيت أبيت فيه!

ـ لماذا لم تذهب إلى فندق؟

ـ لأنني لا أملك أجر المبيت في فندق.

ـ ومفلس أيضاً؟

ـ ليس في جيبي مليم.

ـ لم أكن أعرف أن سلوى وهبي فاعلة خير، أو أنها حولت بيتها إلى بنسيون!

ـ إنها فاعلة خير!

ـ ولهذا جعلتك تنام في سريرها لله!

ـ دون أن تطلب جزاءً ولا شكوراً!

ـ إذا كانت المسألة لله كماتقول، فلماذا لم تدعك تنام في غرفة الصالون أو غرفة الطعام أو في الصالة؟

ـ إنها رفضت بإباء وشمم!

ـ وأنت قبلت بإباء وشمم!

- اشترطت شرطاً واحداً!!
- ووضعت أيضاً شروطاً؟
- وهي قبلتها. .
- وما هي هذه الشروط!
- ألا أخون زوجتي!
- واحترمت هي هذا الشرط؟
- تماماً. . .
- ولم تحاول هي أن تخل بالشرط؟
- مطلقاً. . لقد وضعت وسادة بيني وبينها في الفراش!
- أنت الذي وضعت الوسادة، أم هي التي وضعتها!
- أنا الذي وضعت الوسادة!
- ولم تحاول هي أن تشدك من البيجاما كما فعلت الملكة زليخة زوجة فرعون مع سيدنا يوسف؟
- إتفقنا ألا أعبر أنا الوسادة. . ولا هي تعبر الوسادة!
- وحافظتما على هذا الاتفاق؟
- حتى الآن!
- إذن أعطني سلوى لأتحدث معها.

□□□

وناول عبد المتعال سماعة التليفون إلى سلوى، وانطلقت في سماعة التليفون ضحكة عالية من سلوى، وتضاعف غيظ جلال حمدي، فجز على أسنانه وهو يقول لها:

- كيف تسمحين لنفسك بأن تحدثيني في هذه الساعة وأنت

مخمورة ومعك رجل مخمور في فراش واحد. . ؟
ـ قد يدهشك أنه لم يذق الخمر في حياته!
ـ إذن أنت السكرى!
ـ هذه هي الليلة الأولى من سنوات طويلة التي لم أذق فيها نقطة خمر!
ـ ولكنكما تتكلمان كالسكارى!
ـ لقد تعاهدنا ألا نكذب أبداً. . أن نقول الصدق دائماً!
ـ كلامكما كلام سكارى!
ـ الصدق يبدو في هذه الأيام أشبه بكلام السكارى!
ـ بل هو كلام سكارى!
ـ المخمور يتصور دائماً أن الجالسين معه ولم يذوقوا نقطة خمر واحدة، سكارى. . يتمايل ويظن أنهم يتمايلون. . يفقد رأسه ويتوهم أنهم هم الذين فقدوا رؤوسهم.
ـ أنا لست سكران!
ـ أنت تعيش في عالم من الكذابين ولهذا تتصور أن كل من يقول الحقيقة سكران!
ـ على كل، فأنا لا أستطيع أن أهنئك على اختيارك. . إنه يبدو رجلاً ثقيل الدم جداً!
ـ بالعكس، إنه خفيف الدم جداً!
ـ ثقيل الدم وتافه.
ـ تغار من رجل ميت!؟
ـ وهل هو ميت!؟
ـ الحكومة التي تؤيدها في جريدتك قالت أنه ميت!
ـ غلطة مطبعية!
ـ بل هي جريمة وطنية. . لقد وضعوه في السجن وهو بريء. .

حكموا عليه بغير أن يحاكموه. أعلنوا أنه ميت وهو حي. غيروا اسمه، وغيروا دينه أيضاً..

- غير معقول!
- أصبح المعقول هو غير المعقول!
- ولهذا تضعين في سريرك هذا الرجل الغريب!
- لقد قلت لك أنه رجل ميت.. ميت!
- الموتى لا يتكلمون!
- اطمئن.. إنهم لا يتحركون أيضاً..
- ما زلت أعترض على أن تسمحي لرجل لم تعرفيه إلا من ثلاث ساعات بأن ينام في سريرك!
- حتى ولو كان جثة!
- أنا أعرف من خبرتي بك أنك تستطيعين تحريك الجثث!
- هذه المرة لم أستطع!
- وأسلحتك.. السرية؟
- فشلت كلها!
- لن أصدقك!
- سوف تصدقني عندما تراه بنفسك
- لا بد أن أراه!
- وتساعده؟
- أعدك بأن أساعده!
- متى أرسله لك؟
- غداً في الساعة التاسعة صباحاً في مكتبي بالجريدة!
- وستستقبله فوراً!
- سوف أستقبله فوراً!

- وما هي كلمة السر التي تفتح له بابك المغلق؟
- يذهب إلى سكرتيرتي ويقول لها (أنا المرحوم عبد المتعال محجوب)!!

الفصل الثامن

دار جريدة (الصباح الجديد) بالقاهرة أشبه بخلية نحل.. محررون ومخبرون يدخلون ويخرجون. لا يمشون في الطرقات الضيقة لكنهم يعدون، وكأنهم يحاولون أن يلحقوا قطاراً بدأ يتحرك. رنين جرس التليفون لا ينقطع. سعاة يحملون أوراقاً من مكتب إلى مكتب. موظفون ينتقلون من غرفة إلى غرفة.. دخان السجائر يعبىء الغرف، كأن حريقاً هائلاً شب في دار الجريدة، ولم يجد المحررون وقتاً لإطفائه، أو الاستغاثة بفرقة المطافىء. أبواب تفتح بعنف وتغلق بعنف، ويحدث صوتها صريراً يصم الآذان.. الأبواب مكتوب عليها: «الهدوء» ويظهر أن الداخلين والخارجين لا يعرفون القراءة والكتابة مع أن صناعتهم القراءة والكتابة.

وجوه غريبة جالسة إلى المكاتب المتناثرة. وجوه قلقة، حائرة، ساهمة، مفكرة. كأنك في غرفة الانتظار في مستشفى للولادة.. كل هؤلاء آباء ينتظرون ولادة مولود.. لا يعرفون هل هو ولد أو بنت.. هل يعيش أو يموت.. صالة التحرير في الجريدة هي مستشفى الولادة. هيئة التحرير هي الأم التي تلد.. الفرق بينها وبين الأم أن الأم تلد مرة كل تسعة شهور، والجريدة تلد مرة كل ٢٤ ساعة!

أصابع المحررين تتحرك في سرعة على الورق، كأنهم في سباق

من منهم يستطيع أن يكتب مائة سطر في الدقيقة! سكرتير التحرير يطوف على المحررين وكأنه القضاء والقدر.. لا يكاد يراه المحررون يقترب منهم حتى يسرعوا في الكتابة، أو يتظاهروا بمراجعة ما كتبوا، كما يفعل التلاميذ مع مدرسهم في حصة الإملاء.. وهو يصيح في المحررين المسرعين أن يسرعوا. المطبعة واقفة تنتظر. كل دقيقة تأخير سوف تؤدي إلى أن تفقد الجريدة عشرة آلاف نسخة. ولا يرد عليه أحد. ولا يرفع كاتب رأسه عما يكتب. تعودوا على هذا الصوت الذي يشبه نقيق الضفادع.. إنه يستعجلهم دائماً لأنه لم يكتب في حياته حرفاً.. لا يعرف الضنى والعذاب الذي يحس به المحرر وهو يكتب مقالة. لا يتصور أن الكتابة هي عملية ولادة.. عسيرة دائماً!

صوت أوراق تمزق.. إنه صوت يذيب قلب المحرر أو الكاتب، فالذي يمزقه ليس ورقا، إنها أفكار حينا، وقلبه هو أحياناً. إنها جهود مضنية.. ساعات طويلة من البحث والتنقيب والجري وراء الأخبار والمعلومات.. سطور كتبها لم يرض عنها. المحرر الناجح لا يرضى أبداً عما يكتبه.. كلما راجع ما كتبه بدله وغيره. بعض الكتاب لا يقرأ ما كتب قبل تسليمه لسكرتير التحرير، لأنه لو قرأه لمزقه، وبدأ يكتب المقال أو الخبر من جديد!

بجوار كل مكتب سلة كبيرة للمهملات، هذه السلة جائعة دائماً، لا تشبع أبداً. لا تكاد تفرغ حتى تمتلىء من جديد.. كل صحفي له ذكريات مع سلة المهملات. كل واحد منهم عاش أياماً وأحياناً سنوات، قبل أن ينتقل من سلة المهملات إلى المكتب الذي يجلس إليه. وبعض الكتاب انتقلوا من مكاتبهم إلى سلة المهملات!

هذه السلة المصنوعة من الصفيح الرخيص، طالما ضمت قصائد

شعراء موهوبين، ومقالات كتاب عباقرة، وأخبار محررين أصبحوا نجوماً في الصحافة. الذين ملأوا سلة المهملات بإنتاجهم الأول وصلوا إلى المجد، والذين يئسوا بعد محاولة أو عشر محاولات، بقوا مع إنتاجهم في سلة المهملات.. إنها المقبرة التي تدفن فيها عادة المقالات البكر، والأفكار العذراء وأحلام اليائسين.. وكلما كبرت الجريدة كبرت سلة المهملات فيها.. فالصحف الناجحة تتلقى بريداً من القراء أكثر من الصحف الفاشلة. وكلما زاد عدد قراء جريدة زاد عدد الذين يكتبون إليها. ولهذا كانت سلة المهملات في جريدة (الصباح الجديد) كبيرة، لأن الجريدة كانت واسعة الانتشار!

□□□

ولم تكن هذه أول مرة يدخل فيها عبد المتعال محجوب دار جريدة (الصباح الجديد) لقد جاء في الساعة التاسعة صباحاً كما أكد عليه الأستاذ جلال حمدي رئيس التحرير.. ولكن بواب الجريدة منعه من الدخول وقال له أن يحضر في الساعة العاشرة!

وعندما جاء في الساعة العاشرة طلب منه البواب أن يحضر في الساعة الثانية بعد الظهر. وعندما جاء في الساعة الثانية قال له البواب أن الاستاذ رئيس التحرير خرج!

وكان عبدالمتعال يدور حول الجريدة ثم يعود فيقال له في كل مرة أن رئيس التحرير خرج منذ خمس دقائق، مع أنه كان واقفاً أمام باب الجريدة منذ نصف ساعة ولم يرَ رئيس التحرير هذا يدخل أو يخرج!

واستوقف شاباً وسأله عن الأستاذ جلال حمدي رئيس التحرير فقال له أنه خرج من دقائق. وسأله كيف يخرج من دقائق وأنا

واقف على الباب! فابتسم الشاب وقال: إنه يدخل ويخرج من باب سري خلف دار الجريدة، وإن الوقت الذي يجده فيه هو الساعة التاسعة مساء!

وجاء عبد المتعال في الساعة التاسعة مساء. وتنفس الصعداء لأنه لم يجد البواب، ثقيل الظل، جالساً أمام باب الجريدة.. لقد كره البواب من اللقاء الأول، وحقد عليه في اللقاء الثاني، وتمنى أن يذبحه في اللقاء الأخير. كانت نظرات البواب تشبه نظرات عبد الجبار الباشجاويش في السجن.. مزيجاً من نظرة الذئب ونظرة الثعبان.. كل من يجلس على كرسي في هذا الزمن يتصور أنه إلّه.. كان البواب يرد في كل مرة على عبد المتعال بإجابات مقتضبة. كأنه مشغول بإدارة ملكوت الله ولا وقت عنده للرد على العبيد.. كان يحدثه وهو جالس على مقعده واضعاً ساقاً على ساق..

وأحس عبد المتعال بخيبة أمل شديدة، لا لأن البواب لم يحترمه فقط، بل لأنه لم يحترم بذلة الدكتور منير وهبي شقيق سلوى.. لقد تصور عبد المتعال، وهو في هذه البذلة لأول مرة، أنه في بذلة التشريفة الكبرى، التي ستفتح له جميع الأبواب المغلقة. وتنهد عبد المتعال حزيناً وتساءل ماذا كان سيفعل له هذا البواب لو جاء مرتدياً الجلباب المخطط الذي صرفته له إدارة السجن بمناسبة الإفراج عنه..

وصعد عبدالمتعال درجات سلم الجريدة في خطوات سريعة. ولم يعترضه أحد. ولم يسأله أحد إلى أين هو ذاهب أو ماذا يريد! وكان عبد المتعال لا يصدق أنه استطاع أن يجتاز هذا الباب الذي بقي موصداً في وجهه ١٢ ساعة كاملة، من التاسعة صباحاً إلى

التاسعة مساء. وكان يتلفت حوله خشية أن تنشق الأرض ويخرج منها هذا البواب الملعون الذي يحرس دار الجريدة بغطرسة..

ورأى عبد المتعال عن يمينه صالة واسعة مضاءة بأنوار النيون مكتوباً على بابها (التحرير) واستنتج أنه ما دامت هذه صالة التحرير فلا بد أن يكون موجوداً فيها رئيس التحرير.. ودخل إلى الصالة الضخمة.. ونظر في ذهول إلى الجالسين إلى المكاتب مستغرقين في عملهم. لم يرفع واحد منهم رأسه، ولم يهتم به أحد.. وقال عبد المتعال «أحم» لينبه الموجودين إلى دخول رجل غريب، ولكن (ألف أحم) لن تستطيع أن تنبه المحررين الذين كانوا يقومون ويقعدون، ويلفون ويدورون ويكتبون ويتحدثون في وقت واحد. وخيل إلى عبد المتعال أنه دخل بطريق الخطأ إلى أحد مستشفيات الأمراض العقلية، لأن كل من في الغرفة يتصرف كأنه مجنون!

ولقد كان من سوء حظ عبد المتعال أنه دخل صالة التحرير في الساعة التاسعة مساء. الساعة التي تقوم فيها القيامة كل يوم في صالة التحرير.. فهي الساعة الخطيرة التي يصل فيها العمل إلى قمته، قبل الطبعة الأولى من الجريدة (الصباح الجديد). إنها لحظة التشطيب. ينتهي فيها كل محرر من مراجعة الباب الذي يشرف عليه. ينتهي الرسامون من رسم صورهم، ينتهي المخبرون من تقديم أخبارهم. ينتهي قسم الإعلانات من توزيع إعلاناته على الصفحات، ينتهي الخطاطون من كتابة العناوين الضخمة التي تحتل الصفحة الأولى. ولهذا كانت كل الاعصاب إما مشدودة، وإما ملفوتة.

وسمع عبد المتعال صوت رجل يصرخ كالمجنون، يقول كلاماً غير مترابط وغير مفهوم. يتحدث إلى عدة أشخاص في وقت

واحد. يقوم ويقعد، يشد ورقة تارة ويشد شعره تارة، يجري في الصالة كالمجنون. . يرد على تليفون، ويتحدث في الوقت نفسه مع محرر، ويمد يده اليمنى بورقة إلى الساعي، ويمد يده اليسرى ليجذب مقالاً من كاتب!

ولم يعرف عبد المتعال أن هذا المخلوق هو سكرتير التحرير (المكوك) في آلة الجريدة. ولاحظ عبد المتعال أن صوت هذا الرجل يضاعف من عصبية العصبيين، لقد شعر هو نفسه كأنه يسمع صفارة قطار السكة الحديد. وخيل إليه أن كل المحررين يعدون نحو سكرتير التحرير ليلحقوه قبل أن يتحرك القطار. . ووجد نفسه يستعد ليندفع هو الآخر نحو هذا الرجل، ولم يلبث أن سمع صرخة مدوية فتسمر في مكانه. .

□□□

وتراجع عبد المتعال إلى الوراء ثم رأى فتاة سمراء تتكلم في التليفون، وهي تمسك سماعة التليفون بيدها اليسرى، وتكتب بسرعة بيدها اليمنى. . ورأى على مكتبها لوحة من النحاس مكتوباً عليها (السكرتيرة) واعتقد عبد المتعال أنها سكرتيرة رئيس التحرير الذي طلب منه الاستاذ جلال حمدي أن يذهب إليها ويقول لها كلمة السر لتسمح له بمقابلته.

وانتظر عبد المتعال حتى انتهت الآنسة من حديثها التليفوني، وبدأت تراجع الأوراق التي كتبتها وتقدم نحوها، وقال هامساً:

ـ الأستاذ جلال حمدي . .

وفوجىء عبد المتعال بالآنسة تقول دون أن ترفع عينيها عن الورق:

ـ قتلوه!

وذهل عبدالمتعال وقال وصوته يقطر دهشة:

ـ قتلوه؟
ـ نعم قتلوه بسبع رصاصات!
ـ الله يرحمه!
ـ لن يرحمه الله أبداً، كان مجرماً سفاحاً!
ـ كنت أسمع أنه رجل شهم!

ورفعت الآنسة رأسها عن الورق الذي أمامها في دهشة وقالت:

ـ هل تعرفه؟
ـ كنت على موعد معه في الساعة التاسعة صباحاً.
ـ وطبعاً لم يحضر في الموعد لأنهم قتلوه في الساعة التاسعة إلا ربعاً!
ـ كان يحدثني في التليفون أمس!
ـ أي ساعة؟
ـ الساعة الأولى من صباح اليوم!
ـ إذن أنت آخر رجل سمع صوته!

وتهلل وجه الآنسة، وقامت من مقعدها وصافحت عبد المتعال وشدت على يده عدة مرات وأجلسته على مقعد بجوارها. وسألته هل يريد أن يشرب قهوة أو شاياً أو كوكاكولا؟ ثم همست الآنسة إلى رجل يجلس إلى مكتب بجانبها ببضع كلمات، وإذا بالرجل يقفز من مقعده ويهجم على عبد المتعال ويعانقه ويقول له: أنت جئتنا من السماء!

ثم سمع عبد المتعال الرجل يصرخ بأعلى صوته: أوقفوا صفحة الجرائم عندنا (خبطة) صحفية هائلة.. أحضروا مصوراً على الفور..

وحمل الرجل مقعده، وجاء به بجوار مقعد عبد المتعال، ووضع ذراعه حول عبد المتعال وقال له:

ـ أنت حظك من السماء!

ـ إن حظي سيء دائماً!

ـ وبالعكس، إننا على استعداد لأن ندفع لك مبلغاً طائلاً. الكلام هنا من ذهب!

ـ أنا لا أريد نقوداً.. إنني كنت أعتمد على المرحوم في حل مشكلاتي!

ـ جريدتنا متخصصة في حل المشكلات. المهم أن تقول لنا كل معلوماتك عنه!

ـ أنا تحت أمركم!

ـ هل كان عصبياً عندما كنت تتحدث إليه أمس؟

ـ كان يضحك ويمزح!

ـ لم يكن يشعر أنه سيموت بعد ساعات!

ـ أبداً كان مرحاً!

ـ كيف عرفت أنه كان مرحاً؟

ـ كان هذا واضحاً وهو يتحدث مع سلوى.

ـ سلوى من؟

ـ سلوى وهبي نجمة السينما وملكة الإغراء.

ـ هل كان يعرفها؟

ـ كان واضحاً من الحديث أنه صديق حميم لها.

وقفز الرجل من مقعده وصرخ بصوت كالرعد:

ـ أرشيف! أحضروا ملف صور سلوى وهبي!

وحدثت دمدمة في صالة التحرير، وتردد إسم سلوى وهبي على كثير من الشفاه. وأسرع الأستاذ كامل شفيق رئيس القسم الفني يعدو نحو الرجل الذي يصرخ وقال له: هل يوجد شيء بشأن النجمة سلوى وهبي يا أستاذ حمدان؟

قال الرجل الذي ظهر أنه الأستاذ حمدان رئيس قسم الجرائم:

ـ نعم.. ظهر أن القتيل عشيق سلوى وهبي!

وفوجىء عبد المتعال بسكرتير التحرير يصرخ:

ـ أوقفوا الصفحة الأولى! هذه أخبار تصلح للصفحة الأولى.. لا لصفحة الجرائم! إذهب فوراً يا أستاذ كامل إلى بيت سلوى وهبي وخذ منها حديثاً عن معلوماتها عن القتيل.. ولن يلحق هذا الحديث الطبعة الأولى.. سننشره في الطبعة الثانية!

كان عبد المتعال ينظر إلى هؤلاء المجانين في عجب.. كيف يهتم المحررون بفضيحة رئيسهم القتيل كل هذا الاهتمام؟.. لقد كان رئيسهم منذ أقل من أربع وعشرين ساعة.. كيف تحول فجأة مادة صحفية يغمسون فيها أقلامهم؟

وأحس كأنه المنكوب الوحيد في مصرع الأستاذ جلال حمدي. إنه لا يجد دمعة واحدة، لا يرى كرافتة سوداء واحدة. المقاعد مكتظة بالمحررين، كأن واحداً منهم لم يذهب إلى بيت الفقيد ليلقي نظرة الوداع على جثته.

هل هذه هي الصحافة؟ لم يكن يتصور أنها مهنة ناكرة للجميل إلى هذا الحد. .

وعاد الأستاذ حمدان رئيس قسم الجرائم يقول له:

ـ كان القتيل صديقاً لك!
ـ لم يكن صديقاً!
ـ كان هذا من حسن حظك، فالمعروف عنه أنه كان يقتل أصدقاءه واحداً واحداً!
ـ لم أعرف ذلك!
ـ يظهر أنك كنت لا تعيش في هذا البلد!
ـ كنت مسجوناً!
ـ المفروض أن المسجونين سمعوا جميعاً بجرائمه!
ـ على العكس. . كانوا معجبين بمقالاته!
ـ هل كان يكتب مقالات؟
ـ طبعاً!
ـ في أي جريدة؟
ـ في جريدتكم
ـ جريدة (الصباح الجديد)!!
ـ يظهر أنك لا تقرأ جريدة (الصباح الجديد)!
ـ كيف لا أقرأها وأنا رئيس قسم الجرائم فيها؟
ـ لقد كان رئيس التحرير!
ـ كان ينصب عليك ويقول أنه رئيس تحرير جريدة (الصباح الجديد).
ـ إن اسمه مكتوب على الصفحة الأولى: (جلال حمدي)!
ـ أنا لا أسألك عن الأستاذ جلال حمدي. أنا أسألك عن الشقي

مهران الكمشوش رئيس أكبر عصابة في الصعيد الذي قتله البوليس اليوم!

ـ أنا لا أعرف مهران الكمشوش هذا. .

وقفزت الآنسة سونيا فتحي السكرتيرة من مقعدها وقالت:

ـ يا كذاب! يا نصاب! أنت قلت لي بعظمة لسانك أنك تعرف مهران الكمشوش وأنه كان يحدثك بالتليفون في الساعة الأولى صباحاً!

ـ أنا لم أذكر اسم مهران الكمشوش على لساني. أنا ذكرت اسم الأستاذ جلال حمدي رئيس التحرير.

ـ أنا سكرتيرة قسم الجرائم في هذه الجريدة منذ سبع سنوات ولم أخطىء في اسم واحد مرة واحدة!

ـ أنا آسف يا سيدتي!

ـ أنا آنسة ولست سيدة!

ـ لقد كنت أظنك سكرتيرة الأستاذ جلال حمدي!

ـ أنا محررة ولست موظفة!

ـ آسف مرة أخرى!

ـ ماذا سنكسب من أسفك. . . إنك أخرت موعد صدور الجريدة خمس دقائق وهذا موعد مقدس!

ـ إن موعدي مع رئيس تحريركم تأخر ١٢ ساعة!

وسمع عبد المتعال أصواتاً متتابعة تصيح: «صفحة الجرائم كما هي لا تعديل في الصفحة الأولى. . الأستاذ عزمي يركب سيارة فوراً ويلحق بالسيارة التي فيها الأستاذ كامل شفيق قبل أن يقابل سلوى وهبي وتحدث فضيحة».

وتقدم الأستاذ عزمي بخطوات بطيئة متثاقلة نحو سكرتير التحرير وقال له في هدوء:

- وماذا! سيحدث إذا لم أستطع أن ألحق بالأستاذ كامل رئيس القسم الفني؟

- ستحدث فضيحة!

- فضيحة فقط؟ أنت لا تعرف سلوى وهبي كما أعرفها.

- ماذا تظن أنها ستفعل بكامل شفيق عندما يسألها إذا كانت عشيقة المجرم مهران الكمشوش!

- ستقتله رمياً بالرصاص!

- إذن إصحب معك مصوراً حتى يلتقط صورة لملكة الإغراء وهي تقتل زميلنا العزيز، هذا خبر يصلح للصفحة الأولى!

□□□

وصعد عبد المتعال درجات سلم الجريدة وهو يلهث حتى وصل إلى الطابق الخامس حيث مكتب رئيس التحرير، وسأل الساعي الواقف على الباب عن مكتب سكرتيرة رئيس التحرير فأشار إلى غرفة صغيرة..

ودخل عبد المتعال فرأى فتاة شقراء، رائعة الجمال، على عينيها نظارة كبيرة، وهي تدق على الآلة الكاتبة بإحدى أصابعها وكأنها عازفة مبتدئة تعزف على البيانو..

وعندما رأته السكرتيرة رفعت رأسها إليه بابتسامة..

وقال عبد المتعال وهو يتلعثم:

- أنا المرحوم عبدالمتعال محجوب!

وأطلقت السكرتيرة ضحكة ساخرة وقالت:

ـ المرحوم؟

ـ نعم المرحوم!

ـ أنت أخطأت المكان. اذهب إلى الطابق الأول!

ـ مكتب رئيس التحرير؟

ـ لا.. مكتب صفحة الوفيات!

ـ إن الأستاذ جلال حمدي طلب إلي أن أحضر إلى مكتبك وأقول لك (أنا المرحوم فلان).. لتدخليني إليه فوراً!

ـ لم يخبرني الاستاذ جلال بشيء من هذا.. وقد مضى علي سكرتيرة له خمس سنوات ولا أتذكر أنه استقبل ميتاً واحداً!

ـ لقد حدد لي الساعة التاسعة صباحاً. وقال لي أن هذه هي كلمة السر.

ـ إنني السكرتيرة المسائية. ويظهر أنه أعطى هذه التعليمات للسكرتيرة الصباحية!

ـ إذن ماذا أفعل؟

ـ تجيء في الصباح!

ـ لقد مضى علي ١٢ ساعة في الانتظار!

ـ أنت سعيد الحظ.. وهناك من مضى عليه ١٢ شهراً يحاول مقابلته.. الأستاذ جلال مشغول جداً!

ـ المسألة مسألة حياة أو موت!

ـ واضح أنها مسألة موت فقط!

ـ لقد جئت للأستاذ جلال ليعيدني إلى الحياة!

ـ من أين جئت!

ـ من جهنم!

ـ لم أعرف أنهم يطلقون سراح سكان جهنم . . هل صدر عفو ملكي عنك؟

ـ يظهر أنهم إذا أرادوا زيادة تعذيب سكان جهنم أرسلوهم إلى الأرض مرة أخرى.

ـ أنت فيلسوف!

ـ أنا نظرية فلسفية!

ـ يبدو أنك قادم من مستشفى للأمراض العقلية!

ـ يظهر أن العالم مستشفى كبير للأمراض العقلية. كل واحد منا مجنون بمرض عقلي مختلف. كل مجنون منا يعتقد أن الآخرين مجانين!

ـ أتظن أنني مجنونة؟

ـ أعتقد أن العقلاء وحدهم هم الموجودون في مستشفى المجاذيب بالخانكة أو العباسية!

ـ إن الأستاذ جلال حمدي سوف يسعده أن يراك. كان مهموماً طوال اليوم، وأعتقد أنه عندما يراك سوف يضحك كثيراً!

ـ شر البلية ما يضحك!

ـ سأقول له (ساكن الجنان المرحوم عبد المتعال محجوب) يريد مقابلتك!

ـ المرحوم فقط!

ـ الصحف تسمي الملك الذي مات (ساكن الجنان).

وقامت السكرتيرة من مقعدها، واتجهت إلى باب أخضر يفصل غرفتها عن غرفة رئيس التحرير، وبعد برهة قصيرة عادت وعلى فمها ابتسامة وقالت لعبد المتعال:

ـ الميت يتفضل!

ومشى عبد المتعال وراءها إلى الباب الضيق، وفتحت الباب وهي تقول ضاحكة:

- المغفور له!

□□□

ورأى عبد المتعال الأستاذ جلال حمدي واقفاً وراء مكتب ضخم ولاحظ أنه يتأمله، وكأنه يقيسه بالطول والعرض، ثم مد يده مبتسماً وقال له:

- الجنازة حامية والميت كلب!
- الكلاب أسعد حالاً من بعض الآدميين!
- كنت أتصور أن الرجل الذي يمضي ليلته في فراش سلوى وهبي ملكة الإغراء هو شاب وسيم يشبه رودلف فالنتينو، أو كلارك جيبل. ولكني لا أرى فيك أي شيء يجذب امرأة مثل سلوى وهبي!
- ربما صدقي هو الذي جذبني إليها!
- لأنها أكبر كذابة في العالم!
- كانت صادقة جداً معي!
- وهل من الصحيح أنك لم تقبلها أو تعانقها؟
- لم يحدث أي شيء بيني وبينها.. سوى أنني خلعت ملابسي أمامها!
- خلعت ملابسك أمامها؟
- نعم..
- ولم يحدث شيء؟
- ولا شيء!

ـ إنك ملاك!
ـ وهي ملاك أيضاً!
ـ إذا كنت أنت ملاكاً وهي ملاكا. فلماذ خلعت ملابسك؟
ـ لأننا كنا في غرفة النوم!
ـ ومن الذي أدخلك إلى غرفة النوم!
ـ هي؟
ـ لماذا؟
ـ لأخلع ملابسي!
ـ وبعد ذلك؟
ـ ارتديت ملابس أخرى!
ـ البيجاما؟
ـ لا. . البيجاما ارتديتها بعد ذلك. . لقد كنت أرتدي جلباب السجن المخطط؟ ودعتني لأقيس بذلة شقيقها الدكتور منير وهبي. . كانت على مقاسي.
ـ سلوي وهبي. . أم البذلة؟
ـ البذلة!
ـ ولماذا خلعت البذلة بعد ذلك؟
ـ حتى لا (تتكرمش) أثناء النوم!
ـ ومن هو صاحب البيجاما؟
ـ شقيقها الدكتور.
ـ كيف عرفت أنها بيجامة شقيقها؟
ـ لأنها كانت على مقاسي!
ـ إجاباتك السريعة تدل على أنك خبير في الكذب!
ـ إنني رجل لم أكذب طوال حياتي مرة واحدة.
ـ ولا على زوجتك!

ـ ولا على زوجتي!
ـ ولماذا لا تكذب!
ـ لكي أدخل الجنة!
ـ ودخلت الجنة؟
ـ لا.. دخلت السجن؟
ـ وما هي جريمتك؟
ـ إنني لم أرتكب جريمة!
ـ هل يوجد في السجن أحد لم يرتكب جريمة!
ـ مرتكبو الجرائم الكبيرة لا يدخلون السجن!
ـ إذن من يدخل السجن؟
ـ الأبرياء.. ومرتكبو الجرائم الصغيرة!
ـ أنت تطعن في عدالة القاضي الذي حاكمك!
ـ لم أرَ قاضياً.. ولا محكمة!
ـ من الذي حكم عليك؟
ـ مدير السجن والباشكاتب!
ـ إن هذا شيء يمكن أن ننشره في باب (صدق أو لا تصدق)!
ـ لو عرفت كل الحقيقة لجعلت هذا الباب كل صفحات الجريدة لا نصف عمود فقط!
ـ ولماذا أعلنوا في الصحف أنك مت؟
ـ لا أعرف.. كل ما أعرفه أنني ما زلت على قيد الحياة!
ـ هذا أول حادث من نوعه!
ـ لا أعتقد أنه الحادث الأول.. أو الحادث الأخير!
ـ أنا صحفي وأعرف كل ما يجري في الدولة، وأؤكد لك أن ما حدث لك لم يحدث له مثيل في يوم من الأيام.
ـ الصحفي في هذه الأيام كالزوج المخدوع.. آخر من يعلم!

ـ أنت سيء الظن بالصحافة!
ـ بعد أن قالت الصحافة أني ميت، وأنا على قيد الحياة، كيف أصدق كلمة واحدة فيها؟
ـ لم تعد تصدق أي شيء تقرأه في الصحف؟
ـ ولا كلمة. كنت في الماضي لا أصدق إلا صفحة الوفيات. أما الآن فلم أعد أصدق أي شيء حتى صفحة الوفيات.

وضغط الاستاذ جلال حمدي عدة أجراس أمامه وقال:

ـ سوف أعيد إليك إيمانك بالصحافة. سوف تتبنى جريدة (الصباح الجديد) قضيتك.. سوف أختار ثلاثة من أكفأ المحررين للتحقيق في قضيتك.. سوف أقيم الدنيا وأقعدها من أجلك. لن نقبل أن يدخل بريء السجن.. لن نقبل أن يموت رجل وهو على قيد الحياة.. لن نقبل تزوير اسم رجل وتغيير دينه. انتظر دقائق حتى يجيء المصور ويلتقط صورتك.

ـ وكم يستغرق هذا البحث؟
ـ ٢٤ ساعة فقط!
ـ وكيف أعرف النتيجة؟
ـ اليوم هو الاثنين.. ستجد قصتك منشورة صباح الأربعاء في الصفحة الأولى من الجريدة. يجب أن يعود الحق إلى نصابه.
ـ لا أعرف كيف أشكرك!
ـ لا تشكرني.. اشكر صاحبة الجلالة الصحافة.

□□□

وفتح عبد المتعال جريدة (الصباح الجديد) صباح يوم الأربعاء يبحث عن صورته في الصفحة الأولى فلم يجدها، وفي الصفحة

الثانية فلم يجدها، وفي صفحة الألعاب الرياضية فلم يجدها، وفي صفحة الوفيات فلم يجدها أيضاً..

قرأ الجريدة من أولها إلى آخرها.. الأخبار، البرقيات، الإعلانات، الحوادث، فلم يجد أي كلمة عنه!

ورأت سلوى صفرة الموت تعلو وجه عبد المتعال.. وانتزعت الجريدة من يده وهي تقول:

ـ أنت نسيت كيف تقرأ الجريدة بسبب وجودك في السجن عامين كاملين.. دعني أقرأها لك!

وبدأت سلوى تنقب في صفحات الجريدة باحثة عن قصة عبد المتعال بغير جدوى.. وأخيراً نظرت في آخر سطر في الصفحة الأخيرة من الجريدة وتهلل وجهها وقالت:

ـ إنها الطبعة الأولى!
ـ وما الفرق!
ـ عادة الأخبار الهامة لا تلحق الطبعة الأولى.. لا بد أنها منشورة في الطبعة الثانية.

ودق جرس التليفون وسمعت سلوى صوت الأستاذ جلال حمدي يقول لها:

ـ لم أكن أعرف أن سلوى وهبي النجمة السينمائية المشهورة وملكة الإغراء ساذجة وعبيطة إلا اليوم!
ـ ماذا تقصد!
ـ أقصد أن صديقك عبد المتعال محجوب هذا كذاب ونصاب ومزور!

ـ مستحيل!

ـ إن التحقيق الذي قمنا به أثبت ذلك.. وأثبت أن عبد المتعال محجوب مات فعلاً.. وهو مدفون في الإمام الشافعي في قبر بشارع المأمون رقم ٧.

الفصل التاسع

استقلت سلوى وهبي سيارتها (المرسيدس) الفارعة الفاخرة، وانطلقت بها إلى دار جريدة (الصباح الجديد).. وما كاد البواب يرى السيارة الحمراء الأنيقة، حتى هرول إليها وفتح باب السيارة، وانحنى بين يديها حتى كادت عمامته البيضاء الكبيرة تلمس الرصيف. ثم أسرع يتقدمها، ويفتح لها باب الجريدة على مصراعيه.

أقبل المحررون والموظفون الذين كانوا في فناء الجريدة الداخلي، يحيون ملكة الاغراء. ابتسمت لهم سلوى ابتسامة حلوة، فامتلأت وجوههم بالسعادة، كأن سلوى أعطت كل واحدة منهم قبلة وموعد غرام..

أوقف العامل المصعد الذي تحرك، عاد بركابه من جديد إلى الطابق الأرضي لتستقله النجمة الحسناء. خرج ركاب المصعد لتدخل سلوى وهبي، يتقدمها عطرها الآخاذ، ثم اندفع المحررون والموظفون، ولم يأبهوا لاحتجاج عامل المصعد أن عدد الركاب أكثر من العدد المطلوب. كان عامل المصعد يبشرهم أكثر مما كان يحذرهم. فزيادة العدد معناها أنهم سينحشرون مع ملكة الاغراء في المصعد الذي ضاق بهم، السعداء منهم سوف يلتصقون بصدرها، أو بظهرها، أو سيشمون أنفاسها!

عندما توقف المصعد أمام الطابق الثاني رفض أحد أن يخرج. تكرر الأمر نفسه أمام الطابق الثالث والرابع. كل الركاب أصروا جميعاً على أن يصحبوا الكوكب الساحر إلى الطابق الخامس، ليستمتعوا بقربها عدة ثوان!

وعندما توقف المصعد أمام الطابق الخامس. لم يتحرك أحد من الركاب. وكأنهم تآمروا جميعاً في وقت واحد على أن يسدوا على ملكة الإغراء الأبواب، ويرغموها على أن تلمسهم بصدرها وظهرها وكتفها وهي تشق الطريق لنفسها. ولم تتضايق سلوى من أن تدفع هذه الضريبة للعيون الشرهة الجائعة..

وأسرعت السكرتيرة تفتح باب غرفة الأستاذ جلال حمدي رئيس التحرير، على الرغم من أوامره المشددة بألا يدخل عليه أحد بغير استئذان. ولكن الجمال لا يستأذن أبداً.. الجمال الطاغي أشبه بالطغاة الذين يقتحمون الأبواب المغلقة دون أن يطرقوها.. أصحاب السلطان لا يستأذنون في الدخول على رعاياهم، والجمال سلطان.. كما أن للشهرة سلطاناً، فإذا اجتمع الجمال والشهرة في إنسان منح حقوق الغزاة الفاتحين!

وقفز الأستاذ جلال من مقعده، واتجه مسرعاً نحو سلوى يصافحها متهلّلا.

□□□

وقالت سلوى والابتسامة تشرق فوق شفتيها:

ـ إذا لم يذهب محمد إلى الجبل.. ذهب الجبل إلى محمد!

فقال جلال:

ـ لو كنت طلبت أن أحضر إليك لتركت عملي وذهبت إليك!
ـ إنني عندما أحتاج إلى إنسان أذهب إليه.
ـ حتى لو كان عاشقاً مهجوراً؟
ـ جئت من أجل زيارة وتجارة أو على الأصح تجارة فقط!
ـ ماذا تبيعين اليوم!
ـ الحقيقة!
ـ إنها رخيصة جداً!
ـ بالعكس إنها غالية جداً في هذه الأيام!
ـ وظيفة الصحفي أن يشتري الحقيقة ليبيعها للقراء!
ـ مجاناً؟
ـ بقرش صاغ.. إنني أؤمن بأن الحقيقة بالنسبة للصحفي هي كوب اللبن الحليب الذي أضعه على مائدة القارىء كل صباح!
ـ بشرط ألا يكون اللبن مغشوشاً.. بشرط ألا نخلط اللبن بالماء.. متظاهرين بأننا نغسله من الأقذار!
ـ الصحافة الشريفة لا تخلط الحليب بالماء!
ـ من هم الذين يخلطونه إذن؟
ـ الذين يقيدون حريتها!
ـ لكنك شريك في عملية الغش.. لأنك تقدم اللبن للقراء وأنت تعلم أنه مغشوش!
ـ أنت تنسين أننا في ظروف دقيقة وحكومة شفيق باشا فتحي فرضت الرقابة على الصحف لحماية البلاد.
ـ أعرف صحفياً اسمه أمين الرافعي رفض أن يكتب حرفاً واحداً عندما فرض الانجليز الرقابة في الحرب العالمية الأولى، وأقفل جريدته ومكث في بيته!

ـ وماذا كانت النتيجة؟ أصبحت جريدة (المقطم) لسان حال الاحتلال البريطاني أكبر جريدة في مصر، ومنها وحدها يعرف المصريون أخبار بلادهم!

ـ وكان النتيجة أن قامت ثورة ١٩١٩.

ـ إنني أفضل أن يعرف المصريون نصف الحقيقة.. على ألا يعرفوا الحقيقة مطلقاً.

ـ نصف الحقيقة هو الأكذوبة الكاملة.

ـ الرقابة تحذف الاخبار المثيرة للخواطر، المقلقة للأمن العام!

ـ مثل خبر عبد المتعال محجوب!

ـ لأنه خبر كذب مائة في المائة!

ـ بل صدق مائة في المائة!

ـ أنا أعذرك لحماسك. ودفاعك عنه هو في الواقع دفاع عن كرامتك. فأنت لا تريدين أن تعترفي بأنك كنت مغفلة كبيرة!

ـ أنت تعرف أنني لست مغفلة!

ـ لست الضحية الوحيدة. أنا وقعت في حبائله. أنا صدقته عندما جاء إلى مكتبي وروى قصته. كان في صوته نبرة من الحقيقة، ولهذا خدعني. إنه ممثل قديراً جداً.. أقترح أن تستعيني به في فيلمك القادم!

ـ أنا لي خبرة طويلة في التمثيل وأستطيع أن أفرق بين الرجل الذي يمثل، والرجل الذي لا يمثل. إنه أكثر رجل إخلاصاً قابلته في حياتي.

ـ الدليل على أنه ممثل بارع أنه نام بجوارك في فراش واحد، ولم يعبر الوسادة التي بينك وبينه!

ـ هذا دليل إخلاصه لزوجته!

ـ هذا دليل على أنك امرأة ساذجة. إن سيدنا آدم خرج من

الجنة من أجل تفاحة واحدة. وهذا الرجل كان بجواره كيلو تفاح!

ـ ولم يمد يده!

ـ ولا.. شفتيه!؟

ـ نام في منتهى الأدب.. وبعد ربع ساعة كان يغط في نوم عميق..

ـ والحلم نائم بجانبه؟

ـ أنت لا تصدقني!

ـ أنا أصدقك.. ولهذا أقول لك أنه نصاب كبير!

ـ لأنه لم يفعل ما كنت تفعله أنت لو كنت في نفس المكان!

ـ أي رجل يجد نفسه مع ملكة الإغراء في فراش واحد لن يستطيع أن يقاوم إغراءها،

ـ وإذا كان مخلصاً لزوجته؟

ـ أعتقد أن أي زوجة سوف تغفر لزوجها إذا فقد أعصابه في مثل هذه الظروف!

ـ كنت أتصور أنك سوف تهنئه على صموده!

ـ سوف أهنئه على إجادة تمثيل دور الرجل المخلص!

ـ وإذا عرفت أنه أمضى في السجن عامين، ولم يرَ امرأة واحدة خلال هذه المدة، ومع ذلك لم يضعف معي!

ـ ما رأيك في أنه كذب عليك في هذه الرواية أيضاً؟

ـ أنا واثقة أنه كان في السجن!

ـ لقد أرسلت إلى السجن الأستاذ حسان أحد كبار المحررين بالجريدة، وقابل اللواء القواص مدير السجن وسأله عن المسجون عبد المتعال محجوب، فأكد أنه لم يدخل السجن خلال عشرين عاماً مسجون بهذا الاسم. ولم يكتف الاستاذ حسن بتأكيد مدير السجن، بل بحث بنفسه في أرشيف السجن فلم يجد هذا الاسم!

ـ إنهم أبدلوا اسمه!

ـ عرضنا الصورة الفوتوغرافية التي التقطناها له على مدير السجن، والباشكاتب ومساعد الباشكاتب فقالوا أنهم لم يروا هذا الرجل قبل الآن!

ـ أنا واثقة أنه كان مسجوناً!

ـ هل تريدين أن أكذب مدير السجن، وأصدق هذا الأفاق؟

ـ لقد كان مديراً لشركة مصر للبسكويت!

ـ وهذا كذب أيضاً. أرسلت الأستاذ وفيق مخبرنا المشهور بفك الطلاسم، والكشف عن الجرائم إلى شركة مصر للبسكويت وعرض صورة صاحبك على مدير الشركة فأكد أنه ليس هو المرحوم عبد المتعال محجوب مدير الشركة السابق، ولما سأل المدير الحالي عن الذي يجعل هذا المحتال يدعي أنه الاستاذ عبد المتعال محجوب، ظهر السر. . فقد تبينت الشركة بعد وفاة عبد المتعال بستة شهور وتعيين مدير جديد، أنه اختلس سبعة عشر ألف جنيه من أموال الشركة. وعندما خشي عبد المتعال هذا أن ينكشف أمره، ألقى بنفسه أمام قطار سكة حديد حلوان. ورأت الشركة حفظاً لسمعتها ألّا تبلغ النيابة، فطوت هذه الفضيحة الكبرى!

ـ وما هو السر؟

ـ السر أنه لا بد أن هذا المحتال سمع بقصة الاختلاس، فرأى أن يتسمى باسم المدير المختلس المنتحر ليستولي على الأملاك التي اشتراها بالفلوس التي اختلسها!

ـ ولكنه أخبرني بأنه لا يملك مليماً. . وأعطيته عشرة جنيهات رفض أن يأخذها إلا بعد أن وقع بها إيصالاً ووعدته بأن أستردها منه.

ـ هذه هي سمات النصاب الأصلي.. يتظاهر بالتعفف والإباء والشرف حتى تقع الضحية في الشرك المنصوب!

ـ أنا اعتدت ألا أصدق ما يقوله المدير الجديد عن المدير القديم. أول ما يفعله المدير الجديد عادة أن يشوه المدير القديم بالزفت والطين..

ـ وأنا لم أكتف بشهادة المدير الجديد. هل تعرفين أنهم عثروا في درج مكتب عبد المتعال بعد وفاته، على صورة للراقصة كاميليا؟

ـ وأرسلوا هذه الصورة لزوجته!

ـ إنني أرسلت المحررة اللامعة كوكب الحسيني وقابلت الراقصة كاميليا، وعرضت عليها صورة صديقك هذا فقالت أنها لا تعرفه ولم ترَ وجهه قبل الآن!

ـ هذا يدل على أنه صادق.. لقد قال لي أنه لا يعرفها!

ـ وكيف احتفظ بصورتها في درج مكتبه!

ـ هو نفسه لا يعرف كيف حدث هذا!

ـ من له مصلحة في تشويه سمعته؟

ـ المدير الجديد طبعاً!

ـ هذا عيب المرأة، تتشبث بخطئها حتى عندما تواجه بالمستندات الدامغة!

ـ أين المستندات؟

ـ هذه التحقيقات الصحفية هي مستندات دامغة قام بها أكبر المحررين في جريدتنا!

ـ هذا كلام فارغ!

ـ كيف تسمين هذا كلاماً فارغاً وهو من أوثق المصادر؟

ـ هل أصبحت الراقصة كاميليا من أوثق المصادر؟

ـ لا تريدين أن تصدقي اللواء القواص مدير السجن، ولا الباشكاتب، ولا نائب الباشكاتب، ولا مدير شركة البسكويت . . كل هؤلاء مصادر رسمية، فكيف تكذبين المصادر الرسمية؟

ـ إنني أعرف المصادر الرسمية!

ـ إن زوجته تؤكد أنه مات!

ـ هل عثرتم على زوجته؟

ـ إن مدير شركة البسكويت يقول أنها سافرت إلى تركيا عندما علمت بفضائح زوجها الخائن!

ـ إنه ليس زوجاً خائناً!

ـ كيف تعرفين هذا؟

ـ لأنه نام في سريري؟

ـ هل هو الآخر نام في سريرك؟

ـ الذي نام في سريري هو مدير شركة البسكويت؟

ـ هل كان طعم قبلاته كالبسكويت؟

ـ حدثني طويلاً عن كيفية صناعة البسكويت!

ـ أي عامل في شركة البسكويت يستطيع أن يحدثك عن كيفية صنع البسكويت.

ـ كان يتكلم كرجل مثقف!

ـ كثير من العمال أصبحوا مثقفين!

ـ أنا واثقة من أنه هو عبد المتعال محجوب مدير شركة مصر للبسكويت.

ـ أنا أعلم أنك عنيدة!

ـ عنيدة في الحق!

ـ وعنيدة في الكذب أيضاً!

ـ كان ذلك قبل أن أقسم أن أكون صادقة!

ـ لقد أوفدت الأستاذ عبد الجواد الشاذلي المشرف على صفحة الوفيات في الجريدة إلى (حانوت أمبابة) الذي يتولى دفن الموتى من سكان الزمالك، وشهد صاحب الحانوت أنه هو الذي تولى غسل جثة عبد المتعال محجوب وهو الذي كفنه بنفسه، وهو وضعه في النعش بنفسه، وهو الذي اشترك في دفنه في قبر بالمدفن رقم «٧» شارع المأمون بالامام الشافعي. وكان (التربي) الذي حفر القبر وحمل معه الجثة، هو الحاج اسماعيل الطاروني. هل اقتنعت الآن؟

ـ نعم اقتنعت!

ـ وتأكدت أنه مات؟

ـ لا.. تأكدت أنه حي!

ـ كيف تقولين أنه حي، وأنا أثبت لك أنه ميت؟

ـ لأنه كان في فراشي!

ـ هذا دليل عجيب!

ـ قلبي لا يمكن أن يخدعني!

ـ أنت إذن تحبينه!

ـ إنني أحب صدقه!

ـ إذا كان الأمر كذلك، فسأجيء لك بالدليل الدامغ القاطع. لقد استطاع الاستاذ حسان محررنا القدير أن يحصل على صور فوتوغرافية لوثائق هامة تثبت أن هذا النصاب اسمه الحقيقي جرجس بطرس، وأنه محكوم عليه بالسجن عامين في تهمة انتحال اسم شخصية أخرى.. وعندنا صورة اعتراف بخط يده أنه ارتكب هذه الجريمة، وهو مودع بملفه في السجن.. هل تعرفين خطه؟

ـ نعم أعرف خطه!

ـ هل هذا هو خطه؟

ـ نعم هو خطه . .
ـ إذن صدقت أنه أفاق نصاب!
ـ صدقت أنه صادق!
ـ بعد كل هذه الوثائق!
ـ كل ما قلته كنت أعرفه من قبل!
ـ ومع ذلك تقولين أنه صادق!
ـ لأن هذه المعلومات كلها قالها لي بالحرف الواحد!
ـ أنت جننت ياسلوى!
ـ لم أكن عاقلة في يوم ما كما أنا الآن!
ـ إذا لم تكوني أنت المجنونة . . فلا بد أنني أنا المجنون!
ـ مجنون بتصديق المعلومات الرسمية!
ـ إن مهنتي هي تحري الحقائق.
ـ في بعض الأحيان، عندما تكون الحقيقة واضحة جداً، تعمى عنها العيون، تماماً كما تعمى عيوننا عندما نتطلع إلى الشمس!
ـ كأنك تتهمينني أنا وجميع محرري جريدة «الصباح الجديد» بأننا نتآمر على الحقيقة!
ـ أنتم لستم شركاء في المؤامرة . . أنتم بعض ضحاياها!
ـ أنت الضحية الوحيدة!
ـ لأن الصدق أصبح منبوذاً!
ـ لأنه لا يمكن أن يكون كل هؤلاء كذابين!
ـ الأكذوبة لا تصبح حقيقة إذا زاد عدد معتنقيها!
ـ ماذا تصير إذن؟
ـ تصير أكذوبة أكبر!
ـ الدليل على أن قصة صاحبك ليست الحقيقة أنني لا أراها!
ـ إن أكبر حقيقة في الدنيا لا نراها بعيوننا.

ـ وما هي هذه الحقيقة؟

ـ الله!

ـ لا بد أنك جننت يا سلوى.. تقارنين هذا الأفاق النصاب بالله سبحانه وتعالى!

ـ أنا لا أقارن عبد المتعال بالله.. وإنما أريد أن أثبت لك أنه أعظم حقيقة لا تراها الأعين، فما بالك بالحقيقة الصغيرة؟

ـ هل هذه فلسفة؟!

ـ لم أدرس الفلسفة. ولكني أؤمن بأننا في عالم يحكم على الأشياء بحجمها، ناسين أن كثيراً من الحقائق أصغر من حجم الدبوس، وأن كثيراً من الأكاذيب أضخم من حجم الاهرامات.. ولكي نرى الصدق يجب أن نبحث عنه وندقق فيه. الصدق خجول، والكذب جريء، قليل الحياء.. الصدق يمشي محني الرأس بجوار الجدار، والكذب يمشي في المواكب تتقدمه الموسيقى والطبول.. الصدق يهمس. والكذب يصرخ.. الصدق واحد من المسحوقين، والكذب هو صاحب الجلالة الذي يمشي مختالاً وكأنه أحد الغزاة الفاتحين.. ولهذا لا نرى الصدق إلا بالميكروسكوب.. وكأنه ميكروب!

ـ كل هذه المحاضرة من أجل هذا الهلفوت عبد المتعال!

ـ ما عبد المتعال إلا كلمة صادقة تدوسها أقدام عمالقة الكذابين!

ـ الحب أعمى!

ـ حب الحقيقة فتح عيني!

ـ أؤكد لك أنك مخدوعة في هذا الرجل النصاب!

ـ كل رجل يقول الحقيقة في هذه الأيام ينظر إليه الناس كأنه نصاب!

ـ أتريدين أن تجعلي من سريرك جهازاً لكشف الكذب، من ينجح في هذا السرير ينال على الفور درجة أصدق الصادقين؟

ـ إنه سقط في امتحان السرير!

ـ لم يسقط.. إنه هرب من الامتحان!

ـ هروبه أكبره في عيني!

ـ وجعلني أحتقره!

ـ كما تحتقره لأنه يقول الصدق!

ـ أنا أحتقره لأنه مجرم محكوم عليه!

ـ ولهذا تحترم المجرمين غير المحكوم عليهم!؟

ـ أنا مضطر أن أصدق حكم المحكمة!

ـ لم يذهب إلى محكمة حقيقية!

ـ الوثائق تقول أنه حوكم، وحكم عليه!

ـ ما أكذب الوثائق!

ـ وما أصدق عبد المتعال محجوب!

ـ إنك تقول أن عبد المتعال قد مات!

ـ أقصد.. جرجس بطرس!

ـ الأكذوبة أصبحت هي الحقيقة!

ـ ما دامت فوق ورقة رسمية!

ـ الحقيقة مدفونة في قبر بشارع المأمون بالامام الشافعي.

ـ وسوف تبعث يوم القيامة!

ـ ظننت أن مهمة الصحافة أن تبعث الحقيقة من قبورها.. ولكن يبدو أنها دفنت معها في قبر واحد!

ـ الصحافة لا تدافع عن أفاق محتال.

ـ حتى ولو كان مظلوماً!؟

ـ وما أكثر المجرمين الذين يدعون أنهم مظلومون.

ـ وأكثر منهم المظلومون الذين دفعناهم كذباً لأن يكونوا مجرمين!

□□□

وعـادت سلوى وهبي إلى بيتها، وروت لعبـد المتعـال الحـديث الذي جرى بينهـا وبين الأستـاذ جلال حمـدي رئيس تحريـر جريـدة (الصباح الجديد). .

ولم يبـد عـلى عبـد المتعـال أي دهشـة لأن التحقيق الصحفي الواسع الذي قام به أكفأ المحررين والمخبرين أثبت أنه كذاب وأفاق ونصاب وإنما قابل هذه الأنباء بهدوء غريب واستسلام أغرب.

ولكنه قفز من مقعده عندما أخبرتـه سلوى أن مديـر شركة مصر للبسكـويت قـال أنـه اختلس سبعـة عشر ألف جنيـه من أمـوال الشركـة، وبدا عليـه الغضب الشديـد، وقـال والشرر يتـطايـر من عينيه:

ـ يجب أن أذهب فوراً وأقابل مدير شركة مصر للبسكويت!

ـ وما الفائدة؟

ـ لأدافع عن اسمي.

ـ قبل أن تدافع عن اسمك يجب أن يكون لك اسم!

ـ سوف أدافع عن اسم عبدالمتعال محجوب!

ـ سوف يقولون لك. . وانت مالك!

ـ مالي؟ أنا عبد المتعال محجوب شخصياً!

ـ ولكنهم ينكرون أنك عبد المتعـال، إنك قانوناً جرجس بطرس!

ـ لا يهمني من أكون. . أليس من حق جرجس بطرس أن يدافع عن شرف رجل بريء!؟

ـ لا. . هذا ليس من حقه!

ـ بل من حق كل إنسان أن يدافع عن شرف أي رجل بريء!

ـ أنت لست إنساناً . . أنت رجل محكوم عليه بجريمة مخلة بالشرف، وليس من حق المحكوم عليه بجريمة مخلة بالشرف أن يدافع عن شرف الآخرين.

ـ يكفي أن أعلن الحقيقة وأبرىء عبدالمتعال محجوب.

ـ إنك ستلوث اسم عبد المتعال محجوب.

ـ ألوثه لأنني أقول أنه بريء؟

ـ سوف يقولون أن مجرماً يدافع عن مجرم، ونصاباً يعلن براءة نصاب آخر. . وهذا ليس في مصلحتك!

ـ ما هي مصلحتي إذن؟

ـ أن تسكت!

ـ أسكت على اتهامي كذباً بالاختلاس؟

ـ مدير الشركة الجديد قال أنهم لم يبلغوا النيابة ضدك حرصاً على سمعة الشركة. وتقدمك الآن سوف يثير الحكاية من جديد. وكل ما سوف تكسبه أن تكتب الصحافة حكاية الاختلاس.

ـ ولكني سوف أثبت أن عبدالمتعال لم يختلس مليماً واحداً.

ـ وهل استطعت أن تثبت أنك لم ترتكب جريمة النصب؟

ـ لا . . اعترفت كذباً بأنني ارتكبتها!

ـ وسوف تعترف كذباً بأنك اختلست سبعة عشر ألف جنيه من الشركة!

ـ إنني اضطررت لهذا الاعتراف لأنني كنت مسجوناً!

ـ وهل لو وضعوك من جديد في السجن وجاءك الباشجاويش عبدالجبار وأراد إرغامك على الاعتراف، فهل ستعترف بالجريمة الجديدة؟

ـ طبعاً!؟

ـ إذن الأفضل ألا تذهب إلى الشركة الآن!

ـ وأبقى مختلساً!؟

ـ إنك الآن نصاب.. فما الضرر من أن تكون مختلساً كذلك!

ـ ولكني مظلوم في الجريمتين!

ـ أعرف أنك مظلوم.

ـ كيف تعرفين أنني مظلوم، وكل الشواهد ضدي!؟

ـ لقد عرفت طعم الظلم في يوم من الأيام. والذين ذاقوا الظلم مرة لا ينسون مذاقه أبداً!

ـ هل اتهموك بالنصب والاختلاس؟

ـ اتهموني في شرفي، اتهموني بأنني عاهرة!

ـ ووضعوك في السجن؟

ـ لا.. وضعوني في مكان شر من السجن.. وضعوني في أفواههم!

ـ وهل أفواه الناس تؤلم كما يؤلم جحيم السجن؟

ـ إنها جحيم من نوع آخر.. أكبر عذاب للبريء، أن تنهشه الأفواه الجائعة للفضائح، أن تعضه الكلاب المسعورة!

ـ هل أطلقوا عليك الكلاب التي يطلقونها على الذين يريدون تعذيبهم؟

ـ كلاب من نوع آخر.. كلاب آدمية.. لها أنياب فتاكة!

ـ وماذا كانت جريمتك!

وقالت سلوى وهبي بتنهد:

ـ جريمتي أنني كنت فتاة صغيرة السن، شابة جميلة دخلت الوسط الفني.. وأردت أن أشق طريقي معتمدة على مواهبي وثقافتي

وقدرتي على التمثيل. . والتحقت بفرقة مسرحية كبيرة وفوجئت بمدير الفرقة يراودني عن نفسي. . رفضته بأدب ولطف. أكد لي أنه سيصعد بي إلى سلالم المجد، وأن فراشه هو أولى الدرجات التي يجب أن أصعد إليها لأصل للمجد. . أبيت أن أشتري المجد في السرير. . وإذا بي أفاجأ بحملة من الهمس والإشاعات والأكاذيب تصورني أنني عاهرة. . وتألفت القصص والروايات. وخيل لي أن زملائي وزميلاتي تحولوا جميعاً إلى مؤلفي قصص، قصص محبوكة، فيها أسماء ووقائع وأماكن وتفاصيل!

كل هذا حدث لي بسبب كلمة «لا».

إن كلمة (لا) أغلى كلمة في اللغة العربية. إنها تكلف كثيراً. تكلف قائلها في بعض الاحيان حياته. . ولكنها كلمة لذيذة. . تشعرك أنك إنسان. . تشعرك أن لك كرامة. تساوي كل آلام الدنيا. حاولت أن أدافع عن نفسي، أن أعلن الحقيقة، فلم أجد من يصدقني!

كان جمالي هو شاهد الإثبات ضدي. . المرأة الجميلة تحمل في مفاتنها أدلة الاتهام على فجورها. . فوجئت ببوليس الآداب يطرق باب شقتي بعد منتصف الليل ليبحث فيها عن عشاق وزبائن. . ولم يجد شيئاً بالطبع. ولكن زيارة بوليس الآداب لي أصبحت خبراً هاماً في المجلات. . واكتشفت أن الوسيلة الوحيدة لأصبح سيدة فاضلة في الوسط المسرحي أن أنام مع كل كبار المخرجين والممثلين. .

وعشت شهوراً من العذاب والآلام. كنت أمشي في الشوارع وأتصور أن كل الأصابع تشير إلي. . كل الأفواه تصرخ: عاهرة. . عاهرة. . في الوقت الذي كنت فيه فتاة عذراء لم يمسسني بشر. .

في الوقت الذي كنت أؤدي فيه الصلوات في أوقاتها.. في الوقت الذي لم أعرف فيه إلا باب المسرح وباب شقتي!

وقررت أن أكون عند حسن ظن الناس، فتعرفت بأحد وزراء المواصلات، وصرت عشيقته الرسمية.. وإذا بالألسنة الظالمة تخرس، وإذا بالشفاه التي تقطر سماً تقطر شهداً. أصبحت سيدة محترمة لأنني عشيقة معالي الوزير..

أصبحت سيدة فاضلة لأن الكبراء أصبحوا يدخلون بيتي! أصبح بوليس الآداب لا يستطيع أن يقتحم شقتي لأنني انتقلت من شقتي المتواضعة في باب الخلق إلى شقة ضخمة في الزمالك!

الذين شتموني مدحوني، والذين داسوا علي بالأقدام حملوني فوق أعناقهم. والذين لعنوني هتفوا بحياتي حتى مدير الفرقة الحقير الذي أعلن الحرب علي أدلى إلى إحدى الصحف بتصريح يقول فيه أنه رشحني في مسرحيته الجديدة (ملاك على الأرض) لأنه اكتشف من خلقي وطِريقتي في الحياة أنني أقرب ممثلة في الوسط الفني إلى شخصية الملاك! ومضيت أحب وأعشق. أستبدل العشاق كما أستبدل جواربي. أشرب الخمر. أقيم مآدب للقمار في بيتي. تخصصت في أدوار الاغراء. كشفت عن جسمي كله في الأفلام، ومع ذلك لم يصدق أحد أنني عاهرة.. لم يقل أحد أنني عاهرة..

وكنت أتصور أنني سأكون سعيدة وأنا أقرأ في الصحف أنني سافرت إلى مدينة طنطا خصيصاً لزيارة السيد البدوي، بينما الذي حدث أنني سافرت لأمضي يومين مع وزير المواصلات في عزبته بجوار طنطا!

وذات مرة سافرت مع الأستاذ جلال حمدي إلى الإسكندرية،

وأقمت معه في غرفة واحدة في فندق متروبول، وكنا نسهر كل ليلة في كباريه الفندق إلى الصباح، وفوجئت بجميع الصحف تقول أنني سافرت إلى الاسكندرية خصيصاً لزيارة مسجد أبي العباس، وأن المصلين رأوني وأنا أركع أمام الضريح والدموع تملأ عيني!

كانت تقال عني هذه الفضائل كلها، في الوقت الذي لم أكن أقول فيه لأي رجل كلمة «لا». . ما عدا رجلاً واحداً وهو مدير الفرقة الحقير الذي أطلق علي كذباً في أول عملي أنني (عاهرة). . كنت أشعر دائماً أنني لم أسقط. . ما دمت لم أستسلم لهذا الرجل الحقير!

وكل هذا لم ينسني أبداً الأيام التي أمضيتها في جحيم الظلم. وأعتقد أن الله سوف يغفر لي خطاياي، فألسنة الناس هي التي دفعت بي إلى الخطيئة. . إنني ارتكبت الخطيئة دفاعاً عن سمعتي!

□ □ □

ونظر عبدالمتعال إلى سلوى فرأى الدموع تملأ عينيها ووجد نفسه يقول لها في دهشة:

ـ معنى ما تقولين أنني سوف أصبح نصاباً وأفاقاً ومحتالاً ومختلساً، دفاعاً عن سمعتي!

ـ لو فعلت ذلك لعذرتك. . ولكنني احترمتك أكثر لأنك لم تفعل هذا!

ـ ولكنك تطلبين مني الآن ألا أذهب إلى الشركة لأدافع عن سمعتي!

ـ العدل يأتي على خطوات. .

ـ العدل البطيء. . هو ظلم سريع!

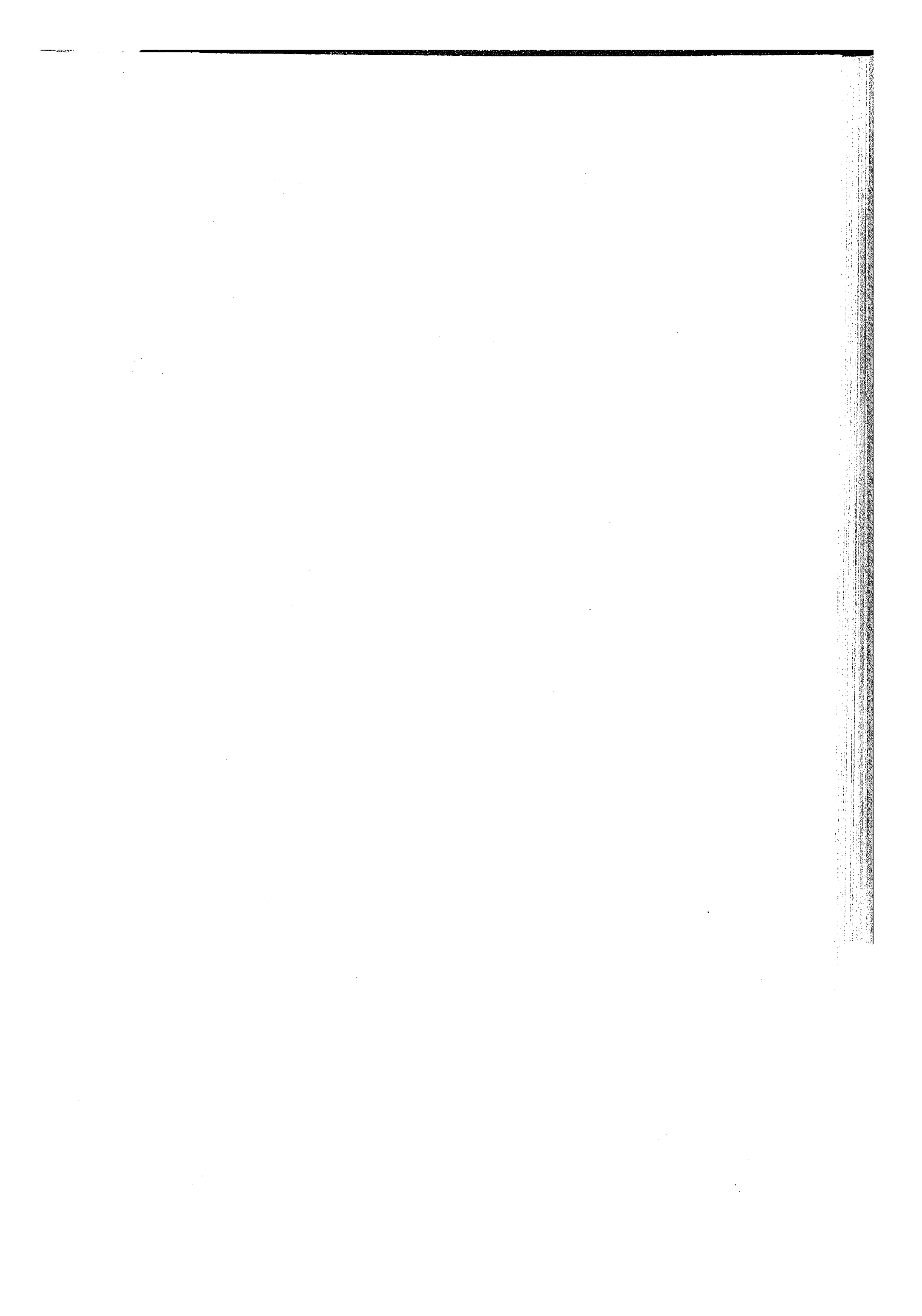
ـ تأكد أنه سيجيء يوم تعترف الدنيا فيه بأنك بريء!

ـ عندما أعشق زوجة صديقك وزير المواصلات!

ـ إنه أرمل للأسف!

ـ إذن ماذا أفعل الآن؟

ـ نبحث أولاً عن جثتك التي دفنوها في المقبرة رقم ٧ شارع المأمون بالإمام الشافعي.



الفصل العاشر

أثارت سيارة سلوى وهبي عاصفة من التراب في شارع المأمون بالإمام الشافعي. خرج عشرات الأطفال الصغار يجرون وراء السيارة ويتعلقون بها. قالت سلوى وهي تبتسم لعبد المتعال الذي كان يجلس بجوارها:

ـ يظهر أن الأطفال عرفوني على الرغم من النظارة السوداء الكبيرة التي تخفي عيني، (والإيشارب) الذي يخفي أغلب وجهي!

ولم تلبث سلوى أن اكتشفت أنها كانت واهمة عندما فرحت بوجود معجبين في حي الأموات لملكة الإغراء، إنهم لا يحيون النجمة وإنما يحيون السيارة. وهم يحيون كل سيارة مهما كان طرازها فأطفال المقابر يعرفون أن سيارة تدخل إلى حي المقابر لا تحمل زوار الموتى وحدهم، وإنما تحمل معهم (الرحمة) وهي فطائر وفاكهة وحلوى يوزعها أهل الميت على روح الفقيد.

ونزلت سلوى من السيارة ووراءها عبد المتعال، لاحظ عبد المتعال خيبة الأمل في عيون الأطفال. ماتت زغاريد الفرحة على شفاههم. خرست فجأة أصوات التهليل والدعوات وفهم عبد المتعال أن الأطفال لم يجدوا قفص (الرحمة) يخرج من السيارة.

وتحسس عبد المتعال بيده جيوب بنطلونه، فلم يجد فيها

قروشاً. كل ما وجده هو العشرة الجنيهات التي اقترضها من سلوى، وتصور أنه يستطيع بها أن يستعيد اسمه وشرفه واعتباره. إن منظر القبور يحرك عادة القلوب الجامدة، فتمتد أيدي زوار القبور أوتوماتيكياً إلى جيوبهم، ويوزعون القروش على هؤلاء الأطفال الفقراء المسحوقين، معتقدين أنهم يشترون بهذه القروش قصورا في الجنة.

وأحس عبدالمتعال برغبة عجيبة في أن يعطي العشرة الجنيهات كلها لهؤلاء الأطفال صدقة على روح المرحوم عبدالمتعال محجوب. ثم عاد وتذكر أنه لا يزال حياً. وأن هذه العشرة الجنيهات ستدخله الدنيا.. وليس من المعقول أن يدخل الآخرة قبل أن يدخل الدنيا. وأسرع يخرج يده من جيبه، خشية أن تخونه يده وتتصرف في رأس ماله المقترض!

ولاحظت سلوى حيرة يد عبدالمتعال في جيبه، فسألته عما يبحث، فقال أنه كان يريد قروشاً ليعطيها لهؤلاء الأطفال، وأخرجت سلوى من حقيبتها عشرة قروش وأعطتها لأكبر الأطفال وهي تقول له: وزعوا هذا المبلغ على بعضكم واقرأوا الفاتحة على روح المرحوم عبدالمتعال محجوب!

وارتعش عبدالمتعال عندما سمع كلمة (المرحوم) تسبق اسمه. وأحس أنه مات لمدة دقيقة، حتى تبين أن سلوى كانت تداعبه!

واتجها إلى باب المدفن المكتوب عليه رقم ٧ ووجدوا الباب الخشبي القديم مغلقاً.

ودق عبد المتعال بقبضة يده على الباب، فلم يفتح أحد..

وكرر دق الباب عدة مرات ولم يفتح أحد، وبدأ يطرق الباب بعنف وقالت له سلوى ساخرة:

ـ لا تدق بهذا العنف حتى لا توقظ الموتي من سباتهم!

ووجد نفسه بغير شعور يتمهل في دق الباب، وكأنه خشي أن يوقظ الميت الذي يحمل اسمه، ويقع إشكال جديد!

ثم سمع صريراً عالياً، ورأى باب المدفن ينفرج، ويطل منه رأس رجل أشيب، له لحية كبيرة بيضاء. وارتجف عبد المتعال، خيل إليه أن أحد الموتى المدفونين في المدفن خرج من قبره ليفتح باب المدفن.

وكان يبدو في وجه الرجل الأشيب أنه كان نائماً، نائماً من ألف سنة. وكان يبدو عليه الضيق بهؤلاء الذين أزعجوه، وأخرجوه من قبره!

ولم يجد عبد المتعال كلمة يقولها للرجل الأشيب، ونظر إلى سلوى مستنجداً بها وأسرعت سلوى تخرج من حقيبتها ريالاً وضعته في يد الرجل الأشيب وهي تقول:

ـ نريد أن نزور قبر عبد المتعال بك محجوب!

وتهلل وجهه العجوز الأشيب، وكأن الريال كان اعتذاراً كافياً لإيقاظه من سباته الطويل.

وقال وكأنه يمسح التراب عن ذاكرته:

ـ عبد المتعال بك؟.. نعم، عبد المتعال بك؟ نعم.. عندنا ميت اسمه عبد المتعال بك.

وفتح حارس القبور باب المدفن على مصراعيه، وتقدم بخطوات سريعة شابة إلى داخل المدفن!

ودهشت سلوى من أن الرجل العجوز في هذه الحيوية العجيبة، وفي هذه الصحة وهذا النشاط، فسألته قائلة:

ـ كم عمرك؟
ـ ٩٥ سنة!
ـ منذ متى تعيش هنا؟
ـ منذ أن ولدت!
ـ لم تترك هذا المكان أبداً؟
ـ كان أبي حارس المقبرة قبلي!
ـ ألا تضيق من رائحة الموتى؟
ـ إن رائحة الموتي.. هي إكسير الحياة!
ـ ألا تخاف أن تعيش مع الموتى!
ـ أخاف أن أعيش مع الأحياء!
ـ يقولون أن للموتى عفاريت تخرج من قبورهم وتعاكس الأحياء!
ـ العفاريت الذين رأيتهم في حياتي هم الأحياء!
ـ يظهر أنك تحب الموتى؟
ـ الإنسان شرير إلى أن يموت. الروح هي حاملة الشر، فإذا غادرت الجسم فقد الحركة. وكل شر يرتكبه الإنسان هو نتيجة الحركة. يحرك لسانه فيعلن الحرب، يحرك يده ليقتل أو يعتدي على الآخرين، يحرك قدمه فيدوس على الضعفاء. يحرك قلبه ليحقد أو ليكره أو لينتقم!
ـ ألم تر قلباً يحب؟

ـ قلوب الموتى!

□□□

واقتربوا في هذه اللحظة من مكان القبور، وأشار حارس القبور بيده إلى قبر متواضع.

وتأمل عبد المتعال شاهداً من الحجر فوق القبر وقرأ (هنا يرقد المرحوم عبد المتعال أفندي محجوب) وتضايق عبد المتعال أنهم لم يكتبوا على الشاهد أنه (مدير شركة مصر للبسكويت) واكتفوا بالتاريخ الهجري والتاريخ الميلادي.

وتأمل عبد المتعال حوله، فوجد أن كل القبور الأخرى أكبر من قبره وأعلى منها.. وكان أكبرها جميعاً قبر مراد بك حسين والد زوجته خديجة.. ولاحظ أنه كتب على قبر مراد بك أنه (سكرتير عام وزارة الأشغال). وهز عبدالمتعال رأسه في حسرة وهو يقول لنفسه: لماذا كتبوا على قبر مراد بك وظيفته ولم يكتبوا على قبري وظيفتي؟ هل قصدوا من ذلك أن يقتصدوا في المصاريف!؟

ولم تكن سلوى مهتمة بضخامة القبور الأخرى وضآلة قبر عبد المتعال، ولم تهتم بأنهم لم يكتبوا على شاهد القبر أن عبد المتعال هو مدير شركة مصر للبسكويت.. وهو المنصب الذي يحرص عليه حياً وميتاً، وإنما كان اهتمامها منصباً على أنها وجدت فوق كل القبور الورود والرياحين، ولم تجد فوق قبر عبدالمتعال زهرة واحدة فسألت الحارس مستنكرة:

ـ لماذا لا توجد على هذا القبر زهرة واحدة؟

ـ لأن أحداً لم يزره منذ أن دفنوه منذ عامين!

ـ ولا زوجته؟
ـ لا أعلم أنه متزوج!

وتدخل عبد المتعال في الحديث محتجاً وقال لحارس القبور:

ـ ألم تر سيدة طويلة، شقراء الشعر، وجهها مستدير، وعيناها خضراوان، تجيء إلى هذا القبر وتبكي أمامه؟
ـ لم أرَ رجلاً ولا امرأة!
ـ ألا تزور أسرة المرحوم مراد بك حسين.. قبره؟
ـ طبعاً.. في المواسم!
ـ ألم يحدث أن أحداً من الأسرة جاء إلى ناحية قبر عبد المتعال محجوب وقرأ الفاتحة أو وضع زهوراً؟
ـ لم يحدث.
ـ لا بد أن ذاكرتك ضعيفة!
ـ ذاكرتي قوية جداً.. إنني أذكر كل من زار المدفن في الخمسين سنة الماضية.. أذكرهم باليوم والساعة!
ـ غير معقول.. لقد كان عبد المتعال متزوجاً من ابنة مراد بك حسين!
ـ هذا غير صحيح.
ـ ما الذي يجعلك تعتقد أن هذا غير صحيح؟
ـ لأنني سألت سيدة من الأسرة عن عبد المتعال محجوب هذا فقالت أننا لا نعرفه، ولم نسمع به!
ـ هل يمكنك أن تصف هذه السيدة؟
ـ سيدة طويلة، شقراء الشعر وجهها مستدير، وعيناها خضراوان..
ـ هذه هي خديجة هانم!

ـ نعم!

ـ متى قالت لك هذا الكلام؟

ـ في أول رجب من عامين!

ـ كان هذا قبل دفن عبدالمتعال هنا؟

ـ لا . . بعد دفنه بشهر واحد!

ـ كانت طبعاً ترتدي فستاناً أسود وعلى راسها طرحة سوداء!

ـ كلا . . كانت ترتدي ثوباً أحمر . . شفتشي!

ـ شفتشي أيضاً؟!

ـ أنا لا أنسى لون فستان امرأة!

ـ لا يمكن أن ترتدي خديجة هانم ثوباً أحمر بعد وفاة زوجها بشهر . .

ـ إذا عشت بين القبور فسوف تكتشف حقيقة غريبة، وهي أن القبور لا تضم الموتى وحدهم، وإنما تضم ذاكرة أحبائهم . . الأحياء ينسون الأحياء بصعوبة، ولكنهم ينسون الموتى بسهولة. الزوج يزور أرملته كل يوم في بداية موتها، ثم في الشهر التالي يزورها كل أسبوع، وفي الشهر الثالث يزورها كل سنة . . وفي السنة التالية لا يزورها أبداً . . المرأة تبكي عند قبر زوجها بحرقة بالغة في الأسبوع الأول، وتضحك وتتبادل النكت أمام القبر في السنة الأولى . . على بَعد خطوات منا قبر رجل اسمه توفيق بك حسين. عندما أدخلنا جثته إلى قبره أصرت زوجته على أن تدفن معه ودخلت فعلاً القبر وراء جثة زوجها وهي تصرخ وتبكي، واستطعنا بصعوبة أن نحملها خارج القبر، وبعد عام واحد رأيت هذه السيدة تدخل المدفن ومعها شاب، وسألتها هل هذا الشاب هو ابنها، فقالت إنه زوجها الجديد . . فسألتها: ولماذا تجيئين به معك إلى قبر زوجك

القـديم؟ قالت لكي يتـأكد أنني لست كبـاقي النساء: . إنني امـرأة عندها وفاء!

وتدخلت سلوى في الحديث وقالت لحارس القبر:

ـ يظهر أنك عدو النساء. . هل تزوجت!
ـ لا. . لم أتزوج أبداً!
ـ ولهذا عشت حتى سن الخامسة والتسعين؟
ـ الزواج يقصف عمر الرجال، ويطيل عمر النساء!
ـ كيف وصلت إلى هذا الاكتشاف؟
ـ في المدفن. لاحظت أن الأزواج يموتون دائماً قبل زوجاتهم!
ـ أنت تبالغ!
ـ جميع الرجال المدفونين في هذه القبور ماتوا قبـل زوجاتهم بعشر سنوات على الأقل!
ـ عادة تكون سن الزوج أكبر من سن الزوجة!
ـ بين المدفونين هنا رجال كانوا أصغر سناً من زوجاتهم؟
ـ وجودك في جو الموتى جعلك تكره النساء!
ـ وجودي هنا جعلني أحب الحياة!
ـ لا بد أن امرأة ما هي التي عقدتك من النساء!
ـ كرهت النساء عندما كنت طفلاً. .
ـ وأحببت، وأنت طفل؟
ـ لم أحب أبـداً. . دائمـاً كـانت العـادة أن تجيء السيـدات من أهـل الميت ويبتن إلى جـوار القبـور في المـواسم. وذات يـوم رأيت أرملة شـابة تبكي بحـرارة أمام قـبر زوجها. كـانت دموعهـا تسقط بغزارة. كانت تصرخ وتنتحب وتلطم. فشلت كـل محاولات أهلهـا لتهدئتها. مكثت تبكي بكاءً مستمراً من الساعة الرابعة بعد الظهـر

إلى منتصف الليـل. كان أهلهـا يقولـون لها (أنت ستقتلين نفسـك بهذا البكاء)، فكانت ترد عليهم وتقول: (إنني أريد أن أمـوت). . وأخيراً تقدم والدي منها وقـال أنه سيأخذهـا إلى الحمام ليغسـل لها وجهها، ومشت الأرملة وراء أبي صاغرة. ودخل بها أبي إلى الحمام. ونظرت من ثقب الباب، وذهلت عندما رأيتها في وضع غـريب مع أبي. . ثم بعـد ذلـك رأيتهـا تخـرج وهـي تبتسـم وتقـول لأبي: «إنك عرفت كيف تمسح دموعي». . وعندما وصلت الأرملة إلى قبر زوجهـا عادت تصرخ وتنتحب وتلطم من جـديد. . وفـوجئت بعد ذلـك بهذه الأرملة تحضر كـل يوم إلى المـدفن وتجلس إلى جوار قـبر زوجها وتبكي وتنتحب، ثم يجيء أبي ليجفف لها دموعها. . ولهـذا السبب لم أتزوج أبداً، حتى لا يجيء رجل ويجفف دموع زوجتي!

ـ كنت أتصور أن الانحلال شيء جديد!

ـ إنه شيء قديم. في الماضي كان الانحـلال تحت السلم، فصار اليوم فوق السطوح!

وتركهما حارس القبر واتجه إلى ناحية أخرى. .

□□□

وهمس عبد المتعال في أذن سلوى قائلاً:

ـ كنت أتعـذب من دقائق لأن زوجتي لم تـزر قـبري ولكني أحمـد الله أنها لم تجىء أبداً. . حتى لا يجيء أحد ويجفف دموعها!

ـ إن الـذي جفف دموع زوجتـك هو صـورة الراقصـة كـاميليـا وصور الراقصات وخطابات الغرام التي وجدوها في مكتبك!

ـ إنني لأول مرة في حياتي أشعر بالندم!

ـ لأنك تزوجتها!

ـ لا . . لأنني لم أعبر الوسادة التي كانت بيني وبينك في السرير . .

ـ لا تفكر في السرير الآن . . يجب أن تفكر الآن في الجثة!

ـ أي جثة؟

ـ جثتك طبعاً؟

ـ يخيل إلي أنه لا يوجد إثنان عبد المتعال محجوب. واحد منهما حي . . والثاني ميت!

ـ وأيهما أنت!؟

ـ بدأت أشك في أيهما أنا!

ـ وأنا بدأت أشك في أن ليس بهذا القبر جثة على الاطلاق!

ـ ولكن شاهد القبر مكتوب عليه (هنا يرقد المرحوم عبد المتعال أفندي محجوب).

ـ لم أعد أصدق أي شيء مكتوباً!

ـ ولكنهم نشروا في الصحف أن جنازتي شيعت، وأن حافظ بك سري سكرتير رئيس الوزراء كان مندوباً عنه، وسار في مقدمة المشيعين!

ـ وهل تظن أن سكرتير رئيس الوزراء نظر في النعش وتأكد أن جثتك فيه قبل أن يشترك في تشييع الجنازة؟

ـ ولكن الحانوتي والتربي قالا لمحرر جريدة (الصباح الجديد) أنهما توليا دفني بنفسيهما!

ـ إذا كنت لا تصدق مدير السجن وباشكاتب السجن ومدير شركة مصر للبسكويت، فهل تصدق الحانوتي والتربي؟

□ □ □

واتجهت سلوى نحو حارس القبور الذي كان واقفاً على بعد يمشط لحيته البيضاء الطويلة وقالت له:

ـ نريد أن تفتح لنا قبر عبدالمتعال محجوب.
ـ تفتحون القبر؟
ـ نعم نفتحه.. لنرى جثته!
ـ هذا ممنوع لا يمكن فتح قبر إلا ليدخل فيه ميت جديد!
ـ عندنا ميت جديد!
ـ أين هو؟
ـ نريد أولاً أن نتأكد أنه يوجد في القبر مكان لميت جديد قبل أن نجيء بميتنا إلى هنا لندفنه!
ـ هذا مستحيل.. لا بد أن يجيء الميت أولاً!.

وفتحت سلوى حقيبة يدها وأخرجت ورقة بنكنوت من فئة الجنيه وأمسكتها مفرودة في يدها وهي تقول:
ـ هذا هو الميت..

ولمعت عينا حارس القبور وأمسك الجنيه بيده وتحسسه، ودس الجنيه في عبه..

وضحكت سلوى وسألته:

ـ هل رأيت الميت؟
ـ رأيته بعيني!
ـ لم يعد مستحيلاً فتح القبر!
ـ أصبح ممكناً جداً!

وذهب حارس القبور وأتى بفأس وبدأ يحفر في التراب، ثم نزع

عدداً من الأحجار الثقيلة . . فظهر مدخل القبر . . وخرجت منه رائحة تزكم الأنوف والتفتت سلوى نحو عبد المتعال وقالت له:

ـ رائحتك وحشة يا عبد المتعال!

ـ إنها أول مرة أشم فيها رائحة الموت!

ـ إنها رائحة غريبة . لأنها تذكرني بشيء ما . . أعتقد أنها تذكرني برائحة أنفاس الأستاذ يحيى عبد المقصود مدير الفرقة الذي راودني عن نفسي، وعندما أبيت أطلق علي إشاعة أنني عاهرة!

ـ أعتقد أننا إذا كرهنا إنساناً تذكرناه كلما رأينا شيئاً كريهاً!

ـ أو شممنا رائحة كريهة!

□ □ □

وأقبل حارس القبر يحمل شمعة في يده، وأشعلها من عود ثقاب، ونزل درجات سلالم القبر وهو يقول: تفضلوا . . .

وتردد عبد المتعال . . ولكن سلوى تبعت حارس القبر، وهي تضع منديلها فوق أنفها، وتشجع عبد المتعال ونزل فوق الدرجات . . وتقدم حارس القبر نحو جمجمة وقرب منها ضوء الشمعة . .

وحملق عبد المتعال في الجمجمة وقالت سلوى:

ـ إنه يشبهك!

ـ يشبهني؟ هل أنا بهذا القبح!

ـ كلنا من الداخل بهذا القبح!

ـ أعوذ بالله . . مستحيل أن يكون هذا الرجل هو أنا!

ـ كيف عرفت هذا؟

ـ هذه ليست عظامي!

والتفتت سلوى إلى حارس القبر وقالت له:

ـ وأين اللحم؟
ـ تفتت!
ـ في عامين اثنين يتفتت كل شيء!
ـ يتفتت الجسم أحياناً في شهرين.. حسب طبيعة أرض المقبرة!

قال عبد المتعال في دهشة:

ـ هل التراب يأكل القماش؟
ـ لا يأكل القماش.. ولا يأكل العظام:
ـ إذن أين الكفن؟ هل من المعقول أنهم دفنوه عارياً؟
ـ لا.. المفروض أن يدفن بالكفن..
ـ وأين الكفن؟
ـ لا بد أن (التربي) سرقه!
ـ وبعد ذلك يظلمون الضباع ويتهمونها كذباً بأنها تأكل لحم الموتى!؟
ـ أشهد الله أنني لم أفتح القبر منذ أن دفنوه!
ـ ولكنك حارس القبر!
ـ أنا أحرس الموتى، لا أكفان الموتى..

وانتزع عبد المتعال الشمعة من يد حارس القبور، وقربها من العظام ثم سأله:

ـ أين ساق الميت اليسرى؟
ـ لا أعرف.. ربما أكلها الموت!

ـ أنت قلت أن التراب لا يأكل العظام!

ـ ربما كان الميت بساق واحدة!

ـ أنا واثق أن الميت بساقين!

ـ قد يكون التربي باع الساق لطلبة كلية الطب لاستعمالها في مادة التشريح!

ـ إذن، أنت اشتركت في سرقة الساق!

ـ أنا لا أفتح القبور، هذه مهمة (التربي)!

ـ ولماذا سمحت للتربي بأن يفتح هذا القبر؟

ـ قال لي أنه نسي شيئاً داخل القبر وجاء يبحث عنه!

ـ وخرج يحمل ساقاً!

ـ ربما!

ـ وتصورت أنه نسي هذه الساق في داخل القبر!

ـ لا أتذكر!

ـ أنت قلت أن أقوى شيء فيك ذاكرتك!

ـ إن هذا شيء عادي!

ـ كأننا لو فتحنا كل هذه القبور فسنجد موتى بلا أيد، أو بلا سيقان، أو بلا رؤوس.

ـ ولهذا منعوا فتح قبور الموتى!

ـ وأباحوا فتحها للصوص القبور!؟

ـ إن هذه أول مرة في حياتي أرى أهل ميت يسألون عن عظام موتاهم!

ـ كأن عبد المتعال سيدخل الجنة وهو يعرج!

ـ اطمئن يا سعادة البيه.. في الجنة يهدون الميت أعضاء جسم جديدة!

ـ الله يطمئنك!

□□□

وغادر الثلاثة القبر، وبدأ حارس القبور يعيد الحجارة الكبيرة إلى مكانها ويهيل عليها التراب..

وهز عبد المتعال رأسه وهو يقول:

ـ هذا الحارس يذكرني بعبد الجبار باشجاويش السجن!

ـ هل يشبهه شكلاً؟

ـ يشبهه موضوعاً. هذا يحرس قبوراً.. وذاك يحرس قبوراً!

ـ يظهر أن وظيفة الحارس أن يسرق ما يحرسه!

ـ الحارس يمنع اللصوص من السرقة.. ليحتكرالسرقة لنفسه!

ـ لم أكن أعرف أن حراس القبور يتاجرون في جثث الموتى!

ـ والحراس في الحياة، يتاجرون في جثث الأحياء!

ـ القبر مخيف!

ـ بالعكس، إنه يرد الروح!

ـ إنني شعرت بالخوف وأنا داخل القبر.

ـ أما أنا فمعتاد على القبور.

ـ هل مت قبل اليوم؟

ـ لا.. كنت مسجوناً!

ـ هل الزنزانة ضيقة مثل القبر!

ـ أضيق كثيراً!

ـ ماذا يمتاز القبر عن الزنزاتنة؟

ـ لم أجد في القبر الذباب، ولا البق. ولا الصراصير، ولا

الفيران. . لم أجد الحشرات والهوام التي تزحف على الجدران. . لم أجد القمل ولا الحشرات مصاصات الدماء التي تشبه بنك الدم.

ـ هذا هو الفرق الوحيد بين القبر والزنزانة!

ـ لا فرق غير ذلك!. .

ـ سوى أن سكان القبور أموات وسكان الزنزانات أحياء!

ـ أحياء على الورق وأموات في الحقيقة. بلاط السجن هو الموت الذي يأكل لحمهم!

ـ إذن أنت لا تخاف من الموت؟

ـ كيف أخاف من الموت وقد مت عامين كاملين!

ـ إذا كان الأمر كذلك فلماذا تصر على أن تعود إلى الحياة من جديد؟

ـ لأعرف الذين قتلوني.

ـ لتدفنهم كما دفنوك؟!

ـ وأنا في السجن تمنيت أن أدفن الباشجاويش عبدالجبار ثم تمنيت أن أدفن مدير السجن الذي سجنني ظلماً، ثم تمنيت أن أدفن الباشكاتب الذي جردني من اسمي. وعندما خرجت من السجن تمنيت أن أدفن مدير شركة مصر للبسكويت الذي قال أنني اختلست سبعة عشر ألف جنيه. . والآن أتمنى أن أدفن أيضاً حارس القبور هذا الذي سرق ساقي اليسرى.

ـ أنت محتاج لأن تستأجر جميع قبور الامام الشافعي لحسابك. . حتى تدفن فيها كل قتلاك!

ـ لا جريمة بلا عقاب!

ـ هل أصبحت إلهاً حتى تحاسب الناس؟

ـ أنـا لا أشعـر أنني إلّـه . . أشعـر أنني مـدعي عـام في محكمـة الحقيقة!

ـ وتريد أن ترفع الدعوى على كل من أساء إليك!

ـ لا أريـد أن أكون مـدعياً عـامـاً (لشخص)، أريـد أن أكـون مدعياً عـاماً من أجـل المجموع. . أنـا أعرف أن هـذه العظام التي رأيناها في القبر ليست عظامي، ولكني عندما عـرفت أن ساق الميت اليسرى قـد سرقت، شعـرت كـأن سـاقي اليسرى انـتزعت مني. أحسست أنني أدافع عن كل سيقان الأحياء والأمـوات عندمـا أدافع عن الساق المسروقة من القبر!

ـ ولكن هذه ليست ساقك أنت!

ـ لو غضب كل واحد منا للظلم الذي وقع على ساق الآخـر، لما كان هذا حالنا! لو حرصنـا على سيقـان الآخرين كـما نحرص عـلى سيقاننا لوقف هذا الشعب على قدميه ولم يركع أبداً. .

ـ ما قيمة ساق الميت؟

ـ إنني أتمنى لو استطعت اليوم أن أشتري ساقاً وأضعها مع عظام الرجل الميت في هذا القبر!

ـ لكيلا يعرج يوم القيامة؟

ـ لكي أعيد إليه حقه المسلوب!

ـ ومن أين تشتري هذه الساق؟

ـ من أي حارس للقبور؟

ـ كأنك تسرق ساقاً من قبر ميت. . لتضعها في قبر ميت آخر!

ـ لـك حق. . إن واجبنا أن نعيـد جميـع السيقـان المسروقـة إلى أصحابها!

ـ أظن أنه أولى يا عبد المتعال أن نعيد أولاً الأرواح المسروقة إلى أصحابها!

ـ وكيف نعيدها؟
ـ بأن نعلم الناس أن يقولوا (لا)!
ـ كيف أدعوهم ليقولوا (لا). مصيبتي ومصيبتك أننا قلنا (لا)!

□□□

وتلفتت سلوى حولها، ثم تركت عبد المتعال، واتجهت إلى قبر مراد بك حسين والد زوجته، وانتزعت باقة الورد الضخمة الموجودة على قبره، وحملتها، ثم اتجهت إلى قبر عبد المتعال ووضعت الباقة فوق القبر..

ونظر عبد المتعال إليها في استغراب وقال:

ـ ماذا تفعلين؟
ـ أضع الورود على قبرك!
ـ لتخفي رائحتي الكريهة؟
ـ لأقول لك أن هناك من يحبك!
ـ كانت تكفيني وردة واحدة!
ـ أردت أن أقول لك أن هناك من يحبك كثيراً!
ـ سيقولون أن عبد المتعال خرج من قبره وسرق الورود..
ـ ليست المرة الأولى التي يقولون فيها أن عبد المتعال محجوب.. حرامي!؟

الفصل الحادي عشر

لم يفتح عبدالمتعال فمه بكلمة واحدة، طوال الطريق من مدافن الإمام الشافعي إلى بيت سلوى في الزمالك.

كان أشبه بالتائه في كوكب جديد. كان سارحاً في العظام التي رآها في القبر. في (الشاهد) الذي يعلو القبر. . والذي خلا من وظيفته كمدير شركة مصر للبسكويت. في الساق المسروقة. . في الثوب الأحمر الذي كانت ترتديه زوجته خديجة بعد وفاته بشهر واحد. في الطريقة المثلى بتجفيف دموع الأرامل واغتصابهن راضيات في دورة المياه!

ولكن موضوعاً آخر كان يدق في رأسه كالشاكوش، شعر أن سلوى تحبه. لم تنطق بحروف الكلمة وإنما نطقت بمعانيها. إنه أغرب اعتراف بالحب. اعتراف بأجمل شيء في الحياة أمام قبر ميت. إنها لم تقل له هذه الكلمات وهو في فراشها، ولكنها قالتها في مكان فيه رائحة الموت والعدم. كثيراً ما قرأ وسمع أن الحب يولد بين المناظر الطبيعية على غناء الأطيار، على ضفاف الأنهار، حيث الماء والخضرة والوجه الحسن. أما هذا الحب فقد ولد في مقبرة. أمام رفات ميت. تحيط به رائحة مليئة بالعفن. . أمام شاهد قبر يعلن أنه انتقل إلى رحمة الله!

أتكون سلوى تسخر منه؟ هل من المعقول أن تحب ملكة الإغراء رجلاً بلا اسم، بلا ماض، ولا حاضر ولا مستقبل، رجل نصف حي ونصف ميت، هو وحده الذي يزعم أنه حي، والدنيا كلها تؤكد أنه مات وشبع موتاً؟!

أيمكن أن تصوم سلوى عن الحب، لتفطر على بصلة، بصلة ناشفة جافة وليس لها من البصل إلا رائحته الكريهة. هل يعقل ألا تحب سلوى وزير المواصلات السابق، وجلال حمدي رئيس التحرير المشهور، والمليونير الذي يملك تفتيشاً زراعياً في ملوي وتفتيشاً بقرب طنطا، وتحبه هو عبدالمتعال محجوب سابقاً، كل هؤلاء أعطتهم سلوى جسدها، وضنت عليهم بقلبها لتعطيه لهذا الصعلوك الهلفوت الذي أمضى في السجن عامين كاملين؟!

لعلها تشفق عليه! لقد سمع عن غانيات فاتنات تقتني الواحدة منهن كلباً، وتدلله، وتقبله، وتضعه في فراشها كما وضعته سلوى في فراشها.. أيكون حب سلوى له هو حباً من حب الغواني للكلاب؟

ولاحظ أن سلوى لم توجه إليه كلمة واحدة أثناء الطريق. كانت واجمة ساهمة، تتطلع بعينيها إلى أرض الطريق، بغير أن تتلفت يمنة أو يسرة، هل هي تندم لأنها قالت ما قالت؟ الإنسان أمام القبور يحتقر الدنيا: يحس بأنه قريب جداً من الموت. كأنه في حضرته وبين يديه. هنا نرى اليأس ولا نرى الأمل. نذوق طعم العدم، ونفقد الإحساس بالحياة. نشعر بأننا أحقر وأضعف من الدود!

نحن لا نأكل الدود، والدود يأكلنا! نقرف إذا رأينا فاكهة أو طعاماً يمشي فيه الدود، ونسارع بإلقائه على الأرض، أما الدود فهو

لا يتعفف أن يأكلنا!

لا بد أن سلوى أحست بين القبور بأن الدنيا تافهة لا تساوي كل هذا الصراع اليومي، لا تساوي الدم الذي ننزفه، ولا الأعصاب التي نحرقها، فتحدثت عن الحب وهي تعني العدم والفناء والرغبة في الهروب من الحياة. لعلها شعرت بأهمية الدود وقوته وجبروته فرأت أن تعقد محالفة حب مع الدود، كل شخص مع دودة من البشر هي عبدالمتعال محجوب!

وتنهد عبدالمتعال حسرة. إنه لم يصل لكي يكون دودة! الدود يأكل اللحم، ويترك العظام باعتبار أن العظام هي الأطباق والأواني التي يقدم فيها اللحم. وقد رأى في الحياة دوداً في شكل إنسان لا يأكل لحم الانسان فقط بل ينهش عظامه! لا يلحس الأطباق كما يفعل دود القبور وإنما يأكل الأطباق نفسها.

□□□

وعندما وصلا إلى شقة سلوى، فتحت الباب، واتجهت صامتة إلى غرفة نومها ومشى خلفها كما اعتاد أن يفعل من قبل. وتوقفت سلوى في دهشة أمام غرفة النوم وقالت له:

ـ إلى أين ذاهب؟
ـ أدخل معك إلى غرفة اليوم!
ـ إبتداء من اليوم لن تدخل غرفة نومي!
ـ ماذا حدث؟
ـ حدث.. أنني أحببتك!
ـ هذا سبب أدعى لأدخل معك إلى غرفة النوم!
ـ تجربتي أن الحب يموت على السرير!

ـ إنني كنت أنام إلى جوارك عدة ليال في سرير واحد ولم يحدث أي شيء.

ـ لأنني لم أكن أحبك!

ـ كانت بيني وبينك وسادة!

ـ أكبر سد في الدنيا لا يستطيع أن يقف في طريق حب كبير!

ـ تصورت أنه عندما تحب المرأة رجلاً تعطيه تأشيرة دائمة بالمرور، لا أن تحرمه من الحقوق التي كان يتمتع بها قبل الحب!

ـ إنني أعطيتك تأشيرة دخول إلى قلبي!

ـ فقط؟

ـ هل تريد «تأشيرة خروج» أيضاً؟

ـ لا أقصد.. وإنما تمنيت أن تعطيني كل شيء.

ـ أردت أن تدخل منطقة محرمة لم يدخلها أحد من قبلك!

ـ عندما تحب المرأة رجلاً تعطيه تذكرة لكل الخطوط.. لا لخط واحد!

ـ كنت أظن أن الرجل يريد من المرأة التي تحبه أن تمنحه شيئاً لم تمنحه لسواه!

ـ الرجل الذي يريد كل شيء. يريد أن يكون في جسد المرأة، في قلبها، في عينيها، وعلى لسانها، وفي رأسها!

ـ أردت أن تسكن الأدوار العليا... وإذا بك تريد الطوابق السفلى أيضاً!

ـ إنني أريد بيتاً من بابه!

ـ أعدك أن أكون لك وحدك!

ـ هذا لا يكفيني!

ـ ماذا تريد!

ـ أريدك!

ـ كنت أمامك عدة ليال ولم تلمسني!

ـ كنت يومئذ مخلصاً لزوجتي!

ـ والآن؟

ـ أصبحت أشك فيها!

ـ بعد أن سمعت أنها كانت ترتدي فستاناً أحمر بعد وفاتك؟

ـ أثواب النساء لا تقول ما في داخلهن!

ـ لأنها لم تضع وردة على قبرك؟

ـ لا يستطيع الموتى أن يشموا الورود الموضوعة على قبورهم!

ـ إذن، ما الذي جعلك تشك فيها؟

ـ حكاية حارس القبور وما فعلته الأرملة الشابة مع أبيه!

ـ لعل هذا هو السبب الذي جعل زوجتك لا تأتي لزيارة قبرك!

ـ إنني بدأت أشك في وفاء كل النساء!

ـ جريمة امرأة واحدة لا تبرر جرائم نساء الدنيا!

ـ إنها ليست جريمة امرأة واحدة. . لقد روى لنا حارس القبر قصة ثلاث نساء خائنات!

ـ عدد نساء العالم ملايين الملايين. . . وهؤلاء ثلاث نساء فقط!

ـ ثلاث نساء في مدفن واحد!

ـ وكم عدد المدفونين في المدفن؟

ـ حوالي المائة.

ـ إذن نسبة خيانة النساء ثلاثة في المائة!

ـ إن قلبي أصبح يقول أن خديجة خانتني!

ـ مع حارس القبر الذي سرق ساقك؟

ـ الذي يسرق ساق رجل ميت. . لا يتردد في أن يسرق زوجة رجل مسجون!

ـ لا أظن أن زوجتك تخونك مع رجل عمره خمس وتسعون سنة.

ـ هذا خير من أن تخونني مع أربعة رجال مجموع أعمارهم خمس وتسعون سنة!

ـ لا أصدق أنك تشك في حارس القبور!

ـ أصبحت أشك في كل إنسان. أصبحت أشك في مدير السجن الذي وضعني في السجن. أشك في كاتب السجن الذي جردني من اسمي. أشك في الشاويش عبدالجبار الذي كان يعتدي علي بلا سبب. في مدير شركة مصر للبسكويت الذي قال إنني اختلست سبعة عشر ألف جنيه!

ـ كل هؤلاء سرقوا زوجتك!

ـ كل من ظلمني اشترك في جريمة سرقة زوجتي!

ـ إذن فهي مظلومة!

ـ تدافعين عن زوجة خائنة؟

ـ عادة نعاقب السارق، ولا نعاقب المسروق!

ـ إلا إذا حرض المسروق السارق على الجريمة!

ـ هل تتصور أن خديجة شريكة في جريمة السرقة؟

ـ معلوماتي عنها أنها كانت سيدة فاضلة وعاقلة!

ـ ربما فقدت عقلها عندما علمت بانتحارك!

ـ كما فعلت الأرملة التي كانت تبكي ليل نهار أمام قبر زوجها!

ـ القانون يعفي المجانين من العقوبة!

ـ بل أنا الذي أكاد أجن . . تصوري أنني بدأت أشك في الحانوتي

ـ الحانوتي؟

ـ نعم الحانوتي الذي وضع هذه الجثة في قبري وادعى أنها جثتي. ما مصلحته أن يدفنني وأنا حي، إلا إذا كان يريد أن يجعل من زوجتي أرملة . . . ويجفف هو أيضاً دموعها!

ـ هذا كلام رجل أعمته الغيرة!

ـ أنا أغار على شرفي!

ـ أنت ما زلت تحب خديجة!

ـ لم أعد أحبها.

ـ إننا لا نغار على إنسان إلا إذا أحببناه. ويوم نتوقف عن الحب نتوقف عن الغيرة!

ـ الغيرة لا تعميني عن رؤية الحقيقة،

ـ الغيرة تعمي دائماً عن رؤية الحقيقة. الرجل الذي تقتله الغيرة مثله مثل الحاكم الذي تقتله شهوة الحكم. إنه يحب الكرسي كما يحب العاشق امرأة يعبدها. يشك في كل إنسان. يخاف على الكرسي من كل من يقترب منه. يتصور أن الدنيا كلها تريد أن تنتزع هذا الكرسي من يده. يوزع شكوكه على الناس. يقطع رؤوسهم بغير جريمة ارتكبوها، سوى أن غيرته العمياء جعلته يتصور أن كل من ينظر إلى الكرسي يتطلع إليه أو يتمناه أو يسعى إلى الوصول إليه!

ـ المصيبة أنني لا أعرف من يجلس الآن في الكرسي!

ـ ومع ذلك تحكم على زوجتك أنها خائنة!

ـ لم أحكم عليها برأسي. . قلبي هو الذي حكم عليها!

ـ كنت أظن أنك ضد الأحكام الغيابية!

ـ أنا أؤمن بالعدالة!

ـ وهل من العدالة أن تحاكم زوجتك وتحكم عليها بغير أن تسألها وتسمع دفاعها!؟

ـ إن الأدلة قاطعة!

ـ ألم يحدث لك نفس الشيء. ألم يحاكموك بغير استجواب، ويحكموا عليك بغير تهمة؟

ـ كان يجب على خديجة أن تبحث عني عندما اختفيت. هذا وحده يدل على أنها خائنة!

ـ وأنت مضى عليك عدة أيام تبحث عنها ولا تجدها، فهل عدم عثورك عليها دليل على خيانتك؟

ـ كيف تدافعين عنها كل هذا الدفاع، وهي غريمتك؟

ـ أنا لا أغار من الماضي!

ـ ومع أن خديجة جزء من الماضي، فإن الشك يمزقني. . أريد أن أمسك بتلابيب الذين ارتكبوا هذه الجريمة!

ـ تهتم بالجريمة المشكوك فيها وتنسى الجرائم المؤكدة!

ـ أي جرائم مؤكدة؟

ـ هأنتذا نسيتها فعلاً. . . نسيت جريمة وضعك في السجن بغير جريمة. . . نسيت جريمة تعذيبك داخل السجن. . نسيت جريمة

إعلان موتك وأنت حي. نسيت جريمة تغيير اسمك. نسيت جريمة اتهامك ظلماً باختلاس سبعة عشر ألف جنيه... كل هذه الجرائم نسيتها وأصبحت لا تذكر إلا جنحة!.

ـ جنحة؟ هل سرقة الزوجة جنحة!؟

ـ إذا سرق لص زوجة رجل يحبها فهي جناية، وإذا سرق لص زوجة رجل لا يحبها فهي جنحة...

ـ لماذا تقولين «جنحة».. إنها «خدمة»!

ـ إنك تقول لي أنك لم تعد تحب زوجتك خديجة.. ومعنى ذلك أن الذين سرقوك خدموك!

ـ الإنسان يتضايق إذا سرق منه لص أشياء غير محتاج إليها!

ـ أنت لست متضايقاً فقط.. أنت غاضب، مغيظ، حانق، ثائر، كل هذا يؤكد أنك ما زلت تحبها!

هنا قال عبدالمتعال:

ـ أنا آسف على إخلاصي لها طوال هذه المدة!

وقالت سلوى:

ـ خلال وجودك في السجن!

ـ لا.. خلال وجودي في فراشك!

ـ وأنت الآن تريد أن تنتقم منها في فراشي!

ـ نعم.. لقد وعدتك أن أكون صادقاً معك، ولا أستطيع أن أجيب بغير الصدق!

ـ إنني أحيي فيك صدقك.. ولهذا يجب أن تعذر صدقي وتفهمه!

ـ إنني أحب صدقك!

ـ ولهذا أقول لك أنني لا أقبل أن يكون جسدي ميداناً ينتقم فيه رجل من امرأة أخرى!

ـ ولكنك أعطيتني قلبك؟

ـ هذا شيء آخر!

ـ هل الجسد أغلى من القلب؟

ـ أرخص كثيراً

ـ لماذا تبخلين به علي أذن؟

ـ لأنك تستطيع أن تجد مئات الأجساد ولن تجد قلباً واحداً هو قلبي!

ـ قلب بغير جسد. مثل طبق الكرشة بغير شطة.. مثل الملوخية بغير أرانب.. مثل السمك بغير أرز؟

ـ الشطة تحرق المعدة. والأرانب لا أحبها لأنها تشبه القطط. والأرز ممنوع عني بسبب الرجيم!

ـ قلب بغير جسد مثل آنية بغير زهور!

ـ لا تنس أن الزهور تموت بسرعة!

ـ الحب.. مثل الماء يطيل عمرها!

ـ مهما طال عمر الزهرة فلن تعيش إلا أياماً!

ـ معنى ذلك أنك تريدين أن يكون حبنا أفلاطونياً!

ـ إنني لم أحب في حياتي مرة واحدة حباً أفلاطونياً!

ـ واخترتني وحدي دون العالمين لهذا الحب؟

ـ تصورت أن هذا سوف يسعدك!

ـ كان هذا يسعدني قبل أن تقولي لي أنك أحببتني!

ـ وأشقاك الآن الحب الأفلاطوني!؟

ـ لم يشقني تماماً.. شعرت أنك رفستني بقدمك إلى فوق.. رفعت درجتي وجردتني من كل سلطاني.. أصبحت ملكاً يملك ولا يحكم.. صاحب بيت ولا يستطيع السكنى فيه.. مالك حديقة ومحرم عليه أن يشم ورودها أو يلمس رياحينها، أو يقطف زهورها!

ـ كنت تفضل أن أمنحك جسدي ولا أعطيك قلبي!؟

ـ كنت أريد الاثنين معاً!

ـ أنت تدوس على النعمة!

ـ على العكس إنني أركع أمامها!

ـ مئات من الرجال تمنوا أن أعطيهم هذا القلب بملايين الجنيهات.. وأعطيتك إياه مجاناً.

ـ أعطيتني إياه بشروط.

ـ بشرط واحد!

ـ عندما يبدأ الحبيب يضع الشروط فمعنى ذلك أنه لا يحب!

ـ تعني أن الحب هو استسلام كامل؟

ـ بلا قيد ولا شرط!

ـ أريد أن تبقى مخلصاً لزوجتك!

ـ كيف أخلص لامرأة خانتني؟

ـ الشرع يشترط أن يشهد أربعة شهود على خيانتها... ألا تمر شعرة بينها وبين الرجل الذي خانتك معه... فأين الشهود، وأين الشعرة؟

ـ الشعرة في قلبي!

ـ إنها شعرة في رأسك، كجنون الشك... لن أسلمك نفسي

إلا إذا تأكدت أنت مائة في المائة أنها خانتك!

ـ أصبحت لي مصلحة في أن تكون خائنة!

ـ ولي مصلحة أيضاً في أن تتأكد أنها خائنة . .

ـ لأكون لك وحدك!؟

ـ إذا لم تتأكد أنها خائنة، فستبقى طوال الوقت مقسماً بيني وبينها، تقارن بيني وبينها، تبحث عنها، تفكر فيها، وأنا أريد حباً كاملاً . . أريد أن تعوضني عن كل الرجال. أن أنسى فيك كل الرجال. ولا يكون هذا إلا إذا اقتلعت جذور خديجة من قلبك!

ـ إذن، يجب أن تعاونيني لنثبت بسرعة أنها خائنة!

ـ لست في عجلة من أمري . . أستطيع أن أنتظر. لقد مكثت سنوات طويلة أنتظر، وليس كثيراً أن أنتظر فترة أخرى.

ـ وأنا لا أستطيع أن أنتظر!

ـ هذه مشكلتك . . وليست مشكلتي!

ـ كأنك لا تريدينني كما أريدك!

ـ أريدك بعد أن تتخلص من خديجة

ـ إنها هي التي تخلصت مني!

ـ بعضها لا يزال يعيش فيك!

ـ لم يبق في قلبي منها إلا خيانتها!

ـ هذا هو بعضها!

ـ إنه رماد الحب!

ـ الرماد لا يشعل هذه النار!

ـ إنني لا أرى هذه النار!

ـ وأنا أشم «الشياط»!

ـ أليس من حقي أن أحزن لأن زوجتي خانتني؟ إنني أشعر كأن زوجتي ماتت اليوم!

ـ هذا حقك. . ومن أجل هذا يجب أن تنتظر حتى يمر المأتم وتنتهي فترة الحداد!

ـ المأتم عادة يوم واحد!

ـ لا. . المأتم عند السيدات ثلاثة أيام!

ـ إذن نلتقي في هذا الفراش بعد ثلاثة أيام!

ـ نسيت فترة الحداد!؟

ـ تقصدين أن ننتظر حتى «الأربعين»!

ـ إنك غضبت عندما قال لنا حارس القبور أن أرملة تزوجت بعد عام من وفاة زوجها!

ـ لم أغضب. دهشت فقط لقلة وفاء النساء!

ـ ولهذا عليك أن تثبت أن الرجل أكثر وفاء من المرأة. . وتنتظر أكثر!

ـ أكثر من عام!

ـ طبعاً!

ـ هذا مستحيل!

ـ لتعتبر هذا العام خطبة بيني وبينك، خطبة حب!

ـ وبعد العام تتزوجينني؟

ـ أزف إليك فقط!

ـ لا تريدين أن تتزوجيني؟

ـ الزواج ليس من مشروعاتي!

ـ إنك امرأة غير عادية!

ـ لأنني صادقة؟

ـ لأن كل امرأة في الدنيا تريد أن تتزوج الرجل الذي تحبه.
ـ أنا لا أرغب في أن أمتلكك!
ـ كل امرأة تحب تريد أن تمتلك الرجل الذي تحبه!
ـ أنا زاهدة في الملكية.. لقد امتلكت رجالاً كثيرين!
ـ أنت أول (إقطاعي) يكره الامتلاك!
ـ تعودت طوال حياتي أن أملك الرجل دون أن أكتب اسمي على أملاكي!
ـ تخشين من القوانين الاشتراكية؟
ـ لا.. أتهرب من الضرائب!
ـ ولهذا لا تريدين زواجاً!
ـ لأنني لا أريد طلاقاً!
ـ كيف تفكرين في الطلاق ونحن لم نتزوج بعد.
ـ أذكى إنسان في العالم هو الذي يفكر في الموت يوم يولد!
ـ أنت تحبينني بطريقة غريبة!
ـ غرابتي أنني أقول الحقيقة!
ـ هناك ملايين من الناس تتزوج ولا تطلق.

هنا قالت سلوى:
ـ تذكر أنني نجمة..

فقال لها عبدالمتعال:

ـ وما الفرق بين النجمة والمرأة؟
ـ النجمة تحلق في السماء والمرأة تمشي على الأرض!
ـ كيف أطولك وأنت في السماء!
ـ إنني نزلت إلى أرضك!

ـ وسوف تصعدين إلى سمائك مرة أخرى!

ـ سوف تكون لي حياة معك وحياة مع فني!

ـ ولماذا لا تأخذينني معك؟

ـ لن تتحمل الجو فوق. . إنه جو مليء بالعواصف والأعاصير. . وكلما ارتفعنا فيه اختلف الجو عن الأرض. . وعندما نبتعد عن الأرض تختلف طريقة حياتنا. . ألم تلاحظ أن الذين يصعدون في سفن الفضاء ينامون على ظهورهم؟

ـ معنى ذلك أنك سوف تنامين على ظهرك كثيراً في سماء الفن!

ـ لست أقصد هذا. . وإنما أقول أن الحياة في سماء الفن تستلزم استعداداً خاصاً ومراناً خاصاً، وقدرة عنيفة على الاحتمال!

ـ أنا مستعد أن أتحمل!

ـ لن تستطيع أن تتحمل رؤية ممثل يقبلني مائة مرة من أجل لقطة سينمائية لا تستغرق سوى ثوان على الشاشة. . لن تتحمل رؤية المخرج وهو يغازلني. . لن تتحمل مشاهدة المعجبين وهم ينظرون إلي بعيونهم الزانية وأفواههم الشبقة. .

ـ هل هذا من شروط عملك في الفن؟

ـ تذكر أنني ملكة الإغراء، وأمثل أدوار الإغراء!

ـ لماذا لا تمثلين أدواراً أكثر احتراماً؟

ـ لا أستطيع أن أحتمل هذا. .

ـ لهذا طلبت إليك أن تبقى على الأرض!

ـ هذا أمر صعب جداً!

ـ أصعب مهمة في العالم هي مهمة زوج النجمة. . يجب أن تكون أعصابه من حديد. . يجب أن تكون له القدرة على أن

يغمض عينيه.. يجب أن يكون بارداً في الوقت الذي يحترق فيه.. أن يكون مؤدباً في موقف يستوجب قلة الأدب وقلة الحياء.. أن يكون واسع الأفق!

ـ واسع الأفق!

ـ أعني ألا يكون ضيق الصدر. وأن يفهم أن زوجته (تمثل).. وهي لا تمثل على المسرح فقط، ولا أمام الكاميرا فقط، وإنما يجب أن (تمثل) في الحياة أيضاً، تبتسم للنقاد الذين تريد أن تذبحهم، تبتسم للمؤلف الذي تريد أن تقطم رقبته، تبتسم للمخرج الذي تريد أن تقتله، تبتسم جداً للممول الذي تريد أن تقطعه إرباً!

ـ هذا نفاق!

ـ هذا هو الفن!

ـ ولكنك وعدتني أن تكوني صادقة دائماً!

ـ صادقة معك أنت.

ـ ومع الناس؟

ـ كاذبة طبعاً!

ـ أنا أريدك أن تكوني صادقة مع الناس كما أنت صادقة معي.

ـ سنموت من الجوع!

ـ لقد قلت لي أنه يجب أن نتعلم أن نقول (لا)!

ـ هذه أكاذيب بيضاء!

ـ كل كذبة بيضاء تؤدي إلى كذبة سوداء!

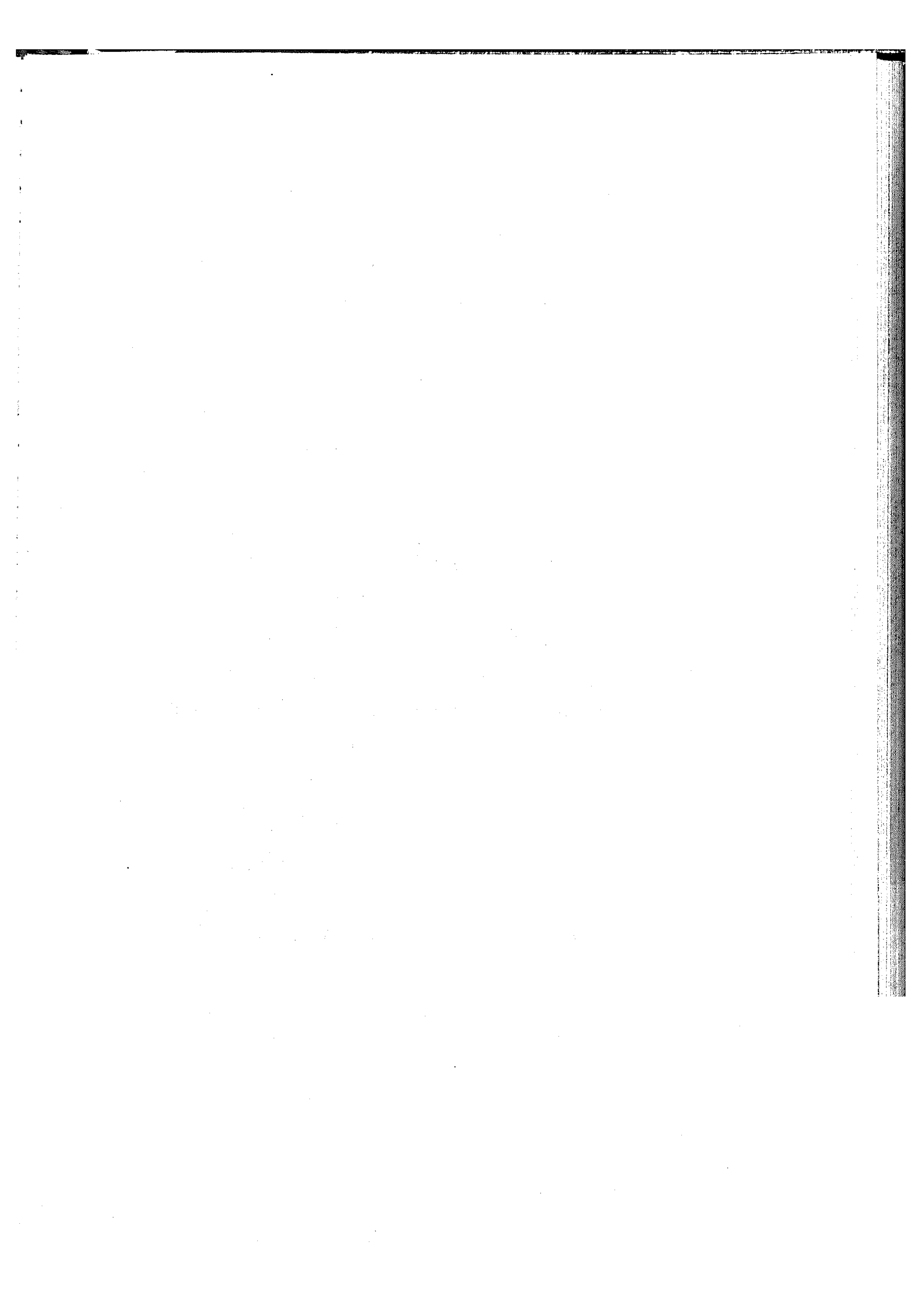
ـ دعني أفكر!

ـ تفكرين في ماذا؟

ـ في اعتزال التمثيل!

ـ لا أقصد هذا.. كل ما أريده أن تكوني صادقة!

- سوف يكون شهر عسلنا أقصر شهر عسل في العالم!
- ستزهدين في حبي؟..
- لو تصورت أنني سوف أزهد في حبك لما أحببتك!
- إذن لماذا تقولين أن شهر عسلنا سيكون أقصر شهر عسل في العالم؟
- لأننا سنذوق (المر) من اليوم الأول!
- ما أحلى (المر) من شفتيك.. سيكون شهداً!
- أعتقد أنني سأدخل السجن!
- لماذا؟
- سأقول (لا)
- لا.. لا.. لا.. هذه الكلمة وراءنا وراءنا!
- سأقولها بناء على طلبك!
- أنا طلبت أن تقولي (لا) لا أن تدخلي السجن.
- أنت تعلم أن «لا» واحدة كافية لدخول السجن.. فما بالك بألف (لا)؟ ولهذا طلبت منك مهلة عام قبل أن أمنحك جسدي!
- عام؟ هذا عمر كامل!
- عام في الحب يمر كأنه لحظة!
- وأين أقيم أثناء هذا العام؟
- في بيتي طبعاً!
- في غرفة النوم يا حبيبتي!
- لا يا حبيبي.. في غرفة.. فوق.. فوق.. فوق السطوح!



الفصل الثاني عشر

لم يشعر عبدالمتعال بالضيق عندما دخل الغرفة التي اختارتها له سلوى لينام فيها فوق السطوح! أسعده أن وجد الغرفة نظيفة. وجد فيها سريراً حديدياً أشبه بسرير المستشفيات. صحيح أن السرير ليس واسعاً، ولا أنيقاً، ولا فاخراً، ولا وثيراً ولا (مدندشاً) كسرير سلوى.. صحيح أنه ليس في الغرفة ستائر من القطيفة الوردية الثمينة تخفي خلفها ستائر من (الماركيزيت) المشخلع.. وصحيح أنه ليس فيها ذلك الأثاث الفاخر الذي يعرف قيمته، لأنه اشتراه بنفسه عندما كان يقيم مع زوجته خديجة في نفس الشقة، وينام في نفس السرير!

كل هذا صحيح.. لكنه شعر بمتعة غريبة وهو ينام في السرير وحده. في سرير سلوى لم يكن يستطع أن يتقلب كما يشاء، ولا يستطيع أن يتمطى كما يشاء، ولا يستطيع أن يتثاءب بصوت عال، بل إنه لم يكن يستطيع أن يفكر كما يشاء!

وبدأ يتقلب في السرير الضيق بغير حاجة إلى أن يتقلب، ويتمطى بغير رغبة في أن يتطمى، ويتثاءب بدون حاجة إلى التثاؤب، ويغني.. كان صوته أجش، وكان يعرف ذلك جيداً ولكن صوته أطربه.. وتحول إلى مطرب وسميع في وقت واحد.

وضحك من نفسه وحمد الله على آنه هو الـذي يسمع وحـده صوت غنائه. لـو كان أحـد يسمع صـوته الآن لخلع حـذاءه وعبر بـه عن إعجابه التام بشدة وصرامة!

□□□

وعجب عبـدالمتعـال أن يكـون هـذا شعـوره في غـرفـة فـوق السـطوح، عجب أن يشعر بكـل هذا الهنـاء في نفس الغـرفـة التي كانت تسميها خديجة (سلة المهملات) وتضع فيهـا كل الأشيـاء التي تـريد أن تتخلص منهـا. . المقاعـد المكسورة التي فقـدت أرجلهـا، السجاجيد القديمة التي بليت من كثرة ما داستها الأقدام، الصناديق الفارغة التي ليست في حـاجة إليهـا. . ما أعجب القـدر. . أن يبدأ حياته في هذه العمارة صاحب شقة، وينتهي به الأمر ضيفاً في غرفـة عـلى السطوح. كـأن القدر وضعـه في سلة المهملات. . هـو أيضـاً إنسـان مكسـور، إنسـان داست عليـه الأقـدام، إنسان فـارغ كالصناديق الفارغة لا يحتاج إليها أحد!

ولم يشعر بهوانه. حمد الله على أن ليس في السرير وسـادة تفصله عن سلوى. شعر لأول مرة منذ وقت طويل أنه لا توجد في الفراش حدود لا يستطيع اجتيازها. لقد عاش سنين محصـوراً داخل حـدود لا يستطيع أن يتجاوزها. كان ينام في الزنزانة ومعه سبعـة وعشرون زميلاً، متراصين في الغرفة الضيقة، بنفس الطريقة التي يرصون بهـا السردين في علبة الصفيح لم يكن يستطيع أن يتحـرك وهو نـائم. لو تحرك أكثر من مسـاحة جسـده لاصطدم بـزميل، ولحـدثت خناقـة، وقامت القيامة وانقلبت الليلة إلى معركة دامية. كـانت هناك دائمـاً حـدود وهمية لا يستـطيع أن يتعـداها. فهـو ينام كـأنه في طـابـور. ويستيقظ كأنه في طابور. . .

وعندما نام بجوار سلوى كانت هناك هذه الوسادة الملعونة التي تفصله عنها.

وتنهد عبدالمتعال وتذكر الوسادة ذات الأطراف الوردية الملساء.. إنه هو الذي وضعها بينه وبينها. هو الذي أقام السور. وهو الذي تمنى أن يهدم السور، السور الذي أقامه ليحميه، لم يلبث أن تحول إلى سور ليسجنه. كم من الناس بنوا أسواراً لتحميهم، فانقلبت هذه الأسوار إلى سجون تسجنهم!

في وقت من الأوقات كره هذه الوسادة المحشوة بريش النعام.. أحس بأنها تحولت إلى جدار من الجرانيت. خيل إليه أنها أصبحت عالية جداً لا يستطيع أن يعبرها. يا له من أحمق! لماذا لم يعبر هذه الوسادة في إحدى الليالي التي كان ينام فيها بجوار سلوى في سرير واحد؟

هواء الحرية، عندما يخرج من السجن، لا يدخل أنفه مطلقاً كأنه أصيب بزكام مزمن، يجعل الهواء النقي يدخل متردداً خائفاً مذعوراً. الشوارع المفتوحة خارج السجن لا تجعله يجدّ في خطواته. فهو يمشي وهو يتعثر، يتلفت حوله في رهبة ورعب يقدم ساقاً ويؤخر ساقا. كأنه لا يزال يمشي في ردهات السجن، يتوقع في كل لحظة أن تهوي كف الحارس على رأسه، أن تصيبه عصا الباشجاويش أو ركلة الصول!

سماء السجن لا تجعله يرفع قامته إن السجن يقصر من قامة الرجال. كأن الأقدام تسحق السجين. الذل يجعله يحني رأسه دائماً. فهو من كثرة الساعات التي أمضاها داخل الزنزانة الضيقة الواطئة نسي أن له قامة منتصبة أو رأساً يرفعه. أرواح الأحرار تمشي

على أقدامها، وأرواح العبيد تزحف على بطونها!

لعل السبب في تخاذله أمام سلوى أنه نسي اللغة التي يتكلم بها الأحرار خارج السجن. المسجون يفقد على باب السجن إرادته وكرامته. لم يعد من حقه أن يطلب فيجاب. كل حقه أن يؤمر فيطيع. لا يستطيع أن يقول (لا)، فقانون السجن يعتبر كلمة (لا) تمرد يستحق الجلد. لا يستطيع أن يتحرك إلا بالأمر.. ولا أن يمرض إلا بالأمر.. بل هو لا يستطيع أن ينتحر، فإذا جرؤ على الانتحار عوقب عقاباً صارماً، وإذا مات عوقب بتشريح جثته!

وأحس عبدالمتعال بأن قيود السجن لا تزال تطارده. شبح الباشجاويش عبدالجبار لا يمشي خلفه كأنه ظله فقط، بل إنه يحس بأن الباشجاويش عبدالجبار كان يقف على أصابعه ولهذا لم يستطع أن يلمس خصلات شعر سلوى، وكان عبدالجبار يجلس على ذراعيه، ولهذا لم يستطع أن يطوق سلوى ويعانقها.. وكان الباشجاويش عبدالجبار يقف فوق شفتيه، ولهذا لم يستطع أن يلثم شفتي سلوى. حياة السجن جعلته يتصرف كالخائف ويفكر كالجبان. يحسب حساباً لكل شيء.. يتوهم أنه حر (مؤقتاً). رجل (مؤقتاً). حبيب (مؤقتاً).. أي غلطة قادرة على أن تخرجه من جنة الحرية وتعيده إلى جحيم السجن!

ما الذي جعله يتردد أمام شفتيها، ولا يقتحم هاتين الشفتين المستسلمتين عندما قالت له أنها تحبه؟ كان من الممكن أن تكون هذه القبلة هي كلمة السر إلى جسدها. كان من الممكن أن تفتح هذه القبلة كل الأبواب المغلقة. كان من الممكن أن تكون الكلمة الفاصلة في الحوار الذي دار بينهما عندما قال لها أنه يريدها، فأباحت له قلبها، وحرمت عليه جسدها!

إنها لم تقل له أن القبلات ممنوعة. إن معلوماته البدائية في علم الحب أن الحب الافلاطوني يسمح بالقبلات. كان مجنون ليلى يحب ليلى حباً شريفاً، عفيفاً، ويقبلها، ويتغزل في حلاوة قبلاتها.. كان روميو يحب جولييت حباً بريئاً، طاهراً، عفيفاً، ومع ذلك كان يعانقها.. لقد رأى بعينيه الممثل أحمد علام يعانق الممثلة زينب صدقي في مسرحية مجنون ليلى على مسرح رمسيس..

ما الذي جعله يضع وسادة أخرى بين شفتيه وشفتيها، كالوسادة التي وضعها في السرير بين جسده وجسدها؟

وهز عبدالمتعال رأسه آسفاً على خيبته في سرير الهوى.. لقد تصرف كاللوح، لوح الثلج.. لو أن مكانه في سرير سلوى لوح ثلج لساح في حراراتها المشتعلة، في أنفاسها الملتهبة.. في ذلك الفرن الذري الذي كانت الحرارة الشديدة تخرج منه طوال الليل!

كان في الليالي الماضية يعتذر عن نفسه بأنه تصرف هذا التصرف البارد لإخلاصه الشديد لزوجته خديجة.. ولكن ما عذره اليوم وقد بدأ يشك في خديجة؟ لماذا لم يتحرك؟ لماذا لم يتقدم؟ لماذا خيل إليه أن الباشجاويش عبدالجبار واقف أمام غرفة النوم وأنه ينذره بأن جسد سلوى من الممنوعات، وأنه إذا لمس هذا الجسد كأنه لمس أحد الأشرطة التي على كتف الباشجاويش، وهي جريمة شنعاء، وذنب لا يغتفر يكفي لدخول جهنم (التأديب)؟!

واقتنع عبدالمتعال، وهو يتقلب ساهراً في فراشه، أنه لام نفسه بما فيه الكفاية، ولام السجن بما فيه الكفاية، وبدأ يبحث عن طرف ثالث يوجه له اللوم والعتاب، ويحمله المسؤولية في كل هذا الذي جرى وكان...

□□□

وتشبث بسلوى. . إنها السبب في كل هذه الهزيمة النكراء. . لقد تجمد أمام كل هذا السحر والفتنة والجمال، لأن سلوى لم تشجعه. لقد أرادت أن تجرب كلمة (لا) معه هو قبل أن تجربها في عشاقها. . (لا) هي الطابور الخامس الذي أفقده القدرة على الحركة والاقتحام. هي الدوش البارد الذي ألقته سلوى على الحريق الذي كان يشتعل في جسده!

ثم تذكر عبدالمتعال أنه يكذب على نفسه، وهو الذي وعد بأن يكون صادقاً دائماً!

إنه يذكر أن زوجته خديجة كانت إذا وجدت سجادة مليئة بالاتربة وضعتها فوق السطوح، لتعرضها للشمس لعل أشعتها تقتل ما فيها من حشرات. أتكون سلوى وضعته هو الآخر فوق السطوح لتقتل فيه حشرات: الخوف والجبن والتردد؟ لماذا يشبه نفسه بالسجادة؟ ربما لأن كثيرين داسوا عليه بأقدامهم. ربما لأنه أمضى عامين مفروشاً في أرض الزنزانة على الإسفلت.

ويضغط عبدالمتعال بأسنانه على شفته السفلى ويقول لنفسه أنه لم يصل إلى أن يكون سجادة. السجادة غالية وهو رخيص. السجادة توضع في الصالون وهو موضوع في غرفة فوق السطوح. السجادة لها اسم وهو بلا اسم. السجادة لها طول وعرض. وهو اليوم بلا طول. . ولا عرض!

وأحس عبدالمتعال بمرارة وهو يتذكر أنه أصبح (بلا عرض). . تذكر أرملته خديجة. . ترى. . هل هو الأرمل أم هي الأرملة؟ هل هي حية أم ميتة؟ هل هي لا تزال في مصر، أم سافرت إلى أهلها في تركيا؟ هل لا تزال مخلصة له، أم وجدت من يجفف دموعها؟

لا بد أنها لا تزال مخلصة له. ولكن هل من المعقول أن تكون مخلصة له وهي لم تضع وردة واحدة على قبره. لم ترتد السواد حداداً على موته.. قالت لحارس القبر أنها لا تعرفه ولم تسمع باسمه. صدقت الاتهامات الكاذبة التي قيلت عن علاقته بالراقصة كاميليا، وغيرها من الراقصات والغانيات، وراحت تروي هذه الأكاذيب لسلوى كأنها حقائق مؤكدة بالوثائق والمستندات!

خديجة التي عرفها لا يمكن أن تفعل هذا، هذا الملاك الطاهر الذي بقيت تغمض عينيها سبع سنوات عندما يقترب منها في الفراش، والتي كانت تصر دائماً على إطفاء النور، لأنها تخجل أن يقبلها ويعانقها إلا في الظلام. خديجة التي كانت ترفض أن تذهب إلى الأفلام السينمائية الغرامية لأنها قليلة الأدب وقليلة الحياء.. خديجة التي كانت كلما سمعت أحد المطربين ينشد في الإذاعة أغاني العشق والغرام، سارعت إلى إقفال الراديو وهي تقول في غضب: (أدبسيس.. خرسيس) أي (قليل الأدب.. قليل الحياء).. مثل هذه السيدة الفاضلة، العفيفة الشريفة لا يمكن أن تخونه، ولا يمكن أن تسمح لغريب أن يجفف لها دموعها!

□□□

ولا يكاد عبدالمتعال يصدر حكمه ببراءة خديجة حتى يبدأ في محاكمتها من جديد. كان يتوقع منها وهي التي عاشت معه سبع سنوات، وعرفت وفاءه وإخلاصه ونقاء سريرته، أن تصمد لحملة الأكاذيب، أن تنبري للدفاع عنه. أن تبقى في مصر لتعلن على الملأ براءته وطهارته وشرفه.

كان يتوقع منها أن تنفق كل مليم حصلت عليه من ثمن الشقة للبحث عنه. كان يجب أن تقيم الدنيا وتقعدها. أن تنشر صورته

في الصحف وتعد بمكافأة لمن يجده ولكنها تصرفت كأنها عاشت معه سبع دقائق لا سبع سنوات. نشرت في الصحف إعلاناً عن الشقة ولم تنشر إعلاناً عنه. أسرعت تتخلص من الشقة وكأنها تريد أن تتخلص من آخر أثر له.

لا بد أنها تعرفت على الجثة، وقالت أنها جثته. كيف تأكدت أنه هو؟ لقد رأى العظام في المقبرة بعد عامين وعرف على الفور أنها ليست رفاته. الجمجمة ليست جمجمته، إنها مستديرة، ووجهه مستطيل. ذراع العظام طويلة وذراعه قصيرة. كيف لم تعرف خديجة الذراعين اللتين عانقتاها سبع سنوات!

لا بد أن خديجة لم تر الجثة جيداً. أخفت دموعها الحقيقة عنها. لم تطق أن تحملق في وجه الرجل الذي عبدته وأخلص لها الحب والوفاء سبع سنوات كاملة!

لا بد أن خديجة ما زالت مخلصة مثله. وارتعش عبدالمتعال رعباً من هذه المقارنة! وتذكر أنه الآن يشتهي سلوى، ويندم لأنه وضع الوسادة بينه وبينها في السرير. وتساءل هل لو أن زوجته خديجة رقدت والعياذ بالله، بجوار رجل غريب في فراش واحد، هل كانت تضع بينها وبينه وسادة، كما فعل هو مع سلوى وهبي؟ ولكنه يعرف زوجته جيداً، إنها لا يمكن أن تنام مع رجل غريب في فراش واحد، ولا في شقة واحدة!

لا يمكن أن تكون خديجة خانته قبل أن يدخل السجن. إنه لم يتركها وحدها دقيقة واحدة. كانت إذا ذهبت إلى بيت أبيها صحبها. وإذا ذهبت إلى الطبيب لم يتركها تذهب وحدها، بل حصل على إجازة من الشركة ليرافقها إلى عيادة الطبيب، لا لأنه لا

يثق بها، ولكن لأنه لا يثق بالأطباء. .

كانت لا تذهب إلى الخياطة، بل كانت الخياطة هي التي تحضر إلى البيت. كانت لا تذهب إلى الكوافير. بل كانت تصفف شعرها وتكويه بنفسها. كان يسمع قبل أن يتزوج بأن الزوجة تخون زوجها عندما يهملها، عندما يجعل من البيت فندقاً للمبيت فقط. عندما يكون له أصدقاء يأخذونه منها. عندما تكون له هواية أخرى غير الزواج. ولكنه كان زوجاً متفرغاً، من البيت للشركة، ومن الشركة للبيت، وهو لا يذكر أنه سهر ليلة واحدة خارج البيت، أو ذهب إلى مكان ما بمفرده.

الزوجة تفكر في تغيير زوجها عندما تشعر أنه لا يحترمها. . يعاملها كأنها قطعة أثاث في البيت، يتدخل في شؤون البيت الذي تحرص على أن تكون ملكته. . يسيء معاملتها، يهينها أمام الأغراب، يفضل أقاربه على أقاربها. وهو لا يذكر أنه تشاجر مع زوجته مرة واحدة، لم يشتمها، لم يضربها. لم يقل أمامها كلمة نابية. لم يتدخل في شؤون البيت.كان يسلمها مرتبه كله ولا يحتفظ إلا بمصروفات المواصلات وثمن السجائر . عندما كان يتقاضى مكافأته السنوية من الشركة كان يودعها باسمها في البنك.

المرأة تكره الرجل البخيل وقد كان كريماً معها دائماً. تضيق بزوجها المقامر السكير، وهو لم يجلس في حياته مرة واحدة، على المائدة الخضراء، ولم يذق قطرة خمر، كان هو يحب العرقسوس وكانت تكره العرقسوس فمنع دخول العرقسوس إلى البيت. لم يذق نقطة العرقسوس، كان يشربه في مكتبه بالشركة، ويغسل فمه جيداً قبل عودته إلى البيت لكيلا تشم خديجة رائحة العرقسوس!

لم يكن لعبدالمتعال أقارب يضايقون خديجة بزيارتهم. كان له ابن عم واحد هو عبدالمعبود محجوب، وكان يرتدي الجبة والقفطان، واعترضت خديجة على دخوله البيت لأن حذاءه يوسخ السجاجيد. فطلب منه أن يخلع حذاءه قبل دخول البيت. وقالت خديجة أنه يوسخ بجبته وقفطانه المقعد الذي يجلس عليه. ولم يستطع عبدالمتعال أن يطلب من ابن عمه أن يخلع ملابسه قبل دخول الشقة، فكان يلتقي به في مكتبه بالشركة، وعلى الرغم من ذلك، فكان في كل مرة يزوره فيها ابن عمه في مكتبه، تسكب خديجة زجاجة كولونيا على عبدالمتعال، وتسكب زجاجة كولونيا أخرى على أنحاء الشقة، بحجة أنها تشم رائحة عبدالمعبود في كل غرفة بعد هذه الزيارة. وكانت حجة خديجة أن عبدالمعبود يقبل عبدالمتعال ويعانقه كلما رآه.. وهكذا انتقلت إليه رائحته البلدية. ولم يكن عبدالمتعال يستطيع أن يمنع ابن عمه الذي يراه مرة كل ثلاثة شهور من أن يقبله ويعانقه... وأنقذ عبدالمعبود الموقف عندما انتقل إلى رحمة الله!

وهكذا استراحت خديجة، واستراح عبدالمتعال، وتم توفير ثمن زجاجات الكولونيا!

وعلى الرغم من الحب الذي جمع عبدالمتعال بزوجته إلا أن (التكليف) استمر طابع علاقتهما. فقد كان لا يناديها إلا (يا خديجة هانم) تماماً كما كان والدها المرحوم مراد بك حسين لا ينادي زوجته إلا (يا جلسن هانم)...

ولا يذكر عبدالمتعال أنه قال لخديجة (أنت) كان يقول لها دائماً (حضرتك) وعندما كان يريد أن يدللها يقول لها (خديجة هانم أفندي) وهي الطريقة التي يسمون بها الأميرات في استانبول!

أما خديجة فقد كانت تناديه (أبدو بيك)، أي (عبده بك) وكان الزوجان يتبادلان الاحترام أكثر ما يتبادلان القبلات. . . وكان عبدالمتعال سعيداً بتربية خديجة (العثمانلي) وهي التربية التركية القديمة التي أدخلها العثمانيون إلى مصر مع الجواري التركيات والشركسيات. . وكان عبدالمتعال وهو من أهالي مطاي في مديرية المنيا مبهوراً بهذا الأدب الجم، والحياة المحافظة التي لم تتأثر بأدران المدينة، ولا بالفساد الذي انتشر في المجتمع، نتيجة إختلاط المصريين بالأوربيين، واندماجهم في حياة اللهو والعبث والفجور.

وكان يبهر عبدالمتعال كذلك عناية خديجة الفائقة بنظافة جسمها وكان عبدالمتعال قبل زواجه يستحم مرة كل أسبوع ولكنه بعد زواجه اضطر أن يستحم كل يوم. وكانت خديجة تصر على أن تدخل معه الحمام، وتدعكه بالليفة بنفس الطريقة التي تدعك بها بلاط الحمام ولا تترك عبدالمتعال حتى يلمع كالبلاط!

وكانت خديجة تستعين بخادمة إسمها (أم سيد) لتساعدها في أعمال التنظيف ثم في العام الأخير أصرت على طرد أم سيد، لأن رائحتها تذكرها برائحة إبن عمه المرحوم عبدالمعبود محجوب وأصبحت خديجة تتولى بنفسها تنظيف البيت، وغسل البلاط، والطهي، والكي وتنظيف حذاء عبدالمتعال. . .

وأذهله في العام الأخير أن خديجة كانت تركع أمامه عندما يعود من الشركة إلى البيت وتصر على أن تخلع له حذاءه بنفسها. وكان يقول لها (العفو يا خديجة هانم أفندي) ولكن خديجة هانم أفندي كانت تقول له أنها تجد شرفاً عظيماً في خلع حذاء (أبدو بيك)!

إذن، ماذا جرى في الدنيا حتى تختفي خديجة، كأن الأرض

انشقت وابتلعتها؟ لقد مكثت خديجة هانم تعامله ست سنوات كأنه ملك، صاحب جلالة فعلاً، سلطان زمانه!

وفي السنة السابعة التي اعتاد خبراء علم النفس أن يسموها (سنة الهرش) أي السنة التي يبدأ فيها الزوجان يشعران بشيء غريب يأكلهما ويهرشهما، ويحرضهما على التغيير والتبديل، فتحدث الطلاقات أو تقع الخيانات، أو تظهر الخلافات. . في هذه السنة السابعة بالذات أصبحت خديجة لا تعامله كملك، وإنما تعامله كإله!

أصبحت تعامله خيراً مما كانت تعامله في السنوات الست الماضية. كان يشعر في السنوات الأولى أنها تحبه، وفي السنة السابعة شعر أنها تعبده. كانت تحترمه ثم أصبحت تقدسه. كانت تطل عليه من النافذة عند خروجه إلى عمله في الصباح، وتظل تراقبه حتى يختفي، ثم تتصل به تليفونياً في مكتبه لتطمئن عليه، أنه وصل بسلامة الله إلى مكتبه في شركة مصر للبسكويت!

كانت تسأل عنه في التليفون بمكتبه عدة مرات لتقول له (وحشتني). . كانت تطهي له كل طعام يحبه، كانت لا تستقبله إلا باسمة وهي تقول له (أصبحت أغار من شركة مصر للبسكويت لأنها تأخذك مني سبع ساعات كل يوم!).

هل من الممكن أن يموت كل هذا الحب لمجرد أنها سمعت أنه مات؟ الحب أقوى من الموت، لا يدخل القبر مع جثة الحبيب. إن الموت يمنحه حياة جديدة. ذكريات العاشقين تحيي الحب في قلب العاشق المكلوم وكأنها قبلات. الدموع التي تسكبها المرأة التي مات حبيبها لذيذة كأنها ماء الحياة!

لقد كان يثق بها ثقته بنفسه. وكانت تثق به ثقة عمياء. هل من الممكن أن تزول هذه الثقة المتبادلة لأن المدير الجديد لشركة مصر للبسكويت ادعى كذباً أنه وجد في درج مكتبه صورة الراقصة كاميليا، وبعض خطابات الغرام المدسوسة عليه؟ هل تبرر هذه التهمة الكاذبة لها أن تسبه وتشتمه وتلعن أباه أمام النجمة سلوى وهبي، وهي تبيع لها شقته التي فرشها بدمه وعرقه وأعصابه؟.. وفوق هذا تستكثر عليه وردة واحدة تضعها على قبره، بينما أن سلوى وهبي التي لم يعرفها إلا من بضعة أيام، وضعت على قبره باقة ورد!

صحيح أنها لم تشتر الباقة، صحيح أنها سرقتها من قبر والد خديجة، ولكن هذه السرقة دلت على شعورها وعواطفها. ليت خديجة سرقت وردة ووضعتها على قبره. لو أنها فعلت ذلك لغفر لها كل ذنوبها!

كل هذا يخالف (التربية العثمانلي). كثيراً ما سمع من حميه المرحوم مراد بك حسين أن الفرق بين الزوجة الفلاحة المصرية والزوجة الشركسية هي الفرق بين الأرض والسماء.. الفلاحات بشر، والشركسيات والتركيات ملائكة.. الفلاحة تخاف من زوجها، والتركية تعبده.. الفلاحة مثل الريال المزيف لا صوت له، والتركية مثل الريال الفضي له رنين... الفلاحة يجب أن تغلق عليها الأبواب لكيلا يسرقها اللصوص والتركية كالقلعة الصامدة لا تستطيع الجيوش أن تقتحمها ويتكسر أمامها الغزاة الفاتحون!

كيف سقطت القلعة اذن؟

ماذا جرى للريال الفضي الذي لم يعد يسمع رنينه، وكأنه تحول

إلى مليم بعد أيام من موته المزعوم؟

كيف استطاع الملاك الطاهر أن ينقلب إلى شيطان رجيم؟

كيف استطاعت خديجة هانم أفندي أن تغير الإلـه المعبود، كما تغير قميص نومها الذي كانت تصر على تغييره كل يوم؟

خديجة لا يمكن أن تخونه. لا بد أنه يظلمها. الغائب حجته معه. لقد لاحظت سلوى أنه يحاكم خديجة غيابياً، ويحكم عليها غيابياً، ويصلبها غيابياً... إنها على حق في ملاحظتها.. كيف يجوز للمظلوم أن يظلم الناس، وقد ذاق طعم الظلم وعرف مرارته؟

إنه لا يزال يسمع آخر حديث قالته له يوم القبض عليه... قالت له: إنه لا يوجد زوج مثلك في العالم. في كل يوم أحبك أكثر وأقدرك أكثر، وأفهمك أكثر!

ربما كان هذا الحب كله ظلًّا لحبه هو، وعندما اختفى الأصل اختفى الظل. ربما وجدت خديجة نفسها تائهة في صحراء بعد وفاته، فهي يتيمة الأبوين، وأسرتها في استانبول. وغريبة عن مصر. لا بد أنها لم تطق الحياة في هذا البلد بعد اختفائه. لقد كان عبدالمتعال هو كل أهلها وكل بلدها وكل وطنها وكل حياتها!

ولكنه ذهب إلى إدارة الجوازات وبحث عن اسمها بين الذين غادروا مصر فلم يجد اسمها. لا بد أنها هربت. لم تجد زوجها لتحصل منه على إذن بالموافقة على سفرها كما يقضي القانون، فلم يكن أمامها إلا أن تهرب!

ربما انتهز بعض الذئاب فرصة وحدتها بعد اختفائه، بلا زوج

بلا حارس، بلا أهل، بلا نصير، فانقضوا عليها. وجدوها لقمة سائغة فابتلعوها. لم يرحموا ترملها، لا ضعفها ولا ضياعها فتكالبوا عليها..

المرأة الوحيدة سهلة الالتهام. عيبنا في بلدنا أننا لا نعد زوجاتنا ليصبحن أرامل بعد وفاتنا. خوفنا من الموت، يجعلنا لا نفكر فيما سوف يجري لأراملنا بعد أن نموت. غرورنا يصور لنا نحن الرجال أننا نحن الذين سندفن زوجاتنا. لا الزوجات هن اللائي سيتولين عملية الدفن كما تؤكد الإحصاءات..

المفروض أن يعد كل زوج زوجته لكي تكون أرملة غداً. أن يتحدث معها بصراحة عما يجب أن تفعله إذا مات غداً. ويحدد لها خطواتها، يرسم لها طريقها. يختار لها الأشخاص الذين يمكن أن يساعدوها دون أن يقولوا لها «أكلك منين يا بطة».

يجب على الزوج وهو صحيح معافى أن يتحدث مع أرملته القادمة عن كيفية تسديد ديونه والتزاماته، لا أن يتركها وحدها فريسة للوحوش.. لا أن يتركها في البحر، ويختفي فجأة، لتواجه وحدها العواصف والأعاصير.. والحيتان!

وندم عبدالمتعال لأنه لم يخطر له قبل وفاته أن يفعل كل هذا.. وأحس بأنه شريك في الخيانة.. أنه الشريك الأصيل.

لا بد أن خديجة انتحرت.. إنه يعرفها جيداً.. إنها لن تستسلم للوحوش والحيتان، إنها تفضل الموت على أن تترك لأي إنسان أن يجفف دموعها..

وامتلأت عيناه بالدموع حزناً على المرحومة خديجة هانم...

□□□

وأغمض عينيه لينام!

وتحسس المرتبة التي فوق السرير الحديدي، وحمد الله على أنه ليس نائماً في السجن فوق البرش. هذا الشيء الذي يصرفونه في السجون للمسجونين كأنه (مرتبة) ينام عليها متوهمين أن أليافه الخشنة تحمي من الرطوبة، بينما هذه الألياف هي المخابىء التي تسكن فيها آلاف الحشرات والصراصير بينما رطوبة الإسفلت تنفذ إلى جسد المسجون كأنها الحراب والخناجر والسيوف... ما أشبه هذا «البرش» بقطعة الخشب المغروسة بالمسامير المدببة التي ينام عليها فقراء الهنود!

وتنفس عبدالمتعال الصعداء، إنه نائم فوق مرتبة حقيقية، مرتبة من القطن، إنه غاص فيها كما كان يغوص في مرتبة سلوى ريش النعام!

لقد قالت له سلوى أن هذه الغرفة كانت غرفة السفرجي الذي عاد أخيراً إلى السودان، ليصبح مالكاً لخمسة وعشرين فداناً من أجود أطيان خشم القربة على حدود الحبشة. وقارن عبدالمتعال بين غرفة السفرجي وزنزانته في السجن، وشعر أنه يعيش الآن في قصر، قصر ملكي.. ما دام لا يوجد أمام باب الغرفة الباشجاويش عبدالجبار أو أحد زبانيته فلا بد أن هذا القصر ملكي حتى ولو كان فوق السطوح!!

وبحث عبدالمتعال بعينيه فوق الجدران، فوجدها نظيفة بيضاء. تذكر جدران زنزانته التي كانت مغطاة بطبقات من الهاموش والناموس والذباب والحشرات حتى أخفت لون البياض.. تذكر كيف كانت تقوم جيوش الحشرات باستعراضات ومناورات على

الجدار، لا تنقطع بالليل والنهار!

وهز عبدالمتعال رأسه وقال: سفرجي في الحرية خير من وزير في السجن!

وهزته كلمة الحرية، شعر فجأة أنه حر!

وراح عبدالمتعال يفكر ويفكر... ثم قفز من فراشه، وأسرع يرتدي ملابسه بسرعة، ووقف أمام مرآة صغيرة يربط الكرافتة.. وتطلع في المرآة فوجد نظرة غريبة في عينيه!

إنها نظرة مختلفة جداً عن تلك النظرة الذليلة البائسة المستسلمة التي كانت تملأ عينيه.

ترى.. ماذا يفعل الإنسان، عندما يشعر لأول مرة، أنه أصبح حراً؟

الفصل الثالث عشر

غادر عبدالمتعال غرفته في السطوح على عجل. هبط درجات السلم المؤدية إلى شقة سلوى وهو يقفز. سوف يذهب إليها، سوف يدق الجرس، سوف يوقظها من النوم. الساعة الآن الثانية صباحاً. الحب لا يعرف النوم.. الحب لا ينشط إلا بعد منتصف الليل...

هذه المرة لن يطلب جسدها، وإنما سوف يأخذه.

لن يدق على أبوابها، وإنما سيقتحم كل الأبواب.

لن يقدم طلباً على ورقة تمغة. كل الذين يتقدمون بطلبات على ورقة تمغة يقال لهم «تعال غداً».

لن يتوسل إليها، لن يسترحم، لن يرجو!

لقد أصبح حراً. كل شيء فيه يقول إنه أصبح حراً. لم يعد يشعر بقيود، بأي قيود، حتى قيوده التي تربطه بزوجته خديجة. لقد ماتت خديجة، وماتت معها قيوده، لن تحكمه خديجة وهي ميتة كما حكمته وهي حية!

لقد تحرر، أصبح طليقاً، أصبح يرفع رأسه!

وعجب عبدالمتعال أن أول ما تحرر فيه هو الحيوان. ولم تزعجه

هذه الحقيقة، بالعكس رحب بها..

ووصل عبدالمتعال إلى الطابق الذي فيه شقة سلوى. ولم يتردد أمام الباب، ضغط بإصبعه على زر الجرس، ضغط عليه بعنف، وأحس كأنه يضغط بجسده على جسد سلوى...

ولم يفتح أحد الباب... وعاد يضغط على زر الجرس من جديد، وتغيرت حركة إصبعه، لم يكن جسده هو الذي يضغط على جسدها وإنما كانت يده التي تدفعها لتستيقظ من نومها، ولم يفتح أحد الباب أيضاً.

إذا كانت سلوى لم تستيقظ على صوت الجرس، فكيف لم تستيقظ خادمتها الابنوسية هدى! إن غرفة هدى قريبة من الباب... وبدأ يطرق الباب بقبضة يده.. ولم يفتح أحد.. وهوت قبضته على الباب بعنف، حتى خيل إليه أن الباب سينخلع تحت قبضة يده!

وسمع خطوات تذهب وتجيء داخل الشقة، وأبواب تفتح وتغلق، ثم رأى باب الشقة ينفتح ويطل منه رأس الخادمة الابنوسية الحسناء والشرر يتطاير من عينيها، وتصور أن هدى لم تتبينه في الظلام، فابتسم وقال لها: أنا عبدالمتعال يا هدى!

وتوقع أنها سوف تفسح له الطريق وتحييه بتحيتها المأثورة: «أهلاً، أهلاً». ولكنها بقيت تسد بجسدها الباب، وبقي الشرر يتطاير من عينيها، وسمعها تقول له بجفاء:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد سلوى؟

ـ إنها نائمة!

ـ سأوقظها!

ـ قالت لي وهي تقفل باب غرفة النوم ألا أوقظها.. حتى لو سأل عني رئيس الدولة!

ـ أنا لست رئيس الدولة... أنا عبدالمتعال محجوب!

ـ طظ!

ـ هل جننت يا هدى!

ـ أنا لم أجن... أنت الذي جننت!

ـ إنك فقدت عقلك!

ـ أنت فقدت عقلك عندما تجيء للزيارة في الساعة الثانية صباحاً!

ـ هل نسيت أنني كنت حتى أمس أنام في غرفة نوم سلوى؟

ـ اليوم غير الأمس... كل يوم له نظام مختلف.. كل يوم له رواية جديدة... وأنت لا دور لك في رواية الليلة!

ـ هل قالت سلوى لك هذا؟

ـ لم تقل شيئاً.. فهمت ذلك بالعقل!

ـ ماذا قال عقلك؟

ـ ما دمت تنام في غرفة السفرجي فأنت سفرجي!

ـ وعندما كنت أنام في غرفة نوم سلوى؟

ـ كنت الملك!

ـ ألا يوجد في البيت احترام للملوك السابقين؟

ـ هل تعرف ماذا يحدث للملك عندما يخلع عن العرش؟

ـ يصبح فرداً عادياً.

ـ يحرم من حقوق الفرد العادي... التاج يصبح قبقاباً؟

ـ هل أصبحت قبقاباً؟

ـ ولا قبقاباً!

ـ الله يحفظك!

ـ القبقاب تدخل به ست سلوى الحمام.. وأعتقد أنها لن تقبل اليوم أن تصحبك إلى الحمام!

ـ أنت تكرهينني جداً!

ـ أنا لا أكرهك.. كنت أحترمك أمس وأنت البيه... وأحتقرك اليوم وأنت القبقاب!

ـ ما الذي تغير؟

ـ تغير المكان!

ـ هل تغيير المكان يغير قيمة الإنسان؟

ـ إنه الفرق بين سرير الست... وسرير السفرجي!

ـ أنت لا تفهمين مكانتي عند سلوى!

ـ أفهم أنك في غرفة فوق السطوح!

ـ أؤكد لك أنها قالت لي أنني في قلبها...

ـ لا بد أنها غسلت قلبها، ولهذا أرادت أن تنشر قلبها مع الغسيل فوق السطوح!

ـ إنني لا أمزح.. دعيني أدخل!

ـ لن تدخل!

ـ سأدخل بالقوة!

ـ سأصرخ وأقول «حرامي» وسوف يستيقظ السكان ويجيء الشاويش ويضعك في السجن!

ـ السجن؟

ـ نعم السجن.. ألا تعرف السجن؟

ـ **أعرفه.. أعرفه جيداً!**

ـ ما دمت تعرفه فيحسن بك أن تصعد إلى غرفتك فوق السطوح وتجيء في الصباح...

ـ **سوف تغضب سلوى إذا منعتني من الدخول!**

ـ سوف تطردني إذا سمحت لك بالدخول!

ـ **لا بد أنه يوجد رجل في غرفة نوم سلوى!**

ـ طبعاً يوجد رجل!

ـ **رجل؟ رجل؟**

ـ نعم رجل... رجل!

ـ **إن سيدتك ممثلة قديرة!**

ـ لا تسخر من سيدتي.. إنها أشرف امرأة!

ـ **لأن رجلا في غرفة نومها!**

ـ هذا الرجل هو أخوها!

ـ **أخوها؟**

ـ نعم الدكتور منير وهبي.

ـ **أعرف أنه في إمارة شولح في المحيط الهندي!**

ـ إنه وصل الليلة بالطائرة!

ـ **لم تقل لي سلوى شيئاً عن قدومه.**

ـ جاء فجأة!

ـ **وما المانع أن أرى سلوى في وجود شقيقها... يسعدني أن أتشرف بمعرفته!**

ـ لا أعتقد أنه يسعدك كثيراً!

ـ **لماذا؟**

ـ لأنك ترتدي بذلته!

ـ إن سلوى أعطتني البذلـة!

ـ ولكن بذلتك أحدثت مشكلة!

ـ أي مشكلة؟

ـ لقد بحث الدكتور منير عقب وصوله عن البـذلة فلم يجـدها. وهو رجل عصبي جـداً. وقال إن هـذه البذلـة مصنوعـة من قماش جديد اخترعته انجلترا أخيراً ولا يوجد له مثيل في مصر. أقام الدنيا وأقعـدها عـلى البذلـة، ثـار وغضب.. واضـطرت ست سلوى أن تقول له أن السفرجي سرق البذلة قبل سفره إلى السودان!

ـ ولماذا لم تقل له أنها أعطتني البذلة؟

ـ لم تجرؤ على أن تعترف أمام شقيقها بقصتها معك!

ـ لقد وعدتني سلوى أن تكون صادقة!

ـ لو صدقت وروت له حكايتك لذبحها!

ـ يذبحها؟

ـ طبعاً يذبحها عندما يعرف أنها نامت معك في سرير واحد.

ـ لا داعي لأن تقول هذه الحكاية!

ـ كأنك تريد منها أن تكذب!؟

ـ إنني أستطيع أن أشرح له الموضوع!

ـ قبل أن تبدأ في شرح المـوضوع يكـون قد ذبحـك؟.. ألم أقل لك أنه عصبي جداً؟

ـ ألا يمكن أن تنادي سلوى خارج الغرفة لأقول لها كلمة؟

ـ وماذا يحدث لو خرج الدكتور خلفها ورآك تتحدث معها؟

ـ سوف يكون حديثي مؤدباً جداً!

ـ المهم ليس الحديث. . المهم البذلة!

ـ نعم. . نعم. . لقد نسيت البذلة!

ـ كيف تنساها وهي سبب المصيبة؟

ـ المصيبة؟

ـ طبعاً المصيبة. . سيرى الدكتور البذلة عليك. . ويعتقد أنك اللص الذي سرق البذلة. . ولن يتركك حتى يضعك في السجن!

ـ السجن دائماً!

ـ ماذا يفعل أي رجل عندما يرى رجلاً لا يعرفه يرتدي بذلته؟

ـ سأقول إنني اشتريتها!

ـ شراء بضائع مسروقة جريمة. . سوف تدخل السجن إلى أن تثبت أنك اشتريت البذلة بحسن نية، ولم تعرف أنها مسروقة، وتثبت أنك بريء!

ـ للأسف، في السجن لا يستطيع أحد أن يثبت أنه بريء!

ـ هل أنت الآن مصمم على أن تدخل غرفة النوم؟

ـ عدلت!

ـ قل لي: ماذا كنت تريد من ست سلوى؟. .

ـ كنت أريد. . كنت أريد. . كنت أريد قرص أسبرين!

ـ ليس عندنا أسبرين. . هل أجيء لك بقرص منوم؟

ـ هاتي ثلاثة أقراص!

□□□

وفتحت هدى دولاباً في الصالة، وأخرجت منه أنبوبة تحوي الأقراص المنومة وأعطت الأنبوبة كلها لعبدالمتعال.

وانطلق عبدالمتعال يصعد درجات السلم على عجل.. كان يتوقف ويلتصق بالحائط كلما سمع صوتاً.. أحس بأنه فقد رجولته أمام باب شقة سلوى... خوفه من العودة إلى السجن جعله يفقد حريته من جديد، فالناس من خوف السجن الصغير في سجن كبير... لم يعد يشعر برغبة في جسد سلوى المثير. أصبحت رغبته الوحيدة ألا يرى الدكتور منير وهبي البذلة. تحولت البذلة المهداة إلى بذلة مسروقة، حظه السيء يحول الحلال إلى حرام.

ماذا سيحدث له لو رآه الدكتور منير وهو يرتدي بذلته، أثناء دخوله أو خروجه من العمارة؟ يمكن أن يبقى في غرفته فوق السطوح حتى يخرج الدكتور منير من العمارة، ولا يدخل إلى العمارة إلا بعد دخوله. قد يراه الدكتور منير وهو يرتدي البذلة المصنوعة من قماش لا مثيل له في مصر، سوف يمسك بخناقه في الشارع، سوف يسوقه إلى قسم الشرطة. لن يستطيع أن يقول أنه عبدالمتعال محجوب الذي مات. سوف يضطر أن يقول أنه جرجس بطرس.. ستكشف الشرطة عن سوابقه، ستكتشف أنه محكوم عليه في جريمة نصب، وأنه أمضى في السجن عامين.

سوف يؤيد هذا الاتهام أنه لص. أي مسجون ممكن أن يسرق بذلة. وقد يدخلونه السجن من جديد، وقد يعترف أنه سرق بذلة الدكتور منير، كما اعترف من قبل بالجريمة التي لم يرتكبها!

وأحس عبدالمتعال بأنه يتضاءل من جديد. لم يعد يقيم قامته، لم يعد يرفع رأسه، لم يعد يشعر أنه حر.. عاد يسمع صوت رنين السلاسل والأغلال في داخله، عاد أغا أبيض من جديد...

ورقد في فراشه لينام، فلم يستطع أن يغمض عينيه، كلما

أغمض عينيه رأى وجه الباشجاويش عبدالجبار تحت جفونه. . وفكر في أن يأخذ أقراص المنوم لينام. . .

ثم خطر بباله أنه لا يريد أن ينام ليلة واحدة، يريد أن ينام عمره كله. يريد أن يغمض عينيه ولا يفتحهما أبداً. . ذلك النوم الطويل العميق الذي ليس فيه أحلام ولا كوابيس. .

لماذا لا ينتحر؟ لماذا لا يضع نهاية لهذه المأساة التي لا تريد أن تنتهي؟ لماذا لا يذهب إلى عالم آخر، لا تلفق فيه التهم، ولا يظلم الأبرياء، ولا يسمى الإنسان بغير اسمه؟ عالم لا يحكم فيه على الناس بغير محاكمة، لا يجلس فيه فوق منصة القضاء قضاة مزيفون. . هناك لن يحتاج إلى دليل على أنه عبدالمتعال محجوب. لن يحتاج إلى شهود يشهدون أنه لم ينصب، ولم يختلس سبعة عشر ألف جنيه، ولم يسرق بذلة الدكتور منير وهبي!

سوف يلتهم أنبوبة أقراص المنوم كلها. . .

وخطر بباله أن عليه أن يذهب إلى سلوى أولاً، ويشكرها على اهتمامها بأمره، وعلى اقتناعها ببراءته، وعلى وقوفها بجواره في محنته، وعلى نومها بجانبه في السرير عدة أيام!

وقرر أنه ليس من اللائق أن ينتحر في غرفة تتبع شقتها، هذا الانتحار سوف يثير الغبار على سمعتها، سينتهز أعداؤها وخصومها ومنافساتها فرصة وجود قتيل في بيتها، ويطلقون عليها الإشاعات والأقاويل والأكاذيب. . وهو لا يريد أن يجازي إحسانها بالإساءة، ويكافىء نبلها بإطلاق الأكاذيب السوداء. سوف يتفق مع سلوى على أن يتناول أقراص المنوم أمام كوبري الزمالك الذي يسمونه كوبري أم كلثوم. . إنه موقع رومانتيكي للانتحار. . النيل على

يساره وبيت سلوى على يمينه، وكوكب الشرق أمامه!

سوف يتفق مع سلوى على أن يدفن في نفس قبره بشارع المأمون رقم ٧ بالإمام الشافعي. القبر جاهز. واسمه محفور عليه. وحارس القبور مستعد أن يأخذ من سلوى جنيهاً ليدخله الجنة، في ذلك القبر الصغير البسيط. ويمكن لسلوى أن تتفق مع حارس القبور ألا يبيع ساق عبدالمتعال اليسرى وباقي عظامه لطلبة كلية الطب مقابل جنيه آخر.. سوف يطلب إلى سلوى أن تضع وردة من عام إلى عام على قبره.. لا يمكن أن تفعل سلوى ما فعلته خديجة الخائنة التي لم تضع على قبره وردة واحدة.. وإذا استكثرت سلوى إنها تشتري له وردة فلا مانع من أن تسرق وردة من فوق أحد القبور الأخرى!

وقرر عبدالمتعال أن يعيد أولاً العشرة الجنيهات التي اقترضها من سلوى، التي لم ينفق منها مليماً واحداً، وبذلك يسدد كل ديونه قبل أن ينتقل إلى الآخرة.. لا يريد أن يموت وهو مدين لأحد، وتذكر عبدالمتعال بذلة الدكتور منير وهبي التي يرتديها، وتحسس بأصابعه القماش الجديد الذي اشتراه الدكتور من لندن ولا مثيل له في مصر، واقتنع بأن واجبه أن يعيد بذلة الدكتور منير إلى سلوى. لا يجوز أن يموت داخل بذلة شبه مسروقة. سوف يكون موقفه حرجاً أمام الملكين اللذين سيدخلان إليه في قبره ويسألانه عن قصة البذلة. وسوف يضطر أن يروي للملكين قصته مع سلوى، وقصة نومه معها في سرير واحد، وقد يتشكك الملكان في قصة الوسادة التي كانت تفصل بينهما في السرير، وقد يبقى في النار بضعة أيام إلى أن تثبت براءته!

وخلع عبدالمتعال بذلة الدكتور منير، وطواها في احترام شديد،

وارتدى الجلابية المخططة التي صرفتها له إدارة السجن يوم الإفراج وحمل العشرة الجنيهات بيده اليمنى، والبذلة بيده اليسرى، وهبط درجات السلم في طريقه إلى شقة سلوى. .

وبعد خمس درجات توقف. . ساءل نفسه ماذا يقول للدكتور منير إذا رآه يحمل بذلته؟ سيقول له أنه وجد البذلة تحت سرير السفرجي. . وأعجبته الفكرة، وهبط خمس درجات أخرى ثم توقف. . هل كتب عليه أن يكذب قبل دقائق من موته وهو الذي وعد سلوى بأن يكون صادقاً إلى آخر يوم من أيام حياته؟ أيموت كذاباً بعد أن عاش صادقاً؟ ولكنها كذبة صغيرة، كذبة بيضاء، كذبة مقصود بها إنقاذ سلوى من الحرج أمام شقيقها العصبي جداً. سوف يفهم الملكان اللذان سيتوليان حسابه دوافع هذه الكذبة ومبرراتها. لا يمكن أن يكون الحساب في الآخرة بطريقة الحساب في الدنيا. هناك الرحمة فوق العدل، هناك لا يتصيدون التهم، هناك يغفرون الذنوب!

وعاد عبدالمتعال يهبط درجات السلم من جديد حتى اقترب من الطابق الذي به شقة سلوى.

وفجأة رأى باب شقة سلوى ينفتح. وتسمر في مكانه. ورأى رجلاً يخرج من الشقة، ويتجه إلى باب المصعد، ويضغط على زر المصعد!

وحبس عبدالمتعال أنفاسه، وحملق في وجه الرجل. . إنه يعرف هذا الرجل جيداً، كثيراً ما رأى صوره في الصحف والمجلات تذكره بأنفه الطويل، وقامته الفارعة، وكرشه الكبير. .

إنه مجدي باشا الأسيوطي وزير المواصلات السابق. الوزير

الذي اعترفت له سلوى أنه كان عشيقها. وأنه هو الذي حماها من حملات الافتراء عليها. إنه هو الذي جعلها عاهرة لتصبح شريفة في عيون الناس. هذا هو الرجل الذي كان في غرفة نوم سلوى. هذا هو الذي ادعت خادمتها هدى أنه شقيقها الدكتور منير وهبي الذي عاد فجأة من إمارة شولح!

وأحس عبدالمتعال أنه لا يستطيع أن يقف على قدميه، خانته قدماه كما خانته سلوى. جلس على درجة السلم يلهث. وكأنه كان يجري مشواراً طويلاً. المشوار الذي بين الكذبة والحقيقة!

أحس بأن قلبه يتوقف. أن رأسه يكاد ينفجر. أنه لا يستطيع أن يتبين ما أمامه. الليل ازداد سواداً. الظلام انتشر ونحن على أبواب الفجر. لم يكره سلوى، وإنما كره نفسه ولم يحتقر خادمتها هدى، وإنما احتقر المغفل عبدالمتعال محجوب. لم يحقد على مجدي باشا الأسيوطي وإنما حقد على بلاهته هو وسذاجته هو، وغبائه هو!

ووصل المصعد، وفتح مجدي باشا باب المصعد ثم أغلقه في هدوء، وهبط به إلى الطابق الأرضي.

وحار عبدالمتعال ماذا يفعل..؟ فكر في أن يرمي البذلة على باب شقة سلوى ثم يمضي، فكر في أن يدق الجرس ويسلم العشرة الجنيهات والبذلة إلى خادمة سلوى، ولكنه أحس برغبة في أن يواجه سلوى.. أن يبصق على وجهها ويمضي!

وتردد عبدالمتعال في أن يبصق على الوجه الجميل الذي أحبه.. وتمنى لو كانت أمامه مرآة ليبصق على وجه عبدالمتعال محجوب الذي

صدق حكاية بذلة الدكتور منير وهبي!

□□□

واندفع إلى باب الشقة، وضغط على جرس الباب، وفجأة رأى سلوى أمامه بقميص نوم وردي، وروب دي شامبر وردي!

ولم يتوقع أنها ستفتح الباب، كان قد أعد نفسه للقاء الخادمة هدى وعندما فوجىء بسلوى ضاعت الكلمات من شفتيه.. ورآها تبتسم.. كان يتصور أنها ستخفي وجهها بيدها.. ولكنها تبتسم وتشجع وقال لها وصوته يقطر دموعاً:

ـ لماذا تكذبين؟

ـ أنا لم أكذب!

ـ أنت وعدتني أن تكوني صادقة معي دائماً!

ـ أنا صادقة معك دائماً!

ـ خادمتك قالت أنك كنت مع شقيقك الدكتور منير في غرفة النوم!

ـ لست مسؤولة عن كذب خادمتي!

ـ من الذي كان معك في غرفة النوم؟

ـ مجدي باشا الاسيوطي!

ـ طبعاً تعترفين، لأنك عرفت أنني رأيته..

ـ لو لم تره، لأخبرتك أنه هو!

ـ ماذا كان يفعل معك في غرفة النوم؟

ـ كنا نلعب البصرة!

ـ تلعبان البصرة على السرير!

ـ فعلاً، كنا نلعبها على السرير!

ـ هل تظنين أنني ساذج، عبيط، مغفل. ماذا يفعل رجل مع امرأة في سرير واحد؟
ـ إسأل نفسك!
ـ طبعاً، كنت في أحضانه!
ـ وهل كنت في أحضانك وأنا معك في السرير عدة ليال؟
ـ الأمر مختلف!
ـ ما هو وجه الإختلاف؟
ـ إن مجدي باشا كان عشيقك!
ـ كان فعل ماض ناقص..
ـ أنت على علاقة به؟
ـ وهل قلت لك أنني قطعت علاقتي به؟
ـ قلت أنك أحببتني!
ـ ولم أقل أنني لن أستقبل مجدي باشا!
ـ فرق بين أن تستقبليه في الصالون.. أو تستقبليه في غرفة النوم.
ـ ما الفرق؟
ـ الضيف نستقبله في الصالون، والحبيب نستقبله في غرفة النوم.
ـ إنني استقبلتك في غرفة النوم قبل أن تكون حبيبي!
ـ كانت غلطة!
ـ لماذا لم نقل يومها أنها غلطة؟
ـ كانت نواياي شريفة!
ـ ونوايا مجدي باشا شريفة!
ـ مجدي باشا الذي اعترفت لي بأنه أول من جعلك عاهرة!
ـ ليدافع عن سمعتي!

ـ وهل جاء الليلة ليدافع عن سمعتك؟

ـ لا . . جاء يدافع عن سمعتك أنت!

ـ سمعتي أنا!؟

ـ لقد دعوته إلى هنا لأطلب منه أن يساعدك في إظهار براءتك.

ـ أنا أرفض أن يساعدني عشيق قديم لك . . أفضل أن أبقى مجرماً على أن تكون براءتي على يد عشيق المرأة التي أحبها!

ـ عشيق سابق من فضلك!

ـ لا يهمني إن كان عشيقاً سابقاً أم عشيقاً لاحقاً!

ـ لقد كنت أريد أن يساعدك مجدي باشا لتسترد شرفك!

ـ كأنه يجب أن أبيع جزءاً من شرفي لأسترد جزءاً من شرفي!

ـ لا شيء في هذا العصر مجاناً!

ـ أنت نسيت أنك منذ أحببتك أصبحت شرفي!

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟

ـ اقطعي علاقتك به!

ـ لقد اتفقنا أن تعطيني مهلة سنة!

ـ يجب أن تقطعي علاقتك فوراً . . كل علاقاتك بكل الرجال!

ـ لماذا؟

ـ لأنني سأكون كل الرجال في حياتك!

ـ ليتك . . تستطيع!

ـ بل أستطيع!

ـ لا تكابر في الحقيقة!

ـ أنت لا تعرفين قدراتي!

ـ بل أعرفها جيداً!

ـ لا تحكمي علي من خلال الوسادة!

ـ إنني أحكم عليك بغير وسادة!

ـ لقد كنت أتصور أن تهمتي عندك أنني بطيء جداً.. متردد جداً!

ـ بالعكس، إنني أحببتك واحترمتك وقدرتك، لأنك تحكمت في نفسك!

ـ إنني ندمت على هذا الاحترام والتقدير. ولهذا جئتك بعد أن تحررت من عبوديتي للسجن، ومن عبوديتي للإخلاص لخديجة. جئت لأعبر الوسادة. جئت لأقتحم كل الأبواب المغلقة!

ـ ولماذا لم تقتحمها؟

ـ لأن خادمتك هدى كانت تسد الباب!

ـ الرجل الذي يصده الحارس.. ممكن أن تصده القلعة!

ـ هل أنت قلعة!؟

ـ لأنني «قلعت» هدومي!

ـ أنت تمزحين في موقف الجد!

ـ أنا جادة جداً، لو كنت تحبني حقيقة لدفعت الخادمة، واقتحمت الباب، وطردت مجدي باشا الأسيوطي من غرفة نومي!

ـ ماذا كنت ستفعلين؟

ـ كنت سأجثو تحت قدميك.. وأتركك تطرده!

ـ ولكن خادمتك قالت أنها ستصرخ إذا اقتحمت الباب، وسيجيء الشرطي ويضعني في السجن!

ـ العاشق الذي يتردد في اقتحام غرفة نوم حبيبته خوفاً من السجن، ليس عاشقاً!

ـ أنت لا تعرفين ما هو السجن!

ـ أعرف عشاقاً ذهبوا إلى المقصلة من أجل الحب!

ـ أتريدين أن أذهب إلى المقصلة من أجلك، وأنت ترفضين أن تقطعي علاقتك بمجدي باشا الأسيوطي؟

ـ لم أرفض.. طلبت مهلة سنة!

ـ لماذا؟

ـ لأنك لا تستطيع أن تملأ مكانه الآن.. أنا أعرف قدراتك!

ـ هأنت تعودين وتتحدثين عن قدراتي!

ـ مجدي باشا يدفع أجر شقتي. دفع ثمن الشقة الذي دفعته لزوجتك، إنه ينفق على بيتي!

ـ ولكنك ممثلة كبيرة، نجمة إغراء.. أين يذهب دخلك الكبير؟

ـ أنفقه على أثوابي لأحتفظ بلقب ملكة الإغراء.. أنا مستعدة أن أقطع علاقتي بمجدي باشا فوراً. أن أتزوجك فوراً، مستعدة أن أترك هذه الشقة الفاخرة وأقيم معك في غرفة فوق السطوح ولكن.. هل معك أجر غرفة فوق السطوح؟

ـ معي العشرة الجنيهات التي اقترضتها منك.. جئت لأعيدها إليك.

ـ ولكنها ليست لي..

ـ لمن إذن؟

ـ لمجدي باشا الأسيوطي!

ـ كل شيء هنا ملك مجدي باشا الأسيوطي!

ـ حتى أنت يا عبدالمتعال!

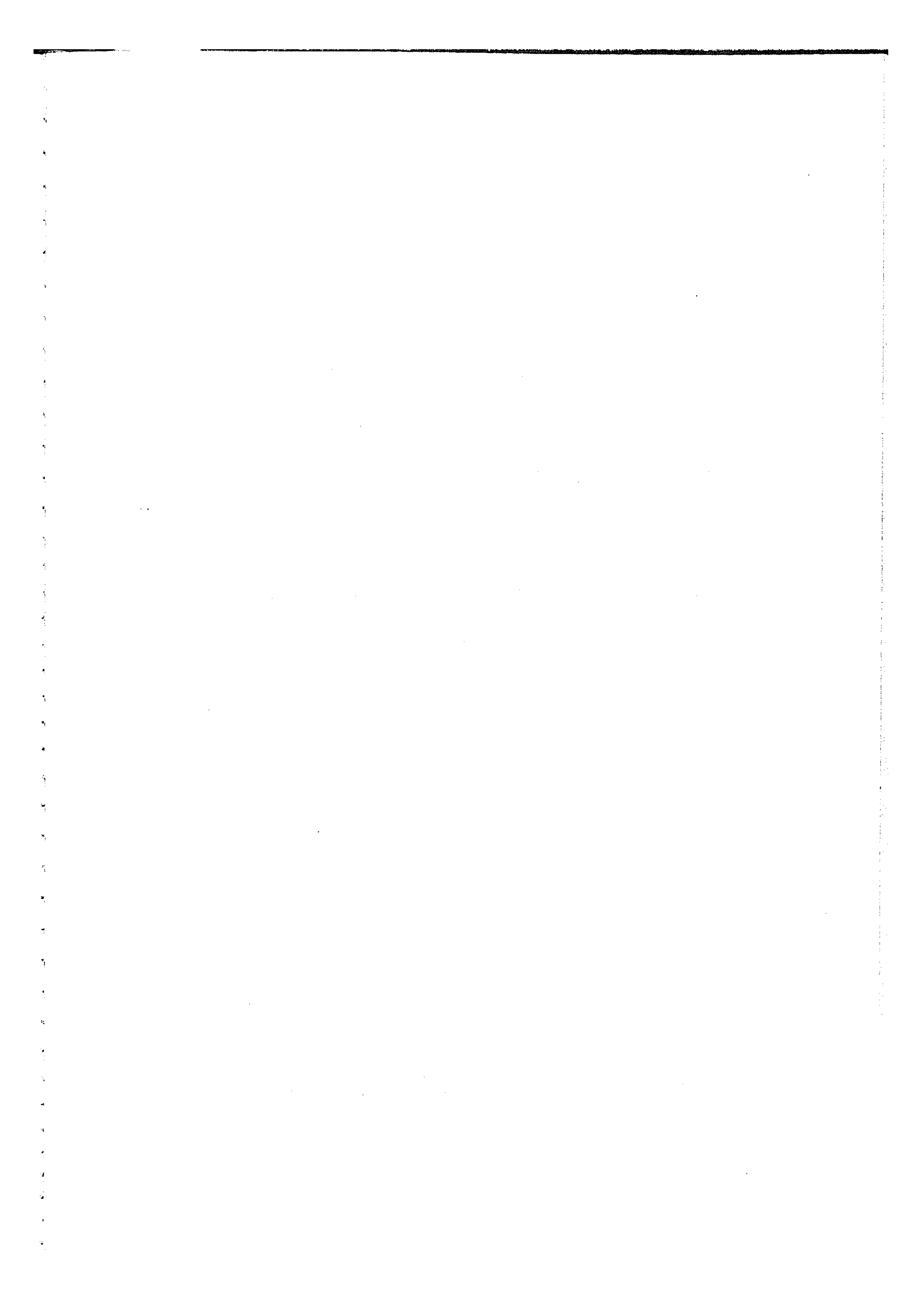
ـ إذن.. فإني ذاهب!

ـ إلى أين!؟

ـ لأنتحر!

ـ ولماذا تنتحر!

ـ لأن السبيل الوحيد لكي أتحرر من عبوديتي هو أن أموت!



الفصل الرابع عشر

ضحكت سلوى ساخرة عندما قال عبدالمتعال أنه قرر الانتحار.. ومالت برأسها في استهزاء وقالت:

ـ تاني؟

فقال عبدالمتعال:

ـ **أقول أنني سأموت وتسخرين.. هل موتي يضحكك؟**

ـ يضحكني جداً!

ـ **كنت أتصور أن انتحاري سوف يصدمك!**

ـ لم أصدم.. لأنك تنتحر للمرة الثانية!

ـ **إنها المرة الأولى!**

ـ زوجتك خديجة قالت لي أنك انتحرت.

ـ **الذي انتحر هو الرجل الموجود في القبر، أما أنا فلم أنتحر بعد!**

ـ ثبت الآن أنك نفس الرجل!

ـ **أنا الرجل الميت!؟**

ـ إذا كان هو ورث اسمك، فأنت ورثت صفاته. ألم أقل لك أنك تشبهه جداً؟

ـ **أنا أشبهه جداً!؟**

ـ هو انتحر.. وأنت تريد الانتحار!

ـ وهل هذا يكفي لأن أكون هو!

ـ عادة إن الذي يفكر في الانتحار ينتحر مرة ومرتين!

ـ لو كنت أنا الذي انتحر لكنت في القبر!

ـ كنت معك أمس أمام قبرك، ورأيت عظامك بنفسي!

ـ أنت تحدثيني كأنني مجنون!

ـ أنت مجنون حقيقة!

ـ أنا بكامل قواي العقلية!

ـ الرجل المكتملة قواه العقلية لا يفكر في الانتحار!

ـ إنني أريد أن ألتقي بالله!

ـ الذين يلتقون بالله يحدد لهم موعداً سابقاً!

ـ ماذا أفعل إذا لم يكن الله حدد لي موعداً؟

ـ إنه حدد الموعد.. ولكن ليس موعدك الآن!

ـ يجب أن أراه لأشكو اليه ما فعل بي أهل الأرض!

ـ لقد كنت مديراً لشركة مصر للبسكويت، وإذا جاءك عامل بلا موعد، فهل كنت تقابله؟

ـ أرفض مقابلته طبعاً!

ـ وهل أنت الذي خلقت العامل؟

ـ لم أخلقه.. وإنما هو مرؤوس عندي.. ويجب أن يحصل على إذن أولاً!

ـ إذا كان الرئيس يرفض مقابلة مرؤوسه لأنه حضر بلا موعد سابق، فما بالك بالمخلوق الذي يريد أن يرغم خالقه على لقائه.. بلا موعد؟

ـ وماذا سيفعل الله بي إذا ذهبت إلى لقائه.. بغير أن يحدد لي موعداً!

ـ سيضعك في غرفة الانتظار!

ـ ما هي غرفة الانتظار هذه؟

ـ جهنم!

ـ أفضل جهنم على هذه الحياة!

ـ لا أظن أن جهنم ستعجبك!

ـ بل ستعجبني!

ـ حتى لو عرفت أن الذين بنوا السجون في بلادنا نقلوا صورتها عن جهنم، إنها نفس النظام!

ـ لا يمكن، بالتأكيد لا يمكن!

ـ ماذا يجعلك متأكداً؟

ـ لأن أحد أسماء الله الحسنى.. «الرحيم» والذين بنوا السجون لم يعرفوا الرحمة!

ـ نسيت أن من أسماء الله «الجبار» أيضاً.

ـ أنا مؤمن بأن الجبار أرحم ألف مرة من الشاويش عبدالجبار!

ـ ولكنه لا يرحم الذين يكفرون به!

ـ أنا مؤمن به.

ـ لو آمنت به لانتظرت حتى يحدد لك موعدك!

ـ وأعيش في جحيم الدنيا؟

ـ خير لك أن تعيش في جحيم الدنيا وأنت مؤمن، من أن تعيش في جحيم الآخرة وأنت كافر!

ـ أنا لست كافراً بالله... أنا كافر بمخلوقاته!

ـ أنت مصمم على الانتحار؟

ـ نعم!

ـ إذن عليك أن تخلع هذه الجلابية المخططة!

ـ إنني أفضـل أن أموت في جـلابية أملكهـا، على أن أمـوت في بذلة لا أملكها!

ـ لو مت في هذا الجلباب فسوف يدفنونك في مقابر الصدقة!

ـ إنها ألعن من زنزانة السجن. إنهم يدفنون مـائة رجـل في قبر أصغر من الزنزانة!

ـ تخشى أن تختنق هناك؟

ـ أخشى أن أتوه يوم القيامة!

ـ ولهذا يجب أن تخلع الجلباب المخطط!

ـ لماذا تكرهين هذا الجلباب؟

ـ أنا لا أكرهه، وإنما عنـدما ستمـوت فيه سيعـرفون عـلى الفور أنك من ذوي السوابق!

ـ كيف يعرفون؟

ـ لأن الجلباب أشهر من نـار على علم.. كـل الناس تعـرف أنه الجلبـاب الذي يصرفـونـه للمسجـونـين في السجن يـوم الإفـراج. وسـوف يتـأكـدون أنـك كنت مسجـونـاً.. وسـوف يحصلون عـلى بصماتك، ويعـرفون أنـك جرجس بـطرس، وسيدفنـونك في مقـابر المسيحيين!

ـ كأنني سأخرج من ديني حياً وميتاً!

ـ أنت المسؤول عن هـذا.. إنك الـذي صممت على أن تمـوت بالجلباب المخطط لتحدث مشكلة للملائكة يوم القيامة!

ـ أي مشكلة؟

ـ نفس المشكلة التي أنت فيها الآن. سيجد المـلائكة مسلمـاً في مقابر المسيحيين وسوف يحارون في أمرك.. بعض المـلائكة سيقـول

أنك عبدالمتعال محجوب المسلم وبعضهم سيؤكد أنك بطرس جرجس المسيحي!

ـ **وماذا سيفعلون بي؟**

ـ سوف يضعونك في غرفة الانتظار.. في سجن الآخرة.. في الجحيم!

ـ **الجحيم؟ السجن! كأنني لا أخرج من السجن إلا لأدخل الجحيم، ولا أخرج من الجحيم إلا لأدخل السجن!**

ـ أنت الجاني على نفسك!

ـ **أنا لم أجن على أحد!**

□□□

وهنا قالت سلوى:

ـ **إذن أنت مصر على أن تنتحر في الجلباب المخطط!**

فقال عبدالمتعال:

ـ **وماذا أفعل؟**

ـ عليك أن ترتدي بذلة شقيقي الدكتور منير!

ـ **أعوذ بالله!**

ـ كأنني أدعوك لأن ترتدي ثعباناً!

ـ **إنها ألعن من الثعابين!**

ـ هل البذلة لدغتك؟

ـ **لم تلدغني فقط، كادت تخنقني!**

ـ بسبب الضيق؟

ـ **لا.. بسبب الرعب!**

ـ إنك أول رجل يخاف من بذلة.. الناس عادة تخاف من الذين

في داخل البذلة!

- كنت في داخل البذلة وأخاف من البـذلة نفسهـا. . في لحظات أحسست أنني أموت من الخوف والرعب. .

- لماذا؟

- عندما كذبت علي خادمتك هدى وقالت أن شقيقـك الدكتـور منير يحب هذه البذلة، وأنه اشترى قـماشها من لنـدن، وأن القماش لا مثيل له في مصر، وأنه رجل عصبي لا يكاد يراني في البذلة حتى يدخلني السجن!

- إن هدى لم تكذب. . إنها قالت لك الحقيقة كلها!

- حتى عنـدما قـالت لي أن شقيقك هـو الـذي معـك في غـرفـة النوم!

- هذه هي الكذبة الوحيدة. . أما كل ما قالته لك غير هـذا فهو صحيح. . إن شقيقي الدكتور منير يعبد هذه البذلة!

- إذا كان يعبد هذه البذلة فلماذا أعطيتني إياها؟

- لأنك كنت تعجبني فيها!

- فضلتني على أخيك؟

- إلى أن يعود!

- وماذا أفعل إذا عاد؟

- إنه موجود في إمارة شولح. . ولن يعود إلا بعد شهر!

- وماذا أفعل بعد شهر؟

- سأشتري لك بذلة أخرى!

- أنا أرفض أن تنفق علي امرأة!

ـ أنا لا أنفق عليك. . أنا أقرضك ثمن البذلة إلى أن تستطيع أن تسدد الدين!

ـ من نقود مجدي باشا الأسيوطي؟

ـ في هذه المرة من نقودي!

ـ إذن أرجوك أن تشتري لي البذلة اليوم!

ـ لماذا أنت في عجلة؟

ـ لأنني لا أستطيع أن أعيش خائفاً ثلاثين يوماً داخل هذه البذلة!

ـ سوف أشتري لك البذلة اليوم، بشرط. .

ـ ما هو الشرط؟

ـ أن تخلع هذا الجلباب الآن وترتدي بذلة شقيقي!

ـ لو انطبقت السماء على الأرض فلن أرتدي بذلة شقيقك!

ـ ولو أعطيتك قبلة؟

ـ عندئذ تنطبق السماء على الأرض!

ـ إذن اخلع الجلباب المخطط فوراً!

ـ سوف أصعد إلى غرفتي في السطوح، وأخلع الجلباب، وأرتدي البذلة. وأعود إليك خلال خمس دقائق!

ـ لماذا لا تخلع الجلباب هنا؟

ـ أخجل أن أخلع الجلباب أمامك!

ـ ولكن منذ بضعة أيام لم تخجل عندما خلعت نفس الجلباب، وارتديت نفس البذلة.

ـ لم تكوني قد قلت لي أنك تحبينني!

ـ من باب أولى ألا تخجل الآن!

ـ إن صعودي إلى غرفتي فوق السطوح وعودتي إليك لن

يستغرق سوى خمس دقائق!

- لا أستطيع أن أنتظر خمس دقائق.. لأقبلك!

- خمس دقائق فقط؟

- ولا دقيقة.. إن هذا في مصلحتك!

- مصلحتي؟

- لأنك إذا خرجت من هذه الغرفة فقد أغير رأيي!

- في خمس دقائق؟

- في دقيقة واحدة!

- إذن سأخلع الجلباب وأرتدي البذلة!

□ □ □

وأدار عبدالمتعال ظهره لسلوى، وخلع الجلباب.. وقبل أن يصل إلى السرير ليتلقط البنطلون، سمعا طرقاً متواصلاً على الباب، وصوت الخادمة هدى تهمس في رعب:

- ستي.. ستي!

- ماذا حدث؟

- الدكتور منير وصل.. وهو أمام باب الشقة يدق الجرس!

- هل أنت متأكدة؟

- رأيته من العين السحرية في الباب!

وهز عبد المتعال رأسه ساخراً وقال:

- لا تصدقيها، إنها كاذبة.. إنها نفس الكذبة التي كذبتها علي اليوم!

- إنها لا تستطيع أن تكذب علي!

ثم فتحت سلوى الباب، وناولت هدى الجلباب المخطط وقالت لها:

ـ خبئي هذا الجلباب في غرفتك!

ثم أقفلت باب الغرفة بالمفتاح . .

واضطرب عبدالمتعال، واصفر وجهه، وارتعشت مفاصله وقال:

ـ إنك خبأت الجلباب . . ونسيت أن تخبئيني أنا!؟

ـ عليك أولاً أن ترتدي البذلة!

ـ هل أنت مجنونة؟ أرتدي البذلة والدكتور منير هنا!؟

ـ لا أستطيع أن أتركك عارياً هكذا!

ـ ضعيني في الحمام!

ـ وماذا أفعل إذا أراد منير أن يدخل الحمام؟

ـ خبئيني في غرفة الطعام.

ـ قد يكون منير وصل جائعاً من الرحلة . . ويطلب أن يتناول الطعام!

ـ الصالون . . هو أحسن مكان!

ـ قد يحب أن نجلس في الصالون!

ـ إذن أين أختبىء؟

ـ سأضعك تحت السرير!

ـ وهل هو الآخر سينام فوق السرير؟

ـ سأترك له السرير، وأنام على الشيزلونج!

ـ وماذا يحدث إذا وقع السرير؟

ـ اطمئن . . سريري يتحمل كثيراً!

ـ أصبحت أعرف أنه يتحمل كثيراً . . ولكن المشكلة ماذا يحدث إذا نام على السرير ووقع منه شيء وأراد أن يبحث عنه تحت السرير؟

ـ سيجدك تحت السرير بالقميص والكلسون . .

ـ هذا أفضل من أن يجدني مرتدياً بذلته!

ـ اطمئن.. إنه سيكون متعباً، ولا يكاد يضع جسمه على السرير حتى يستغرق في النوم!

ـ وكم ينام عادة؟

ـ ست أو سبع ساعات فقط!

ـ فقط؟

ـ اطمئن.. تسعة وتسعون في المائة لن ينظر منير تحت السرير!

ـ كيف أطمئن.. وأنا أعرف أنني دائماً الواحد في المائة الذي تحدث له المصائب!

ـ اطمئن.. إن حظي جيد دائماً!

ـ وأنا حظي سيء دائماً!

ـ إذا وجدك تحت السرير فيمكنك أن تخترع كذبة!

ـ أنا نسيت الكذب.

ـ يمكنك أن تقول له أنك تنتظر الاوتوبيس!

ـ أنتظر الأوتوبيس تحت السرير؟

ـ أثناء مدة سجنك حدث أن أوتوبيسات دخلت البيوت، ودخلت المحلات التجارية!

ـ ولكنها لم تدخل تحت السرير!

ـ أنت لا تعرف كيف تقدمت الأوتوبيسات خلال العامين الماضيين!

ـ وماذا أقول له إذا سألني لماذا أنا بالقميص والكلسون؟

ـ قل له أن النشالين نشلوك!

ـ لم أسمع أن نشالاً ينشل الجلابية من مرتديها، أو ينشل من رجل الجاكتة والبنطلون!

ـ أصبح النشالون الآن ينشلون الكحل من العين!

وسمعا صوتاً يحاول أن يحرك مقبض الباب، ثم يدق عليه وهو يقول:

ـ افتحي يا سلوى!

وأشارت سلوى إلى تحت السرير طالبة من عبدالمتعال أن يختبىء هناك وأشار عبدالمتعال بإصبع مرتعشة أنه مستحيل أن يدخل تحت السرير!

واستمر الطرق على الباب.

وفتحت سلوى «البلاكار» الكبير الذي يحوي فساتينها، وأدخلت عبدالمتعال داخل دولاب ملابسها، وأقفلت بابِ الدولاب بالمفتاح، وأسرعت تفتح باب الغرفة وهي تقول: أهلاً.. أهلاً يا حبيبي!

وأحس عبدالمتعال في ظلام الدولاب بطعنة خنجر.. (حبيبي)! هل تنادي الأخت أخاها وتقول (يا حبيبي)؟ لا بد أنه مجدي باشا الأسيوطي الذي عاد من جديد. لا بد أنه شك في سلوك سلوى وإخلاصها، وعرف أنه لا أمان لها، فعاد فجأة بعد نصف ساعة من خروجه ليضبط ملكة الإغراء في أحضان عشيق جديد.. مجدي باشا معذور. شكوكه في محلها لقد استقبلت سلوى عشيقاً ثانياً بعد خروج مجدي باشا بدقائق. استقبلته في غرفة نومها، وجردته من ملابسه!

وتحسس عبدالمتعال القميص والكلسون، وشعر بحزن لفقد الجلابية المخططة مثل حزنه على فقد سلوى!

وسمع عبدالمتعال صوت قبلات، لا قبلة واحدة، ولا ثلاث قبلات.. لقد أحصى عشر قبلات ولا يزال التقبيل مستمراً.. إنها قبلات رجل مشتاق لا قبلات عاشق كان في غرفة النوم منذ أقل من نصف ساعة.. وخيل إليه أن صوت القبلات يدوي دوي القنابل. لا بد أن هذا مجدي باشا رقم اثنين. من يعلم، فقد يكون هناك رقم ثلاثة، ورقم أربعة، ورقم تسعة.. ملكة الإغراء في حاجة إلى آلة حاسبة لتحصي عدد عشاقها!

إن ما جرى له الليلة هو ذنب زوجته خديجة.. إنه أول يوم في حياته فكر في أن يخونها.. هذا يؤكد أنه ظلم خديجة عندما توهم أنها خانته. القدر أراد أن يعاقبه على هذا الاتهام الظالم فوضعه في هذ الورطة. هو الذي وضعه في الدولاب ليسمع بأذنيه الخيانة الحقيقية من المرأة التي قالت له منذ دقائق أنها تحبه.. ولعن نفسه، ولعن اليوم الأسود الذي عاد فيه إلى شارع أبو الفداء!

□□□

وسمع ضحكة عالية تطلقها سلوى.. ضحكة مزقت قلبه.. إن هذه امرأة فاجرة فعلاً.. لا تخجل من أن تظهر بهذه الصورة الماجنة المستهترة، وهي تعلم أنه يتعذب في داخل الدولاب، كأنها تعتبر مهلة العام التي طلبتها هي رخصة لها لترتكب أمامه كل الخطايا وكل الموبقات!

وتتبع عبدالمتعال الحديث الهامس الذي يجري في غرفة النوم، فلاحظ أن نداء «يامنير» يتردد. إنه ظلم سلوى. هذا الرجل ليس مجدي باشا الأول ولا مجدي باشا السابع عشر، إنه الدكتور منير وهبي شقيق سلوى..

وندم عبدالمتعال على أنه اتهمها ظلماً وعدواناً . . وندم على أنه ترحم على زوجته خديجة بناء على أسباب غير صحيحة.

واستراح لهذا الاكتشاف الجديد . .

وفجأة انطلقت من سلوى ضحكة عالية مجلجلة . . ضحكة أكثر إثارة من الضحكة الأولى . . لا يمكن أن يكون منير هذا شقيق سلوى . . هذا اسم شائع ، ممكن أن يكون منير آخر غير منير وهبي . . ممكن أن يكون هذا المنير يحمل نفس الاسم الأول لشقيقها، بل ممكن أن يكون منير وهبي هذا ليس شقيقها أصلاً . إنه عشيقها وليس شقيقها برغم أنه يحمل اسم (وهبي) . . . والدليل على ذلك أن سلوى اعترفت له أن اسمها الأصلي «سلوى وهبه» وأن المخرج المسرحي هو الذي أبدل اسمها الى «سلوى وهبي» لأنه اسم موسيقي ! ولكن ما حاجة الدكتور منير وهبة إلى اسم موسيقي في إمارة «شولح» ! !

وشعر عبدالمتعال بذل غريب في موضعه داخل الدولاب ، وأحس برغبة في أن يحطم باب الدولاب ، ويخرج أمام العشيق الجديد بالقميص والكلسون . . شعر برغبة في أن يذل سلوى كما أذلته ، أن يعريها من ملابسها كما عرته من جلبابه . . شعر بالعرق يتساقط من جسمه . .

وتساءل هل هذا العرق من الجو الخانق داخل الدولاب ، أم هو عرق الخجل من الموقف المخزي الذي يقفه في غرفة نوم غانية؟

كيف فقد عقله وصدق غانية صناعتها أن تكون ملكة الإغراء؟ كيف يخفق قلبه بحب هذه الممثلة الساقطة بعد أن ملأ قلبه حب

صاحبة الصون والعفاف خديجة هانم أفندي كريمة مراد بك حسين سكرتير عام وزارة الأشغال؟

العامان اللذان أمضاهما في السجن لم يجعلاه يفقد كرامته فقط، بل فقد التمييز بين الخطأ والصواب، بين الفضيلة والرذيلة، بين العفة الغالية والهوى الرخيص.

لقد غضب وثار لأن خصومه اتهموه كذباً بأنه عشق الراقصة كاميليا، وها هوذا يتبنى التهمة الكاذبة ويحتضنها ويسعى ليكون عشيق الممثلة سلوى وهبي..

هل أصيب بالعدوى من ظالميه، وبدأ، بغير وعي، يظلم هو نفسه؟.

كان يلعن نفسه لأن ظالميه اضطروه أن يعترف بجريمة لم يرتكبها.. وها هوذا اليوم يرتكب نفس الجرائم، يرتكب أشنع منها، يصبح قواداً لغانية!

ما الفرق بينه وبين زوج العاهرة التي لا تتردد في أن ترتكب الإثم أمام قوادها واثقة أن من مصلحته أن يسكت وأن يغمض عينيه، وأن يكتم أنفاسه وهو تحت السرير، حتى لا يسمع أنفاسه الزبون النائم فوق السرير!

□□□

وفجأة سمع صوت الحوار يرتفع وأنصت من جديد سمع منير يقول:

- ما الذي جاء ببذلتي إلى هنا؟

قالت سلوى:

ـ أردت أن أنظفها قبل أن أرسلها إلى المكوى.

ـ هذه بذلة غالية.. وأخشى أن يفسدها المكوجى.

ـ سوف أكويها بنفسي!

ـ إن لها طريقة خاصة للكي.. يجب أن تضعي فوقها ملاءة بيضاء حتى لا يضيع اللمعان منها!

ـ أنت تعشق هذه البذلة كأنها امرأة جميلة!

ـ إنني أفضل أن أفقد أي امرأة على أن أفقد هذه البذلة!

ـ حتى ولو أنا؟

ـ أنت لست امرأة.. أنت أختي!

ـ وماذا كنت تفعل لو جاء لص وسرق هذه البذلة؟

ـ كنت أضربه بالرصاص!

ـ ترتكب جريمة قتل من أجل بذلة!

ـ المصنع الانجليزي الذي صنع هذا القماش لم يصنع سوى قماش لسبع بذلات.. الأولى اشتراها ملك انجلترا، والثانية اشتراها المليونير روكفلر، والثالثة اشتراها المليونير فورد، والرابعة اشتراها السنيور مالوني ملك تهريب المخدرات، والخامسة اشتراها الممثل المشهور أدولف منجو ملك الأناقة والبذلتان الباقيتان اشتراهما أمير (شولح) فاحتفظ بالبذلة السادسة وأعطاني البذلة السابعة!

ـ وهل يرتدي أمير شولح بذلة؟

ـ إنه يرتدي العباءة والعقال!

ـ ولماذا اشترى البذلة؟

ـ إنه أصبح من أغنى أغنياء العالم.. وكلما سمع عن شيء ثمين اشتراه..

ـ حتى ولو لم يكن في حاجة إليه؟

ـ تصوري أنه اشترى تليفزيوناً مرصعاً بالذهب بعشرة آلاف جنيه.. وليس في إمارة شولح محطة تليفزيون، ولا يستطيع أن يلتقط أي محطة تليفزيون في العالم!

ـ يظهر أن أمير شولح يحبك فعلاً!

ـ إنه قربني عندما غيرت اسمي من الدكتور منير «وهبه» إلى الدكتور منير «وهبي»!

ـ لأنه عرف أنك أخي؟

ـ إنه لم ير شريطاً سينمائياً طوال حياته!

ـ لماذا فرح لأنك غيرت اسم «وهبة»؟

ـ لأنني علمت قبل سفري إلى هناك أن أحد المشايخ الذين كانوا ينازعونه على عرش الإمارة كان اسمه «الشيخ وهبه»... وعندما علم أمير شولح بما فعلته اعتبر هذا دليلاً على إخلاصي ووفائي فاختارني طبيباً خاصاً له!

ـ لا بد أنك مليونير الآن!

ـ المليونير هو ساحر الأمير الخاص!

ـ هل يؤمن الأمير بالسحر؟

ـ لا يقدم على خطوة إلا إذا استشار الساحر!

ـ وإذا مرض؟

ـ استشار الساحر أولاً!

ـ وماذا تفعل أنت؟

ـ أقدم الأدوية للساحر فيقدمها للأمير!

ـ وكيف رضي الساحر بأن تصبح طبيب الأمير الخاص؟

ـ عندما قبلت أن أكون «صبي» هذا الساحر.. إنني قادم الآن من باريس، وقد اشتريت آخر ما وصل إليه الطب في مرض السكر، وسوف أسلم الأقراص للساحر ليقرأ عليها التعاويذ والتراتيل والأدعية ويقدمها للأمير!

ـ فهمت الآن لماذا سموها إمارة شولح!

ـ إن شولح هو اسم الجزيرة..

□□□

وفرح عبدالمتعال عندما استنتج من الحوار أن الدكتور منير وهبي هو شقيق سلوى وليس عشيقها، فهم لماذا استبدل اسمه. ولكنه فرح أكثر وأكثر عندما علم أنه ارتدى لبضعة أيام نفس البذلة التي يرتديها ملك انجلترا، والمليونير روكفلر والمليونير فورد والممثل أدولف منجو، وأمير شولح.

ولم يعد يكره بذلة الدكتور منير وهبي. أصبح يتمنى أن يرتدي البذلة لمدة خمس دقائق فقط، ليقبل سلوى وهو في هذه البذلة الثمينة الفريدة.. سوف تكون القبلة أطعم وهو في هذه البذلة..

وأحس بسعادة غامرة. أحس بأن الدولاب الضيق أصبح جنة واسعة!

وعاد عبدالمتعال يتتبع باقي الحوار وسمع الدكتور منير يقول لسلوى:

ـ عندي مفاجأة لك من باريس!

ـ عطر جديد؟

ـ لا . . اشتريت لك ثلاثة فساتين من محل كريستيان ديور . . إنها آخر صيحة في الموسم الجديد . . إنك سوف ترمين كل فساتينك عندما ترين هذه الأثواب الرائعة .

ـ إنني أنفق ثروة على فساتيني كل عام . أدفع أحياناً ثلثمائة جنيه في الفستان!

ـ ثمن كل فستان اشتريته لك هو أربعمائة جنيه!

ـ لا أستطيع أن أنتظر حتى أرى الفساتين الجديدة!

ـ سوف أرى أولاً فساتينك القديمة!

ـ دعني أرى الفساتين التي جئت بها أولاً!

ـ لن تعرفي قيمتها، إلا إذا وضعتها بجوار فساتينك التي صنعتها في مصر!

ـ أنا مقتنعة بذوقك!

ـ أريد أن أقتنع أنا أولاً .

واتجه الدكتور منير نحو دولاب ملابس سلوى ليفتحه . .

الفصل الخامس عشر

أغمي على سلوى قبل أن يصل شقيقها إلى الدولاب الذي اختفى فيه عبدالمتعال. جحظت عيناها. تشنجت أطرافها. تصلبت عضلاتها. وقف الدكتور منير وهبي مشدوهاً. وهو يرى سلوى تحولت فجأة إلى شبه جثة هامدة، نسي الفساتين التي اشتراها من باريس. أخذ ينادي الخادمة هدى بأعلى صوته كالمجنون. يطوف حولها في ذهول وكأنه نسي كل ما تعلمه في كلية الطب عن طرق الإسعاف..

وأقبلت هدى تعدو على صراخه، وما كادت ترى سيدتها ممددة على الأرض، حتى لطمت خديها وصرخت مولولة باكية، وراحت تندبها في كلمات كالعويل: يا خسارتك يا ستي يا شبابك يا ستي! يومي أنا قبل يومك يا ستي!

ونهرها الدكتور منير في عصبية وقال: حقنة كورامين!

ووقفت هدى مسمرة في مكانها، ولم تفهم ماذا يقصد الدكتور، وعاد الدكتور يكرر كالمسعور «حقنة كورامين»!

لم تتحرك هدى وعادت تلطم وجهها من جديد. وشدها الدكتور منير من كتفها وقال لها: ألا يوجد هنا حقن كورامين؟..

واستطاعت الهزة العنيفة في كتف هدى أن تعيد لها حاسة السمع فقالت: لا يوجد عندنا حقن هنا!

وقال الدكتور منير سأذهب بنفسي وأجيء بحقنة كورامين من صيدلية الزمالك. وقالت الخادمة أن صيدلية الزمالك لا تفتح أبوابها إلا في الساعة الثامنة صباحاً. وغادر الدكتور الغرفة وهو يقول وكأنه يحدث نفسه: سأذهب إلى صيدلية الإسعاف المسافة لن تستغرق أكثر من خمس دقائق!

ولم يستطع عبدالمتعال من داخل الدولاب أن يتبين ما يجري في غرفة النوم. كان في طريقه لأن يغمى عليه عندما سمع الدكتور منير يقول إنه سيفتح بنفسه دولاب الفساتين. ثم سمع سقوط جسم على الأرض، وصراخ الدكتور منير، وعندئذ عدل عن أن يغمى عليه، ومضى يسترق السمع ليعرف ماذا يجري أمام الدولاب.

وتنفس الصعداء لأن الدكتور لم يفتح الدولاب. ولكنه شعر بفزع أكبر عندما سمع الخادمة هدى تلطم وجهها، وتتحدث عن سلوى وكأنها هي الأخرى، انتقلت إلى رحمة الله.

وكان عبدالمتعال يتمزق بين خوفين: الخوف على سلوى، والخوف من أن يراه الدكتور منير بالقميص والكلسون.. أحس في هذه اللحظة أنه يحب سلوى أكثر مما أحبها في أي وقت مضى حتى وهي راقدة بجواره في قميص نومها الشفاف. وأحس في نفس الوقت، بأنه يكاد يموت من الرعب.

فماذا سيحدث له إذا ماتت سلوى فعلاً؟ سوف يغطونها بملاءة بيضاء. سوف يقفلون عليها باب غرفة النوم إلى أن تجيء المغسلة

التي ستقوم بغسلها، والحانوتي الذي سيتولى وضعها في النعش.. الجنازات في العادة تشيع في الساعة الرابعة بعد الظهر، حتى لا تبقى الجثة وقتاً طويلاً فتتعفن.. الساعة الآن حوالي الرابعة صباحاً، ومعنى ذلك أنه سيبقى مسجوناً داخل الدولاب ١٢ ساعة كاملة.. سوف يعيش طوال هذه المدة في رعب مخافة أن يفتح أحد دولاب ملابس سلوى ليختار منها بعض الأقمشة الغالية لتكون كفناً لها!

ماذا سيفعلون به إذا وجدوه داخل الدولاب بالقميص والكلسون؟ شاهدته الوحيدة على أنه بريء ماتت.. لم تبق إلا الخادمة هدى، التي أنكرته وسيدتها على قيد الحياة، ولا بد أن تنكره وهي في عداد الأموات!

سيقولون أنه لص، جاء يسرق امرأة ميتة... انتهز فرصة المأتم فلم يحترم جلال الموت، وانقض على غرفة نومها ليسرق ملابسها.. وسينهالون عليه ضرباً وصفعاً.. سيسلمونه إلى الشرطة. ستضعه الشرطة في السجن.. سينهالون عليه في السجن ضرباً وصفعاً حتى يعترف أنه حرامي.. سيعود إلى الحلقة المفرغة من جديد. إلى الباشجاويش عبدالجبار!

ليته ابتلع كل أقراص المنوم.. لماذا خلع الجلابية المخططة؟ لقد كانت فيها أنبوبة الأقراص المنومة.. لو كان لا يزال يرتديها لابتلع الأقراص وتخلص من الفضيحة والسجن.

ثم أحس عبدالمتعال بنوبة احتقار لنفسه.. يا له من رجل أناني ينسى المرأة الميتة ويفكر في نفسه.. إن موت سلوى معناه أنه فقد القشة التي يتعلق بها في بحر الحياة. معناه أنه سيفقد سنده

الوحيد.. معناه أنه سيحرم من المرأة التي عوضه حبها عن حب زوجته خديجة.. معناه أنه سيتشرد في الشوارع هائماً على وجهه لا يملك مليماً لأنه نسي الورقة ذات العشرة الجنيهات في جيب الجلابية المخططة.. ما قيمة الحياة بعد سلوى!؟

وقطع صوت ضحكة مجلجلة عليه الصمت المخيم.. وسمع هدى تقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. هل عدت إلى الحياة يا ست سلوى؟

- إنني لست سلوى!

- من أنت؟

- أنا عفريت سلوى!

واصفر وجه الخادمة هدى من الرعب، وبصقت في عبها لتطرد الشياطين، واستعاذت من الشيطان الرجيم.. وسمعت الصوت يقول لها:

- أنا لم أمت يا هدى..

- أنا رأيتك بعيني... رأيت عينيك جاحظتين، وأطرافك مشدودة، والدكتور منير بنفسه أمسك بنبضك ثم بدا عليه الذعر!

- كنت أمثل!؟

- تمثلين؟

- ألا تعرفين أنني ساره برنار الشرق؟ إن مهنتي تجعلني أستطيع أن أمثل كل موقف حتى موقف الموت.. لو جئت وشاهدتني على المسرح في دور مرجريت جوتييه في مسرحية «غادة الكاميليا» لتأكدت أنني مت حقيقة.. ولرأيت بنفسك المئات من الرجال

والنساء وقد تورمت أنوفهم من البكاء . .

ـ ولكنك خدعت الدكتور منير وهو طبيب!

ـ **هذا نتيجة اندماجي في التمثيل!**

ـ لماذا فعلت هذا!

ـ **لأمنعه من أن يفتح الدولاب الذي خبأت فيه عبدالمتعال.**

ـ ألا يزال في الدولاب؟

ـ **سوف أفتح له الدولاب قبل أن يختنق!**

وتقدمت سلوى نحو الدولاب، وفتحت الباب وصرخت فزعة. . وأسرعت هدى نحو الدولاب وهي تقول في رعب:

ـ ماذا حدث؟

ـ **أغمي على عبدالمتعال!**

ـ ربما هو يمثل أيضاً!

ـ **إنه يجهل التمثيل. . إنه مغمي عليه فعلاً!**

ـ إذن ننتظر حتى يجيء الدكتور منير بحقنة الكورامين!

ـ **هل جننت؟ هل تريدين أن يراه الدكتور منير هنا بالقميص والكلسون؟**

ـ إذن ماذا نفعل!

ـ **نضعه داخل جلابيته المخططة!**

ـ إنني وضعتها في غرفته فوق السطوح. . سوف أذهب لإحضارها!

ـ **لا وقت عندنا. . فلنضعه داخل بذلة الدكتور منير!**

وتقدمت سلوى وهدى، وحملتا عبدالمتعال من يديه وساقيه، من داخل الدولاب، ووضعتاه على الأرض!

ثم تعاونت الاثنتان على وضعه داخل البنطلون وداخل الجاكتة. وأحضرت سلوى زجاجة كولونيا وأفرغتها فوق رأسه، وبقرب أنفه، وتولت هدى تدليكه، وهزه، ولما لم يتحرك دفعته هدى بيدها في بطنه دفعة قوية!

وفتح عبدالمتعال عينيه، وأدار رأسه وقال لسلوى:

ـ أين أنا؟

ـ في الآخرة يا عبدالمتعال!

ـ في النار!؟

ـ لا في الجنة!

ـ ماذا تفعلين في الجنة يا سلوى؟

ـ صدر عفو عام على سكان النار!

ـ لم يبق في النار أحد ؟

ـ لا يزال هناك الباشجاويش عبدالجبار وجميع أصدقائك من حراس السجن!

ـ يعذبونهم في النار!؟

ـ لا.. عينوهم في وظائف زبانية.. لأنه تبين لحارس جهنم أنهم ألعن من الزبانية!

ـ الحمد لله أننا في الجنة!

ـ ولكنهم يصرون في الجنة على أن اسمك جرجس بطرس!

ـ مستحيل! مستحيل!

ـ للأسف حتى هنا يعتمدون على السجلات الحكومية الموجودة في الدنيا!

ـ هذا ظلم! لقد توقعت أن أجد العدل هنا!

ـ هذا ما قلته لرضوان.. حارس الجنة.. ولكنه قال أن اسم

عبدالمتعال محجوب موجود في سجلات النار واسم جرجس بطرس موجود في سجلات الجنة!

ـ كيف حدث هذا؟

ـ يظهر أن جرجس بطرس هذا لم يرتكب ذنوباً!

ـ وهل ارتكبت أنا ذنوباً!؟

ـ ربما أدخلوك النار لأنك ظلمتني عندما تصورت أن شيئاً حدث الليلة بيني وبين مجدي باشا الأسيوطي!

ـ ولكني اقتنعت ببراءتك!

ـ إن بعض الظن إثم.. يكفي أن تظلم إنساناً بفكرك لترتكب إثماً!

ـ وظلمت خديجة أيضاً!

ـ إن حارس الجنة لم يذكر أسماء.. كل ما قاله ان عبد المتعال محجوب دخل النار لأنه ظلم إنساناً بريئاً!

ـ لماذا لم تدافعي عني؟

ـ لو دافعت عنك لاتهمت نفسي!

ـ هذه مصيبة أن أحمل اسماً مزوراً في الدنيا والآخرة!

ـ عودتك إلى اسمك الحقيقي.. ستعيدك إلى جهنم!

ـ سوف أبقى في الجنة باسم جرجس بطرس، وأمري لله!

وتلفت عبدالمتعال إلى نفسه فوجد أنه داخل بذلة الدكتور منير الأنيقة، وتحسس البذلة في سعادة وقال:

ـ هل يرتدي الرجال هذه البذلة الغالية في الجنة؟

ـ إنها بذلة الدكتور منير!

ـ بذلة الدكتور منير؟

ـ نعم!
ـ وهل هو في الجنة؟
ـ طبعاً!

وهنا أغمي على عبدالمتعال من جديد، وأسرعت سلوى تجيء بزجاجة كولونيا وسكبتها عليه، حتى استعاد وعيه،

وأفاق عبدالمتعال من جديد وبدأ يخلع جاكتة البذلة، فصاحت سلوى محتجة:

ـ ماذا تفعل؟
ـ أخلع بذلة الدكتور منير!
ـ وماذا ترتدي!
ـ الجلابية المخططة!
ـ إنها ليست هنا..
ـ يجب أن تحضروها فوراً!
ـ أنسيت أنك في الآخرة، وقد تركنا الجلابية المخططة في الدنيا!
ـ سأذهب إلى الدنيا وأحضرها!
ـ لو كنت مكانك لما فعلت هذا!
ـ ما هو الضرر؟
ـ الضرر أنك سوف تطلب (تأشيرة) لدخول الجنة من جديد، وقد يطلب منك بواب الجنة الوثائق والمستندات، وعندئذ يكتشف أنك عبدالمتعال ويضعك في النار!

ـ كنت أتصور أن الفرق بين الدنيا والآخرة، أن الآخرة ليس فيها تأشيرات دخول وخروج!

ـ لك حق، ولهذا يؤسفني أن أقول لك أنك ما زلت على الأرض!

ـ على الأرض؟

ـ نعم، على الأرض!

ـ يعني أنني لست في الجنة؟

ـ في غرفة نومي فقط!

ـ وهل هذا وقت مزاح؟

ـ أردت أن أرفع روحك المعنوية، بعد أن أغمي عليك لأنني مت!

ـ لم يغم علي لأنك مت.. بل أغمي علي عندما عدت إلى الحياة!

ـ ما أعجبك من عاشق رومانسي!

ـ لقد تعهدت لك بأن أكون صادقاً دائماً!

ـ ولماذا أغمي عليك عندما عدت للحياة!

ـ لأن الموت هو شيء عادي يحدث كل يوم، أما الشيء العجيب فهو البعث بعد الموت!

ـ ولكنني لم أمت لأبعث.. كنت أمثل، وأمثل فقط..

ـ ولهذا أغمي علي!

ـ كنت أتصور أنك ستصفق لي، لا أن يغمى عليك!

ـ قلت لنفسي إذا كنت تستطيعين أن تمثلي الموت بهذه العبقرية فأنت قادرة على أن تمثلي الحب بنفس العبقرية!

ـ المرأة قادرة على أن تمثل دائماً إلا عندما تحب!

ـ كيف أستطيع أن أتأكد أنك تحبينني؟

ـ ليتك استطعت أن تراني عندما تقدم منير نحو مقبض الدولاب الذي كنت أنت مختفياً فيه. لقد شعرت برعب لم أعرفه طوال حياتي؟

- **كنت خائفة على نفسك!**

- كنت خائفة عليك أنت. . أخي غيور جداً وعصبي جداً وعندما يغار علي ينقلب كالوحش الضاري لا يعرف ماذا يفعل!

- **كنت سأعترف له بالحقيقة كلها!**

- قبل أن تفتح فمك يكون قد قتلك!

- **هل يحمل مسدساً!**

- المسدس لا يفارق جيبه!

- **ما الذي أوقعك في هذا الأخ؟**

- نحن لا نختار أشقاءنا وإخوتنا!

وسمعت سلوى رنين جرس متواصلاً. . واندفعت الخادمة هدى إلى الغرفة تقول في رعب: سيدي منير بك هو الذي يدق الجرس!

- انتظري الآن ولا تفتحي الباب، قبل أن أخبىء عبدالمتعال.

وشحب وجه عبدالمتعال وقال في صوت متهدج من الرعب:

- **تاني!**

- اختبىء بسرعة!

- **أين أختبىء؟**

- في الدولاب. . كالعادة!

- **لا يمكن أن أدخل في هذا الدولاب الملعون. دعيني أقفز من النافذة!**

- أنت نسيت أننا في الطابق السادس؟

- **وأنت نسيت أن في جيبه مسدساً.**

- إذن، ابق مكانك.

ـ وبذلته التي أرتديها!
ـ عليك أن تمثل أنك مغمى عليك!
ـ أنا لا أعرف التمثيل!
ـ هذه فرصة ذهبية لتتعلم التمثيل!
ـ وأي فرصة ذهبية!
ـ كل ما هو مطلوب منك أن تغلق عينيك، وتنام على ظهرك وتجعل جسمك يتخشب!
ـ مستحيل أن أفعل هذا!
ـ سأقبلك إذا فعلت هذا!
ـ هذه المرة يجب أن يكون الدفع سلفاً!

ومالت سلوى على عبدالمتعال وأحاطت رأسه بذراعيها، وأطبقت بشفتيها فوق شفتيه، وطبعت قبلة طويلة طويلة طويلة.. وترنح عبدالمتعال، وتمدد على الأرض وهو يقول في نشوة:

ـ الآن أنا مستعد أن أموت.. بل إنني مت فعلاً:
وابتسمت سلوى وقالت لهدى المدهوشة:
ـ والآن افتحي الباب... ولا تقولي شيئاً للدكتور منير...

□□□

اندفع الدكتور منير إلى داخل غرفة نوم سلوى، وتوقف مذهولاً وهو يقول:
ـ كيف أفقت من الإغماء بهذه السرعة! هل وجدت هدى كورامين عندك؟
ـ أفاقني دواء جديد اسمه الشيخ عبدالمتعال؟
ـ هل هذا دواء مصري جديد!

ـ إنه هذا «الولي» الذي أمامك؟
ـ هل هو مغمى عليه؟
ـ كلا.. إنه في غيبوبة روحانية!
ـ لا تصدقي هذه الخرافات.. أنت فتاة متعلمة!
ـ كيف لا أصدق وهو الذي أنقذ حياتي!
ـ ماذا فعل؟
ـ فوجئت به هدى يطرق الباب، وتصورت أنه أنت قد عدت بحقنة الكورامين، وإذا بها ترى الشيخ عبدالمتعال أمامها يقول لها: إن صوتاً غريباً هتف بي وقال لي أسرع إلى بيت سلوى وهبي. إنها تموت.. ودخل إلى غرفتي وقرأ تعويذة فوق رأسي ثم قبلني!
ـ قبلك!
ـ نعم، قبلني على شفتي!
ـ إنه ليس شيخاً من الأولياء الصالحين.. إنه شيخ دون جوان!
ـ ما كاد يقبلني حتى أحسست بأنه يودع في فمي روحاً جديدة.. أحسست في فمي بتيار ساخن غريب.. وفتحت عيني ورأيته أمامي. ولم أصدق أنه أغمي علي إلا عندما أكدت لي هدى أنه أغمي علي فعلاً، وأنك أسرعت إلى الصيدلية لشراء كورامين!

ومد الدكتور منير يده ولمس يد عبدالمتعال المسجى على الأرض ثم قال:

ـ إنه يرتعش.. كل جسده يرتعش!
ـ هذه هي حالته عندما يكون في حالة غيبوبة روحية!
ـ إنه يرتدي بذلتي!

ـ لقد أنقذ حياتي. . ولم أجد أمامي ما أكافىء به صنيعه إلا هذه البذلة!

ـ إنها بذلة ثمنها أكثر من مائتي جنيه استرليني!

ـ ألا تظن أن حياتي تساوي أكثر من مائتي جنيه استرليني!

ـ أجر أعظم طبيب في العالم لا يزيد على مائة جنيه!

ـ لم أجد أمامي إلا فساتيني وبذلتك، ولهذا أعطيته بذلتك!

ـ أراهن أنه رجل أفاق، نصاب محتال. . أنا أعرف جيداً هؤلاء المحتالين!

ـ إذا كان محتالاً فكيف أنقذ حياتي

ـ بالصدفة. . لم ندرس في كلية الطب أن تعويذة أو قبلة تنقذ إنساناً من إغماء.

ـ إنك تركت الكلية منذ سبع سنوات، ولا بد أن الطب تقدم خلال هذه المدة!

ـ لا تكوني جاهلة مثل أمير إمارة شولح!

ـ إنني لست جاهلة. إن هذا الرجل فيه شيء لله. . رجل مبروك. . اعتدت قبل أن أعرض أي فيلم لي أن أجيء له بالفيلم فيقرأ عليه تعويذة ويقبله، وإذا بالفيلم يكتسح جميع الأفلام، ويضرب أرقاماً قياسية في الشباك!

ـ هل يقبلك أنت. . أم يقبل الفيلم؟

ـ يقبل الفيلم. . أقسم لك بحياتك عندي أن هذه أول مرة يقبلني فيها!

ـ هذا كلام فارغ لا يدخل عقلي!

ـ يمكنك أن تجرب بنفسك!

ـ أنتظر حتى يغمى علي ويقبلني!

ـ لا . . إنه يستطيع أن يعرف من أنت وهـو مغمض العينين . . يستطيع أن يقول كل شيء عنك وهو يراك للمرة الأولى!!

ـ اسأليه أنت!

ـ يجب أن تسأله أنت!

ـ سوف أنتظره حتى يفيق من غيبوبته، وسأفضحه أمامك!

ـ يمكنك أن تسأله في هذه الغيبوبة، وهو يستطيـع أن يجيب على جميع أسئلتك!

ـ وإذا ظهر أنه دجال؟

ـ اضربه بالرصاص!

□□□

واتجه الدكتور منير نحو عبدالمتعال وقال له في صوت ساخر:

ـ من أنا يا شيخ عبدالمتعال؟

وأجاب عبدالمتعال في صوت مرتعش:

ـ أنت. . أنت الدكتور منير وهبي. . منير وهبه سابقاً!

ـ ما هي وظيفتي؟

ـ الطبيب الخاص لأمير شولح!

ـ ماذا في جيبي؟

ـ مسدس!

ـ هل أنا قادم من إمارة شولح؟

ـ لا. . أنت قادم من صيدلية. . كنت تشتري حقنة كورامين!

ـ أقصد أين كنت قبل أن أحضر إلى القاهرة؟

ـ كنت في باريس.

ـ ماذا فعلت في باريس؟

ـ اشتريت ثلاثة فساتين لسلوى!

ـ وماذا اشتريت أيضاً؟

ـ اشتريت أقراص دواء جديد لمرض السكر!

ـ كيف عرفت ذلك!

ـ كنت في الدولاب!

ـ الدولاب؟

وتقدمت سلوى لإنقاذ الموقف وقالت:

ـ يقصد الشيخ عبدالمتعال أن يقول أنه كان في الدولاب الذي كانت فيه أقراص الدواء!

وبدت الدهشة على الدكتور منير ولكن العلوم التي درسها جعلته بين مصدق ومكذب.. إنه قرأ كثيراً عن التنويم المغناطيسي واطلع على بحوث في قراءة الأفكار، وهو يعرف أن المنوم المغناطيسي يستعمل عينيه في التأثير على الشخص الذي أمامه، ولكن هذا الرجل الغريب لا يفتح عينيه، بل هو يقول كل شيء وهو مغمض العينين... أيكون يستطيع أن يرى من خلال جفونه المطبقة؟

وغيّر الدكتور منير موضعه، ووقف خلف رأس عبدالمتعال بحيث لا يراه وعاد يسأله من جديد:

ـ أنت تقول أنني اشتريت أقراصاً جديدة لعلاج مرض السكر؟

ـ نعم..

ـ من هو المريض الذي أنوي أن أعالجه بها؟

ـ أمير شولح!

ـ وطبعاً سوف أعطي الأقراص للأمير، لأنني طبيبه الخاص!

ـ لن تعطيه الأقراص.

ـ لمن أعطيها إذن!

ـ لساحر الأمير!
ـ كيف أعطي الأقراص لساحر الأمير ليعطيها للأمير، وأنا طبيب الأمير الخاص؟
ـ لأنك تعمل «صبي» للساحر.

وضرب الدكتور منير كفًّا بكف وقال لسلوى:
ـ إنه معجزة حقيقة!
ـ قلت لك ذلك..
ـ كيف اكتشفت هذا الكنز!
ـ وجدته فجأة يدق باب الشقة ويدخل.. ووجدته يعرف كل قطعة أثاث في الشقة.. ويعرف ثمنها.. ويعرف اسم المحل الذي اشترينا منه كل شيء في الشقة!
ـ هذا شيء غريب!
ـ اسأله عن أي شيء يخطر ببالك!

وتحرك عبدالمتعال. وفتح عينيه. خشي من أسئلة جديدة تفضح أمره، ووقف على قدميه!

ونظر الدكتور منير في تأثر إلى البذلة المكرمشة وقال:
ـ هل تعرف من هو صاحب هذه البذلة!
ـ أنت؟
ـ هل تعرف ثمنها؟
ـ هذا سؤال لا أجيب عليه. لأنني سمعتك أثناء غيبوبتي تقول أن ثمنها ٢٠٠ جنيه استرليني وأنا لا أحب أن أغشك بكلام سمعته بأذني.. أنا أثناء الغيبوبة أسمع بقلبي!
ـ هل تعرف من يرتدي هذا النوع من القماش؟

ـ **ملك انجلترا . . والمليونير روكفلر . . والمليونير فورد والممثل أدولف منجو . . وأمير شولح!**

ـ هذا يكفي . . أنت شيء خارق للعادة؟

ـ **الله يحفظك!**

ـ ما رأيك في أن تجيء معي إلى إمارة شولح؟

ـ **ماذا أفعل هناك؟**

ـ تكون ساحر الأمير . .

ـ **والساحر الموجود هناك؟**

ـ نطرده لأنه نصاب!

ـ **ولكنك تساعده!**

ـ لأنني لا أستطيع أن أنتصر عليه!

ـ **العلم لا يستطيع أن ينتصر على السحر؟**

ـ السحر الحقيقي ينتصر على السحر المزيف!

ـ **وهل تؤمن بالسحر؟**

ـ كنت لا أؤمن به إلى أن رأيتك!

ـ **دعني أفكر!**

ـ أريد أن أزورك، أين تقيم؟

ـ **قبري في شارع المأمون رقم ٧ بالإمام الشافعي!**

ـ تقيم في قبر؟

ـ **لا، أنا ميت هناك . . واسمي مكتوب على قبري. ويمكنك أن تذهب إلى هناك وتقرأ الفاتحة على روحي!**

ـ أنت تمزح!

ـ **أنا أقول الحقيقة . . ما أكثر الذين يكذبون الحقيقة، ولا يصدقون إلا الأكاذيب!**

ـ لم أسمع عن رجل حي وميت في وقت واحد .
ـ أنا!
ـ العلم أثبت أن هذا مستحيل!
ـ والحكومة أثبتت أن هذا ممكن؟
ـ إما أنك مجنون وإما أنا مجنون!
ـ يا أخي كلنا مجانين لأننا نبحث عن الحقيقة . .

الفصل السادس عشر

قالت سلوى، وهي تطبع قبلة على شفتي عبد المتعال:

- أصبحت الحكاية (رسمية)!

- قال:

- رسمية؟!

- إن منير لا يتحدث إلا عنك.. إذا لم يجدك في البيت سأل أين الشيخ عبد المتعال؟ إذا تأخرت في الحضور إلى هنا تساءل: لماذا تأخر الشيخ عبدالمتعال؟ إنه يعتبرك (تميمة البيت).. يتبارك بك، يقول أنك تجلب لنا الحظ!

- أجلب الحظ للناس.. وأجلب «النحس» لنفسي!!

- إنه يصر على أن يقبل يدك كلما رآك!

- أصبحت رجلاً محترماً عندما أصبحت نصاباً!

- أنت الرجل الذي أقسمت أن تكون صادقاً طوال حياتك!

- بعد أن قبلتني أنت على شفتي أصبح طعم كل شيء لذيذاً.. حتى الكذب!

- أخي مصمم على أن يأخذك معه إلى إمارة شولح.. ويقول أنه سوف يستطيع أن يجمع بواسطتك الملايين!

- بعد أن كنت نصاباً محلياً، سوف أصبح نصاباً عالمياً!

- سوف أفتقدك عندما تسافر!

ـ لن أسافر.
ـ لماذا لا تسافر؟
ـ لأنه يجب أن أحصل على تأشيرة خروج!
ـ لن يصدق منير هذا العذر!
ـ إنه الحقيقة!
ـ عندما تقول عند انصرافك أنك ذاهب إلى فوق.. يتصور منير أنك صاعد إلى السماء.. ولا يتصور أنك صاعد إلى فوق السطوح!
ـ يا له من ساذج!
ـ اعتقاده أن في استطاعتك أن تجعل منه مليونيراً هو الذي جعله ساذجاً.. لا تصنع المغفلين إلا أطماعهم!

ـ من سخرية القدر أن الساحر العظيم عاجز حتى الآن أن يثبت أنه على قيد الحياة.. يتصور الدكتور منير أنني قادر على أن أصنع خوارق الطبيعة الكبيرة، وأنا لست قادراً على أن أثبت حقيقة واحدة صغيرة!

ـ لأن الحقيقة أصبحت إحدى المعجزات!
ـ ولسنا في عصر المعجزات!
ـ ولكنك أجدت دور الساحر العظيم!
ـ ومع ذلك أكره هذا الدور!
ـ كيف تضيق بدور واحد تمثله.. وأنا أمثل مئات الأدوار؟!
ـ أنت ممثلة!
ـ كل رجل وامرأة في العالم يمثل.. هذه الدنيا مسرح كبير.. بعضنا يقوم بدور واحد، وأكثرنا يقوم بأدوار متعددة.. في كل واحد منا عدة شخصيات، كلها تمثل، شخصية في داخلك تقول كلاماً معيناً لشخص معين، وشخصية أخرى فيك تقول كلاماً

مختلفاً لشخص مختلف: الفم واحد والكلام يتغير. . اللسان واحد والآراء تختلف!

ـ قبل أن أذوق طعم قبلتك لم أكذب مرة واحدة في حياتي!

ـ هل كنت تقول رأيك دائماً؟

ـ كنت أقول الحق أو ما أعتقد أنه حق.

ـ وإذا لم تستطع!

ـ كنت أصمت!

ـ الصامتون عن الحق هم ثلاثة أرباع كذابين. . وهم أولئك الذين يؤمنون بالحكمة التي تقول إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. . إنهم يصمتون ليأكلوا ذهباً، بينما الذين يتكلمون تقطع ألسنتهم، أو يموتون من الجوع!

ـ أعرف أن الصامت عن الحق شيطان أخرس. ولكن خير لي أن أسكت عن الظلم من أن أصفق له!

ـ أغلب الذين يسيرون في مواكب الظالمين هم الصامتون!

ـ إنهم (أغلب) من الغلب، لا من الغلبة!

ـ المغلوب الصامت، يتحول إلى صفر إلى يمين الظالم. . يرفع من قيمته ويبقى هو صفراً دائماً!

ـ أنت حيرتني يا سلوى. . ساعة تريدين مني أن أكون صادقاً وساعة تطلبين مني أن أمثل وأكون كاذباً. . ساعة تريدين مني أن أصمت، وساعة تريدين مني أن أتكلم. .

ـ عندما تحب امرأة رجلاً تريد أن تصنع منه كل شيء!

ـ حتى أن يكون نصاباً!

ـ أنا لا أريد أن تكون نصاباً، أريد أن تبدأ حياة جديدة. كل

الأبـواب مسدودة أمـامـك هنـا. ولـديـك آلاف الفـرص في إمـارة شـولح. أريـد أن تنطلق إلى الآفـاق الجديـدة. تحصل عـلى الـثروة وتجيء إلى هنا لتسترد شرفك واسمك وسمعتك!

ـ ولهذا يجب أن أنصب. . لأجمع ثروة أشتري بها شرفي!

ـ أنت لن تنصب. . إنـك ستطرد السـاحـر النصـاب من إمـارة شولح، وتحتل مكانه!

ـ يجب أن أكون نصاباً كبيراً لأتغلب على نصاب صغير!

ـ أنت لن تكون نصاباً. . إنك ستمثل دور النصاب. .

ـ مـطلوب مني الآن أن أرتكب الجـريمـة التي سجنـوني ظلماً بسببها!

ـ إنك تفعل هذا في سبيل هدف سام يا عبد المتعال. .

ـ أهبط إلى الدرك، لأرتفع إلى القمة!

ـ إنني أريد أن تقف بقدميك على الأرض.

ـ كأن الطريق إلى الأرض يمر بمواسير المجاري!

ـ أنت تـرفض كـل اقـتراح أقـترحـه عليـك لتسـترد حقـوقـك المغتصبـة. . رفضت أن تستعـين بنفـوذ مجـدي بـاشـا الأسيـوطي، رفضت أن تسافر مـع منير إلى إمـارة شولـح، فماذا تـريد أن تفعـل لتعود نظيفاً من جديد!

ـ أن أمشي في طريق غير طريق مواسير مصلحة المجاري!

ـ ولكن كل الطرق أصبحت مواسير مصلحة المجاري.

ـ فرق أن يلقيني ظالم في ماسورة المجـاري وبين أن ألقي بنفسي فيها!

ـ الرجل الشريف لا تلوثه أقذار الدنيا!

ـ نقطة حبر سوداء تلوث بذلة ناصعة البياض!

ـ أنت لم تلوث بذلتك بهذه النقطة السوداء.. الذين ظلموك هم الذين لوثوا بذلتك!

ـ من الأسف أنهم لم يوقعوا بإمضاءاتهم تحت هذه البقعة السوداء!

ـ مهمتك أن تبحث عن الذين لوثوك.. بغير أن يوقعوا بإمضاءاتهم!

ـ هذا ما أنوي أن أفعله الآن!

ـ بغير أن تمر في المواسير؟

ـ بغير أن أمر في المواسير!

ـ إلى أين ستذهب؟

ـ إلى شركة مصر للبسكويت

□□□

خفق قلب عبد المتعال وهو يدخل شركة مصر للبسكويت كأنه عاشق يعود إلى حبيبة هجرته.. أحس بأنه اشترك في بناء كل حجر في هذا الصرح الشامخ، أحس بأنه يعرف كل طوبة.. بقايا أنفاسه ما زالت هنا.. عرقه اختلط بالأسمنت.. أعصابه احترقت مع وقود الآلات الضخمة، لقد رأى هذه الشركة وهي تحبو كالطفل، وعاش معها وهي تنمو وتكبر وتزدهر. في بعض الأحيان أحس بأنه الأم التي ترضع هذا الطفل. وفي أحيانٍ أخرى أحس بأنه الأب الذي يرعاها..

وتحسس بأصابعه الجدار وكأنه يتبارك به. وتمنى أن يقبل البلاط الذي كان يمشي فوقه.. واستطاع أن يلمح لوحة نحاسية ضخمة

تغطي حائط فناء الشركة مكتوباً عليها بالخط العريض الجميل (الأبطال والرواد الذين قامت شركة مصر للبسكويت على أكتافهم. قائمة الشرف).. وخفق قلبه!

اقترب بلهفة من قائمة الشرف، يبحث عن اسمه. لقد قام بجهود جبارة عندما كان مديراً لهذه الشركة.. لقد أعطاها حياته وشبابه ودمه وفكره.. ولم يجد اسمه بين الأبطال والرواد!

وأحنى رأسه في ذلة وانكسار. واعتذر بينه وبين نفسه عن الذين حذفوا اسمه من لوحة الشرف، بأنهم فعلوا ذلك عندما علموا أن صورة الراقصة كاميليا كانت في درج مكتبه كما ادعى المدير الجديد.. أو ربما حذفوا اسمه عندما اتهموه كذباً بأنه اختلس سبعة عشر ألف جنيه.

عاد عبد المتعال يقرأ أسماء الأبطال والرواد في لوحة الشرف. وهاله أنه لم يجد إسماً واحداً يعرفه.. كلها أسماء جديدة لم يسمع بها.. كأن الشركة أنشئت منذ عامين فقط لا منذ أربعين عاماً.. **وبحث عن اسم المرحوم جلال أبو السيد الذي أنشأ الشركة، ذلك العصامي الذي كان أول من بنى مصنعاً للبسكويت عندما كانت هذه الصناعة وقفاً على الأجانب في مصر فلم يجد لاسمه أثرا.. لا** بد أنهم وجدوا في درج مكتبه هو الآخر صورة فوتوغرافية للراقصة المشهورة شفيقة القبطية!

وهز رأسه في أسى وقال يواسي نفسه:

ـ لا أظن أن جلال أبو السيد حزين في قبره، إن عزاءه أن خوفو لم يكتب اسمه على أهرام الجيزة!

وبحث عن اسم المهندس النابغة ساويرس ميخائيل، ذلك العبقري الذي جدد في آلات الشركة حتى شهدت له الشركة الألمانية التي اشترينا منها آلات شركة مصر للبسكويت، بأنه جدد في صناعة البسكويت في العالم.. هل من المعقول أن يكون ساويرس رائداً لهذه الصناعة في العالم ولا يكون رائداً في شركة مصر للبسكويت؟ لا بد أن ساويرس الذي مات منذ عشرين عاماً قد ضبط بعد عشرين عاماً من وفاته متلبساً بحب سلطانة الطرب منيرة المهدية.

وعاد يبحث عن المهندس عباس الدمياطي الذي بنى مصنع الشركة في الاسكندرية، ومكث ثلاث سنوات ينام في العراء بجوار الآلات يحرسها، ويشرف على تركيبها حتى تم بناء المصنع وأصيب بالالتهاب الرئوي، ورفض أن ينقلوه إلى مستشفى المواساة، وأصر على أن يبقى بجوار الآلات، وتحول الالتهاب الرئوي إلى مرض مميت. ولفظ عباس أنفاسه الأخيرة، في اليوم الذي بدأت فيه مداخن الشركة تعلن بدخانها في الاسكندرية أن الشركة بدأت في الإنتاج.. لماذا حذفوا اسمه هو الآخر من قائمة الشرف؟ لا بد أنهم وجدوا صورة الراقصة بديعة مصابني في مكتبه، فقد ذهب مرة واحدة في حياته إلى صالة بديعة!

وأين اسم المهندس **ناصيف عبد المجيد** الذي بنى مصنع الشركة في أسيوط، وسجل أرقاماً قياسية في الإنتاج؟ وأين اسم **فايز الأبنودي** الذي فتح للشركة أبواب التصدير في أنحاء العالم، فأصبحت تبيع منتجاتها في البلاد العربية وآسيا وإفريقيا!!

صحيح أن كل هؤلاء ماتوا منذ سنوات، فهل ماتت معهم

مآثرهم وأعمالهم العظيمة، أم ان الأبطال هم الأحياء فقط، والمنسيين هم الأموات! إن الرجل يموت وتموت معه مفاخره، ولا تبقى بعده إلا صور الراقصات التي ادعوا أنهم وجدوها في مكتبه!

وتساقطت دمعتان من عينيه.. ومن خلال دموعه تطلع عبد المتعال في وجوه الداخلين والخارجين، من السعاة والموظفين، ودهش أنه لا يوجد بينهم وجه يعرفه.. ترى هل ضبطوا صور راقصات مع كل واحد من الموظفين القدامى، أم أن قنبلة هوت على بناء الشركة فلم تترك أحداً من موظفيها القدماء على قيد الحياة؟

وحملق في البناء فوجد أن عدد طوابق البناء كما هي. عشرين طابقاً كما تركها، ولم يضف الأبطال والرواد الجدد طابقاً واحداً أو نافذة واحدة في الصرح الشامخ الذي تركه منذ عامين..

واستقل المصعد إلى الطابق العشرين حيث مكتب المدير العام، ولم يعرفه عامل المصعد، لأنه عامل جديد. ولم يعرفه السعاة الذين يملأون الدهليز الطويل أمام غرفة المدير.. ودخل إلى غرفة السكرتارية ووجد سبع فتيات رائعات الجمال أنيقات، لامعات، فاتنات.. شعور شقراء وسوداء وحمراء.. وأحس بعدد من الروائح العطرية تملأ أنفه.

وتذكر عبد المتعال طموم أفندي سكرتيره الخاص ورأسه الأصلع، وجلد وجهه المشدود على عظامه البارزة، وبذلته السوداء التي يغيرها كل عشر سنوات ببذلة سوداء. وتذكر رائحة الملوخية التي تنبعث منه باستمرار، كأنه يفطر ملوخية، ويتغدى ملوخية، ويتعشى ملوخية، وينام في سلطانية ملوخية!

وتقدم عبد المتعال نحو سكرتيرة شقراء تضع على عينيها نظارة كبيرة تكاد تغطي نصف وجهها، وقال لها:

ـ أريد موعداً مع المدير العام.

ـ إسم سعادتك؟

ـ عبد المتعال محجوب مدير شركة مصر للبسكويت سابقاً!

وقفزت السكرتيرة من مقعدها، وقدمت في احترام مقعداً لعبد المتعال، وانطلقت إلى داخل غرفة المدير وهي تقول:

ـ دقيقة واحدة يا سعادة البيك!

وسر عبدالمتعال بهذا الاحترام، وسر أكثر بلقب سعادة البيك، وسر أكثر وأكثر بهذا الاهتمام الذي أحاطته به السكرتيرة الحسناء عندما قالت له وكأنها تتوسل «دقيقة واحدة» وكأنها تخشى على وقته الثمين أن يتبدد في هذه الدقيقة الطويلة!

وندم عبدالمتعال على أنه ضيع عدة أيام بغير أن يحضر إلى شركة مصر للبسكويت.. يا له من ساذج، لو أنه ذهب على الفور إلى الشركة التي كان مديرها لوفر على نفسه كل المتاعب التي صادفته منذ خروجه من السجن.. كان من الطبيعي أن يذهب فوراً إلى الشركة.. وفي دقيقة واحدة يستطيع أن يحل جميع مشاكله! وخيل إليه أن جملة «دقيقة واحدة يا سعادة البيك» التي نطقت بها السكرتيرة الشقراء الحسناء، ومظاهر الاحترام والاهتمام التي غمرته بها، أحدثت دوياً في غرفة السكرتيرات.. توقفت السكرتيرات الست الباقيات عن الأعمال التي يقمن بها. السكرتيرة السمراء توقفت عن مضغ التشيكلس التي في فمها وبلعتها.. والسكرتيرة ذات الشعر الأحمر توقفت عن تطريز البلوفر الذي تصنعه لحبيبها..

والسكرتيرة الطويلة القامة طوت الجريدة التي كانت تقرأها . . والسكرتيرة الدقيقة الحجم التي تشبه عرائس المولد أخفت المبرد الذي كانت تبرد به أظافرها . . والسكرتيرة التي تشبه قطعة القشدة توقفت عن العزف على الآلة الكاتبة . .

وأحس عبد المتعال بأن اثنتي عشرة عيناً تتجه الى الشخصية الخطيرة الهامة التي قيل لها «دقيقة واحدة يا سعادة البيك» . . شعر كأن دستة من العيون الفضولية تحيط به وتعريه من ملابسه . . ولاحظ أن عيون النساء تختلف في اهتماماتها!

إمرأة ما تكاد ترى رجلاً حتى تحملق في ربطة عنقه ، كأن الرجل هو كرافتته . . الرجل الغالي يحيط عنقه بكرافتة غالية ، والرجل الرخيص يحيط عنقه بكرافتة رخيصة . . ولعل هذا هو سبب اهتمام بعض الرجال برباط العنق .

وامرأة أخرى لا تكاد ترى رجلاً حتى تحملق في أصابع يده ، كأن المرأة بيانو تبحث عن أصابع تعزف عليها ، أو كأنها تكتشف الرجل من أظافر أصابعه ، فإذا كانت أظافره نظيفة فهو نظيف ، وإذا كانت متسخة فهذا دليل على أنه رجل حقير ، ناسية أن كثيراً من الأيدي القذرة تمثل نفوساً نظيفة!

وامرأة ثالثة يستلفتها أول ما يستلفتها شفتا الرجل . . من رسم الشفتين ترسم الرجل الذي أمامها . الشفتان من أهم ما يثير اهتمام بعض النساء في الرجل . هناك شفاه تقبل وكأنها تذوق ، وشفاه تقبل وكأنها تلتهم ، وشفاه متوحشة وشفاه مستسلمة ، شفاه شهوانية وشفاه بريئة . ومن الشفتين تخرج أحلى كلمات الحب وأروع مناجاة الهوى والغرام . بعض النساء يعتبرن أن الرجل هو شفتاه ، كأن في

الشفتين مفتاح شخصيته، فهي تدخل من شفتيه إلى قلبه، والطريق إلى قلوب النساء يمر دائماً بالشفاه!

وامرأة رابعة تنظر أول ما تنظر إلى عيني الرجل. . إن العيون قواميس نعرف منها معاني الكلمات الغامضة. وكثيراً ما تخدع عيون الرجال النساء. عيون صقر تخفي وراءها شخصية حمامة. عيون ملاك تكون قناع شيطان. عيون جائعة تعبر عن رجل متخوم. عيون زانية لا تجيد إلا الصلاة!

وامرأة خامسة تهتم ببذلة الرجل أكثر مما تهتم بالرجل الذي في داخل البذلة. . إنها المرأة التي تحب المظاهر. . التي يستهويها لون قماش بذلة الرجل أكثر مما يستهويها جلد الرجل. . يستهويها ما في جيب الرجل أكثر مما يستهويها ما في قلب الرجل!

وأحس عبد المتعال بأن السكرتيرة ذات الشعر الأحمر تنظر إلى بذلة الدكتور منير التي يرتديها بشبق عجيب. كأنها ترى أمامها رجلاً عارياً مثيراً. كأن البذلة هي التي ترتدي الرجل، وليس الرجل هو الذي يرتدي البذلة. . لاحظ أنها كانت تحملق في البذلة، وكأنها تمنت أن تجرده من هذه البذلة الغالية لتصنع منها «تايير». . أو بذلة أخرى لها!

وامرأة سادسة تقيس بعينيها الرجل من تحت الى فوق، وليس من فوق الى تحت. . وتنظر إلى لون شعره، تنظر إلى ساقه قبل أن تنظر إلى رأسه، تنظر إلى زرار البنطلون المفتوح قبل أن تنظر إلى عينيه المفتوحتين!

ترى، أي شيء فيه استلفت عيون السكرتيرات الست؟ لا شك في أن جملة «دقيقة واحدة يا سعادة البيك» كانت أجمل شيء فيه. .

«أهمية» الرجل تغني كثيرات من النساء عن «تفاصيل الرجل»!

المدير صاحب البطن الكبير يستهوي النساء اكثر من أحد ملوك جمال الأجسام إذا كان موظفاً في الدرجة السادسة!

المليونير الأصلع فيه جاذبية أكثر من المفلس ذي الشعر الطويل!

الرجل خفيف الدم بفك أعلى فيه ثلاث أسنان، يثير المرأة أكثر مما يثيرها الرجل ثقيل الدم الذي تشبه أسنانه عقداً من اللآلىء الثمينة!

الشعر الذي وخطه الشيب في شارب دون جوان، يهز المرأة أكثر مما يهزها شارب يقف عليه الصقر في وجه شاب مبتدىء!

أحس عبد المتعال بأن «سعادة البيك» كانت أشبه «بالجوكر» في ورق اللعب.. حلت مكان كل ما ينقصه من صفات الجمال!

وشعر بهناء غريب بعد أن أصبح محل اهتمام السكرتيرات الست، نفس الهناء الذي يحس به الديك عندما يجد نفسه في قفص الدجاج..

ووجد نفسه يقارن بين هؤلاء السكرتيرات الست الجميلات الفاتنات الشابات وبين سلوى.. ووجد أن سلوى تتفوق عليهن جميعاً. فيها شيء ليس موجوداً في هؤلاء السكرتيرات لا يعرف ما هو، ولكنه ذلك الشيء المجهول الذي تحس بأنه في داخل امرأة ولا تعرف ما هو..

كأن سلوى عدة نساء في امرأة واحدة، وكأن واحدة من هؤلاء السكرتيرات امرأة واحدة في امرأة واحدة.

أو كأن الله عندما وزع «الأنوثة» على النساء، حباها أحد الملائكة وأفرغ ما في زجاجة واحدة من الأنوثة في امرأة واحـدة، بينما كـانت هذه الزجاجة مخصصة لألف امرأة!

إنه يشعر بأن سلوى تقيم دائماً في داخل سرير. . تصحب هـذا السريـر وهي واقفـة وقـاعـدة، وهي تـأكـل وتمشي وهي تتحـدث وتضحـك. . أمـا هؤلاء السكـرتـيرات الست فهن يصحبن معهن «المكاتب» دائماً. . حتى في السرير!

□□□

ومضت دقيقـة. . ومرت خمس دقـائق. . وانقضى ربـع سـاعـة ونصف سـاعة. . ثم رأى السكـرتيرة الحسنـاء الشقراء تـدخل إلى الغرفة من باب آخر. .

وجلست السكرتيرة في مقعدها دون أن توجه إليه كلمة واحدة، كأنها تركت في الغرفة الأخرى الابتسامة، والاهتمام، والاحترام!

وانشغلت السكرتيرة بالكتابة على الآلة الكاتبة التي أمامها، دون أن ترفع رأسها، أو تلقي على «سعادة البيك» نظرة واحدة!

وانتهز عبد المتعال فرصة تغييرهـا الصفحة التي أتمتهـا على الآلـة الكاتبة وقال لها:

ـ يظهر أنك نسيت يا آنسة أنني طلبت موعداً مع المدير العام.

ولم ترفع السكرتيرة رأسها من الآلة الكاتبة، وقالت في احتقار:

ـ كلا. . لم أنس!

ثم عادت تستأنف الكتابة على الآلة الكاتبة من جديد!

ودهش عبد المتعال من هذه المعاملة الغريبة فقال في أدب جم:

- **هل حدد المدير العام موعداً؟**

- المدير العام غير موجود.

- **ولكني رأيتك تدخلين من باب غرفة المدير العام.**

- وكيف عرفت أن هذه هي غرفة المدير العام؟

- **لأنني كنت المدير العام منذ عامين.**

- هذا غير صحيح. إنك لم تكن مديراً عاماً في هذه الشركة!

- **هل قال لك هذا المدير العام؟**

- لم يقل شيئاً.. لأنه غير موجود.

- **ومن الذي قال لك أنني لم أكن مديراً عاماً؟**

- هذا ليس من شأنك!

- **لماذا تردين بهذه العصبية؟!**

- لأنك تدعي صفة ليست صفتك، وهذه جريمة في القانون، يعاقب عليها بالسجن!

- **حضرتك خريجة كلية الحقوق؟**

- نعم.. ولي الشرف!

- **أؤكد لك أن معلوماتك غير صحيحة!**

- وأؤكد لك أنك لم تكن مديراً عاماً لهذه الشركة!

- **من قال هذا؟**

- كل كبار موظفي الشركة الذين سألتهم لا يعرفونك ولم يسمعوا باسمك قبل الآن.

- **ومن هم كبار موظفي الشركة؟**

- عبد القادر بك عبد السلام نائب المدير العام لا يعرفك. عباس بك توفيق السكرتير العام لا يعرفك. عوني بك الشريف المراقب العام لا يعرفك.

ـ هذه كلها أسماء جديدة لم تكن موجودة أثناء إدارتي للشركة.

ـ قل لي إسماً واحداً يعرفك!

ـ من هو مدير الأرشيف؟

ـ إنه الأستاذ صابر كمال الدين.

ـ عال جداً.. إنني أعرفه جيداً وهو يعرفني جيداً، وقد عملنا معاً مدة عشرين عاماً.. يمكنك أن تسأليه عني!

ـ لقد سألته فقال إنه لا يعرفك!

ـ مستحيل أن يقول هذا!

ـ لم يقل هذا فقط، بل بحث بنفسه في ملفات الموظفين السابقين في الشركة، وقد جرت العادة أن نحتفظ بجميع ملفات الموظفين المفصولين، ولم يجد ملفاً باسمك.

ـ لا بد أنه فقد ذاكرته!

ـ إنه صاحب أقوى ذاكرة في الشركة بشهادة سعادة المدير العام!

ـ لا بد أنك أخطأت في ذكر اسمي.

ـ قلت أن اسمك عبدالمتعال محجوب.. أليس هذا هو اسمك؟

ـ نعم هذا اسمي!

ـ لا يوجد ملف في الشركة باسم عبدالمتعال محجوب.

ـ لقد كانت في هذا الملف شهادة ميلادي وشهاداتي الدراسية ودبلوم كلية التجارة... هذه مصيبة كبرى!

ـ ما وجه المصيبة؟

ـ ضياع شهادة الميلاد معناها أنني لم أولد بعد... وضياع شهاداتي الدراسية وشهادة دبلوم التجارة معناه أنني أمي لا أعرف القراءة والكتابة.

ـ هذا ليس من شأني!

ـ دعيني أقابل الأستاذ صابر كمال الدين مدير الأرشيف لأذكره بنفسي!

ـ رفض مقابلتك لأنه مشغول!

ـ ماذا أفعل الآن؟

ـ تنصرف!

ـ كيف أنصرف؟

ـ كما جئت.. إنك لم تكن موظفاً في هذه الشركة!

ـ كيف لا أكون موظفاً في هذه الشركة، والمدير العام قال للأستاذ جلال حمدي رئيس تحرير «الصباح الجديد» أنني اختلست سبعة عشر ألف جنيه من أموال الشركة.. إن سبب حضوري الآن أنني جئت أعيد للشركة المبلغ الذي اختلسته.

وقفزت السكرتيرة من مقعدها وهي تقول:

ـ إنتظر دقيقة واحدة!

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ إلى المدير العام لأبلغه هذا الخبر!

ـ ولكنك قلت أنه غير موجود!

ـ ما دام معك السبعة عشر ألف جنيه فهو موجود!

□ □ □

وانطلقت السكرتيرة مندفعة إلى غرفة المدير العام وابتسم عبدالمتعال ساخراً.. إن الطريقة الوحيدة ليستعيد اسمه، وليحصل على اعتراف بأنه على قيد الحياة أن يعترف بجريمة جديدة لم يرتكبها.. جريمة الاختلاس!

وبعد دقائق عادت السكرتيرة شاحبة الوجه وهي تقول له:

ـ المدير يقول إن أحداً لم يسرق من الشركة سبعة عشر ألف جنيه!

ـ أنا سرقت.. أنا اختلست أموال الشركة.. أنا حرامي!

ـ كيف تسرق من الشركة مع أنه ثبت أنك لم تكن في يوم من الأيام موظفاً فيها؟

ـ هل كل اللصوص الذين يسرقون من الشركات موظفون في هذه الشركات؟

ـ هذه هي القاعدة!

ـ قد أكون قفزت من نافذة الشركة وفتحت خزانتها بالأوكسجين وسرقت المبلغ!

ـ المدير يقول إن خبراء الحسابات قالوا أن حسابات الشركة مضبوطة ولم يسرق منها أي مليم!

ـ هل المدير مستعد أن يكتب إقراراً بأنني لم أسرق سبعة عشر ألف جنيه من الشركة؟

ـ إنني في دهشة من أمرك.. كيف يقول المدير بأنك بريء، وتجيء أنت تعترف بأنك لص؟

ـ أنا معترف بأنني لص مقابل أن يعترف بأنني على قيد الحياة!

ـ معنى ذلك أن تدخل السجن!

ـ هذه المرة لن أدخل وحدي؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ سيدخل معي المدير العام.. الذي سرق ملف خدمتي من أرشيف الشركة!

ـ كيف تجرؤ وتتهم سعادة المدير بأنه لص. في الوقت الذي يؤكد فيه أنك بريء؟

ـ الدليل على أنه لص أنه حذف اسمي من قائمة الشرف!

ـ هل كنت تريد أن يضع اسم لص في قائمة الشرف؟

ـ أخشى أن تكون هناك غلطة في عنوان القائمة. . لا بد أن هذه هي قائمة اللصوص لأنني لم أجد إسم شريف واحد من الذين عرفتهم وعملت معهم!

ـ إذا لم تخرج من هنا فسأطلب من الشرطة أن تجيء وتقبض عليك وتضعك في السجن.

ـ لم أعد أخاف من السجن. فأنا أعرفه جيداً!

ـ كنت مسجوناً؟

ـ خرجت من السجن منذ بضعة أيام. .

ـ إذن أنت مجرم!

وأحس عبدالمتعال بكلمة «مجرم» كأنها طعنة خنجر في قلبه. آلمته، صرعته، جعلته ينزف دماً، جعلته يتلوى وهو جالس في مكانه. .

لقد كان من ثوان فقط يدعي أنه لص، أنه مختلس. ولكن كان طعم الخنجر الجديد في يد السكرتيرة مختلفاً كأنها لم تطعنه بالخنجر فقط بل راحت تديره في قلبه. .

وقال لها وهو يتمزق:

ـ أنت صغيرة يا آنسة. . عندما تكبرين قليلاً فسوف تعلمين أن كل الذين في السجن ليسوا مجرمين، وليس كل الذين خارج السجن شرفاء!

وظهر الفزع على وجه السكرتيرة الحسناء! هذا الرجل يعترف بأنه كان في السجن. لا بد أنه مجرم خطير، قاتل سفاك. . اختفى

فجأة سعادة البيك في داخله، وأطلت في مخيلتها صورة رجل سفاح في فمه سكين!

وأسرعت إلى خارج الغرفة وهي تصرخ.. وأسرعت خلفها جميع السكرتيرات يصرخن، بغير أن يعرفن لماذا تصرخ..

بعد دقائق دخل أكثر من عشرين ساعياً، وانقضوا على عبدالمتعال يضربونه ويركلونه وحملوه إلى خارج غرفة السكرتيرات، واتجهوا به وهم يضربونه حتى درجات السلم وراحوا يدفعونه ويركلونه بأحذيتهم عشرين طابقاً!

ووصل إلى الطابق الأول.. وسقط والدماء تنزف منه تحت اللوحة النحاسية المكتوب عليها «الأبطال والرواد الذين قامت شركة مصر للبسكويت على أكتافهم. قائمة الشرف».

وتحسس عبدالمتعال كتفيه، ووجد آثار ضرب وركل العشرين ساعياً.

وحمد الله أن ليس بينهم أحد من الأبطال والرواد الحقيقيين الذين قامت شركة مصر للبسكويت على أكتافهم..

الفصل السابع عشر

لم يتألم عبد المتعال للجروح التي أصابت جسده على أيدي سعاة شركة مصر للبسكويت، بقدر ما تألم للقطع الذي أحدثوه في بذلة الدكتور منير التي يرتديها!

جروح جسده ممكن أن تلتئم ولكن ماذا يستطيع «الرفا» أن يفعل بهذا التمزق في البنطلون؟ قال الدكتور منير أن هذا القماش لا مثيل له في مصر، فكيف يستطيع الرفا أن يجد خيوطاً من هذا القماش يضمد بها جروح البنطلون؟

وتذكر المسدس الذي في جيب الدكتور منير فتضاعف فزعه.. لن يشفع له عند منير أنه وليّ الله الذي يعرف الغيب، ولا أنه الساحر العظيم الذي يقوم بالمعجزات.. سوف يسأله منير كيف لا يستطيع الساحر العظيم أن يعيد خيوط البنطلون، وهو القادر على أن يعيد أنصاف الموتى إلى الحياة!

وخطر بباله أن الحل الوحيد ليخفي هذا الخرق عن الدكتور منير هو أن يضع يده خلف ظهره ليخفي الجزء الممزق ومد ذراعه خلف ظهره، ولكن الخرق كان أوسع من كفه.. وعاد يفكر من جديد، وتذكر أن نابليون بونابرت كان هو الآخر يضع يداً خلف ظهره ويداً في صديريته.. ولا بد أن نابليون كان يخفي خرقاً في

الصديرية وخرقاً في البنطلون!

وقرر عبدالمتعال ألا يدير ظهره أبداً للدكتور منير. . وبهذه الطريقة لا يستطيع منير أن يرى الجريمة النكراء التي حدثت للبنطلون الأنيق الثمين!

ولعن السكرتيرة التي تشبه عروس المولد. إنها هي التي كانت تحدق في بذلته وهو جالس في حجرة السكرتيرة إنها حسدت البذلة. يقولون أن العين خرقت المنبر فهل كثير عليها أن تخرق البنطلون؟

وأيقظه من تأملاته في كارثة البنطلون صوت يصرخ ويقول: امشِ من هنا يا ابن الكلب. . وإلاّ جئنا بالشرطة لتطردك. .

وفتح عبد المتعال عينيه المتورمتين من الضرب، ونظر حوله في دهشة ليتبين أين هو، واكتشف أنه مكوم على نفسه، وملقى على الأرض، فوق الرصيف الذي أمام شركة مصر للبسكويت، بجوار صندوق القمامة، وحمد الله أن السعاة لم يلقوه في صندوق القمامة مع القاذورات!

وأحس بركلة قوية في ظهره، وسمع نفس الصوت يصرخ ويقول له: امش من هنا يا ابن الكلب. إنك توسخ رصيف الشركة!

واكتشف أنه هو ابن الكلب المقصود وهز رأسه في أسى لأن بواب الشركة الذي ركله يخاف على رصيف الشركة أن يوسخه، ولا يخاف على الشركة من صندوق القمامة الموجود أمامها، وصناديق القمامة التي في داخلها!

وتحامل على نفسه، ومشى يتعثر في طريقه، ومد يده وتحسس البنطلون في مكان ركلة البواب، خشية أن يكون الخرق الذي في البنطلون قد اتّسع.. وحمد الله أن البنطلون بخير، وأن الركلة اخترقت الخرق المفتوح في البنطلون ومزقت الكلسون، ورأى بقعاً من الدم في يده. ولم يفزع من الجرح الجديد في ظهره، فقد اطمأن إلى أن الجرح ليس في البنطلون. وأخرج منديلاً من جيبه ووضعه على الجرح وأسنده بيده، خشية أن يتسخ البنطلون بدمه المسفوك.

ورأى في نهاية الشارع عمود النور، فوقف واستند إليه ليستريح من آلام ظهره وساقيه وعينيه. وتمنى ألا يكون عمود النور تابعاً لشركة مصر للبسكويت حتى لا يجيء من يتهمه بتوسيخه.

□□□

وسمع وقع أقدام تقترب منه.. وخشي أن تكون أقدام بواب الشركة جاءت لتركله من جديد، وتلفت مذعوراً، فلم يصدق عينيه. رأى أمامه صديقه عبد الجواد أفندي الأبياري وكيل حسابات الشركة، الرجل الذي وضعه في هذا المنصب، على الرغم من أنه يحمل شهادة التجارة المتوسطة، الرجل الذي احتضنه وهو مدير للشركة، ودافع عنه، وأنقذه من كل المكائد والمؤامرات التي كان يدبرها له شاكر أفندي الأسناوي، الموظف بالحسابات، الذي كان يريد أن يذبحه ليجلس مكانه في منصب وكيل الحسابات المرموق.

إن الله أرسل إليه عبدالجواد أفندي الأبياري. إننا في الظلام نرى يد الله... نرى مخلوقات تمثل يد الله. تنشق الأرض فجأة ويخرجون منها، لينقذونا من أزماتنا، ليمدوا أيديهم إلينا ونحن

ساقطون على الأرض بعد أن داستنا الأقدام!

إنه لم يفكر أبداً في صديقه القديم الحميم عبدالجواد. عندما كان في الشركة نسيه. كيف نسيه؟ وتذكر مدير الأرشيف المنافق المشهور!

وأحس عبدالمتعال أن كل جروحه التأمت فجأة. بل أحس كأن يداً سحرية رفت الخرق الذي في البنطلون.. وانتظر حتى اقترب منه عبدالجواد، ومد إليه يده وهو يقول: أهلاً.. حبيبي عبدالجواد. أنت جئت لي من السماء!!

وفوجىء عبدالمتعال بعبدالجواد يمر به، ويترك يده ممدودة في الهواء.. فوجىء به يتجاهله. لا ينظر إليه، لا يتوقف.. كأنه يرى عمود النور ولا يراه!

وانقضت الصدمة عليه كالصاعقة. وأحس بأن البنطلون تمزق مرة أخرى، وتمزق قلبه من البنطلون. عادت إليه آلام جروحه التي نسيها مضاعفة. لقد كان عبد الجواد هو القشة التي أراد أن يتعلق بها، ولكن القشة مرت عليه وتركته يغرق!

لا يمكن أن يكون هذا صديقه العزيز عبدالجواد الأبياري. لا بد أنه رجل آخر يشبهه. عبدالجواد الذي يعرفه رجل شهم، فاضل ذو أخلاق. هل غيرت سنتان الناس فحولت الرجال إلى أنذال!

وأدار رأسه خلف عبدالجواد ليبصق عليه، وعلى الناس جميعاً، وفوجىء به يرى عبدالجواد يحرك أصابعه خلف ظهره بإشارة معناها «اتبعني»!

ولم يصدق عبدالمتعال عينيه، وحملق في الأصابع المتحركة خلف ظهر عبدالمتعال ليتأكد أنه لا يتوهم أصابع تتحرك وتناديه.. ربما كان عبدالجواد يخفي هو أيضاً بكفه رقعة أخرى في بنطلونه! وحدق البصر، وتأكد من الإشارة، ومشى خلف عبد الجواد يتعثر ويعرج.. وانحرف عبدالجواد إلى شارع فرعي فانحرف خلفه، ثم دخل في حارة ضيقة فدخل وراءه، ثم مد في خطواته نحو شارع جانبي، فأسرع عبدالمتعال في خطواته ناسياً آلام ساقه المجروحة.

ومضى نصف ساعة وعبدالمتعال يتابع خطواته إلى أن وجد نفسه في حي الفجالة، ثم انطلق إلى حارة ضيقة ورأى عبد المتعال صديقه عبد الجواد يدخل خمارة حقيرة في الحارة الضيقة، ودلف عبد المتعال خلفه، وهو يتصبب عرقاً!

ووجد عبد المتعال صديقه قد جلس إلى مائدة صغيرة، فاندفع عبدالمتعال نحوه، ولكنه أشار إليه أن يجلس إلى مائدة أخرى بجواره!

وجلس عبدالمتعال في مقعد بجوار المائدة الأخرى. ومضت عشر دقائق دون أن يتبادل عبدالجواد معه كلمة واحدة. وتأمل عبدالمتعال وجه عبدالجواد على ضوء مصباح ضئيل في سقف الخمارة، كان ينبعث منه ضوء شاحب يزيد وجه عبدالجواد شحوباً واصفراراً.. وكأن عبدالجواد يجول بعينيه الصغيرتين حوله، وكأنه يرتكب جريمة نكراء.. وكأنه يتوقع أن يقتحم رجال الشرطة الخمارة بين لحظة وأخرى ليقبضوا عليه بتهمة الجلوس مع المنبوذ عبد المتعال.

وطلب عبد الجواد من صاحب الخمارة كأسين من الكونياك..

وعجب عبد المتعال أن عبد الجواد طلب له كأساً من الكونياك، وهو يعرف أنه لم يضع في فمه نقطة خمر في حياته، وعزا هذا التصرف إلى اضطراب عبد الجواد الذي جعله ينسى ما كان يعرفه جيداً طوال عشرين سنة!

وجاء صاحب الخمارة بالكأسين ووضعهما أمام عبد الجواد.

وفوجىء عبد المتعال بعبد الجواد يفرغ الكأسين في جوفه.. ثم أشعل سيجارة بيد مرتجفة وقال لعبد المتعال هامساً:

ـ كيف حالك يا عبد المتعال؟

ـ خشيت أن تكوني نسيتني؟

ـ كيف أنساك؟ إنها عشرة العمر!

ـ ولماذا لم تصافحني؟

ـ خشيت أن يرفتوني!

ـ يرفتونك لأنك صافحت مديرك السابق؟

ـ المفروض أنك ميت.. كيف تريد مني أن أصافح ميتاً!

ـ بالرغم من أنك ترى بعينيك أنني حي!

ـ كيف أقول لك أنك حي وعندي سبعة أولاد؟

ـ تصور أنهم ضربوني!

ـ رأيتهم وهم يضربونك!

ـ ولماذا لم تحاول إنقاذي!

ـ كنت بين عاملين، أن أنقذك ويموت أولادي السبعة من الجوع، أو أن أتركهم يضربونك، ويعيش أولادي السبعة!

ـ كنت أعرف أنك شهم!

ـ الآباء الفقراء يفقدون جزءاً من شهامتهم، مع كل ولد جديد يولد لهم!

ـ على كل حال.. فأنا أشكرك لأنك طلبت مني أن أتبعك.

ـ تعمدت أن أغادر الشركة في غير مواعيد الانصراف، لكي أتبعك وأتحدث إليك.

ـ هذه تضحية عظمى!

ـ لا تهزأ بنصيحتي.. أنت تعرف أنني رجل فقير لا أملك إلا مرتبي.. تعلم أنني لا أستحق معاشاً لأنني اقترضت من البنك على معاشي!

ـ تقصد أن الفقراء لا يستطيعون أن يكونوا أوفياء؟

ـ الوفاء أصبح ترفاً لا يقدر على نفقاته إلا الأثرياء!.

ـ يقولون أن الفقر مثل طعنات «السونكي» كلاهما وسيلة قهر!

ـ كان الفقر في الماضي طعنة «سونكي».. أما اليوم فهو طلقات مدفع رشاش!

ـ هل كل موظفي وعمال الشركة يخافون مثلك؟

ـ الخوف مثل وباء الكوليرا.. عدوى واحدة تصيب الألوف!

ـ في أيامي لم تكونوا تخافون مني!

ـ الناس لا تخاف إلا من الوحوش.

ـ وأين ذهب كبار موظفي الشركة الذين كانوا يعملون معي؟

ـ فصلوا جميعاً!

ـ ما هي جريمتهم؟

ـ أصدقاؤك!

ـ أنت صديقي ولم يفصلوك!

ـ لأنني شتمتك!

ـ لماذا شتمتني!؟

ـ لأن عندي سبعة أولاد!

ـ كل كبار الموظفين الذين فصلوهم عندهم أولاد؟

ـ أنا وحدي الذي عنده سبعة أولاد. . أنا الوحيد الذي لا أحمل إلا شهادة التجارة المتوسطة. . الآخرون يحملون شهادات عالية. . الآخرون عندهم إيرادات خاصة. . الآخرون وجدوا أعمالاً لهم على الفور في شركات كبرى بالبلاد العربية!

ـ ماذا قلت عني؟

ـ قلت. . قلت إنني رأيتك تقبل الراقصة كاميليا في مكتبك في الشركة!

ـ قبلة واحدة تطعم سبعة أولاد. . إنها قبلة غالية جداً. . ماذا كان سيعطيك المدير العام الجديد لو قلت أنك رأيتني نائماً مع الراقصة كاميليا في مكتبي؟

ـ كان سيرقيني إلى مدير الحسابات!

ـ ولماذا لم تقل هذا؟

ـ ضميري منعني!

ـ يبدو أن ضميرك بريء ولهذا لم يسمح إلا بالقبلات!

ـ سامحني فقد اعتقدت أنك مت!

ـ ألم تعرف أن الضرب في الميت حرام!؟

ـ الميت لا يحس بالضرب، وإنما الأولاد السبعة يسحقهم الجوع!

ـ وكيف حال الشركة؟

ـ زفت. . !

ـ كيف يتحول البسكويت إلى زفت!؟

ـ عبقرية الجهل!

ـ ماذا فعلوا!

ـ في أول شهر جاء المهندسون إلى المدير الجديد وطلبوا منه

استيراد مادة ناقصة لصناعة البسكويت من انجلترا. وقالوا له أن لديهم ٩٩ مادة خاصة بالصناعة ولا تنقصهم إلا هذه المادة المستوردة وإلا تعطلت المصانع. وغضب المدير وقال أنه يمكن الاستغناء عن هذه المادة المطلوبة.. وحاول المهندسون والخبراء أن يشرحوا للمدير أن هذه مادة ضرورية ولكنه منعهم من الشرح وقال: أقسم برحمة أمي أنني لن أحضر هذه المادة الناقصة!

ـ وماذا كانت هذه المادة الناقصة!

ـ المادة التي تلصق الشكولاته بالبسكويت!

ـ وماذا كانت النتيجة؟

ـ اختلطت الشكولاته بالبسكويت.. وفسد إنتاج قيمته ثلثمائه ألف جنيه!

ـ هذا المبلغ يفلس الشركة!

ـ على العكس ربحت الشركة!

ـ لا يمكن أن يقبل الجمهور هذا البسكويت الفاسد!

ـ رفض الجمهور شراءه.. لكن المدير باع هذا البسكويت الفاسد لوزارة المعارف لتوزعه على تلاميذ مدراسها.. بالأمر!

ـ لو أكل تلاميذ المدارس هذا البسكويت الفاسد فسوف يصابون جميعاً بالمغص.

ـ اضطرت مخازن وزارة المعارف لأن تحرقه!

ـ وأبلغت النيابة ضد الشركة طبعاً؟

ـ لا.. أرسلت لنا خطاب شكر!

ـ لأنكم أرسلتم لها بسكويتاً فاسداً!؟

ـ لا.. لأن مديرنا قريب وزير المعارف!

ـ وكيف حال تصدير البسكويت إلى الخارج؟

ـ توقف التصدير!

- هل منعت الحكومة تصدير البسكويت؟

- رفض عملاؤنا في الخارج استيراده!

- هذه مصيبة!

- المدير لم يعتبرها مصيبة، إنه منح مدير التصدير في الشركة علاوة قدرها عشرون جنيهاً في الشهر.

- لأنه أوقف التصدير؟

- لأنه ابن عم المدير العام!

- من هو هذا المدير العام؟

- عباس بك غالب.

- هل هو أخصائي في صناعة البسكويت؟

- إنه كان موظفاً في الدرجة الثامنة بشركة شل.. ورفعوه من الدرجة الثامنة إلى درجة مدير عام!

- وما هي العلاقة بين البترول والبسكويت!

- إنها العلاقة بين عباس غالب والدوائر العليا!

- هل هو قريب رئيس الوزراء؟

- الدوائر العليا معناها كل من يعمل في المناصب العليا من رئيس الدولة إلى السفرجي!

- هذه الصفة تجعله فعلاً أخصائياً في صناعة البسكويت!

- ليت المصيبة مقصورة على المدير العام!

- هل هناك مصائب أخرى!

- ١٢ مصيبة أخرى.. المدير العام استغنى عن الدكتور حسين أيوب الأستاذ في كلية العلوم الذي كان يدير القسم الكيميائي في الشركة.

- وجاء مكانه طالب في كلية العلوم؟

- جاء مكانه عسكري بلوك أمين مديرية الغربية!

ـ عسكري يدير القسم الكيميائي؟

ـ إنه زوج أم حرم المدير!

ـ فهمت الآن سر رفض دول العالم استيراد البسكويت!

ـ وعين المدير العام ابن خاله الذي يحمل شهادة الابتدائية سكرتيراً عاماً للشركة، وزوج بنت خالته الذي لا يحمل شهادة مشرفاً على ثقافة العمال.. ومعلمة أولاده سكرتيرة خاصة تتقاضى مرتبها دون أن تحضر للشركة، بحجة أنها تقوم بعمل السكرتارية في البيت.. وعين الدكتور السيد أنور خال زوجته طبيباً عاماً للشركة.. وعين ابن عمته فهمي عوض الله الطالب في كلية الحقوق نائباً لمدير القسم القضائي.

ـ طبعاً أدى هذا إلى أن تخسر الشركة، بعد أن كسبت في آخر عهدي مائة ألف جنيه.

ـ على العكس.. كسبت في العام الأول مائة وخمسين ألف جنيه

ـ أكثر من الأرباح التي حققتها أنا للشركة بخمسين ألف جنيه!؟

ـ وفي العام الثاني كسبت مائة وسبعين ألف جنيه!

ـ كيف تكسب الشركة هذه المبالغ الطائلة، وأنت تقول أن الدول الأجنبية امتنعت عن شراء بسكويت شركة مصر، وأن الجمهور أضرب عن شراء بسكويت مصر؟

ـ باع المدير مصنع الشركة في أسيوط بمائتين وخمسين ألف جنيه، واعتبر ثمن البيع أرباحاً حققتها الشركة!

ـ وفي العام الثاني؟

ـ باع المدير مصنع الشركة في الاسكندرية بمائتين وخمسين ألف جنيه، واعتبر ثمن البيع أرباحاً حققتها الشركة!

ـ هذا تزوير في الميزانية

ـ أقر مراجع الحسابات الميزانية.

ـ كيف يقر مثل هذه الميزانية؟

ـ لأنه زوج أخت المدير!

ـ لا بد أن كل الموظفين والعمال ساخطون!

ـ راضون تمام الرضا.

ـ لأن الشركة ستفلس؟

ـ لأن ساعات العمل قلت، والأجور زادت، والمكافآت تضاعفت!

ـ ولكن الإنتاج قل.. وبيعت مصانع الشركة في الإسكندرية وأسيوط وتضاءل رأس المال إلى النصف!

ـ هذا شيء غير مهم!

ـ وما هو المهم؟

ـ زيادة المكافآت!

ـ سيجيء يوم تغلق الشركة أبوابها ويتعطل ألوف العمال.

ـ الناس تؤمن بالمبدأ الذي يقول «أحييني النهارده.. وموتني بكرة»!

ـ وماذا سيحدث للمدير عندما يكتشف ولاة الأمور أنه خرب الشركة..؟

ـ سيعينونه مديراً عاماً لشركة أكبر!

ـ وبعد أن يخرب الشركة الكبيرة؟

ـ سيصبح صالحاً لأن يكون وزيراً!

ـ لا أصدق أن العمال سعداء بهذا الحال، فأنا أعرفهم جيداً. أعرف أن عندهم وعياً!

ـ رئيس النقابة هو ابن خال ابنة عم المدير!

ـ لقد كنت أعطي كل عامل زجاجتين من اللبن كل يوم.. فهل

تصرفون الآن هاتين الزجاجتين؟

ـ أوقفنا صرف اللبن.

ـ لا بد أن العمال أضربوا احتجاجاً!

ـ صفقوا.. وهتفوا بحياة المدير الجديد!

ـ لأنهم يكرهون اللبن؟

ـ لأنك أصررت على أن يشربوا اللبن داخل المصنع!

ـ وماذا يضايقهم في هذا؟

ـ كانوا يريدون أن يبيعوا زجاجات اللبن!

ـ اللبن يحمي أجسادهم من السل الرئوي!

ـ الإرغام يحول طعم الشهد إلى حنظل!

ـ ولم يعوض المدير العام العمال عن اللبن الذي فقدوه بغذاء صحي؟

ـ عوضهم بغذاء روحي.. عمل استفتاء بين العمال هل يفضلون أن يرغموا على شرب زجاجتين من اللبن كل يوم، أم يقيم لهم كل شهر حفلة ساهرة في الشركة!

ـ وفضلوا اللبن طبعاً؟

ـ فضلوا الحفلات الساهرة!

ـ وماذا يحدث في الحفلات الساهرة؟

ـ ترقص فيها الراقصة كاميليا..

ـ كاميليا.. التي كانت في درج مكتبي؟!

ـ والتي ادعيت أنا عليك كذباً بأنك قبلتها في مكتبك بالشركة!

ـ وهل معقول أن يفضل العمال رقص كاميليا على شرب اللبن؟

ـ فضلوا كاميليا طبعاً!

ـ هل رقص كاميليا يغذي البطون كاللبن الحليب؟!

ـ لا تنس أن لحم كاميليا مثل القشدة!

ـ اللبن مغذٍ!

ـ والقشدة . . ألذ!!

ـ وماذا قصد المدير الجديد بأن يجيء كل شهر بالراقصة كاميليا لترقص للعمال؟ هل أراد بذلك أن يحيي ذكراي!؟

ـ أراد أن يذكر العمال بالمدير السابق «الخباص» الذي كان ينفق أموال الشركة على الراقصة كاميليا!

ـ وهل صدقوه؟

ـ طبعاً صدقوه لأن الأكاذيب لها طعم الشهد في الأفواه.

ـ والحقائق لها طعم المر والحنظل!

ـ وهم يتهمونك بالأنانية!

ـ أنا أناني!؟

ـ لأنك كنت وحدك تستمتع بالراقصة كاميليا، أما الآن فهم كلهم يستمتعون بجسدها العاري مرة كل شهر!

ـ أنت تعلم أنني كنت رجلاً مستقيماً طول حياتي.

ـ أنا علم . . ولكن الصور التي وجدوها في مكتبك قالت أشياء أخرى.

ـ يصدقون الصور . . ولا يصدقون الحقيقة؟

ـ لأن الحقيقة مرة . . والأكاذيب تسيل اللعاب!

ـ أنت تعرف الحقيقة!

ـ مركزي كوكيل للحسابات يجعلني أعرف كل الحقيقة، وأقلية صغيرة تعرف بعض الحقيقة، والأغلبية الساحقة تجهل الحقيقة!

ـ وما هي الحقيقة التي تعرفها؟

ـ إن الراقصة كاميليا هي عشيقة المدير الجديد . . وليست عشيقتك!

ـ ولماذا لصق بي المدير الجديد اسم عشيقته؟

ـ اتخذك «البرافان» الذي يختفي وراءه.. وضع صورة عشيقته في درج مكتبك ليختلط الأمر على الناس ويتصوروا أن عشيق كاميليا هو المدير القديم وليس المدير الجديد.. أصبح ذهابه باستمرار على بيت الراقصة كاميليا «مهمة رسمية» ليعرف منها أسرار الشركة التي تعلمها بحكم أنها عشيقة المدير القديم.. الشركة تدفع أجر المواصلات إلى بيت كاميليا.. الشركة تدفع بدل السفر للمدير العام كلما سافر إلى الإسكندرية مع كاميليا ليمضي معها الليالي الحمراء.

ـ والموظفون.. ماذا يقولون عن هذه التصرفات؟

ـ يقولون أن المدير «يسهر» على مصالح الشركة!

ـ كل شيء ممكن أن أتصوره ما عدا حكاية اللبن!

ـ لماذا أنت مهتم اهتماماً خاصاً بحكاية لبن العمال؟

ـ لأن عندي «عقدة» اسمها اللبن!

ـ سمعت عن عقدة «مركب النقص» وعقدة «مركب الزيادة» ولكني لم أسمع عن «عقدة اللبن» هذه!

ـ تكونت هذه العقدة في السجن!

ـ هل كنت في السجن؟

ـ أمضيت فيه عامين!

ـ في أي جريمة!؟

ـ جريمة أنني قلت «لا»!

ـ لم أسمع عن هذه الجريمة في قانون العقوبات!

ـ إنها أخطر جريمة في قانون العقوبات!

ـ أخطر من حرمان العمال من اللبن؟

ـ كان السجن يحتفظ بعدد من الكلاب البوليسية، وكان يقدم لها يومياً كمية كبيرة من اللبن واللحم. وكان المسجونون المرضى

معي بالعنبر يعيشون على اللبن فقط.. وذات يوم لم يجىء لهم اللبن كالمعتاد.. وذهبوا إلى الرائد فتحي أبو زيد المأمور يسألونه عن اللبن الذي يصرف لهم، فقال المأمور أن المتعهد لم يحضر لبن الكلاب كالمعتاد، ولذلك أصدر المدير أمره بأن يصرف لبن المساجين المرضى للكلاب! واحتج المساجين المرضى وقالوا: هل الكلب أفضل من المسجون الآدمي؟.. قال المأمور: طبعاً! الكلب موظف في الدولة وأنتم أعداء المجتمع.. الكلب يحرس السجن وأنتم مسجونون فيه.. إذا مات الكلب البوليسي قامت الدنيا وقعدت وتألفت لجنة تحقيق وعوقب الضابط المسؤول.. أما إذا مات المسجون، فلا أحد يهتم بموته.. وعندئذ هتف المسجونون: يموت المسجون ويحيا الكلب!

ـ هتفوا بحياة الكلب؟

ـ لا.. هتفوا بحياة المدير!

ـ ولهذا تهتم باللبن؟

ـ وبالكلاب أيضاً!

ـ الكلاب التي تحرس السجون!

ـ الكلاب في كل مكان!

ـ وماذا تنوي أن تفعل!

ـ سوف أفضح الكلاب!

ـ سوف يعضونك!

ـ الذين يخافون من عضة كلب يتحولون إلى عبيد للكلاب!

الفصل الثامن عشر

اضطرب عبدالجواد، وانكمش في مقعده رعباً، عندما طلب منه عبدالمتعال أن يقدم له خدمة لن ينساها مدى حياته. . إنها خدمة بسيطة جداً لن تكلفه أي شيء: إنه يريد الميزانية الحقيقية لشركة مصر للبسكويت في العامين السابقين.

قال عبدالجواد في صوت خائف مذعور:

ـ أنت تطلب مني أسرار القنبلة الذرية!

ـ أطلب ميزانية. . لا قنبلة!

ـ الميزانية الحقيقية لو عرفها الناس فسيكون أثرها كانفجار قنبلة ذرية!

ـ أنا لا أريد أن أدمر الشركة، وإنما أريد تدمير الكلاب الذين سرقوها!

ـ أنت تلعب بالنار يا عبد المتعال .

ـ الذي عاش عامين في جهنم لا يخاف أن تحترق أصابعه بالنار!

ـ غالب بك مدير الشركة الجديد (مسنود).

ـ يوم يسقط اللص الكبير، يسقط كل اللصوص الصغار الذين يقفون خلفه!

ـ وماذا تفعل إذا كان الذين مهمتهم ضبط اللصوص، هم اللصوص أنفسهم؟

ـ **أفضحهم جيمعاً!**

ـ هل يستطيع البرغوث أن يقتل الفيل؟

ـ **إذا اتحدت مئات البراغيث تستطيع أن تقتل فيلاً!**

ـ وأين تجد البراغيث التسعة والتسعين؟

ـ **أنت واحد منهم!**

ـ والاولاد السبعة؟!

ـ **ولهذا لا أطلب منك إلا أن تقوم بعمل مأمون.. أنت وكيل الحسابات وتستطيع بسهولة أن تجيء لي بميزانية الشركة الحقيقية..**

ـ إنها موجودة عند عبدالمسيح كرلس مدير الميزانية.

ـ **هاتها منه!**

ـ تذكر أن له ستة أولاد!

ـ **ألا يوجد في إدارة الميزانية موظف ليس له أولاد؟**

ـ كلهم لهم أولاد!

ـ **إنني أريد أن أنقذ أولادكم جميعاً من الجوع، فبعد عام أو عامين لن تجدوا في خزانة الشركة مليماً واحداً لدفع مرتباتكم وأجوركم.**

ـ أعرف ذلك..

ـ **ولا تريد أن تساعدني؟**

ـ أريد أن أساعدك بشرط ألا يموت أولادي السبعة من الجوع..

ـ **وما العمل؟**

ـ إن الميزانية الحقيقية موجودة في خزانة حديدية ضخمة في غرفة مدير الميزانية بالطابق الرابع..

ـ **وماذا تفيدني هذه المعلومات؟**

ـ تستطيع أن تتفق مع عصابة من اللصوص المتخصصين في سرقة الخزائن، لأن يسرقوا المستندات الموجودة بهذه الخزانة وبذلك

تنقذ الشركة!

ـ إذا كنت لا أستطيع أن أتفق مع موظفي الشركة على أن ينقذوا الشركة ويجيئوني بالمستندات، فكيف أستطيع أن أتفق مع اللصوص على أن ينقذوا الشركة من اللصوص؟

ـ ممكن أن تجد من زملائك اللصوص في السجن من يقوم بهذه العملية..

ـ اللصوص لا يسرقون لله!

ـ تدفع لهم أتعاب هذه العملية!

ـ وهل لا بد أن نعتمد على لصوص.. ليسرقوا لصوصاً آخرين؟

ـ لا يفل الحديد إلا الحديد!

ـ وماذا أفعل إذا وجدت أن كل لص من هؤلاء اللصوص الذين تقترح الإستعانة بهم، له سبعة أولاد!

ـ ستكون كارثة!

ـ للأسف، لم يكن لي شرف صحبة اللصوص في السجن!

ـ هل سجنوك في سجن انفرادي!

ـ سجنوني مع القتلة!

ـ ممكن أن تستعين بهؤلاء القتلة لاقتحام الشركة وسرقة خزانة المستندات!

ـ هناك تخصص في الجرائم، الذي يقتل لا يسرق!

ـ ممن أن تبحث عن لصوص متخصصين!

ـ أين أجدهم؟

ـ البلد مليء باللصوص!

ـ هل أنشر إعلاناً في الصحف: «مطلوب خمسة لصوص، ليس

لهم أولاد ليقوموا بسرقة خزانة شركة مصر للبسكويت»؟!

□□□

وهنا قال عبدالجواد:

ـ سوف أجيء لك بوثيقة أخطر من الميزانية الحقيقية..

فقال عبدالمتعال:

ـ **لا يوجد أخطر من الميزانيات الحقيقية!**

ـ مشروع الشركة الجديد!

ـ **نوع جديد من البسكويت؟**

ـ فيلم سينمائي!

ـ **هذا غير معقول!**

ـ هذه خطورة المشروع.

ـ **لم أسمع أن شركة بسكويت في العالم تخرج فيلماً سينمائياً!**

ـ غالب بك يقول أنه غير ملزم لأن يقلد الشركات الأجنبية وأن كل شركة بسكويت من حقها أن تضع تقاليدها بنفسها..

ـ **ممكن للشركة الصناعية أن تنشيء صناعات فرعية، ولكن لم يحدث أن مصانع البسكويت أخرجت فيلماً سينمائياً!**

ـ هذه هي الفضيحة..

ـ **إنها فضيحة الفضائح..**

ـ بل الفضيحة أكبر من هذا.. إن بطلة الفيلم هي الراقصة كاميليا؟

ـ **وما علاقة شركة البسكويت بفيلم سينمائي للراقصة كاميليا؟**

ـ المدير يقول إن كاميليا أطعم من البسكويت!

ـ **ولهذا يذوقها باستمرار!**

ـ أي نعم..

ـ **وكيف برر المدير أن تنفق الشركة أموالها على هذا الفيلم!**

ـ سأجيء لك بمذكرة المدير العام. إنه يقرر تخصيص مبلغ ثلاثين ألف جنيه نفقات الفيلم بحجة أن ملخص الفيلم أن كاميليا عاملة في مصنع شركة مصر للبسكويت وأنها أحبت عاملاً معها في نفس المصنع!

ـ لا بد أن ينتهي الفيلم بأن المدير سوف يطرد العامل ويتزوج كاميليا!

ـ كيف عرفت هذا؟ إنها نهاية الفيلم فعلاً!

ـ قرأت في الصحف أن الأفلام بدأت تميل للواقعية!

ـ هذا الفيلم سوف يؤدي إلى خسارة الشركة ثلاثين ألف جنيه على الأقل!

ـ وكيف سيعوض المدير الخسارة؟

ـ سيبيع مصنع طنطا!

ـ إنه مدير جريء فعلاً!

ـ إنه أجرأ مدير رأيته في حياتي!

□□□

وقال عبدالمتعال:

ـ ولهذا ادعى كذباً أني اختلست سبعة عشر ألف جنيه؟

فقال عبدالجواد:

ـ الاختلاس مضبوط!

ـ هل تصدق أنني اختلست من أموال الشركة سبعة عشر ألف جنيه؟

ـ لا أصدق.. ولكن الاختلاس حدث فعلاً!

ـ متى حدث؟

ـ بعد أن نشرت الصحف نبأ تشييع جنازتك بشهرين..

- وكيف يتهمني المدير بأنني اختلست هذا المبلغ بعد وفاتي بشهرين؟

- لأنه هو الذي اختلس المبلغ!

- أنت واثق أنه المختلس؟

- كما أراك أمامي!

- كيف عرفت هذا؟

- لأنه لعب في ميزانية العام السابق قبل وفاتك، ونقل أرقاماً من بنود إلى بنود وكانت النتيجة اختفاء سبعة عشر ألف جنيه من أموال الشركة بطريقة لعب الثلاث ورقات!

- هل فعل ذلك وحده؟

- بمعاونة أقربائه الذين عينهم في الحسابات وإدارة الميزانية!

- هل يمكنك أن تثبت ذلك!؟

- كل هذه المستندات موجودة في الخزانة الموجودة بغرفة عبدالمسيح أفندي مدير الميزانية.

- وأين مفتاح هذه الخزانة؟

- في جيب المدير العام!

- هل تستطيع أن تجيء لي بمذكرة المدير عن المشروع السينمائي غداً في مثل هذه الساعة؟

- أعدك بشرفي أن أجيء لك بهذا المستند!

- وأين أقابلك؟

- في هذه الحانة..

- لا أعرف كيف أشكرك..

- كنت أتمنى أن أفعل لك أكثر من هذا.. ولكن عندي سبعة أولاد!

- أنا أقدر ظروفك.. لو كان كل الذين لديهم سبعة أولاد

يجرؤون على مصافحة المنبوذين ويتحدثون معهم، لما بقي في العالم منبوذون، إنك سوف تصبح بطلاً!

ـ يمكنك أن تنصرف الآن.

ـ لماذا لا تنصرف أولاً!

ـ خير لك أن تسبقني في الخروج.. وسأبقى هنا نصف ساعة.. الساعة الآن الثامنة مساء.. وسأخرج الساعة الثامنة والنصف، حتى لا يعرف أحد أنني كنت معك!

□□□

جلس عبد المتعال في نفس المقعد بخمارة «ينى» في الفجالة ينتظر بفارغ صبر قدوم صديقه عبد الجواد حسب موعده معه.

ومضت الساعة السادسة ولم يحضر عبد الجواد. وانتظر إلى الساعة السابعة ولم يحضر عبدالجواد. وجاءت الساعة الثامنة مساء، وجاء معها عدد من الزبائن، ولم يجيء عبد الجواد.

وكان عبدالمتعال يقطع المسافة بين مقعده ومقعد الخواجه «ينى» الواقف على البار عدة مرات كل ساعة. وكان ينى يبش في وجهه كل مرة ويسأله هل يريد كونياك أم زبيب أم عرقي؟ وكان عبدالمتعال يجيب في كل مرة أنه يريد أن يسأل عن الساعة. وفي المرة الأولى قال له ينى عن الساعة وهو يبتسم. وفي المرة العاشرة قالها باحتقار، وفي المرة العشرين قالها وكأنه يبصق.

وخجل عبد المتعال من نظرات ينى صاحب الخمارة، وتوقع أن يخلع حذاءه ويضربه به عندما يسأله عن الساعة للمرة الواحدة والعشرين، ولهذا قبل أن يسأل هذه المرة عن الساعة طلب كأسي كونياك.. وبلع ينى بصقته، وأخفى نظرة الاحتقار خلف ابتسامة

كبيرة، وقال له بكل إجلال واحترام وتبجيل أن الساعة هي الثانية عشرة تماماً عند منتصف الليل. ثم أصر يني على أن يحمل صينية كبيرة عليها كأسا الكونياك، وانحنى في إجلال أمام عبد المتعال وهو يضع أمامه الكأسين..

ولم يمس عبد المتعال الكأسين، تركهما أمامه ليشربهما عبد الجواد عندما يحضر، وعلى الرغم من مرور أكثر من ست ساعات على موعده، فإن عبد المتعال لم ييأس أبداً أن عبد الجواد سوف يجيء..

وكان يفكر فيما سوف يفعل بهذا المستند الخطير. سوف يعطيه لسلوى وسوف تعطي سلوى المستند للأستاذ جلال حمدي رئيس تحرير جريدة (الصباح الجديد) سوف ينشر المستند في الصفحة الأولى. بعناوين ضخمة. ترى كيف يكون المانشيت في ذلك اليوم «المهزلة الكبرى»؟ لا، إنها أخطر من ذلك. إنها «المأساة الكبرى»؟ إنها أكبر من مأساة ومهزلة معاً. يجب أن يكون المانشيت الضخم «الفضيحة الكبرى!»

وبدأ يتخيل سطور الصفحة الأولى: شركة كبرى للبسكويت تبدد أموال المساهمين لتمويل فيلم سينمائي راقص.. البسكويت تأكله الراقصة كاميليا والحصرم يأكله المساهمون.. سوف تطالب الجريدة بالتحقيق فوراً.. ستقوم الدنيا ولا تقعد.. ستقوم قيامة المساهمين.. سيثور الرأي العام.. سيبدأ التحقيق في الحال.

هنا سيتقدم عبد المتعال إلى النيابة العامة بمعلوماته. سوف يتهم المدير العام بالتزوير في ميزانيات الشركة. سيطلب التحفظ على الخزانة الحديدية الموجودة في غرفة كرلس أفندي. سينتقل عدد من

وكلاء النيابة، ويفتحون الخزانة الحديدية ويضبطون المستندات. . .

سوف ينقذ شركة البسكويت من الدمار. سيقبل أن يقوم بأي عمل فيها. سيعود إلى بنائها من جديد طوبة فوق طوبة. سينشىء مصنعاً جديداً في الاسكندرية. سينشىء مصنعاً في أسيوط. سينشىء مصانع في جميع المديريات. سيعود اسم شركة مصر للبسكويت إلى بلاد العالم في الشرق والغرب من جديد. سيعود العمال ويشربون اللبن الممنوع!

واستيقظ عبد المتعال من حمله الجميل، بيد قوية تدفعه وتقول له:

- انصرف جميع الزبائن. . وسنغلق الخمارة!

ورفع عبد المتعال رأسه الغارق في الحلم اللذيذ ووجد أمامه الخواجه ينى، فسأله في دهشة:

- لماذا تريد أن تقفل الخمارة؟

- إنها الساعة الثالثة صباحاً!

وانتفض عبد المتعال. لقد مضى عليه يحلم تسع ساعات ونصف ساعة من الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر الاثنين إلى الساعة الثالثة من صباح الثلاثاء. . تأخر عبد الجواد عن موعده تسع ساعات ونصف ساعة ولم يحضر ولا يمكن أن يحضر الآن. .

وسمع الخواجة ينى يقول له:

- ألا تنوي أن تشرب الكونياك؟

ووقف عبد المتعال في تثاقل وقال:

ـ اشربه أنت!

ـ وأحس مرة أخرى بجروحه، وكأنها بدأت تنزف من جديد. أحس بآلامه، وكأنها كانت نائمة مع الأحلام واستيقظت مع الكابوس!

ومشى يترنح في حواري الفجالة. كان سكران بغير خمر. كان أشبه بالتائه. ضاع من قدميه الطريق. لماذا لم يحضر عبد الجواد؟ هل أرغمه مدير الحسابات على البقاء في مكتبه بعد موعد انصراف الموظفين؟ ليس من المعقول أن يبقى حتى هذه الساعة المبكرة في الصباح في الشركة. لم يحدث مرة أن تأخر الموظفون في مكاتبهم إلا مرات قليلة. كانوا يبقون حتى منتصف الليل في أيام إعداد الميزانية. ولكن هذا الشهر ليس شهر إعداد الميزانية. أيكون عبد الجواد تأخر في مكتبه بضع ساعات، ثم تصور أنه تأخر عن الموعد فلم يحضر إلى الخمارة؟ أيكون اضطر أن ينتظر في الشركة حتى ينصرف جميع الموظفين حتى يجيء بالمستند المطلوب؟

ومشى يتعثر في أفكاره وخواطره. وفجأة، توقف وأحس كأن صاعقة سقطت عليه. وأنه يكاد يسقط على الأرض، وأسند ظهره إلى جدار بيت بجوار كازينو البوسفور. الصاعقة التي أصابته أنه خطر بباله لأول مرة أن عبد الجواد جبان، خاف على أولاده السبعة، لم تعش شجاعته سوى دقائق بعد خروجه من الخمارة ثم ذابت، ثم تبخرت.. خانته شجاعته أن يجيء بالمستند الذي وعد به.. وخجل أن يواجه عبد المتعال ويعترف له بموقفه المخزي، وآثر ألا يحضر في الموعد.

وأحس أنه يرى صديقه عبد الجواد يتضاءل ويتضاءل، ويتحول

إلى برغوث يرتدي بذلة.. وتذكر أن البرغوث يقرص!

ما يدريه أن عبد الجواد باعه لمدير الشركة؟ ذهب إلى المدير صباح يوم الاثنين، وأبلغه أن عبد المتعال يتآمر على فضحه، ويفكر في الاتفاق مع عصابة من اللصوص على سرقة المستندات؟

الرجل البرغوث قادر على أن يفعل كل شيء. قادر على أن يمتص دم الحيوان، كل ما يهمه أن يشرب دماً!

ومضى يتسكع في الطرقات على غير هدى. عاد يشعر بالذل والضعف والهوان. أحس بأنه هو الآخر أصبح برغوثاً. كل الضعفاء براغيث.. وكل الأقوياء هم (الفليت) الذي يقتل البراغيث!

كيف يتطاول البرغوث على الفيل؟ كيف توهم أنه يستطيع وهو (هلفوت) مشرد، مفلس، ضائع، أن ينقذ شركة كبرى من لصوصها الكبار؟ ماذا يستطيع بضعفه أن يفعل بالأقوياء الكبار؟

وسمع أذان الفجر. وهزته كلمات (الله أكبر، الله أكبر) وأنعشه هذا النداء. كأنه غسل وجهه بأضواء الفجر، كأن الله أراد أن يرد مخاوفه، ويقول له أن هناك قوة نسيها هي أكبر من قوة الظالمين. وأحس كأن ضربة فاجأته في ظهره!

وكان يطأطىء رأسه فرفعه، كان مغلق القلب فأحس بأن قلبه فتح كل أبوابه كان مغلق العقل من أثر الصدمة، ولكن صوت المؤذن كان أشبه بشعاع الفجر في ظلام العقل!

وأحس بالذنب لأنه حكم على صديقه عبد الجواد دون أن يسمع دفاعه. عندما يسحقنا الظلم نتحدث بغير أن ندري بلغة

الظالمين. كأن أحذية الظالمين التي تدوس رؤوسنا تدخل في هذه الرؤوس، وتصبح عقولاً نفكر بها!

وكيف تصور أن صديقه عبد الجواد يخونه؟ لو أنه خانه وأبلغ مدير الشركة بما سمع، لأبلغ المدير الشرطة وقامت الشرطة وقعدت لبلاغ المدير المحسوب على الدوائر العليا، ولما تركته الشرطة تسع ساعات ونصف ساعة في الخمارة. . لانقضت عليه بعد دقائق وكبلته بالحديد، ولكان الآن نائماً على أسفلت سجن التخشيبة. لو عرف اللصوص ما ينتويه لهم، وما يدبره لهم، لما تركوه حراً تسع دقائق لا تسع ساعات! لقد علمته الأيام أن الظلم سريع والعدل بطيء. الظلم يركب طائرة نفاثة والعدل يركب سلحفاة. الظلم لا وقت عنده، والعدل يؤمن بأنه في التأني السلامة وفي العجلة الندامة!

كل هذه أدلة وبراهين على براءة صديقه عبد الجواد من التهمة الشنيعة التي ألصقها به ظلماً وعدواناً بأنه وشى به عند مدير الشركة. باعه ليشتري علاوة استثنائية أو ترقية استثنائية!

وتمنى لو وجد أمامه عبد الجواد ليعتذر إليه ويطلب منه الصفح والغفران!

قد يكون عبد الجواد تردد، خاف ومن الذي لا يخاف؟ كلنا نخاف في وقت من الأوقات. ليس كل إنسان مستعداً أن يكون بطلاً. الابطال يخافون. لا يوجد بطل لا يخاف ٢٤ ساعة كل ٢٤ ساعة. البطولة تجيء في لحظات خاطفة. لحظات ينسى فيها الانسان أولاده. . ينسى نفسه. ينسى الخطر، ويندفع ويفعل ما كان لا يفعله في لحظة أخرى.

شجاعة القلب ليست شجاعة دائمة. ظروف تصنع الأبطال وظروف تصنع الجبناء. أبطال خلقتهم الصدفة وجبناء خلقتهم الصدفة أيضاً. جنديان في معركة فرا من الميدان في لحظة واحدة. واحد منهما أصابته رصاصة العدو فصار بطلاً شهيداً، والآخر أخطأته رصاصة العدو، فحوكم وحكم عليه لأنه فر من الميدان.. أبطال أصبحوا أبطالاً بالرغم منهم!

لقد تذكر يوم كان طالباً بالمدرسة السعيدية وكان مع زملائه في المعمل، وشبت النار فجأة، فهرب جميع التلاميذ، وكان هو في مقدمتهم، وإذا به يتعثر في جردل ماء، ويسقط على الأرض. وتم إخماد الحريق، ووجده ناظر المدرسة واقعاً على الأرض وقد ابتل جسمه بماء الجردل، وتصور الناظر أن عبد المتعال هو الطالب الوحيد الذي رفض أن يهرب، وبقي يطفىء الحريق معرضاً نفسه للنار لينقذ معمل المدرسة. وجمع الناظر التلاميذ في الحوش، وأثنى على شجاعة عبد المتعال وجرأته وتضحيته بحياته من أجل المدرسة، وعلق على صدره وساما مكتوباً عليه «**بطل المدرسة السعيدية**». وعاش سنوات دراسته في المدرسة بطلاً، لأنه تزحلق في جردل الماء!!

إن من حق عبد الجواد أن يفضل أن يعيش أولاده السبعة ويعيش معهم على أن يصبح بطلاً، ويموت الأولاد السبعة من الجوع!

لن يلوم عبد الجواد لأنه يتردد في تنفيذ المهمة التي كلف بها.. لعله ظلمه عندما طلب منه أن يكون بطلاً. نسبة الشجاعة في كل إنسان تختلف، كما يختلف عدد الكرات الحمراء والكرات البيضاء!

لقد كان عبدالجواد شجاعاً عندما أشار إليه بأن يتبعه. كان

شجاعاً عندما قبل أن يجلس معه . . كان شجاعاً عندما ذكر له بصراحة حال الشركة، كان شجاعاً عندما عرض عليه أن يحضر المذكرة الخاصة بفيلم كاميليا. خانته شجاعته مرة واحدة عندما لم يحضر المستند. معنى ذلك أنه شجاع بنسبة ثمانين في المائة، وجبان بنسبة عشرين في المائة ليس المطلوب أن يكون الرجل شجاعاً مائة في المائة. لو أن كل واحد منا شجاع واحد في المائة، لكان لدينا مئات الألوف من الشجعان!

ولم يشعر عبد المتعال أن عبد الجواد خذله . المعلومات الهامة التي أعطاه إياها عن حالة الشركة هي خيوط تستطيع أن توصله إلى نتائج هامة. إن هذا يدل على أنه لو لم يكن عبد الجواد أسداً كما كان يتمنى، فهو ليس فأراً على كل حال. لو كان فأراً لما جرؤ أن يشير إليه بأن يتبعه بعد أن رأى سعاة الشركة يضربونه ويركلونه بأمر المدير!

وتوقف عبد المتعال لحظة ووجد نفسه يتكلم بصوت عال وكأنه يخاطب الهواء:

ـ ربما كان عبد الجواد أسداً ! ربما كان شجاعاً مائة في المائة! ربما ضبطوه وهو يسرق المستند!

وبوغت بهذه الفكرة. وشعر بالفزع كأن المدير ضبطه والمستند في يده . .

وأتعبته هذه الفكرة. وأحس بأنه يكاد ينهار. ثم قرر أن يريح نفسه ويعتبر عبد الجواد شجاعاً ثمانين في المائة ، وجباناً بنسبة عشرين في المائة!

□□□

ومضى في طريقه إلى الزمالك. .

ووصل إلى العمارة التي تقيم فيها سلوى مع الصباح. . ولم يشأ أن يمر بشقة سلوى، ويوقظها في هذا الوقت المبكر، وقرر أن يصعد إلى غرفته فوق السطوح لينام.

ورقد في سريره وأغمض عينيه، ولكنه وجد صورة صديقه عبد الجواد تحت جفنيه، مرة في صورة أسد، ومرة في صورة فأر!

وانتظر النوم أن يجيء إليه، ولكن النوم ولى، وكأنه يقلد عبد الجواد الذي لم يحضر في الموعد الهام!

وسخر عبد المتعال من نفسه، إنه مهتم بإعادة حقوق الشركة المسلوبة، ونسي حقوقه المسلوبة. يدبر الخطط لتستعيد شركة مصر للبسكويت سمعتها واسمها، ولا يفكر في خطة واحدة لاستعادة سمعته هو، واسمه هو!

أيحب هذه الشركة أكثر مما يحب نفسه؟ لو قص على سلوى كل ما يحدث له لسخرت منه. . لهزئت بهذا الرجل الذي بلا اسم، ويناضل من أجل اسم شركة لا يملك فيها سهماً. . لهزئت بالرجل الذي يحاول أن يعلن الحرب من أجل سمعة الشركة الكبرى وهو عاجز أن يستعيد سمعته التي ديست بالأقدام!

لقد نسي في هواه بهذه الشركة حقيقته، كيف يقدم بلاغاً للنائب العام وهو لا يحمل اسماً يوقعه على البلاغ. كيف يتهم مدير الشركة بالنصب، وهو محكوم عليه بالسجن من أجل جريمة نصب.

ماذا سيحدث له لو أن النائب العام استدعاه بعد تقديم البلاغ

وسأله عن اسمه وطلب صفحة سوابقه؟ سوف يعتبر النائب العام أن هذا البلاغ محاولة نصب جديدة من نصاب قديم، أمضى في السجن عامين!

وحمد الله على أن صديقه عبد الجواد لم يحضر في الموعد.

وفجأة تذكر أنه جائع. لم يتناول غداء ولا عشاء ولا إفطاراً. كيف نسي أن يأكل لمدة ٢٤ ساعة؟ لم يشعر بالجوع، لم يشعر بآلام جروحه، نسي كل هذا في جو الصراع الذي كان يعيش فيه!

وأحس أنه لن يستطيع أن يضع لقمة في فمه قبل أن يطمئن على صديقه عبدالجواد. سوف يحدثه في التليفون في مكتبه بالشركة. كل ما يريد منه أن يطمئن عليه. لن يحدثه حتى لا يحرجه كل ما يتمناه أن يسمع صوته ويضع السماعة. إن إحساساً داخلياً يجعله يتصور أنهم فصلوه من عمله.. أنهم ضبطوه وهو يسرق المستند!

□ □ □

وهبط درجات السلم على عجل.. ولم يشأ أن يتحدث من تليفون سلوى حتى لا يزعجها، وحتى يؤجل لقاءه مع الدكتور منير بالبنطلون المخروق، فقرر أن يتحدث من تليفون بائع السجائر في منتصف شارع أبو الفداء.

وطلب الرقم العمومي لتليفون شركة مصر للبسكويت، ورد عليه عامل تليفون الشركة، فطلب منه قسم الحسابات.

وسمع صوتاً أجش يرد عليه فسأله:
ـ الحسابات؟
ـ نعم.

- عبد الجواد أفندي وكيل الحسابات.
- مين حضرتك؟
- أنا محمود.
- هل أنت قريبه؟
- لا.. أنا صديقه من أيام الدراسة.
- البقية في حياتك!
- مات؟
- نعم.
- أزمة قلبية؟
- لا.. دهسته سيارة!
- متى كان ذلك؟
- يوم الأحد!
- مستحيل.. لقد كان معي يوم الأحد!
- مساء الأحد!
- كان معي مساء الأحد حتى الساعة الثامنة مساء.
- إنه مات في الساعة الثامنة والنصف.
- أين مات؟
- في شارع الفجالة!
- ومتى تشيع جنازته؟
- شيعت جنازته أمس!
- هذا مستحيل!
- النبأ منشور في صحف صباح أمس!

وسقطت سماعة التليفون من يد عبد المتعال.. سقط على الرصيف مغمى عليه.. أسرع إليه صاحب كشك السجائر،

وسكب على وجهه قليلاً من الماء . .

وأفاق عبدالمتعال والدموع تتساقط من عينيه وهو يقول :

ـ ظلمتك . . ظلمتك يا عبدالجواد . . لقد كنت أسداً ! !

الفصل التاسع عشر

غرفة مدير شركة مصر للبسكويت غرفة لا تقل أبهة عن غرفة وزير. مكتب من خشب الأرو الثمين. . المكتب طوله خمسة أمتار، وعرضه متر ونصف متر. لا يوجد فوقه ورقة واحدة، ولا ملف واحد. . نظيف يلمع.

كل شيء يلمع في الغرفة. الجلد الأخضر الذي يغطي المقاعد والأرائك يلمع. الجدران البيضاء تلمع. . الكتب المصفوفة فوق الرفوف تلمع، لأن أحداً لم يفض بكارة صفحاتها المغلقة منذ اشتريت من المكتبة، لا لسبب إلا أن ألوان أغلفة الكتب تتناسب مع ديكور غرفة مكتب سعادة المدير، ولهذا تجد مختلف أنواع الكتب، كتاب في الحشرات إلى جوار كتاب في الهندسة الفراغية، بجانب كتاب عن قبائل الشلك في جنوب السودان، بجانب كتاب عن الشاعر المصري القديم سراج الدين عمر بن محمد بن حسن الوراق!

والذي يتطلع إلى مكتبة المدير يتصور أن المدير رجل متعدد الإهتمامات، يقرأ عن الفلك، ويدرس تقدم صناعة الأحذية في تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الثانية، ويهتم في الوقت نفسه بمرض «الشلل الرعاش»!

والواقع أن اهتمام غالب بك الوحيد كان محصوراً في الراقصة كاميليا. . ومع ذلك خلت مكتبته الأنيقة من أي كتاب عن الرقص البلدي وهز الأرداف لسبب وحيد، هو أن المغفلين من المؤلفين الذين وضعوا الكتب العديدة عن الرقص، لم يضعوها في أغلفة زرقاء تتناسب مع ديكور غرفة مكتب سعادة المدير. .

أما الكتب نفسها فلم يلمسها غالب بك، ولم يقرأ عناوينها، فمهندس الديكور هو الذي اشتراها من مكتبة الأنجلو، لتناسب أغلفتها الزرقاء لون الجدران البيضاء، وكل ما فعله غالب بك أنه وقّع على فاتورة بمبلغ أربعمائة جنيه ثمن هذه الكتب التي لم يعرف أسماءها!

وكانت غرفة مكتب المدير العام هي أهم ما تفرغ له غالب بك عقب تعيينه في هذا المنصب المرموق إثر وفاة المرحوم عبد المتعال محجوب المدير السابق. لقد عجب غالب بك عندما شاهد غرفة المدير للمرة الأولى. . كانت غرفة صغيرة، أربعة أمتار في ثلاثة أمتار، لا تتناسب مع عظمة الشركة ومكانتها. أثاثها هو أثاث مكتب المرحوم جلال السيد منشيء الشركة الذي كان في مكتبه منذ أربعين عاماً. .

يومها سخر غالب بك من الأثاث الحقير، الذي لا يتناسب مع التقدم التكنولوجي. وجاء بمهندس الديكور الفرنسي المشهور مسيو ليمان، وكلفه بأن يفتح أربع غرف مجاورة على بعضها، ويحولها كلها إلى مكتب ضخم يليق بمقام المدير العام.

وقد كلف هذا الديكور خزانة الشركة عشرة آلاف جنيه، ولكنه مبلغ تافه دفعته الشركة لتريح سعادة المدير، وتزيد المساحة التي

تتجول فيها عبقريته.. فالعبقرية تختنق في غرفة طولها ثلاثة أمتار، وتنطلق في غرفة طولها خمسة عشر متراً!

وحرص غالب بك على ألا يزيد أعباء الشركة بهذا المبلغ، فحذف من الميزانية مبلغ خمسة عشر ألف جنيه كانت مخصصة لشراء آلة جديدة لصنع البسكويت، ودفع عشرة آلاف جنيه منها مصاريف ديكور المكتب، وبذلك استطاع أن يوفر للشركة مبلغ خمسة آلاف جنيه، وزعها على العمال والموظفين مكافأة تشجيعية بمناسبة توليه منصب المدير العام. وقبض مسيو ليمان مبلغ سبعة آلاف جنيه وأخذ المدير ثلاثة آلاف جنيه سمسرة من المهندس الفرنسي نظير إرساء العملية عليه!

وهكذا استطاع غالب بك بخبطة واحدة أن يسعد العمال، ويسعد الموظفين، ويسعد المدير العام.. ويسعد فرنسا أيضاً في شخص مسيو ليمان!

إن من مزايا غالب بك أنه حريص على أن تكون جميع حسابات الشركة مضبوطة.. الجمع مضبوط، الطرح مضبوط، الضرب مضبوط، والسرقة مضبوطة أيضاً!

وإذا كان بعض العمال والموظفين الخبثاء الذين يعضون اليد التي أطعمتهم، يسمونه هو وأقاربه من موظفي الشركة (**غالب بابا والأربعين حرامي**) على وزن علي بابا والأربعين حرامي، فقد استطاع أن يتخلص منهم جميعاً عندما نقلهم إلى مصنع الاسكندرية قبل أن يبيعه بأسبوع!

□□□

وجلس غالب في مكتبه يدخن سيجاراً ضخماً، وينفث دخانه،

ويرقب دوائر الدخان وهي ترتفع حتى تصطدم بسقف الغرفة ودخلت السكرتيرة الشقراء الحسناء تقول له :

ـ إن الاستاذ سالم حليم سكرتير قسم الحسابات يستأذن في الدخول!

ـ منذ متى يستأذنني سالم قبل الدخول علي؟

ـ إنه يصر اليوم على أن يستأذن!

ـ دعيه يدخل!

دخل شاب في الثلاثين من عمره طويل القامة، أنيق الملبس، رياضي الجسم، كل شيء فيه يلمع، شعره المدهون بالفازلين، ذقنه المحلوق جيداً بالموس، رباط رقبته طراز (سولكا) كأنه وكل شيء فيه يلمع . . جزء من ديكور مكتب المدير العام!

وانحنى سالم بأدب جم، وأمسك بيد المدير العام وهزها وهو يقول بتأثر:

ـ البقية في حياتك يا سعادة المدير.

ـ حياتك الباقية يا سالم!

ـ خسارة كبرى!

ـ خسارة لا تعوض!

ـ البقاء لله!

وفجأة، ضرب غالب بك على مكتبه بقبضة يده وقال في غضب:

ـ أوقف هذا الكلام الفارغ . . لماذا انقطعت ثلاثة أيام عن الحضور للشركة؟

ـ كنت مشغولاً في تشييع الجنازة وحضور المأتم!

- **كان في إمكانك أن تحضر إلى الشركة ولو مدة عشر دقائق لتطمئنني!**

- كنت أتصور أنني طمأنتك عندما اتصلت بك تليفونياً في بيت كاميليا هانم وقلت لك: «تم شحن البسكويت»!

- **فهمت أنك دهست عبد المتعال محجوب.**

- أفلت بأعجوبة!

- **إنه رجل محظوظ!**

- المهم أننا تخلصنا من الثعبان!

- **فعلاً.. كانت ضربة معلم!**

- أثار عبد الجواد شكوكي عندما رأيته يغادر مكتبه فجأة.. إنه اعتاد أن يكون آخر من يترك غرفة الحسابات ولكنه عقب ضرب السعاة لعبد المتعال تلفت حواليه، ثم غادر الغرفة بحجة أن عنده مغصاً. وعندما اتصلت بي سعادتك تليفونيا وطلبت مني التخليص على عبد المتعال لاحظت أن عبد الجواد لم يستعمل المصعد في نزوله، وإنما نزل على درجات السلم، وتبعته، ثم لاحظت أنه انتقل إلى الرصيف الآخر وركبت سيارتي ومشيت خلفه من بعد ولاحظت أنه اقترب من عبد المتعال الذي كان واقفاً بجوار عمود النور في آخر الشارع، ويظهر أنه همس بكلمات وهو يمر أمامه، لأن عبد المتعال تبعه ومشيت بسيارتي خلفهما ووجدت أنهما يدخلان من شارع ليخرجا من شارع، وينعطفان في حارة ليخرجا من حارة أخرى، وكأنهما يحرصان على أن يضيعا كل أثر لهما.. ثم رأيتهما يدخلان حانة في شارع الفجالة، ويبقيان فيها طويلاً. واستنتجت على الفور أنهما يتآمران ضد سعادتك، ومن يتآمر ضد سعادتك فإنه يتآمر ضد الشركة، ضد ألوف العمال، ضد ألوف الأمهات والزوجات والأطفال الصغار، وقررت أن أتخلص

منهما معاً . . وفوجئت بعبد المتعال يخرج وحده من الحانـة ، وقررت أن أدهسه بالسيارة فإذا بجندي الشرطة يسير خلفه، وكأنه يشك أنه متشرد سكـير، واضطررت أن أتـركه حتى يبتعـد جندي الشرطـة، وعدت إليه مرة أخرى، فـإذا به ملتصق بجـدار بيت بجوار كـازينو البوسفور، أمام محطة الأوتـوبيس. ولاحظت وجـود عدة أشخـاص ينتظرون الأوتوبيس، فـابتعدت، وعـدت إليه من جـديد، وكـأن الأرض انشقت وابتلعته . . بحثت عنه في كـل الشوارع والحـواري الجانبية فلم أعثر له على أثر . . ! ووجدت فجأة أمـامي عبد الجـواد أفندي خارجاً من الحانة . . وانتظرت حتى مشى في شـارع الفجالـة المظلم، واندفعت بأقصى سرعة السيارة خلفه، وطـرحته أرضـاً . . وكـان هـذا الجـزء من الشـارع خـاليـاً من المـارة . . ثم انحـرفت بسيـارتي إلى شارع جـانبي، وأوقفت السيارة في حـارة متفـرعـة من شارع الملكة نازلي، ثم ترجلت منها، وعدت عـلى قدمي إلى مكـان الحادث لأطمئن عليه!

- تطمئن عليه؟

- أطمئن أنه فارق الحياة!

- يا لقوة أعصابك!

- أعصابي في خدمتك وخدمة الشركة يا سعادة المدير!

- لم تشعر بالخوف!

- كنت خائفاً أن يكون لا يزال على قيد الحياة!

- وبعدئذ؟

- كان عدد من النـاس قد تجمعـوا حول عبـد الجواد، ودفعتهم جانباً، وانحنيت عليه، ووضعت أذني على قلبه، وعندما تأكدت أنه مات صحت في الناس: ابتعدوا حتى تمكنوه من أن يستنشق الهواء!

ـ إنك إنسان فعلاً . .

ـ هذا من أصلكم . . ألست ابن خالتك .

ـ إنك تصرفت كأنك قاتل محترف!

ـ إخلاصي لك هو الذي يجعلني أفعل كل شيء من أجلك!

ـ ولهذا كنت دائماً أنادي بأنني أفضل في الشركة المخلصين على الأكفاء!

ـ هذا يدل على بعد نظر سعادتك!

ـ وماذا فعلت بعد ذلك؟

ـ قلت للشرطي أنني رأيت بعيني السيارة التي دهست عبدالجواد .

ـ وهل صدقك الشرطي؟

ـ عدد من الأهالي تقدموا وقالوا أنهم رأوا بأعينهم السيارة . .

ـ هل فعلوا ذلك بالرشوة؟

ـ شهود الزور المتبرعون موجودن في كل شارع .

ـ أنت داهية يا سالم!

ـ أنا تلميذ سعادتكم يا سعادة البك!

ـ رب تلميذ فاق معلمه!

ـ العين لا تعلو على الحاجب!

ـ أنت قمت بمهمتك خير قيام!

ـ لم تنتهِ المهمة عند هذا الحد . . إنني حملت جثة عبد الجواد بنفسي في سيارة أجرة إلى المستشفى القبطي . . وقلت أنه على قيد الحياة، وأنه يجب عمل المستحيل لإنقاذ حياته . .

ـ ولماذا فعلت كل هذا؟

ـ حتى انتهز الفرصة وأفتشه أثناء النقل . . خشيت أن يكون في جيبه مذكرات عن أسرار الشركة!

- **وماذا وجدت؟**

- أخذت المحفظة . . ولم يكن فيها أي شيء!

- **ولا مليم؟**

- سبعة جنيهات ونصف!

- **حلال عليك!**

- قتيل بسبعة جنيهات ونصف!؟

- إن أجرة التذكرة من القاهرة إلى لندن خمسون جنيهاً، فماذا يكون أجر التذكرة من الدنيا إلى الآخرة؟

- **ماذا تريد؟**

- خمسمائة جنيه!

- **هذا كثير!**

- أنت لن تدفع شيئاً من جيبك!

- **سأكتب أمراً للحسابات بصرف مبلغ خمسمائة جنيه لك مصاريف جنازة ومأتم المرحوم عبد الجواد أفندي وكيل الحسابات.**

- سيدعو لك العمال والموظفون بطول البقاء.. البقاء مديراً للشركة..

- **ويمكنك أن تدفع من الخمسمائة جنيه عشرة جنيهات لأرملة عبد الجواد..**

- عشرة جنيهات مبلغ كبير.. خمسة جنيهات تكفي!

- **أنت تعلم يا سالم أنني أشفق كثيراً على الأرامل والثكالى!**

- كلنا نعرف أن قلبك كبير!

- **ويمكنك أن تجعل أرملة عبد الجواد توقع على إيصال باستلام الخمسمائة جنيه!**

- كيف أجعلها توقع على خمسمائة جنيه وهي لم تتسلم سوى

خمسمائة قرش!

ـ أنت لا تزال ضعيفاً في الحسابات.. تكتب الايصال، وتكتب كلمة خمسمائة وتترك بياضاً.. وعندما توقع الأرملة سترى أن المبلغ خمسمائة ولا تعرف هل هي خمسمائة قرش أم خمسمائة جنيه!

ـ قد تدقق في قراءة الإيصال!

ـ دموع الثكالى والأرامل تعميهن.. فلا يستطعن التفريق بين الجنيهات والقروش!

ـ أنت أستاذ في كتابة الإيصالات!

ـ إنها مهنتي!

ـ لم يعد لي سوى طلب واحد!

ـ ما هو؟

ـ أن أعين وكيلاً للحسابات بدلاً من عبد الجواد.

ـ هذا حقك.. أنت سكرتير قسم الحسابات، وما دام قد خلا منصب وكيل الحسابات فأنت أحق موظف بهذا المنصب، وخاصة بعد أن أثبت كفاءة في المحافظة على مصالح الشركة!

ـ الإخلاص أهم من الكفاءة!

ـ أهم جداً!

□□□

وقال غالب بك:

ـ وإذا أثبت إخلاصاً أكبر.. فسوف تترقى أكثر وأكثر!

فقال سالم:

ـ هل يوجد إخلاص أكثر مما فعلت؟

ـ عندما تتخلص من عبد المتعال أيضاً!

ـ هذه مسألة بسيطة جداً!

- وكيف تجده؟

- أبحث عن عنوانه في ملفه بالشركة!

- حرقنا الملف للأسف!

- كان يجب حرق عبد المتعال بدلاً من حرق الملف!

- سوف يحاول أن يجيء مرة أخرى لمقابلتي، وسوف أطلب من السكرتيرة أن تسأله عن عنوانه لنتصل به!

- هل يجرؤ على أن يعود إلى الشركة بعد أن ضربه السعاة هذا الضرب المبرح؟

- معلوماتي عنه أن رأسه ناشف!

- سوف تحوله سيارتي إلى رأس ناعم!

- أنت تقوم بجهود جبارة فعلاً.

- كل شيء يهون في سبيل مصلحة الشركة، ومصلحة ألوف العمال والموظفين!

- الله يعلم أنني أحترق من أجل مصالح العمال والموظفين والكادحين!

- ومع ذلك نجد في الشركة ثعابين تعض اليد التي تحسن إليها!

- آخر شيء كنت أتصوره أن عبدالجواد خائن!

- ويخون من؟! يخون سعادتك..؟ سعادتك نصير العمال والكادحين والفقراء وأبناء السبيل!

- أتذكر يا سالم أنك اقترحت عليّ أن أنقله مع الموظفين والعمال المشاغبين الذين نقلتهم إلى مصنع الاسكندرية قبل بيعه ورفضت أن أنقله وقلت أنه أجبن من أن يضر، لأن عنده سبعة أولاد..

- إنها طيبة قلبك.. طيبة قلبك يا سعادة المدير!

ـ ماذا يريد هؤلاء الناكرو الجميل أن أفعل لهم أكثر مما فعلت؟ أرباح الشركة زادت في العامين الماضيين . . وكاميليا ترقص للترفيه عنهم مرة كل شهر؟!

ـ عميان . . عميان لا يرون ضوء الشمس!

ـ على كل حال، فقد لقي جزاءه!

ـ من حفر حفرة لأخيه وقع فيها!

ـ ومن حفر حفرة لمدير الشركة دهسته السيارة!

ـ إن ضميري مستريح. لقد عملنا الواجب لعبد الجواد . . جنازته كانت حافلة. وقد وزعنا عشرة كيلو من البسكويت الفاسد على روحه . . وزرت بنفسي أرملته وأبلغتها حزن سعادتك العميق على وفاته، وأنك أوفدتني لأبلغها عزاءك القلبي. وقالت أرملة عبد الجواد أنه استدان على معاشه كله، وأنها تلتمس منحها معاشاً إستثنائياً . .

ـ كله . . إلا الاستثناءات!

ـ هذا ما قلته لها . . وقلت أيضاً أنه لو كانت السيارة صدمت عبدالجواد أثناء خروجه من الشركة لاستحق مكافأة، ولكن السيارة صدمته وهو يخرج من خمارة!

ـ ألم تقل لها أن زوجها كان يتآمر على الشركة؟

ـ أشفقت عليها، فقد كانت تجلس مع أولادها السبعة وهم يبكون ويلطمون وجوههم!

ـ أنت رجل عاطفي!

ـ هذه نقطة الضعف الوحيدة فيّ!

ـ مصلحة شركتنا قبل عواطفنا الشخصية!

ـ هذه هي المبادىء!

- ألا يكفي هذه الأرملة الطماعة أننا أنفقنا على جنازة زوجها خمسمائة جنيه؟

- تقصد خمسة جنيهات؟

- ما دمنا سنكتب في دفاتر الشركة أنها خمسمائة جنيه. فمعنى ذلك قانوناً أننا صرفنا من أموال الشركة خمسمائة جنيه على رجل خان الشركة، وخان رؤساءه، وأراد أن يتآمر ضد الشركة مع الأعداء.. أي شركة تفعل ما فعلناه؟

- أنت نبيل جداً يا غالب بك!

- وأنا مستعد أن أفعل نفس الشيء مع أرملة عبدالمتعال محجوب عندما يموت!

- إن عبد المتعال مثل القطط له سبعة أرواح.. لقد مات منذ عامين وشيعت جنازته وعاد فجأة إلى قيد الحياة!

- عمر الشقي طويل!

- ولكنه لن يفلت هذه المرة!

- إنني معتمد على يقظتك!

□ □ □

وقال سالم:

- وماذا يخيفك من عبد المتعال؟

- خفت منه عندما قال للسكرتيرة أنه جاء ليعيد السبعة عشر ألف جنيه التي اختلسها!

- هذا شيء لا يخيف.. مختلسون كثيرون اعترفوا باختلاسهم!

- ولكنه لم يختلس شيئاً!

- وماذا يقصد إذن؟

- يقصد أن يعترف بجريمة لم تقع، لكي تجيء النيابة وتراجع حسابات الشركة!

- هذا يدل على أنه ليس رجلاً سهلاً!

- إنه رجل خطير!

- واتصاله بعبد الجواد وكيل الحسابات يضاعف من خطورته.

- هذا يجعل التخلص من عبدالجواد عملاً هاماً جداً.. عملاً هاماً جداً جداً!

- هذا يقتضي أن ننفق على المأتم والجنازة أكثر من خمسمائة جنيه!

- لا تكن طماعاً كزوجة عبدالجواد!

- أعتقد أنه يجب أن تكون كريماً أكثر في نفقات الجنازة.. ولا تنس أن له سبعة أولاد!

- أعدك بأن أضاعف نفقات جنازة عبد المتعال!

- ألا أستطيع أن أقبض دفعة على الحساب؟

- لا يجوز تشييع جنازة أحد قبل أن يموت!

- كم ستتكلف جنازة عبد المتعال؟

- ألف جنيه!

- ألف جنيه فقط!

- الجنازة حامية والميت كلب!

- عبد المتعال كان يدير الشركة.. وعبد الجواد وكيل حسابات فقط.. فهل يساوي المدير ضعف وكيل الحسابات فقط؟

- لقد وعدتك بمنصب كبير في الشركة!

- أنت بخيل جداً..

- واجبي المحافظة على أموال الشركة!

- أريد خمسة آلاف جنيه!

- عبدالمتعال محجوب لا يساوي عندي خمسة مليمات!

ـ إذا كان لا أهمية له، فلا داعي للتخلص منه!
ـ يجب أن تكون قنوعاً مثلي!
ـ أنت أخذت من أموال الشركة أكثر من مائة ألف جنيه وتستكثر علي خمسة آلاف جنيه؟
ـ أنا أنقذت الشركة من الافلاس!
ـ وأنا أنقذت مدير عام الشركة من السجن!
ـ ماذا جرى لك يا سالم؟ أنت نسيت أنك ابن خالتي؟
ـ أنت الذي نسيت أنني ابن خالتك!
ـ وماذا تريد مني أن أفعل؟
ـ أن تعاملني كما تعامل الراقصة كاميليا!
ـ أنت تعلم أن كاميليا تحبني!
ـ وأنا أحبك أيضاً . . ثم هل كاميليا مستعدة أن تضحي بحياتها من أجلك؟ أن ترتكب جريمة قتل من أجلك؟
ـ طبعاً؟
ـ إذن يمكنك أن تكلفها هي بقتل عبد المتعال!
ـ لا تكن مجنوناً . . إن أعصابك متعبة بعد الحادث . . يجب أن تسافر إلى الاسكندرية لتستريح . . وسوف تدفع لك الشركة نفقات سفرك وإقامتك لمدة أسبوع!
ـ وهل أسافر وحدي!
ـ أنت حر في أن تأخذ معك من تشاء!
ـ سآخذ الراقصة جمالات!
ـ خذ معك عشر راقصات!
ـ ومن يدفع نفقات العشر راقصات؟
ـ الشركة طبعاً . . فأنت في مأمورية رسمية!
ـ أنت مدير عظيم!

- **ومعٍ ذلك كنت تتهمني بالبخل من دقائق!**
- فعلاً أعصابي متعبة!
- **أعتقد أن أعصابك تلفت وأنت ترتكب الحادث!**
- لم أشعر بأعصابي وأنا أدهس عبدالجواد بالسيارة، ولا عندما حملت جثته إلى المستشفى، ولا عندما رأيت أطفاله السبعة وأرملته.. ولكن أعصابي خانتني وأنا أشيع جنازته!
- **لأنك تقتل القتيل وتمشي في جنازته؟**
- أبداً.. خيل إلي طول الوقت أن عبدالجواد سيخرج من النعش في أي لحظة ويشير إلي ويقول: هذا هو الذي قتلني!
- **الموتى لا يعودون إلى الحياة!**
- لكن عبدالمتعال عاد إلى الحياة!
- **بصفة مؤقتة!**
- لا يهمني إن كان هذا بصفة مؤقتة أو بصفة دائمة.. الذي يهمني أنه عاد إلى الحياة.. ولهذا لم أسترح إلا عندما رأيتهم يضعون جثته داخل القبر، ويهيلون عليه التراب!
- **عندئذ استرحت!**
- استرحت مؤقتاً!
- **وسوف تستريح أكثر عندما تتخلص من عبدالمتعال.. إنني أخشى أن يكون هو الوحيد الذي يعرف أسباب مصرع عبد الجواد!**
- اعتمد علي في أنني سأقتل عبدالمتعال!
- **أنا معتمد عليك دائماً!**
- كل من سيقف في طريقي سوف أدهسه!

وخرج سالم من الغرفة.. ولكن بقيت عبارة «كل من سيقف في

طريقي سوف أدهسه» ترقص في المكتب أمام غالب بك!

بدأت العبارة ترقص كأنها حروف صغيرة.. ثم كبرت وكبرت حتى ملأت المكتب الواسع كله!

ما يدريه أنه سيجيء يوم يدهسه سالم بسيارته كما فعل مع عبد الجواد أفندي، ليجلس هو في معقد المدير العام!

الفصل العشرون

أمسكت سلوى بقطعة من القطن مبللة باليود، وراحت تمسح جروح عبد المتعال.. أخفى عنها قصة جروحه ثلاثة أيام. كما أخفى عنها الخرق الممزق في البنطلون. بقايا كرامته المجروحة جعلته يخفي عن المرأة التي تحبه أن عشرين ساعياً من سعاة الشركة التي بناها بدمه وأعصابه، ركلوه بأحذيتهم، وصفعوه بأيديهم ولعنوا أباه عشرين طابقاً، وعاملوه شراً مما تعامل به الكلاب!

لقد وعدها أن يكون صادقاً معها، وفي هذه المرة حاول أن يكذب عليها. كانت تسأله عن ذبوله واصفراره فيدعي أنه مصاب بنزلة برد. كانت تسأله عن الخدوش التي في يده وفي وجهه فكان يقول أن «نمر» كلب أم كلثوم هاجمه وهو يمر أمام فيلتها في الليل. كانت تلاحظ أنه يضع يديه دائماً خلف ظهره، وكان يجيب أنه يشكو آلام الروماتيزم في ظهره!

خجل أن يقول الحقيقة. العاشق يجب أن يذكر أمام المرأة التي يحبها انتصاراته، ولا يطيق أبداً أن يذكر لها هزائمه! كل رجل يحب أن ترى المرأة أحسن ما فيه.. طبيعة العشاق أن يستعرضوا أمام عشيقاتهم أجمل ما فيهم، ناسين أن المرأة تعبد حبيبها مهزوماً بعد أن كانت تحبه منتصراً.. المرأة بطبيعتها تتلذذ في أن تكون شهيدة.

يسعدها أن تشرب دموع حبيبها، كأنها تشرب قبلة ساخنة من شفتيه. قلبها يدق أكثر عندما يتحول رجلها إلى طفل يغرق همومه في حضنها.. الرجل بغروره يتصور أن المرأة التي يحبها تعشقه وهو بطل فوق الحصان، ولا يعرف أنها تعشقه أكثر وهو يسقط من فوق الحصان في أحضانها!

واستطاعت سلوى بذكاء قلبها أن تكتشف أن عبد المتعال يخفي عنها سراً، وحاصرته باسئلتها، فاضطر أن يستسلم أمام ذكائها، ويعترف بالوداع الحماسي الذي ناله على أيدي سعاة الشركة العشرين. وفوجيء بأنها لم تجزع لما أصاب البنطلون، وأنه عندما كشف لها عن جروحه أفزعتها الجروح والرضوض ولم تهتم بجروح البنطلون. وشعر بهناء لم يعرفه طوال هذه الأيام الثلاثة، عندما عرف أن لحمه، عند سلوى، أغلى كثيراً من قماش البنطلون!..

□□□

ولكن سلوى لم تصدق أن هذه الجروح وحدها هي السبب في دموع عبد المتعال المتحجرة في عينيه.. إنها بتجربتها تعرف أن جروح الجسم مؤلمة، ولكن جروح الروح مبرحة.. تعرف أنه من السهل تضميد الجروح الخارجية، ولكن من الصعب وقف نزيف الجروح الداخلية، وفوجيء بسلوى تقول له:

- لا أصدق أن هذه الإصابات وحدها تفعل بك كل هذا؟

فقال لها:

- أنت ترين بعينيك عمق الجروح!

- يوجد جرح آخر أشم رائحته ولا أراه!

- كشفت لك عن كل جروحي!

ـ إلا الجرح الأكبر!

ـ الرجل الذي اعتمدت عليه ليساعدني . .

ـ تخلى عنك؟

ـ ليته تخلى عني!

ـ خانك؟

ـ ليته خانني!

ـ ماذا حدث له؟

ـ قتلوه!

ـ من هم الذين قتلوه؟

ـ الذين دفنوني وأنا على قيد الحياة!

ـ لا تتسرع في أحكامك!

ـ إنني أرى دمه يلطخ أيديهم!

وقص عبد المتعال قصة عبد الجواد أفندي وكيل الحسابات وكيف دعاه لأن يتبعه وكيف اجتمع به في خمارة «يني» بالفجالة، وكيف أطلعه على الجرائم التي ارتكبت في الشركة، وكيف أخبره أن وثائق هذه الجرائم موجودة في خزانة كيرلس أفندي مدير الميزانية، وكيف أن مفتاح الخزانة في جيب مدير الشركة وكيف وعده بأن يحضر له في اليوم التالي وثيقة الفيلم الذي ستخرجه شركة البسكويت للراقصة كاميليا، ثم كيف دهسته سيارة عند خروجه من الخمارة، ثم كيف هرب هو على الفور.

وامتقع وجه سلوى وسألته:

ـ هل تتصور أنهم أرادوا أن يقتلوه!؟

ـ إن إحساسي يؤكد أنهم قصدوا أن يقتلوه!

ـ وإحساسي يؤكد لي أنهم قصدوا أن يقتلوك!

- ولماذا لم يقتلوني؟

- سوف يقتلونك!

- ولكنني أنا الذي خرجت من الحانة قبل عبد الجواد.

- فشلوا في أن يقتلوك، ولهذا لم يريدوا أن يعودوا إلى محرضيهم وأيديهم فاضية فملأوها بجثة صديقك عبد الجواد!

- إنهم لم يحاولوا قتلي! لم أشعر بسيارة ورائي حاولت أن تصدمني. لم يتعرض لي أحد أثناء سيري في الطريق.

- عندما أعمتهم يد الله.. أعمتك في الوقت نفسه!

- أفهم أن تعمي يد الله القاتل، ولا أفهم أن تعمي يد الله القتيل!

- حكمة الله لا يتبين سببها إلا بعد وقت طويل!

- كان المفروض أن يمنحني الله بصراً أقوى في تلك اللحظة لأرى وجه القاتل!

- لو أن الله أعطاك بصراً في تلك اللحظة لاضطربت، وترددت، وربما سقطت على الأرض فزعاً، وكأنك تعطي القاتل فرصة لارتكاب جريمته!

- عجيب أن تعرف غانية مثلك الله أكثر مما يعرفه رجل مثلي يؤدي الصلوات في أوقاتها!

- يظهر أنك من السذج الذين يتصورون أن الله لا يدخل الكباريهات وإنما يدخل بيوت العبادة فقط.. إن الله موجود في كل مكان!

- لأنه في كل مكان نعجز أحياناً أن نراه!

- ولكنه يرى كل شيء!

ـ إذا كان الله يرى كل شيء، فكيف لم يمنع قتل عبد الجواد أفندي الذي له سبعة أولاد؟

ـ نحن في هذه الحياة أشبه بممثلين في مسرحية لو عرف المتفرجون (عقدتها) قبل نهايتها لفقدت المسرحية جمالها وروعتها وقمة المأساة فيها!

ـ ما دمنا ممثلين في المسرحية فمن حقنا أن نعرف عقدة الرواية.

ـ نحن ممثلون ومتفرجون في وقت واحد. ولهذا لا نعرف إلا أدوارنا!

ـ أنا لا أعرف دوري في المسرحية!

ـ دورك أن تقول «لا»!

ـ كنت أظن أن دوري هو أن أنقذ نفسي!

ـ كان هذا في الفصل الأول!

ـ ثم أصبح دوري أن أنقذ الشركة!

ـ هذا دورك في الفصل الثاني!

ـ وماذا سيكون دوري في الفصل الثالث؟

ـ أن تنقذ البلد!

ـ إذا كنت لم أستطع أن أنقذ فرداً، فهل أستطيع أن أنقذ أمة؟

ـ تذكر أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة!

ـ حتى هذه الخطوة لم أستطع أن أخطوها!

ـ سوف تخطوها!

ـ أبدأ بنفسي!

ـ لا يهمني أن تبدأ بنفسك، أو تبدأ بالشركة، أو تبدأ بالبلد.. المهم أن تبدأ!

ـ وماذا تقترحين أن أفعل؟

ـ اسرق المستندات الموجودة في مكتب كيرلس أفندي!

ـ هذه مهمة لا يستطيع أن يقوم بها فرد واحد.

ـ ابحث عن شركاء!

ـ أول شريك وجدته دهسته سيارة!

ـ ابحث عن شريك آخر.

ـ لتدهسه سيارة أخرى؟

ـ قد يفلت من السيارة كما أفلت أنت منها!

ـ لا أظن أنني سأجد من يقبل أن ينضم إلى جماعتي، بعد أن رأى ما حدث لعبد الجواد أفندي!

ـ أنا مستعدة أن أصبح عضواً في العصابة!

ـ أنت سلوى وهبي الممثلة المشهورة وملكة الإغراء تصبحين عضواً في عصابة تسرق الخزائن الحديدية؟!

ـ إنه دور جديد أحب أن أقوم به!

ـ من أجلي؟

ـ من أجلك ومن أجل الشركة ومن أجل البلد!

ـ وما هي علاقتك بالشركة؟

ـ لأن البلد مجموعة شركات!

ـ لا يكفي إثنان لاقتحام شركة كبيرة، وسرقة خزانتها الحديدية!

ـ عندي عضو ثالث في العصابة!

ـ من هو؟

ـ خادمتي هدى!

ـ أفهم أن تقومي بهذه التضحية من أجلي لأنك تحبينني.. فماذا يدفع هدى لتقدم هذه التضحية؟

ـ إنها تحبني!

- **أنت تضحين من أجل بلدك..**

- وهو بلد هدى أيضاً..

- **أنت عندما تعرضين أن تقومي بهذه المخاطرة تفعلين ذلك لأنك مقتنعة بالفكرة ومؤمنة بالهدف، أما هذه الخادمة فلا تعرف هذه الأفكار، ولا تفهم هذه الأهداف!**

- هل تتصور أن الذين يقومون بثورة شعبية لهم هدف واحد ولهم فكرة واحدة؟ كل واحد منهم يفهم الثورة بطريقة مختلفة. عندما قامت ثورة ١٩١٩ اعتقد الفلاحون أن انتصار الثورة معناه أن يملكوا الأرض التي يزرعونها، واعتقد الموظفون أنهم سيتولون المناصب الكبيرة التي يحتكرها الانجليز، واعتقد الأعيان أنهم سيبيعون القطن بثمن أعلى، بينما تشتريه مصانع لانكشير بسعر التراب، واعتقد الجائع أنه سيجد طعاماً، واعتقد العاري أنه سيجد كساء، واعتقد المظلوم أنه سيجد عدلاً، واعتقد السجين أنه سيجد حرية، وكلهم فهموا أن جلاء الانجليز عن بلادهم سيؤدي إلى (التغيير).. فالذي ربط بينهم شيء اسمه إرادة (التغيير)..

- **هل درست ثورة ١٩١٩ في المدرسة؟**

- للأسف، إنهم لم يدرسوها لنا في المدرسة.. ولكني تعلمتها من مسرحية عن ثورة ١٩١٩.

- **وما هو التغيير الذي تريده خادمتك هدى؟**

- تتمنى أن أصلي!

- **أنت تصلين؟**

- قالت لي أن أمنيتها في الحياة أن تراني أؤدي فروض الصلاة في أوقاتها!

- **وسوف تصلين؟**

ـ نعم.. وسأقول لها أننا إذا نجحنا في سرقة الخزانة فسأصلي!
ـ لا أتصور أن ملكة الإغراء تصلي!
ـ كما لا نتصور أنها ستصبح عضواً في عصابة لسرقة الخزائن الحديدية!
ـ لقد بدأ التغيير فيك بغير ثورة!
ـ الحب هو أكبر ثورة تحدث في حياة الانسان!
ـ ولكن ليس لواحد منا، نحن الثلاثة، خبرة في فتح الخزائن الحديدية!
ـ نستأجر لصوصاً متخصصين في فتح الخزائن!
ـ هذا كان اقتراح المرحوم عبد الجواد أفندي، ورفضته!
ـ لماذا رفضته؟
ـ لأن الثوار (بالأجرة) أخطر على الثورة من أعدائها!
ـ سنحتاج إلى وقت طويل كي نتعلم فن فتح الخزائن!
ـ وكل يوم يمضي على الشركة في حالتها الراهنة يوصلها إلى حافة الإفلاس!
ـ عندي فكرة تغنينا عن فتح الخزانة بالقوة!
ـ نحملها ونخرج بها!
ـ لا أستطيع أنا وأنت وهدى أن نحمل خزانة كبيرة!
ـ ماذا تريدين أن نفعل؟
ـ نسرق المفتاح من جيب المدير العام!
ـ من يسرقه؟
وهنا قالت سلوى:
ـ أنا!
فقال عبد المتعال:
ـ كيف تسرقين المفتاح من جيبه؟

ـ سوف أصبح عشيقته!

ـ ماذا تقولين؟ بدلاً من أن أخلص شركة البسكويت من الرجل الفاسد الذي يحتلها، أتركه يحتل المرأة التي أحبها!

ـ احتلال مؤقت!

ـ لا أحتمل أن يحتلك ساعة واحدة!

ـ أنت أعطيتني مهلة عام!

ـ أنا لم أعطك مهلة ساعة!

ـ أنا أريد أن أنقذ الشركة!

ـ كأنه محكوم علينا أن نحرر ما نحب بتعهير من نحب!

ـ أنا لم أتعهر.. أنت تعرف أنني كنت عاهرة!

ـ وحررك حبي!

ـ ماذا يضيرك لو تأخرت عملية (التحرير) بضعة أيام؟

ـ ولا بضع دقائق!

ـ أنت تغار علي!

ـ الغيرة من علامات الحب!

ـ عندما يصل الحب إلى القمة، تبقى الغيرة عند السفح!

ـ أنا صعدت إلى القمة والغيرة معي!

ـ وأنا مستعدة أن أحتمل الغيرة لأنني أحبك أكثر مما تحبني!

ـ ماذا تعنين؟

ـ أن تسرق المفتاح أنت!

ـ كيف أسرقه؟

ـ تصبح عشيقاً للراقصة كاميليا!

ـ مستحيل!

ـ طبعاً.. لا تريد أن تخونني!

ـ ليس هذا فقط.. معنى ذلك أنني أؤكد الأكذوبة التي اختلقها

غالب بك المدير الجديد بأنني كنت عشيق كاميليا!

ـ هذه تضحية من أجل إنقاذ الشركة!

ـ أنقذ الشركة وأغرق أنا!؟

ـ كثير من الناس ماتوا لتعيش أوطانهم!

ـ ولكني أموت في الوحل!

ـ الموت في الوحل أحياناً يكون أشرف من الموت في الفراش!

ـ إن هذا الاقتراح مرفوض، مرفوض، مرفوض.. ولو حدث المستحيل وقبلته فلن تقبله كاميليا!

ـ بل سوف تقبله؟

ـ كيف تتصورين أنها ترضى بأن تعشق مفلساً مع مليونير؟

ـ كل الغانيات يعشقن المفلس مع المليونير. تأخذ أموال العاشق المليونير لتعطيها للعاشق المفلس!

ـ هذا شيء يحدث في الروايات فقط!

ـ وفي الحقيقة أيضاً!

ـ لم أسمع أن امرأة فعلت ذلك!

ـ أنا فعلت ذلك!

ـ مع من؟

ـ معك أنت!

ـ أنت أعطيتني أموال عاشقك المليونير؟

أعطيتك عشرة جنيهات من نقود مجدي باشا الأسيوطي وزير المواصلات!

ـ وكيف أصل إلى الراقصة كاميليا!

ـ أنا أوصلك إليها!

ـ لا يمكن أن أعجبها!

ـ إذا كنت أعجبتني.. فسوف تعجبها!

- لن تتكرر المعجزة مرتين!

- سوف أحصل لك على كل تفاصيل حياتها، عن كل ما يعجبها في الرجل، عن أسرار جسدها، عن نقاط الضعف فيها، عن كل مفاتيح قلبها.. وسوف أدربك بنفسي لتستطيع أن تقتحم قلبها!

- أسهل أن نتدرب على اقتحام الخزانة الحديدية!

- اقتحام الخزانة الحديدية صعب.. واقتحام قلب كاميليا سهل جداً!

- أنت أول امرأة في الدنيا تدرب الرجل الذي تحبه، لتعشقه امرأة أخرى!

- حتى نحصل على المفتاح!

- وماذا يدريك أن تعجبني خزانة كاميليا المصنوعة من اللحم، وأفضل أن أقيم فيها، وأنسى الخزانة الحديدية في شركة مصر للبسكويت؟

- أنا واثقة كل الثقة!

- واثقة بي؟

- لا.. واثقة من كاميليا!

- هل هي صديقتك!؟

- لا.. وإنما أعرفها جيداً.

- وماذا تعرفين عنها؟

- أنها لا تحب المفلس أكثر من ثلاثة أيام!

- وماذا أطلب منها؟

- اطلب منها أن تسرق المفتاح من جيب بنطلون المدير العام عندما يخلع بنطلونه!

- وماذا يجعلك واثقة من أن المدير العام سيخلع بنطلونه؟

ـ كل المديرين العامين يخلعون بنطلوناتهم عندما يدخلون عند عشيقاتهم!

ـ لماذا؟

ـ حتى لا «تتكرمش» البنطلونات!

ـ وكيف نعرف أن هذا هو المفتاح المطلوب!

ـ تسرق كل المفاتيح!

ـ وماذا يحدث لها عندما يضع المدير العام يده في جيب بنطلونه ويكتشف اختفاء المفاتيح!

ـ عادة يكون الرجل مخدراً عندما يبدأ في ارتداء البنطلون ليعود إلى بيته!

ـ وإذا رفضت كاميليا أن تعطيني المفتاح؟

ـ الغانية عندما تعشق رجلاً تعطيه كل ما تملك في الليلة الأولى. وتعطيه قلبها في الليلة الثانية، وتعطيه جسدها في الليلة الثالثة، وتعطيه رفسة في الليلة الرابعة!

ـ أنت خبيرة بالغواني!

ـ تذكر أنني غانية!

ـ كنت غانية!

ـ ماذا يجعلك واثقاً من ذلك!

ـ لأنه مضى عليك عشرة أيام.. ولم تعطيني رفسة!

□ □ □

جلس عبد المتعال كالتلميذ أمام سلوى، يتلقى منها الدرس الأول في كيف يبهر الراقصة كاميليا، وكيف يجعلها تسقط في هواه.. وقالت سلوى وقد اتخذت سيماء الجدية:

ـ عشق الراقصات هو رياضة مثل رياضة الملاكمة. اللاعب الناشيء يخرج من المباراة الأولى مع راقصة محترفة، مهشماً، محطماً، ممزقاً.. كثيرون منهم يصابون بالضربة القاضية في الجولة الأولى!

ـ سوف أقع بالضربة القاضية قبل أن تبدأ المباراة!

ـ مهمة المدرب أن يحميك من الوقوع!

ـ أنا واثق أنني مهما تدربت فسوف أقع!

ـ أنا واثقة بفضل تدريبي من أنك سوف تنتصر!

ـ المفروض أن تكون مباراتي الأولى مع ملاكم مبتدىء.. لا مع بطل العالم في الملاكمة.. كيف تطلبين مني أن أتبارى مع البطل كارنيرا، أو مع البطل جو لويس، وأنا ليس لي أي تجارب في هذه الرياضة. أنا لم أعرف أي راقصة في حياتي!

ـ سوف أدربك لتكون بطلاً عالمياً!

ـ ليس عندي استعداد لهذا النوع من الملاكمة الغرامية!

ـ اصبر! وسوف ترى العجب!

ـ لست مقتنعاً بأن الطريق لتحرير الشركة يمر بين سيقان الراقصات..

ـ عندما يكون باب الشركة هو نفس باب الراقصات، فنحن مرغمون على أن نقتحم باب الراقصات!..

ـ ولكني لا أستطيع ذلك وحدي!

ـ سأكون معك!

ـ هذا شيء مطمئن!

ـ سوف أصحبك إلى باب شقتها!

ـ المفروض أن يحضر المدرب بنفسه المباراة، ليشجع الملاكم الذي يدربه!

ـ لن تحتاج لتشجيعي!

ـ قد أحتاج إليك لتحملي جثتي من السرير!

ـ ستقيم إحدى صديقاتي الفنانات حفلة عيد ميلادها في الأسبوع القادم، وسوف أطلب منها أن تدعوك وتدعو الراقصة كاميليا.. وسوف أقدمك بنفسي لكاميليا!

ـ ستقولين لها أنهم وجدوا صورتها في درج مكتبي؟

ـ سأقول لها أنك حبيبي!

ـ وبذلك تقطعين عليها الطريق!

ـ بالعكس.. بذلك أشجعها على أن تخطفك!

ـ وتحب رجلاً يعشقك؟

ـ هواية كاميليا أن تخطف الأزواج من زوجاتهم، والعشاق من عشيقاتهم.. الرجل الذي يثيرها هو الرجل (المشغول).. أما الرجل (الفاضي) فلا يثير انتباهها. إنها تحب ما لا تمتلك، وتزهد فيما تملك. الرجل في ذراع امرأة أخرى هو ملك الجمال، والرجل الذي يسير بلا امرأة هو المنبوذ!

ـ إنها إمرأة غريبة!

ـ غرابتها أنها ترى الناس بعيون الآخرين! ما يعجب المرأة الأخرى يعجبها. تذوق الرجال بشفاه غيرها من النساء.. كأن شفتيها فقدتا القدرة على التمييز من كثرة القبلات الصناعية التي طبعتها على شفاه رجال لم تحبهم.. سوف تكتشف فيك فجأة صفات لم ترها عندما تعلم أنني أحبك.. ستقول لنفسها لا بد أن في هذا الرجل سحراً اكتشفته سلوى وهبي بذكائها وخبرتها في الرجال!

- ولن تجد شيئاً!

- حتى لو لم تجد شيئاً فستتوهم أنها وجدت كل شيء.. يكفي أن تعلم أنك حبيبي لتعتقد أنك نجحت في الكشف الطبي، وكشف الهيئة، وكشف النظر، فهي تعلم أنني أجيد انتقاء الرجال!

- حتى لو رأت مثلاً ملابسي (مبهدلة)!

- ستعتقد أن هذه آخر (موضة) في ملابس الرجال!

- لا بد أنها عمياء!

- ميزتها أنها مغرورة، والغرور نوع من أنواع العمى!

- وماذا أقول لها؟

- تحدثها عن شعر المتنبي، وشعر شوقي، وشعر شكسبير.

- هل هي شاعرة؟

- لا تفهم الفرق بين بيت الشعر، وبيت في حي بولاق!

- ولماذا أتحدث عن الشعر وهي لا تفهم في الشعر؟

- سوف تجد رجلاً يتحدث معها كأنها امرأة مثقفة..

- ولكنها ليست امرأة مثقفة!

- المرأة الجاهلة المغرورة تعشق الرجل عندما يحدثها عن العلم!

- ولهذا كانوا يسمون كل راقصة في شارع محمد علي (عالمة)!

- لأنها لا تقرأ ولا تكتب!

- وهل أثني على جمالها ورشاقتها وسحر عينيها!

- إياك أن تفعل ذلك.. هذا المديح سمعته قبلك من ألوف الرجال! حدثها عن رأسها.. ستكون أول رجل يتحدث عن رأسها!

- تقصدين رقصها؟!

- لا.. أقصد رأسها!

ـ وماذا في رأسها؟

ـ لا شيء!

ـ كيف أثني على لا شيء؟

ـ هذه هي الضربة القاضية!

ـ ستقع!

ـ فوراً!

ـ إن عقلها فارغ!

ـ وهذا هو السبب. عندما ستجد كاميليا أنك تتحدث عن عبقريتها، سوف تتصور أنك أول رجل فهمها. . أنك اكتشفت فيها أشياء لم يكتشفها أحد قبلك!

ـ حتى ولا هي!؟

ـ المرأة تعشق الرجل الذي يستخرج منها كنوزاً لم تكن تعرف أنها في داخلها!

ـ إنها ليست كنوزاً. . إنها تراب!

ـ سوف يتحول هذا التراب في عينيها إلى ذهب!

ـ لا بد أنها امرأة غبية جداً!

ـ كل امرأة مغرورة غبية جداً!

ـ وهل أدعي أمامها أنني مليونير!

ـ قل لها إنك مفلس!

ـ سوف تهرب مني!

ـ الرجل المفلس لا يقول أبداً للغانية أنه مفلس. . أصحاب الملايين وحدهم هم الذين يتظاهرون بأنهم مفلسون!

ـ سوف أقول لها أنني مفلس جداً!

ـ هذا سيؤكد لها أنك مليونير جداً.

ـ وسوف تكتشف بعد ذلك أنني مفلس!

ـ سوف تكتشف ذلك بعد أن نكون قد أخذنا المفتاح.

ـ وكيف أطلب المفتاح؟

ـ تظاهر بأنك تغار من غالب بك مدير شركة مصر للبسكويت.. اصفعها على وجهها.. الغواني يعشقن الرجل الذي يصفعهن على وجوههن. طعم الصفعة ألذ كثيراً عندهن من طعم القبلة.. قل لها أنك تعلم أن غالب بك يحتفظ بمفتاح شقتها، وأنك تطلب منها أن تقطع علاقتها بغالب بك فوراً. سوف تتهاوى أمامك.. سوف تتظاهر بأنها ستقطع علاقتها به.. سوف تقسم لك بأغلظ الأيمانات بأنها لن ترى وجهه بعد الآن، وأنك ستكون حبها الوحيد وعشيقها الوحيد ورجلها الوحيد.. عندئذ اطلب منها دليلاً على صدقها.. اطلب سلسلة المفاتيح التي يحتفظ بها غالب بك.. لن تتردد في أن تجيبك إلى طلبك، سوف تسرق لك سلسلة المفاتيح، ولو طلبت منها أن تسرق لك غالب بك كله لسرقته لك لا المفاتيح وحدها!

ـ وتترك غالب بك بغير مفتاح لشقتها؟

ـ تصنع له مفتاحاً جديداً!

ـ كيف تفعل كاميليا كل هذا من أجلي؟

ـ ليس من أجلك أنت.. بل من أجلي أنا!

ـ من أجلك أنت؟

ـ لتخطفك مني!

ـ لن تستطيع أن تخطفني منك.

ـ أنا واثقة أنها من المستحيل أن تخطفك!

ـ ماذا يجعلك واثقة كل هذه الثقة!

ـ لأن مفتاحك معي!

ـ مفتاحي أنا؟

ـ إيماني بك هو المفتاح الذي يفتح لي قلبك دائماً!

ـ ولكن متى أطلب المفتاح؟ هل أطلبه في حفلة عيد ميلاد صديقتك الفنانة؟

ـ احذر أن تطلبه هناك. لا تشر إليه أثناء حفلة عيد الميلاد.

ـ ومتى أطلبه؟

ـ عندما تحس أنها مستعدة أن تعطيك كل شيء!

ـ ومتى تسقط المرأة؟

ـ المرأة كالحكومات تبطش وهي قوية، وتنهار وهي ضعيفة.. تدوس على الضعفاء، وتحمل الأقوياء فوق رأسها!

الفصل الحادي والعشرون

انتفض عبد المتعال وهو يترنح في شفتي سلوى.. أحس بأنها لم تقبله فقط، وإنما نفخت فيه روحاً جديدة أودعت فيه تياراً كهربائياً يسري في كل جسده..

كانت القبلة طويلة، طويلة، طويلة، كأنها ألف قبلة في قبلة واحدة. إنه لم يذق مثل هذه القبلة من قبل. لم يعرف القبلات الحقيقية إلا من شفتي سلوى.

لم يذق الخمر في حياته، ولكنه شربها للمرة الأولى من شفتيها، فأحس بدوار لذيذ. كأنها حقنته بحقنة مخدرة، وأغمض عينيه ليراها، فقد كان يفتح عينيه ليحلم بها.

وأفاق من سكرته اللذيذة وهي تقول له:

- هذه ليست قبلتي!
- فيها طعم الجنة
- إنني أدربك كيف تقبل كاميليا.. هذا هو الدرس الأول!
- لم أفهم الدرس جيداً!
- تريد درساً ثانياً!
- التكرار يعلم الحمار!
- أنا الآن عبد المتعال.. وأنت كاميليا!

ـ أنا عبد المتعال!

ـ أعرف أنك عبـد المتعال. ولكن مهمتي الآن أن أعلمـك كيف تقبل كاميليا. . ولهذا أقوم بدورك!

ـ دور الرجل (اللخمة)!

ـ بالعكس دور الدون جوان، الخبير في القبلات!

ـ إنه أحد الفنون الجميلة!

ـ هو أجمل الفنون التي خلقها الله. .

ـ ما هو المطلوب مني أن أفعله وأنا أقوم بدور كاميليا؟

ـ تجلس كما أنت ولا تتحرك!

ـ كاللوح!؟

ـ كطبيعتك!

ـ هل كاميليا باردة كلوح ثلج؟

ـ كل غانية لوح ثلج، إلى أن يقبلها عشيقها!

ـ وبعد أن يقبلها؟

ـ تسيح!

ـ الثلج لا يسيح إلا بالحرارة!

ـ هـذا ما تفعله شفـاه العشاق. . وعنـدما تنفث الشفتـان ناراً، تذوب المرأة. وتسيح فوراً!

ـ هذا ما حدث لي عندما قبلتني الآن!

ـ هل تعرف أن تقبلني الآن كما قبلتك؟

ـ سأحاول!

ـ إذن أنت الآن عبد المتعال. . وأنا كاميليا!

ـ الحمدلله أنني عدت إلى شخصيتي مرة ثانية!

ـ تضايقت من أن تتقمص شخصية كاميليا!

ـ إنني أمقت تقمص الشخصيات.. مرة أصبح جرجس بطرس.. ومرة أصبح الراقصة كاميليا!

ـ هل أنت مستعد الآن للقيام بدور الدون جوان الخبير في القبلات؟

ـ مستعد جداً!

ـ إذن ابدأ!

□ □ □

ويعدل عبد المتعال رباط رقبته، ويسبل عينيه، وينحني على سلوى ويقول لها:

ـ هل تسمحين لي يا كاميليا بقبلة؟

ـ صفر على عشرة!

ـ هل سقطت في الامتحان؟

ـ بغير ملحق!

ـ أين أخطأت؟. أنا لم أبدأ بعد!

ـ كان أول القصيدة كفراً.. طلب القبلة من المرأة يختلف عن طلب الوظيفة.. هذا الطلب لا يكتب على ورقة تمغة!

ـ أنا لم أقدم طلباً على ورقة تمغة، أنا قلت: هل تسمحين؟

ـ هذه الطريقة تحولك إلى متسول، والمرأة لا تحب أن تقبل المتسولين!

ـ المتسولون يقولون (قرش لله)!

ـ عبارة (هل تسمحين بقبلة) في أذن المرأة أشبه (بقرش لله).. وربنا يجعل بيوت المحسنين عماراً!

ـ إنها عبارة في غاية الأدب!

ـ القبلة هي أول طريق لقلة الأدب!

ـ لا أستأذن؟

ـ السيدة التي تعطي رجلاً إذناً بتقبيلها ليست سيدة محترمة!

ـ وهل كاميليا سيدة محترمة!

ـ كل امرأة تحب أن توهم الرجل الذي أمامها بأنها سيدة محترمة!

ـ وإذا قالت «لا».

ـ لن تستطيع أن تقول «لا».

ـ أؤكد لك أنها (سترفع الصوت)!

ـ ستنقض عليها بشفتيك، ستكتم أنفاسها بقبلاتك!

ـ قد تموت بين يدي!

ـ القبلة لا تميت.. إنها تبعث الموتى إلى الحياة!

ـ إذن دعيني أجرب!

ـ هيا ابتدىء!

□ □ □

يهجم عبد المتعال على شفتي سلوى، ويطبع عليهما قبلة طويلة ثم يقول:

ـ ما ألذ قبلتك يا سلوى!

ـ صفر على عشرة!

ـ صفر لهذه القبلة الطويلة؟

ـ إنك أضعت حلاوتها عندما قلت: ما ألذ قبلتك يا سلوى!

ـ فعلاً.. كان يجب أن أقول يا (كاميليا)!

ـ لا تقل أي اسم. عندما تسلم المرأة شفتيها للرجل تنسى اسمها، تنسى نفسها، حذار أن تذكرها باسمها.. إنها سوف

تستيقظ على الفور من الحلم. . سوف تبدأ تتصرف باعتبارها سلوى وهبي ملكة الإغراء، أو الراقصة كاميليا. . ستأخذ نفسها، ستسترد إرادتها التي نزلت عنها وهي بين شفتيك. . سيتوقف استسلامها. . المفروض أن تجلعها وهي في شفتيك تشعر أنها بلا اسم، وبلا مركز، وبلا وطن. . شفتاك هما اسمها ومركزها ووطنها!

ـ معنى ذلك أن كل هذه القبلة الطويلة اللذيذة لا تساوي إلا صفراً!! أنت أستاذة قاسية جداً في تصحيح أوراق الامتحانات!

ـ لو تساهلت معك فسوف أعطيك واحداً على عشرة!

ـ بعد عشر قبلات مثل هذه القبلة سأستحق عشرة على عشرة!

ـ فلنجرب مرة أخرى!

□ □ □

وعاد عبد المتعال يهاجم شفتي سلوى، وفي القبلة العاشرة ترنحت سلوى، وقالت في صوت هامس وكأنها تستغيث:

ـ ع. ش. ر. ة على عشرة يا حبيبي!

ـ نجحت في الامتحان؟

ـ نجحت بدرجة الامتياز!

ـ لم أكن أتصور أنني سأتعلم بهذه السرعة!

ـ شفتاك خلقتا للقبلات. . ولهذا تعلمت بسرعة!

ـ من علمني حرفاً صرت له عبداً!

ـ ما بالك والقبلة مكونة من أربعة حروف؟

ـ إنها مكونة من أربع شفاه!

ـ الآن ستعرف كيف تقبل كاميليا!

- لن أقبلها!

- كيف لا تقبلها؟

- بعد أن قبلت شفتيك. . حرمت على شفتي أي شفاه أخرى!

- أنت مجنون!

- بل أنا عاقل جداً!

- سوف تعجبك قبلات كاميليا!

- بعد أن ذقت الشهد لن أستطيب طعم الفسيخ. .

- ما يدريك أن طعم شفتي كاميليا كالفسيخ؟

- بعد شفتيك سوف يصبح طعم كل شفة في العالم كالفسيخ، كالمر، كالحنظل!

- تذكر أنك تقوم بتضحية من أجل المبدأ!

- لست مقتنعاً بأن المبادىء تخدم بين أحضان الراقصات!

- تصورت أنني أقنعتك!

- حاولت أن أقنع نفسي ففشلت!

- الغاية تبرر الوسيلة!

- المبادىء عندما تلمس الطين تتلوث!

- لا تستطيع أن تحارب الطغاة إلا بأسلحتهم!

- عندما نحمل أسلحة الطغاة نصبح طغاة مثلهم!

- وكيف تريد أن تحارب الذين أفسدوا الشركة!

- بالقانون!

- وهل هم نفذوا القانون عندما قتلوا صديقك عبد الجواد!؟

- داسوا على القانون عندما دهسوه!

- ماذا فعل له القانون!

- حفظ الدعوى لأن القاتل مجهول!

- وأنت دخلت السجن باسم القانون، وحكم عليك بلا جريمة

باسم القانون، وانتزع منك اسمك باسم القانون!

ـ هذا هو سوء استعمال القانون!

ـ القانون واحد.. في يد القاضي العادل ميزان للعدالة، وفي يد الظالم خنجر أو سكين!

ـ واجبنا أن نجعل القانون ميزاناً للعدالة!

ـ كيف يمكن للميزان أن يحارب السكين!

ـ إذا ظهر ميزان العدالة اختفت جميع الخناجر والسكاكين!

ـ وكيف يظهر ميزان العدالة؟

ـ عندما تفتح النوافذ ليدخل نور الحرية!

ـ وكيف يدخل نور الحرية، والخناجر والسكاكين تطل من كل النوافذ!

ـ عندما نستطيع أن نقول «لا».

ـ لقد قلت (لا) ودخلت السجن!

ـ يجيء بعدي رجل آخر ويقول (لا)!

ـ جاء بعدك عبد الجواد وحاول أن يقول (لا) فدخل القبر!

ـ سيجيء بعدنا كثيرون ويقولون (لا).

ـ بعد كم سنة!

ـ ولو بعد ألف سنة!

ـ بعد سنة واحدة ستكون شركة مصر للبسكويت قد تحولت إلى أطلال!

ـ منظر الخرائب سوف يضاعف عدد الذين يقولون (لا)!

ـ الخرائب مكان تتوالد فيه الحشرات، ولا ينبت فيه الرجال!

ـ أنا لا أريد أن أبعث القانون بقتل القانون!

ـ ماذا تفعل إذا رأيت وحشاً مفترساً يهاجمك؟ هل تطلب منه أن ينتظر حتى تتصل تليفونيًا بحديقة الحيوانات، أم تدافع عن نفسك؟

ـ **أعدو من أمامه!**

ـ وإذا انقض عليك؟!

ـ **أخرج سكيناً من جيبي وأصارعه!**

ـ إذن لا بد من أن تستعمل السكين!

ـ **السكاكين للوحوش لا للآدميين!**

ـ عندما يتحول الإنسان إلى ظالم يصبح وحشاً.. وعندئذ يجب أن نعامله معاملة الوحوش.. وإلا فتصور لو أن وحشاً يهجم عليك ووقفت تلقي عليه محاضرة في مزايا الإنسانية، ومضار الوحشية.. هل تستطيع أن تقنعه!

ـ **لن يقتنع لأن الوحوش لا تفهم لغة الآدميين!**

ـ والطغاة لا يعرفون لغة الآدميين!

ـ **تطلبين مني أن أكون وحشاً لأقضي على الوحوش!**

ـ هل الذين يقتلون الوحوش في الغابات هم الوحوش، أم الوحوش هي التي تأكل لحوم الآدميين!

ـ **الصياد في الغابة هو رجل آدمي، ولكنه عندما يمسك بالبندقية يصبح وحشاً!**

ـ ولكنه يطهر الغابة من الوحوش!

ـ **ما يدريك أن رصاصة تصيب حيواناً مستأنساً وتخطىء وحشاً مفترساً؟**

ـ كأنك تريد أن تطهر الغابة من الوحوش بإقامة ميزان العدالة في الغابة!

ـ **أنا أعتقد أن هذه الحيوانات لم تتحول إلى وحوش، إلا عندما بدأ الإنسان يحاول أن يصطادها ويقتلها!**

- معنى هذا أن غالب بك لم يتحول إلى وحش إلا عندما أردت أن تصطاده!

- إنه هو الذي حاول أن يفترسني أولاً عندما ادعى أن صورة الراقصة كاميليا في درج مكتبي، وعندما ادعى أنني اختلست سبعة عشر ألف جنيه وعندما افترس أموال شركة مصر للبسكويت!

- لهذا أصبح من حقك أن تمسك السكين!

- كل ما أريده أن أنتزع أنيابه!

- ولهذا يجب أن نسرق المستندات الموجودة في الشركة!

- ما زلت متردداً!

- لا وقت للتردد.

- ألا توجد طريقة لكشف الجرائم إلا بارتكاب الجرائم؟

- إننا لا نرتكب جريمة إننا نقوم بعمل مجيد!

- هل عشق كاميليا عمل مجيد؟

- أنت تعشقها لمدة ثلاثة أيام فقط لتحرر الشركة التي أسستها بدمك وأعصابك طوال العمر كله!

- قلت لك إنني لا أؤمن بأن الطريق إلى الحرية يمر بمواسير المجاري.

- تذكر أن عمال المجاري يقومون بعمل مجيد.. يتسخون لينقذوا الحي من الأوبئة والأمراض!

- ولكني لست عاملاً في مصلحة المجاري!

- ماذا نعمل إذا كانت شركة مصر للبسكويت أصبحت تابعة لمصلحة المجاري؟

- ثم إنني لست مقتنعاً بأن نرتكب جريمة سرقة صغيرة من أجل أن نكشف عن سرقة كبيرة!

ـ أنت تناقض نفسك!

ـ أنا منطقي مع مبادئي!

ـ لماذا سمحت مبادئك بأن تطلب من صديقك عبد الجواد أن يسرق المستندات؟

ـ هذه ليست سرقة!

ـ إنها سرقة فعلاً!

ـ لقد طلبت منه أن يطلعني على أوراق تحت يده بحكم وظيفته!

ـ هذه سرقة مائة في المائة، وقد كلفته حياته!

ـ قتلوه قبل أن يحضر المستندات!

ـ لأنهم اعتقدوا أنه سوف يسرق المستندات!

ـ إذن أنا شريك له!

ـ أنت الشريك الأول، الفاعل الأصلي، حرضت صديقاً لك على ارتكاب جريمة سرقة، ولم تتم السرقة بسبب خارج عن إرادتك.. وفقد حياته من أجل مهمة اعتقد أنها مهمة شريفة.. وإذا بك تقول الآن أنها جريمة، وكأنك بهذا تشوه ذكرى صديقك الوفي!

ـ الحقيقة أنني في حيرة!

ـ أنا التي في حيرة!

ـ لقد مات عبد الجواد.. في سبيل هدف سام!

ـ واتصالك بكاميليا وقبلاتك لها، وعشقك لها، سيكون أيضاً من أجل هدف سام.

ـ إنه هدف (سام).. ليس من (السمو) ولكنه من (السموم)!

ـ مـا الـذي جعلك تـتردد بعـد أن كنت متحمسـاً لسرقـة المستندات؟

ـ شفتاك!

ـ قبلة تنسيك واجبك؟

ـ ليتها قبلة واحدة. . إنها عشر قبلات!

ـ لم أكن أتصـور أن عبد المتعـال الذي أحببتـه كل هـذا الحب، يبيع مبادئه بعشر قبلات؟

ـ أحببت الحياة لأول مرة في حياتي!

ـ هل حب الحياة يحولنا إلى جبناء!؟

ـ أنا لست جباناً!

ـ أنت الآن تبرر لعشاق الحياة أن يخونوا مبادئهم!

ـ لقـد عـرفت الآن لمـاذا لا يسمحـون للرهبـان بـأن يعـاشروا النساء. . قبلة على الأرض قد تنسيهم طعم الجنة في السماء!

ـ إنني عشقتك لأنك أول رجل في حياتي قال لي (لا)!

ـ وما زلت أقول (لا)!

ـ أنت الآن تقولها للهدف الذي تسعى إليه!

ـ لقد وعدتك أن أكون دائماً صادقاً معك. . لا أريـد أن أكذب عليك مرة واحدة حتى ولو لأرضيك!

ـ ولكنني فجعت فيك وأنت تتردد!

ـ عيبك أنك نسيت أنني بشر!

ـ كنت أتصور أنك فوق البشر!

ـ يظهر أن كل امرأة تحب رجلاً تتصور أنه فوق البشر!

ـ أنا لم أتصورك هذا الرجل، وإنما كنت أرى هذا الرجل فيك!

ـ لأنني الآن ذقت طعم الحياة!

ـ لم تكن قبلاتي لك اليوم هي قبلاتي الأولى!

ـ لم تكن قبلاتك بكل هذه اللذة، إنها أسكرتني!

ـ سأنتظر حتى تفيق . .

ـ سوف تنتظرينني مدى الحياة!

ـ كأنني أفسدتك بهذه القبلات!

ـ قبل هذه القبلات كنت أرحب بالموت!

ـ وبعد هذه القبلات؟

ـ أصبحت مخموراً بحلاوة الحياة!

ـ كنت أظن أنك رجل مختلف عن كل الرجال، من أجلك قررت أن أصلي، من أجلك قررت أن أصبح قديسة!

ـ بعد سنة؟

ـ إنني مستعدة أن أصبح قديسة من الآن، لو عدت الرجل الذي أحببته من جديد!

ـ وتقطعين علاقتك بجميع الرجال؟

ـ فوراً!

ـ وتقطعين علاقتك بمجدي باشا الأسيوطي؟

ـ في الحال!

ـ وتتزوجينني؟

ـ اليوم . .

ـ إذن سوف أعشق الراقصة كاميليا!

ـ والمستندات؟!

ـ سوف نسرقها!

□ □ □

واندفعت سلوى نحو عبد المتعال وراحت تعانقه وتقبله وهي تشهق بالبكاء . . وسقطت دموع سلوى فوق شفتيه فانتفض

عبد المتعال وقال:

ـ لماذا تبكين؟

ـ لأنك مت بضع دقائق.. ثم عدت إلى الحياة!

ـ مت!

ـ نعم مت في قلبي عندما وجدتك تنسى في قبلاتي واجبك!

ـ كنت أظن أنك تبكين لأنك ستكونين أرملة.. أنت تعلمين أنهم قد يقتلونني وأنا أحاول سرقة المستندات!

ـ أفضل أن أكون أرملة بطل، على أن أكون عشيقة وزير المواصلات!

ـ أصبحت أعتقد أن وراء كل بطل امرأة.. قد تكون زوجته، وقد تكون عشيقته، وقد تكون أمه.. في قدرة المرأة إذا شاءت أن تكون العمود الفقري للرجل الذي تحبه!

ـ كم من النساء كن العمود الفقري الذي يضطر الرجل للانحناء!

ـ ولكني وجدت فيك (العمود) الذي يرفع قامتي!

ـ المرأة تعشق الرجل الذي يرفع قامته! وتركب الرجل الذي يحنيها!

ـ متى تريدين مني أن أبدأ؟

ـ اليوم.. اليوم حفلة عيد ميلاد صديقتي الفنانة زينب.!

ـ وهل سيكون غالب بك مدير الشركة في الحفلة؟

ـ طبعاً.. فإنه يحرص على حضور الحفلات الساهرة التي تحضرها عشيقته كاميليا!

ـ وكيف أستطيع أن أغازلها في وجود عشيقها!

ـ كاميليا تستطيع أن تغافل مائة رجل في وقت واحد!

ـ **وماذا أفعل إذا اعترض غالب بك على هذه المغازلة؟**

ـ تضربه!

ـ **أنا. . أضربه!**

ـ سوف تتذكر العشرين ساعياً الذين ضربوك في الشركة، وسوف تنهال عليه ضرباً وركلاً وصفعاً!

ـ **سوف تكرهني كاميليا**

ـ سوف تعشقك أكثر!

ـ **لأنني ضربت عشيقها؟**

ـ لأنك رجل قوي!

ـ **ولكني لست رجلاً قوياً؟**

ـ سوف أجيء بقشرة موز وألقيها تحت قدميه، وما تكاد تدفعه بيدك حتى يقع على الأرض!

ـ **وإذا تزحلقت أنا في قشرة الموز؟**

ـ ستقع بين ذراعي!

ـ **أنت امرأة هائلة!**

ـ الحب الكبير يجعل من المرأة العادية أسطورة هائلة!

ـ **أنت لست امرأة عادية. !**

ـ قبل أن أحبك كنت ملكة الإغراء والآن أصبحت ملكة المغامرات!

ـ **وأنا أحد رعاياك!**

ـ أنت الشعب كله!

ـ **ستكونين ملكة مستبدة؟**

ـ سأكون كملكة انجلترا. . أملك ولا أحكم!

ـ **وماذا أكون أنا؟**

ـ الشعب مصدر السلطات!

ـ وماذا تفعل الملكة عندما ترى الشعب يغازل امرأة أخرى أمامها؟

ـ سأقول إن الشعب يحاول أن يعرف أسرار العدو!

ـ وماذا ستفعلين عندما ينام الشعب في سرير العدو؟!

ـ سوف أغمض عيني وأقول أنه سيجيء إلى أحضاني بعد ثلاثة أيام.

ـ ثلاثة أيام مدة طويلة جداً!

ـ هذا يتوقف على مهارتك مع كاميليا!

ـ سوف أحاول أن أحصل على مفتاح الخزانة من الليلة الأولى!

ـ كلما جئت بالمفتاح أسرع، سأعرف أنك تحبني أكثر. !

ـ تصوري أنني لم أعد خائفاً من هذه المغامرة!

ـ أنا التي أصبحت خائفة عليك!

ـ من كاميليا؟

ـ لا . . . من قشرة الموز!

الفصل الثاني والعشرون

وقف عبدالمتعال مشدوهاً. بهرته الأضواء الساطعة في شقة زينب صدقي. سحرته الوجوه المشهورة. أسكره جمال النساء الفاتنات الموزعات على الغرف كأنها باقات من أندر الورود. نساء كالورد، نساء كالفل، نساء كالياسمين!

لقد اعتاد أن يرى النجوم والكواكب في السماء، وهو الآن يرى الكواكب والنجوم على الأرض.. إنه يمشي بين النجوم..

هذه هي المطربة أسمهان بعينيها الواسعتين اللتين تشبهان البحر، تغوص فيهما العيون وتسبح وتغرق أيضاً! في يدها اليمنى كأس من الويسكي، وفي يدها اليسرى مبسم طويل ينتهي بسيجارة مشتعلة. تضع الكأس على شفتيها وكأنها تقبلها، وتضع المبسم في فمها وكأنه يقبلها.. تأمل أنفها الطويل الذي لا يتناسب مع حجم وجهها، فإذا الأنف لا يشوه جمالها، وإنما يبرز شخصيتها.. شفتاها تستسلمان وأنفها يقاوم.. عيناها تقولان، أنا امرأة، وأنفها يقول: أنا أميرة.. وأحس عبد المتعال أن أسمهان ضائعة بين المرأة والأميرة. فهي تعشق كأنها جارية. وتتزوج وكأنها ملكة!

□□□

وعلى بعد خطوات من أسمهان رأى المطربة فاطمة سري. هذه المرأة السمراء التي في عينيها مغناطيس. لها قدرة عجيبة على أن تجعل عينيها شاعراً ينظم أروع قصائد الحب، أو مطرباً يغني أحلى أغاني الهوى، أو فرقة أوركسترا تعزف لحناً راقصاً ترقص عليه أشواق الرجال!

هذه المرأة التي تجهل القراءة والكتابة وعبدها كاتب صحفي من أكبر كتّاب مصر.. التي لم تكن تملك مليماً واحداً وعشقها أحد زعماء الاقتصاد وأنشأ مسرح الأزبكية، وفرقة عكاشة المسرحية.. هذه المرأة الضعيفة التي قاومت وحدها أقوى حكومات مصر، وأكبر حكامها، والسيدة هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية في البلاد العربية.

فقد أحب الشاب الأنيق محمد شعراوي زعيم الطلبة، والطالب في مدرسة الحقوق، ووريث عشرة آلاف فدان، وابن المليونير علي باشا شعراوي هذه المطربة الشابة، وتزوجها زواجاً عرفياً، ورزقت منه بابنة. ومع أن هدى هانم كانت تطالب الدولة بالاعتراف بالطفل غير الشرعي، فقد رفضت الاعتراف بحفيدتها من المطربة الحسناء! وتكالبت كل قوى الدولة ضد فاطمة سري. الملك فؤاد يستنكر هذا الزواج بين المليونير والمطربة الممثلة. حكومة عدلي يكن باشا وحكومة عبدالخالق ثروت باشا تريان أن في اعتراف محمد شعراوي بابنته من المطربة اعتداء على كرامة الأسر الكبيرة، وإهانة لذكرى والده المغفور له علي باشا شعراوي، أحد ثلاثة رجال طالبوا باستقلال مصر في ثورة ١٩١٩.. كبار المثقفين في مصر وقفوا ضد فاطمة سري، انتصاراً منهم لهدى هانم شعراوي التي تتزعم حركة المطالبة بتحرير المرأة في مصر.

ووقفت هذه المطربة الشابة التي لا تعرف القراءة والكتابة تواجه وحدها الملك فؤاد وحكومة مصر والطبقة الحاكمة والمثقفين في مصر وهدى هانم شعراوي التي كانت تستطيع أن تهز الحكومات.

وصمدت فاطمة سري أمام عشرات الألوف من الجنيهات، التي عرضت عليها لتتنازل عن قضية إثبات بنوة ابنتها من محمد شعراوي، في الوقت الذي كانت عاجزة فيه عن دفع إيجار شقتها المتواضعة!

وفوجئت فاطمة بأكبر المحامين في مصر يتبرعون بالمرافعة ضدها. كما فوجئت بشركات الأسطوانات ترفض تعبئة أسطوانات بصوتها... وبالمسارح التي كانت تتنافس لتجعل منها المطربة الأولى للفرقة، تقفل أبوابها في وجهها، خشية أن تغضب السلطات، وخوفاً من أن تثير سخط المقامات العليا!

ولم تتردد فاطمة، ولم تهتز والمطارق تنهال على رأسها.. لم ترتعش عندما أعلن الملك فؤاد الحرب عليها، بل أصبحت أكثر إصراراً، وأشد عناداً، وأقوى صموداً.. وخشي الملك فؤاد من أثر عيني فاطمة سري الساحرتين على الشاب محمد شعراوي. فأمر بتعيينه ملحقاً في المفوضية المصرية بواشنطن، وأصدر أمره بأن يسافر محمد فوراً إلى أمريكا ليتسلم منصبه!

واستمرت القضية تتعثر في المحاكم والإشاعات تملأ القاهرة بأن الملك فؤاد سيحيل القضاة الثلاثة إلى المعاش، إذا خالفوا إرادته السامية، وحكموا بثبات بنوة ابنة الممثلة فاطمة سري، للشاب محمد شعراوي ابن البيوتات!

ووقف المحامي الشاب والصحفي المشهور فكري أباظة بجانب

فاطمة سري، متحدياً جميع السلطات.. وفي الجلسة الأولى للمحكمة سحرته فاطمة بعينيها الجميلتين، وفي الجلسة الثانية أحبها، وفي الجلسة الثالثة عبدها.

وبدأت قصة من أكبر قصص الحب في الصحافة المصرية في قاعة محكمة مصر الشرعية!

ووقفت مصر كلها ترقب الصراع الكبير في المحكمة الشرعية بين هدى هانم شعراوي، زعيمة النهضة النسائية، وابنة عمر سلطان باشا، وحفيدة محمد سلطان باشا أكبر أغنياء الصعيد، ومعها الدولة كلها، والسلطان كله وأكبر المحامين في مصر وأمامها فاطمة سري، المطربة المفلسة التي لا تجد عملاً، التي لا تعرف أن تكتب اسمها وبجانبها المحامي الشاب فكري أباظة!

وعقدت المحكمة جلستها لإصدار الحكم...

ولم يحضر الناس الجلسة، كانوا يعرفون الحكم مقدماً. كانوا يقدرون أن ليس في استطاعة هذه المطربة الشابة أن تنتصر على زعيمة النهضة النسائية.. كانوا واثقين أن القضاة الثلاثة لن يستطيعوا أن يقولوا للملك فؤاد «لا»، وهو الذي يقيل رؤساء الوزارات، ويجرد الأمراء الذين لا يرضى عنهم من ألقاب الإمارة، والذي يبطش بكل من يحاول أن يقف في طريقه.

وأصدر القضاة الثلاثة حكمهم بإثبات بنوة ابنة المطربة الممثلة فاطمة سري من المليونير محمد شعراوي..

وانتصرت امرأة صغيرة على زعيمة النهضة النسائية، وعلى ملك مصر، وعلى رئيس حكومة مصر...

وانتصر المحامي الشاب فكري أباظة على ابراهيم الهلباوي بك شيخ المحامين، ونقيب المحامين، وواحد من أعظم المحامين الذين رأتهم مصر.. وكان معه أعظم المحامين وأقدرهم وأكفؤهم وأشهرهم!

وأنفقت هدى هانم شعراوي عشرات الألوف من الجنيهات على المحامين الكبار الذين وكلتهم.

ولم تنفق فاطمة سري سوى قبلة واحدة.. أعطتها لمحاميها فكري أباظة!

□□□

مرت كل هذه الصور كالفيلم السريع في رأس عبد المتعال، وهو يحدق في عيني فاطمة سري، وهمس في أذن سلوى:

- أريد أن تعرفيني بها.
- سوف أعرفك بها عندما تحضر!
- لا أقصد كاميليا... أقصد فاطمة سري!
- وما علاقة فاطمة سري بسرقة الخزانة!
- إنها متخصصة في سرقة الخزائن!
- لم أعرف هذا عنها!
- أنا أعرف!
- إن فاطمة سيدة محترمة!
- وهل الذين يسرقون الخزائن غير محترمين؟
- إنها لن تفيدك بشيء!
- سوف تفيدني بكل شيء!
- إذن سأقدمك إليها..

وتقدمت سلوى نحو فاطمة سري وقالت لها:

ـ أقدم لك عبد المتعال محجوب، إنه معجب بك جداً. .

وابتسمت فاطمة ابتسامة حزينة وقالت:

ـ هل رأيتني عندما كنت أمثل في فرقة عكاشة على مسرح حديقة الازبكية؟

ـ بل رأيتك في أعظم أدوارك!

ـ أنا لم أمثل منذ زمن طويل، أي دور تقصد؟

ـ دور المرأة التي وقفت وحدها تقاوم الملك!

ـ لم أكن وحدي. . كان معي فكري!

ـ أعرف أن فكري أباظة كان معك. . ولكني أريد أن أسألك كيف استطعت أن تنتصري على الملك وعلى الحكومة، وعلى كل القوى التي وقفت ضدك؟

ـ لأنني قلت «لا». . مكثت سبع سنوات أقول «لا»!

ـ سبع سنوات؟

ـ أنت تعرف أنني مطربة. . لقد كانت أغنيتي الأخيرة «لا». . لم أتعب من تكرارها. . إنها أغنية لا تطرب الأقوياء، ولكنها كانت تشجيني. . . حينما كنت أقول «لا» وأنا أضحك. . وأحياناً كنت أقولها وأنا أبكي. . ولكنني لم أتعب أبداً وأنا أردد أغنية «لا»!

ـ وكيف استطعت الصمود في مواجهة كل هذه القوى؟

ـ بالحب!

ـ حبك لفكري؟

ـ لا. . حبي لابنتي!

ـ هل كانوا يهددونك؟

ـ كل أنواع التهديد!

ـ هددوك بالجوع؟

ـ لقد جعت فعلاً!

ـ هددوك بالقتل؟

ـ قالوا لي أن عصابة من المجرمين سوف تقتلني.

ـ خفت طبعاً؟

ـ لم أخف!

ـ لا بد أنك شجاعة جداً!

ـ بالعكس، أنا جبانة جداً أخاف من الفأر، أخاف من الصرصار، ومع ذلك كنت واثقة أنهم لن يقتلوني!

ـ وماذا كان يجعلك واثقة كل هذه الثقة؟

ـ لأن محمد شعراوي أحبني، وأي رجل أحبني لا يمكن أن يقتلني!

ـ إذا كان أحبك، فلماذا أنكر بنوة ابنتك؟

ـ أرغموه على أن يقف هذا الموقف. . أبعدوه عني وأنا واثقة أنه لو رأى ابنته مرة واحدة، لرأى في عينيها عينيه، ولاعترف بها على الفور. ولكنهم نفوه إلى أمريكا حتى لا يرى ابنته!

ـ أنت تحبينه بعد كل ما فعل بك؟

ـ كيف لا أحبه وهو والد ابنتي؟

ـ أنت امرأة نبيلة . .

ـ وهو نبيل أيضاً إذا عرفته!

ـ أنت أول امرأة تثني على رجل حاربها، وأنكر بنوة الطفلة التي أودعها في أحشائها.

ـ بعد أن أصدرت المحكمة حكمها ببنوة ابنتي انتهت الخصومة!

- هل كنت واثقة أن القضاة سيحكمون لمصلحتك؟

- نعم!

- برغم تهديد الملك؟

- برغم أنهم قالوا أن الملك سيحيلهم جميعاً إلى المعاش!

- لماذا؟

- لأن في مصر قضاة!

- ولهذا رفضت مائة ألف جنيه لتتنازلي عن الدعوى؟

- إن اسم ابنتي يساوي عندي كل ذهب الأرض... لا أقبل أن تعيش ابنتي بلا اسم!

- هل الإسم يساوي ملايين الجنيهات؟

- إسم الإنسان هو شرفه، إنسان بلا إسم هو ابن سفاح!

- ليس كل إنسان بلا إسم ابن سفاح!

- إسم الرجل هو شرفه، واسم المرأة هو عرضها... إن ألوفاً من الناس ماتوا دفاعاً عن أسمائهم!

- وماذا تفعلين بمن ينتزع اسمك؟

- أقتله!

- ولماذا لم تقتلي زوجك؟

- لأنني كنت واثقة بأنه حتى ولو أصدرت المحكمة حكماً برفض بنوتها، فسوف يعترف بها في يوم من الأيام!

- أنت مؤمنة بأنه نبيل!

- لو لم يكن نبيلاً لما أحببته!

- إن من عادة المرأة أن تلعن الرجل الذي أحبها وخانها!

- عندما تحب المرأة تلعن الرجل الذي خانها أمام الناس، وتعبده في قلبها!

ـ لماذا لم تحاولي أن تعقدي صلحاً معه!

ـ حاولت ذلك من أجل ابنتي. . عرضت عليهم أن أكتب تنازلاً عن حقها في الميراث مقابل أن يعترف بأنها ابنته. !

ـ ورفض؟

ـ لم يرفض، وإنما أسرته هي التي رفضت!

ـ أنا أعرف إنساناً له قضية مثل قضيتك!

ـ إثبات بنوة؟

ـ لا. . إثبات وجود!

ـ هل هو غير موجود؟

ـ موجود بلا إسم!

ـ هاته لي!

ـ لماذا؟

ـ لأقول له أن يقول «لا».

ـ إنه يقول «لا»؟

ـ كم مضى عليه يقول «لا»؟

ـ سبعة أسابيع!

ـ باق سبع سنوات إلا سبعة أسابيع!

ـ ويعيش سبع سنوات بغير اسم؟

ـ وليس هذا فقط، فإن «لا» وحدها لا تكفي!

ـ ماذا ينقصها؟

ـ يجب أن ندعمها. . يجب أن ننشرها. يجب أن نجعل من حرف «لا» مصارعاً يصارع، ومحارباً يحارب، ومجاهداً يجاهد. . الذي يكتفي بأن يقول «لا» ولا يتحرك كأنه يتثاءب استعداداً للنوم!

ـ وهل كنت تتحركين؟

ـ كرست حياتي كلها لأقول «لا» نسيت أنني مطربة مشهورة ولم أعرف سوى أنني أم. . . نسيت السهرات والحفلات، وأصبحت أعيش في مكاتب المحامين ومكاتب محرري الصحف. . نسيت أن لي صوتاً جميلاً. . وأصبح هدفي أن يكون لي صوت عال مسموع!

ـ واستطعت أن ترفعي صوتك؟

ـ حتى سمعه الله!

ـ سوف أقول لصاحبي أن يرفع صوته!

ـ يرفع صوته ويتحرك. . . فالأصوات الواقفة تموت في مكانها!

ـ أنت فيلسوفة!!

ـ فيلسوفة لا تعرف القراءة والكتابة!

ـ أين تعلمت هذه الفلسفة؟

ـ من دموع المظلومين!

وتركته فاطمة سري لتصافح السيدة روز اليوسف صاحبة مجلة «روز اليوسف»، وتأمل عبدالمتعال هذه السيدة الدقيقة الحجم، الكبيرة الرأس، الواسعة العينين، التي كانت تقف على المسرح وتبدو أطول قامة.

لقد رآها تمثل دور طفل في الرابعة عشرة من عمره في مسرحية «دافيد كوبرفيلد» و كانت في الأربعين من عمرها، فأقنعته بصوتها الرقيق وبتمثيلها الرائع أنها في الرابعة عشرة فعلا.

رآها وهي تمثل دور «مرجريت جوتييه» أمام يوسف وهبي في مسرحية «غادة الكاميليا» وجعلته يذرف دموعاً لم يذرفها عند وفاة أبيه، وهي تمثل مشهد الموت في نهاية المسرحية.

رآها وهي تهز المسرح، فتجعل الجماهير تضحك تارة، وتبكي تارة، كأنها نومتهم تنويماً مغناطيسياً، وسيطرت عليهم، وراحت تلعب بعواطفهم كما تهوى وتريد!

هذه المرأة أيضاً عرفت أن تقول «لا». قالت ليوسف وهبي «لا» وهي الممثلة الأولى في مسرح رمسيس الذي يملكه. وخرجت من مسرحه وأصدرت مجلة مسرحية تحمل اسمها متحدية كل الذين يقولون أن الممثلة في مصر لا تصلح أن تكون صحفية، وإذا بها تجعل مجلتها أكبر مجلة سياسية في مصر.

قالت «لا» لمحمد محمود باشا رئيس الوزراء، وصادر مجلتها وعطلها واستمرت تقول «لا».

وأصدرت مجلات أخرى بأسماء مختلفة ومضت تقول «لا» حتى سقطت دكتاتورية محمد محمود. ثم عادت تقول لحكومة اسماعيل صدقي «لا» وتحملت تعطيل مجلتها عدة مرات.

وقالت للملك فؤاد «لا».

وقالت لحزب الوفد عندما كان أكبر حزب في مصر «لا»...

وجاعت وأفلست، وبيعت ثيابها بالمزاد العلني وهي تقول «لا»!

وهز عبدالمتعال رأسه وقال:

ـ إذا كانت النساء في بلادنا يستطعن أن يقلن «لا»، فكيف يعجز أن يقولها الرجال؟

وجاءت السيدة زينب صدقي صاحبة الحفلة تصافح عبد المتعال. وفوجىء بزينب تصافح سلوى وهبي ثم تصافحه

وهي تقول: أهلاً... مجدي باشا!

واعتقد عبد المتعال أن زينب صدقي تسخر منه، لأنه حل في قلب سلوى وهبي مكان مجدي باشا الأسيوطي وزير المواصلات!

والتفت نحن سلوى هامساً وقال لها:

ـ يجب أن أنسحب من الحفلة!

ـ لماذا تنسحب؟

ـ صاحبة الحفلة أهانتني!

ـ ماذا قالت لك؟

ـ قالت لي أهلاً مجدي باشا!

وضحكت سلوى ضحكة عالية وقالت له:

ـ إن زينب لم تلبس نظارتها اليوم.. ونظرها ضعيف بغير نظارة... ولهذا تصورت أنك مجدي باشا لأنك واقف بجواري!

وانطلقت سلوى نحو زينب صدقي وروت لها سوء التفاهم الذي حدث، فأقبلت زينب وهي تضحك ضحكة عالية وتقول لعبد المتعال:

ـ أحمد ربنا أنني لم أخطىء فيك وأظن أنك محمد السفرجي!

ـ إنني أفضل أن أكون سفرجياً على أن أكون وزيراً للمواصلات!

ـ معك حق. السفرجي عندما يخرج من بيتك يجد وظيفة سفرجي، والوزير عندما يخرج من الوزارة لا يجد وظيفة وزير!

ـ وهذه الحفلة الفاخرة؟

ـ أقامها لي أصدقائي وصديقاتي الذين يتحملون صراحتي!

- يظهر أنك غير نادمة على صراحتك؟
- نادمة على أنني لا أستطيع أن أكون أكثر صراحة مما أنا!
- سوف تموتين من الجوع.
- أفضل من أن أموت من الصمت.

□ □ □

واستأذنت زينب صدقي من عبد المتعال لتحيي المدعوين والمدعوات الذين أقبلوا في تلك اللحظة.

وتأمل عبد المتعال بإعجاب زينب صدقي. هذه الفنانة التي كانت أجمل ممثلة وقفت على المسرح المصري. كانت تقف فوق المسرح كملكة، بقوامها الممشوق، بشعرها الذهبي الطويل. بجمالها الساحر، ببشرتها البيضاء النضرة، بفمها الذي يجعل للكلمات حلاوة عجيبة وهي تخرج من شفتيها، بأناقتها التي جعلتها في وقت من الأوقات ملكة الأناقة في مصر، حتى أنها كانت توزع فساتينها القديمة على كبيرات الممثلات...

تذكر عبد المتعال أن زينب صدقي هي أروع ممثلة نطقت بكلمات الحب على المسرح المصري، عندما كانت تقوم بدور «ليلى» أمام أحمد علام في مسرحية «مجنون ليلى» لأمير الشعراء أحمد شوقي بك. كان شعر شوقي يخرج من شفتيها كالموسيقى.. وعندما كانت تنادي «قيس» كان كل متفرج في الصالة يتحول إلى قيس.. كل واحد مجنون بهذه المرأة المثيرة التي جعلت من كلمات الحب في مسرحية شوقي، خمراً تسكر بها المتفرجين، فيتمايلون كالسكارى، ويترنحون كالمخمورين.

وكانت زينب ملكة الحب في العشرينات الأمراء والأثرياء

والصحفيون والشعراء والأدباء يتهافتون على قلبها. ولو أنها احتفظت بالقصائد التي نظمها فيها الشعراء، لاستطاعت أن تخرج كتاباً لا يقل روعة عن مسرحية «مجنون ليلى»!

ولكن صراحة زينب دائماً كانت سبباً في خسارتها لمعارك الحب التي خاضتها!

كانت تستطيع أن تمثل على المسرح ولا تستطيع أن تمثل في الحياة.. كانت تجيد على المسرح دور المليونيرة وهي لا تملك عشاءها.. ولا تستطيع أن تقوم بدور العاشقة أمام مليونير لا تستخف دمه!

إن عبد المتعال سمع مرة أن المليونير شاكر باشا إبراهيم عرض عليها ألف جنيه في الشهر لتسمح له بقبلة فطردته من بيتها. واقترضت من خادمتها ثلاثين قرشاً لتشتري عشاء لها ولممثل صغير أحبته!

□ □ □

وأقبلت عليه سلوى. وهي تحمل في يدها كأساً من الويسكي، وقالت له باسمة:

ـ هل تسمح لي أن أشرب هذه الكأس؟

قال عبد المتعال:

ـ منذ متى تستأذنيني؟

ـ منذ قبلتني عشر قبلات!

ـ لقد قلت لي أنك قررت أن تصلي!

ـ بعد أن نسرق الخزانة!

ـ أنا أكره رائحة الخمر في أفواه النساء!

ـ أعرف أنك تكرهها.

ـ ولماذا تشربين إذن؟

ـ لأتشجع!

ـ لن نسرق الخزانة الآن!

ـ سنسرق كاميليا!

ـ أنا الذي سأسرقها. . لا أنت!

ـ المفروض أن أتحمل منظرك وأنت تغازلها!

ـ ولهذا تشربين كأساً!

ـ كأس واحدة لا تكفي!

ـ لن أغازلها إذن!

ـ لقد وعدتني!

ـ سوف أغازلها بشرط ألا تشربي الويسكي!

ـ بدأت تستبد!؟

ـ العاجز من لا يستبد!

ـ خذ هذه الكأس واحملها في يدك!

ـ أنت تعرفين أنني لا أشرب.

ـ الكأس في يد زئر النساء، كالسيف في يد العاشق!

ـ لو شربت منها جرعة فسأفقد الوعي. . وستكون فضيحة!

ـ تظاهر بأنك تشرب!

ـ وماذا أفعل بعد ذلك؟

ـ تذهب إلى الحمام وتسكب الويسكي من النافذة وتطلب كأساً أخرى!

ـ وما فائدة كل هذا؟

ـ لتشعر كاميليا أنها مع رجل لف ودار، ولا تؤثر الخمر فيه!!

ـ وما علاقة الخمر بالحب!؟

ـ الغانية تحب أن ترى الرجل الذي أمامها سكران لتراه على حقيقته!

ـ أخشى أن تكتشف كاميليا أنني أمثل دور العاشق!

ـ كل الغواني يصبن بالعمى عندما يسمعن كلمات الغزل!

ـ أنا لن أقول لها كلمات الغزل!

ـ ستقول لها أنها فيلسوفة!

ـ قلت لفاطمة سري أنها فيلسوفة فلم تهزها الكلمة، وقالت أنها لا تقرأ ولا تكتب!

ـ لأنها امرأة ذكية جداً!

ـ وكاميليا؟

ـ حمارة جداً!

ودخلت الراقصة تحية كاريوكا، بجسمها الأسمر، المخروط من طمى النيل، بعينيها الواسعتين اللتين فيهما عمق البحر الأحمر حيث ولدت على ساحله. وحملق عبد المتعال فيها.. هذه المرأة تذكره دائماً بنهر النيل.. إنها عذبة مثل مائه.. ولكن الويل لمن يقترب من النهر عند الفيضان!

وأقبلت عليها زينب صدقي تقبلها وتحتضنها وتقول لها: مبروك!

فقالت تحية:

ـ مبروك؟ أنت أول إنسان في مصر يقول لي مبروك!! كل الناس تعزيني!

ـ لأنك تبعت نداء قلبك؟

ـ لأنني تركت المليونير سيد بك البدري ملك صناعة الحرير، وتزوجت قدري محمود الموظف الصغير في استديو مصر!

ـ لغة القلوب في هذا العصر أصبحت لغة أجنبية!

ـ الناس في دهشة لأنني فضلت زوجاً يعطيني خمسة عشر جنيهاً في الشهر على زوج يعطيني خمسة آلاف جنيه في الشهر!

ـ لأن الناس لا يصدقون أن القلوب لا تشترى ولا تباع!

ـ يقولون أنني عبيطة لأنني أعدت للمليونير جميع المجوهرات التي أهداها لي، وكانت قيمتها تبلغ عشرات الألوف من الجنيهات.

ـ هل طلب المليونير استردادها؟

ـ لم يطلبها. ولكنني أصررت على أن أعيدها.. لقد أعطاني هذه المجوهرات الغالية لأحبه، وعندما شعرت أنني أحب هذا الشاب المفلس وجدت أن من واجبي أن أعيد المجوهرات لأنني أرفض أن أبيع بضاعة مغشوشة!

ـ وكم يعيش هذا الحب الجديد؟

ـ قد يعيش أياماً.. ولكنني أفضل أن أعيش يوماً واحداً مع مفلس أحبه على أن أعيش عمراً كاملاً مع مليونر أكرهه!

ـ عندما تزوجت هذا المليونير اعتقد الناس أنك تزوجت شركة تأمين على الحياة!

ـ عندما تزوجته كنت أحبه.. ولو كنت تزوجت المليونير لبقيت طوال حياتي مع المليونير، ولكني تزوجت فيه رجلاً ظريفاً، أنيقاً، ذكياً، خفيف الدم، كريماً.. ولم أكتشف أنه مليونير بهذه الدرجة إلا بعد أن أحببته!

ـ وماذا جرى بعد ذلك؟

ـ رأيت قدري وشعرت أنني وجدت فيه الحب الحقيقي. ولم أطق أن أمثل ليلة واحدة مع المليونير. من كثرة الأدوار التمثيلية التي قمت بها على المسرح والسينما كرهت أن أمثل في حياتي الخاصة. المرأة التي تقف على المسرح ساعات طويلة، وليالي مضنية لا تطيق أن تجعل من فراشها مسرحاً،

ـ أنا أفهمك جيداً!

ـ ولهذا صارحت المليونير بحبي للشاب المفلس وأصررت على الانفصال وأعرف أنني سأموت من الجوع!

ـ ما ألذ الجوع مع الحب!

ـ نحن خلقنا للفقر!

ـ لأن الله خلق لنا قلوباً!

ـ لم أشعر أنني أحترم نفسي كما شعرت في اللحظة التي قلت فيها «لا» للجواهر الثمينة.. «لا» للأموال الطائلة.. «لا» لحياة الترف والبذخ والرخاء.. كنت أقول «لا» وكأنني أزغرد.. وشعرت أنني ولدت وتزوجت في يوم واحد!

واحتضنت زينب صدقي تحية كاريوكا، وقبلتها والدموع في عينيها ومضت بها بين صفوف المدعوين والمدعوات تطلب منهم أن يهنئوا تحية كاريوكا لأنها قالت «لا» للملايين!

وكان عبدالمتعال يتتبع حديث تحية كاريوكا مع زينب صدقي. شعر كأنه يسمع موسيقى.. يسمع اللحن الذي كان يردده همساً بينه وبين نفسه، وإذا به يحس كأنه حضر صلاة جماعة لكلمة «لا»!

رأى الكلمة التي تهزه وتسيطر عليه تتحول إلى بشر...

فاطمة سري هي كلمة «لا»، روز اليوسف هي كلمة «لا»، زينب صدقي هي كلمة «لا»، تحية كاريوكا هي كلمة «لا». كل واحدة منهن قالت «لا» بصوت مختلف، لقوى مختلفة، في مناسبات مختلفة.. كل واحدة منهن دفعت ثمن كلمة «لا»! وهي سعيدة لأنها دفعت الثمن الباهظ!. إنه ليس وحده إذن الذي يقول «لا».. ولكن كل هؤلاء فنانات.. هل الفن يخلق الجرأة؟ هل الفنان هو مخلوق فوق البشر؟ هل هو إله صغير لهذا فهو قادر على أن ينطق بما لا يستطيع أن ينطق به البشر العاديون أم أن الفنان لا ينجح إلا عندما يكون صادقاً.. صادقاً وهو يمثل، صادقاً وهو يتقمص الشخصيات؟

إن هذا الصدق الفني يرسب فيه، يجعله قادراً على أن يقول «لا».. ولكنه هو عبد المتعال ليس فناناً.. لم يكن فناناً في يوم من الأيام.. ومع ذلك استطاع أن يقول «لا». هل يعني ذلك أن في كل إنسان منا قطعة من فنان!؟

□ □ □

وفجأة اقتربت سلوى من عبد المتعال.. والتصقت به، ومالت برأسها على رأسه. ومدت يدها وراحت تعبث بشعره..

وبهت عبد المتعال أن تغازله سلوى هذه المغازلة الفاضحة في حفلة ساهرة وأراد أن يتراجع إلى الخلف.. فقالت له سلوى بلهجة الأمر:

- لا تتحرك!
- أخشى أن يراك الناس!

ـ لا يهمني أن يراني الناس
ـ **إن زينب صدقي تنظر إلى ناحيتنا!**
ـ لا تستطيع أن ترانا . . وماذا يحدث لو رأتني ألتصق بك!
ـ **سمعتك!**
ـ أنت سمعتي!
ـ **الكأس ترتعش في يدي. . !**
ـ اثبت!
ـ **كيف أثبت. . وأنفاسك تحرق وجهي!**
ـ لا تنظر خلفك، إن كاميليا قادمة نحونا!

الفصل الثالث والعشرون

أقبلت الراقصة كاميليا تحيي الممثلة سلوى وهبي بابتسامة عريضة. كشفت عن أسنان كاللؤلؤ المنضود.

كان وجهها يزغرد وكأنها التقت بلا موعد مع أعز صديقة وأقرب إنسان لها في الحياة.. وبادلتها سلوى الابتسامة بمثلها، ولكنها لم تكشف عن أسنانها، وخيل لعبد المتعال أنه يسمع سلوى وهبي تهمس لنفسها: لولا سلامك غلب كلامك، لأكلت لحمك قبل عظامك..

وعجب عبد المتعال من نفاق النساء.. تقبل الواحدة الأخرى وكأنها تريد أن تعضها.. تعانق المرأة منافستها وهي تريد أن تخنقها.. تثني على ثوبها الأنيق وهي تتمنى أن تمزقه.. الحفلات الساهرة لا تقدم فيها أفخر المشروبات فقط، ولا أشهر أصناف الطعام فقط، وإنما تقدم فيها أيضاً أطباق مملوءة بعبارات الملق والنفاق، وعجب عبد المتعال أن المدعوين يلتهمون بنهم هذه الأطباق المغشوشة كأنهم جوعى للملق، وعطشى للنفاق!

وذهل أكثر وهو يسمع صديقته سلوى تتغزل في ثوب الراقصة كاميليا، وكأن الفستان تحول إلى رجل، وكأن الفستان وهو يلتصق بجسدها يعانقها، ويثير نشوتها، ويستخرج المخبوء من جمالها!

وردت كاميليا التحية على سلوى بأحسن منها . . وأطنبت في وصف سحرها وجمالها، ورشاقتها وأناقتها . . وفوجىء عبد المتعال بكاميليا وكأنها تذوب في كلمات الملق والإعجاب.

وتأمل عبد المتعال كاميليا، ولاحظ أن العيون تتطلع إليها بإعجاب وانبهار . . عيون تريد أن تذوقها وعيون تريد أن تأكلها . وعيون تريد أن تلتهمها . . إن عيون الرجال تتحول إلى أفواه عندما ترى الجمال، بعضها يصلي وبعضها يتمتم، وبعضها يسبح باسم الجمال . . الأفواه المليئة بالحنظل وحدها هي التي تتذوق حلاوة الجمال!

تأمل عبد المتعال خصلة الشعر المتهدلة على وجه كاميليا . . وكأنها سحابة من الليل على وجه فجر جميل!

كان كل شيء فيها يتألق : شفتاها، صدرها . . كانت أشبه بتمثال لأسطورة من أساطير الإغريق القدماء، فيها قوة وفيها جمال، وكأنها واقفة فوق قمة جبل الأوليمب في إحدى الأساطير الخالدة!

ولكنه لاحظ أن شيئاً ما ينقص كاميليا فراح يبحث عن هذا الشيء المفقود. وعرف أن الذي ينقصها هو الروح . . إنها تمثال لآلهة الجمال . . تمثال فقط، تمثال من حجر أو رخام أو مرمر ينقصه الدم واللحم!

كل ما فيها جميل رائع كأن الملاك الذي رسمها حرص أن يودع فيها كل ألوان الجمال، أعطاها أجمل عينين، وأجمل شفتين، وأجمل عنق، وأجمل خصر، وأجمل ساقين، وانشغل الملاك في عملية التجميل من الخارج، ونسي في انهماكه عملية التجميل من الداخل . . نسي روحها!

إنها تمثال امرأة فاتنة وليست امرأة، لوحة رائعة لملكة جمال، ولكنها مرسومة بالزيت.. تشعر من بعيد أن اللوحة حية تفيض أنوثة وسحراً وجاذبية، فإذا اقتربت من اللوحة ولمستها بيدك، لم تجد سوى القماش!

شفتاها متوحشتان خلقتا للانقضاض، أما شفتا سلوى فقد خلقتا للاستسلام!

عينا كاميليا فيهما خبث، وعينا سلوى فيهما ذكاء.. في داخل كل امرأة شيطان. الشيطان الذي في كاميليا خبيث وغبي، والشيطان الذي في داخل سلوى طيب وحاد الذكاء.

صوت كاميليا فيه فجور مصنوع، وصوت سلوى فيه أنوثة طبيعية!

رموش عيني كاميليا أشبه بمظلة أوتوبيس، ورموش عيني سلوى أشبه بمظلة تحملها وأنت تسير في أمطار الحياة!

كاميليا طويلة كالنعامة، ورشيقة كالغزال، وسلوى نحيفة حلوة كعصفور صغير!

وهمس عبد المتعال في أذن سلوى يطلب إليها أن تقدمه إلى كاميليا، فتجاهلته سلوى، ومضت في حديثها مع كاميليا!

وعجب عبد المتعال أن سلوى عدلت عن تقديمه لكاميليا، لعلها خافت عليه من جمالها. المرأة تشم كالقطط.. فيها حاسة غريبة تجعلها تستطيع أن تشم رائحة الخطر على الرجل الذي تحبه قبل أن يجيء الخطر بوقت طويل. يوجد في داخل كل امرأة رادار عجيب يكشف الطائرات المعادية قبل أن تعبر الحدود.. **لقد لاحظ أن**

سلوى كانت تتحدث طوال الوقت مع كاميليا وهي ممسكة بيده، كأنها خشيت أن يفلت منها!

□ □ □

وزحفت ابتسامة حلوة من أطراف شفتي كاميليا إلى عينيها وقالت:

ـ لماذا لم تعرفيني بالبيك؟

ـ أي بيك؟

ـ البيك الذي معك!

ـ إنه ليس بيك!

ـ باشا؟

ـ أفندي فقط!

ـ من هو؟

ـ حبيبي.

ـ مبروك!

ـ إنه ليس حبيباً جديداً، إنه حبيبي منذ سنوات!

ـ لم أره معك من قبل!

ـ كان مسجوناً لمدة عامين!

ـ مسجوناً؟

ـ مسجوناً في بيتي!

ـ وأفرجت عنه اليوم؟

ـ أفرجت عنه الليلة فقط، وسأعيده إلى السجن من جديد!

ـ أنت تحبينه جداً!

ـ لا أحبه.. وإنما أعبده!

وحملقت كاميليا في عبد المتعال، كأنها تبحث فيه عن الجمال

الذي أسر سلوى. وابتسمت سلوى ساخرة وقالت:

ـ لا تتعبي نفسك يا كاميليا.. لن تجدي شيئاً تبحثين عنه.. إن ما تبحثين عنه قد حرصت على إخفائه!

ـ هل تخافين عليه من اللصوص؟

ـ من اللصات فقط!

ـ أنا لا أسرق حبيب صديقة لي!

ـ أنا واثقة من ذلك..

ـ إذن دعيني أهنئه على ذوقه!

ـ هنئيني أولاً على ذوقي!

ودفعت سلوى بيدها عبد المتعال إلى كاميليا وهي تقول لها:

ـ حبيبي عبد المتعال. عبد المتعال أفندي، لا بيك، ولا باشا!

وضغطت كاميليا على يد عبد المتعال وهي تقول:

ـ تشرفنا!

□ □ □

وقبل أن يفتح عبدالمتعال فمه، جذبته من يده، ودفعته أمامها إلى حيث كانت السيدة فاطمة سري واقفة وبدأت تتحدث معها، ويدها لا تزال تقبض على يد عبد المتعال.. ووقفت الراقصة كاميليا مشدوهة، وعجبت من قلة ذوق سلوى، وذهلت لأنها حريصة كل الحرص على رجلها، وتخاف أن يطير من يدها، فقبضت على يده، وكأنها حارس يحرس مسجوناً يحاول الهرب!

وشعرت كاميليا برغبة عارمة في أن تخطف عبد المتعال.. خيل إليها أنه أجمل رجل في العالم وأقوى رجل في العالم، وألذ رجل في

العالم. . ولولا ذلك لما حرصت سلوى عليه كل هذا الحرص.

واتجهت إلى المائدة التي صفت فوقها كؤوس الخمر، وأمسكت بكأس في يدها، وطلبت إلى الساقي أن يفرغ لها كأسين في كأس واحدة، وتجرعت الكأس كلها دفعة واحدة!

وهمس عبدالمتعال في أذن سلوى:

ـ لماذا لم تتركيني أتحدث مع كاميليا؟

ـ أردت أن أشعل النار في قلبها!

ـ ظننت أنك تغارين علي!

ـ لو قرأت في عينيك أنك تريدها لأخذتك معي وغادرت السهرة على الفور!

ـ كيف عرفت أنني لا أريدها؟

ـ قلبي له ألف عين!

ـ ومتى ستتركينني أتحدث إليها!

ـ عندما أشم رائحة الشواء!

ـ هل سيقدمون الليلة الكباب المشوي؟

ـ لا أقصد الكباب المشوي، وإنما كاميليا وهي مشوية من الغيرة!

ـ إنها شربت كأس الويسكي دفعة واحدة. . وهذه علامة الشواء!

ـ إنها علامة الغليان فقط!

□ □ □

وفي هذه اللحظة أقبل الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، بقامته الفارعة، ووجهه الصارم، واتجه نحو سلوى يصافحها

ويهنئها على دورها الأخير في مسرحية «عطيل». . وقال لها:

ـ إن دولت أبيض أعجبتني في دور ديـدمـونـة، ولكنـك أنت أسرتني في دور ديدمونـة، أضفت له أبعـاداً جديـدة، شعرت وأنت تمثلين أنك امرأة خائنة فعلاً. كان وجهـك يعبر عن الـطهر الـذي يخفي الخيانة. . وأخطر النساء هي المرأة التي تخون الرجل بجسدها وتمثل الطهر والعفاف بعينيها. . لقد شعرت وأنت تمثلين هذا الدور كأنك متخصصة في خيانة الرجال!

ـ هل هذا مديح أم ذم؟

ـ مديح طبعاً!

ـ ولكني أعتقد أن شكسبير بالغ في وصف غيرة «عطيل» هل من المعقول أن يغار رجل كل هذه الغيرة الجنونية من «منديل»؟

ـ عندما يحب الرجل يغار من كل شيء. . يغار من الثوب الذي ترتديه المرأة لأنه يلتصق بجسدها!

ـ كنت أظن أن الأقوياء لا يغارون!

ـ في الحب يتحول أقوى الأقوياء إلى أضعف الضعفاء!

ـ هل شعرت بالغيرة التي شعر بها «عطيل»؟

ـ ألف مرة!

ـ وتمنيت أن تقتل ديدمونة؟

ـ لولا أنني لا أستطيع أن أرى فرخة مذبوحة لـذبحت عشرات من النساء!

ـ من تمنيت أن تذبح؟

ـ الكاتبة المعـروفة الآنسـة مي، والفاتنـة السوريـة أليس داغر، والنجمة المصرية مديحة وصفي.

ـ لماذا أردت أن تذبح مديحة، من أجل منديل؟

ـ من أجل مجلة.. دخلت ذات يوم عليها، فوجدتها تقرأ مجلة وتضحك، وعندما رأتني أخفت المجلة.. وهجمت على المجلة، وقرأت عنوان الصفحة التي تقرأها، وعرفت أنه مقال ساخر لكاتب معروف اسمه الأستاذ مصطفى محمد، وأنها أخفت المجلة لتخفي خيانتها!

ـ وهل تأكدت أنها تخونك معه؟

ـ تأكدت أنها بريئة!

ـ كيف تأكدت؟

ـ ذهبت إلى مصطفى محمد في مكتبه.

ـ تبارزه؟

ـ لأقتله.. فقد كان صديقي، ولم أتصور أن صديقي يخونني مع امرأة يعرف أنها حياتي وفوجئت بأن صديقي لا يعرف أنني أحب مديحة، ولا يعرف مديحة إطلاقاً، ولم يرها مرة واحدة في حياته!

ـ ألم تقرأ المقال الذي أضحك مديحة قبل أن تثور كل هذه الثورة.

ـ قرأته.

ـ ولم يضحكك؟

ـ مطلقاً.. وهذا سر ثورتي عليها!

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد أن تأكدت من براءة صديقي، عدت أقرأ المقال من جديد، فأضحكني.. كان مليئاً بالسخرية اللاذعة.، ولكني لم أر هذه السخرية أثناء غيرتي.. أعمتني الغيرة، كرهت الكاتب

فاختفت السخرية من كلماته، ولم يبق منها إلا السماجة وثقل الدم كأننا عندما نغار لا نرى الأشياء التي أمامنا، تلون الغيرة كل ما نراه بلون أسود. . براهين البراءة تتحول إلى أدلة إدانة!

- وهل برأت مديحة؟

- لم أبرئها!

- بعد أن ثبتت براءتها!

- اكتشفت أنها تخونني مع رجل آخر!

- وماذا فعلت بها؟

- جئت بصديقي الرسام يوسف طاهر وطلبت منه أن يرسمها والذباب يقف على وجهها، وعلقت الصورة فوق مكتبي:

- لكي تنساها؟

- لكي أقرف منها!

- وهل قرفت منها؟

- للأسف. . كلما رأيت الصورة المعلقة برز وجهها الجميل، واختفى الذباب المرسوم فوق وجهها!

- ما زلت تحبها؟

- أحبها. . وأكره الذباب!

- وما ذنب المرأة والذباب في كل مكان؟

- لولا أن المرأة كالعسل لما حام حولها الذباب!

- ولكنك تحب العسل!

- إنه طعامي الوحيد!

وأقبل الشاعر أحمد رامي، وانصرف إليه الأستاذ العقاد يناقشه في أغنيته الجديدة التي نظمها لأم كلثوم «رق الحبيب»!

والتفت عبد المتعال إلى سلوى وقال لها وهو يشير إلى العقاد:
ـ هذا واحد من الرجال الذين قالوا «لا»!

قالها وهو شاب عندما انضم إلى جمعية «اليد السوداء» في ثورة ١٩١٩. وهذا سر صلته الحميمة بالدكتور أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي.

وكان العقاد كاتب أول منشور لجمعية اليد السوداء.

وكان من الوفديين القلائل الذين يستطيعون أن يقولوا «لا» لسعد زغلول.

وكان سعد يقول عندما يتوقف الثوار عن قول «لا» لا يعودون ثواراً.

وقال العقاد «لا» للملك فؤاد في سنة ١٩٣٠، والملك في قمة بطشه وسلطانه، عندما حل الملك مجلس نواب الشعب وقف العقاد في مجلس النواب وقال بأعلى صوته «إن الشعب مستعد أن يحطم أكبر رأس يعتدي على الدستور!».

وزج بالعقاد في السجن.. وأمضى فيه تسعة أشهر، وخرج من السجن مباشرة إلى قبر سعد، ووقف أمام الضريح ينشد قصيدته المشهورة التي قال فيها:

وكنت جنين السجن تسعة أشهر   واليوم في ساحة الخلد أولد

وقال في قصيدته إن السجن زاده إيماناً بعقيدته، وصلابة في مبادئه!

وقال العقاد «لا» للزعيم مصطفى النحاس في قمة مجده وسلطانه. وهاجم الزعيم الذي كانت تلتف حوله الملايين. وكتب قصيدته التي يقول فيها:

ومـاذا أقـول لهـذي اليمـين   وأني بهـا قـد صنعت الصنم!

وشرد العقاد. وأصدر جريدة «الضياء» اليوميـة، وامتنع الشعب عن قراءتها، وأفلست الجريدة، وتضور العقاد جوعاً، ولم يحن رأسه للجوع!

وعندما انتصر هتلر انتصاراته التي أذهلت العـالم، انبرى العقـاد يهاجم الدكتـاتوريـة، ويلعن الطغيـان. وكان الـرأي العام مبهـوراً بانتصارات الطاغية، مفتوناً بـطريقته الفـذة في سحق أعدائـه. كان السـذج يهللون للطاغية الـذي سوف يسحقهم بـأقـدامـه في اليـوم التالي. كانـوا يهتفون للفـاتح الجـديد الـذي كان سيقـطع ألسنتهم عنـدما تصـل أقدامـه إلى أرض مصر. . كانـوا يصدقـون قولـه أنـه سيحـرر البلاد التي يغـزوها، ولا يعـرفون أنـه يحول كـل بلد يطؤه بقدمه إلى بلد من العبيد.

وكـان العقاد من القـلائـل جـداً الـذين استمـروا يلعنـون هتلر المنتصر وهو يدق بيده القوية على أبواب الإسكندرية. . وألف كتاباً اسمـه «هتلر في الميزان» لم يشـتره أحد وهتلر منتصر. ونفـذت جميع نسخه وهتلر مهزوم.

وهزت سلوى رأسها وقالت:

ـ لسنا وحدنا الذين نقول «لا»!

ـ المصيبة أننا نستطيع أن نقـول «لا» ونحن فرادى ولا نستـطيع أن نقولها ونحن مجتمعون!

ـ سيجيء يوم نقولها جميعاً

ـ يبدو أن كلمة «نعم» أسهل في النطق من كلمة «لا»!

□ □ □

وأقبل الكاتب الكبير إبراهيم عبدالقادر المازني وهو يعرج، وفوق شفتيه الإبتسامة الساخرة التي لا تفارقه، وبجسمه الرقيق الدقيق، وبعينيه الواسعتين اللتين يصرخ منهما الذكاء، وصافح سلوى وهو يقول لها:

ـ رأيتك الآن تتحدثين بحماس.. هل كنت تتحدثين عن دورك الأخير في رواية «عطيل»؟

ـ كنا نتحدث عن كلمة «لا».

ـ «لا» حرف نفي!

ـ هكذا يقول القاموس!

ـ بل هكذا يقول التاريخ.. وإنها حرف «نفي» فعلاً.. قالها الزعيم أحمد عرابي للخديو توفيق والإنجليز فنفوه إلى جزيرة سيلان.. وقالها لهم للمرة الثانية فنفوه إلى عدن.. وقالها للمرة الثالثة فنفوه إلى جزيرة سيشل.. وقالها للمرة الرابعة فنفوه إلى جبل طارق!

ـ هل هي حرف «نفي» فقط؟

ـ إنها حرف «خراب بيوت» أيضاً!

ـ هل قالها كثيرون؟

ـ كثيرون قالوها في بلادنا. تاريخنا هو تاريخ الرجال الذين قالوا «لا»!

ـ وعاشوا؟

ـ بعضهم عاشوا وأغلبهم ماتوا ولا يزالون أحياء.. الصحفي أمين الرافعي صاحب جريدة «الأخبار» قال «لا» لسعد زغلول عندما كان زعيم الأمة، وعندما كانت المرأة تطلق زوجها إذا خرج

على سعد وكانت جريدته أوسع الصحف انتشاراً في تلك الأيـام . . كانت توزع ثلاثين ألف نسخة في اليوم، وجـريدة «الأهـرام» توزع ستة آلاف . . واختلف أمين الرافعي مع سعـد زغلول وهاجمـه، ولم يـرض سعد زغلول أن يهاجم أمـين الـرافعي لأنـه يعـرف وطنيتـه وطهارته. كل ما فعله أنه قال في إحـدى خطبـه أنا لا أقـرأ جريـدة «الأخبار» . . وفي اليوم التـالي هبط توزيـع الأخبار من ثـلاثين ألف نسخـة إلى ألف نسخـة . . وفي اليـوم الثـاني هبـطت إلى ثـلاثـمائـة نسخة . وفي اليوم الثالث هبط التوزيـع إلى أقل من مـائة نسخـة . . واستمر أمين الرافعي يكتب «لا» . . لم يهتم أن القراء جميعاً انفضوا عنه كان يقول لي: يكفيني أن تباع نسخة واحدة من جريدتي!

ـ ولكنه وقف ضد الملايين!

ـ الرجل الذي يستطيع أن يقف ضد الملايين أقـوى من الرجـل الذي يقف أمام رجل واحد!

ـ معنى ذلك أن الشعب قد يخطىء!

ـ الشعب يرجم أنبياءه بالطوب ثم يقيم لهم بعد ذلك الأضرحـة والتماثيل!

ـ إذن أنت تريد أن يكون الكاتب زعيماً!

ـ الكاتب الذي يسير وراء الجماهير يضيع فيهم، أما الذي يتقدم الجماهير، ويسبقها فهو حامل العلم.

ـ نحن أحياناً نرجم زعماءنا بالطوب.

ـ عنـدمـا أرى الـطوب يسقط، أعـرف أن مـوكب زعيم في الطريق!

ـ أنت قليل الثقة بوعي الشعوب.

ـ على العكس . . أنا أؤمن بوعي الشعوب . . ولكن تجـربتي أننا

شعب لا يحب التغيير!

ـ إن أول ثورة في العالم قامت في بلادنا هي ثورة أخناتون.

ـ ولهذا قتلوه.. لا تنس أن المسيح صلبوه في بلادنا!

ـ الذين صلبوه هم المستعمرون!

ـ وتركناهم يصلبونه.. وبعد أن صلبوه عبدناه.. وفي تاريخنا أكثر من مسيح واحد صلبناه وبكينا عليه.. الإمام علي قتلناه، والذين قتلوه لا يزالون يبكون عليه حتى الآن.. عمر بن الخطاب أعدل حاكم في التاريخ قتلناه.. غاندي قتلناه!

ـ وهل هؤلاء قالوا «لا»؟

ـ قالوها وذهبوا..

ـ لم يذهبوا.. إننا نعرف اسم عمر بن الخطاب ولا نعرف اسم قاتله.. نعرف اسم غاندي ولا نعرف اسم قاتله.. نعرف أسماء كل من قالوا «لا» ولا نعرف أسماء من قالوا «نعم»!

ـ لأن التافهين وحدهم هم الذين يقولون «نعم» وأبواب التاريخ الشاهقة تغلق أمام الذين يحنون ظهورهم.. قاسم أمين قال «لا» لحجاب المرأة. وصدرت مئات الكتب تلعنه وتشهر به، واختفت كل هذه الكتب، وبقي كتاب قاسم أمين الذي يدعو لتحرير المرأة.. علي عبدالرازق قال للملك فؤاد «لا» عندما أراد أن يكون خليفة للمسلمين، وصدرت ألوف الكتب التي تقول للملك «نعم» وأنفقت عليها عشرت الألوف من الجنيهات.. وزعت على المدارس مجاناً.. وماتت كل هذه الكتب، وعاش كتاب علي عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم».. طه حسين قال «لا» للرجال الرجعيين في كتابه «الشعر الجاهلي» وجندت الأقلام لمهاجمته، وصدرت مئات

الكتب تتهمه بالكفر والزندقة والإلحاد . . ونسي التاريخ كل الذين هاجموا طه حسين ولم يذكر إلا كتاب طه حسين.

□ □ □

ودخل الشاعر أحمد شوقي، ومشى بين الجموع كالشبح، واتجه نحو سلوى وهبي، وعندما اقترب منها رأى ابراهيم عبدالقادر المازني واقفاً معها، أدار ظهره وأسرع بخطواته إلى خارج الغرفة، ولاحظت سلوى هذه الحركة فقالت للمازني:

ـ هل أمير الشعراء في خصام معك؟

ـ نعم، لأنني قلت له «لا» منذ عشرين سنة!

ـ خصام يستمر عشرين عاماً!

ـ منذ أكثر من عشرين سنة وضعت مع العقاد وعبدالرحمن شكري كتاباً اسمه «الميزان» هاجمنا فيه شعر شوقي!

ـ وهل النقد يجرح شاعراً كبيراً كشوقي؟

ـ شوقي يعتبر نفسه أمير الشعراء والنقد في الملوك والأمراء يعتبر عيباً في الذات الملكية!

ـ وماذا لم يعجبكم في شوقي؟

ـ إنه يضع الشعر ولا ينظم الشعر!

ـ إنه نظم قصائد خالدة

ـ «بيت» الشعر الذي ينظمه شوقي ليس «بيتاً» فقط، إنه «قصر» . . لكنه قصر لا يسكنه أحد . . إنني أفضل كوخاً فيه حياة على قصر خال من الحياة!

ـ ومن هو الشاعر في رأيك؟

ـ العقاد!

ـ الناس لا تفهم شعره.

ـ سوف تفهمه بعد عشرين سنة!

ـ هل قرأت «مجنون ليلى» لشوقي؟

ـ قرأتها

ـ ما رأيك فيها؟

ـ رأيي أن شوقي لم يحب أبداً.. قرأ كل ما كتب عن الحب، ولم يعرف الحب.. إن المجنون يتغزل في ليلى، وهو يلطم خديه.. العشاق لا يلطمون وجوههم وهم يتحدثون إلى حبيباتهم.. إنهم يقبلون المرأة التي يحبونها ولا يقولون لها «يا دهوتي»!

ـ أنت قاس في نقدك!

ـ ألم تلاحظي أن شوقي لم يسمح للمجنون بقبلة واحدة من ليلى طوال المسرحية؟

ـ إنه يصف الحب الطاهر الشريف!

ـ القبلة لا تلوث الحب!

ـ إن وصف الحب في قصائد شوقي له طعم لذيذ في فمي!

ـ لأنك ذقت القبلات.. وعندما تقرئين قصائده تخلطين القبلات التي ذقتها بكلمات شوقي تماماً كما نضع الملح والفلفل على طعام بلا مذاق، فيصبح له في أفواهنا مذاق..!

ـ أنت تظلم شوقي..

ـ هو الذي ظلم الحب.. كيف يمكن أن يجن رجل بامرأة لم يقبلها؟

ـ في ذلك العصر لم تكن القبلة معروفة!

ـ عندما خلق الله آدم وحواء، خلق القبلة معهما.

□ □ □

وتوقفت سلوى عن الحوار، لاحظت أن الراقصة كاميليا تحوم حول عبد المتعال وتنظر إليه نظرات شبقة. والتفتت إلى عبد المتعال باسمة وقالت له:

ـ اذهب الآن إلى كاميليا!

ـ الآن؟

ـ نعم الآن.. إن رائحة الشواء تملأ المكان!!

الفصل الرابع والعشرون

لم يكن عبد المتعال بتكوين جسمه، بالرجل الذي يسترعي انتباه العيون، فلا هو طويل فيه مهابة، ولا هو قصير فيه رشاقة العصفور. ولكن العيون اتجهت إلى هذا الرجل المجهول الذي ينتقل من غانية إلى غانية، من جمال إلى جمال.. كان واقفاً منذ ثوان تتحدث إليه سلوى ملكة الإغراء باهتمام، وها هو ذا الآن يجلس مع الراقصة الفاتنة كاميليا وهي تأكله بعينيها!

وبعض المدعوين في الحفلة اعتقدوا أنه منتج سينمائي.. غني حرب كون ثروة من بيع البصل، فجاء يتاجر في الورود.. آخرون تصوروا أنه مأمور ضرائب، فالنجوم لا يذوبون رقة إلا أمام مأموري الضرائب.. تحية كاريوكا اعتقدت أنه أحد ضباط البوليس السياسي، فقد لاحظت أنه يسترق السمع أثناء حديثها مع زينب صدقي، وزينب صدقي كانت تعلم أنه عشيق الممثلة سلوى وهبي، فهي التي طالبت بدعوته إلى الحفلة، ولكنها لم تخبر أحداً بهويته الحقيقية لأن من عادتها أن تحفظ أسرار صديقاتها.

وكان عبد المتعال يجلس بجانب الراقصة كاميليا، ويرمق سلوى بعين أخرى. وقد حرص على أن يجلس على الكنبة. ويترك بينه وبين كاميليا نصف متر. ولكن المسافة كانت تضيق دقيقة بعد

دقيقة، فقد كانت كاميليا تتحرك في مقعدها وهي تتحدث. . حتى وجد شعرها فجأة ملتصقاً بوجهه، وأراد أن يبعد وجهه ولكنه تذكر أنه يقوم بدور (دون جوان) ومن صفات الذئاب الاندفاع والانقضاض!

□ □ □

وسمع كاميليا تقول له في عذوبة:

ـ إن وجهك ليس غريباً علي. . أظن أنني رأيتك قبل الآن. . لا أذكر أين. . ولكن صورتك انطبعت منذ ذلك اليوم في ذاكرتي. . أعتقد أنني رأيتك في ملهى البيروكيه.

ـ لم أذهب إلى ملهى البيروكيه أبداً!

ـ ربما رأيتك في صالة البسفور!

ـ لم أدخلها!

ـ لا بد أنك كنت تتردد على كباريه هليوبوليس بلاس!

ـ في حياتي لم أدخل نادياً ليلياً ولا كباريه ولا صندوقاً من صناديق الليل!

ـ لم ترني أبداً وأنا أرقص؟

ـ أبداً!

ـ ضاع نصف عمرك!

ـ بل عمري كله!

ـ سوف أدعوك إلى كباريه الكونتننتال لتراني وأنا أرقص!

ـ متى؟

ـ الليلة!

ـ كنت أفضل أن أراك وأنت ترقصين لي وحدي!

ـ حفلة راقصة. . ومتفرج واحد؟

ـ **إنني لا أطيق أن أراك وأنت ترقصين للجماهير!**

ـ تريد أن أرقص لك وحدك؟

ـ **أتمنى!**

ـ أنت مستعجل جداً!

ـ **أخشى أن أموت غداً!**

ـ عمر الشقي بقي!

ـ **عندما ألتقي بامرأة فاتنة أشعر بأن قلبي يضاعف سرعته وكلما تضاعف جمالها، تتضاعف سرعة دقات قلبي!**

ـ قلبك الآن يسير بسرعة الطائرة!

ـ **لا.. بسرعة الصاروخ!**

ـ أين اكتشفتك سلوى؟

ـ **إن فيها صفات كريستوف كولومبوس. تحب اكتشاف القارات المجهولة.**

ـ أما أنا فلا تعجبني «الأرض الخام» أحب الأماكن المأهولة بالسكان.. أحب أن أعرف الرجل الذي تردد على مطابخ النساء، حتى يتذوق طعم الطبق الذي أقدمه إليه!

ـ **أنا شممت رائحة الشواء منذ رأيتك لأول مرة!**

ـ ولماذا هربت مني؟

ـ **لم أهرب.. سلوى هي التي هربت بي.**

ـ خافت أن آكلك!؟

ـ **خافت أن ألتهمك!**

ـ أحسست أنني أعجبتك!!

ـ **كان هذا واضحاً في عيني!**

ـ إنني لم ألاحظ الجوع في عينيك. تصورت أن سلوى أشبعتك!

ـ كنت شبعان فعلاً، ولكنك فتحت شهيتي للطعام!

ـ ماذا أعجبك فيّ!؟

ـ أشياء كثيرة.. كثيرة جداً. كلما أعجبني شيء، رأيت بعد دقيقة شيئاً أجمل من كل ما رأيت فيك!

ـ وما هو آخر ما أعجبك فيَّ؟

ـ الفيلسوف فيك... إنك امرأة مثقفة!

ـ أنت أول رجل قال لي هذه الكلمات!

ـ لأنني أول رجل فهمك على حقيقتك!

ـ عرفت رجالاً كانوا يثنون على جمالي، كانوا يتغزلون في قوامي، كانوا يتغنون بشفتي، كانوا يتعبدون في رقصي!

ـ إن أجمل ما فيك رأسك!

ـ شعري وعيناي وأنفي وفمي!

ـ كلا.. ما في داخل رأسك!

ـ هل دخلت في رأسي؟

ـ ورأيت فيه جمالاً عجيباً..

ـ إذا كنت رأيت كل هذا الجمال في رأسي، وأنت لم تدخله، فماذا سوف تقول عن جسدي عندما أرقص لك؟

ـ لا يمكن أن يكون بجمال رأسك!

ـ أنت رجل غريب!

ـ غرابتي في أنني أعرفك على حقيقتك.. أعرف أنك تعريت تماماً أمام ألوف الناس ولم ير واحد منهم الجمال الحقيقي في داخلك؟

ـ وأنت رأيته؟

ـ وأنت بكل ثيابك!

ـ ألم يعجبك رأس سلوى؟

ـ سلوى ذكية. . أما أنت فعبقرية!

ـ كيف شعرت بعبقريتي؟

ـ عندما رأيتك تحومين حولي.

ـ كنت أبحث فيك عما أعجب سلوى!

ـ أعتقد أنك شعرت على الفور أنني أريدك. كان وجهي جامداً لا يعبر عن شيء، كانت عيني خرساء لا تقول كلمة، ومع ذلك استطعت بعبقريتك أن تخترقي القناع الذي فوق وجهي وتعرفي ما وراء القناع!

ـ أنت خطير!

ـ قال شكسبير إن المرأة إذا عرفت المشاعر التي نخفيها عنها، فهي امرأة عبقرية.

ـ أعرف أن شكسبير قال ذلك. !

ـ وقال لامارتين إن الحب الحقيقي يبدأ من فوق وينتهي تحت!

ـ إنني دائماً أتذكر هذه الكلمة الخالدة للامارتين.

ـ وقال دستوفسكي: قبلة من شفتي عبقرية لذيذة مثل ليلة حمراء بين ذراعي ملكة جمال العالم.

ـ لقد قرأت هذه الحكمة، فإن هوايتي القراءة والاطلاع!

وأخفى عبد المتعال ابتسامه بجهد جهيد، فهو يعلم أن لا شكسبير ولا لامارتين قالا شيئاً من هذا الكلام الفارغ. . ويعرف أيضاً أن دستوفسكي مات قبل أن تبدأ موضة انتخاب ملكة الجمال في العالم!

□ □ □

وعاد عبدالمتعال يقول لكاميليا في إعجاب:

ـ أنت امرأة مثقفة جداً.
ـ من سوء حظي أنني لم أعرف رجالاً مثقفين!
ـ لو عرفت الشاعر المتنبي لركع تحت قدميك.
ـ يسرني أن أعرفه.
ـ سيزور مصر في هذا الشتاء وأقدمه لك!
ـ وسوف أقيم له حفلة!
ـ إنني أعرف أنه يحب الرقص البلدي!
ـ سوف يسعدني جداً أن أرقص للشاعر المتنبي؟
ـ المهم، متى ترقصين لي؟
ـ الليلة.
ـ في أي ساعة؟
ـ بعد خمس دقائق!
ـ إنني جئت هنا مع سلوى ويجب أن أخرج معها.
ـ ألا تستطيع أن تدعي أنك أصبت فجأة بصداع وتريد الانصراف؟
ـ سوف تنصرف سلوى معي وتبقى ساهرة بجوار فراشي للصباح!
ـ لا بد أنها تحبك جداً!
ـ وأنا أحبها جداً!
ـ ولماذا تريد أن تخونها معي؟
ـ الحب شيء، والخيانة شيء آخر!
ـ تعجبني مبادئك.
ـ وأعتقد أنها نفس مبادئك...
ـ كيف عرفت؟
ـ قرأت أفكارك!

ـ أنت رجل قليل الأدب جداً!

ـ إنني قرأت الصفحة الأولى فقط!

ـ الصفحة الأولى هي الصفحة الأخيرة!

ـ تعجبني صراحتك.

ـ لا أستطيع أن أكذب عليك وأنت تقرأ أفكاري.

ـ كل شيء فيك يقول «نعم»

ـ لا أستطيع أن أقول «لا» لرجل أعجبني!

ـ متى أجيء إليك الليلة؟

ـ الساعة الرابعة صباحاً!

ـ هذا وقت متأخر جداً!

ـ هذا موعد انتهائي من عملي في كباريه فندق الكونتننتال.

ـ أراك قبل ذهابك إلى الكباريه.

ـ لا أستطيع. عندي موعد في الساعة الثامنة مساء، وموعد في التاسعة مساء، وموعد في العاشرة مساء، وموعد في الحادية عشرة مساء، وموعد في منتصف الليل!

ـ كنت أظن أنني أطلب موعداً من الراقصة كاميليا. لا من المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية!

ـ إنني مشغولة جداً.

ـ أنت كنت تريدين أن تريني بعد خمس دقائق.

ـ بعد خمس دقائق ليس لدي مواعيد.. عندي كل ساعة كاملة!

ـ لا أحب أن ألتقي بامرأة بموعد كمواعيد طبيب الأسنان.

ـ ماذا تريد إذن؟

ـ أريد يوماً كاملاً.

ـ هذا مستحيل!

ـ **إنني أعشق المستحيل**
ـ ماذا ستقول لسلوى؟
ـ **سأقول لها أنني مسافر للعزبة!**
ـ وماذا أقول للذين ارتبطت بمواعيد معهم؟
ـ **قولي أن عندك صداعاً . .**
ـ لا أستطيع أن ألغي مواعيدي التى ارتبطت بها . . إن مواعيدي كلها مواعيد هامة . . . هامة جداً . . ولا أستطيع إلغاء المواعيد فجأة .
ـ **شركة الطيران تلغي أحياناً رحلة طائرتها فجأة . . وأنت لست أهم من طائرة الركاب .**
ـ الطائرات تلغي رحلتها لعطل في آلاتها .
ـ **وأنت ستغيرين المحرك!**
ـ لا أفهم .
ـ **ستفهمين أكثر . . عندما تعرفينني أكثر!**
ـ تصورت أنك تريد أن تشتري تفاحة ، وإذا بك تريد أن تشتري دكان الفاكهة كله!
ـ **في بعض الأحيان أشتري سوق الخضار كله!**
ـ هل أنت مليونير؟
ـ **أنا مفلس .**
ـ وتريد أن تملك وحدك راقصة عالمية؟
ـ **أعرف أن بعض النساء أشبه بالشركات المساهمة ، كثيرون يملكون أسهماً فيها ، ولكني اشتراكي في الاقتصاد ، ورأسمالي في النساء .**
ـ ولكنك سوف تحتفظ بعلاقتك بسلوى .

ـ يوم أتأكد أنه تمت تصفية شركتك المساهمة سوف أصفي علاقتي بسلوى!

ـ كيف تضحي بسلوى، وأنت لم تعرفني إلا من دقائق؟

ـ الدقائق التي عرفتك فيها هي عمر كامل!

ـ أعطني فرصة.

ـ عندما تطلب المرأة فرصة لتصفية علاقاتها، فمعنى ذلك أنها تريد فرصة لتحول الحسابات العلنية إلى حسابات سرية!

ـ لم يحدث في حياتي أن طلب رجل مني قبل أن يقبلني أن أقطع علاقاتي بجميع الرجال!

ـ لأنني مختلف عن جميع الرجال.

ـ أنت تعلم أنني فنانة.

ـ اعتزلي الفن.

ـ أنت تصدر الأوامر وكأنك ملك!

ـ عندما دخلت قلبك أصبحت ملكاً!

ـ أنا لم أقل لك أنني أحببتك!

ـ كل شيء فيك يقول: «أنا أحبك!».. عيناك، شفتاك، شعرك الذي يلتصق بوجهي.. إنه أول شعر سمعته يتكلم، يصرخ ويصيح.

ـ أنت رجل خطير!

ـ خطورتي أنني أقول كل ما في قلبي.

ـ أنت تزحف بسرعة عجيبة وكأنك الماريشال روما!

ـ تقصدين الماريشال روميل!

ـ عفواً الماريشال روميل.

ـ إن لذتي أن أرى سقوط القلاع.

ـ وهل أنا قلعة؟

ـ ستكونين قلعة، عندما تسقطين بين ذراعي!

وأطلقت كاميليا ضحكة عالية، ثم جذبته من يده وهي تقول له:

ـ تعال أعرفك بشخصية ظريفة سوف تعجبك!

ـ من هو؟

ـ غالب بك!

وامتقع وجه عبد المتعال، ولاحظت كاميليا امتقاع وجهه فسألته في استغراب:

ـ هل تعرفه؟

ـ أعرفه جيداً.

ـ ماذا تعرف عنه؟

وكاد عبد المتعال يقول أنه يعرف عنه أنه هو الذي ادعى أنه اختلس سبعة عشر ألف جنيه من أموال الشركة، وأنه حرض عشرين ساعياً من سعاة الشركة أن يضربوه ويركلوه بأحذيتهم.. وتمالك عبد المتعال نفسه ثم قال:

ـ أعرف أنه عشيقك.

ـ ولهذا لا تريد أن تعرفه.

ـ أريد أن أقتله.

ـ أنت رجل غيور.

ـ هل رأيت مسرحية عطيل؟

ـ رأيتها، وكانت سلوى تمثل فيها دور ديدمونة.

ـ إذا أردت أن تعرفي شخصيتي جيداً، فتذكري شخصية عطيل. كل الفرق بيني وبينه أنه أسود وأنا أبيض.

ـ قلبك أسود!

ـ كالفحم!

ـ لقد تصورت أن الرجال لا يغارون في هذا العصر.

ـ كانت الغيرة في الماضي علامة الرجولة، وأصبحت في عهد الانحلال علامة الرجعية. حياتنا المادية أذابت العواطف، أذابت الحب... لم يعد الحب كما في الماضي... جيلنا الجديد عندما يرى قصة روميو وجولييت يضحك. وفي الماضي كنا نبكي بالدموع. طول الحب قصر مع أثواب النساء.. الحب تطور كما تطور الرقص، كان الرقص ناعماً هادئاً يمشي خطوة بطيئة، وأصبح الرقص الآن صاخباً، سيقاناً ترتفع وتنخفض... إيقاع الحب صار سريعاً بعد أن كان إيقاعه كالفالس والتانجو... رقصة الفالس كانت تستغرق حوالي الساعة، والرقصات الجديدة لا تستغرق سوى دقائق.

ـ أنت تذكرني بفرسان القرون الوسطى الذين أراهم في أفلام السينما!

ـ ولأول مرة، وجدت الفارس!

ـ سأكون فرساً أصيلة.

ـ تصورت أن هذه الصفات لن تعجبك!

ـ إنني أعبدها.. أنت أول رجل شبهني بالحصان!

ـ هل رأيت الحصان وهو يرقص؟

ـ رأيته في حفلات ساهرة بجوار الأهرام.. ولكن ما الذي جعلك تشبهني بالحصان؟

ـ لأنك أحسست بي إحساساً كاملاً.

ـ ولو فرض ولم أحس بك، فهل كنت ستشبهني بالحصان أيضاً؟

ـ كنت سوف أشبهك بالحمار.
ـ أنت رجل جمع بين الأدب وقلة الأدب.
ـ وما الذي يعجبك فيَّ أكثر؟
ـ قلة الأدب!
ـ شكراً.
ـ دعني أقدمك إلى غالب بك.. سوف يعجبك..
ـ أي رجل يعجبك لن يعجبني!
ـ إذن دعني أذهب إليه لأعتذر عن موعدي معه الليلة!
ـ متى موعده؟
ـ عند منتصف الليل.
ـ سوف أجيء لك في الساعة الحادية عشرة مساء!
ـ ومتى ستخرج؟
ـ وماذا يهمك من خروجي؟
ـ لأعرف كيف أتصرف.
ـ لا أريدك أن تلغي الموعد.
ـ تريد أن يراك معي؟
ـ هذا أمر سوف أقرره في موعده.
ـ أفضل أن أذهب إليه الآن وألغي الموعد.
ـ قلت لك لا تلغي الموعد.
ـ إنك عنيف في أوامرك.
ـ هكذا أنا.. هل يعجبك هذا أم لا يعجبك؟
ـ يعجبني جداً.
ـ هذا دليل على أنك بدأت تحبينني!
ـ بدأت..؟ إنني وصلت إلى القمة!
ـ بهذه السرعة؟

ـ المحرك الجديد في الطيارة هو محرك نفاث!

ـ أنت ذكية أيضاً!

ـ ذكائي يتوقد عندما أرى رجلاً يعجبني!

ـ وإذا لم يعجبك الرجل؟

ـ أعود غبية جداً!

ـ ولكني لاحظت أنك ذكية دائماً

ـ لأنك أول رجل فهمني!

ـ لماذا تتلفتين حولك؟

ـ لأن غالب يتحدث مع سلوى وهبي.

ـ وهل تخافين أن تأخذه سلوى منك؟

ـ طبعاً..

ـ أنت قلت من دقائق أنك ستصفين علاقتك به، وبباقي الرجال!

ـ فرق كبير أن أترك أنا غالب بك وأن تأخذه سلوى وهبي مني.

ـ ما الفرق بين أن تستغني عن رجل لا تريدينه وأن تسرقه منك امرأة أخرى؟

ـ أنا أوزع أحذيتي القديمة على صديقاتي وعلى الفقراء، ولكني أثور إذا سرق لص حذائي.

ـ حتى لو كنت تريدين أن ترميه؟

ـ نعم.. حتى ولو كنت زهدت في الحذاء، وركنته. وقررت أن أوزعه على أول امرأة فقيرة.

ـ كم حذاء في دولابك؟

ـ مائة وعشرون.

ـ أقصد رجالاً!

ـ سوف أعترف لك بكل شيء عندما ألتقي بك الليلة . . .

ـ هذا يقتضي أن أبقى معك حتى الصباح!

ـ إن بيتي في عمارة شواربي شقة رقم ٥٧ في الدور الخامس!

□ □ □

وجـاءت سلوى وهي تبتسم ابتسـامـة صفـراء . . ووقف عبد المتعال ودعاها إلى الجلوس معهما فقالت ساخرة :

ـ آسفة إنني قطعت عليكما حديثكما اللذيذ!

قال عبد المتعال :

ـ تعالي اشتركي معنا في الحديث!

ـ في أي موضوع؟

ـ كنا نتكلم عن الأحذية

ـ وهل وجدت مقاسك؟

وانتفضت كـاميليا من مقعـدها ومـدت يـدهـا إلى سلوى، فصافحتها سلوى بأطراف أصابعها، ومدت يدهـا إلى عبد المتعـال، وقرصته في يده وهي تصافحه، وكأنها تذكره بموعد السـاعة الحـادية عشرة مساء!

وجلست سلوى إلى جانب عبد المتعال، وسألته في لهفة :

ـ ماذا قلت لها؟

ـ كل ما اتفقنا أن نقوله!

ـ فقط؟

ـ فقط!

ـ ولكن ما اتفقنا أن نقوله لا يستغرق سوى ثلاث دقائق، وأنت تتحدث معها منذ ثلاثة أرباع الساعة .

ـ لم أشعر أنني حدثتها أكثر من ربع ساعة.

ـ طبعاً لم تشعر، لأنها نومتك تنويماً مغناطيسياً، وفقدت القدرة على التمييز بين ربع الساعة وثلاثة أرباع الساعة!

ـ أنت التي طلبت مني أن أمثل دور العاشق!

ـ ولم أطلب منك أن تضع وجهك فوق شعرها.

ـ لم يكن وجهي على شعرها. كان وجهي بجانب شعرها.

ـ لم يكن ينقص إلا أن تقبلها في الحفلة الساهرة.

ـ أنت التي ألححت عليَّ أن أمثل دور المحب الولهان، وأنا الذي كنت أعارض أن أقوم بهذا الدور أو أحضر الحفلة كلها!

ـ فرق بين أن تمثل دور العاشق وأن تندمج فيه، وتصبح عاشقاً ولهان فعلاً...

ـ أنا لم أر أنني كنت عاشقاً فعلاً.

ـ طبعاً لم تر نفسك، ولكن كل من في الحفلة رآك، ورأى ما فعلته

ـ ماذا فعلت؟

ـ كادت عيناك تخرجان من حدقتيك لتقبلها، وتعانقها، وتغتصبها!

ـ هل قال لك أحداً هذا؟

ـ لم يقل لي أحد هذا، ولكن قالت لي عيناي... رأت عيناي كل شيء بوضوح.. كنت أتصور أنك رجل فإذا بك هباء... لم يصمد حبك أمام أنفاس كاميليا، وكنت أعتقد أن حبك يستطيع أن يصمد أمام العواصف والزوابع والأعاصير!

ـ أنت تعرفين أنني كنت أقوم بدور تمثيلي.

ـ أنا ممثلة، وأعرف الفرق بين التمثيل والحقيقة!

ـ أنت التي ألفت هذه الرواية وأخرجتها، ولقنتني كلمات دوري.

ـ أنت حولت التمثيل إلى حب.

ـ إنني اتفقت مع كاميليا على أن أذهب إليها الليلة في الساعة الحادية عشرة مساء.

ـ لن تذهب!

ـ والمفتاح؟

ـ سأسرقه أنا!

ـ كيف تسرقينه!؟

ـ أنا التي سأذهب.

ـ إلى شقة كاميليا؟

ـ لا، إلى شقة غالب بك!

الفصل الخامس والعشرون

لم تصدق سلوى عينيها، وهي جالسة مع غالب بك، في شقته الفاخرة الأنيقة في عمارة «بهلر» بالزمالك، أيكون هذا الرجل اللطيف الوديع هو الطاغية الصغير الذي يتحدث عنه عبد المتعال باستمرار؟

مستحيل أن يكون هذا الإنسان الوديع قاتلاً يقتل عبدالجواد أفندي وكيل حسابات الشركة!

مستحيل أن يكون خلف هاتين العينين البريئتين وجه سفاح يشرد مئات الموظفين والعمال!

مستحيل أن يكون هذا الصوت الهادىء هو صوت الجبار الذي يأمر السعاة بضرب عبد المتعال وركله بالأحذية وطرده الى الطريق العام!

مستحيل أن تكون هذه اليد الناعمة الرقيقة هي يد لص كبير يسرق أموال الشركة!

لا بد أنها أخطأت في العنوان، ودخلت إلى شقة غالب بك آخر!؟

أم يكون المخرجون المسرحيون يخطئون عندما يختارون الممثل

الذي يقوم بدور «الرجل الشرير» فيختارون رجلاً بأنياب بارزة، وبعينين قاسيتين، وبملامح تنطق بالجريمة والغدر واللؤم والخسة! وأن ملامح الرجل الشرير الحقيقية في داخله، وليست في قسمات وجهه!

أم أن الفرق بين الرجل البريء والقاتل السفاح هو المسدس الذي يحمله القاتل.. فالمسدس هو الذي يتحكم في الرجل، وليس الرجل هو الذي يتحكم في المسدس... المسدس في يد طفل بريء يحوله إلى وحش.. الجرأة ليست في الرجل وإنما في المسدس الذي يحمله، فإذا انتزعت من يده المسدس تحول إلى جبان رعديد.. وهذا المسدس هو السلطة التي تفسد المدير المراهق، كما يفسد المسدس الشاب المراهق، ويحوله إلى لص يهاجم البيوت ويسرق الناس، ويقتلهم إذا وقفوا في طريق نزواته الطائشة!

عندما كانت سلوى تسمع عبد المتعال وهو يتحدث عن جرائم غالب بك، كانت تتصور أنه عملاق ضخم، رجل داهية، شخصية جبارة، وعندما سمعت باسمه في حفلة زينب صدقي، وطلبت من صديقتها الممثلة الكبيرة عزيزة أمير أن تقدمها له، فوجئت بأنه رجل فارغ، تافه.. حتى أنها سألته عدة مرات.. هل هو غالب بك مدير شركة مصر للبسكويت!؟ لقد وجدته رجلاً عادياً.

يوسف وهبي مثلا تشعر وأنت تتحدث إليه أنه شخصية جبارة!

أم كلثوم تسمع صوت ذكائها أعلى من صوت غنائها!

نجيب الريحاني تحس وهو يمزح معك أنه عبقري.

الموسيقار محمد عبدالوهاب ولد ليكون وزير خارجية في

إمبراطورية تريد أن تبسط نفوذها على العالم.

عباس العقاد شخصية جبارة تفرض على المتحدث إليها رهبة واحتراماً . . .

حتى صديقها مجدي باشا الأسيوطي وزير المواصلات، تحس أن وراءه ماضياً طويلاً من المعارك السياسية، من الصراع المرير، وليس مهماً أنها لا تتفق معه في كثير من آرائه فهو أشبه بنسخة من جريدة طبعت منذ عشر سنوات، تجد متعة وأنت تقرأها، لترى فيها كيف كان يفكر الناس منذ عشر سنوات.

أما غالب بك فهو أشبه بصفحة بيضاء شطبها الرقيب في جريدة. . تثير خيالك، ولكنك لا تعرف المكتوب فيها!

أيكون هؤلاء المديرون عندما يجلسون فوق المقاعد في مكاتبهم تعلو قاماتهم ويتحولون إلى عمالقة، فإذا ما غادروا مكاتبهم عادوا أقزاماً كما كانوا دائماً . . كأن مكتب المدير العام هو «ديكور» القصر الذي يعطي المتفرج وهماً أن الممثل الذي يقوم بدور الملك، هو ملك حقاً، فإذا سقط المنظر الورقي ظهر ممثل دور الملك صعلوكاً على حقيقته!

أتكون الأنياب التي نراها في أفواه الطغاة الصغار طقم أسنان من الأنياب يضعونها في أفواههم عند التهامهم للطعام، ويخلعونها عند النوم. . أم أن أوهامنا هي التي تضع في أفواههم «طقم الأنياب» هذا، لنبرر لأنفسنا عجزنا عن المقاومة؟

لم تكن سلوى في حاجة إلى وقت طويل لتكتشف أن المدير الخطير رجل «فاضي» من الداخل. من مدرسة «الرجل الفهلوي»

الذي كثيراً ما نراه في بلادنا بين أنصاف المتعلمين. ذلك الرجل نصف الساذج، الذي يتوهم أنه قادر على خداع الأذكياء، الذي لم يتعمق في أي موضوع، ويتحدث في كل موضوع، المتظاهر بأنه عالم ببواطن الأمور، وهو جاهل بظواهر الأمور.

ولم تدهش أن غالب بك عشق الراقصة كاميليا، الرجل التافه لا يعشق إلا امرأة أتفه منه، ليشعر بأنه أقوى منها.. ليبهر جهلها المركب بجهله البسيط.. كثيرون من الرجال يعشقون الخادمات، عندما يشعرون أن زوجاتهم أقوى منهم شخصية، فالتافه يبحث عن امرأة أضعف منه ليشعر بجوارها بقوته وسلطانه.. والرجال الكبار الصغار تستطيع أن تعرف مساحة ضآلتهم من الرجال الذين يقربونهم إليهم..

وقد كانت سلوى تعرف حقيقة الراقصة كاميليا، فكان من السهل عليها أن تعرف حقيقة غالب بك.. ولقد أحست بعد دقائق من حديثها معه في حفلة زينب صدقي أنها استطاعت أن تجرده من بعض ملابسه.. وأحست وهي في بيته أنها استطاعت أن تعريه من كل ملابسه.

وأحست سلوى وهبي وهي ترى غالب بك يستعرض أمامها الصور الزيتية، أنه يستعرض أمامها مواهبه.. فقد كانت هذه الصور والتحف كل مواهبه!

□ □ □

أمسك غالب بك بزجاجة الويسكي وأفرغ جرعتين من الويسكي في الكأس التي أمام سلوى، ثم أفرغ ثلاث جرعات في

الكأس التي أمامه، ثم أمسك بملقاط من الفضة، والتقط قطعتين من الثلج، ووضعهما في كأس سلوى، ووضع قطعة من الثلج في كأسه.

وأمسك كأسه بيده، ورفعها، ثم قربها من عيني سلوى وهو يقول:

ـ هذه لعينيك...

ثم أعاد الكأس ورفعها نحو عينيه وهو يقول:

ـ وهذه لعيني!

ثم قرب الكأس من شفتيها وهو يقول:

ـ وهذه لشفتيك!

ثم أعاد الكأس إلى شفتيه وهو يقول:

ـ وهذه لشفتي.. عيوننا التقت.. شفاهنا سوف تلتقي!

وحملت سلوى كأسها وشربت النخب وهي تقول:

ـ هذا نخب لذيذ أسمعه للمرة الأولى.. دعني أشرب نخبك على طريقتي الخاصة.. أشرب الخمر الليلة في كأسك، سأشربها غداً في شفتيك.. اليوم أفيق، وغداً أسكر.. اليوم أصمد وغداً أذوب.. اليوم أحتفظ برأسي وغداً سأفقد الوعي وأنا أشرب من شفتيك يا حبيبي!

ـ إنني أحتج على هذا النخب!

ـ لا يعجبك؟

ـ إنه يؤجل عمل اليوم إلى الغد.. لذلك أقترح أن نغير بضع كلمات في النخب!

ـ ماذا تريد أن تغير فيها؟

ـ أشرب الخمر في كأسك الأولى وسأشربها في شفتيك في الكأس الثانية.. في الكأس الأولى أفيق، وفي الكأس الثانية أسكر.. في الثالثة أتجرد من عقلي!

ـ لا مانع عندي من أن تتجرد من عقلك!

ـ وعقلك أنت؟

ـ أنا لا أتجرد من عقلي قبل الكأس العاشرة!

ـ لنبدأ بالكأس العاشرة!

ـ يظهر أن شركة مصر للبسكويت لا تؤمن بأن في التأني السلامة.!

ـ تؤمن بأن في التأني الندامة!

ـ وهذا سر نجاحها؟!

ـ الشركات كالنساء كلما أسرعت أكثر، حققت أرباحاً أكبر!

ـ ولهذا جردتها من ثيابها من اليوم الأول؟!

ـ عندما استلمت الشركة كانت ثيابها ممزقة!

ـ وأصبحت الآن على اللحم!؟

ـ إنني تلقيت خطاب تهنئة اليوم من رئيس الوزراء على النجاح الذي حققته الشركة!

ـ هل شرب رئيس الوزراء نخب الشركة؟

ـ إننا نصنع لدولة رئيس الوزراء صنفاً من البسكويت يعجبه جداً.

ـ هل هو نوع من البسكويت الذي تبيعونه؟

ـ نوع مخصوص، فاخر جداً!

ـ لا بد أن رئيس الوزراء يأكل هذا البسكويت وهو يقرأ التقارير عن حالة الشركة!

ـ سأبعث لك بعشرة صناديق من هذا البسكويت.. إنني أرسل

لرئيس الوزراء عشرة صناديق أيضاً!
ـ وكم ترسل لكاميليا؟
ـ خمسة صناديق كالوزراء!
ـ كأنك عينتني رئيسة للوزراء بعد لقائنا بدقائق.
ـ بعد الكأس الأولى.. هيا نوقع عقد الاتفاق!
ـ أنا لست امرأة للبيع ولا للإيجار!
ـ أعرف ذلك!
ـ وماذا ستعطيني بعد الكأس العاشرة؟
ـ شركة مصر للبسكويت كلها!
ـ كلها؟ بما فيها من الموظفين؟
ـ بما فيها من الموظفين والعمال والمساهمين!
ـ أنت كريم جداً
ـ إنني أضع حياتي تحت قدميك
ـ لا أحب أن أدوس قلوب الرجال بقدمي!
ـ سأضعك فوق رأسي!
ـ أنت أصلع.. وأخشى أن أتزحلق عندما تضعني فوق رأسك!
ـ لا يعجبك رأسي الأصلع!
ـ يعجبني ما تحت جلد الرأس، لا ما فوق جلد الرأس!
ـ إنني بنيت شركة مصر للبسكويت حجراً فوق حجر!
ـ كم مضى عليك تعمل في شركة البسكويت!؟
ـ أكثر من عامين.
ـ ولكنني سمعت أنه مضى على إنشائها أربعون عاماً!
ـ كانت أطلالاً وجعلتها هرماً!
ـ معلوماتي التاريخية أن قدماء المصريين بنوا الاهرامات ليدفنوا

فيها الموتى.. فمن دفنت في هذا الهرم؟

ـ لم أدفن أحداً.. إنني أحببت الموتى.. سوف أدعوك لتحضري بنفسك إحدى الحفلات الساهرة التي نقيمها كل شهر لأبنائنا العمال وستلمسين مقدار عنايتنا بالعمال ورعايتنا لهم واهتمامنا بهم... ستسمعين العمال وهم يهتفون «لا مدير إلا غالب بك»؟

ـ لماذا لا يهتفون «نموت ويحيا غالب بك»!

ـ العمال كلهم لا يقسمون إلا بحياتي!

ـ كلما أرادوا أن يقسموا قسماً كاذباً؟!

ـ إنهم لا يهتفون إلا بحياتي!

ـ ما أكثر القتلى الذين هتفوا بحياة قاتليهم!

ـ أنت تتكلمين بلغة الفوضويين!

ـ لماذا؟

ـ لأنك تتكلمين بلغة عمال مصنع الإسكندرية!

ـ وماذا فعلت بهم؟

ـ رفضت أن أعاقبهم.. رفضت أن أبلغ النيابة عنهم.. رفضت أن يصابوا بسوء ما داموا تابعين للشركة

ـ ماذا فعلت؟

ـ بعت المصنع!

ـ قلبك كبير جداً!

ـ كل الذين عرفوني عن قرب قالوا هذا!

ـ ولأن قلبك كبير يتسع لعدد كبير!

ـ كل عمال وموظفي الشركة في قلبي، الصغير قبل الكبير!

ـ إذا كان كل هؤلاء في قلبك، فأين أقيم أنا؟

ـ أطردهم جميعاً وتسكنين فيه وحدك!

- وبعد ذلك تبيع قلبك، كما بعت مصنع الإسكندرية!

- إنني أردت أن ألتقي بك الليلة لأنسى فيك الشركة، لا أن تذكريني بالشركة!

- حسبت أن رجال الأعمال يفكرون في شركاتهم، وهم بين أحضان عشيقاتهم!

- إن من عادتي قبل أن أخرج من الشركة كل يوم، أن أضع في درج مكتبي جميع هموم الشركة ومتاعبها، وأزماتها، وأقفل عليها بالمفتاح!

- أين هذا المفتاح العجيب؟ لقد تمنيت أن يكون معي مفتاح مثله ليقفل على جميع متاعبي وأزماتي في المسرح والسينما!

- سأكون أنا هذا المفتاح!

- أرني مفتاحك الذي يصنع كل هذا السحر!

ووضع غالب بك يده في جيبه وأخرج سلسلة مفاتيحه، وأشار إلى مفتاح صغير بين هذه المفاتيح وقال: هذا هو مفتاح درج مكتبي!

□ □ □

وأمسكت سلوى بالمفاتيح في يدها بغير اهتمام ثم ألقت بالمفاتيح بحركة عصبية وقالت:

- لماذا تكذب علي؟

فقال:

- إنني لا أكذب!

- هذا ليس مفتاح درج مكتبك!

- أقسم لك بأنه مفتاح درج مكتبي!

ـ هـذه ثـمانيـة مفـاتيـح . . أراهن أنها مفـاتيـح شقق غـانيـات وراقصات . . كل واحدة منهن هي درج تضع فيه همومك ومتاعبـك وأزمات الشركة!

ـ أنت تظلمينني بهذه الاتهامات!

ـ أين مفتاح شقة كاميليا؟

ـ مفتاح شقة كاميليا؟! هذا المفتاح . . هو مفتاح شقة كاميليا!

ـ والمفـاتيح السبعـة الباقيـة؟ . . إنها طبعـاً مفـاتيـح شقق بـاقي الراقصات والغانيات!

ـ ليس في هذه المفاتيح السبعة مفتاح امرأة واحدة!

ـ أنا لا أصدقك!

ـ أنت تشكين في كل كلمة أقولها!

ـ لأنك تعجبني!

ـ وهل كل امرأة تعجب برجل تشك فيه؟

ـ ألم تسمع أغنية أم كلثوم القديمـة التي تقول فيهـا «الشك يحيي الغرام وبزيد ناره لهيب»!

ـ أنت غيورة جداً!

ـ ولهذا أريد أن أعرف من هن النساء اللواتي تعرفهن!

ـ لا أعرف سوى كاميليا!

ـ وهذه المفاتيح السبعة؟

ـ مفاتيح الشركة!

ـ هل أنت مدير الشركة أم بواب الشركة؟

ـ هذا المفتاح الأول . . هو مفتاح الباب الخلفي للشركة!

ـ ولماذا تحتفظ بمفتاح الباب الخلفي؟

ـ لأنني أضطر أحياناً أن أدخل إلى الشركـة وأخرج منهـا دون أن

يراني أحد ويوجد بقرب الباب الخلفي مصعد خاص بي، يصعد مباشرة إلى الطابق العشرين، حيث يوجد مكتبي الخاص في مجلس الإدارة!

- أراهن أنك صاحب فكرة الباب الخاص..

- فعلاً أنا صاحب الفكرة، كيف عرفت هذا؟

- لأنك بهذه الطريقة تستطيع أن تستقبل من شئت من النساء والغواني دون أن يراك الموظفون!

- أنت امرأة خطيرة، تشكين في كل شيء!

- أنا لا أتجنى عليك.. عيناك تقولان لي أنني قلت الحقيقة!

- إنها ليست عيوناً.. إنها بوليس سري.. ولكن أقسم لك بأن هذا حدث مرة أو مرتين!

- لا يهمني العدد. كل ما يهمني أن تعترف بأن هناك نساء يدخلن من هذا الباب!

- أحياناً!

- الآن بدأت أصدقك!

- أؤكد لك أنني صادق معك!

- وما هذا المفتاح الثاني؟

- إنه مفتاح باب غرفة مكتبي؟

- وهذا المفتاح الثالث؟

- إنه مفتاح غرفة مجلس الإدارة..

- حيث تعقد الاجتماعات السرية.

- هناك اجتماعات علنية واجتماعات سرية!..

- عندما تدخل امرأة غرفة اجتماع مجلس الإدارة يصبح الاجتماع سرياً..!

- عدت تظلمينني من جديد!

ـ وهذا المفتاح الرابع؟
ـ هو مفتاح الخزانة الموجودة في مكتبي
ـ والمفتاح الخامس؟
ـ مفتاح الخزانة الموجودة في مكتب مدير الميزانية!
ـ هل أنت صراف الشركة؟
ـ لا.. أنا مديرها العام.
ـ ولماذا تحتفظ بمفتاحي الخزانتين؟
ـ إنها خزائن لا نضع فيها نقوداً، إن فيها أوراق الشركة السرية!
ـ والمفتاح السادس؟
ـ هو مفتاح بيتي الذي نجلس فيه الآن!
ـ أما المفتاح السابع فأنا أعرفه إنه مفتاح درج مكتبك.. والمفتاح الثامن هو مفتاح شقة كاميليا!
ـ براءة؟!
ـ على العكس تضاعفت شكوكي!
ـ بعد كل هذه الإيضاحات؟
ـ قلبي يؤكد لي أنك تكذب علي!
ـ إنني لم أكن في حياتي صادقاً كما أنا معك!
ـ لا بد أنك تكذب باستمرار!
ـ أقسم لك أنني صادق معك.. صادق.. صادق.. صادق!
ـ كل شيء فيك يقول أنك كذاب.. كذاب.. كذاب!

وفجأة انهمرت الدموع من عيني سلوى، وراحت تبكي وتنتحب.. وذهل غالب بك وسألها:

ـ لماذا تبكين؟

ـ لأنني اكتشفت أنك كذاب بعدما أحببتك!

وأراد غالب بك أن يحيطها بذراعه، فجفلت منه، وقالت في غضب:

- لا تمسني!

- ماذا حدث؟

- لن أسمح لك بأن تمسني قبل أن أتأكد أنك صادق!

- وإذا تأكدت أنني صادق!

- سوف أبدأ بالكأس العاشرة!

- وكيف أثبت لك أنني صادق!

- الأيام سوف تثبت ذلك!

- الأيام؟ أنا لا أستطيع أن أنتظر ساعات!

- قلبي يحدثني أنني لا أكاد أخرج من عندك حتى تخرج من البيت، وتذهب إلى شقة من شقق عشيقاتك السبع، وتفتح بابها بواحد من هذه المفاتيح.. أنا أعرف هذا النوع من الرجال الذي لا يكتفي بامرأة واحدة!

- أنت تظلمينني يا سلوى!

- أنت الذي ظلمتني عندما جعلتني أحبك!

- إنني مستعد أن أفعل لك أي شيء لأثبت لك أنني بريء من هذه الإتهامات!

- الدليل أنك كاذب إنك على موعد في بيت كاميليا عند منتصف الليل!

- لن أذهب إلى هذا الموعد!

- ولن تعتذر؟

- لن أعتذر!

- وكيف أضمن أنك لن تعتذر؟

- كلمة الشرف!

ـ كلمة الشرف عملة زائفة في هذه الأيام.. سوف آخذ مفتاح كاميليا!

ـ خذيه!

ـ وكيف أضمن ألا تذهب إلى كاميليا وتذهب إلى واحدة من المفاتيح السبعة!

ـ قلت لك إن هذه مفاتيح الشركة!

ـ إن عندي بروفة في دار الأوبرا تبدأ في منتصف الليل وسأذهب الى هناك وأحاول الاعتذار، وأعود إليك!

ـ لنشرب الكأس العاشرة؟!

ـ والكأس الحادية عشرة!

واقترب غالب بك ليطبع قبلة على شفتي سلوى فأبعدته، واحتج قائلاً:

ـ هذه القبلة هي توقيع للمعاهدة التي تمت بيننا!

فقالت له:

ـ المعاهدات التي توقع بالقبلات تنقض بعد دقائق!

ـ متى أقبلك؟

ـ عندما أعود!

ـ لا تتأخري!

ـ إياك أن تخرج من هنا، قد أحضر بعد خمس دقائق.. أو بعد خمس ساعات!

ـ سوف أنتظرك إلى الصباح!

ـ وسوف تنتهز فرصة غيابي لتعتذر لعشيقاتك الثماني!

ـ إنني وعدتك بأنني لن أعتذر لكاميليا.

ـ ولا لغيرها؟

ـ لا يوجد غيرها!

ـ هل لديك مقص؟

ـ تريدين أن تقصي أظافرك؟

ـ إنني محتاجة لأظافري لأنشبها في لحمك.. لو خنتني!

ـ لماذا تريدين المقص إذن؟

ـ لأقطع سلك التليفون!

ـ لماذا تقطعين السلك!

ـ لكيلا تتحدث مع العشيقات الثماني وتعتذر لهن!

وهز غالب بك رأسه وذهب إلى غرفة داخلية، وأحضر مقصاً، وقطعت به سلوى سلك التليفون!

□ □ □

استقلت سلوى سيارتها من أمام منزل غالب بك، وانطلقت بها بسرعة فائقة إلى بيتها، ودخلت وهي تلهث إلى شقتها، فوجدت عبد المتعال ينتظرها في الردهة الخارجية وقد ظهر عليه القلق، وبادرها بقوله وهو ينتفض:

ـ ماذا حدث؟

ـ لم أحضر مفتاحاً واحداً.. بل ثمانية مفاتيح!

ـ سرقتها؟

ـ لم أسرقها!

ـ كيف حصلت عليها!

ـ وقعت من ملابسه!

ـ كيف وقعت المفاتيح من الملابس!

ـ عندما خلع غالب بك جاكتته سقطت منه المفاتيح!

ـ خلع جاكتته!

ـ طبعـاً. . لا يوجـد شيء مجانـاً. . كل شيء لـه ثمن. . المفتاح الواحد له ثمن والمفاتيح الثمانية لها ثمانية أثمان.

ـ أريد أن أعرف ما هو الثمن؟

ـ دفعت قبلة للمفتاح الأول. . ودفعت عناقـاً للمفتاح الثـاني. . وأخذت الباقي بطريقتي الخاصة.

ـ طريقتك الخاصة؟

ـ ثمن بسيط جـداً. . الحكـايـة كلهـا لم تستغـرق سـوى نصف ساعة!

ـ أنت امرأة فاجرة!

ـ كنت أقوم بدور تمثيلي معه!

ـ وكان السرير هو المسرح؟

ـ الكنبة فقط!

ـ لن أرى وجهك بعد اليوم!

ـ لماذا أبحت لنفسك أن تمثل مع كـاميليا، ولا تبيـح لي أن أمثل مع غالب بك؟

ـ أنا لم أفعل ما فعلت!

ـ أنت وضعت خدك على شعرها ولم تأخذ شيئاً أما أنـا فأخـذت ثمانية مفاتيح!

ـ تمنيت لو أنك لم تأخذي شيئاً ولم تدفعي شيئاً!

واتجـه عبد المتعـال إلى البـاب وقـد نكس رأسـه، فـأمسكت بـه سلوى وقالت وهي تتشبث به:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ ذاهب إلى المدافن بشارع المأمون رقم ٧ بالإمام الشافعي. . !

ـ وماذا ستفعل هناك؟

ـ سأدفن نفسي!
ـ ستنتحر؟
ـ سأدفن نفسي حياً!
ـ لماذا!؟
ـ لأنك امرأة خائنة، سافلة، حقيرة، قذرة!
ـ ما أجملك وأنت تشتمني!

وانفجرت سلوى تضحك ضحكاً عالياً متصلاً..

وكان عبد المتعال يتلوى من الألم والعذاب والشقاء..

وألقى عليها نظرة احتقار وازدراء وقال:
ـ تضحكين؟ كنت أتصور أنك سوف تبكين دماً!
ـ لماذا أبكي؟
ـ من أجل هذا العار الذي ارتكبته!
ـ لم أفعل شيئاً أندم عليه!
ـ لم أر في حياتي امرأة بكل هذا الفجور!
ـ أنت تشتمني أم تمدحني؟!
ـ ألعن أباك!

وقهقهت سلوى، واندفعت نحو عبد المتعال تحاول أن تقبله وتعانقه وتذوب بين ذراعيه.

وتملص منها، وتعلقت به، وقالت وعيناها تفيضان حباً وعشقاً:
ـ كنت أمزح معك!
ـ تمزحين معي؟
ـ نعم أمزح.. أضحك.. أسخر.. أعبث.. أغيظك كما غظتني وأنت جالس مع كاميليا وخدك على شعرها!

ـ كل هذه الرواية التي قصصتها علي كذب؟

ـ أنا اللي ألفتها، وأخرجتها ومثلتها!

ـ ولم يقبلك؟

ـ ولم يقبلني!

ـ ولم يعانقك؟

ـ ولم يعانقني!

ـ ولم.. ولم.. ولم؟

ـ ولم.. ولم.. ولم؟

الفصل السادس والعشرون

وقفت سيارة سلوى أمام الباب الخلفي لبناء شركة مصر للبسكويت، ونزل عبد المتعال من السيارة الأنيقة، ودار حول السيارة، ثم فتح بابها لسلوى وهو ينحني باحترام شديد!

ونزلت سلوى من السيارة وعلى عينيها نظارة سوداء، ثم صاحت بصوت تقطر منه العجرفة:

ـ بواب!

ـ وأسرع حارس الشركة الليلي يخرج من الكشك الخشبي الذي يجلس فيه، واتجه إلى سلوى، وفي يده فانوس مضيء..

وسألته سلوى في لهجة آمرة:

ـ هل أنت الحارس الليلي؟

ـ نعم يا افندم!

ـ ما اسمك؟

ـ عرفة عياد.

ـ أنت مسؤول عن هذه السيارة، لو سرق منها أي شيء فسوف أخبر غالب بك يخرب بيتك.. لقد سرق لص «طارة» من عجلة السيارة في المرة السابقة.. ولم أبلغ غالب بك عن سرقتها رحمة بك. ولكني في هذه المرة لن أسكت!

ـ لم أكن موجوداً في المرة السابقة!

ـ بل كنت موجوداً. .

ـ أقسم لك أنني لم أكن موجوداً. . إنني معين في هذا المكان منذ شهر!

ـ الحادث وقع منذ أكثر من شهر. . والحارس كان يشبهك!

ـ أنا سأحرسها بعيني!

ـ لا أريد أن تتحرك من أمامها ما دمنا نحن فوق!

ـ غالب بك ليس موجوداً!

ـ أعرف ذلك وقد أعطانا المفاتيح، وسوف يلحق بنا. كل ما هو مطلوب منك أن تحرس السيارة جيداً!

ـ لن تغيب السيارة عن عيني. .

وأخرجت سلوى من حقيبتها سلسلة المفاتيح، واختارت مفتاح الباب الخلفي الذي تعرفه تماماً، وفتحت الباب الخلفي، واتجهت نحو المصعد، وعبد المتعال خلفها، وأسرع حارس الليل يفتح لها باب المصعد بإجلال واحترام، وأراد الحارس أن يصحبها في المصعد فنهرته سلوى بعنف قائلة:

ـ لماذا جئت؟

ـ لأدلكم على الطريق.

ـ أنا أعرف طريقي. . أنا قلت لك أن تحرس السيارة. . لا بد أنهم سرقوا الآن «طارة» السيارة. . إنهم في هذا الحي يسرقون الكحل من العين!

ـ اطمئني يافندم. .

ـ كيف أطمئن وأنت تركت السيارة؟

ـ سأذهب فوراً!

ـ إذهب بسرعة!

□ □ □

وانطلق الحارس الليـلي، وأقفل البـاب الخلفي وراءه، وضغطت سلوى على زر المصعد، وتحرك المصعد إلى الطابق العشرين. وحملق عبد المتعال في سلوى مدهوشاً وقال:

ـ لم أر في حياتي لصاً بهذه الغطرسة والعجرفة والتعالي!

ـ لأنك لم تسرق قبل الآن!

ـ وهل سرقت أنت من قبل؟

ـ لم أسرق أشياء.. سرقت رجالاً!

ـ وهل تظنين أن سرقة المستندات أسهل من سرقة الرجال؟

ـ سرقة المستندات أصعب.

ـ ما وجه الصعوبة؟

ـ عنـدما أسرق رجـلاً أذهب به إلى بيتي.. ولكن عنـدما أسرق مستنداً يذهبون به إلى السجن!

ـ ما الداعي لذكر السجن الآن؟ إنني مضطرب بما يكفيني، فـلا تزيدي من اضطرابي!

ـ لم نفعل حتى الآن أي شيء حتى تضطرب!

ـ كاد يغمى علي وأنت تنهرين الحارس وتـوبخينه، حتى خشيت أن يقبض علينا ويذهب بنا إلى قسم الشرطة.. أنت كنت تتحدثين إليه بوقاحة عجيبة!

ـ اللصوص الصغار مؤدبون، واللصوص الكبار وقحاء!

ـ إذن نحن لصوص كبار!

ـ كبار جداً..

ووقف المصعد، وخرجت منه سلوى وخلفها عبد المتعال، وأراد عبد المتعال أن يغلق باب المصعد فقالت له سلوى:

ـ لا تغلق الباب!

ـ لماذا؟

ـ فما دام الباب مفتوحاً لا يستطيع أحد أن يستعمل المصعد.

ـ ومن الذي سيستعمل المصعد؟

ـ الشرطة عندما تجيء للقبض علينا!

ـ هل تتوقعين أن تجيء الشرطة للقبض علينا؟

ـ لا أتوقع، وإنما من مصلحتنا أن يصل رجال الشرطة إلى الطابق العشرين على أقدامهم، وهم مقطوعو الأنفاس!

وتلفت عبد المتعال حوله ثم قال في صوت هامس متحشرج:

ـ هذا هو الطابق العشرون.. الخزانة التي فيها المستندات في غرفة الميزانية بالطابق السابع..

ـ هذا المصعد لا يقف في الدور السابع.. يقف في الطابق العشرين فقط.

ـ وكيف عرفت ذلك؟

ـ غالب بك!

ـ وماذا نفعل للوصول إلى الطابق السابع؟

ـ أنت كنت مدير الشركة كما تقول فلا بد أنك تعرف الطريق!

ـ نسيت أنني كنت مدير الشركة ولا أذكر الآن أي شيء!

ـ سوى أنك حرامي!

ـ نعم.. سوى أنني حرامي!

ـ أنت حرامي «خيبة»!

- قلت لك أنهم وضعوني في السجن مع مرتكبي جرائم القتل، ولم يضعوني مع اللصوص. لو كانوا وضعوني مع اللصوص لتعلمت منهم!

- هذا من حسن حظنا.. فقد نحتاج إليك لترتكب جريمة قتل

- جريمة قتل؟

- ماذا نفعل لو جاء أحد ونحن نفتح الخزانة؟

- نستسلم!

- استسلم أنت.. أما أنا فلن أستسلم.. سأقاتل!

- تقاتلين بأظافرك؟

- أحضرت معي مسدساً، وهو في حقيبتي؟

- من أين جئت بهذا المسدس؟

- من أخي الدكتور منير.

- وهل عرف ما تنوين أن تفعليه بهذا المسدس؟

- لم أخبره طبعاً.. قلت إنني أحتاج إلى المسدس لأظهر به في فيلم!

- ولكنك لا تجيدين استعمال المسدس.

- في كثير من أفلامي ومسرحياتي استعملت المسدس.

- كان تمثيلاً!

- لا فرق بين التمثيل والحقيقة! سوف أمثل أنني سأطلق النار.. فإذا لم يهرب الذين جاءوا ليقبضوا علينا فسأطلق النار «في المليان»!

- لم أتصور أننا سنضطر إلى ارتكاب جرائم قتل!

- الذي يريد أن يقول «لا» يجب أن يعلم أن «لا» قد تكلفه حياته!

ـ أنا مستعد أن أضحي بحياتي . . ولكنني لا أطيق أن أقتل.
ـ سأقتل أنا!
ـ وأعترف أنني القاتل لأنقذ حياتك!
ـ لأنك رجل نبيل!
ـ لأنها ليست المرة الأولى التي أعترف فيها بارتكاب جريمة لم أرتكبها.

وفتحت سلوى حقيبة يدها، وتقهقر عبدالمتعال إلى الخلف مذعوراً وقال:

ـ ماذا تفعلين؟ هل ستخرجين المسدس؟
ـ سأخرج البطارية!
ـ أنت فكرت في كل شيء!
ـ كان المفروض أن تفكر أنت في كل شيء!
ـ كل ما فكرت فيه هو كلمة «لا»!
ـ ألم تقل لك فاطمة سري أن كلمة «لا» لا تكفي!

وأضاءت سلوى البطارية الكهربائية، ووجهت ضوءها إلى الأرض، ومشت على أطراف أصابعها في دهليز الطابق العشرين إلى أن وصلت إلى السلم، ومشى خلفها عبد المتعال وهو مقطوع الأنفاس، وهبطا درجات السلم، ونزلا ثلاثة عشر طابقاً حتى وصلا إلى الطابق السابع، وسارا في دهليز الطابق السابع، وأشار عبد المتعال إلى غرفة وقال وهو يلهث:

ـ هذه هي غرفة الميزانية التي فيها خزانة المستندات.

ووضعت سلوى يدها على مقبض الباب، وحاولت أن تفتحه، ثم همست في ذعر:

ـ الباب مغلق بالمفتاح!

- **معك المفاتيح!**

- ليس بينها مفتاح غرفة الميزانية، معي مفتاح الخزانة فقط!

- **ماذا نفعل؟**

- معي منشار صغير!

- **وماذا نفعل بالمنشار؟**

- ننشر الباب!

- **هذه جريمة!**

- الجريمة هي أن نجد الباب مغلقاً ولا نفتحه!

- **لماذا لا تجربين المفاتيح الكثيرة التي معك.. فقد يفتح أحدها الباب.**

وبدأت سلوى تجرب المفاتيح في ثقب الباب، واحداً وراء واحد، وإذا بالمفتاح السابع يفتح الباب.

وضحكت سلوى وقالت:

- تصور.. إن المفتاح الذي فتح باب غرفة الميزانية هو مفتاح شقة كاميليا!

- **لأن أغلب الميزانية يذهب إلى شقة كاميليا!**

□ □ □

ودخلا غرفة الميزانية، وسلطت سلوى شعاع البطارية في أنحائها.. واستقر الضوء على خزانة حديدية ضخمة، وفتحت سلوى ذراعيها، والتصقت بالخزانة الحديدية وقال لها عبد المتعال في ذهول:

- **ماذا تفعلين؟**

- أعانق الخزانة وأقبلها!

- **لماذا تعانقينها؟**

- لأنني سأجدك داخل الخزانة.

- ستجديني أنا؟

- سأجد المستندات التي تعيدك إلى الحياة!

- وستعيد الشركة إلى الحياة!

- إنني أفكر فيك أنت أولاً.

- وأنا أفكر في الشركة أولاً!

- لقد رأيت قبلك رجالاً يذوبون في نساء، ولم أجد رجلاً يذوب في شركة!

- لأنني أحس بأنها ابنتي!

- حتى بعد أن هتك غالب بك عرضها؟

- ليس الذنب ذنب الشركة المغتصبة.. وإنما هو ذنب من اغتصبها!

وأخرجت سلوى مفتاح الخزانة، وفتحت باب الخزانة وهي تقول ضاحكة:

- إفتح يا سمسم!

ثم سلطت شعاع البطارية على داخل الخزانة وقالت لعبدالمتعال وهي تشير إلى الأوراق الكثيرة:

- قد فتحت لك باب المغارة.. وعليك أن تمد يدك وتأخذ ما تشاء من كنوز!

ووقف عبد المتعال مسمراً أمام الخزانة المفتوحة، وصاحت فيه سلوى:

- مد يدك!

- لا أستطيع!

- كيف لا تستطيع؟

- هذه سرقة!

- إنها ليست سرقة. إنها استرداد!

- إنها سرقة يعاقب عليها قانون العقوبات!

- أنت تضبط سرقة. أنت تسترد حقوق العمال والموظفين والمساهمين المسلوبة!

- هذه الأوراق قانوناً ملك الشركة!

- وما هي الشركة.. إنها ليست غالب بك. إنها آلاف العمال والموظفين والمساهمين. أنت لا تسرق هذه المستندات لتتجر بها، وإنما لتمنع الإتجار بقوت المالكين الأصليين! أنت أشبه بمن يسرق دواء لينقذ مريضاً من الموت. هل تفضل أن تحترم القانون ويموت المريض، أم تستعيد الدواء من الممرض الذي سرقه، وتنقذ المريض من الموت!

- القانون سيحاكم الذي يسرق من السارق!

- خير لك أن يحاكمك القانون مرة واحدة، من أن يحاكمك ضميرك طوال حياتك!

- ولكني تعودت احترام القانون!

- حتى القانون الذي أدخلك إلى السجن بلا جريمة، وحكم عليك بلا تهمة تحترمه أيضاً!

- هذا شيء آخر!

- هو نفس الشيء!

- ماذا يحدث لو أن كل واحد منا فسر القانون بطريقته؟

- تفسير الظالم للقانون غير قانوني.. كان هتلر يقتل آلاف الألمان تطبيقاً للقانون الظالم الذي وضعه، وأباح له أن يسحق خصومه، لأن كل من يخرج عليه إنما هو خارج على ألمانيا. إن كل ظالم يحول

ظلمه إلى قانون.. هل سمعت عن طاغية لم يقتل خصومه إلا استناداً إلى مواد في القانون الذي وضعه؟ وإذا حدث ولم يكن في القانون الموجود هذه الجريمة، وضع قانوناً جديداً ينص على الجريمة الجديدة ويحددها بحيث تكون كحبال المشانق حول أعناق مخالفيه.. فهل الذين وقفوا ضد هتلر كانوا يقفون ضد القانون؟ المستعمر عندما يدخل بلداً يشرع القوانين التي تحمي احتلاله، فهل إذا خالف الوطنيون هذه القوانين الظالمة اعتبروا خارجين على القانون.

- **عندما انتحر هتلر، انتحرت معه جميع قوانينه!**
- وعندما يذهب غالب بك ستذهب معه كل قوانينه!!
- **هذه ثورة!**
- كلمة «لا» هي أول نداء للثورة!

□ □ □

ومد عبد المتعال يداً مترددة إلى الخزانة، وراح يقلب الأوراق فيها.. وبعد أن قلب عدداً من الملفات انتزع ملفاً، ولوح به وهو يقول:

- **هذه هي الميزانية الحقيقية!**
- المستند الذي كنت تبحث عنه؟
- **هو بعينه؟**
- ابحث فقد تجد فضائح أخرى!
- **هذا يكفي!**
- هذه فرصة لن تتكرر!

وعاد عبد المتعال وراح يقلب الأوراق من جديد، ودقق النظر في

إحدى الأوراق ثم تمتم قائلاً:

ـ هذا غريب!

ـ ما وجه الغرابة!

ـ هذه صورة مذكرة بدفع مبلغ خمسمائة جنيه لسالم حليم سكرتير عام الحسابات للإنفاق على جنازة عبد الجواد وإعانة لأرملته وأولاده السبعة.. وهي موقعة بإمضاء غالب بك شخصياً.

ـ وماذا يدهشك في المذكرة!

ـ معنى ذلك أن غالب بك بريء من قتل عبد الجواد، لأنه من غير المعقول أن ينفق خمسمائة جنيه عليه وهو الذي قتله!

ـ ألم تسمع عن الذي يقتل القتيل ويمشي في جنازته؟

ـ سمعت.. ولكن لم أسمع عن القاتل الذي يدفع مصاريف الجنازة!

ـ إنها طابع العصر الذي نعيش فيه!

ـ سوف أذهب إلى زوجة عبد الجواد وأعرف منها كم تسلمت من هذا المبلغ!

ـ قد تكون هذه الوثيقة هي التي تكشف الستار عن سر مصرع عبد الجواد..

ودس عبد المتعال الوثائق في جيبه وفرك يديه وهو يقول:

ـ لم أعرف أن السرقة لذيذة هكذا!

وسمعا في هذه اللحظة صوت حركة غريبة، كأن أقداماً تسترق الخطى في دهليز الطابق السابع.. وأسرعت سلوى وأطفأت البطارية.. وتسمر عبد المتعال في مكانه وبدأ العرق يسيل من وجهه.. ورأى عبد المتعال سلوى، وهي تخرج بسرعة مسدسها من

حقيبتها. . وقال عبد المتعال هامساً في هلع:

- ماذا تفعلين؟

- أستعد!

- تستعدين لماذا؟

- للدفاع عن أنفسنا!

- أتوسل إليك أن تعيدي المسدس إلى حقيبتك!

- أنت خائف!

- أرتعش فقط!

- هل تخاف الموت!

- أخاف من السجن!

- اطمئن. . لن تدخل السجن؟

- سأدخل القبر!

- ولن تدخل القبر!

- أين سأدخل؟

- ستدخل التاريخ!

- يا فرحتي!

- لا تريد أن تدخل التاريخ؟

- سأدخل تاريخ الجريمة!

- سيقول التاريخ أنك مت وأنت تقول «لا»!

- كيف سيعرف التاريخ أني قلت «لا». . إذا كان لا يعرف اسمي!

- عندما تقبض علينا الشرطة ستقول لهم إنني جئت أسرق المستندات التي تثبت حقوق العمال والموظفين المسلوبة!

- سوف تختفي هذه المستندات من القضية. . ولا يبقى في الملف

سوى اعترافي!

- اعترافك بماذا؟

- بأنني جئت أسرق أموال الشركة من خزانة الشركة.

- أما أنا فلن أعترف إلا بالحقيقة!

- لا بد أن في سجن النساء شاويشة اسمها «عبده الجبارة» مثل الشاويش عبد الجبار!

وتوقف عبد المتعال عن الحديث فقد عاد يسمع من جديد الحركة الغريبة، وكأن الخطوات تقترب من غرفة الميزانية.

وتقدمت سلوى وشهرت المسدس في يدها، وأمسكها عبد المتعال بيد مرتعشة وقال:

- إلى أين أنت ذاهبة!

- لأواجه الموت!

- تواجهين الموت؟

- عندما نذهب إلى الموت يهرب الموت، وعندما نهرب من الموت يلحقنا الموت!

- لن أتركك تخرجين وحدك..

- قف أنت هنا.. ولا تتحرك!

- لن أتركك وحدك!

- مصلحتنا أن تتركني أذهب وحدي وتبقى أنت مختبئاً.. وسوف تحدث مطاردة بيني وبين الشرطة، وسأحاول الصعود إلى الأدوار العليا، وعندئذ تنتهز أنت الفرصة، وتهرب إلى الطوابق السفلية، وبذلك تنقذ المستندات!

- كيف أفقدك وأنقذ المستندات؟

ـ خير من أن تفقدني وتفقد المستندات معاً!

ـ لا أوافق على هذه الخطة!

ـ هـذه المستندات هي الـدفاع الـوحيد عني بـأنني لست لصـة، وخير لي أن أموت شهيدة، على أن أعيش لصة!

ـ أعطيني المسدس، وخذي المستندات!

ـ كنت تخاف من منظر المسدس!

ـ أصبحت لا أخاف من منظر الموت!

ـ ما هذه الشجاعة المفاجئة؟!

ـ الخطر يمنحنا قلباً جديداً!

ـ معي مسدسان!

ـ مسدسان؟!

ـ نعم.. كنت واثقة أن الخطر سوف يصنع منك شيئاً جديداً!

وأمسك عبد المتعال بالمسدس، ونظر إلى يده التي تحمل المسدس في دهشـة. دهش من أن يـده التي تحمـل المسـدس لأول مـرة لم ترتعش!

وتقـدم عبد المتعـال إلى خارج غـرفة الميـزانية والمسـدس في يـده وخلفه سلوى تحمل مسدسها.

ووجد الظلام دامساً. لم يسمعا أي حـركة.. ومـا كادا يخـطوان خطوة واحدة في الردهة حتى سمعا الصوت من جديد..

وأضـاءت سلوى البطاريـة.. وكتمت بيدهـا ضحكة عـالية.. وصاح عبد المتعال:

ـ ماذا؟!

- لقد جاءت «أورطة» من الشرطة لتقبض علينا!
- **أورطة!**
- قطة!!

ووجهت سلوى ضوء البطارية إلى ركن في الردهة وقفت فيه قطة سوداء صغيرة! وتنفس عبد المتعال الصعداء وبلع ريقه، وقال في صوت مضطرب وهو يعيد مسدسه لسلوى:

- **خذي المسدس!**
- ابقه معك.. فقد نحتاج إليه!
- **أخشى أن ينطلق في!**
- لقد كنت شجاعاً جداً من دقيقة.. وكان المسدس ثابتاً في يدك!
- **يظهر أن عمر الشجاعة دقيقة واحدة!**
- وبعد ذلك؟
- **يجيء الجبن طبعاً!**
- أنت حيرتني.. في بعض الأحيان أجدك في منتهى الشجاعة، وفي بعض الأحيان في منتهى الجبن!
- **شجاعتي في قلبي وليست في يدي!**
- الشجاعة في الرجل في كل جزء منه!
- **لا تصدقي هذا.. شجاعة القلب غير شجاعة اليد، غير شجاعة اللسان قد نجد يداً شجاعة في قلب جبان، وقد نجد لساناً جريئاً في قلب يرتعد!**
- وماذا يرتعد فيك الآن؟
- **كل شيء.. القلب واليد واللسان!**

ـ ولكنني لست خائفة!

ـ أعتقد أنك تمثلين الشجاعة!

ـ إنني لست شجاعة، وإنما جريئة.. الحب هو الذي يجعلني جريئة!

ـ والحب جعلني جباناً!

ـ عجيب أن يفعل الحب في عاشقين الضدين معاً! الحب يجعلك تخاف علي، ويجعلني أخاف على أهدافك أكثر مما أخاف عليك.. لقد فكرت في سلامة المستندات، قبل أن أفكر في سلامتك!

ـ وأنا فكرت فيك، قبل أن أفكر في المستندات!

ـ ترى، من فينا الذي يحب الآخر أكثر؟

ـ أعتقد أنك تحبينني أكثر! لأن أسمى درجات الحب، أن تموت من أجل فكرة!

وتوقف عبدالمتعال فجأة في الردهة وقال:

ـ ألم تدفعي شيئاً ثمناً للمفتاح!

ـ ولا ثمن المفاتيح الثمانية!

ـ ماذا دفعت إذن!

ـ دفعت كلاماً!

ـ أي نوع من الكلام؟

ـ كل الكلام!

ـ وعدته بشيء؟

ـ كل شيء!

ـ كيف تعدينه بكل شيء؟

ـ ألم تعد أنت كاميليا بكل شيء؟

ـ وعدتها فقط بأن ألتقي بها في الساعة الحادية عشرة مساءً.

ـ وأنا وعدته بأن أذهب إليه قبل الساعة الرابعة صباحا . .

ـ تماماً كما فعلت أنا!

ـ ليس تماماً . . أنت وعدت ولم تأخذ شيئاً . وأنا وعدت، وأخذت المفاتيح الثمانية!

ـ وما هي الأسلحة التي استعملتها لتأخذي ما أخذت؟

ـ مواهبي . . مواهبي التمثيلية!

ـ واقتنع «العبيط» أنك «مت» فيه!

ـ كما اقتنع المتفرجون الأذكياء أني «مت» وأنا أمثل دور «ديدمونة» في مسرحية «عطيل»!

ـ وماذا قلت له؟

ـ هذه أسرار المهنة .

ـ أي مهنة؟

ـ مهنة ملكة الإغراء .

ـ لقد وعدتني أن تتركي هذه المهنة .

ـ أعتقد أنني الليلة قمت عند غالب بك بأحسن أدواري!

ـ دور اللص الشريف الذي قمت به هنا هو أحسن أدوارك!

وبدآ يصعدان الطوابق الثلاثة عشرة في طريقهم إلى الطابق العشرين ليستقلا منه المصعد الذي سوف يوصلهما إلى الباب الخلفي .

وكانت سلوى تصعد درجات السلم بخطوات ثابتة، وكان عبد المتعال يصعد بخطوات مرتعشة . .

وبين كل طابق وآخر يجلسان على إحدى درجات السلم، يستريحان من متاعب الصعود .

وعندما وصلا إلى الطابق العشرين سلطت سلوى ضوء البطارية

عـلى أبواب الغـرف حتى وجدت لـوحة نحـاسية عـلى أحد أبـواب مكتوباً عليها مجلس الإدارة!

وقال عبد المتعال في دهشة:

ـ **لا يوجد في غرفة مجلس الإدارة وثائق ولا مستندات نسرقها!**

ـ أعرف ذلك.

ـ **لماذا ندخل غرفة مجلس الإدارة؟**

ـ لأسرقك.. أنت!

ـ **تسرقيني.. أنا.**

ـ أريد أن أقبلك قبلة طويلة!

ـ **أين؟**

ـ في غرفة مجلس الإدارة!

ـ **مستحيل!**

ـ هذا.. هو مزاجي!

الفصل السابع والعشرون

اصفر وجه عبد المتعال.. تلعثم.. تردد.. أراد أن يتراجع أمام باب مجلس إدارة الشركة ومضت سلوى تجذبه إلى الغرفة المفتوحة، وهو يتملص ويحاول الهروب.. والتصقت به وهي تقول ضاحكة:

- ادخل.. يا جبان!

- لست جباناً!

- ألم تقل لي أنك تريد أن تقبلني؟

- نعم قلت ذلك!

- أنا تحت أمرك يا مولاي.

- ليس هنا!

- ما الفرق؟

- هنا غرفة مجلس الادارة!

- عندما يريد رجل أن يقبل امرأة يحبها لا يتردد في أن يقبلها في الشارع!

- في الشارع؟ هذا فعل فاضح في الطريق العام. هذه جريمة يعاقب عليها قانون العقوبات.

- عندما يريد الرجل أن يقبل المرأة التي يحبها ينسى كل مواد قانون العقوبات!

- إلا هذه المادة!

- عقدة السجن؟

- أنــا مستعــد أن أقبلك في الشــارع، مستعــد أن أذهب إلى السجن، ولكن لست مستعــداً أن أقبلك في غــرفــة مجلس إدارة الشركة التي بنيتها بدمي!

- لماذا؟

- هنا مكان مقدس!

- ألم يكن مكـانـاً مقـدسـاً عنـدمـا اغتصبـوا فيـه أمـوال العـمال والموظفين والمساهمين؟

- إنني كنت أصـلي وأتعبد لهـذه الشركة كـل يوم. . هنـا ألبست شركتنا ثوب الملكة بين الشركات الكبرى!

- وهنـا جـردهـا الـذين جـاءوا بعـدك من كـل ثيـابهـا، هنـا اغتصبوها. . هنا عهروها!

- إنهم دنسوا الشركة لأنهم لم يبنوا فيها طـوبة واحـدة. . الذين بنوا الأهرام كانوا يسجدون أمامه. . والذين ورثوه كانـوا يتبولـون عليه!

- أشعر برغبة في أن أحتفل معك بانتصارنا في هذا المكان!

- لماذا هذا المكان بالذات؟

- لنطهره؟

- بدنس جديد!؟

- الذي بيني وبينك هو حب وليس دنساً!

- ولكننا لن نفعل ما فعلوه!

- ما هي القداسة التي بقيت لهذا المكان، بعد أن أصبحت ثياب كاميليا الداخلية هي علم الشركة المرفوع على الطابق العشرين؟!

- علينا أن ننكس هذا العلم!

- ونرفع علمنا نحن!
- كأننا لم نفعل شيئاً!
- سوف ننكس (فستان) كاميليا، ونرفع (فستان) سلوى وهبي!
- من (فستان) إلى (فستان).. يا قلبي لا تحزن!
- إذا لم تقبلني وتعانقني في هذا المكان فلن تقبلني وتعانقني أبداً!
- أنت مجنونة؟
- أنا بشر!
- وهل تتصورين أن البشر كلهم يريدون أن يعانقوا الرجال الذين يحبونهم في قاعة مجلس الادارة؟
- لم أحس أنني أريد أن أقبلك كما أريد أن أقبلك في هذا المكان بالذات!
- هذا المكان بالنسبة لي هو معبدي!
- الذين جاءوا بعدك حولوا المعبد إلى عش غرام..
- سوف أعيد عش الغرام إلى معبد من جديد!
- عندما يصبح معبداً.. أعدك أن أصلي فيه.
- لا أريد أن نكون شركاء في جريمة تلويث المعبد!
- دعني أتطهر بين ذراعيك في هذا المكان!
- لا أفهم إصرارك على اختيار هذا المكان دون غيره.. هذا شذوذ!
- الخطر الذي عشنا فيه جعلني أحس بشذوذ عجيب!
- أنا عشت في نفس الخطر معك، ولا أشعر بأي شذوذ!
- شذوذك أنك تقول لي: (لا) وأنا أدعوك لتعانقني!
- لم أقل (لا) اطلاقاً!
- أنت قلت (لا) للحب.
- لم أقل للحب (لا) وإنما قلت (لا) للمكان والزمان!

ـ طعم الحب يتغير بتغير الزمان والمكان.. الحب كالفاكهة إذا أكلناه قبل أن ينضج أصبنا بالمغص.. وإذا ذقناه في قمة نضجه استمتعنا بكل حلاوته.. وإذا انتظرنا عليه طويلاً لم نجد سوى الدود!

ـ أنا لم أعترض على الزمان، إنما اعترضت على المكان!

ـ ألم يحدث لك وأنت تمشي على شاطىء النيل أن وجدت صاحب عربة الذرة المشوي، وفتحت رائحة الذرة شهيتك، ووقفت تستمتع بأكل الذرة في الشارع.. إنك لن تشعر بنفس المتعة إذا حملت كوز الذرة إلى بيتك وأكلته على مائدة الطعام!

ـ إنني لا أشترط أن آكلك على مائدة الطعام!

ـ أشعر برغبة عجيبة في أن ألتهمك في غير المكان التقليدي!

ـ حسناً..!

ـ ما رأيك يا عبد المتعال في أن نأكل الذُرة المشوي في غرفتك فوق السطوح!

□ □ □

هبطت سلوى وعبد المتعال بالمصعد إلى الطابق الأول، وخرجت من الباب الخلفي للشركة، وصاحت في حارس الليل بلهجتها الآمرة المتعالية:

ـ يا بواب!

ـ أفندم

ـ هل حرست السيارة جيداً؟

ـ وضعتها في عيني!

دارت سلوى حول السيارة تتفقدها ثم صرخت في البواب

بصوت كالرعد:

ـ أين (الطارة)؟

ـ أي طارة؟

ـ طارة العجلة الخلفية. . إنها مسروقة!

ـ إن أحداً لم يقترب من السيارة:

ـ لا بد أنك سرقتها!

ـ أقسم بأنني لم أقترب من السيارة!

ـ تعال وانظر بنفسك، إن الطارة مسروقة. . سوف أخرب بيتك. . نحن ذاهبان الآن إلى بيت غالب بك، فقد اتصلنا به تليفونياً وقال إنه لن يستطيع الحضور ودعانا إلى الذهاب إليه، وسوف أبلغ غالب بك بما حدث!

ـ أتوسل إليك. . إن معنى هذا طردي من الخدمة. . إن عندي خمسة أطفال!

ـ إذن أين طارة السيارة؟

ـ أقسم لك بأنني لا أعرف أين هي!

ـ لن أقول شيئاً لغالب بك من أجل أطفالك الخمسة!

ـ ربنا يخليك!

ـ بشرط أن تعدني ألا يتكرر هذا الحادث مرة أخرى!

ـ ربنا يكرمك!

ـ ولن أذكر كلمة واحدة لغالب بك عما حدث!

ـ سوف تدعو لك زوجتي وأطفالي الخمسة بطول العمر!

وحاول حارس الليل أن يتقدم ليقبل يد سلوى، ويشكرها على مروءتها، ولكنها دفعته بيدها، واستقلت السيارة وبجوارها عبد المتعال. . وقال عبد المتعال:

- **أعجبتني هذه الإنسانية!**

- أي إنسانية؟

- **إنك صفحت عن حارس الليل!**

- وهل كنت أملك غير الصفح؟

- **صحيح، ولكنك تصرفت بعاطفة كلها مروءة بعد أن اكتشفت أنه سرق طارة السيارة. !**

- إنه لم يسرق الطارة!

- **ولكني رأيت العجلة وهي بغير طارة!**

- سرقت (الطارة) أول أمس مني أثناء وقوف السيارة أمام المسرح!

- **لقد صدقت أن المسكين سرقها!**

- كل الناس يصدقون الاتهامات الظالمة التي توجه إلى المساكين!

- **لاحظت أن وجهه شحب، واضطرب، وتلعثم. . وكأنه يعترف بأنه السارق!**

- كأنك نسيت كيف يعترف الأبرياء!

- **أنت قاسية!**

- كان يجب أن أفعل ذلك لأحمي ظهرك!

- **باتهام بريء؟**

- لن يفتح فمه ويقول أن امرأة ورجلاً دخلا من الباب الخلفي. . لأنه يعلم أنه لو تحدث عن هذا الأمر فقد تثار حكاية (الطارة) المسروقة!

□ □ □

ولاحظ عبد المتعال أن سلوى انحرفت في شارع جانبي بعد كوبري أبو العلا، ولم تتجه إلى بيتها. . !

ـ فقال لها في دهشة : !
ـ إلى أين أنت ذاهبة؟
ـ إلى بيت غالب بك!
ـ كيف تأخذينني إلى بيت غالب بك؟
ـ لن تصحبني. سوف تنتظرني في السيارة!
ـ وماذا تفعلين هناك؟
ـ عندي موعد!
ـ موعد؟ أي موعد!
ـ موعد غرام!
ـ لن تصعدي وحدك!
ـ لقد وعدته
ـ أنا وعدت الراقصة كاميليا ولم أذهب!
ـ أنا عندما أعطي كلمة شرف أحافظ عليها!
ـ لن تذهبي!
ـ سأعيد إليه المفاتيح!
ـ أرسليها له مع البواب!
ـ لن أغيب سوى خمس دقائق!
ـ ولا دقيقة واحدة!
ـ تغار علي لهذه الدرجة؟
ـ أنا لا أثق في غالب بك.
ـ ولكنك تثق بي!
ـ لا أثق بأي امرأة تدخل شقة رجل عازب في الساعة الثالثة صباحاً!
ـ الساعة الآن الثالثة إلا خمس دقائق!

ـ لقد قلت لي منذ دقائق أننا سنذهب إلى غرفتي فوق السطوح . .

ـ بعد أن أسلمه المفاتيح!

ـ وإذا تأخرت عن خمس دقائق؟

ـ يمكنك أن تصعد وتقتحم الشقة. . وخذ مفتاح الشقة معك!

وأخرجت سلوى سلسلة المفاتيح وأخرجت منها مفتاح شقة غالب بك وأعطته إلى عبد المتعال!

وابتسم عبد المتعال ساخراً، فسألته سلوى لماذا يبتسم، فقال لها:

ـ تذكرت أغنية قديمة كانت تقول (سرقوا الصندوق يا محمد. . لكن مفتاحه معايا)!!

□ □ □

جلس عبد المتعال في السيارة يحملق في الساعة الموجودة بسيارة سلوى. وخيل إليه أن العقرب لا يتحرك. الدقيقة الأولى مرت كأنها نصف ساعة. . ترى ماذا فعلت سلوى مع غالب بك في هذه الدقيقة؟ هل حاول أن يقبلها؟ هل حاول أن يعانقها؟ هل صمدت؟ هل استسلمت؟ لماذا سمح لسلوى بخمس دقائق؟ دقيقة واحدة كانت تكفي وزيادة لتعيد سلوى المفاتيح لغالب بك!

ثم ما الذي جعله يضعف ويوافق على صعودها إلى الشقة في هذه الساعة المبكرة من الصباح! كيف لم يتذكر أن مغامرة سرقة المستندات جعلت سلوى في حالة طيش ورعونة حتى خطر ببالها أن تعانقه في غرفة مجلس الإدارة. كيف يصل به الهوان لأن يوصل المرأة التي يحبها إلى شقة ذئب يريد أن يغتصبها؟ ليته أطفأ ظمأها

للحب قبل أن يجيء بها وهي عطشى للحب إلى بيت زئر نساء! ..

لقد مرت دقيقة.. لا بد أنه أجلسها على أريكة شديدة الانتفاخ من الحرير.. إنه طالما سمع عن هذه الأرائك التي يمكن أن تتحول أوتوماتيكياً إلى فراش.. الكلب! لا بد أنه استقبلها في البيجاما.. هذا سوف يجعل مهمته سهلة جداً.. إنه يلتصق بها.. إنها تبتعد.. ولكن من يضمن أنها سوف تبتعد؟ من يضمن أنها لن تلتصق به هي الأخرى؟ من يضمن أنها لن تعطيه شفتيها يعتصرهما بشفتيه؟

إنها تحبه. والدليل أنها غامرت معه في اقتحام الشركة.. أنها سرقت له المفاتيح. إنها قامت بمهمتها في جرأة عجيبة!

لا بد أنها تقاوم؟ لابد أنها ترفض.. لا بد أنها تقول لا..

ويتغير مشهد الرفض، ويظهر أمامه مشهد الأريكة الشديدة الانتفاخ المغطاة بالحرير.. كأن حائط الرفض أصبح شفافاً وتحول إلى حائط استسلام.. كلمة (لا) لا تستغرق أكثر من بضع ثوان. ماذا فعلت سلوى خلال الثواني الباقية؟

ويتغير المشهد مرة أخرى.. تبدو سلوى كأنها قلعة حصينة.. غالب بك يطلق سهامه وتتحطم هذه السهام على صخور القلعة الصامدة.. يهجم غالب بك عليها ويحاول أن يغتصبها فتصفعه سلوى على وجهه، ويتهاوى محزوناً مقهوراً. ومرة أخرى تظهر وراء القلعة الصامدة الأريكة المنتفخة المصنوعة من الحرير، الأريكة هي مائدة التسليم بلا قيد ولا شرط!

لو لم تستسلم سلوى لما احتاجت إلى أكثر من دقيقة.. ولكن ها

قد مرت دقيقتان إنه هو المسؤول عن هذا الاستسلام، هو الذي وافق على أن تنغمس في شقة الملذات عندما وافق على أن تدخل الشقة!

يا له من عبيط.. خمس دقائق؟ كل شيء يمكن أن يتم في خمس دقائق.. ما له وحب الغانيات؟ ما له وحب الممثلات؟ لقد انتهى به هذا الحب إلى أن أصبح قواداً. يجلس في السيارة في الشارع بينما تكون المرأة التي يحبها في غرفة النوم!

وارتجف عبد المتعال عندما مرت صورة غرفة النوم أمام عينيه. أيمكن أن يكون غالب بك أدخل سلوى إلى غرفة نومه؟ لماذا يفزع من كلمة غرفة النوم؟ كل مكان في شقة غالب بك صالح للخيانة؟ ألم تقترح سلوى عليه أن تجعل من مائدة مجلس إدارة شركة مصر للبسكويت مكاناً لتبادل القبلات؟

ورأى عقرب الدقائق يشير إلى مرور أربع دقائق. وأحس بأن عقرب الدقائق تحول إلى عقرب حقيقي، وأن هذا العقرب يلدغه.. وأحس بسم الشك يسري في دمه.. كل شيء فيه يتهم سلوى ويدينها. وخيل إليه أنه بعد الدقيقة الخامسة سيرى المرأة التي أحبها قد تحولت إلى جثة.. سيحملها غالب بك إلى السيارة وهي فاردة ذراعيها وقد فارقت الحياة، لقد ذبح غالب بك حبه في الطابق التاسع. سيعيد إليه سلوى جثة هامدة.. حباً ميتاً.. حباً بلا كفن!

وجن جنون عبد المتعال وقرر أن يصعد بنفسه إلى الطابق التاسع. قد يستطيع أن ينقذ الحب من الموت ربما يجد الحب لا يزال على قيد الحياة؟ ربما كانت سلوى قد استطاعت أن تصمد خمس دقائق، وعليه أن يسارع لنجدتها. فقد تكون الدقيقة

السادسة هي الفرق بين الصمود والاستسلام.

ثم أفاق من نوبة الشهامة، وقال لنفسه إذا لم تستطع أن تصمد سلوى خمس دقائق فكيف تصمد طوال العمر؟ المرأة التي لا تستطيع أن تدافع عن شرفها بضع دقائق، سوف تفرط في شرفها طوال الحياة. لو أنه أنقذها اليوم فمن سوف ينقذها غداً.. من سوف ينقذها بعد أسبوع؟ إنها ممثلة.. كوكب سينمائي، ملكة إغراء، تلتقي بالممثلين والصحفيين والنقاد والكبراء والعظماء.

إنه لا يستطيع أن يقوم بوظيفة الديدبان الذي يحرسها طوال الليل والنهار.. وماذا يستطيع الحارس أن يفعل؟ إن حارس الشركة الليلي لم يستطع أن يحمي الشركة من سرقة أهم مستنداتها!

وأشار عقرب الدقائق إلى مرور ست دقائق كاملة! معنى هذا أن الخيانة تمت، وأن القلعة سقطت، واختفت الأريكة المنتفخة المبطنة بالحرير، وظهر فراش واسع، وفيه سلوى عارية تماماً.. إنها تستسلم ولا تقاوم. إنها تنتشي ولا تصرخ. إنها هي التي تغتصب غالب بك!

□ □ □

وفجأة سمع صوت باب السيارة ينفتح وسلوى تقول له:

ـ هل تأخرت عليك؟

وتطلع عبد المتعال في ذهول إليها، وكأنه توقع أن يراها عارية من الملابس وفوجىء بها ترتدي ثوبها ومعطفها!..

ورأته سلوى وهو يتفحصها فقالت:

ـ لم أغب سوى أربع دقائق!

ـ ست دقائق!

ـ نسيت أن المصعد يستغرق دقيقة في الصعود ودقيقة في النزول!

ـ أنت قلت لي أنك لن تتأخري سوى خمس دقائق!

ـ قطارات السكة الحديد تتأخر ساعات. . الطائرات تتأخر ساعات!

ـ القطارات والطائرات لا تدخل شقة غالب بك!

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد ماذا كنت تفعلين طوال هذه المدة مع غالب بك؟

ـ كنت أعطيه المفاتيح!

ـ عملية إعطاء المفاتيح لا تستغرق سوى دقيقة واحدة!

ـ ماذا تخيلت أنني فعلت معه؟

ـ كل شيء!

ـ كل شيء في ست دقائق!؟

ـ عندما يكون الحب في قمة التهابه. . يتم كل شيء في أقل من دقيقة!

ـ لم أكن أعرف أنك خبير في الحب!

ـ بدأت أتعلم!

ـ أنت تغار جداً يا عبد المتعال!

ـ لأنني أحبك!

ـ الغيرة ليست دليل الحب

ـ دليل الكره؟

ـ دليل عدم الثقة بالنفس. . أو بالمرأة التي تحبها!

ـ بصراحة. . بدأت أشك فيه بعد دقيقة واحدة!

ـ وبعد دقيقتين؟

ـ تضاعف الشك!

ـ وبعد خمس دقائق!

ـ **أصبح الشك يقيناً!**

ـ وبعد ست دقائق!؟

ـ **كرهتك!**

ـ نحن في عصر السرعة فعلاً!

ـ **لماذا تتهربين من سؤالي. لقد سألتك سؤالاً محدداً، وإذا بك تراوغين، وتخرجين من موضوع لتدخلي في موضوع.. قولي لي ماذا فعلت معه!**

ـ بأي حق تسألني؟

ـ **بحق أنني أحبك!**

ـ منذ دقيقة قلت لي أنك كرهتني!

ـ **كرهتك عندما تأخرت!**

ـ وبذلك فقدت حقك في السؤال.. الذي يحب فقط هو الذي يسأل!

ـ **لو كنت لا أحبك لما اهتممت بأن أسألك!**

ـ إذن لم تكرهني!

ـ **كرهتك.. كرهتك لأنني أحبك!**

ـ لا أفهم كيف تجتمع الكراهية والحب في وقت واحد!

ـ **ألم تسمعي عن رجال قتلوا نساء وهم يحبونهن!**

ـ لا أتصور أن تقتلني وأنت تحبني!

ـ **خطر ببالي في إحدى اللحظات أن أصعد إلى شقة غالب بك وأقتلك إذا وجدتك بين ذراعيه!**

ـ المفروض أن تقتله هو!

ـ **نسيت جريمته.. ولم أذكر سوى جريمتك!**

ـ ونسيت ما فعله بالشركة التي تحبها؟ وما فعله بصديقك عبد الجواد الذي قتله؟

ـ نسيت كل شيء، ولم أذكر إلا خيانتك وحدك!

ـ كنت أظن أن المرأة وحدها هي التي تنسى كل شيء عندما تغار!

ـ لا أعتقد أن الرجل يختلف عن المرأة في شيء!

ـ سوى أن الرجل عندما يغار يقتل.. والمرأة عندما تغار تبكي!

ـ هأنتذي عدت إلى المحاورة والمداورة، وخرجت من الموضوع الأصلي.. ماذا فعلت مع غالب بك!

ـ سوف أقول لك عندما نذهب إلى البيت!

ـ أريد أن أعرف الآن!

ـ أخشى أن تغضب وتصفعني في الشارع!

ـ هذا خير من أن أقتلك في البيت!

ـ أتمنى لو فعلت هذا يا حبيبي!

ـ أنا لست حبيبك الآن!

ـ أنت وكيل نيابة!

ـ لا.. أنا النائب العام!

ـ نصف وقت العشاق يذهب في القبلات، والنصف الآخر في التحقيقات اسألني.. وسأجيب!

ـ هل حدث تسليم!؟

ـ نعم.. سلمته المفاتيح!

ـ أقصد استسلام؟

ـ نعم..

ـ استسلمت له؟

ـ لا.. هو الذي استسلم!

ـ إذن ماذا حدث؟

ـ كان رجلاً شريفاً!

ـ **هل هذه نكتة؟ غالب بك رجل شريف؟**

ـ كان شريفاً معي!

ـ **الذئب لا يستطيع أن يكون شريفاً عندما يرى الشاة في شقته الساعة الثالثة صباحاً!**

ـ قلت له إنني آسفة لأنني متعبة لأن البروفة قد طالت، وقبل اعتذاري كرجل جنتلمان!

ـ **غالب بك جنتلمان؟**

ـ لأنه احترم موقفي!

ـ **يظهر أنه كان سكران!**

ـ على العكس كان في وعيه!

ـ **لم يحاول أن يأخذك إلى غرفة النوم؟**

ـ لم يحاول.

ـ **وهل جلس معك على الأريكة شديدة الانتفاخ المغطاة بالحرير، والتصق بك؟**

ـ لا توجد في بيته أريكة شديدة الانتفاخ مغطاة بالحرير!

ـ **أنا واثق أنها موجودة!**

ـ هل زرت شقة غالب بك؟

ـ **لم أزرها!**

ـ هل قلت لك أنه توجد أريكة بهذا الوصف؟

ـ **لا..**

ـ كيف تقول إذن أن هناك أريكة؟

ـ **تخيلتك وأنت تجلسين عليها!**

ـ اطمئن لم أجلس على أريكة!

ـ **على مقعد؟**

ـ ولا.. على مقعد!

- **على الفراش إذن؟**
- لقد وقفت على باب الشقة ولم أدخل!
- **وقفت ٦ دقائق؟**
- أربع دقائق فقط!
- **وأعطيته المفاتيح؟**
- أعطيته ستة مفاتيح . . واحتفظت بمفتاحين!
- **أي مفتاحين**
- مفتاح شقة كاميليا . . ومفتاح شقته!
- **وهل وافق على ذلك؟**
- إنه رحب!
- **كيف يرحب؟**
- لأنه فهم من احتفاظي بمفتاح شقته أنني سأعود إليه.
- **ومفتاح شقة كاميليا؟**
- فهم أنني أحبه . . وأغار عليه من كاميليا!
- **ولهذا لم يلح عليك في الدخول إلى الشقة!**
- تأكد أنني واقعة في هواه!
- **ولماذا أخذت مفتاح شقة كاميليا!**
- قلت إنك قد تحتاج إليه إذا أردت أن تذهب إليها!
- **تصورت أنك تغارين منها!**
- أغار جداً!
- **ولماذا جئت بمفتاح شقتها؟**
- لأنك سوف تحتاج إلى هذا المفتاح!
- **لن أذهب إليها!**
- ومع ذلك ستحتاج إلى هذا المفتاح!
- **وماذا أفعل به؟**

ـ هـل نسيت أنـه المفتـاح الـذي فتحنـا بـه غـرفـة الميـزانيـة في الشركة.. قد تحتاج إليه إذا أردت سرقة مستندات جديدة!

ـ أنت امرأة مدهشة!

ـ إذن هيا بنا إلى غرفتك فوق السطوح لأقبلك..

ـ لا بل هنا في الشارع.. أمام بيت غالب بك!

ـ ماذا جرى لك يا عبد المتعال؟

ـ شممت رائحة الذرة المشوي!



الفصل الثامن والعشرون

توقف الاستغراق اللذيذ فجأة. . عندما سمع عبد المتعال وسلوى طرقاً متواصلاً على زجاج نافذة المقعد الخلفي للسيارة. . ماتت القبلات فوق الشفاه. . خرست كلمات الحب. . وكانت سلوى في وضع يجعلها ترى الوجه المتنمر الذي يلصق عينيه بزجاج النافذة، فانتفضت وقالت هامسة في رعب: «الشرطة»!

وسرى الرعب في أوصال عبدالمتعال. . فاعتدل في جلسته. . وراح يسوي ملابسه متوهماً أن ملابسه التي عصرها الحب، هي وحدها دليل جريمة الفعل الفاضح في الطريق العام. . واستمر الطرق على زجاج النافذة. . وأوهم الخوف عبدالمتعال أن الطرق ليس على نافذة واحدة من نوافذ السيارة. . بل هو على كل نافذة من النوافذ الأربع، وعلى رأسه أيضاً!

إن الجندي الذي يلتصق بزجاج السيارة ليس جندياً واحداً، إنه أربعة جنود. إنه أربعون جندياً، أربعمائة جندي، أربعة آلاف. . البندقية الواحدة التي فوق كتف الجندي ليست بندقية، إنها مئات من البنادق والمدافع الرشاشة ومدافع الهاون!

كانت أبواب السيارة مغلقة. حاول الجندي أن يفتح باب السيارة فلم يستطع. لو أنهما كان يجلسان في المقعد الأمامي لانطلقا

بالسيارة. ولكنهما يجلسان في المقعد الخلفي.

إن سلوى هي التي اقترحت عليه أن ينتقلا إلى المقعد الخلفي.. هذه نهاية كل من يسمع كلام النساء!

وقالت سلوى وهي تنظم خصلات شعرها المشوش الذي عبثت به أصابع عبد المتعال:

- لا تضطرب!
- كيف لا أضطرب والشرطي سيأخذنا إلى قسم الشرطة؟
- هذه فضيحتي وحدي! أنت بلا إسم.. أما أنا فاسمي معروف.. تصور عناوين الصحف عندما تقول (الشرطة تضبط ملكة الإغراء في فعل فاضح بالطريق العام)!
- وسوف أدخل السجن مرة أخرى!
- تشويه الإسم.. أشنع من السجن!
- لا يوجد شيء أشنع من السجن!
- دعني أتصرف!
- ماذا ستفعلين؟
- سأترك الشرطي يقبض علي وتهرب أنت!
- أنا أخاف عليك أكثر مما أخاف على نفسي.

□ □ □

ومدت سلوى يدها وفتحت زجاج السيارة وقالت للشرطي في استعلاء:

- ماذا تريد؟
- أريد أن أصحبكما إلى القسم!
- لماذا؟

ـ جريمة فعل فاضح في الطريق العام!

ـ هـذا ليس طريقـاً عامـاً. إنها حارة مـظلمـة. والسـاعـة الآن الرابعة صباحاً. والشمس لم تشرق بعد!

ـ القانون لم يحدد ساعة معينة للجريمة!

ـ القانون يعاقب على العلانية.. والعلانية غير متوافرة!

ـ أنا رأيتكما بنفسي!

ـ لولا أنك ألصقت عينيك بباب السيارة لما رأيت شيئاً!

ـ أنا رأيت كل شيء!

ـ لـولا أنك فضـولي لما رأيت شيئـاً.. لو كنـا في غـرفـة في بيت وكـان الباب مغلقـاً ونظرت من نـافذة ورأيت مـا رأيت، هل كنت تصحبنا إلى قسم الشرطة؟

ـ لا..

ـ السيارة مثل الغرفة تماماً!

ـ السيارة في الشارع

ـ والبيت في الشارع أيضاً!

ـ إنه آخر الزمن.. لم أر في حياتي عاهرة تناقش الحكومة!

وتحكمت سلوى في أعصـابهـا، وأخـرجت من حقيبتهـا ورقـة بنكنوت من فئة الجنيه، ودستها في يد الشرطي وهي تقول:

ـ أنا لست عاهرة.. أنا الراقصة كـاميليا.. والبيـك هو غـالب بك مدير شركة مصر للبسكويت!

وأسرع الشرطي وأدى التحية العسكرية!

ولم تعـرف سلوى إذا كـان الشرطي يؤدي التحيـة العسكـريـة للراقصة كاميليا، أم لغالب بك أم لورقة البنكنوت من فئة الجنيه!

واختفى العبوس من وجه الشرطي. وحل مكانـه ابتسام، وقـال في أدب جم:

ـ آسف أنني أزعجتكما. . خذا راحتكما!

وأرادت سلوى أن تنـزل من المقعـد الخلفي، لتنتقـل إلى المقعـد الأمامي، ولكن الشرطي قال في احتجاج:

ـ علي الطلاق. . أن تبقي كما أنت يا هانم!

ـ هانم الآن؟ لقد كنت عاهرة من دقيقة واحدة!

ـ العفو يا هانم، لم أعرفك في الظلام!

ـ إذن تعترف الآن أنه كان هناك ظلام!

ـ ظلام حالك، ركن العلنية غير متوافر، والقانون لا يطبق على الشخصيات البارزة، القانون من أجل العاهرات والغانيات ونساء الليل. . لا من أجل نجمة مشهورة كالراقصة كاميليا!

ـ هل سمعت عني من قبل؟

ـ أشهر من نار على علم!

□ □ □

انطلقت سلوى بسيارتها، رفض عبد المتعـال الانتقال من المقعـد الخلفي إلى المقعـد الأمامي، كـانت أعصابـه منهارة فلم يستـطع أن يتحـرك من مكانـه. . واطمأن عبـد المتعال أنـه ابتعـد عن الشرطي فقال لسلوى:

ـ لماذا قلت أنك الراقصة كاميليا. . وأنني غالب بك!

ـ لأسيء سمعتها عند الحكومة!

ـ ما قيمة سمعة سيئة لدى حكومة سيئة السمعة!

ـ كأنني خدمت غالب بك عند الحكومة!

ـ لا أظن أن الشرطي سيذكر لرؤسائه ما شاهده في السيارة!

ـ سيخرسه الجنيه؟!

ـ في عصور الظلام، الجنيه خير عصابة توضع على العيون، وخير كمامة توضع على الأفواه!

ـ أرأيت كيف حولني الشرطي من (عاهرة) إلى هانم في دقيقة واحدة؟

ـ الضمائر تموت في البطون الجائعة!

ـ من حظنا أننا وقعنا في يد شرطي جائع!

ـ من حظنا أنه كان معك الجنيه!

ـ ولكنك كنت مضطرباً جداً. شعرت بك ترتعش في مقعدك. أصبت بالخرس فلم تفتح فمك. أصبت بالشلل فلم تتحرك!

ـ إنني جديد على عالم المغامرات!

ـ إذا كنت خائفاً بهذه الدرجة، فما الذي جعلك تقترح أن تزف إلي في الشارع؟

ـ يظهر أننا لا نشعر بالخوف قبل ارتكاب الجريمة. ولا أثناء ارتكاب الجريمة. وإنما بعد ارتكاب الجريمة!

ـ هل تسمي ما حدث جريمة؟

ـ جريمة لذيذة!

ـ إنها ألذ جريمة ارتكبتها في حياتي.. أكاد أقول لك أنني لو تزوجتك فسوف أصر على أن أزف لك مرة أخرى في الشارع!

ـ أصبحت الآن أخاف من المشي في الشارع.. فما بالك بالزفاف فيه؟

ـ إنني تعلمت (الرفض) منك.. أصبحت أجد لذة في أن أقول (لا) لكل عرف أو قانون!

ـ أنا أريد أن نقول (لا) لكل من يخالف العرف والقانون!

ـ أنا أرغب في أن أقول (لا) لكل شيء.. إنني لا أقولها لأشخاص. أقولها لمجتمع فاسد يجب أن يقتلع من جذوره.. إنني

لا أقولها «لغالب بك» وحده، وإنما أقولها لكل «غالب بك». . لقوانين غالب، للوائح غالب بك، لعالم غالب بك!

ـ لا تزال في مجتمعنا أشياء جميلة. أفهم أن نلعن الطغاة الذين بنوا الأهرامات، ولكني لا أفهم أن نهدم الأهرامات. . إنني أوافق على أن نضع الشرطي الذي أخذ منك الجنيه في السجن، ولكني لا أوافق على أن نضع الشرطيين الشرفاء في السجن، أنا مستعد أن أحطم غالب بك مدير شركة مصر للبسكويت، ولكن تقطع يدي قبل أن أحطم شركة مصر للبسكويت!

ـ الكتب المقدسة تتحول في أيدي الظالمين إلى سياط!

ـ لهذا يجب أن نحطم الأيدي التي حولت الكتب المقدسة إلى سياط، لا الكتب المقدسة نفسها!

ـ الرفض الكامل شجاعة، والرفض الجزئي ميوعة، لأننا لا نقوى أن نقول (لا) لكل شيء ضخم، ونتضاءل ونقول (لا) لكل شيء صغير في حجمنا. .

ـ إذا قلت وحدي «لا» لكل شيء أصبحت مجنوناً أمام الناس. . ولكن عندما يكون معي كل الناس أستطيع أن أقول (لا) لكل شيء!

ـ لن يقف معك كل الناس إلا إذا قلت (لا) لكل شيء. كل فرد يقول (لا) لشيء مختلف. (لا) هي الكلمة التي تستطيع أن تجمعهم!

ـ أنت واسعة الأحلام!

ـ الأحلام الكبيرة هي صانعة الرجال الكبار!

ـ ولكني رجل صغير!

ـ في قدرتك أن تكون كبيراً!

ـ في نفس السيارة التي شهدت استسلامك الكامل أشهد مقاومتك الكاملة!

ـ هكذا أنا، ضعيفة جداً مع من أحب، قوية جداً مع من أكره!

ـ كثير من الناس أقوياء مع من يحبون، وضعفاء مع من يكرهون!

ـ العبيد فقط..!

ـ ظننت أننا ألغينا الرق من وقت طويل!

ـ ألغينا سوق الرقيق وأبقينا الرقيق.. كان الرقيق علناً وأصبح سرياً.. كان الرقيق بالقطاعي. وأصبح بالجملة..!

ـ إنك لا تتجهين إلى البيت!

ـ أريد أن أمشي معك بلا هدى في الشوارع، في كل الشوارع.. أصبحت أحب الشارع!

ـ هل طعم الحب في الشارع يختلف عن طعم الحب في البيت؟

ـ كنت أشعر وأنا بين ذراعيك في الشارع بلذة تحدي القانون!

ـ حتى لو قدموك إلى المحاكمة!

ـ كنت سأقف أمام المحكمة وأقول إن الفعل الفاضح الذي ارتكبته في الطريق العام أتفه من الفعل الفاضح التي ترتكبه حكومة جلالةالملك في الطريق العام. كذبها على الشعب فعل فاضح في الطريق العام.. وعود الحكام التي لا تنفذ فعل فاضح في الطريق العام.. سرقة أموال الشعب فعل فاضح في الطريق العام.. ظلم الأبرياء فعل فاضح في الطريق العام!

ـ القانون لا يعاقب على هذه الجرائم!

ـ لأن القانون عندنا يعاقب على المخالفات الصغيرة، ولا يعاقب على الجرائم الكبيرة!

□ □ □

وأطرق عبد المتعال وسكت، ولاحظت سلوى صمته فسألته:
- مالك.. لماذا سكت؟
- كنت أفكر في جريمة كبيرة ارتكبتها!
- سرقة المستندات!
- إنها مفخرة لا جريمة!
- ما هي الجريمة إذن؟
- ضميري متعب؟
- ماذا يتعب ضميرك؟
- خنت خديجة!
- خديجة من؟
- خديجة زوجتي.. هذه أول مرة أخونها فيها منذ أن تزوجتها!
- هذه فعلاً خيانة عظمى!
- إنني لا أسخر، إنني نادم على أنني خنت زوجتي!
- زوجتك التي لم تضع وردة على قبرك؟
- ربما كانت هناك أزمة في الورد!
- والذين وضعوا الورود على القبور الأخرى، لماذا لم تمنعهم أزمة الورد من القيام بواجباتهم!
- لا أستطيع أن أحكم عليها بالخيانة غيابياً. ولكنني ارتكبت أنا الخيانة فعلاً!
- يا لك من رجل غريب. تقول للمرأة التي تحبها بعد أن أعطتك كل شيء أن ضميرك يؤنبك لأنك خنت زوجتك معها؟!
- لقد تعهدت لك أن أكون صادقاً دائماً معك.!
- لماذا لم تقل لي هذا قبل أن يحدث أي شيء!
- لأني لم أشعر بالندم إلا بعد أن انتهى كل شيء!
- ضميرك الآن عاد من الإجازة، إن الساعة الآن السابعة

صباحاً. يظهر أن ضميرك يستيقظ في موعد ذهاب الموظفين إلى مكاتبهم!

ـ لاحظت أنني كلما خنت خديجة تحدث مصيبة.. عندما أردت أن أخونها في المرة الأولى في بيتك جاء فجأة الدكتور منير، ودخلت في الدولاب.. وعندما خنتها فعلاً جاء الشرطي وكدت أدخل السجن!

ـ لا بد أن خديجة من الأولياء الصالحين!

ـ ولها كرامات!

ـ لو كانت لها كرامات لضبطك الدكتور منير في الدولاب، ولقبض عليك الشرطي. ولما استطعنا أن نسرق المستندات!

ـ لأنها تحبني تكتفي بتوجيه إنذارات، ولا تقطع رقبتي!

ـ حتى عندما تصبح المرأة قديسة لا تتردد في قطع رقبة زوجها الذي يخونها!

ـ إن زوجتي خديجة ملاك

ـ ما زلت تحبها؟

ـ إنني أحبك أنت، ومع ذلك أشعر نحوها بالتقدير والإجلال!

ـ معنى ذلك أنك تحتقرني أنا؟

ـ إنني أشعر نحوها بشيء من القداسة. خلال السنوات السبع التي كنت معها كنت أحس بأنها استطاعت أن تحول البيت إلى معبد. كنت أشعر وأنا ذاهب إلى بيتي أنني ذاهب إلى معبد.!

ـ ومعي تشعر أنك ذاهب إلى كباريه؟

ـ أنت تضعين في فمي كلمات لم أقلها، أنت تعلمين أنني أحبك!

ـ وأعلم أنك تعبد خديجة!

ـ شعوري نحوها مختلف، أنت أول امرأة في حيـاتي، وهي أول أم في حياتي. فقد عشت عمري يتيماً. معـك أحس بأنني دخلت في الجنــة والنـار معــاً. . ومعهـا أحس بــأنني أجلس عـلى سجــادة صلاة. . !

ـ لقد تمنيت طول حياتي أن أحب رجلاً صـادقاً، ولكن صـدقك يجرحني. . صراحتك تمزقني كالسكاكين. . لماذا لم تقل لي هـذا قبل أن أستسلم لك؟

ـ لم أشعر بهذه المعاني إلا الآن!

ـ عندما وضعت الوسادة بيني وبينـك نسيت خديجـة. . وعندمـا رفعت الوسادة تذكرت خـديجة. . مـا أشبه الـرجل بـالصياد الـذي يجري وراء الفريسة حتى إذا اصطادها وزعها على أصدقائه. وعاف أن يـأكلهـا. إنـك لم تحـدثني عن (كـرامـات) خـديجـة إلا بعـد أن أصبحت أمامك بلا كرامة. لم تذكـر أن خديجـة قديسـة إلا بعد أن قدمت لك الـدليل عـلى أنني فاجـرة. لم تعرف أن خـديجة سجـادة صلاة، إلا بعد أن دست علي بقدميك!

ـ لقد طلبت مني دائماً أن أكون صريحاً معك!

ـ وأين كانت هذه الصراحة قبل أن أستسلم لك؟

ـ لو سألتني عن رأيي في زوجتي خـديجة لمـا أخفيت عنك كلمـة واحدة!

ـ عندما قلت لي أنك تشم رائحة الذرة المشوية تصورت أنـك لم تعد تشم رائحة المسك من خديجة!

ـ بين ذراعيك نسيت أنني متزوج!

ـ وعندما تركت أحضاني تذكرت أنك متزوج!

ـ قلت لي أنك أحببتني لأني أول رجل صادق في حياتك!

ـ عندما تستسلم المرأة لرجل تحبه، تجرحها كل كلمة يقولها عن امرأة أخرى. كل مديح في المرأة الأخرى هو ذم لها. كل كلمة طيبة في المرأة الأخرى هي إهانة لها!

ـ كنت تريدين أن أشتمها!

ـ كنت أتمنى لو لعنت سنسفيل جدودها!

ـ تريدين مني أن أكذب؟

ـ كنت أتمنى لو كذبت اليوم فقط. . أنت نسيت أن اليوم هو يوم زفافنا؟

ـ لقد قلت لك أنني أحبك. أنا أحبك اليوم أكثر مما أحببتك في أي يوم مضى!

ـ ولكنك تقدر خديجة. تتحدث عن وفائها وأنت تخونها معي. تتحدث عن قداستها وأنا أفجر معك، تتحدث عن صمودها وأنا أستسلم لك.

ـ أنا أحب فجورك واستسلامك!

ـ وتعشق قداستها وصمودها!

ـ إنني أفضلك عليها ألف مرة!

ـ عندما تحب امرأة رجلاً، لا يرضي كبرياءها أن يقول لها حبيبها أنها أحسن من فلانة ألف مرة تتصور أنه نسي كل النساء فيها. المرأة عندما تستسلم للرجل الذي تحبه تتصور أنه الرجل الوحيد في العالم. . وأنا بين ذراعيك أحسست بأنك أول رجل في حياتي. . نسيت في أحضانك كل الرجال. لو سألتني الآن عن الرجال في حياتي، لما استطعت أن أتذكر إسماً واحداً منهم.

ـ تريدين مني أن أنسى اسم خديجة؟

ـ كنت أتمنى لو نسيت اسم كل امرأة في العالم!

ـ كيف ينسى الرجل اسم زوجته؟

ـ عندما يحب امرأة أخرى!

ـ وأنا أحبك!

ـ الدليل أنك لا تحبني بالقدر الكافي أنك في يوم زفافي إليك تحدثني عن امرأة أخرى!

ـ لا أتصور أن كل امرأة مثلك!

ـ بل كل امرأة مثلي!

ـ أنت كنت تسأليني ألف سؤال وسؤالاً عن خديجة. أنت كنت تتحدثين عنها كل يوم كنت فيه معي!

ـ أنا أتحدث عنها.. أما أنت فلا تتحدث عنها!

ـ إذا كان هذا الموضوع يضايقك فلن أتحدث عنها!

ـ إبتداء من اليوم لن تتحدث إلا عنها!

□ □ □

فتحت سلوى باب سيارتها وأشارت إلى عبد المتعال وقالت له:

ـ إنزل هنا!

ـ لماذا؟

ـ لأني لا أريد أن أرى وجهك!

ـ أين أذهب؟!

ـ إلى خديجة!

ـ أنا لا أريد أن أذهب إليها!

ـ وأنا أريد أن تذهب إليها!

ـ إنني لا أعرف عنوانها!

ـ ابحث عن عنوانها!

ـ تطردينني حتى من غرفتي فوق السطوح؟

ـ يمكنك أن تعود إليها!

ـ ولا أراك؟!

ـ لن تراني إلا بعد أن تجد خديجة؟

ـ أنت قلت أنك تحبينني . .

ـ لأنني أحبك لا أريد أن أراك!

ـ وكفاحنا المشترك؟

ـ خذ المستندات.

ـ ماذا أفعل بها؟

ـ أعطها لخديجة. . ربما تستطيع «كرامتها» أن تنقذ الشركة من الإفلاس!

ـ تتخلين عن فكرة آمنت بها، من أجل غيرتك من امرأة لا أعرف إذا كانت حية أو ميتة؟

ـ بدأت أحس بأنني غير صالحة لهذه المهمة. إنها مهمة من اختصاص قديسة لا فاجرة. . من اختصاص الله وليست من اختصاص الشيطان!

ـ أنت الإنسان الوحيد الذي وقف بجانبي!

ـ انتهى دور الإنسان. . وبدأ دور الملاك!

ـ الملائكة تبدأ مهمتهم في السماء!

ـ أنا عندما أحب رجلاً أريد أن أحتكره في الأرض وفي السماء!

ـ أنت تتخلين عني في اللحظة الحاسمة، ونحن على أبواب الانتصار!

ـ أفضل أن تقف معك في موكب النصر قديسة لا ملكة الإغراء!

ـ لا تتركيني وحدي!

ـ أنت لست وحدك. . معك خديجة!

ـ وأين خديجة؟
ـ أولياء الله موجودون معنا دون أن نراهم!
ـ أنت التي صنعت معجزات رأيتها بعيني.. كيف أتخلى عن امرأة موجودة صنعت لي معجزة من أجل امرأة غير موجودة لم تصنع لي أي شيء!
ـ كلامك عنها يؤكد أنها موجودة!
ـ أين؟
ـ في قلبك!
ـ إنها في ذاكرتي فقط!
ـ ذاكرة العاشق جزء من قلبه!
ـ أنت لا تعرفين أنك في قلبي!
ـ أعرف أنني في قلبك، ولكنني أشعر أنني لست وحدي في هذا القلب، لي شريك فيه!
ـ شريك غائب!
ـ في قانون الشركات الشريك الغائب يحصل على جزء من الأرباح، وأنا أريد الأرباح كلها لي وحدي!
ـ كل نبضة في قلبي تدق باسمك!
ـ لنفرض أنك وجدت خديجة. ماذا سيحدث لي؟
ـ سوف أستمر أحبك إلى آخر يوم في حياتي.
ـ ولكنني سأبقى في الظل، وتبقى هي في النور. ستدخل من الباب الأمامي في حياتك. وأدخل أنا من الباب الخلفي. ستجيء لزيارتي ساعة واحدة ثم تعود إلى بيتك لترقد معها في فراش واحد، سأكون أنا بعض الوقت. وستكون هي كل الحياة، سأعيش ليالي طويلة أنتظرك، وأنت جالس في بيتك خائف أن تغضبها إذا حافظت على موعدك معي. لقد عشت حياتي شركة مساهمة،

وكرهت حياة الشركات المساهمة. ولا أريد أن أحب شركة مساهمة، حتى ولو كانت تتألف من شريكين!

ـ تريدين مني أن أطلقها!

ـ توقعت أن تقول لي هذه الكلمة بعد أن أسلمتك نفسي!

ـ وكيف أطلقها باعتباري عبد المتعال محجوب، والقانون يعتبر أن عبدالمتعال محجوب ميت.. هل سمعت أن ميتاً طلق حياً؟!

ـ معنى ذلك أنك سوف تطلقها إذا استعدت اسمك؟

ـ عندما أستعيد اسمي وأثبت أنها خانتني فسوف أطلقها!

ـ وإذا لم يثبت أنها خانتك؟!

ـ هذه مسألة أخرى!

ـ معنى ذلك أن أكون العجلة الاحتياطي في سيارتك، إذا فرقعت عجلة وضعتني مكان العجلة القديمة!

ـ أنت قلت لي أنه لا يجوز أن نحكم على الآخرين قبل أن نسمع دفاعهم.. هذا مبدأ قانوني!

ـ الحب لا يعترف بالمبادىء القانونية!

ـ أنا مستعد أن أتزوجك من الآن!

ـ وأكون الزوجة الثانية؟

ـ إلى أن تظهر الحقيقة..!

ـ لا أقبل أن أكون زوجة ثانية لملك.. أفضل أن أكون الزوجة الوحيدة لصعلوك!

ـ أنت تعلمين أني رجل وهبت حياتي لمقاومة الظلم، فكيف تريدين مني أن أظلم امرأة لم تسىء إلي؟

ـ لأنك تحبني!

ـ إذا كان الحب مبرراً للظلم، فكل الظالمين يعشقون المقاعد

التي يجلسون عليها! كأنك تبررين لغالب بك أن يظلم العمال والموظفين والمساهمين لأنه يحب النفوذ والسلطان. تبررين للذين حولوا البلد إلى شركة للبسكويت عملهم، لأنهم يحبون البسكويت!

ـ عيبك أنك تدخل السياسة في الحب!

ـ لا يستطيع صاحب المبدأ أن يطبق مبدأه على الناس، ولا يطبقه على نفسه أولاً. لا أستطيع أن أطالب الناس بالصدق وأنا أخدعهم وأكذب عليهم. لا أستطيع أن أخون مبادئي في بيتي، وأطبقها خارج البيت!

ـ معنى ذلك أنك إذا عثرت على خديجة فستقول لها أنك تحبني!

ـ سوف أعترف لها بكل شيء!

ـ سوف تطردك من البيت!

ـ لا يهمني، ما دمت قلت الحقيقة!

ـ كنت أفضل لو أنك أنت الذي طردتها!

ـ ما الفرق؟

ـ الفرق كبير جداً، إن المرأة يعجبها الرجل الذي يضحي بكل شيء من أجلها!

ـ حتى بمبادئه!

ـ أقصد بكل النساء!

ـ وإذا تعارضت هذه التضحية مع مبادئه؟

ـ يجب أن يصدر قانون يمنع أصحاب المبادىء من أن يعشقوا!

ـ سأقول لهذا القانون.. لا.... لأنني أعشقك يا حبيبتي!

□ □ □

وانتفضت سلوى فجأة.. وأسرعت تفتح باب السيارة، وتدفع عبد المتعال بيدها وهي تقول بصوت مرتعش:

ـ انزل. . انزل من السيارة، أنزل فوراً!

ونظر إليها عبدالمتعال في ذهول، لهذا التحول المفاجىء وقال:

ـ ما زلت تصرين على طردي؟

ـ لو بقيت دقيقة واحدة فستحدث كارثة!

ـ أي كارثة؟

ـ سوف أقبلك في شفتيك!

ـ قبليني!

ـ لا أستطيع!

ـ ما الذي يمنعك؟

ـ ليس في حقيبة يدي جنيه آخر.

الفصل التاسع والعشرون

بين كواليس مسرح الأوبرا.
عمال المسرح يحملون المناظر.

عامل يحمل قصراً. عامل يحمل قلعة. عامل يحمل حديقة غناء. ما أشبه ديكور المسرح بديكور الحياة. كم من قلاع تبدو من بعيد حصوناً شامخة، فإذا اقتربت منها وجدتها حصوناً من ورق. كم من قصور تبدو شاهقة عندما تسلط عليها الأضواء، وهي في الواقع ورق مقوى يخفي خلفه خرائب كبيرة.. وكم من رجال لا يختلفون عن ديكور المسرح.. مناظر فقط، مناظر تتغير بتغير فصول الحياة، وروايات الزمن!

النجارون يدقون الورق الملون في الألواح الخشبية. بضعة مسامير تحول الورق إلى صخور وجبال في أعين المتفرجين. بضعة أضواء كهربائية ملونة تخلق حياة في هذه الألوان الباهتة. الأضواء تحول القرد إلى غزال، والقزم إلى عملاق، ولكن أضواء مسرح الأوبرا ما زالت مطفأة. الممثلون والممثلات يروحون ويجيئون، يظهرون بأحجامهم الطبيعية!

العجائز لم تستطع الأنوار أن تخفي تجاعيدهم.. الممثلات الكبيرات ما زلن في خريف حياتهن. لم يجيء عامل المكياج بعد،

ليضع بمساحيقه الربيع مكان الخريف. ممثل دور الأمير لا يزال ببذلته التي ترى فيها إمضاء الرفا أكثر مما ترى إمضاء الترزي، يمشي في الكواليس متسكعاً. بعد دقائق سوف يصبح أميراً. ملابسه موشاة بالقصب، سيفه المصنوع من الصفيح المرصع بقطع الزجاج سوف يتحول عندما تسلط عليه الأضواء إلى سيف من الذهب مرصع بالماس والياقوت!

إن الحياة أيضاً مسرح كبير، فيه نفس النصب والاحتيال والديكور المزيف، وخداع الجماهير. فيه جبناء يمثلون أدوار الشجعان.. وفيه ضعفاء يمثلون دور الأقوياء.. وفيه رجال من صفيح يتوهم المتفرجون أنهم من ذهب.. فيه مبادىء من زجاج، عندما تسلط عليها الأنوار الكاشفة تبرق وكأنها الماس واللؤلؤ والياقوت!

في الحياة ملقنون كذلك الملقن العجوز الذي يجلس في «كمبوشته» ولا يراه المتفرجون بعضهم يلقن الحكام الآراء والأفكار، وبعضهم يخترع الكلمات المأثورة التي ينسبونها لأنفسهم!

وفي مسرح الحياة أيضاً يقوم بعض الناس بغير أدوارهم. الغبي يقوم بدور الفصيح. الجاهل يقوم بدور العالم. التافه يقوم بدور العبقري.

مسرح السياسة يطيل قامتهم، الأضواء تضيف إليهم صفات ليست لهم، الديكور يعطيهم مهابة تغطي تفاهتهم!

بين كواليس المسرح يرى الناظر كل شيء كما هو، الستار المسدل يخفي الحقيقة خلفه. هنا ترى الكواكب والنجوم على حقيقتهم، تماماً كما يرى الزوج زوجته في فراشها عند الصباح، قبل أن تغطي

وجهها بالمساحيق، قبل أن تضع الرموش الصناعية، قبل أن تذهب إلى الكوافير، قبل أن تغسل وجهها!!

□ □ □

خطرت هذه الخواطر في رأس عبد المتعال وهو واقف بين الكواليس. إنها المرة الأولى التي يدخل فيها وراء الكواليس في المسرح. لم يكن يخطر بباله أن خلف المسرح يوجد كل هذا العالم العجيب، عالم من الورق، كل شيء فيه صناعي. شعور مستعارة، وجوه مستعارة، رموش مستعارة، لا شيء من الطبيعة والحقيقة أبداً.

وسأل عبد المتعال نفسه هل يكون المجتمع الذي نعيش فيه هو صورة من هذا المسرح!

هل الروايات التي نشهدها في حياتنا العامة مؤلفة أم مترجمة! هل الممثلون الكبار يقولون لنا كلامهم أم يؤدون أدواراً مكتوبة لهم؟ هل هم يتحركون أم أن هناك أيادي تحركهم؟ هناك مدير فني يوزع عليهم الأدوار، ويشير عليهم بالخطوات، ويرسم لهم الحركات، ويختفي هو وراء الكواليس!

هل غالب بك الغبي التافه هو الذي يدير شركة البسكويت أم أن وراء الستار (المخرج الفني) الذي يحركه؟ هل الأموال التي يسرقها، يسرقها لحسابه، أم لحساب لص أكبر يقاسمه هذه السرقات؟ هل هو (منظر) مدير أم هو مدير حقيقة؟

لقد دعته سلوى الليلة ليشهدها وهي تقوم بدور ديدمونة في مسرحية (عطيل). إنها ليست المرة الأولى التي يرى فيها سلوى

وهبي تمثل. . رآها وهي تمثل دور السيدة المتغطرسة أمام الحارس الليلي لشركة مصر للبسكويت، رآها تمثل المرأة المغمى عليها أمام شقيقها الدكتور منير وهبي، رآها وهي تقوم بدور الراقصة كاميليا أمام الشرطي الذي ضبطها أمام بيت غالب بك في الزمالك. ولكنها المرة الأولى التي يرى فيها سلوى تمثل فوق المسرح!

لقد كان، قبل أن يتزوج، من هواة المسرح، كان يذهب كل أسبوع لمشاهدة مسرحية مختلفة. كثيراً ما سمع يوسف وهبي وهو يصرخ بكلمته المأثورة (يا للهول)! كثيراً ما شاهد جورج أبيض وهو يزأر بصوته الجهوري في مسرحية (عاصفة في بيت)! ولا يمكن أن ينسى ليلة كان يشهد فيها مسرحية لويس السادس عشر، وكان جورج أبيض يمثل دور الملك لويس، ومنسى فهمي يمثل دور الكردينال. وفي ذروة المسرحية يركع الملك لويس أمام الكردينال، ويمسك بعباءة الكهنوت، ويصرخ: اغفر لي يا أبتاه! واندمج جورج أبيض اندماجاً كاملاً في دور لويس، وبدلاً من أن يمسك عباءة منسى فهمي أمسك بشيء حساس في جسمه وهو يصرخ: اغفر لي يا أبتاه!

وهمس منسى في أذن جورج: سبني يا جورج. . ابعد عني يا جورج!

ولكن جورج بسبب اندماجه الشديد لم يسمع الاستغاثة، ومضى يقبض بيد متشنجة على الجزء الحساس من جسم منسى فهمي وهو يصيح: أغفر لي يا أبتاه! وصاح فيه منسى! غفرت لك!

ولم يكن في المسرحية هذه الجملة! ومضى جورج يصرخ: اغفر لي يا أبتاه. . اغفر لي يا أبتاه!

ولم يتحمل منسى الألم المبرح فصرخ بأعلى صوته ذاكراً اسم الجزء الحساس الذي أمسك به جورج!

وانفجرت القاعة بالضحك. . وأسدل الستار في قمة الموقف الدرامي العنيف!

ولم يتمالك عبد المتعال نفسه من الضحك، وهو يذكر هذا الحادث الذي مرت عليه عدة سنوات، ورأى جورج أبيض أمامه في ملابس (عطيل) وشعر بالذعر. وساءل نفسه: ترى هل سيندمج جورج أبيض في دور (عطيل) ويقتل الليلة سلوى وهي تقوم بدور ديدمونة!

ثم رأى الأستاذ سليمان مدير الأوبرا، وقد ارتدى بذلته الفراك الأنيقة، وهو يهرول بين الكواليس في حالة عصبية. . يصيح ويصرخ، يلطم خديه، يلعن سنسفيل جدود موظفي دار الأوبرا وعلى رأسهم الأستاذ سليمان. إن سليمان يصبح خفيف الدم جداً عندما يفقد أعصابه. وهو لا يمثل دور الرجل العصبي لأنه عصبي حقيقة. وعندما يصاب بالنوبة العصبية يطلق لسانه في جميع الحاضرين والغائبين، وعلى رأسهم رئيس الوزراء!

وهو يريد أن يكون كل شيء مضبوطاً، وحلاوة الفن أن لا شيء فيه مضبوط، وهو يطالب بأن يمشي كل شيء بالساعة، ومن عادة الفنانين أنهم لا يحملون ساعات. .

وهو حريص على النظام الدقيق وحياة الممثلين والممثلات هي الفوضى والبوهيمية والاستهتار بكل نظام. . وسليمان بوهيمي في حياته الخاصة ولكنه دقيق في عمله كمدير للأوبرا. .

ويصرخ سليمان: سوف تفضحوننا أمام رئيس الوزراء. هذا المقعد الذي يجلس عليه (عطيل) من طراز لويس الرابع عشر.. عطيل جاء قبل أن يولد لويس بمئات السنين. وقبل أن يخترع الكرسي من طراز لويس بمئات السنين.. من هو الحمار الذي وضع إناء الزهر الحقير هذا على المائدة؟ هذا الإناء يوضع في بيتكم، وليس في بيت قائد عظيم مثل (عطيل).. من الذي وضع زجاجة الكوكاكولا فوق المائدة التي أمام ديدمونة ستخربون بيتي. كل الوزراء جهلاء فعلاً، ولكن الكوكاكولا لم تكتشف في عهد شكسبير.. الله يلعن أبوكم على أبو الوزراء على أبو شكسبير!

إن مدير الأوبرا يهتم اهتماماً خاصاً بهذه الليلة، فهي تقام لمساعدة الجمعية الخيرية الإسلامية. رئيس الوزراء سيحضر الحفلة، الوزراء سيكونون في شرف استقبال رئيس الوزراء. كبار رجال الدولة. أعضاء البرلمان. أجمل سيدات مصر. كل هؤلاء سيكونون الليلة هنا. وسوف تكون فضيحة لرب السماء، إذا لاحظوا أن ديدمونة تشرب الكوكاكولا!

ويلتفت سليمان إلى مدير المسرح ويقول له:

- كم دفعت لك شركة الكوكاكولا لتضع الزجاجة؟ هذا إعلان عن الشركة!

فيجيب المدير:

- إن الأستاذ جورج أبيض كان يشرب من هذه الزجاجة ونسيها على المائدة!

- لماذا لم يضعها جورج في جيبه؟

- سوف أطلب منه أن يضعها في جيبه!

ـ وسوف ينسى كعادتـه. . وبدلاً من أن يخـرج من جيبه المنـديل الذي وجده ياجو في سرير ديدمونة، سيخرج زجاجة الكوكاكولا!

ويضج الواقفون بالضحك، وتتضاعف عصبية سليمان ويصيح:

ـ تضحكون على خيبتكم؟! تضحكون على المصيبـة الكبرى التي كـدتم تقعـون فيهـا، وتـوقعـونني معكم؟ كـوكـاكـولا في مسرحيـة شكسبير؟ يا ناس. . يا هوه كوكاكولا. كوكاكولا.

ويجيء جـورج أبيض على صـوت الضجة العـالية. . وقـد كـان واقفاً طوال الـوقت بجوار الأستـاذ سليمان ولم يسمـع الصراخ، فقد كان مندمجاً في استذكار دوره، وعندما يطلق مـدفع إلى جـواره أثناء اندماجه لا يسمع صـوت المدفـع. ولكنه في هـذه المرة سمـع كلمة كوكاكولا، فاتجه بهدوء إلى سليمان وقال له:

ـ أشكرك. . لا أريد كوكاكولا!

وتتضاعف عصبية سليمان ويصيح:

ـ هل عرضت عليك أن تشرب كوكاكولا؟

ـ نعم!

ـ أنا عرضت عليك أن تشرب كوكاكولا!

ـ سمعتك بأذني تقول كوكاكولا. . كوكاكولا!

ـ أنا يا جورج مدير الأوبرا ولست بائع كوكاكولا!

ـ آسف. . إنني أرتدي نظارة القراءة. . لا نظارة النظر!

ويعود جورج إلى الاندماج في قراءة دور (عطيـل) تاركـاً الأستاذ سليمان وهو يشد شعره ويصرخ: كوكاكولا. .

□ □ □

وأقبل الأستاذ أحمد علام، وكان عبد المتعال وهو طـالب في كلية

التجارة من أشد المعجبين به، كان ممثلاً مثقفاً، وكان من أعضاء شلة العقاد، وكانت المجلات المسرحية تسميه «دون جوان شارع عماد الدين» وتكتب الفصول الطويلة عن مغامراته النسائية، وعن الممثلات اللائي يهددن بالانتحار من أجله!

وكثيراً ما قرأ لأحمد علام الفصول المطولة عن الأدب الروسي، وعن المسرح الأجنبي، كان يتكلم كأنه يمثل، وكان يمثل كأنه يتكلم. تراه في الحياة فتحسبه يقوم بدور تمثيلي، وتراه على المسرح فتتوهم أن هذا هو دوره الحقيقي في الحياة. أفقدته أضواء المسرح الساطعة قوة بصره، ولكنك عندما تراه فوق خشبة المسرح تتصور أنه صاحب أجمل عينين وأقوى عينين وأكثر العيون سحراً بين الممثلين المصريين.

كان خير من مثل دور قيس في مسرحية (مجنون ليلى). كلمات الحب تذوب في شفتيه فتتحول إلى أنفاس وشهقات.. الوجد يقيم في عينيه مناحة ومأتماً.. اللوعة مرسومة فوق تعبيرات وجهه كالدموع.. لم يكن الحب مجنوناً أكثر مما كان في أحمد علام، وعندما كان يمشي فوق المسرح مسحوقاً من هجر ليلى تحس كأن خطواته تعزف لحناً جنائزياً!

وأحس عبد المتعال برغبة في أن يلمس علام بيده. ليتأكد من أنه هو العاشق الذي رآه فوق المسرح من سنوات.. رآه ممشوق القوام، مرفوع الرأس، فاقترب منه ورأى التجاعيد في وجهه.. وجد أنه أكبر سناً بثلاثين عاماً عما رآه منذ تسع سنوات. هل أخفت التجاعيد ولحية المجنون عمره الحقيقي؟ أم أن هذا الرجل عرف الحب بعد أن عرف المجنون، وشرب الكأس التي شربها المجنون؟ هل الحب يطيل العمر أم يقصر العمر؟ الحب السعيد

يجعل الشيوخ شباباً، والحب الفاشل يحول الرجال إلى أشباح . . ترى ماذا سوف يفعل به حبه لسلوى؟ إنه يشعر أنه ولد من جديد يوم أكل كوز الذرة المشوي لأول مرة!

□ □ □

وأيقظه من أفكاره، صوت سليمان وهو يصرخ :

ـ كل واحد هنا ليس له علاقة بالفصل الأول، يجب أن يخرج فوراً . .

وانتفض عبد المتعال، وأسرع في خطواته إلى الغرفة المخصصة لسلوى وهبي على المسرح . .

ورأته سلوى في المرآة، وهي جالسة أمام مائدة الزينة تضع الميكياج فوق وجهها، وتلون بشرتها بألوان بيضاء وحمراء، تركب في عينيها رموشاً صناعية، تغطي رأسها بباروكة من الشعر الأشقر، بضفائر طويلة تصل إلى كعب حذائها.

والتفتت برأسها نحوه وهي تقول :

ـ هل أبدو فاتنة؟

ـ تشبهين البهلوان في السيرك!

ـ ما أطول لسانك. متى تتعلم مجاملة المرأة التي تحبها؟

ـ أنت طلبت مني أن أكون صادقاً!

ـ سأندم على هذا الطلب طول حياتي!

ـ ما هذه الخطوط السوداء والحمراء والخضراء والزرقاء؟ إن وجهك يشبه قوس قزح.

ـ عندما ستسلط الأضواء الملونة على وجهي سوف أصبح ملكة الجمال!

- لماذا لا تظهرين على المسرح بوجهك الحقيقي؟ أنت فاتنة جداً بوجهك الحقيقي!

- عندما تسلط الأضواء على الوجه الحقيقي يصبح بشعاً!

- عجباً.. كنت أتصور أن الأضواء تظهر الحقيقة!

- في كل مكان، إلا على المسرح!

- ولماذا أبدلت لون شعرك الأسود الجميل؟

- لأن ديدمونة كانت شقراء!

- شقراء تحب زنجياً!؟

- لقد ألف شكسبير مسرحيته قبل أن يعرف الناس التفرقة العنصرية!

وفوجىء عبدالمتعال بدخول مهندس الديكور، ثم أحد عمال الكهرباء، ثم الريجسير، ثم عامل المكياج، ثم خياطة الملابس، ثم مدير المسرح ثم الملقن، ثم بعض الممثلين. كان كل واحد منهم يدخل في غرفة سلوى دون أن يطرق الباب. بعضهم يقبل يدها بعضهم يقبلها هي، بعضهم يهمس في أذنها بكلمة لم تسمعها، وتدوي ضحكة عالية من سلوى تهز أركان الغرفة الصغيرة!

ولم يعرف عبد المتعال ماذا تعني هذه الهمسات.. هل هي نكتة! هل هي قفشة؟ هل هي سخرية به هو؟

ولاحظ أن قلائل ينادونها باسمها. قليل منهم يقول لها «يا ست». كثير منهم يقول «يا روحي».. وتضايق عبد المتعال لأن سلوى هي (روح) كل هؤلاء الأغراب. لقد تصور أنها روحه وحده.. وزاد في ضيقه أنه وجد سلوى لا تتردد في خلع فستانها أمام مدير المسرح، بل أنها تطلب من يوسف وهبي ممثل دور «ياجو» أن يساعدها في تثبيت «الكورسيه»!

وأحس عبد المتعال أن هؤلاء الغرباء سرقوا حبيبته منه. نسيت أنه موجود معها في الغرفة. اندمجت في الضحكات والقفشات والتعليقات. أحس بغربة عجيبة. لم يفهم لماذا يضحكون؟ لماذا يقبلون بعضهم؟ لماذا يتعانقون؟ لماذا يبدو كل واحد منهم وكأن لديه سراً خاصاً يريد أن يهمس به في أذن سلوى.. كل واحد منهم يعتقد أنه يملك جزءاً من سلوى.. وهي في الوقت نفسه تعطي لكل واحد منهم جزءاً منها. لا يبدو عليها الضيق لأنهم يعاملونها بغير تكليف، تهتم بالعامل كما تهتم بمدير المسرح، الابتسامة التي تمنحها لممثل مشهور هي نفس الابتسامة التي تعطيها لممثل مغمور!

الغرفة تحولت إلى محطة سكة حديد. قادمون ومسافرون، واقفون وقاعدون، منتظرون ومتعجلون. ولم يعرف عبد المتعال هل كل هؤلاء الرجال والنساء يحبون بعضهم أم يكرهون بعضهم. هل الأشواق حقيقية؟ هل القبلات حقيقية؟ هل كلمات الغزل حقيقية؟ أم أن هذا جزء من الديكور المسرحي.. مناظر من ورق.. هل يتظاهرون بالعصبية أم هم عصبيون فعلاً؟ هل الدقائق التي تسبق رفع الستار تثير أعصاب هؤلاء الفنانين، كالدقائق التي تسبق الولادة، هل هي هذه الآلام التي تصاحب عملية الخلق الفني؟

الأستاذ سليمان يشد شعره ثم يضحك.. فردوس حسن تشتم عامل المكياج ثم تقبله.. علوية جميل تردد كلمات حزينة من دورها، وبين كلمات الدور تروي آخر نكتة سمعتها.. حسين رياض يدخل الغرفة ضاحكاً مهللاً، ثم يقف أمام سلوى ويقول لها فجأة: أيتها الخائنة القذرة.. إن رائحتك النتنة ملأت المدينة كلها.. إن سمعتك السيئة أصبحت على كل لسان.. إن شرفك أصبح مضغة في أفواه الجميع.. إن الفضيحة التي ارتكبتها فجر

اليوم لا ترتكبها مومس في الشارع!

وانتفض عبد المتعال.. من الذي أخبر حسين رياض بالفضيحة التي حدثت صباح اليوم؟ وبأي حق يحدث سلوى بهذه الوقاحة؟ هل هو عشيقها؟ هل هو زوجها؟ وتنفجر سلوى ضاحكة.. وتلاحظ انفعال عبد المتعال واصفرار وجهه فتقول له:

ـ الأستاذ حسين يمثل دور صديق عطيل الذي عرف بأنني خنت قائده!

ويتنفس عبد المتعال الصعداء.. ويعرف أن شتائم حسين رياض هي أيضاً تمثيل.. وأنه لم يعلم بما حدث في فجر اليوم أمام عمارة غالب بك.. وأن شكسبير عندما كال هذا السباب لم يكن يعرف ما فعلته سلوى في ذلك الموعد المشهور!!

ولا يلبث عبد المتعال أن يعود إلى ذهوله لهذا الجو الغريب الذي تعيش فيه سلوى بين الكواليس. لقد خيل إليه أن سلوى أدخلته مستشفى الأمراض العقلية في العباسية، بدلاً من أن تدخله من الباب الخلفي لمسرح الأوبرا!

وأحست سلوى بذكائها أن عبد المتعال يضيق بكثرة الداخلين والخارجين من الغرفة فقامت إلى باب الغرفة وأغلقته وهي تقول له باسمة:

ـ الآن.. لن يدخل أحد.. أنا لك وحدك الآن!

وما كادت سلوى تتم الجملة، حتى فتحت زينب صدقي الباب ودخلت وهي تقول:

ـ لن أقول (إحم) ولا دستور.. فالبلد ليس فيه (إحم) ولا (دستور).

وأقبلت سلوى على زينب تقبلها وتعانقها وتقول لها:
ـ جئت في الوقت المناسب!

وتغيظ عبد المتعال من كلمة «الوقت المناسب» كأن سلوى تقول أن زينب أنقذتها من البقاء على انفراد بعبد المتعال!

وفوجىء بسلوى تقول لزينب:
ـ هذا هو الرجل الذي أحبه!
ـ أعرف ذلك!
ـ من قال لك!
ـ عيناي.. على الرغم من قصر نظري فإنني أستطيع أن أرى هذه الأشياء بسهولة.. إنني أشم رائحة نار الحب على بعد مائة كيلومتر. وعندما كنت في حفلة عيد ميلادي معه شممت رائحة (الشياط) في كل أرجاء البيت!

وفوجىء عبد المتعال بسلوى تقول له:
ـ اسمع يا عبد المتعال سوف أقص على زينب كل شيء!
ـ كل شيء؟
ـ نعم، كل شيء
ـ كل.. كل شيء؟
ـ نعم كل.. كل شيء.. إنني أعتبر زينب أختي.. وأثق فيها كما أثق بنفسي، ونستطيع أن نأتمنها على كل شيء!

□□□

وتضاءل عبد المتعال في مقعده، وتأكد أن الفنانين مجانين.. الذي قال أن الجنون فنون أخطأ، الحقيقة أن الفنون جنون.. كيف تروي سلوى لزينب صدقي كل شيء.. كيف تجرؤ على أن تقص عليها ما حدث في السيارة أمام عمارة غالب بك؟

وكاد عبد المتعال يغمى عليه. فقد بدأت سلوى تقص على زينب قصة سرقة المستندات . .

واصفر وجه عبد المتعال. ثم ابيض، ثم اصفر، ثم عاد وابيض من جديد!

وانتهت سلوى من رواية قصة سرقة المستندات وقالت:

ـ إنني أردت أن أستشيرك ماذا نفعل بالمستندات؟ إن من رأيي أن أعطيها لجلال حمدي رئيس تحرير جريدة (الصباح الجديد) لينشرها!

قالت زينب:

ـ أنت تعطين الفأر مفتاح الكرار!

ـ أنا أعرف جلال حمدي جيداً، وهو صحفي شهم، وأنت تعلمين أنه يحبني!

ـ لأنني أعلم أنه يحبك أعترض على تسليمه المستندات!

ـ لن يخونني!

ـ أعرف أنه لن يخونك، ولكني أعرف أن العاشق القديم الذي يحب حقيقة لا يقدم خدمة للعاشق الجديد.

ـ ولكني قطعت علاقتي به.

ـ قال لي ليلة أمس في بيت فاطمة سري أن أمنيته في الحياة أن يعود إليك!!

ـ هذا سبب أدعى ليهتم بالمستندات!

ـ أنت تطلبين منه ألا يكون بشراً. . أنت تطلبين منه أن يخاصم أصحاب النفوذ والسلطان من أجل رد الاعتبار للرجل الذي تحبين. .

ـ إن هذا رد اعتبار لشركة مصرية!

ـ قال لي في حفلة فاطمة سري أنك تحبين نصاباً!

ـ إن عبد المتعال ليس نصاباً. . إنه أشرف رجل رأيته في حياتي!

ـ وهل من المعقول أن تطلبي من جلال حمدي أن يثبت أن منافسه الذي يعتقد أنه نصاب هو أشرف الرجال؟

ـ هذا هو واجبه!

ـ عندما يحب الرجل يشعر أن واجبه هو أن يقضي على غريمه!

ـ سأجرب!

ـ قيمة هذه المستندات أن تكون مفاجأة. . وإذا تسربت أنباؤها، ولو بحسن نية، فسوف تكون جرس الخطر الذي ينبه اللصوص!

ـ إن الصحفي أشبه بالقسيس، وهو مؤتمن على سر الإعتراف. .

ـ إلى أن يعشق القسيس!

ـ أنا واثقة من جلال حمدي!

ـ أنا واثقة من أنه يحبك!

ـ وهو رجل شريف!

ـ لا شرف في الحب. . ولا في الحرب!

ـ أنا أعرف جلال حمدي جيداً!

ـ وأنا أعرف الحب جيداً. . حياتي كلها حب. . أدواري المشهورة كلها أدوار حب. مثلت العاشقة مرجريت جوتيه في مسرحية (غادة الكاميليا) مثلت دور العاشقة في مسرحية (كليوبترا) مثلت دور العاشقة في (مجنون ليلى). . مثلت دور العاشقة في مسرحية (مروحة الليدي وندرمير). . أصبحت أعرف ما يفعله الحب بالرجال. . إن العاشق المحبوب يستطيع أن يكون فارساً والعاشق المهجور لا يمكن أن يكون فارساً. . الهزيمة في الحب أشنع من الهزيمة في الحرب. . إن من طبيعة الجيوش المهزومة أن تحرق خلفها الكباري والجسور!

ـ رجال كثيرون هجرتهم وعرضوا على خدماتهم!

ـ عندما يصبح الرجل نبيلاً مع امرأة هجرته وهو يحبها، فمعنى ذلك أنه لم يحبها. . ممكن أن ينتحر الرجل من أجل امرأة يحبها، ممكن أن يضحي بزوجته وأولاده وبيته في سبيلها، ولكنه لن يرضى أبداً أن يكون الجسر الذي تمر فوقه لتصل إلى رجل آخر تحبه. . لن يرضى أن يحمل على كتفيه منافسه ليصل إلى شفتي حبيبته. . أما المرأة فيمكن أن تقدم هذه التضحية الهائلة من أجل رجل تحبه. . أعرف نساء خطبن زوجات لعشاقهن. . أعرف زوجة تولت بنفسها دفع مهر الزوجة الثانية للزوج الذي تحبه. . أعرف مطربة معروفة قدمت شهادة حسن سير وسلوك في رجل تعبده من أجل أن يتزوج من امرأة أخرى كان يسعى وراءها. . المرأة وحدها هي التي تستطيع أن تلعب دور جان دارك. . الرجال لا يصلحون مطلقاً لهذا الدور. . المرأة عندما تعشق رجلاً عشقاً جنونياً ترضى بجزء منه، أما الرجل فهو يريد الكل ويرفض الأجزاء، ولهذا أباحوا للرجل أن يتزوج من أربع نساء، وحرم على المرأة أن تتزوج من أربعة رجال. . أنانية الرجل هي ألذ شيء فيه، وتضحية المرأة هي ألذ شيء فيها!

ـ إذن، ترين يا زينب أنه لو لم يكن لعبد المتعال علاقة بهذه المستندات لاحتضن جلال حمدي القضية!

ـ كان سيقيم الدنيا ويقعدها. . كان سيجند الأقلام لفضحها. . كان سيضحي بجريدته وبحريته من أجل هذه القضية. . كانت جريدته ستصبح المعول الذي يهدم غالب بك!

ـ إذن نبحث عن جريدة أخرى!

ـ أنت نسيت أن هناك رقابة على الصحف، وأنها سوف تمنع هذه الأخبار. !

ـ إنها تمنع أخبار الحرب!

ـ تمنع أخبار كل الحروب. . والحرب على الفساد هي أشد الحروب ضراوة!

ـ أنت يا زينب تغلقين في وجهي كل الأبواب.

ـ أنا أفتح أمامك نوافذ الحقيقة.

ـ وماذا يفعل عبد المتعال؟

ـ عبد المتعال لا يستطيع أن يفعل شيئاً. . أنت تستطيعين أن تفعلي كل شيء!

ـ أنا مستعدة أن أفعل كل شيء!

ـ هذا يتوقف على درجة حبك لعبد المتعال. . معلوماتي عن الحب أنه درجات، مثل درجات الموظفين. . هناك حب من الدرجة الأولى. . وحب من الدرجة الثامنة حرف جيم!

ـ أنا أعبده!

ـ هل أنت مستعدة أن تضحي من أجله؟

ـ مستعدة أن أضحي بحياتي!

ـ في مثل هذه المواقف تصبح الحياة أقل ما هو مطلوب من تضحيات!

ـ سأضحي بأي شيء. .

ـ هل تضحين بمركزك كممثلة أولى للفرقة؟

ـ لا يهمني مركزي في الفرقة المسرحية، إنني أكسب من السينما أضعاف أضعاف مرتبي من المسرح!

ـ قد تضطرين أن تضحي بمركزك في السينما، قد يطاردونك في كل فيلم قد تمنع الرقابة الموافقة على أي فيلم تشتركين فيه. . قد تصبحين منبوذة من الجميع، قد تصدر الأوامر إلى الرقابة بحذف اسمك وصورك من كل جريدة، قد يحكم عليك بالموت وأنت على

قيد الحياة، وأكثر أنواع الموت إيلاماً هو موت الذين يموتون ولا يدفنون.. يعيشون وهم موتى!

- هذا لن يهمني!

- قد يضعونك في السجن!

- الإنسان المسجون لا يؤلم.. كما تؤلم الكلمة المسجونة!

- سأدلك إذن على طريقة تصل بها كلمتك إلى الدنيا كلها!

- وتنشر في الصحف؟

- وتنشر في الصحف!

- وتصل إلى آذان كبار رجال الدولة؟

- سوف تدوي في آذانهم!

- متى، متى؟..

- ممكن أن تنفذيها بعد ربع ساعة أو بعد نصف ساعة.. وإن كنت أفضل أن تنفيذها بعد ساعة ونصف ساعة!

- كيف؟

- أنت الليلة ستقومين بدور ديدمونة أمام رئيس الوزراء والوزراء وكبار رجال الدولة.

- وأعضاء البرلمان ورجال الصحافة والطبقة الحاكمة كلها

- في نهاية الفصل الثاني ستكونين واقفة فوق المسرح وحدك.

- سألقي منولوجاً طويلاً عن التهمة الظالمة التي اتهمني بها (ياجو) بأنني خنت عطيل، مستنداً إلى منديلي الذي وجده في فراش أحد الضباط!

- تتوقفين لحظة في قمة المنولوج.. تتقدمين إلى الأمام ناحية المقصورة الأولى التي يجلس فيها رئيس الوزراء مع وزرائه.. ثم تقولين في صوت متهدج (**أعجب لمن يتهم البريء ويترك المجرم**..

أعجب لأن الحقيقة في هذا البلد تداس بالأقدام.. المجرمون فوق الرؤوس والأشراف يداسون بالأقدام.. اللصوص في القمة والأبرياء في السجون.. ليس المنديل الذي وجده (ياجو) في فراش عشيقي المزعوم هو المستند.. هذه هي المستندات التي وجدناها في خزانة شركة مصر للبسكويت.. هذه الوثائق تثبت أن غالب بك مدير الشركة سرق أموال العمال والموظفين والمساهمين.. قدم ميزانية مزورة.. زيف الأرقام.. ضيع حقوق الفقراء والضعفاء والمسحوقين.. هذا البلد ليس في حاجة إلى ألف عطيل)!

وبعد ذلك تتقدمين إلى حافة خشبة المسرح في اتجاه المقصورة الأولى وتقدمين لرئيس الوزراء المستندات!

وصفق عبد المتعال وهو جالس يشهد الموقف الرائع الذي تمثله زينب صدقي بصوتها الساحر، بانفعالها المثير، بكلماتها التي كانت مزيجاً من الدموع والأنين..

ومسحت سلوى دمعة في عينيها وقالت:

ـ لن يتركوني أقول هذا!

ـ أؤكد لك أنهم لن يتنبهوا إلى أنك خرجت عن نص المسرحية إلا في.. نهاية حديثك.. الأغبياء منهم، وهم الأغلبية، سوف يتوهمون أن هذه هي رواية شكسبير. والأذكياء منهم، وهم الأقلية، لن يتبينوا أن هذه السطور من تأليفك إلا بعد أن تتكلمي عن غالب بك وشركة مصر للبسكويت!

ـ فكرة هائلة.. سيصعق رئيس الوزراء سيفزع الوزراء سيرتعش رجال الدولة.. ستدوي الكلمات كالقنابل.. ستهتز مقاعد الصالة تحت المتفرجين.. ستصفر وجوه.. ستكتب

الصحف عن الحادث الذي وقع أمام كبار رجال الدولة.. ستضطر الحكومة للتحقيق..

- وسيلطم الأستاذ سليمان خديه ويأمر بإسدال الستار!

- وسيرتفع الستار من جديد عن مأساتنا الحقيقية، مأساة شعب يبحث عن عطيل!

الفصل الثلاثون

أقفلت زينب صدقي بالمفتاح باب الغرفة الخاصة بسلوى وهبي في مسرح الأوبرا. بدأت زينب بخبرتها المسرحية الواسعة تدرب سلوى على المشهد الذي ستقوم به الليلة أمام رئيس الوزراء:

ـ في الجملة الأولى ترفعين رأسك. الجمل التالية تخرج من فمك متدافعة كطلقات المدفع الرشاش. لا تتوقفي لحظة واحدة. كلما توالت الطرقات فوق رؤوس المتفرجين جلسوا كالمشدوهين فوق مقاعدهم. فقدوا القدرة على الحركة أو التفكير. عندما تصلين إلى الجملة الخاصة بفضائح شركة مصر للبسكويت تمدين يدك نحو المقصورة الأولى تشيرين بأصبعك إلى كل من في القاعة كأنك تتهمينهم جميعاً. أصبعك تتحرك ولا تستقر في ناحية واحدة. كل واحد من الجالسين سوف يشعر أن أصبعك مقصلة، وسوف يتنفس الصعداء عندما تمر عليه هذه المقصلة ولا تقطع رأسه!

في نهاية المنولوج يتحشرج صوتك. الكلمات هنا تبدو كالدموع ساخنة ملتهبة!

ثم التفتت زينب إلى سلوى وقالت لها:

ـ والآن دعيني أراك في البروفة الأخيرة لأعظم أدوارك!

ووقفت سلوى تستعد للقيام بدورها، وأشارت زينب إلى عبد المتعال وقالت له:

ـ أنت الآن رئيس الوزراء!

وهب عبد المتعال واقفاً على قدميه. وضحكت زينب وقالت له:

ـ رئيس الوزراء لا يقف يا أستاذ. . الرئيس يجلس!

وتهاوى عبد المتعال على المقعد وانكمش فيه، وعادت زينب تقول له:

ـ الحكام لا يجلسون هكذا. يجب أن تنتفخ أوداجك. . يجب أن تبدو عليك المهابة والجلال!

وحاول عبد المتعال أن ينفذ تعليمات زينب صدقي فازداد انكماشاً وتضاؤلاً في مقعده. وقال زينب وهي تهز رأسها:

ـ أنت يا عبد المتعال لا توحي بأنك حاكم. قم عن هذا الكرسي. الكرسي الآن هو الحاكم. وعليك يا سلوى أن توجهي كلامك إلى الكرسي، إن في الكرسي من جلال الحكام أكثر مما في عبد المتعال!

وترك عبد المتعال المقعد، ونظر إلى مسنده المذهب وغطائه الحريري، وهز رأسه، فقد عرف أن المهابة في الجماد تكون أحياناً أكثر وضوحاً منها في الأحياء!

بدأت سلوى تعيد المشهد كما وصفته زينب. واستطاعت أن تعزف الدور بصوتها. كلمات تئن كالكمان، وكلمات تصرخ كالموسيقى النحاسية، وكلمات تدوي كالطبول. حولت سلوى

كلمات الدور الذي اقترحته زينب إلى سيمفونية، في أداء سليم، وفي صوت معبر أخذا. ولم تتمالك زينب نفسها فصفقت وقالت:

- برافو سلوى!!

وتحمس عبد المتعال للموقف الدرامي وقال:

- **يجب أن أشترك في هذا المشهد. لا يمكن أن أترك سلوى وحدها في هذا الموقف العصيب!**

قالت زينب وهي تبتسم:

- يمكنك أن تقوم بدور هام في هذا المشهد!

- **ما هو؟**

- أن تصفق في نهاية المشهد. لا يكاد المتفرجون يسمعون شخصاً واحداً يصفق حتى يلهبوا أيديهم بالتصفيق.. التصفيق في المجتمعات العامة أشبه بالتثاؤب. إنك ما تكاد ترى رجلاً يتثاءب حتى تجد نفسك تتثاءب دون أن تدري لماذا تتثاءب، متفرج واحد في مسرح يستطيع أن يقود المتفرجين، ويسوقهم إلى التصفيق.. الجماهير في الاجتماعات العامة يتحولون إلى قطيع، يرددون الهتافات كالببغاوات، يصفقون لأشياء لا يفهمونها وفي المسرح ألاحظ دائماً أن الجمهور يتردد في التصفيق، حتى إذا رأى شخصاً غيره يصفق أسرع يصفق، خشية أن يتهمه الناس بأنه لم يفهم الرواية، بل كثيراً ما رأيت بعض الناس يشاركون الضاحكين في الضحك، ثم يسألون من بجوارهم مستفسرين: ما هي النكتة؟

ضحكت زينب صدقي وقالت لعبدالمتعال:

- هل تعرف كيف تصفق أم تريد أن أدربك على التصفيق!؟

□ □ □

وسمعوا طرقاً متواصلاً على الباب، وسمعوا صوت سليمان بك نجيب يجلجل. . وأسرعت سلوى إلى الباب تفتحه، واندفع سليمان نجيب إلى الغرفة وهو يرقص ويقول:

ـ هنئوني يا أولاد. . باركوا لي يا أولاد. . قبلوني يا أولاد. . عانقوني يا أولاد. .

وسألته سلوى في دهشة:

ـ ماذا حدث يا سليمان؟

ـ نعمت هانم عمة رئيس الوزراء ماتت!

ـ هل كنت تكرهها؟

ـ لم أكن أعرفها

ـ ولماذا ترقص؟

ـ لأن رئيس الوزراء ألغى الحفلة.

ـ وهل هذا شيء يدعو للفرح؟

ـ هذه نعمة من السماء. . منذ الصباح كانت عيني (ترف) وعندما ترف عيني أعرف على الفور أن مصيبة ستحدث. . وكنت واثقاً أن المصيبة ستحدث الليلة. . سوف يقع خطأ ما، فتسقط الدنيا فوق رأسي، كأن ينسى جورج أبيض دوره، أو يغمى على يوسف وهبي، أو أموت أنا. . والحمد لله أن الست نعمت هانم أنقذت الموَقف وماتت هي:

ـ ومتى ستقام الحفلة؟

ـ أجلت الجمعية الحفلة أربعين يوماً!

ولطمت زينب صدقي وسلوى وهبي خدودهما، وانسابت الدموع تذرف بغزارة من عيونهما. .

وبدا على عبد المتعال الأسى البالغ والحزن العميق..

ووقف سليمان نجيب مشدوهاً يشهد هذه المناحة واللطم والعويل!

وقالت سلوى وهي مستمرة في لطم خديها:
- مصيبة! كارثة! نكبة!

وخلعت زينب صدقي الايشارب الأخضر الذي كانت تلف به شعر رأسها، وأمسكته في يديها، وراحت (تشلشل) به، (وتعدد) وتقول:

- يا دهوتي! يا خرابي! يا ست في عز شبابك! يا عروسة ما شافتش دنيا! يا دهوتي!

وصاح سليمان:
- هل جننت؟ نعمت هانم ماتت وعمرها ثمانون سنة!
- أليس من حقنا أن نشارك رئيس الوزراء في أحزانه؟
- باللطم والعويل، والصراخ والندب؟ أراهنكم أن رئيس الوزراء سيمضي الليلة في نادي محمد علي يلعب البوكر على روح عمته!

واستمرت سلوى تبكي وتقول:
- مصيبة! كارثة! نكبة!

وهزت زينب رأسها وقالت:
- جت الحزينة تفرح ما لقتش لها مطرح! الناس خيبتها السبت والحد واحنا خيبتنا ما وردت على حد.. قليل البخت يلقى العظم في الكرشة!

قال سليمان ساخراً:
ـ يلقى العظم في الأوبرا!

قالت زينب، محاولة أن تنقذ الموقف:
ـ كانت سلوى تتمنى أن تمثل الليلة أمام رئيس الوزراء!
ـ لقد مثلت أمامه عشرات المرات!
ـ هذه أول مرة تمثل أمامه ديدمونة!
ـ لم أعرف أن سلوى معجبة برئيس الوزراء!
ـ أصبحت معجبة!
ـ منذ متى؟
ـ منذ وفاة عمته!
ـ أنتم جماعة من المجانين، وستجنونني معكم!
ـ متى تظن أن الحفلة ستقام؟
ـ سينتهي في الأسبوع القادم موسم الأوبرا، ولهذا لا أتوقع أن تقام الحفلة إلا في العام المقبل!

ما كادت زينب وسلوى تسمعان كلمة «العام المقبل» حتى عادتا إلى البكاء والنحيب ولطم الخدود!

ولم يتمالك سليمان نفسه فخرج من الغرفة وهو يلعن عمة زينب صدقي وعمة سلوى وهبي، وعمة رئيس الوزراء!

□ □ □

غادر المتآمرون الثلاثة دار الأوبرا، مشوا في الشوارع على غير هدى.

كانت الخيبة والفشل والهزيمة تمشي وراءهم كأنها ظلالهم. كان الحزن يعصر أحشاء عبد المتعال. كانت زينب تسير وكأنها تترنح، كانت سلوى تحس بشيخوخة مفاجئة، كأنها كبرت في هذه الساعة ثلاثين عاماً. كانت ألسنتهم خرساء وعيونهم تصرخ بالأنين..

وتوقفت زينب فجأة وقالت لسلوى:

ـ مالنا نمشي صامتين.. وكأننا نشيع جنازة!

ـ جنازة فكرتك الجهنمية!

ـ كأنني رأيت الليل في الساعة الثانية عشرة ظهراً. كنت واثقة أن الخطة التي وضعناها لا بد أن تنجح.

ـ ماتت الست نعمة في الوقت غير المناسب والشيء الذي يذهلني أن سليمان نجيب قال أن عينه كانت ترف منذ صباح اليوم. وأنه كان يتوقع أن تحدث كارثة على المسرح.. كأنه شعر بما كنا ندبر الليلة!

ـ في الحياة أشياء غريبة وغير مفهومة. لا بد أن في داخل كل واحد منا جرساً سحرياً. القدر يدق عليه ليحذرنا من خطر مقبل علينا. بعضنا يسمع الجرس ويتنبه، وبعضنا يسمع الجرس ولا يهتم به. وقد يدق الجرس وسط ضوضاء مشاغلنا فلا نسمعه. إن في حياتي أجراساً سمعتها وأجراساً لم أسمعها. أذكر أنني كنت طفلة يتيمة في الرابعة عشرة من عمري، وكنت أقيم في بيت عمي بسوق السلاح. وجاء عمي وقال أنه قرر أن يزوجني من ابنه.. ودوت الزغاريد في أنحاء البيت وسمعت جرساً غريباً في داخلي، صوتاً مجهولاً يقول: اهربي من هذه الكارثة.. وبغير تفكير هربت من البيت، وسرت في الشوارع على غير هدى لأصبح بعد ذلك ممثلة. وعرفت بعد ذلك أن العريس كان مختل القوى العقلية، وأن عمي

رأى أن يعيد إليه عقله بالزواج مني حتى لو كان ثمن ذلـك أن أفقد عقلي أنا. . حتى الآن لا أعرف كيف دق الجرس المجهول. . كيف نبهني إلى الخطر المقبل. كيف دفعني إلى المسرح الـذي لم يخطر عـلى بالي ولم أفكر فيه!

ـ أنا سمعت هذا الجرس مرة واحدة. منذ سنوات قررت السفـر إلى لنـدن، حجزت مكـاني على الـطائـرة ودعت أصـدقـائي ركبت سيـارة تـاكسي إلى المـطار. وفي منتصف الـطريق سمعت الجـرس. وجدت نفسي أقول للسائق عد بنـا إلى بيتي. . عدلت عن السفـر لم أفهم لمـاذا فعلت ذلك إلا في صبـاح اليـوم التـالي: عنـدمـا فتحت الصحف ووجـدت أن الطائـرة التي كنت سأستقلهـا سقـطت عنـد قبرص ومات كل من فيها من الركاب والملاحين!

وتدخل عبد المتعال وقال:

ـ ولكني لا أذكر أنني سمعت هذا الجرس مرة واحدة في حياتي!

ـ الأجراس لا تدق إلا في القلوب المؤمنة!

ـ إنني مؤمن إيماناً كاملاً!

ـ لا بد أن سمعك ضعيف!

ـ سمعي قوي جداً!

ـ لا بد أنك لم تواجه خطراً!

ـ مضى علي أكثر من عـامين أعيش في الخـطر! لقد كنت أسمـع صوت الزغاريد في قلبي عندما دخل سليمان نجيب يعلن الكارثة!

ـ مصائب قوم عند قوم فوائد. . لو أننا نجحنا في خطتنا لأحالوا سليـمان نجيب فـوراً إلى المعـاش، لأنـه المسؤول بصفتـه مـديـراً للأوبرا.

ـ ربما وضعوه في السجن!

ـ عجباً. . لم نفكر في مصير صديقنا العزيز الحبيب سليمان عندما فكرنا في هذه المؤامرة! كنا نفكر في أنفسنا فقط.

ـ لم نفكر في أنفسنا. . كنا نفكر في ألوف العمال والموظفين والمساهمين!

ـ لا بد من ضحايا أبرياء لنجاح الأفكار العظيمة!

ـ الغريب أن التاريخ يهمل أسماء الضحايا ولايبرز إلا أسماء الذين ضحوا بهم. إسم خوفو الذي بنى الأهرام على لسان الدنيا، وأسماء عشرات الألوف من العمال الذين ماتوا وهم يبنون الأهرام، لا يفكر فيهم أحد لم يقم لهم نصب تذكاري صغير يسجل بطولاتهم. . إسم الخديو إسماعيل الذي تم في عهده حفر قناة السويس دخل التاريخ من أوسع الأبواب، ولم يقل التاريخ كلمة طيبة عن عشرات الألوف الذين ماتوا من الجوع والعطش وضرب السياط، وهم يشقون القناة!

ـ التاريخ رجل عجوز، ضعف بصره مع ألوف السنين، يقرأ العناوين الضخمة، ويعجز عن قراءة السطور الصغيرة. صفحاته تتسع للسفاحين ولا تتسع للمصلحين. انظري كم مسرحية راقصة وضعت عن نابليون، وكم مسرحية وضعت عن مدام كوري مكتشفة الراديوم، وكم مسرحية عن كليوباترا التي جعلت عرشها فراش غرام، وكم مسرحية عن أحمد عرابي أو مصطفى كامل أو محمد فريد أو سعد زغلول!

ـ لا أستبعد أن يجيء وقت يقيمون فيه تمثالاً للراقصة كاميليا!

ـ أو لغالب بك مدير شركة مصر للبسكويت!

قال عبد المتعال وكأنه يعزي نفسه:

- ترى، لو أتيح لسلوى أن تنطق بهذه الكلمات أمام رئيس الوزراء ووزرائه فهل كانت ستدخل التاريخ؟

- نحن نعيش في عصر من الضباب. وفي الضباب تتعذر الرؤية.. وكما يحدث في الضباب أن تضطر السيارات والعربات إلى التباطؤ، يحدث نفس الشيء بالنسبة للتاريخ!

- لا يرى التاريخ في الضباب أبعد من أنفه.. يأخذ وقائعه من صفحات الصحف ناسياً أنها تصدر تحت الرقابة.. يضع يده على الأقزام ويتصور أنهم عمالقة.. يدوس العمالقة كما تدوس السيارة السائرين في الضباب.. عهود الضباب تشبه الليل. وفي الليل البهيم تحسب الأشباح رجالاً. والرجال أشباحاً!

- ومتى ينتهي هذا الليل؟

- عندما يحمل كل فرد منا عود ثقاب!

- حاولنا اليوم أن نشعل عود ثقاب فأطفأته وفاة عمة رئيس الوزراء!

- فلنحاول أن نشعل عود ثقاب آخر!

- إن حقيبتك يا زينب فيها علبة كبريت!

- كانت فكرتي هذه هي آخر عود كبريت في رأسي!

- لا نستطيع أن ننتظر عاماً كاملاً حتى تقام حفلة الجمعية الخيرية الإسلامية مرة أخرى.

- إذا استطعنا نحن أن ننتظر، فهل تستطيع شركة مصر للبسكويت أن تنتظر!

- كل يوم يمر يقربها من حافة الهاوية!

□ □ □

ومشوا غارقين في الصمت والتفكير. . وصاح عبد المتعال:

ـ وجدتها!

ـ ماذا وجدت. . عود كبريت؟

ـ علبة كبريت كاملة!

ـ أشعل عوداً منها!

ـ ما رأيكم في أن أنتهز فرصة موكب الحاكم وهو في طريقه إلى صلاة الجمعة. وألقي نفسي تحت عربته، وأنا أحمل في يدي المستندات!

قالت زينب صدقي ساخرة:

ـ هذا عود كبريت لم يشتعل. . مئات غيرك ألقوا بأنفسهم أمام سيارة الحاكم، فوضعوا في السجن أو في مستشفى الأمراض العقلية، نريد شيئاً جديداً يلفت النظر!

قالت سلوى في حماس:

ـ ما رأيكم في أن أقوم بهذا الدور، ألقي بنفسي أمام سيارة الحاكم. لم يحدث أن امرأة ألقت بنفسها أمام موكب الحاكم!

ـ سيصبح الأمر نكتة. سيقول الناس أن ملكة الإغراء ألقت بنفسها أمام سيارة الحاكم لأنه قطع صلته الغرامية بها. . ستتحول الفضيحة الوطنية إلى فضيحة نسائية!

ـ ولكن الحاكم يعرف أن ليس بيني وبينه صله غرامية!

ـ سيهتم الحاكم بأمر واحد فقط. . سوف يعطيك موعداً في أحد الملاهي!

ـ سأنتهز فرصة وجودي في الملهى وأروي له فضائح الشركة!

ـ في الملهى سيكون الحاكم مهتماً بمتابعة الراقصات، لا بمتابعة ما يحدث في الشركات.

وفتح عبد المتعال شفتيه المطبقتين وقال في احتجاج:

- إن عيب سلوى أنها تريد أن تحل المسائل العامة في غرف النوم!

قالت زينب صدقي ضاحكة:

- كل واحد منا يقدم للفكرة خبرته.. أنا قدمت رأسي، وسلوى قدمت جسدها، فماذا قدمت أنت؟

قالت سلوى ساخرة:

- قدم لسانه!

وأحنى عبد المتعال رأسه وقال في مرارة:

- لست مقتنعاً بأن مشاكل الشعب يمكن أن تبحث في كباريه!

- لا أستبعد أن يجيء يوم يعقد الحاكم فيه مجلس الوزراء في كباريه!

- عندما يعقد مجلس الوزراء في كباريه فسوف تصبح مأساة شركة مصر للبسكويت، إحدى (النمر) التي تعرض في الكباريه!

قالت زينب:

- يظهر أنكم نسيتم أن رئيس الوزراء هو المدير العام لكل شركات البسكويت!

قالت سلوى متعمدة إثارة عبد المتعال:

- لماذا لا تقول صراحة أنك تغار علي من الحاكم؟

قال عبد المتعال في غيظ:

- أنا لا أغار من الحاكم لأنني أعرف ذوقه!

قالت سلوى متخابثة:

- تقصد أن ذوقه ممتاز؟

- أقصد أن ذوقه زفت!

ـ إذن لماذا تخاف علي من الحاكم؟

قالت زينب وكأنها ترد بالنيابة عن عبد المتعال:

ـ إنه ليس خائفاً من الحاكم عليك. إنه خائف على الحاكم منك!

□ □ □

وتوقفت عربة حنطور فجأة، وسمع عبد المتعال رجلاً بديناً يصيح:

ـ سلوى! سلوى! مدموازيل سلوى!

والتفت سلوى وقالت:

ـ هذا أحمد باشا رئيس الوزراء السابق وخال سليمان نجيب.

وكانت العربة مائلة إلى جانبها لشدة ضخامة جسم أحمد باشا، واتجهت سلوى إلى العربة وقال لها أحمد باشا:

ـ أين سليمان؟ لقد ذهبت إليه في الأوبرا فلم أجده!

ـ أعتقد أنه انصرف بعد أن ألغيت حفلة الأوبرا!

ـ علمت أن الحفلة ألغيت، ولهذا أردت أن أدعو سليمان ليتناول العشاء معي، ما رأيك في أن تتناولي العشاء معي؟

ـ آسفة.. معي أصدقائي!

ـ من هم؟

ـ زينب صدقي.

ـ أعرفها.

ـ وعبد المتعال.

ـ هل هو ممثل؟

ـ لا هو صديق لي!

ـ أنا أدعوكم لتناول العشاء معي في نادي محمد علي.
ـ نحن لسنا أعضاء في النادي.
ـ لا يهم.. أنا عضو.. هذا يكفي!

وذهبت سلوى إلى زينب وعبد المتعال وعرضت عليهما الدعوة، ورحبت زينب بالدعوة لأنها جائعة وتردد عبد المتعال.. وشجعته زينب على قبول الدعوة واتجهوا إلى العربة الحنطور، وانحشرت زينب بصعوبة بجوار أحمد باشا وجلست سلوى وعبد المتعال في المقعد المقابل، وضحك أحمد باشا والعربة تتحرك وقال:

ـ لو رآنا مندوب من جمعية الرفق بالحيوان لأشفق على الحصانين من هذا الحمل الثقيل!

□ □ □

جلس أحمد باشا أمام مائدة في غرفة كبار الضيوف في نادي محمد علي، وأجلس زينب صدقي عن يمينه، وسلوى وهبي عن يساره، وعبد المتعال أمامه..

وأقبل رئيس الخدم فحدثه أحمد باشا بالإيطالية التي يجيدها وأمر بعشاء فاخر...

كان أحمد باشا شخصية مرحة، يدين علناً بالولاء للحاكم، ويلعن سراً أباه وأجداده.. رأس وزارة مصر مرتين.. ثقيل الوزن، خفيف الروح. تعلم في جامعات فرنسا واحتقر الفرنسيين.. يجهل اللغة الانجليزية ويقدس الإنجليز. تولى أكبر المناصب ولا يزال فقيراً. فيه مزيج من النمر والفأر، يندفع ثم يهرب، لا يحب أن يحتمل أي مسؤولية ويرحب بأي مسؤولية! كانوا

يسمونه أحمد الصغير لأنه بالرغم من ضخامة جسمه كان ألعوبة في يد الملك فؤاد والإنجليز!

يسخر من نفسه ومن الناس.. يهزل في موقف الجد، ويثرثر في الوقت الذي يستوجب الصمت. الذي في قلبه على لسانه. ولسانه المفلوت جعله شخصية محبوبة بين الصحفيين وشخصية مكروهة لدى الحكام!

وسألته سلوى:

- هل تظن يا دولة الباشا أنه يوجد فساد في الشركات؟

- **كل ما أعرفه أن أغلب أعضاء مجالس الإدارات من اللصوص!**

- ما هي نسبة اللصوص؟

- **نسبة قليلة جداً.. لا تتجاوز تسعة وتسعين في المائة!**

- كيف عرفت ذلك؟

- **لأني عضو في مجلس إدارة ١٨ شركة!**

- وهل تسرق منها؟

- **طبعاً، أسرق.. لو لم أثبت أنني لص لما اختاروني في ١٨ شركة.**

- ماذا تسرق؟

- **أسرق أموال المساهمين!**

- كيف تسرقها؟

- **أجلس في اجتماعات مجلس الإدارة ولا أفتح فمي!**

- وماذا تقبض مقابل إقفال فمك؟

- **خمسة آلاف جنيه في العام.. ولولا أن لساني طويل لوصل إيرادي السنوي إلى عشرين ألف جنيه!**

ـ وكيف يختارون أعضاء مجالس إدارة الشركات؟

ـ يشترطون فيهم أن يكونوا مغفلين!

ـ ولكنك لست مغفلاً؟

ـ أتظاهر بأنني مغفل!

قال عبد المتعال:

ـ ولكن ماذا يحدث للمغفلين إذا أفلست الشركة؟

ـ لن يحدث لهم أي شيء؟

ـ كيف لا يحدث لهم أي شيء!

ـ لأن الحكومة مغفلة أكثر منهم!

ـ لنفرض أنني وجدت وثائق تثبت الفساد في إحدى الشركات، فماذا تنصحني أن أفعل؟

ـ أنصحك أن تسكت، فالسكوت من ذهب!

ـ والكلام من فضة!؟

ـ الكلام من تراب!

ـ كأنك لم تقل (لا) مرة واحدة في حياتك!

ـ لم أقلها أبداً.. لو قلت (لا) لما أصبحت أحمد باشا، ولبقيت حتى الآن أحمد أفندي.. عندما اختارني الملك فؤاد رئيساً للوزارة، لم أكن أعرف أغلب الوزراء الذين اختارهم لي حسن نشأت باشا رئيس الديوان الملكي.. وحدث في يوم تأليف الوزارة أن رأيت رجلاً في الصالون وتصورت أنه أحد حجاب القصر، فطلبت منه أن يحضر للوزراء قهوة، وإذا بي أكتشف أنه وزير الحربية الجديد في وزارتي!

ـ وماذا كنت تفعل مع الإنجليز؟

ـ قدموا لسعد زغلول إنذاراً فيه سبعة مطالب، ورفض سعد

المطالب واستقال، وألفت أنا الوزارة واجبت المطالب السبعة كلها!

ـ كيف تخضع لمطالب الإنجليز بعد أن رفضها زعيم الأمة؟

ـ لأنه كان مجنوناً وأنا كنت عاقلاً . . والدليل على ذلك أن جنونه أخرجه من الوزارة، وعقلي أبقاني رئيساً للوزارة!

ـ ولكنه دخل التاريخ . .

ـ أنا أفضل طبقاً من (البسطرمة) على صفحة كاملة في كتب التاريخ!

ـ عجيب أن يكون هذا رأي رئيس وزراء مصري!

ـ أنا لست مصرياً. أبي شركسي وأمي شركسية، ورأسي أوربي، وقلبي إنجليزي!

ـ وهل تتصور أن كل الزعماء مثلك؟

ـ الفرق بيني وبينهم، أنني أعترف وهم يصرون على الانكار . . أجسامهم الصغيرة تساعدهم على الاختفاء، وجسمي الضخم يظهر مهما حاولت الاختفاء خلف أحد الأبرياء . . كانت عندي الشجاعة أن قلت أن (الخواجة) هو الحاكم الحقيقي، وأنا (طرطور) . . وغيري كان يدعي أنه الحاكم بأمره، بينما كان يتلقى أوامره من السكرتير الثالث في السفارة البريطانية . .

ـ إذن أنت تعتقد أنه لا فائدة!

ـ سعد باشا قال (مفيش فايدة!)

وانبرى عبد المتعال يقول له:

ـ سعد زغلول لم يقل أبداً كلمة (مفيش فايدة) إنه قال هذه الكلمة وهو على فراش الموت عندما قالت له زوجته صفية زغلول وهي تحاول أن تطمئنه: إطمئن يا سعد إن صحتك تتحسن . .

ففتح عينيه وقال (مفيش فايدة. . أنا انتهيت) وأطبق حاجبيه ولفظ النفس الأخير. وجاء دعاة التردد والهزيمة في بلادنا وادعوا أن سعد باشا قال (مفيش فايدة) وهو يقصد أن لا فائدة من الكفاح الوطني ضد الملك والإنجليز!

□ □ □

وأقبل مراد باشا وهبه وزير الزراعة السابق، وهو يحمل جريدة مسائية واتجه إلى أحمد باشا وقال له:

- هل قرأت تصريح شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء؟
- إنني لا أقرأ إلا جريدة (البورص).
- إنه تصريح هام جداً!
- ماذا يقول؟
- سأقرأه لك: أدلى حضرة صاحب الدولة شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء بالتصريح الخطير التالي:

«اتصل بعلم الحكومة أن هناك بعض مظالم ترتكب، وأن هناك فساداً في بعض إدارات الحكومة والمؤسسات. وأنني أعلن للشعب بأن حكومتي لا يمكن أن تسكت على أي ظلم، أو تسمح بأي فساد. وأن الحكومة لن تتردد في القبض على أي موظف فاسد أو مرتش، أو مستغل لنفوذه، مهما يكن منصبه. فإن كل مليم يسرق لا يسرق من الدولة وحدها وإنما يسرق من جيب كل فرد فيها. . وكل ظلم يقع على فرد في الشعب، إنما يقع على الشعب كله.

وسوف تحمي الحكومة كل مواطن يتقدم بمعلوماته للكشف عن أي جريمة من جرائم الفساد واستغلال النفوذ. .

ورغبة مني في أن أشرف بنفسي على بلاغات المواطنين وشكاوي المظلومين، فقد أنشأت إدارة خاصة في مكتبي الخاص لبحث شكاوى ومظالم المواطنين.».

وانتهى مراد باشا وهبه من قراءة تصريح رئيس الوزراء وقال:

- هذا شيء عظيم!!

قال أحمد باشا ساخراً:

- لو نفذ رئيس الوزراء تهديده فسوف يتحول جميع موظفي الدولة إلى مسجونين وجميع وزارات الدولة إلى سجون!

وزغردت عيون زينب وسلوى وعبد المتعال..

وضحكت زينب صدقي وقالت:

- المهم ألا تموت الليلة أيضاً خالة رئيس الوزراء!

الفصل الحادي والثلاثون

أنهى عبد المتعال وسلوى وهبي وزينب صدقي عشاءهم بسرعة في نادي محمد علي، واستأذنوا من مضيفهم أحمد باشا، وشدوا على أقدامهم في شارع سليمان باشا يبحثون عن بائع صحف، يشترون منه جريدة مسائية عربية، ليقرأوا نص تصريح شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء، المنشور في جريدة «البورص» الذي يدعو فيه الشعب أن يتكلم، وأن يشير بأصبعه إلى كل فساد في الدولة، إلى كل ظلم، إلى كل استغلال نفوذ، وأن صاحب الدولة رئيس الوزراء اختار سكرتيره حافظ سري بك ليسقبل أصحاب المظالم، وليرأس المكتب الذي سيحقق فوراً في كل طغيان وفي كل فساد!

ولقد سمعوا في نادي محمد علي ترجمة التصريح عن اللغة الفرنسية ولكنهم يريدون أن يقرأوا التصريح باللغة العربية، يقرأونه مائة مرة. . إن هذا التصريح الخطير سوف يحل مشكلة عبد المتعال، سوف يرد له حقه المغتصب، سيعيد له اسمه، سيعيد له شرفه، سينتزع شركة مصر للبسكويت من العصابة التي استولت عليها، سيعوضهم عن فشل خطتهم بإلغاء حفلة دار الأوبرا!

ولم يجدوا بائع صحف واحداً في الشارع المليء عادة بباعة الصحف. لقد كانت الساعة الحادية عشرة مساء. ورأت سلوى

وهبي بائع صحف نائماً على الرصيف بجوار محل جروبي. فأسرعت نحوه، ودفعته بيدها، فانتفض بائع الصحف مذعوراً، فسألته عن جريدة «البلاغ»، وناولها نسخة من الجريدة وهو يقول:

- بختك من السماء. هذه هي النسخة الأخيرة. لقد نفدت اليوم جميع نسخ الصحف المسائية العربية والفرنسية والانجليزية واليونانية بسبب التصريح الخطير لرئيس الوزراء شفيق باشا فتحي الذي أقسم فيه أن يمسك مكنسة وينظف البلد كله ويكنسه!

واهتز عبد المتعال لما يقوله بائع الصحف. لقد كان يتصور أنه هو وحده الذي فهم مغزى التصريح الخطير. ولكن ها هو ذا رجل الشارع يقرأ ما بين السطور.. رأى.. المقشة.. التي رآها، أحس بأن شيئاً هائلاً قد حدث. إنه يوم قيامة وطني. الحكام النائمون بعثوا فجأة من قبورهم، وأحسوا بأن في كل وزارة علي بابا والأربعين حرامي.. عرفوا أخيراً أن غالب بك مدير شركة مصر للبسكويت موجود في كل مؤسسة، وكل شركة وكل مصلحة!

ووقف الثلاثة تحت فانوس نور، في ميدان سليمان باشا، يقرأون تصريح رئيس الوزراء المنشور في الصفحة الأولى، وبالعناوين العريضة الضخمة، على عرض ثمانية أعمدة! وأخرجت زينب صدقي نظارتها، لتقرأ بنفسها، وعجزت عن أن تقرأ فطلبت من سلوى أن تقرأ لها التصريح وقرأته سلوى بلهجة تمثيلية، بينما كانت زينب تقاطعها بكلمات «يا سلام».. «شيء عظيم».. «مدهش»!

وعندما وصلت سلوى إلى اسم حافظ سري بك، صرخت زينب مقاطعة:

ـ حافظ سري. . حافظ سري. . نني أذكر هذا الإسم جيداً. . إلحقيني يا ذاكرتي. . أنجديني أيتها الذاكرة الخائنة. . نعم، حافظ سري. لقد كان أحد المعجبين بالممثلة المعروفة فاطمة رشدي عندما كنا نمثل معاً في فرقة يوسف وهبي على مسرح رمسيس!

قال عبد المتعال وقد نفد صبره:

ـ لا يهمنا إذا كان معجباً بالممثلة فاطمة رشدي أم المطربة منيرة المهدية. . كل ما يهمنا الآن أنه المكلف بالتحقيق في الفضائح!

قالت زينب غاضبة:

ـ بل هذا أمر مهم جداً. . لقد كان حافظ سري يرسل كل يوم باقة من الورد إلى فاطمة في المسرح، وكان يلهب كفيه بالتصفيق لها، حتى ولو كان دورها جملة واحدة «من الباب أيها المهاب؟» وكنت أسميه المصفق الوحيد الخصوصي لفاطمة رشدي!

قال عبد المتعال في عصبية:

ـ إن الذي يهمنا هو الوثائق الخاصة بفضائح شركة مصر للبسكويت وليس أن حافظ سري من هواة المسرح ومن المعجبين بفاطمة رشدي!

ودفعته سلوى بيدها وقالت:

ـ أنت لا تفهم شيئاً في هذه المسائل. زينب معها حق. إن مصير شركة مصر للبسكويت في يد فاطمة رشدي الآن. كلمة واحدة منها تعيد الحق إلى نصابه. . يجب أن نذهب إلى فاطمة رشدي لتحصل لنا على موعد من حافظ سري بك سكرتير رئيس الوزراء.

قال عبدالمتعال في غضب:

- هل جننت؟ رئيس الوزراء يعلن اليوم الحرب على الفساد، هي الحرب على الوساطة، هي الحرب على السماسرة.. فكيف تريدين مني أن أوسط صديقة حافظ سري لننال حقنا في العدالة؟ إن رئيس الوزراء أعلن أنه سيفتح أبوابه للشعب، بلا وسيط ولا سمسار!

قالت زينب وهي تهز كتفيها:

- تعلمت ألا أصدق لا تصريحات رؤساء الوزارات، ولا وعود العشاق. عندما يقول لي عاشق أنه مستعد أن يضحي بحياته من أجلي، أعرف على الفور أن آخر ما يستطيع أن يفعله من أجلي أن يدعوني لتناول العشاء، وعندما يقول رئيس الوزراء أنه سيفتح أبوابه للشعب، أعلم أنه سيزيد عدد الحراس على بابه ليمنعوا الشعب من الدخول!

وطوى عبد المتعال صحيفة «البلاغ» ووضعها في جيبه بعصبية وقال:

- ولكن هذا التصريح رسمي، تصريح منشور في الصحف العربية والإفرنجية. ولا يمكن أن يكون دعاية أو تهريجاً أو كلاماً في الهواء!

قالت زينب:

- وماذا نخسر إذا استطعنا أن نقنع فاطمة رشدي بأن تحصل لك على موعد في الغد مع حافظ سري، وقبل أن يتزاحم عليه ألوف المظلومين، ويسدوا عليك الطريق؟

ـ ولكن الوقت متأخر الآن، وقد يكون بيتها بعيداً!

ـ إنها تقيم على بعد خطوات من هنا. إنها تسكن مع شقيقتها رتيبة رشدي في عمارة تملكها رتيبة في شارع هنري نوس المتفرع من شارع الأنتكخانة.

وقبل عبد المتعال الإقتراح على مضض. وفجأة توقفت زينب صدقي على ناصية شارع يوسف موصيري المتفرع من شارع الأنتكخانة وقالت:

ـ هل شاهدت جميع المسرحيات التي مثلتها فاطمة رشدي!؟

ـ شاهدت وأنا تلميذ مسرحية أو مسرحيتين!

ـ لو قلت هذا لفاطمة رشدي فسوف تلقيك من النافذة!

ـ إذن من الخير ألا أذهب إليها!

ـ من حسن حظك أنها تقيم في الطابق الأول، ولهذا ستكون الإصابات بسيطة. إن فاطمة فخورة بنفسها لأنها كانت كبيرة ممثلات الشرق. إنها تعتبر نفسها «سارة برنار الشرق» أسوة بأعظم ممثلة مسرحية شهدها المسرح الفرنسي ومسارح العالم في العشرينات. سوف أغششك قبل أن تدخل الإمتحان. سوف أقول لك ما يجب أن تفعله عندما تقابلها. يجب أن تنحني حتى يصل رأسك إلى الأرض.

ـ هل تتصور نفسها ملكة؟

ـ إنها تعتقد أنها أهم من الملكة. يجب أن تقول لها أنك شاهدتها في مسرحية «غادة الكاميليا» وشاهدت سارة برنار، وشاهدت روز اليوسف في هذا الدور، وأنها أعظم منهما ألف مرة!

ـ ولكني لم أشهد لا سارة برنار ولا روز اليوسف. شاهدتك أنت، وأعجبتني جداً!

ـ حذار أن تقول هذا. وإلا فلن تقابل سكرتير رئيس الوزراء.. وإنما ستقابل عزرائيل!

ـ أنا لا أريد أن أكذب!

ـ هذه أكاذيب بيضاء.

ـ أكاذيب على كل حال!

ـ سوف أحصل لك على فتوى من مفتي الديار المصرية، بأن الكذب على النساء حلال.. لو أن كل زوج قال الحقيقة لزوجته لأصبح كل الرجال مطلقين، وكل النساء مطلقات!

وصرخت سلوى في عبد المتعال:

ـ لا تعقد الأمور يا عبد المتعال.. إن فاطمة رشدي ممثلة دائماً، ممثلة على المسرح ممثلة في حياتها الخاصة، ممثلة وهي تأكل، ممثلة وهي تنام، وممثلة وهي تدخل الحمام.. ولكي تقنعها بوجهة نظرك، يجب أن تمثل أيضاً!

ـ أي دور أمثله؟

ـ دور المعجب!

ـ هل تريدين مني أن أقول لها ما قلته لكاميليا؟

ـ فاطمة رشدي لا يهمها إذا قلت لها أنك تحبها، لا تثيرها قبلة من أكبر دون جوان في العالم. إنها تذوب أمامك إذا قلت لها أنك أعجبت برجولتها، وهي تمثل المجنون في رواية «مجنون ليلى».. إذا قلت لها أن طفولتها وبراءتها سحرتك وهي تمثل «النسر الصغير».

إن عبقريتها قد هزتك وهي تمثل «مدام سان جين». هذه امرأة غير عادية. إنها أول وآخر ممثلة في مصر قالت للحب «لا».. المرأة تشعر بأنها أسعد امرأة في العالم عندما تفتح ذراعيها للرجل الذي تحبه، وفاطمة رشدي تشعر أنها أسعد امرأة في العالم عندما يفتح الستار. المرأة تنتشي وتسكر من قبلات الحبيب، وفاطمة رشدي تترنح عندما تسمع تصفيق الجمهور لها.

وتنهدت زينب ثم استطردت:

- المرأة عندما ترى خطاب غرام من رجل تضمه بقوة إلى صدرها وكأنها تضم الرجل لا الورق، وفاطمة لا تضم إلى صدرها إلا مسرحية لها دور ممتاز فيها.. وهي تحتضن ورق المسرحية بجنون كما تفعل العاشقة بالرجل الذي تعبده.. كانت فاطمة في شبابها أجمل ممثلة في مصر! كان أجمل شباب مصر يرتمون تحت قدميها.. كان دون جوانات المسرح المصري يتنافسون عليها. وتركت كل هؤلاء لتحب المخرج عزيز عيد وكان في الحلقة السادسة من عمره وكانت هي في السابعة عشرة من عمرها.. وكان دميم الخلقة، قصير القامة، أصلع الرأس، وجهه مليء بالتجاعيد. ولكن فاطمة لم تر كل هذا، رأت الفنان الكبير فيه، فعشقته. عرفت أن كل امرأة عشقها عزيز صنع منها نجمة مشهورة، فتزوجته. إن هذه المرأة أكبر عاشقة في مصر. ولكنها لم تعشق رجلاً مرة واحدة. كانت تعشق التمثيل. كان التمثيل هو رجلها الذي منحته قلبها وجسدها ودمها وعقلها وكل حياتها.. وقد غدر المسرح بها، كما يغدر الرجال بالنساء. سلبها شبابها وجمالها، ولم يترك لها مليماً تأكل به. وقد تزوجت بعد ذلك من المخرج العبقري كمال سليم، وكان شاباً جميلاً فاتناً، ولكن شبابه

وجماله وفتنته لم تستهوها. وإنما أحبته ليجعل منها ممثلة سينما ناجحة، كما جعل منها عزيز عيد ممثلة مسرح عظيمة!

وضحكت زينب وقالت:

ـ أعرف كاتباً معروفاً عشق فاطمة رشدي. جرى وراءها سنوات. وأخيراً قبلت أن تعطيه موعد غرام. وذهبت إليه في بيته. وحملها فوق ذراعيه إلى مخدعه، وهو ينهال عليها لثماً وتقبيلاً..

وفجأة قفزت فاطمة من المخدع وهي تقول:

انتظر قليلاً حتى أمثل لك مشهداً من رواية «السلطان عبدالحميد»، أو فصلاً من مسرحية «قمبيز» لأمير الشعراء أحمد شوقي بك!

واندمجت فاطمة في التمثيل، وانتقلت من الفصل الأول إلى الفصل الثاني إلى الفصل الثالث، وقد نسيت نهائياً العاشق في الفراش، إنها امرأة ولدت لتمثل، وعاشت لتمثل، وأحبت لتمثل، وتزوجت لتمثل، وتطلقت لتمثل أيضاً!

□ □ □

ووصل الثلاثة إلى شارع هنري نوس، ورفضت زينب صدقي أن تدخل وهي تقول:

ـ فاطمة لا تحبني. وإذا رأتني معكما فستعرف بذكائها على الفور، أن إعجاب عبد المتعال هو دور من تأليفي وإخراجي!

وضغط عبد المتعال على الجرس، وفتحت فاطمة الباب، وما كادت ترى سلوى حتى رحبت بها وهي تقول:

ـ أهلاً بتلميذتي الحسناء!

وقدمت سلوى عبد المتعال لفاطمة وهي تقول:

ـ الأستاذ عبد المتعال محجوب معجب بتمثيلك، وأمنيته أن يراك قبل أن يموت!

وضحكت فاطمة ومدت يدها إلى عبد المتعال وهي تقول:

ـ متى تنوي أن تموت؟

ـ سأموت غداً!

ـ لماذا أنت في عجلة؟

ـ عندي موعد في الآخرة!

ـ في الجنة أم في النار؟

ـ أي مكان في غير هذه الأرض سيكون الجنة لي!

ـ كيف تفكر في الموت ومعك سلوى وهبي؟

ـ سآخذها معي!

قالت سلوى وهي تغمز بعينها:

ـ يريد أن يقول لك: أنني «أموت فيك»!

وأدى عبد المتعال الدور الذي لقنته إياه زينب صدقي بكفاءة أدهشت سلوى وهبي.

وقال عبد المتعال:

ـ لا يمكن أن أنسى دورك في رواية «أنا كارنينا» لتولستوي لقد قرأت القصة فأعجبت بها، وعندما سمعتها من شفتيك حفظتها عن ظهر قلب. رأيتك تمثلين «مجنون ليلى». رأيتك مرة في دور المجنون ومرة في دور ليلى، فلم أعرف أي الدورين أفضل من الآخر، إنك ليلى والمجنون معاً. رأيتك في مسرحيات «بنسلامته بيصطاد» و «حواء» و «غادة الكاميليا» و «النسر الصغير» و «غادة الاندلس» و «٦٧٧ زيتون» و «زليخة» و «مصرع كليوباترا»

ومضت أكثر من عشرين سنة وما زال صوتك يغني في أذني.. بعدك لا يوجد مسرح ولا توجد سينما.. الذي نراه الآن هو «خيال الظل»!

وترنحت فاطمة وهي تسمع هذا المديح، كل كلمات الحب والغزل في قصائد شعراء الحب والغزل ما كانت لتستطيع أن تفعل في فاطمة ما فعلته كلمات عبد المتعال. واغتاظت سلوى من اندماجه، فقرصته في ساقه، وتمنت أن تكون وحدها معه لتنشب أظافرها فيه وتقول: يا كذاب.. بعد هذا تقول أنك لا تحب الكذب ولا تعرف الكذب!

وانتهز عبد المتعال أن فاطمة رشدي قد تخدرت تماماً من كلمات الثناء والإعجاب فطلب إليها عبد المتعال أن تأخذ له موعداً من حافظ بك سري سكرتير رئيس الوزراء.

وتساءلت فاطمة في دهشة:

ـ حافظ سري؟ حافظ سري؟ لم أسمع بهذا الإسم!

ـ إنه كان من أشد المعجبين بك!

ـ لو حفظت أسماء كل المعجبين بي، لوجب أن أحفظ جميع سكان مصر والسودان وتونس والمغرب وسوريا ولبنان والاردن والعراق!

ـ كان حافظ سري يقدم لك باقة من الورد في كل ليلة!

ـ لو تذكرت أسماء من قدموا لي باقات الورد لكان في رأسي مائة دليل تليفون!

ـ لقد كانت زينب صدقي تسميه «المصفق الوحيد لفاطمة رشدي»!

ـ إن زينب صدقي تغار مني دائماً. تذكرت. تذكرت. . إنه شاب طويل القامة أبيض اللون، رياضي الجسم. .

ـ وكان يحبك!؟

ـ كان يعبدني. ولكن ذلك كان منذ أكثر من عشرين عاماً!

ـ الذي عبدك مرة، يجب أن يعبدك دائماً!

ـ أعتقد أن هذا الشاب بالذات لا يمكن أن ينساني!!

قالت سلوى تجاملها:

ـ أظن من ذاق قبلة من شفتي سارة برنار الشرق فلن ينساها أبداً!

ـ للأسف لم أعطه قبلة. . وإنما أعطيته «علقة»!

ـ هل ضبطته مع امرأة أخرى؟

ـ مكث حافظ سري عامين يرسل لي كل ليلة باقة من الورد. . وبعد ذلك انتظرني على باب المسرح وقدم لي نفسه، وطلب أن أذهب إليه في شقته، وعندئذ خلعت حذائي وانهلت به على رأسه!

وانتفض عبد المتعال في مقعده وقال في ذهول:

ـ ضربته بالحذاء!؟

ـ كانت هذه هي طريقتي في الرد على الذئاب!

ـ وماذا فعل بعد ذلك؟

ـ شفي تماماً من الحب!

ـ ومتى حدث هذا؟

ـ منذ أكثر من خمسة عشر عاماً!

ـ لا بد أنه نسي الآن!

ـ الرجل لا يمكن أن ينسى أمرين؛ أول مرة نال فيها قبلة، وأول مرة ضرب فيها بالحذاء، وسوف أثبت لك أنه لم ينس حذائي.

سأتصل الآن به تليفونياً، وأطلب لك موعداً لتقابله!

وفزع عبد المتعال وتوسل إلى فاطمة:

ـ في عرضك يا ست فاطمة. . أتوسل إليك. . أرجوك. . لا أريد هذا الموعد!

ـ لا بد أن أحصل لك على هذا الموعد. ولو تجرأ حافظ سري هذا وادعى أنه نسيني، فسوف أذكره بالحذاء الذي انهلت به فوق رأسه. إنه لا يمكن أن ينسى الشرف الذي أعطيته له عندما ضربته بالحذاء!

ـ إنه الآن سكرتير رئيس الوزراء. . هذا منصب كبير في الدولة، والذين يجلسون على هذا المقعد ينسون دائماً ماضيهم، المقعد ينسيهم أنهم ضربوا ذات يوم بالأحذية والشباشب!

قالت سلوى مقاطعة:

ـ لا يمكن أن ينسوا ذلك لأنهم يضربون الشعب بالأحذية والشباشب دع فاطمة تطلب لك موعداً مع سكرتير رئيس مجلس الوزراء الذي ضربته بالشبشب!

ومدت فاطمة يدها إلى دفتر التليفون لتبحث عن رقم حافظ سري، وجذب عبد المتعال دليل التليفون من يدها، وأراد أن يغير الموضوع فسأل فاطمة:

ـ كم مرة في حياتك الفنية ضربت رجالاً بالحذاء؟

قالت:

ـ الذين يضربون بالأحذية ينسون كم مرة ضربوا الناس بالأحذية. المضروبون وحدهم هم الذين لهم ذاكرة قوية. أذكر أنني

كنت الممثلة الأولى في فرقة يوسف وهبي وذات يوم فوجئت بأحد النقاد الفنيين، إسمه عبد اللطيف سعد، يهاجمني في جريدة «المقطم». وكان الهجوم عنيفاً، قاسياً، مليئاً بالاتهامات الظالمة، الباطلة.. وسألني الصحفيون يوماً هل سأرد على هذا الكاتب؟ فقلت: طبعاً سأرد عليه.. وفي اليوم التالي رأيته يمشي في شارع عماد الدين حيث كانت جميع مسارح مصر الكبرى، وخلعت حذائي وضربته أمام الجماهير بالحذاء على أم رأسه.. ولم يكتب بعد ذلك مقالاً واحداً، لا ضدي، ولا ضد أي فنان آخر. فقد اعتزل الصحافة منذ ذلك اليوم!

ثم التفتت إلى عبد المتعال وقالت:

ـ تأكد أنه عندما يرى حافظ سري الست فاطمة سيرتعد كما أنت ترتعد الآن!

قال عبد المتعال في انفعال:

ـ هذا هو عيب النساء.. المرأة لا تهتم بالنتائج. كل ما يهمها الانتصار الوقتي.. كثير من المعارك خسرتها المرأة لأنها لم تقدر النتائج.. أعرف أنك يا سلوى تفضلين أن نضرب سكرتير رئيس الوزراء بالحذاء، على أن تطهر شركة مصر للبسكويت من عصابة اللصوص!

قالت سلوى ساخرة:

ـ ما أبعد نظركم أنتم أيها الرجال تطرقون الأبواب ثم تقفون حتى يأذن لكم الطغاة بالدخول. المرأة لا تطرق الأبواب، إنها تقتحمها. المرأة لا تعرف اللف والدوران وإنما تؤمن بالخط المستقيم. لو كنت مكانك لذهبت إلى رئاسة مجلس الوزراء وخلعت حذائي وضربت به سكرتير رئيس الوزراء. وعندئذ ستقوم الدنيا

وتقعد، ويسرع الصحفيون الموجودون هناك على صوت صراخ السكرتير. وتتقدم عندئذ بقضيتك، وتنشرها الصحف بالعناوين الضخمة!

ـ وأدخل السجن!

ـ الناس من خوفهم من السجن الصغير يظلون في السجن الكبير!

ـ ولكن حافظ سري لم يسيء إلي حتى أبادره بالعدوان. على العكس، إن رئيس الوزراء يقول في بيانه أنه اختاره للنظر في مظالم الشعب؟

ـ وإذا لم يحقق مظالم الشعب؟

ـ ساعتها أضربه !

ـ لا تضربه هو وإنما اضرب رئيس الوزراء الذي خدع الشعب وكذب عليه!

ـ لا أحد يجرؤ على أن يضرب الوزراء!

قالت فاطمة رشدي :

ـ شجاعتكم أيها الرجال تتأخر إلى الوراء ولا تتقدم إلى الأمام. . منذ أكثر من ستين عاماً خرج الموظفون والجنود إلى ميدان مجلس الوزراء، وانتظروا العربة التي تحمل وزير المالية ووزير الداخلية وانتزعوهما من العربة وضربوهما في الشارع وفي نفس اليوم قدمت وزارة نوبار باشا استقالتها!

□ □ □

خرج عبد المتعال من عند فاطمة رشدي مبهوراً بقوة شخصيتها، بثقتها بنفسها، الفقر والإفلاس والسن والجوع لا تستطيع أن تنسيها

أنها كانت ملكة المسرح المصري في وقت من الأوقات. إنها لا تزال تمثل ولو كان عدد المتفرجين اثنين، هو وسلوى وهبي. لقد أحس في لحظة من اللحظات وهي تتكلم بأنه يريد أن يصفق لها. إن شجاعتها في أنها لا تزال ترى أمامها ألوف المتفرجين يصفقون لها. لا تزال تسمع هتافهم باسمها. كل مكان تجلس فيه هو مسرح، فيه مناظر، فيه ستائر وهي دائماً (البريمادونا)، الممثلة الأولى، سارة برنار الشرق!

قالت سلوى:

كان الشيء الذي يذهل أن هذه المرأة التي كانت أجمل ممثلة في مصر مثلت الحب ولم تعرفه! قامت بأدوار الغانيات ولم تحس مرة بأنها امرأة. ركع ألوف الرجال أمامها ولم تركع أمام رجل واحد. تقمصت شخصيات حقيقية، تخرج كلماتهن عن الحب من قلوبهن لا من شفاههن.. ولقد كانت أمينة رزق تمثل دور العاشقة أمام يوسف وهبي. ولاحظت أن كلمات دورها انقلبت إلى حقيقة. تحول التمثيل إلى جد. أصبحت أمينة مجنونة بيوسف. مكثت ثلاثين سنة تمثل أمامه دور العاشقة وهي تعشقه فعلاً. ولم يخفق قلبها بحب رجل سواه. كانت تعرف أنه تزوج أكثر من مرة وبقيت تعتبره الإله الذي تتعبد له وتصلي.. إنه يخونها وتحبه كانت تعرف أن له عاشقات كثيرات وتعبده. ومن أجله صامت عن جميع الرجال! والمرأة اللعوب فوق خشبة المسرح قد تكون لوحاً من الثلج في فراش رجل تحبه!

وابتسم عبد المتعال ابتسامة خبيثة وقال:

ـ ولكني أشهد أنك ملكة الإغراء في المسرح وفي البيت وفي الشارع!

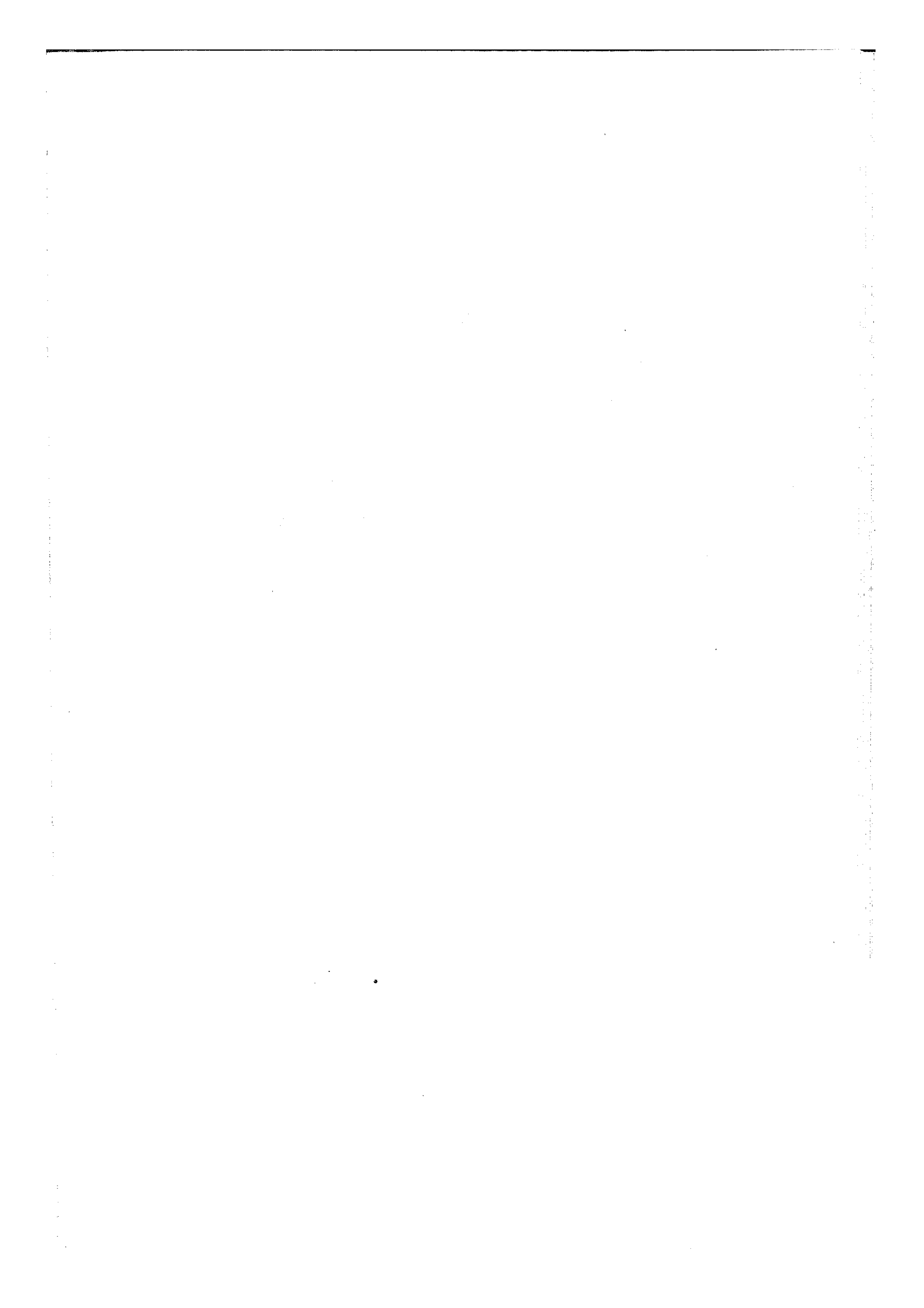
قالت سلوى في أسى: قد يدهشك أن تعلم أنني ممثلة فاشلة في حياتي الخاصة! إنني أفضل أن أمثل مائة رواية على المسرح، على أن أمثل رواية واحدة في فراشي! إنني عندما أخدع الجماهير بتمثيلي أحترم نفسي، وعندما أخدع مجدي باشا الأسيوطي وزير المواصلات بتمثيلي أحتقر نفسي! نحن الغانيات نصاب فجأة بأزمة ضمير في الوقت غير المناسب! أنتم تتصورون أن ضميرنا يموت أثناء صعودنا إلى الفراش ونزولنا من الفراش. قد يدهشك أن تعلم أن ضمير بعض الغانيات يستيقظ من النوم عندما تذهب إحداهن لتنام مع رجل لا تحبه! ألذ متعة في الدنيا تتحول إلى أشغال شاقة! قبلة رجل على شفتي امرأة لا تحبه لها طعم الحنظل! بعضنا يرى في هذه القبلات المبيعة طعم شربة (زيت الخروع) تتجرعها مضطرة تغمض عينيها وهي تتجرعها، ويتصور العاشق الغبي أنني أحلم، بينما أنا أغمض عيني حتى لا أرى وجهه! يخطىء الرجل إذا توهم أن أي امرأة، مهما كانت وضيعة، تستطيع أن تعيش على الحب الصناعي! فالحب الصناعي أشبه بالتنفس الصناعي قد يعيش عليه الإنسان دقائق، ولكنه لا يستطيع أن يعيش عليه طوال حياته!

أعرف راقصات يكسبن مئات الجنيهات كل شهر! يتعرين كل ليلة فوق المسرح، وخارج المسرح! تسكب تحت أقدامهن زجاجات الشامبانيا. تمتلىء بيوتهن بالملابس الثمينة والجواهر الغالية، يتنافس عليهن الأثرياء والكبراء. ومع ذلك إذا جلست مع واحدة منهن وفتحت لك صدرها، لقالت لك أنها تتمنى أن تجد رجلاً واحداً تحبه، وتضحي من أجله بكل هذا المجد وهذه الشهرة وهذه الأضواء حتى إذا كان مرتبه بضعة جنيهات! وسوف تتصور أنهن كاذبات مخادعات ولكن إذا دخلت في قلب أي امرأة تجد أن فيه مكاناً خالياً لرجل يحبها وتحبه. وعندما تجد هذا الرجل تنسى فيه

كل رجال العالم! لقد روت لي مطربة معـروفة أن أحـد الأمراء جن بها ودعاها للإقامة في قصره. وعاشت حياة الملكات.. خدم وحشم وأغـوات! الطعـام يقدم لهـا في أطباق من ذهب. أعـظم خياطـات مصر يحضرن إليها يعرضن عليها آخر موضات باريس.. وقالت لي أنها شعـرت في اليوم الأول أنها أسعـد امرأة في العـالم.. وفي اليوم العاشر أنها أتعس امرأة في العالم، وفي اليوم الحادي عشر هربت من القصر، وذهبت إلى غرفة عازف في فرقتهـا الموسيقيـة، يسكن فوق السـطوح، وبقيت معه شهـراً كامـلاً، شعرت في كـل يوم منـه أنها أسعد امرأة في العالم!

ـ وفي اليوم الحادي والثلاثين عادت إلى الأمير!

ـ لم تعـد لـلأمـير!.. وإنمـا هـرب عـازف المـوسيقى! تعب من العزف شهراً كاملاً بغير انقطاع!



الفصل الثاني والثلاثون

دخل عبدالمتعال بخطوات خائفة إلى غرفة مكتب الأستاذ جمجوم سكرتير سكرتير سكرتير سكرتير حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء!

عندما دخل إلى رئاسة مجلس الوزراء توهم أنه يستطيع أن يدخل مباشرة إلى مكتب حافظ سري بك سكرتير رئيس الوزراء، ثم تبين أن الأمر ليس بهذه البساطة والسهولة واكتشف أن لسكرتير رئيس الوزراء سكرتيراً هو الأستاذ محمد الجنيدي، وللأستاذ الجنيدي سكرتيراً هو الأستاذ عابدين كمال الدين، وللأستاذ كمال الدين سكرتيراً هو الأستاذ جمجوم!

وانحنى عبد المتعال أمام السكرتير رقم أربعة، ورفع يده بالتحية، ولكن السكرتير رقم أربعة لم يكلف نفسه أن يقوم من مقعده، أو يمد يده ليصافح عبد المتعال، واكتفى بأن تطلع إليه من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق، ثم قال له: نعم!؟

قالها السكرتير بنغمة احتقار غريبة، وكأنه يقول له (يلعن أبوك)!

ولم يغضب عبد المتعال لكرامته، فقد تعود أن يلعن

الباشجاويش عبد الجبار أباه وأمه بمناسبة وغير مناسبة طوال مدة إقامته في السجن. وإذا كان قد تحمل لعنات الباشجاويش، فمن باب أولى أن يتحمل لعنات سكرتير سكرتير سكرتير رئيس مجلس الوزراء!

ولم يشأ عبد المتعال أن يتمسك بالرسميات، ويذكر الأستاذ جمجوم بأن دولة رئيس الوزراء أعلن في الصحف أن أبواب مكتبه مفتوحة للشعب، فربما كان المقصود هو مكتب رئيس الوزراء فقط، وليس مكتب سكرتير سكرتير سكرتير رئيس الوزراء!

وقال عبد المتعال بشفتين ترتجفان:

ـ أرغب في مقابلة حافظ بك سري سكرتير رئيس الوزراء.

وبدت الدهشة على وجه جمجوم. وتطلع إلى عبد المتعال من تحت إلى فوق، وكأنه لم يصدق أن الصعلوك ممكن أن يطمع في التشرف بمقابلة الملوك!!

وعاد عبد المتعال يقول إن اسمه عبد المتعال محجوب مدير عام شركة مصر للبسكويت سابقاً!

ورنت كلمة (مدير عام) في أذن جمجوم كالريال الفضي الصحيح، وقفز من مقعده وصافح عبد المتعال باحترام، وطلب منه أن ينتظر دقيقة واحدة ليستأذن عابدين بك سكرتير سكرتير سكرتير رئيس الوزراء!

وبعد نصف ساعة تكرم عابدين بك وأذن لعبد المتعال بالتشرف بمقابلته. وتركه واقفاً أمامه حتى أتم حديثاً تليفونياً كان يروي فيه لصديق له تفاصيل السهرة الحمراء التي أمضاها في الليلة الماضية.

وبعد أن سمع آخر نكتة، وآخر فضيحة في المدينة وضع السماعة على آلة التليفون، ثم تجهم وجهه الذي كان يضحك من بضع ثوان، وسأل عبد المتعال بعدم اهتمام:

- لماذا تريد أن تقابل سعادة حافظ بك سري؟

وأجاب عبد المتعال أنه يريده لأمر هام. وقال الأستاذ عابدين بغطرسة:

- إن المسائل الهامة من اختصاصي. يمكنك أن تخبرني بما تشاء، وسوف أكتب مذكرة بما تقول.

وابتسم عبد المتعال ابتسامة الواثق من نفسه وقال أن المسألة خطيرة جداً ويجب أن يبلغها لحافظ بك سري شخصياً!

وقام عابدين بك في تثاقل وهو يقول أنه سيبلغ الأمر إلى الجنيدي بك سكرتير سكرتير رئيس الوزراء..

وجلس عبدالمتعال ينتظر. ومر ربع ساعة ونصف ساعة وثلاثة أرباع الساعة، وبعد ساعة كاملة دخل الغرفة عابدين بك متهللاً يحمل بشرى أن الجنيدي بك سيستقبله فوراً.. لأن سعادته كان مشغولاً جداً.. فقد كان سعادته يفحص بعض أهم أمور الدولة!

واعتقد عبدالمتعال أن الجنيدي بك هو أحد الذي يعاونون حافظ بك سري في فحص سظالم الشعب التي تحدث عنها بيان رئيس الوزراء، ولكنه فوجىء برؤية باب مكتب الجنيدي بك يفتح وتخرج منه الراقصة كاميليا!

وحملق عبد المتعال في الراقصة المثيرة، فلم يكن يعرف أنها هي أهم أمورالدولة وأن رئاسة مجلس الوزراء فتحت لها فرعاً في شقة

الراقصة كاميليا!

وما كادت كاميليا ترى عبد المتعال حتى تقدمت نحوه وفتحت ذراعيها وعانقته وقبلته وهي تقول له:

- أين كنت يا خائن؟

واضطرب عبد المتعال وهو يستسلم لشفتيها. لقد نسي أنه وعدها بأن يذهب إليها في شقتها. نسي كلمات الغزل التي قالها في حفلة عيد ميلاد زينب صدقي.. نسي الدور الذي طلبت منه سلوى وهبي أن يمثله ليحصل على مفاتيح الشركة.. بعد أن حصل على الوثائق من خزانة الشركة لم يعد في رأسه إلا هذه الوثائق..

وتذكر أنه أشبه برجل وقع على شيك بغير رصيد.. وأنه وقع فجأة بين يدي الدائن.. أسرع يعتذر ويقول أن عملاً هاماً اضطره أن يطير فجأة في نفس اليوم إلى لندن ولم يعد إلا في هذه الساعة فقط. وأكد لها أنه سيتصل بها اليوم تليفونيا لأنه أحضر لها هدية من إنجلترا!

وقبلته كاميليا مرة أخرى، وكأنها تدفع مقدماً ثمن الهدية!

وكان عابدين بك والجنيدي بك الذي خرج في وداع كاميليا ينظران في دهشة إلى عبد المتعال.. كأن قبلات كاميليا رفعته فجأة من طبقة المتسولين إلى طبقة ولاة الأمور، فأقبل الجنيدي بك متهللاً على عبد المتعال يشد على يده مرحِّباً وهو يقول:

- أهلاً أهلاً سعادة عبد المتعال بك.. إنها فرصة سعيدة جداً.. آسف جداً أنني تأخرت عليك!

قال عبدالمتعـال وهو يضحك:

- لم تتأخر مطلقاً.. لـو كنت أعرف أن كـاميليا هي التي كـانت عندك.. لتوقعت ألا تخرج من عندك إلا في اليوم التالي!

قال الجنيدي بك وهو يدفعه أمامه إلى مكتبه:
أظن أن سعادتك صديق قديم لكاميليا هانم!؟

قال عبد المتعال:

- لا.. لم أقابلها في حياتي إلا مرة واحدة!

وفتح الجنيدي بك فمه في ذهول وقال في استغراب:

- مرة واحدة؟ وتقبلك وتعانقك في مجلس الوزراء.. وتقول لـك (يا خائن)!

قال عبـدالمتعال في تواضع:

- هذا سؤال يوجه إلى كاميليا، ولا يوجه إلي!

□□□

كان الأستاذ محمد الجنيدي شاباً لـه عين حـادة، فذة، واضـح القسـمات، رياضي القـوام، ضخم الصوت، أنيق المـلابس، شفته العليـا ناعمـة كشفة امـرأة، وشفته السفـلى غليظة كشفـة الوحش، بـراق العينين، ولكنـه بريق لا يـدل على الـذكاء وإنمـا يكشف عن عينين شهوانيتين ظهرت تحتهما بوضوح خطوط غليظة سوداء.

وفوجىء عبـدالمتعال بمحمد الجنيـدي لا يسألـه عن غرضـه من طلب المقـابلة، وإنما يسـألـه أسئلة دقيقـة عن عـلاقته بـالـراقصة

كاميليا. . وتصور عبد المتعال أن الجنيدي يطارد كاميليا، ويريد منه أن يسأله عن أقصر الطرق إلى روما. . ولم يكن عبد المتعال قد وصل إلى روما، ولكنه تظاهر بأن هذه مسائل لا يجب أن يتحدث فيها!

ورفع الغموض الذي أحاط به عبد المتعال نفسه من شأنه أمام محمد الجنيدي، وراح الأخير يتحدث عن مغامراته النسائية، وعن الممثلات اللائي وقعن في هواه، وأخذ يعدد أسماء كواكب المسرح والسينما اللاتي عشقهن، وإذا به يذكر بين الأسماء اسم الممثلة سلوى وهبي!

وأفاض الجنيدي في وصف فراش سلوى، وفي وصف جسد سلوى وهي عارية من ملابسها، وفي وصف طريقتها في الحب!

ومضى عبد المتعال يستدرجه، والجنيدي يصف ويسهب ويشرح ويحكي كل ما جرى وكان!

واكتشف عبد المتعال أن الجنيدي لم يحدث سلوى وهبي مرة واحدة في حياته. . وأنه كان يصفها كما ظهرت في الأفلام التي قامت بها، ولم يشأ أن يواجهه بهذه الحقيقة، وتركه يروي التفاصيل، وعبد المتعال يتظاهر بالاهتمام والاعجاب بزئر النساء المزعوم!

واكتشف عبد المتعال أن محمد الجنيدي يتعمد أن يتباهى بمغامراته النسائية وبفتوحاته وغزواته في عالم الحب والغرام، وكلما أراد عبد المتعال أن يغير موضوع الحديث إلى موضوع آخر، عاد الجنيدي إلى نفس الموضوع من جديد!

وكان هذا الإلحاح يدهش عبد المتعال، فقد عرف من قراءاته أن زئر النساء يشترط فيه أن يكون رجلاً كتوماً، لا يفضح المرأة التي استسلمت له، ولا يستعرض علاقاته الغرامية أمام الأغراب.. المرأة تعشق أن تتحدث عن الرجل الذي تحبه، وتحتقر الرجل الذي يتحدث عن عشقها له.. يسعدها أن تتباهى به، ويشقيها أن يتباهى هو بها..

المرأة تعتقد أن من حقها أن تخبر صديقاتها بأسرار قلبها، ولا تغفر للرجل إذا باح بأسرار قلبه لأصدقائه! فالحب شركة مساهمة بين رجل وامرأة، مهمة الرجل فيها أن يكتم أسرار الشركة ومهمة المرأة أن تعلن عنها.

وفارس النساء يعرف هذه الحقيقة، ويعرف أن المرأة تنفر من الرجل الذي تتعرى له فيعريها أمام الناس، وتطمئن إلى الرجل الذي تتعرى له فيغطيها أمام الناس!

وكان عبد المتعال يذكر عندما كان طالباً في كلية التجارة، وأمضى الصيف في الاسكندرية، أنه لاحظ في بلاج سيدي بشر شاباً يونانياً تتقاتل من أجله أجمل وأرشق الفتيات المصريات اللاتي يستحممن في هذا البلاج. كان هذا الشاب يسبح مع فتاة شقراء رائعة الجمال، ويختفي بها وراء صخرة، ثم يعود بها إلى الشاطىء ليسبح بعد ذلك مع ملكة جمال سمراء، ويختفي بها وراء الصخرة!

وأراد عبد المتعال يومها أن يعرف سر جاذبية هذا الشاب اليوناني، ولم يكن أجمل شاب على الشاطىء.. كان بين الشبان المصريين الموجودين على البلاج عشرات الشبان الذين يفوقون هذا الشاب رشاقة وأناقة ومركزاً، ولم يكن لأحدهم واحد على عشرة

من حظ هذا الشاب المحظوظ!

واكتشف عبد المتعال يومها أن سر نجاح هذا الدون جوان اليوناني أنه أخرس.. وهكذا تستطيع الفتاة أن تفعل معه ما تشاء، وهي واثقة مطمئنة إلى أنه لن يفتح فمه، ولن يحكي لأحد ما حدث وراء الصخرة!

واستمر هذا الشاب في فتوحاته وغزواته وانتصاراته.. ثم حدثت الفضيحة الكبرى التي هزت البلاج كله.. فقد اكتشفت إحدى الفتيات أن هذا الشاب الأخرس مطرب في كباريه فندق متروبول، وأنه تظاهر أنه أخرس لأنه يعرف عقلية الفتيات المصريات في تلك الأيام!

فما الذي يجعل محمد الجنيدي يروي مغامرات لم تحدث، وغراميات لم تقع!؟

تذكر عبد المتعال فجأة أن ثرثرة الجنيدي أنسته الموضوع الهام الذي جاء من أجله، فانتهز توقفه عن الحديث ليشعل سيجارة، وقال له:

- إنني جئت لمقابلة حافظ بك سري سكرتير رئيس الوزراء في موضوع عاجل!!

- حافظ بك مشغول جداً الآن. يمكن أن تحضر غداً!!

- إنه موضوع هام جداً وسري جداً!!

- حافظ بك في مؤتمر صحفي!!

- ومتى ينتهي هذا المؤتمر؟

- لا أعرف!

- هل المؤتمر عند رئيس الوزراء؟

- لا . . في مكتب حافظ بك!

- سكرتير رئيس الوزراء يعقد مؤتمراً صحفياً؟

- إنه أهم من وزير!

- هل يمكن أن أحضر هذا المؤتمر؟

- مستحيل إنه مقصور على مندوبي الصحف في رئاسة مجلس الوزراء.

وقام محمد الجنيدي من مقعده، إلى باب أخضر، ونظر من دائرة زجاجية في الباب، ثم عاد يقول لعبد المتعال.

- المؤتمر لا يزال مستمراً . . إنه مؤتمر هام جداً!

- لقد سمعت بمؤتمرات صحفية للرئيس روزفلت رئيس الجمهورية الأمريكية، ولكن هذه أول مرة أسمع فيها أن سكرتير رئيس الوزراء يعقد مؤتمراً صحفياً!

- يظهر أنك لا تعيش في هذا البلد. إن حافظ سري بك يعتبر اليوم الرجل الثاني في الدولة. لو أراد أن يصبح وزيراً لدخل الوزارة من وقت طويل. وسوف يجيء يوم يصبح فيه رئيساً للوزارة. !

- وتصبح أنت وزيراً!

- سأكتفي بأن أكون سكرتيراً لحافظ سري باشا رئيس الوزراء.

- هل أصبح باشا؟

- سوف يصبح باشا. لو أراد اليوم أن يصبح باشا لحصل على رتبة الباشوية في الحال. ولكن حافظ بك لا يحب الظهور. إنه رجل متواضع جداً، ومثقف جداً. دولة رئيس الوزراء يقول: لو كان في هذه الدولة خمسة رجال مثل حافظ سري لتغيرت مصر، لأصبحت دولة عظمى!

ـ لم أنل من قبل شرف التحدث إليه!

ـ سوف أجعلك تقابله. إن مقابلته صعبة جداً. ولكني ما كدت أراك حتى أحببتك لله.. أعتقد أن حافظ بك سوف يسعده أن يرى الرجل الذي قبلته الراقصة كاميليا في مجلس الوزراء!

ـ أرجوك لا تخبره بما حدث!

ـ معك حق، إن حافظ بك رجل شديد في كل ما يتعلق بالآداب العامة والأخلاق والفضيلة..!

ـ إذن سوف يغضب إذا علم أنك استقبلت الراقصة كاميليا في مكتبك وبقيت معها، بعد أن أضأت اللمبة الحمراء!

ـ لن يغضب فقط، بل سيثور!!

ـ إذن، فلا تذكر له قبلة كاميليا.. حتى لا أذكر له الساعة التي أمضتها كاميليا في مكتبك!

ـ معك حق.. أنت رجل لماح فعلاً.. لو ذكرت أمامه موضوع القبلة لوقعت في شر أعمالي.. إنه رجل لا يعرف أخاه في مسائل الفضيلة والأخلاق والآداب العامة!

ـ أحمد الله على أن الصحفيين كانوا جميعاً في غرفته عندما قبلتني الراقصة كاميليا وإلا نشرت الصحف مانشتات تقول (قَبلة على شفتي الراقصة كاميليا في مجلس الوزراء).. وسوف يكون هذا فصلاً بارداً جداً بعد أن نشرت الصحف أمس بيان رئيس الوزراء الذي يعلن فيه الحرب على الفساد!

وقام الجنيدي بك من مكتبه، واتجه من جديد إلى الباب الأخضر الذي يفصل بين غرفته وغرفة حافظ سري بك، وقرب أذنه من الباب وتصنت على الحديث، ثم أشار بيده إلى عبد المتعال أن يجيء إليه، وقال له هامساً: إسمع ما يقوله حافظ بك..

ووضع عبد المتعال أذنه على الباب وسمع صوتاً يقول:

ـ الأمانة! الأمانة! الأمانة. النزاهة! النزاهة.. النظافة! النظافة! النظافة.. الشرف! الشرف! الشرف!.. هذه هي شعارات الدولة منذ اليوم ستطبع لافتات بهذا الشعار، ونلصقها على جدران الوزارات والمؤسسات والشركات.. سنأمر مديري المصانع أن يعلقوها فوق رؤوسهم في مكاتبهم.. سنأمر الإذاعة بألا يغني المطربون والمطربات إلا في هذه المعاني.. سنأمر أن تكون هذه الشعارات هي موضوعات الدروس في المدارس.. لقد أعلنت الوزارة الحرب على الفساد!

وهز عبد المتعال رأسه إعجاباً وهو يسمع هذه الشعارات، وتأكد أن مهمته مع حافظ سري بك أصبحت سهلة جداً!

□□□

كان حافظ سري بك سكرتير رئيس الوزراء، منتفخاً في مكتبه الفخم الكبير، وكان في فمه سيجار طويل، كالسيجار الذي كان يدخنه مستر تشرشل رئيس وزراء بريطانيا وكان ينفض رماد السيجارة على السجادة الانيقة الثمينة التي تغطي أرض الغرفة، متجاهلاً منفضة السجائر الفضية التي كانت فوق مكتبه، وكان ينقل عينيه بين دوائر الدخان المتصاعدة إلى سقف الغرفة، وبين وجوه مندوبي الصحف الذين انكبوا على أوراقهم يسجلون فيها (الدرر) التي تتناثر من فم السكرتير الخطير!

وكان حافظ بك رجلاً مفتوناً بنفسه، يهتم بوسامته وأناقته وقيافته. يمضي أمام المرآة أكثر مما يمضي مع أوراق الدولة.. ولقد جاء وقت كان فيه سكرتيرو الوزراء ملوك الأناقة في مصر. البذلة

الأنيقة هي التي تصنع السكرتير الكفء. . الوزراء لا يهتمون برؤية ما في رؤوس سكرتيريهم، ويكتفون بالتطلع إلى قيافة ملابسهم. . الأناقة والوسامة والقيافة هي صفات أساسية في اختيار سكرتير الوزير، فما بالك بسكرتير صاحب الدولة رئيس الوزراء.

وفي أوربا كانوا يسمون سكرتير الوزير (الوزير الصغير) فكم من سكرتيري الوزراء وصلوا بكفايتهم ومقدرتهم وخبرتهم إلى أن يصبحوا من أعظم وزراء العالم. . ولكن أغلب الوزراء في مصر اعتادوا أن يختاروا سكرتيريهم من الشبان التافهين. . بعض الحكام في مصر لا يطيقون الرجال الأقوياء حولهم، يرضي غرورهم أن يكون مساعدوهم من الأصفار التي لا قيمة لها إلا إذا كانت على يمين الوزير، فإذا ابتعدت عنه، كما يبتعد الصفر عن الرقم، عادت لتكون صفراً من جديد!

وكان حافظ بك صفراً صغيراً عندما عمل كاتباً على الآلة الكاتبة في مكتب شفيق باشا فتحي يوم كان وزيراً للمالية منذ بضع سنوات. وكان من الممكن أن يعيش حياته كلها صفراً صغيراً، ويموت صفراً صغيراً، لولا أن فريدة هانم زوجة معالي الوزير اتصلت ذات يوم بالأستاذ عبد الحميد أفندي سكرتير الوزير الخاص في مكتبه بالوزارة، وطلبت إليه أن يترك مكتبه فوراً ويذهب إلى سوق الخضار في روض الفرج ويشتري لها خمس بطيخات!

ولم يستطع عبد الحميد أن يترك مكتبه لأن الوزير كان سيستقبل في ذلك اليوم عدداً من السفراء الأجانب، فكلف حافظ سري الكاتب على الآلة الكاتبة بمكتبه أن يترك الأوراق الرسمية التي ينسخها على الآلة الكاتبة ويستقل سيارة الوزير ويشتري البطيخ المطلوب!

وفرح حافظ بهذا الشرف الرفيع، الذي حظي به دون غيره من موظفي وزارة المالية، وأسرع بسيارة الوزير إلى سوق الخضار واستطاع بفضل (الحداقة) و(الفهلوة) و(اللعب بالثلاث ورقات) أن يقنع بائع البطيخ بأن معالي وزير المالية سيحل مشكلة البائع مع مصلحة الضرائب ـ وكل تاجر في مصر له مشكلة مع مصلحة الضرائب ـ وأن وزير المالية سيأمر القاضي أن يحكم لمصلحة البائع في القضية المرفوعة عليه لمخالفته التسعيرة، وأن وزير المالية سيتحدث مع وزير الداخلية لينقل معاون شرطة قسم روض الفرج إلى الصعيد، جزاء له على أنه صفع البائع على قفاه منذ ثلاث سنوات!

ورفض المعلم عليوة بائع البطيخ أن يتقاضى مليماً واحداً من ثمن البطيخات الخمس، وأصر على أن هذه هدية متواضعة منه لمعالي وزير المالية، وأن النبي قبل الهدية!

ولم يلح حافظ سري كثيراً على بائع البطيخ، فقد لاحظ سعادته أن البائع استطاع أن يشتري وزراء المالية والعدل والداخلية بخمس بطيخات، ولم يشأ أن يحرمه من هذا الهناء!

وذهب حافظ سري بالبطيخات الخمس إلى منزل معالي شفيق باشا فتحي وزير المالية بشارع ابن زنكى بالزمالك. وما كاد البواب يرى البطيخات الخمس، حتى هرول يبلغ فريدة هانم حرم معالي الوزير بقدوم البطيخ. ويظهر أن البطيخة الحامضة التي فوجئت بها الأسرة في اليوم السابق أحدثت أزمة وزارية في بيت الوزير.. ولهذا أصرت فريدة هانم على أن تعاين بنفسها البطيخ، وتشقه أمامه، وتذوقه، لتتأكد أنه (حمار وحلاوة)!

وما كادت فريدة هانم تضع قطعة بطيخ في فمها حتى بدت عليها السعادة وقالت أن طعمه مثل السكر. وكسرت البطيخة الثانية وذاقتها فقالت إنها مثل الشهد.. وكسرت البطيخة الثالثة وذاقتها وقالت إنها أحلى بطيخة ذاقتها في حياتها!

وسألت فريدة هانم حافظ أفندي عن ثمن البطيخة!!

وحار حافظ أفندي ماذا يقول عن ثمن البطيخ الذي حصل عليه مجاناً.. وفكر أن يقول إن ثمن البطيخة عشرون قرشاً، وبذلك يسرق جنيهاً من حرم الوزير، ثم تذكر المثل الذي يقول (إن القناعة كنز لا يفنى) وفضل أن يكتفي بسرقة خمسين قرشاً فقط، فقال إن ثمن البطيخة الواحدة عشرة قروش..

وفتحت فريدة هانم فمها دهشة:

- غير معقول. إن السفرجي اشترى لنا أمس بطيخة قرعاء بعشرين قرشاً!

- عندما علمت أن معالي الهانم تريد بطيخاً ذهبت بنفسي وأخذت أحلى بطيخ في السوق..

وهزت فريدة هانم رأسها إعجاباً بعبقرية حافظ أفندي وبكفاية حافظ أفندي، وبأمانة حافظ أفندي، وبذوق حافظ أفندي، الذي كان لا يناديها إلا (معالي الهانم)!

ثم التفت فريدة هانم إلى حافظ تقول في إعجاب:

- يظهر أن لك خبرة كبيرة في الاقتصاد. هل تخرجت في كلية التجارة بمصر أم لندن؟!

ـ تخرجت يا معالي الهانم في كلية شفيق باشا فتحي . . إنه رجل من أعظم رجال الاقتصاد في العالم، ووجودي في مكتبه جعلني أتشرب من علمه وعبقريته وكفايته ومقدرته . . إن معالي الباشا ليس كلية، إنه جامعة!

ولم يكن حافظ سري قد درس يومها حرفاً واحداً في علم الاقتصاد، ولم يكن قد التقى بشفيق باشا مرة واحدة، ولم يكن يفهم كلمة واحدة من المذكرات الاقتصادية التي كان ينقلها على الآلة الكاتبة.

ولكن فريدة هانم أبلغته أنها اختارته ليكون سكرتيراً خاصاً لشؤون شراء اللحم والخضار وأنها ستبلغ معالي زوجها بهذا التعيين، لإنشاء وظيفة خاصة بهذه المهمة في سكرتارية الوزير!

وعاد الوزير إلى بيته في ساعة الغداء، وأكل البطيخ اللذيذ، وأكل أصابعه مع البطيخ، وقصت فريدة هانم على زوجها قصة الموظف الشاطر الذي لف سوق الخضار، واختار من كل دكان بطيخة، وأثنت على كفاءته الاقتصادية التي جعلته يستطيع أن يشتري بطيخة (شيليان) بعشرة قروش فقط وبأقل من التسعيرة . .

وأعجب وزير المالية بالبطيخ، وأعجب في الوقت نفسه بحافظ سري ووافق على أن يكون حافظ سكرتيراً خاصاً لشؤون شراء اللحم والخضار، وأن ما أظهره حافظ سري من كفاية في شراء البطيخ سوف يؤهله لشق طريقه إلى المناصب العليا في الدولة!

وهكذا أصبح حافظ سري (صبي الحريم) في بيت معالى الوزير وبدأ يصعد سلالم المجد فوق خمس بطيخات . . وارتفع شأنه في مكتب وزير المالية بفضل ما أبداه من كفاءة ومقدرة في شراء اللحم

والخضار. . ولم يعد يوقع باسمه في ساعة الحضور والانصراف وكانت تمر أيام عليه دون أن يذهب إلى مكتبه في الوزارة، فقد كان يقول لرؤسائه أنه مكلف من الوزير بمهام سرية تتعلق بأخطر شؤون الدولة. . ولم يكن حافظ يكذب، فلم يكن في الدولة وقتئذ مهام أخطر من (بطن) معالي وزير المالية!

وبعد أن كان مدير مكتب الوزير لا يناديه إلا (يا حمار) أصبح لا يناديه إلا (يا حافظ بك). !

وكان الوزير يدق الجرس يومياً ويطلب حافظ بك ليكلفه بتأدية مهام تطلبها الست. !

الست تطلب شراء ثلاث مقشات. . الست تريد أن يحمل حذاءها للجزمجي لتصليحه. . الست أمرت أن تأخذ كلبها لولو إلى مستشفى الكلاب. لأن لولو أصيب بإسهال!

ولم يكن حافظ سري يكتفي بحمل (لولو) إلى مستشفى الكلاب، وإنما كان يحرص يومياً بعد ذلك على أن يتصل تليفونياً بمعالي الهانم ليسألها عن صحة لولو بك!

ورفع هذا الأدب الجم حافظ سري في بيت الوزير. إن أحداً من سكرتيريه لم يفكر مرة واحدة في أن يستفسر عن صحة لولو بك!

وإذا كانت البطيخة قد رفعت مقام حافظ درجة في بيت الوزير، فإن اهتمامه بالكلب لولو بك رفع شأنه ثلاث درجات!

وحرص حافظ سري على ألا يسرق مليماً واحداً من ثمن اللحم والخضار متمسكاً بشعاره الذي يقول (القناعة كنز لا يفنى). .

واكتفى بأن يسرق التجار. . يهددهم تارة بأن وزير المالية سوف يخرب بيوتهم، ويمنيهم تارة بما سوف يفعله وزير المالية من أجلهم ويحصل دائماً على خصم ضخم في أسعار المشتريات، ويضع نصف الخصم في جيبه، ويخصم النصف الباقي من الثمن، فيزداد إعجاب معالي الهانم بأمانة وإخلاص وشرف السكرتير الخاص لشؤون اللحم والخضار، ويزداد سخطها على قلة ذمة الطاهي والسفرجي وباقي الخدم اللصوص!

ودخل حافظ إلى قلب شفيق باشا فتحي عن طريق سلم الخدم، وما أكثر الذين وصلوا عن هذا الطريق. . بطون بعض الكبراء هي الطريق الوحيد الذي يوصل إلى قلوبهم. وقد كان قلب شفيق باشا فتحي في معدته. .

وإذا كان لبطيخة الفضل في تعيين حافظ سري صبي حرم الوزير، فإن قفص (المانجو) صنف المنشاوي هو الذي كان له الفضل في حصوله على أول علاوة استثنائية حصل عليها في حياته!

وكانت حفلة العشاء الكبرى التي أشرف على إقامتها لمناسبة زفاف سامية ابنة الوزير هي السبب المباشر في إصرار معالي الهانم على منحه درجة استثنائية بدلاً من علبة الملبس!

والتورتات الفاخرة التي كان يشتريها لمآدب الباشا من محل جروبي أهلته لأن يعين سكرتيراً فنياً لوزير المالية، وهي وظيفة لا يعين فيها إلا المتخرج في جامعة هارفارد بأمريكا، أو جامعة كمبردج في انجلترا. ولكن حافظ سري الذي يحمل شهادة الابتدائية فقط هو الذي حصل على هذه الوظيفة الهامة!

والغريب أن حافظ حصل على هذه الوظيفة بامتحان، فقد أصر

الوزير على أن يجري امتحاناً للمتسابقين وتولى تصحيح الإجابات بنفسه. . وإذا بحافظ سري هو الأول. مع أنه لم يكتب كلمة واحدة في ورقة الإجابة. . كل ما فعله حافظ يوم الامتحان أنه اشترى كيلو بسطرمة من محل لاباس لمعالي الهانم حرم الوزير!

وعندما أصبح شفيق باشا فتحي رئيساً للوزراء عين حافظ سكرتيراً خاصاً لرئيس الوزراء ومنحه الدرجات الاستثنائية، حتى أصبح الآن في الدرجة الأولى. ثم حصل له على رتبة البكوية!

ولقد كان المفروض أن يضع حافظ سري فوق رأسه بغرفة مكتبه صورة بطيخة. . فإن هذه البطيخة فعلت له أكثر مما تفعل شهادات الدكتوراه والماجستير. ولكنه اكتفى بأن يضع لافتة مكتوباً عليها (القناعة كنز لا يفنى)!

□□□

حرص حافظ بك سري وهو يتحدث إلى مندوبي الصحف. . على أن يتكلم كثيراً عن القناعة، وأثرها في تقدم الأمم والأفراد، وأفاض في التحدث عن نفسه، وعن أنه مدين لكل ما وصل إليه من نجاح إلى القناعة!

ولم يكن أحد من مندوبي الصحف في المؤتمر الصحفي يعرف أن حافظ سري مدين لبطيخة. . ولو كان أحد منهم يعرف هذه الحقيقة المذهلة لما جرؤ على أن يسأله فيها، فقد كان حافظ سري هو رئيس الوزراء الصغير، الذي يرفع من يشاء ويذل من يشاء، وهو أذن الرئيس حيناً، ولسانه حيناً، وعينه حيناً، وقلبه حيناً، وبطنه في أغلب الأحيان!

ولو تتبع أحد تصرفات حافظ سري لعرف أنه بدأ حياته بسرقة الخمسين قرشاً من ثمن البطيخ وأصبح الآن يسرق الألوف.. فهو في هذا المنصب الدقيق قادر على أن يؤخر المشروعات ويقدم موعد المشروعات، ويخفي التقارير ويظهر التقارير.. ورئيس الوزراء ليس لديه الوقت الكافي ليقرأ كل ورقة، ويدرس كل ملف، وهو يعتمد اعتماداً كلياً على حافظ سري الذي يتولى تلخيص المسائل الكبرى في سطر أو سطرين.. والذين يدفعون لحافظ سري لا يعرفون ما إذا كانوا يدفعون هذه المبالغ لسكرتير رئيس الوزراء، أو لرئيس الوزراء، أو لجمعية الطفولة التي ترأسها حرم رئيس الوزراء!

ولهذا كان اختيار حافظ سري ليرأس مكتب التحقيقات الذي سيخصص لإنصاف المظلومين، ومطاردة الفاسدين، والضرب على أيدي المرتشين، كان اختياراً صادف أهله.. فليس في الدولة أحد من المسؤولين له مثل هذه الخبرة في شؤون الرشوة والسرقة ابتداء من الخمسين قرشاً.. ولا يوجد موظف في الحكومة يعرف أسماء الراشين في الدولة كما يعرفها حافظ سري.. وإذا كان المثل الشعبي تحدث عن الذين أعطوا القط مفتاح الكرار، فإن أحداً لم يتحدث عن كفاءة حافظ سري في علم الرشوة وفي استغلال النفوذ. ولو أجمع الشعب المصري كله على أن حافظ سري لص كبير، وأثبتوا ذلك بالوثائق والمستندات، لما صدق صاحب الدولة شفيق باشا فتحي هذا الافتراء، بعد أن ثبت له نزاهة وأمانة حافظ سري بك عندما اشترى الخمس بطيخات!

ومن تقاليد الموظف المرتشي أن يخفي جرائمه بالتظاهر بالطيبة، والقلب الكبير، والرحمة بالضعفاء. ولكن حافظ سري كان يختلف

عن المرتشين العاديين، لا وقت عنده للرحمة. كلما ارتفع درجة في سلم الوظائف زاد قسوة وجبروتاً. كان في بداية حياته يؤمن بأن هذا الشعب لا يحكم إلا بالعين الحمراء.. وعندما وصل إلى منصب رئيس الوزراء الصغير أصبح ينادي بأن يحكم الشعب بالحديد والنار والسياط!

ولم يرتكب الشعب المصري أي إساءة ضد حافظ سري، حتى الصحف كانت لا تنشر اسمه إلا بالإجلال والاحترام والتقدير، ولكن كل هذا لم يشفع للشعب عند حافظ بك. كان يتلذذ عندما يستصدر قراراً من رئيس الوزراء بإحالة موظف إلى المعاش.. كان ينتشي وهو يبلغ النائب العام أمراً بالقبض على مظلوم. كان يضحك عندما يقرأ مظلمة أرملة موظف صغير تطلب إعانة لأن زوجها ترك لها سبعة أطفال ومعاشاً قدره ثلاثة جنيهات!

وقد كان سر قوة حافظ بك أنه مريض بالشذوذ. والذين درسوا التاريخ السري للطغاة لاحظوا أنهم مرضى بالشذوذ.. والذين تتبعوا حياة الضباط الذين كانوا يشرفون على معسكرات الاعتقال في أيام النازي. ويتفننون في جرائم التعذيب والتنكيل والقتل الجماعي، اكتشفوا أن هؤلاء العتاة الغلاظ، هم مرضى بهذا الشذوذ.

المصاب بهذا المرض يشعر في قرارة نفسه بذل عجيب، وهؤلاء الشواذ يكرهون الرجال الذين اغتصبوهم، ولكنهم يستمرون في الاستسلام لهم..

واللذة التي يحسون بها لا تنسيهم الهوان الذي وصلوا إليه، فإذا تولوا سلطة يشعرون بأنهم يستردون كرامتهم المهيضة في إذلال

الرجال. وتصبح عملية التعذيب أشبه بعملية جنسية، تعطيهم القسوة نفس اللذة، ويمنحهم عذاب الآخرين نفس النشوة، فهو يعوض الذل الذي يحس به بإذلال الآخرين. فهو يشبه المومس المريضة بمرض سري، يسعدها أن تنشر هذا المرض بين أبرياء، لتنتقم من الرجل الذي أعطاها هذا المرض. فالمريض بالشذوذ، يشعر برغبة عارمة في أن يرى أكثر عدد من الراكعين والساجدين أمام بطشه وطغيانه واستبداده.

لم يستطع حافظ بك أن يتخلص من هذا المرض بعد أن تقدمت به السن، حاول كثيراً فلم يستطع، أحب امرأة فلم يستطع، تزوج، كان الداء قد استبد به وأصبح أقوى من مقاومته.

وكان يرتعش رعباً من أن تتسرب حقيقته إلى الناس، فكان يحرص على أن يكون عشاقه من الأجانب الذين يلتقي بهم في نادي مصر الجديدة، فقد كان يطمئن إلى أن الأجانب لا يثرثرون كما يثرثر المصريون، وعندما قل عدد الأجانب في مصر وقع اختياره على محمد بدوي الجنيدي بطل السباحة في النادي ليكون عشيقه الدائم. وعينه سكرتيراً له (ليكون زيتنا في دقيقنا)..

وفقد الجنيدي بطولة السباحة، وعوضها له حافظ سري بدرجة استثنائية ثم بدرجة ثانية، بعد أن أثبت أنه يعرف أن أهم صفة في السكرتير الخاص هي الكتمان الشديد، وأن علاقته الشاذة برئيسه هي سر من الأسرار العليا!

ولو كان عبد المتعال يعرف هذه الأسرار العليا، لعرف السبب الذي يجعل محمد الجنيدي يتحدث دائماً عن مغامراته المزعومة مع كل ممثلات المسرح والسينما، فهو يقصد بهذا الإلحاح على أنه

كازانوفا الجديد الذي يمتلىء فراشه كل يوم بالفنانات الفاتنات وملكات الجمال. . يقصد أن يستر شذوذه عن الناس!

□□□

وانفض المؤتمر الصحفي، وغادر الصحفيون مكتب حافظ بك سري، مهرولين إلى صحفهم ليبلغوها تصريحات سكرتير رئيس الوزراء، ودخل محمد الجنيدي فبادره حافظ بك قائلاً في زهو:

ـ فاتك نصف عمرك يا محمد. . كنت أتمنى أن تحضر المؤتمر لتسمع حبيبك وهو يتحدث عن الفضيلة والأخلاق والشرف!

ـ لقد سمعتك وأنت تتحدث. . أعجبتني جداً. . حتى تمنيت أن أقبلك!

ـ سوف تقبلني كما تشاء في الساعة السادسة بعد الظهر!

ـ لا أستطيع أن أنتظر حتى السادسة!

ـ إذن فلنجعلها الساعة الخامسة!

ـ يوجد رجل لطيف جداً يريد أن يقابلك. . !

ـ من هو؟

ـ إسمه عبد المتعال محجوب.

واضطرب حافظ سري، واصفر وجهه وقال في رعب:

ـ تقول عبد المتعال محجوب؟

ـ نعم. . هذا اسمه!

ـ مستحيل. . تذكر جيداً!

ـ إنه هو الذي قال لي أن اسمه عبد المتعال محجوب!

ـ أين يجلس؟!

ـ في مكتبي!

وقفز حافظ سري من مكتبه، واتجه إلى النظارة الزجاجية المثبتة في الباب الأخضر الذي يفصل بين مكتبه ومكتب محمد الجنيدي، وتطلع في النظارة، وعاد إلى مكتبه وهو يتعثر في مشيته كأن صاعقة نزلت على رأسه من السماء!

وجلس في مكتبه زائغ العينين، يتطلع إلى وجه الجنيدي، ثم إلى الباب الأخضر، وأخرج سيجارة. وحاول أن يشعلها بولاعته فلم تشتعل، وأسرع الجنيدي وأخرج ولاعته وأشعل سيجارة حافظ، ثم سأله في استغراب:

ـ لماذا اضطربت هكذا؟!

ـ **لا شيء!**

ـ إنني أرى العرق يسقط على وجهك!

ـ **لا شيء.. لا شيء!**

ـ ماذا بينك وبينه؟

ـ **لا شيء!**

ـ قل لي بصراحة هل بينك وبينه علاقة؟

ـ **أقسم لك أنك حبي الوحيد. أقسم لك بشرفي!**

ـ ما دمت أقسمت بشرفك فلن أصدقك!

ـ **أقسم بحبك.. بحياتك عندي!**

ـ إذن لماذا تضطرب كل هذا الاضطراب؟!

ـ **لا أريد أن أراه. قل له أنني مسافر!**

ـ كيف أقول له أنك مسافر وقد رأى الصحفيين يخرجون من مكتبك بعد المؤتمر الصحفي؟

- **اكذب.. قل أي شيء. اخترع أي عذر؟**

- لقد قال إنه جاء ليقابلك لأمر هام جداً!!!

- **قل له أنا لا أعرف رجلاً بهذا الاسم!!**

- إذن سأسأله أنا ماذا يريد!!

- **لا.... لا.... لا تسأله!!**

وتقدم الجنيدي نحو حافظ سري متجهماً، وأمسك بـرباط عنقه، وجذبه بعنف وهو يصيح فيه بغضب:

- قل بصراحة.. لا تكذب؟ أنا أعرفك عارياً على حقيقتك.. لن تخدعني.. هذا الرجل كان صديقك قبلي!

- **هذا ليس وقت الغيرة يا جنيدي يا حبيبي!**

- إذن ما هي الحقيقة؟

- **مصيبة.. مصيبة كبرى!**

الفصل الثالث والثلاثون

لم يكن حافظ سري الذي قابل مندوبي الصحف في مؤتمره الصحفي، هو حافظ سري الذي يدخل الفيلا التي يقيم فيها بشارع البارون أمبان بضاحية مصر الجديدة. حافظ الأول كان مرفوع الرأس، منتفخ الأوداج، وحافظ الثاني كان مطأطىء الرأس مكفهر الوجه. حافظ الأول كان مفتوناً بنفسه، فرحاً بشبابه يتحدث وكأن يقول (أنا الدولة والدولة أنا).. وحافظ الثاني مظلم الجبين، محطم القسمات، كأنه زاد في العمر عشرين عاماً في بضع ساعات!

هناك رجال من ذهب يكبرون في المحن ويشعون في الظلام، وهناك رجال من قش يتضاءلون أمام الخطوب، الضربات التي تنهال على رؤوسهم تعيدهم إلى حجمهم الطبيعي. ما أشبههم بالبالونات المنتفخة بالهواء، شكة دبوس واحدة تجعلهم يتضاءلون وينكمشون.. وفي عهود الظلام لا يظهر إلا النكرات، ويختبىء المثقفون وأصحاب الكفايات. الشجعان منهم يدخلون السجون والضعفاء منهم يدخلون الشقوق ولا يبقى فوق المسرح إلا فقاعات الهواء!

ولم يمشِ حافظ سري على قدميه أبداً.. بدأ السير فوق

البطيخات الخمس، وسار بعد ذلك في الحياة وهو يجلس فوق كتفي شفيق فتحي باشا عندما كان وزيراً للمالية، ثم عندما أصبح رئيساً لمجلس الوزراء. وكان يحمل سيف شفيق باشا ويقطع به الرقاب، وكان يستغل اسمه ليجمع الرشاوي، وكان يستخدم نفوذه في بسط سلطانه على الناس!

وهو يدخل اليوم بيته وكأنه يسير على قدميه لأول مرة في حياته. صعد درجات السلم الخشبي الموصل إلى الطابق الثاني وهو يتعثر في خطواته.. مشى يجرجر ساقيه إلى غرفة نومه وكأنه يشيع جنازة ميت عزيز!

استقبلته زوجته مذهولة، فوجئت باصفرار لونه، باختفاء ابتسامته الدائمة التي لا تغادر شفتيه. بدأ يخلع ملابسه في صمت. لم يعانقها ويقبلها كما كان يفعل دائماً عند عودته من الوزارة. لم يقص عليها كالعادة أنباء غزواته وفتوحاته في الدولة. لم يتلفت إلى قميص نومها الوردي الشفاف الذي كان يكشف عن نهديها المتكورين الثائرين المتوثبين.. لم يترنح وهو يشم عطرها الجديد الذي يسكر الأنوف!

شهقت الزوجة في جزع، ووضعت يدها البضة على جبهته تتحسسها وتقول له:

- ماذا حدث يا حبيبي؟ هل أنت مريض؟!

قال حافظ سري وكأنه يتأوه من جرح قاتل:

- ليتني كنت مريضاً!

- ماذا حدث إذن؟

- مصيبة! نكبة! كارثة!

ـ هل استقالت الوزارة؟

ـ مصيبة أكبر!

ـ حدث انقلاب؟!

ـ كارثة أعظم!

ـ رفتوك من الوظيفة؟!

ـ أكبر.. أكبر من كل هذا.. عبد المتعال!

ـ عبد المتعال من؟!

ـ عبد المتعال محجوب.. زوجك.. جاء اليوم إلى مكتبي يطلب مقابلتي!

وانهارت خديجة فوق مقعد بجوارها، كأن صاعقة سقطت فوق رأسها وتركتها جثة بلا حراك!

وبذلت خديجة جهداً لتستعيد أنفاسها، ولتسترد حاسة النطق من جديد.. وتحركت شفتاها وكأنها تبحث عن الكلمات التي ضاعت منها.. وأخيراً قالت في صوت ينتفض رعباً وفزعاً:!

ـ عبد.. عبد.. عبد المتعال؟ مستحيل! مستحيل!

ـ حدث اليوم المستحيل!

ـ لا بد أنه حدث خطأ في الاسم. لا بد أنه عبد المتعال آخر!

ـ هذا ما خطر ببالي في أول الأمر.. ثم تبينت وتأكدت أنه عبد المتعال محجوب، بلحمه ودمه!

ـ هل قابلته بنفسك؟

ـ لم أجرؤ على مواجهته. قلت لسكرتيري الأستاذ الجنيدي أن يطلب إليه أن يحضر غداً!

ـ ربما لم يكن هو عبد المتعال!

ـ لقد نظرت من ثقب الباب في مكتبي. ورأيت عبد المتعال وهو جالس على مقعد في مكتب الأستاذ جنيدي.!

ـ قد يكون الأمر اختلط عليك. قد يكون رجلاً يشبهه.. ثم إنك لم تعرفه من قبل.!

ـ لا يمكن أن أخطىء فيه، لقد مكثت أكثر من سنة، عندما كنت أقيم في الشقة المواجهة لشقتك. وأنا أراقبه كل صباح وهو يخرج من العمارة حتى أدخل عندك في الشقة.. إن صورته مطبوعة في رأسي. ولا يمكن أن أنساه أبداً!

ـ أنت أكدت لي أنك أمرت بإدخاله إلى السجن، وأنه لن يخرج من هذا السجن حياً!

ـ هذا ما أكده لي اللواء شاكر عبد المولى مدير السجن.. لقد تعهد على ذلك بشرفه العسكري!

ـ وكيف جرؤ هذا الكلب أن يتخلى عن تعهداته؟

ـ خلا بنا.. مات اللواء شاكر عبد المولى فجأة!

ـ كنت تقول لي أن اللواء شاكر صديقك الحميم!

ـ خدعني.. لو كان صديقي فعلاً لقتل عبد المتعال قبل أن يموت. أو على الأقل أخذه معه إلى القبر عندما أراد أن يموت!

ـ لا أخلاق. ولا وفاء!

ـ مع أن الله يعلم أنني خدمت شاكر هذا.. أنا الذي جئت له برتبة اللواء التي كان لا يستحقها إلا بعد عامين.. أنا الذي منعت إحالته إلى المعاش عندما ضبطوه يصنع جهاز ابنته في ورشة السجن.. أنا الذي أنقذته من الفصل عندما اتهموه بوضع العصي في أدبار المسجونين.. وبعد كل هذا يستكثر أن يقتل مسجوناً مجرماً.. مسجوناً واحداً من أجلي.. بعد كل هذه الخدمات!

ـ لا بد أنه قليل الأصل.. لو كان في دمه نقطة واحدة من الدم الشركسي لقتل من أجلك مائة رجل لا رجلاً واحداً!

ـ إنها غلطتي.. لقد وضعت ثقتي في رجل لا يستحقها. في

رجل يموت في غير الوقت المناسب. . !

- لماذا لم تتصل بالمدير الجديد وتطلب منه أن يضع عبد المتعال في السجن كما فعل اللواء شاكر؟

- خطرت ببالي فكرة أحسن. طلبت من سكرتيري الأستاذ جنيدي أن يحتفظ عنده في مكتبه بعبد المتعال. واتصلت تليفونياً باللواء القواص مدير السجن الجديد، وقلت له أن دولة رئيس الوزارة علم أن مسجوناً اسمه عبد المتعال محجوب هرب من السجن وأننا قبضنا على هذا المسجون الخطير وسنعيده إلى السجن فوراً. وإذا بمدير السجن يقول إنه ليس في السجن أي مسجون بهذا الاسم. ولم يهرب أي مسجون. وإن سجلات السجن تؤكد أنه لم يدخل السجن أو يخرج منه مسجون اسمه عبد المتعال محجوب. !

- لا بد أن اللواء شاكر كذب عليك عندما قال لك أنه أدخله السجن!

- أعتقد أنه أدخله باسم آخر!

- وكيف أخرجوه من السجن!؟

- لأن البلد أصبح فوضى!

- معنى هذا أنه لم يعد في البلد حكومة!

- ولا ضبط. . ولا ربط!

- وماذا ستفعل؟

- غداً سوف أتخذ اللازم. سأطلب من وزير الداخلية إحالة هذا المدير المهمل إلى المعاش لأنه سمح بهروب مسجون!!

- وماذا تكسب من إحالته إلى المعاش؟ الذي يهمنا هو أن يدخل عبد المتعال إلى السجن من جديد!

ـ وكيف ندخله إلى السجن!!

ـ كما أدخلته في المرة السابقة!

ـ الظروف الآن اختلفت!

ـ الخلاف الوحيد أنك كنت في الماضي متلهفاً على إدخال عبدالمتعال إلى السجن لتتزوج مني. . أما الآن فقد فترت حماستك بعد أن شبعت مني ثلاث سنوات!

ـ أنت تعلمين أنني لم أشبع منك، ولن أشبع منك أبداً!

ـ الرجال يجوعون بسرعة ويشبعون بسرعة!

ـ كيف تقولين هذا، وقد ارتكبت جريمة من أجل حبك!

ـ في الماضي كنت تسمي ما فعلته (مقلباً خفيف الدم) والآن تسميه (جريمة)!

ـ لا تنسي أنني أصبحت الآن رئيس اللجنة التي تقاوم الفساد في الدولة!

ـ كنت تسمي ما فعلته من أجلي (أنبل عمل قمت به في حياتي) والآن تسميه (فساداً)!

ـ أنت لا تفهمينني. !

ـ أنا فهمتك جداً!

ـ أريد أن أقول لك أن قدومه إلى مكتبي وطلبه مقابلتي لأمر هام يدل على أنه عرف أنني تزوجتك. . وإذا أعدناه إلى السجن فقد يثرثر بهذه الحكاية أمام المسجونين والضباط. . وليس من مصلحتي الآن وفي مركزي الدقيق الحالي، أن يمسني غبار، وأن تتطاول الألسنة على سمعتي التي أحرص على أن تكون ناصعة البياض. . فأنت تعلمين أن شفيق باشا فتحي ينوي تعديل وزارته، وهو يفكر في تعييني وزيراً للدولة في مكتبه. . وأي شوشرة على اسمي سوف ينتهزها الراغبون في منافستي على الوزارة

ليضعوا العقبات في طريقي!

ـ كنت تقول لي أنه لا يوجد رجل في مصر يستطيع أن يقف في طريقك!

ـ هذا صحيح، ولكن الحكمة ألا ندخل حرباً بغير داع.. وخاصة إذا كانت هذه الحرب تسيء إلى سمعتي!

وهنا قالت له: !

ـ ألا تريد أن تضحي بمنصبك من أجلي؟!

ـ إني مستعد أن أضحي بحياتي من أجلك، ولكن...!

ـ لكن هذه لا تسمعها المرأة من الرجل إلا عندما يبرد الحب. الرجل في السنة الأولى للحب يعطي المرأة حياته، وفي السنة الثانية يعطيها مرتبه، وفي الثالثة يعطيها ظهره.. يعطيها.. ولكن..!

ـ هذه أول مرة أراك فيها تفقدين أعصابك.. عرفتك دائماً قوية الأعصاب!!

ـ كانت أعصابي قوية عندما كنت أعرف أنك تحبني!!

ـ وما زلت أحبك!

ـ في أول سنة من زواجنا كنت لا تخرج من البيت بعد الظهر إلا مرة واحدة في الأسبوع.. أما الآن فإنك تخرج وحدك كل يوم!

ـ كنت تقولين أنك كرهت عبد المتعال لأنه كان لا يخرج أبداً من البيت!

ـ لأنني كنت لا أحبه!

ـ في تلك الأيام التي كنت لا أخرج فيها من البيت إلا مرة واحدة في الأسبوع، كنت سكرتيراً لوزير المالية.. أما الآن فأنا سكرتير لرئيس الوزراء.!

ـ أنت لا تذهب إلى مكتبك!

ـ إن عملي يستوجب أن أمر على الوزراء في مكاتبهم وبيوتهم

لأبلغهم تعليمات دولة رئيس الوزراء!

ـ كثيراً ما وعدتني أن تصحبني معك إلى السينما، وبعد أن أرتدي ملابسي وأستعد للخروج معك يدق جرس التليفون، وما تكاد تسمع صوت سكرتيرك الجنيدي حتى تقول: «سأحضر حالاً» وتقول لي أنك لن تتأخر سوى ساعة واحدة وتطلب مني أن أجلس وأنتظرك.. وأنتظر الساعات ولا تجيء إلا عند منتصف الليل.. مرهقاً. متعباً، وتريد أن تنام على الفور!

ـ هذه أعمال الدولة يا حبيبتي.. المسائل العليا لا تستطيع الانتظار!

ـ وأنا المسائل السفلى التي تنتظر دائماً!

ـ كنت أتصور أنك ستكونين سعيدة بالمكانة التي وصل إليها زوجك.. لم أتخيل أن تشقى زوجة من نجاح زوجها وتتعذب لأنه يبني لها مجداً!

ـ ما قيمة المجد إذا كنت لا أراك!

ـ أنت الآن تثيرين هذه المسائل التافهة في وقت نواجه فيه مسألة هي حياة أو موت بالنسبة لنا معاً!

ـ أنت الذي لا تريد أن تواجهها!

ـ لو كانت المسألة هي مسألتي وحدي لكانت سهلة جداً!

ـ مسألة من إذن؟

ـ مسألتك أنت.. إن سر فزعي هو خوفي عليك.. أنا لم أرتكب أي جريمة.. لا يمكن إثبات أنني وضعت بريئاً في السجن لأن شاهد الإثبات الوحيد ضدي هو اللواء شاكر عبد المولى مدير السجن وقد مات. ولكن الموقف بالنسبة إليك يختلف، وهو أنك

تزوجت من رجلين في وقت واحد. وهذه جريمة يعاقب عليها القانون!

- أنا لم أتزوجك إلا بعد أن مات عبد المتعال، ونشرت الصحف خبر مصرعه، وشيعت جنازته وانتهت العدة القانونية!!

- المشكلة أنك أنت التي تعرفت على جثته وقلت أنها جثة عبد المتعال محجوب. !

- وأنت مشيت في جنازته!

- مندوباً عن رئيس الوزراء!

- معنى هذا أن الدولة اعترفت أنه مات، وهذا دليل على أنني كنت حسنة النية عندما تزوجتك. !

- ولكن وجود عبد المتعال على قيد الحياة يلغي زواجنا. . !

- كأنك تريد أن تعيدني إلى عبد المتعال وتنهي زواجنا وحبنا!

- حبنا لن ينتهي. . لقد كنت أحبك وأنت زوجة لعبد المتعال. . كنت أحضر إلى شقتك كل يوم. سوف يبقى الوضع كما كان قبل أن نتزوج.

- ألم أقل لك إنك لم تعد تحبني؟ أنت لم تكن تطيق هذا الوضع عندما كنت عشيقتك. . أنت الذي قلت لي أنك تتعذب لأنني أنام مع عبد المتعال في فراش واحد. . أنت الذي أقنعتني بأنه يجب أن نتخلص منه. . أنت الذي اقترحت أن أدس له السم في الطعام وقلت أن الطبيب الشرعي هو أحد رجالك، وعندما رفضت أن أقتله بيدي، وضعت أنت خطة القبض عليه بواسطة صديقك اللواء شاكر عبد المولى. . ماذا حدث بعد ثلاثة أعوام حتى تعود وتقترح الوضع الذي كنت ترفضه وتأباه؟

- مستقبلي السياسي. . مركزي كالرجل الثاني في الدولة. . ما

كنت أستطيع أن أفعله بسهولة في وجود اللواء شاكر عبد المولى الذي كان من أخلص رجالي، لا أستطيع أن أفعله اليوم مع اللواء القواص الذي أكدت تحرياتي عنه أنه رجل جبان!

ـ إذا كان جباناً فسوف ينفذ أمرك فوراً!

ـ الموظف الجبان هو الذي يرتعش رعباً من القانون، والموظف الجريء هو الذي يدوس على كل شيء.. وهذا هو السبب الذي جعلني أقرر أن أطلب إحالته إلى المعاش وأعين بدلاً منه مديراً جريئاً يدوس على كل شيء!

ـ وبذلك تنتهي المشكلة!!

ـ بل تبدأ المشكلة.. لأن عبد المتعال عندما دخل السجن للمرة الأولى لم يكن يعرف سبب دخوله.. أما الآن فهو يعرف سر دخوله السجن، وهذا هو الخطر!!

ـ كيف عرفت أنه يعرف!!

ـ لأنه طلب مقابلتي لأمر هام. ورفض أن يذكر لأحد من سكرتيري لماذا يريدني، وقال أن هذا شيء سري جداً.. ولهذا فهمت أنه عرف أنني تزوجتك، وجاء يطالب بزوجته!

ـ إنه رجل قليل الأدب. كيف يجيء يطالب بزوجة في عصمة رجل آخر؟

ـ القانون يعطيه هذا الحق!

ـ أنت أفهمتني دائماً أن سكرتير رئيس الوزراء أهم من القانون!

ـ ولهذا استطعت أن أدخله السجن بلا تهمة، وبلا حكم. ولكنه بعد أن خرج من السجن أصبح من حقه أن يطالب بتطبيق القانون!

- إذن، يجب أن يدخل السجن!

- سوف أدخله السجن. ولكن في هذه المرة يجب أن أدبر له تهمة تجعله لا يخرج من السجن أبداً!

- جريمة عقوبتها الأشغال الشاقة المؤبدة!

- لا.. جريمة عقوبتها الاعدام!

- عرفت الآن أنك تحبني!

□□□

مدت خديجة ذراعيها وضمته إلى صدرها وانهالت عليه بالقبلات..

واقتربا قليلاً قليلاً من الفراش، وارتمت على الفراش وجذبته نحوها..

ودق جرس التليفون، وأمسك حافظ بالسماعة الموجودة بجوار فراشه. وما كاد يسمع الصوت حتى هبَّ من الفراش وهو يقول:

- سأحضر.. سأحضر حالاً.. أرجوك أن تنتظرني.. إياك أن تخرج.. سأحضر بسرعة البرق!

واتجه حافظ إلى دولاب الملابس، وبدأ يرتدي ملابسه، دون أن يلقي نظرة على خديجة الراقدة تنتظره في لهفة بفراشها!

ونظرت إليه خديجة في استغراب. لقد تغير وجهه فجأة.. اختفت نظرات العاشق الولهان. نسي في لحظات الجسد الجائع الذي استلقى على الفراش ينتظره في شوق مجنون!

وسألته وهي تعض على شفتها:

- إلى أين أنت ذاهب!

ـ إلى دولة رئيس الوزراء. . إنه يستدعيني لأمر خطير!!

ـ الصوت الذي كان يتحدث الآن ليس صوت رئيس الوزراء إنه صوت محمد الجنيدي سكرتيرك الخاص.

ـ نعم. . نعم. . إنه صوت الجنيدي فعلاً. إنه يقول لي أن رئيس الوزراء يريدني فوراً. !

ـ ولكنك تقول له: إياك أن تخرج!

ـ نعم. . نعم. . قلت له هذا فعلاً. . لأنه كان يريد أن يسبقني إلى بيت رئيس الوزراء!

وأتم حافظ ارتداء ملابسه، واتجه إلى الباب ليخرج على عجل وتوقف فجأة وعاد إلى خديجة وقبلها قبلة سريعة، ثم استدار وأسرع في خطواته خارجاً

□□□

واستلقت خديجة في فراشها ساهمة.

أيكون حافظ يحب امرأة أخرى؟ أيكون يلتقي بهذه المرأة في شقة محمد الجنيدي سكرتيره الخاص؟

وأحست بعقرب الغيرة يلدغها. ارتعدت لهذا الخاطر!

وهبت نسمة هواء، أقفلت بعنف النافذة الخشبية. وأيقظها صوت النافذة من الكابوس الذي تعيش فيه، وقامت من مكانها على الفراش لتثبت النافذة بالمشبك.

ورأت في نافذة عمارة الجيران امرأة أمام مرآتها. ودق قلبها بعنف. أتكون هذه الجارة هي المرأة التي انتزعت منها قلب حافظ؟

وراقبتها وهي تتعطر، وملأت خياشيمها رائحة تشبه الغازات الخانقة!!

ما الذي يمنع حافظ من أن يعشق هذه الجارة الحسناء كما عشقها؟ لقد كانت وهي تسكن مع زوجها عبدالمتعال، فوق الشباك تنظفه، وبدأ يغازلها، وأقفلت النافذة في وجهه، ثم عادت تنظر إليه من وراء خشب النافذة. ووجدته لا يزال واقفاً يبتسم.. وأرضى غرورها أن هذا الشاب الأنيق يغازلها.. ومضت ترقبه. رأته أنيقاً جداً. وقارنت بينه وبين زوجها عبدالمتعال الذي لا يعنى بملابسه. بهرها شعره الأشقر اللامع وتذكرت باحتقار شعر عبدالمتعال (الاكرت) الذي بدأ الصلع يظهر فيه!

وكانت في أول الأمر قد قررت أن تخبر عبد المتعال بقلة أدب جارها، ثم عدلت عن هذا القرار. وكانت لا تتولى تنظيف زجاج النوافذ بنفسها إلا يوماً واحداً في الشهر، هو يوم التنظيف الكبير، وتترك هذه المهمة يومياً لخادمتها.. ولكنها ابتداء من ذلك اليوم كانت تصر على أن تتولى بنفسها تنظيف النافذة التي تطل على غرفة حافظ، صباح كل يوم!

كانت تنتظر بفارغ صبر موعد خروج عبدالمتعال في الصباح لعمله في شركة مصر للبسكويت، ولا يكاد يخرج من البيت، حتى تدخل غرفة نومها، وترتدي أجمل قميص نوم عندها. وتتزين وتتعطر، وتترك شعرها الطويل يسقط خلف ظهرها. ثم تقفل غرفتها بالمفتاح، وتفتح النافذة بهدوء، وتقف فوق مقعد وتبدأ في تنظيف زجاج النافذة!

وتجد دائماً حافظ في انتظارها، وفوق شفتيه ابتسامة فيها حلاوة القبلات..

وأصبحت خديجة تعيش على لقاء النافذة كل صباح. كانا يتحدثان بالإشارة. كانت أصابعهما هي التي تتكلم وتتناجى وترسم القبلات.

ولم تكن خديجة تعرف من قبل لغة الإشارة. إلا أن الحب هو الأستاذ الذي يعلم كل اللغات.. إذا وضعت أصبعها على فمها فهي تقول له (قبلني). وإذا وضعت يدها على قلبها فهي تقول له (أحبك).. وإذا وضعت أصبعها على عينها فهي تقول له (يا عيني).

وكان حافظ خبيراً بلغة الأصابع فقد أفهمها بأصابعه أنه عازب ولم يتزوج، وأنه ابن باشا، وأنه موظف كبير في الدولة، وأن لديه سيارة وأنه يتمناها بالنهار ويحلم بها بالليل، وأنه مفتون بثدييها، مغرم بساقيها، مجنون بشعرها الطويل!

وكانت تتضايق منه عندما يضطر إلى أن يستأذنها ليذهب إلى مكتبه في الوزارة. لقد تمنت لو كان عاطلاً لا عمل له إلا أن يجلس في الشباك!

وكانت تضيق بزوجها عبد المتعال الذي يعود من الشركة في الساعة الثانية بعد ظهر كل يوم ويبقى في البيت إلى صباح اليوم التالي. ولا يطيب له الجلوس إلا في غرفة نومها ذات النافذة التي تطل على حافظ. وهكذا تحرم خديجة من فتح النافذة في العصر وفي المساء.

وكم كانت تلح على عبد المتعال أن يخرج بعد الظهر، أن يزور أصدقاءه، أن يجلس على القهوة، أن يذهب إلى السينما، فيصر على أن يلزم البيت ويجلس بجوارها.

وذات صباح أشار حافظ لها من النافذة إشارة فهمت منها أنه يريد أن يخرج معها بسيارته، وأجابته أن هذا مستحيل، لأنها لا تستطيع أن تخرج بمفردها من بيتها، وأن زوجها لم يسمح لها مرة واحدة بالخروج وحدها، وأنه كان يذهب معها إلى زيارة أبيها، وأنه لا يفارقها عندما تذهب إلى الخياطة أو طبيب الأسنان!

وأصر حافظ على أنه لا بد أن يخرج معها. وقالت له أنها تريد أن يكون حبهما عذرياً، بالإشارات من بعيد لبعيد!

وفي صباح اليوم التالي لم يفتح حافظ نافذته. وبقيت خديجة واقفة عدة ساعات أمام نافذتها تنتظره دون أن يظهر.. وجن جنونها.. عاشت في قلق مرير.. كانت تترك النافذة وتذهب إلى المطبخ تراقب الطعام، ثم تعدو عدواً إلى النافذة لعلها تجد حافظ فلا تجده.. ثم تعود لتستأنف عمل البيت، ثم تهرول عائدة إلى النافذة من جديد.

ألف مرة أطلت من النافذة وألف مرة وجدت نافذته مغلقة.. وأحست كأنها لا ترى نافذة مغلقة فقط، إنما كل أبواب الهناء أغلقت في وجهها. شعاع الشمس لم يعد يدخل مرة واحدة من نافذتها. كأنه كان يدخل من نافذة حافظ.

وفي ذلك اليوم لاحظ زوجها وهي نائمة بجواره أنها لم تكن تستطيع أن تستغرق في النوم دقيقة واحدة وسألها عن سبب أرقها فادعت أنها مريضة، وأصر على أن يصحبها إلى الطبيب، ولكنها لم تكن تريد أن ترى وجه الطبيب، وإنما كانت تريد أن ترى وجه حافظ.

في تلك الليلة شعرت أن المسافة التي بينها وبين عبد المتعال في

السرير أصبحت شاسعة جداً. كأنه ينام في بلد وهي تنام في بلد آخر! وعندما رأته مستغرقاً في النوم أحست لأول مرة في حياتها برغبة شريرة وتمنت أن يبقى نائماً ولا يستيقظ أبداً. تمنت أن يموت. وكأنها تريد أن تعاقب زوجها لأن حافظ سري لم يظهر صباح ذلك اليوم في الشباك!

واستمر هذا العذاب ثلاثة أيام. بقي شباك حافظ طوالها مغلقاً، هل هو مريض؟ هل سافر فجأة؟ كيف يسافر دون أن يخبرها! أم هو غاضب منها لأنها رفضت أن تخرج معه في سيارته؟

وامتلأت عيناها بالدموع.. إنها ثالث مرة في حياتها تبكي! المرة الأولى عندما ماتت أمها وهي طفلة، والمرة الثانية عندما مات والدها مراد بك حسين سكرتير عام وزارة الأشغال، وهذه هي المرة الثالثة. وذهلت أنها تبكي هذه المرة أكثر مما بكت يوم وفاة أمها وأبيها.. كيف تبكي من أجل رجل لا تعرف اسمه، ولم تسمع صوته، ولم تقابله مرة واحدة طوال حياتها!

وخطر ببالها أن تخرج وتذهب إلى شقته وتدق الجرس وتسأل عنه. وترددت أن تفعل ذلك. خافت أن يراها الجيران. خافت أن تجد في الشقة امرأة أخرى! خافت أن يطردها، ويقول لها: بأي حق تجيئين إلى بيتي؟

□□□

ودق جرس التليفون، وأسرعت ترفع السماعة، وسمعت صوتاً يقول لها: **أنا حافظ؟**

وسألته:

ـ حافظ من!

قال ضاحكاً!

ـ حافظ الذي يسكن أمامك!

قالت له ملهوفة:

ـ أين كنت؟!

ـ كنت أعاقبك.. كنت أذلك لأنك حطمت قلبي!

قالت في جزع:

ـ أنا حطمت قلبك؟ أنت قلبي!

قال حافظ في لهجة آمرة:

ـ إذن تعالي إلى شقتي فوراً!

قالت متوسلة:

ـ لا أستطيع أن أخرج وحدي من بيتي؟ أطلب أي شيء آخر وأنا مستعدة أن أفعله فوراً من أجلك!

قال في لهجة حازمة:

ـ إذن سأحضر أنا إلى بيتك.. سأحضر الآن!

صاحت خديجة: !

وماذا أفعل بخادمتي؟

قال حافظ: !

ـ اطرديها.. أعطيها اجازة!

قالت في استسلام:

ـ أمرك..

ثم استردت أنفاسها وقالت:

ـ ولكن سنجلس نتحدث فقط. لن تلمسني. لن تقبلني.

قال حافظ:

ـ أنا لا أريد أن أقبلك، أنا أريد أن أراك فقط!

قالت وقد استردت بعض إرادتها:

ـ يمكن أن تراني من الشباك.

قال غاضباً:

ـ اسمعي يا بت.. كلمة واحدة ولا أقبل مناقشة. سأحضر عندك بعد نصف ساعة!

قالت تتوسل:

ـ اعطني ساعة حتى أرتدي ملابسي..

قال ساخراً:

ـ أنا سأجيء لمقابلتك أنت لا لمقابلة ملابسك!

وقبل أن تفتح فمها وتقول كلمة، وضع حافظ سري السماعة وأنهى المحادثة التليفونية.

وقفت خديجة جامدة في مكانها. في يدها سماعة التليفون، وتحملق في ذهول فيه، تسمع الور المتقطع في السماعة، ولا تصدق أن المحادثة قد انتهت!

وبقيت دقيقة ساهمة.. ثم تذكرت خادمتها، فأسرعت إليها تقول لها إنها أعطتها أجازة هذا اليوم ويجب أن تخرج فوراً، وبدأت تساعد خادمتها في ارتداء ملابسها بسرعة، والخادمة مذهولة بما تفعل سيدتها، وخديجة تقول كلمات غير مفهومة في تبرير هذا التصرف الغريب..

وراحت تدفع الخادمة بيدها حتى خرجت من الباب، ثم أسرعت إلى غرفة نومها تتزين وتتعطر وتستعرض الثوب الذي سترتديه بدلاً من قميص النوم.

فجأة دق جرس الباب. وأسرعت إلى الباب، ثم تذكرت عند

الباب أنها لم ترتد ثوبها بعد، وأرادت أن تعود أدراجها لتغير قميص النوم. فعاد الجرس يدق بشدة.

وتسمرت في مكانها.. وكأنها سمعت في رنين الجرس الأخير لهجة حافظ الآمرة، فهرولت إلى الباب وفتحته!

ورأته أمامها.. فتراجعت إلى الخلف وهي تغطي صدرها المكشوف بيدها، وأغلق هو الباب بهدوء. لم يقل لها كلمة واحدة.. لم يقبلها. لم يلمسها. ومشت أمامه صامتة إلى باب الصالون، وفتحت الباب، وألقى حافظ نظرة ساخرة على أثاث الصالون وقال:

- إنني أريد أن أذهب إلى الغرفة التي فيها النافذة التي تطل على بيتي!

قالت جازعة:

- إنها غرفة نومي!

قال لها في لهجة صارمة:

- أعرف ذلك!

ودفعها أمامه. ومشت أمامه صاغرة إلى غرفة النوم دون أن تعترض أو تفتح فمها. وأغلق الباب خلفه بالمفتاح.. ثم حملها فوق ذراعيه إلى فراشها.

واستسلمت استسلاماً كاملاً.. لم تقاومه وهو يجردها من ملابسها. بحثت عن كلمة «لا» بين شفتيها فلم تجدها. وجدت نفسها تذوب بين ذراعيه. كانت طوال الوقت تحاول أن تغمض عينيها لتوهم نفسها أنها تحلم. ولكنها لم تستطع إغلاق عينيها.. فقد كان حافظ يملأ عينيها. نسيت في هذه اللحظات أنها متزوجة،

وأن من الممكن أن يعود عبد المتعال فجأة ويجدها بين ذراعي رجل غريب!

لم يكن يهمها في هذه اللحظات أن يضبطها عبد المتعال، أن يقتلها رمياً بالرصاص. هذه اللحظات الهنيئة تساوي العمر كله، تساوي أن تموت!

كان قد مضى عليها متزوجة من عبد المتعال ست سنوات. . . ولكن في هذه اللحظات أحست بأن هذا يوم زفافها الأول!

لم يقبلها حافظ في شفتيها. حافظ على وعده الذي قطعه على نفسه، ولكنه قبلها في كل جزء من جسدها. . قبلها في أماكن لم يعرفها عبد المتعال. .

ست سنوات كاملة لم تخلع ملابسها مرة واحدة أمام عبد المتعال كانت دائماً في قميص نومها. لم يطلب منها عبد المتعال يوماً أن تخلع ملابسها. ولكن هذا الرجل الغريب جردها من ملابسها منذ اللحظة الأولى. راح يتغزل في أماكن جسدها لم تكن تتصور من قبل أن فيها كل هذا الجمال. . لقد سمعته يتغزل في ركبتها. . لقد رأى عبد المتعال هذه الركبة ألوف المرات ولم تستلفت نظره. . وإذا بهذا الرجل يكشف كل ما فيها من سحر وجمال من اللحظة الأولى!

بهرها لون جسده الأبيض. إنه في لون اللبن الحليب. . ما أجمل بشرته إذا قورنت ببشرة عبد المتعال السمراء التي تشبه لون القهوة باللبن التي لا تحب طعمها!

هذا الرجل الغريب يعرف أسرار جسد المرأة. . يعرف كل مفاتيحه السحرية. . المرأة كالآلة الموسيقية. . الرجل الفنان وحده

هو الذي يستطيع أن يستخرج منها أعذب الألحان.

أحست في هذه اللحظات أنها أصبحت امرأة أشبه بخزانة حديدية، اللصوص الهواة يحطمون الخزانة ليأخذوا ما فيها، واللصوص المحترفون هم الذين يعرفون الأرقام السرية التي تفتح الخزانة بغير أن يحطموا ما فيها من كنوز!

وأسعدها أن حافظ أعجب بها كما أعجبت به، استمتع بها كما استمعت به.. فالمرأة التلميذة المبتدئة عندما تحب بعنف تتحول بفضل هذا الحب إلى أستاذة. الحب الكبير يعلم أكثر مما تعلم التجارب فكلما أعطت المرأة الرجل تأخذ منه. وعندما تعطيه كل شيء تستمتع بكل شيء.. ومنذ ذلك اليوم أحست خديجة أنها خلقت لتكون عشيقة حافظ سري، ولم تخلق لتكون زوجة عبد المتعال محجوب.

□□□

لم يطق حافظ أن ينتظر أسبوعاً كاملاً حتى يجيء موعد الاجازة الأسبوعية لخادمة خديجة.. ليذهب إلى بيتها..

أحست خديجة أن سبعة أيام هي دهر طويل، وقررت أن تستغني عن الخادمة لكي تستطيع أن تلتقي بحافظ صباح كل يوم ما عدا يوم الجمعة الذي كرهته كراهية شديدة، لأنه اليوم الذي لا يخرج فيه عبد المتعال من البيت.

ورحبت خديجة أن تقوم بكل أعمال الخادمة من كنس ومسح وطهي لكي ترى حبيبها صباح كل يوم واستطاعت أن تقنع عبد المتعال بالاستغناء عن الخادمة!

وتصـورت أنها بذلـك أرضت عشيقهـا المحبـوب، ولكن حـافظ سري لم يكتف بهذا.. بدأ يغار من عبد المتعـال.

ماذا يفعل عبـد المتعال طوال هذه الساعات التي يمضيها معك في البيت كـل يوم؟ لا بـد أنه يقبلك! لا بـد أنه يعـانقك! لا بـد أنـه يستمتـع بك كـما أستمتع بـك.. لا بد أنـه يغـازلـك! لا أطيق أن أتصـور أنه نـائم معك في فـراش واحد! لا أطيق أن يـراك بقميص النـوم! لا أطيق أن أتصور أنـه يجلس معك عـلى الإفـطار والغـداء والعشاء، وأنا محروم من أن أذوق لقمة معك!

كـان حافظ لا يصـدق أنـه أصبـح الملك في حيـاة خـديجـة وأن عبد المتعال قد أصبح «المرمطون» في قصر هواها! إنه يريـد القصر من بـابه.. يـريد خـديجة لمـدة الأربع والعشرين سـاعة لا لسـاعـة واحدة. لا يقبل شريكاً، حتى ولو كان هذا الشريك وهمياً!

وبدأ حافظ يفكر في ضرورة التخلص من عبـد المتعال. وعرض على خديجة أن يجيء من أوربا بنوع من السم، يدس بالتدريج في الطعام، ويقتل بعد مرور شهر كامل، دون أن يترك أثراً.

وفزعت خديجة من الفكرة، ثم خطر بباله أن يستعين بصـديقه اليـوزبـاشي عبـد العـزيـز لبيب ضـابط مبـاحث حلوان وصـديقـه الأميرالاي شاكر عبـد المولى مدير السجن المركزي. وعرض عليهـما فكرة القبض على عبـد المتعال ووضعه، ورحب الاثنان بالفكرة!

ولم يكلفـه تنفيـذ الفكـرة مليمـاً واحـداً. كـل مـا فعله أنـه نقـل عبدالعزيز إلى حرس الـوزارة ومنحه رتبـة الصاغ، ومنـح الاميرالاي شاكر رتبة اللواء. وتم كل شيء طبقاً للخطة الموضوعة.

وعثر عبد العزيز على جثة مجهولة على خط سكة حديد حلوان ووضع فيها أوراق تحقيق شخصية عبد المتعال محجوب.. وتعرفت خديجة على الجثة، وشيعت جنازته في احتفال مهيب سار فيه حافظ سري مندوباً عن صاحب الدولة رئيس الوزراء!

ثم تزوج حافظ من خديجة وعاشا في التبات والنبات!!

ولقد كان الذي تعرفه خديجة من القصة هو نصفها فقط.. أما النصف الآخر فقد أخفاه حافظ عن المرأة التي ضحت بكل شيء من أجله!

لقد جاء حافظ بصديقه العزيز غالب بك واتفق معه على أن يعينه مديراً لشركة مصر للبسكويت خلفاً لعبد المتعال محجوب، بشرط أن يتقاسما معاً ما يسرقه المدير من أموال شركة مصر للبسكويت، وبذلك لم يرث حافظ زوجة عبد المتعال فقط، بل ورث معها عشرات الألوف من الجنيهات، وبذلك أرضى قلبه وجيبه في وقت واحد! لقد كره حافظ سري بك عبدالمتعال قبل أن يعرف خديجة.. كرهه عندما قال «لا» للوسطاء الذين أرسلهم حافظ سري إلى شركة مصر للبسكويت في مقابل تقديم التسهيلات لها، كرهه عندما رفض أن يدفع رشوة لرئيس الوزراء الصغير ثم كرهه أكثر عندما كان يمنع عشيقته من الخروج للقائه!

□ □ □

ما كادت خديجة تنتهي من استعراض قصة حبها لحافظ حتى عادت الشكوك تأكلها، إنها نظرت من النافذة فوجدت جارتها السيدة التي كانت تتزين من دقائق، والتي شكت في أنها على موعد مع زوجها، تغادر العمارة وتستقل سيارة تاكسي؟

لماذا سيارة تاكسي؟ إنها تعرف أن هذه الجارة بالذات تملك سيارة شيفروليه جديدة. ما الذي جعلها تترك سيارتها وتركب سيارة أجرة إلا إذا كانت ذاهبة إلى موعد غرام، وما هي الصدف الغريبة التي تجعل هذه السيدة تخرج في هذه الساعة بعد دقائق من خروج زوجها حافظ سري!

وفكرت خديجة في أن تستقل سيارة أجرة وتذهب إلى بيت محمد الجنيدي سكرتير حافظ وتضبط زوجها مع هذه الجارة الحسناء!

ولم تفكر أكثر من نصف دقيقة، وأسرعت ترتدي ثيابها بسرعة، وكأنها لا تريد أن تترك لزوجها دقائق ليستمتع فيها بالجارة الحسناء.. وقبل أن تغادر غرفة النوم لمحت مسدس زوجها على المائدة. هذا المسدس الذي لا يفارق جيبه أبداً، نسيه في هرولته إلى الموعد وأمسكت المسدس ودسته في حقيبة يدها!

ووصلت إلى بيت محمد الجنيدي. ورأت سيارة زوجها واقفة أمام الباب! الكذاب! لقد قال أنه ذاهب إلى رئيس الوزراء لموعد يتعلق بالسياسة العليا.. إذن هذا الموعد الغرامي مع الجارة الحسناء هو السياسة العليا!

لعله كذب عليها أيضاً عندما ادعى أن عبد المتعال خرج من السجن، وذهب إليه في مكتبه بمجلس الوزراء.

وصعدت وهي ترتجف إلى الطابق الخامس الذي تعرف أن فيه شقة محمد الجنيدي، واتجهت إلى الشقة..

ثم ضغطت على الجرس!

ولم يحضر أحد لفتح الباب!

وضغطت على الجرس مرة أخرى!
ولم يفتح أحد!
وراحت تدق بيدها الباب بعنف.
وفتحت حقيبتها الصغيرة وأخرجت مسدس زوجها!
واستمر الطرق على الباب. !

وبعد دقائق فتح الجنيدي الباب وقد ارتدى روب دي شامبر على اللحم. .

واندفعت خديجة إلى داخل الشقة والمسدس في يدها وهي تقول:

ـ أين المرأة التي هنا؟

قال الجنيدي وهو ينتفض من الرعب:

ـ امرأة؟. . لا توجد أي امرأة!
ـ أين حافظ؟!
ـ إنه ليس هنا!
ـ أنا واثقة أنه هنا. . أرشدني إلى غرفة النوم وإلا سأفرغ في رأسك رصاص مسدسي. .

وأشار الجنيدي وهو يرتعش إلى باب غرفة النوم!

واندفعت خديجة إلى الغرفة وفي يدها المسدس، وتسمرت في مكانها. . فقد وجدت زوجها حافظ سري في فراش النوم مرتدياً قميص نوم. . قميصاً نسائياً، وروباً شفافاً، يكشف عن جسده العاري!



الفصل الرابع والثلاثون

لم تصدق خديجة عينيها، عندما رأت زوجها في هذا الوضع المخزي الشائن. كانت تعتقد طوال هذه السنوات الثلاث أنها تزوجت رجلاً، وها هي تكتشف أنها كانت طول هذا الوقت متزوجة من نصف رجل، بل من امرأة!

لم تكن في حاجة لأن ترى أكثر مما رأت لتعرف الحقيقة التي جهلتها عن الرجل الذي تعيش معه في بيت واحد.. شعرت بالغثيان.. جرت كالمجنونة تعدو إلى خارج شقة الأستاذ جنيدي سكرتير زوجها وعشيقه في نفس الوقت كأنها كانت تهرب من الفضيحة الشنعاء التي رأتها بعينيها.

لم تنتظر بعد أن ضغطت على زر باب المصعد، حتى يصعد المصعد إلى الطابق الذي كانت تقف فيه.. هبطت درجات السلم مهرولة.. كانت تضع يدها على فمها.. لم تكن تريد أن تمنع الصرخات أن تنطلق، وإنما كانت تحاول أن تمنع القيء أن ينطلق من جوفها.

وتوقفت على إحدى درجات السلم وتقيأت. وأحست براحة عندما فعلت ذلك. إنها لم تتقيأ الطعام فقط، وإنما تقيأت كل الحب الذي في قلبها لحافظ سري!

ثم استأنفت هبوطها على درجـات السلم. شعرت أنها أصبحت أخف مما كانت. وعندما وصلت إلى الشـارع استوقفت أول سيـارة أجـرة رأتها أمـامها، وقـالت للسائق بصـوت هامس عنـوان بيتهـا. وجلست في السيارة، وغطت عينيها بكفيها.

لم تكن تحـاول إخفـاء دمـوعهـا. إن دمعـة واحـدة لم تسقط من عينيهـا. كـانت تحـاول أن تخفي عن بصرهـا صـورة زوجهـا. ولم تستـطع كفّاها إخفاء الصـورة البشعة.. اخـترقت الصورة البشعـة كفيها.. أغمضت عينيها فاخترقت الصورة البشعة أهدابها ومـلأت كل عينيها..!

وتمنت خديجة أن تسقط دمـوعها لعـل هذه الـدموع تمسـح هذه الصورة، وخذلتها دموعها، وبقيت الصورة الملعونة تخترق عينيها!

المرأة يمكن أن تعشق مجرماً.. يمكن أن تحب قاتـلاً.. يمكن أن تهوى أفاقاً أو نصاباً.. يمكن أن تعبد لصـاً أو نشالاً.. ولكنهـا لا تستطيع أبداً أن تحب الرجل ـ المرأة!

قد تستطيـع امرأة شـاذة أن تعجب لفترة قصـيرة لهذا النـوع من الشواذ، ولكن هذا الاعجاب المؤقت لا يرتفع أبداً إلى أدنى درجات الحب. ممكن للغانية أن تطفىء النور وتمنـح جسدهـا لرجـل تحتقره ولكنها لا تستطيع أن تبقى بجواره ساعة واحدة إذا طلع النهار!

المرأة تبرر للرجل الذي تحبـه كل خـطيئة، وتغفـر له كـل ذنب، وتنسى له كل إساءة، ولكنها لن تغفر له أبداً أنه ليس رجلاً!

قـد يحدث لبعض النسـاء الشاذات أن تحب امـرأة أخـرى، وأن تعشقها، وأن تنفق عليها أموالها. أما أن تكتشف زوجة بأن الرجل

الـذي تحبه يتحـول إلى غانيـة في فراش رجـل آخر، فهـذا شيء لا تطيقه أي امرأة عادية وترفضه وتأباه!

رجولة الـرجل تهـز المرأة أضعـاف ما يهـزها المجـد أو الشهرة أو الملايين. . ممكن أن يعوضها كل هذا عن جمـال الرجـل أو شبابـه، ولكن كـل هذا لا يمكن أن يعـوضها عن رجـولته. والـرجولـة هنـا ليست الفحـولة، ليست القـوة الجنسية، ليست صفـاتـه البهيميـة، فـالثور أكـثر فحـولـة، من أي رجـل، لم يحـدث أن امـرأة عشقت ثوراً. . ولكن الرجولة كما تفهمها المرأة هي أن تحترم الـرجل الـذي تحبه أن تشعر بجواره أنه قوي وهي ضعيفة، أنه درع يحميها. . أنه جدار تستند إليه. فالـرجل هـو إله المـرأة الصغير، فيـه من صفات الإله القدرة على الخلق، فيه العلو والسمـو، فيه الـرحمة والجـبروت فيه الحنان والقوة. **وقد رأت خديجة الإله يتحطم أمام عينيها!**

□□□

ووصلت خديجة إلى بيتها في ضاحية مصر الجديـدة. وما كـادت تـدخـل من البـاب حتى انـطلقت تصرخ وتبكي وتـولـول، وتلطم خديها، وتمزق ملابسها، وتنزع خصلات شعرها في ثورة مجنـونة. أسرع الخدم على صوت صراخها مذهولين فزعـين! وسألـوها مـاذا جرى؟

فقالت لهم وهي تولول: حافظ أصبـح حفيظة. . حـافظ أصبح حفيظة. . !!

ولم يفهم الخدم ماذا تعني سيـدتهم. . فقد كـانت تصرخ بصوت يفتت الأكباد وتردد اسم «حفيظة. . حفيظة. . حفيظة»!

ثم أسرعت إلى غرفة نومها، وأغلقت بابها بالمفتاح، وانكفأت على الفراش تبكي وتصرخ، وتلطم وجهها في وحشية وجنون.. ليته مات.. ليته قتل في حادث.. أشرف لي ألف مرة أن أكون أرملة رجل من أن أكون زوجة امرأة!

لماذا لم تطلق عليه رصاص المسدس عندما رأته في هذا الوضع الشائن؟ لو أنها وجدت امرأة بين ذراعيه لقتلته من شدة حبها له. أما في تلك اللحظة الشائنة فقد شعرت أن حبها كله قد مات بالسكتة القلبية.. هناك حب من أول نظرة، وهناك كراهية من أول نظرة!

لقد أحبت حافظ سري من أول نظرة عندما رأته واقفاً أمامها في النافذة، وكرهته من أول نظرة عندما رأته في قميص نوم امرأة، وألهمتها غريزة المرأة أن تترجم هذا المنظر إلى حقيقته الشائنة. فهمت في لحظة واحدة العلاقة الشاذة بين زوجها وسكرتيره. فهمت سر التليفونات الغامضة التي كانت تدق فجأة فيندفع حافظ سري كالمجنون إلى خارج البيت. فهمت سر سهره خارج البيت. فهمت سر ملابسه الداخلية العجيبة الشفافة.

ولكنها لم تحس في تلك اللحظة أنها تكرهه فقط، شعرت أنها تحتقره.. شعرت بقرف عجيب.

ومرت على خديجة صور حياتها مع حافظ سري. كيف عميت طوال هذه السنوات عن معرفة هذه الحقيقة البشعة؟ إنه ممثل قدير، استطاع أن يخدعها عن حقيقته. لم تتصور أنها ضحت بزوجها الرجل عبد المتعال من أجل مخلوق مشوه خلقياً وناقص الرجولة. لقد بهرها مظهره الخارجي. كانت تعجب دائماً بعنايته الفائقة

بملابسه. وأرجعت هذا الاهتمام غير العادي إلى أناقته، وإلى أنه من أسرة أرستقراطية عريقة، وليس فلاحاً صعيدياً مثل عبد المتعال!

كانت تتضايق أن عبد المتعال لا يعنى بملابسه. ليس هو الرجل الشيك.. الذي يعرف كيف يختار رباط الرقبة الذي يلائم لون البذلة، ولا الجورب الذي يتلاءم مع رباط الرقبة، وكانت تقارن بين دولاب الملابس الكبير الذي يملكه حافظ، وتزدحم فيه ملابس البونجور والفراك والسموكن، وبذلة التشريفة الموشاة بالقصب ومجموعة البذلات المختلفة، وبين دولاب عبد المتعال المتواضع الذي كان يحوي بذلتين للصيف وبذلتين للشتاء!

وقد توهمت في وقت من الأوقات أن رجولة الرجل تقاس بعدد البذلات التي يمتلكها.. فقد كان حافظ يزورها في بيتها كل صباح ببذلة مختلفة.. وها هي ذي الآن تكتشف أن رجولة الرجل ليست في البذلة، بل هي فيما تحت البذلة!

وتذكرت خديجة أن حافظ كان يستورد من الخارج فانلات وكلسونات حريرية، مطرزة بالورود الصغيرة، بعضها وردي، وبعضها برتقالي، وبعضها أخضر مسخسخ، ولكنها تشبه الملابس الداخلية للنساء.. واعتقدت خديجة، لسذاجتها أن رجال الطبقة الراقية يرتدون هذه الملابس الداخلية «الشفتشي» بينما كان زوجها عبد المتعال يرتدي كلسونات تصل إلى قدميه.

وكانت لسذاجتها تعجب بجسد حافظ الذي يحرص دائما على أن يجعله خالياً من الشعر، ويستعمل «الحلاوة» لإزالة هذا الشعر، وحتى يصبح جلده ناعماً كجلدها بينما كان جسد زوجها مليئاً بشعر كثيف، كأنها غابات تغطي لون بشرته السمراء.. وكانت تتصور

أن حافظ يفعل ذلك لأنه رجل نظيف تربية عثمانلي، وليس فلاحاً قذراً كزوجها الأول عبد المتعال. . **وها هي ذي الآن تعرف لأول مرة، أن قذارة الرجل ليست بما فوق جلده بل فيما تحت جلده!**

وشعرت خديجة برغبة في أن تحطم جميع زجاجات البرفان التي يحرص حافظ على أن يعطر بها جسده. وقفزت من سريرها واتجهت إلى مائدة التواليت وحملت كل زجاجات العطر، وسكبتها في المرحاض وشدت «السيفون». . وأحست براحة كأنها ألقت بحافظ نفسه في المرحاض!

وتلفتت حولها في الحمام، واستقرت عيناها على الصابون المعطر الذي يحرص حافظ على أن يستحم به، وهجمت على الصابون وألقته على الأرض، وداسته بقدمها، حتى تفتت تحت حذائها. وهزت رأسها إعجاباً بما فعلت بالصابون الفاخر الذي يستورده حافظ من فرنسا، وكأنها داست بقدميها فوق حافظ سري نفسه!

كيف لم يستوقفها أن حافظ كان يمضي ساعات طويلة في الحمام؟ وكيف أنه كان يتباهى بأن الصابون الذي يستعمله هو نفس الصابون الذي كانت تستعمله النجمة المشهورة «مارلين ديترتش». كيف لم تشك في أمره وهو يخرج من الحمام مورد الخدين، مصفف الشعر، وهو يتمايل ويتخايل، وكأنه حسناء تخرج من خدرها؟ كيف لم تلاحظ أنه كان يهتم كثيراً بمظهره وبأناقته عندما يخرج بعدالظهر، أكثر مما كان يفعل في الصباح، مع أنه في كل مرة كان يزعم أنه ذاهب إلى مكتبه!

في كل هذه السنوات لم تشك خديجة أن حافظ سري رجل بمعنى الكلمة. . لقد كان يعرف كل أسرار جسدها، وخبايا جمالها،

استطاعت وهي بين ذراعيه أن تشعر برجولته أضعاف ما شعرت مع عبدالمتعال. كان يعرف دائماً كيف يغازلها، كيف يسحرها بكلمات الهوى كيف يقبلها وأين يقبلها.. **ولم تتصور أن الرجل الذي يفعل بها كل هذا ينقلب إلى امرأة ويستسلم إلى رجل آخر، ويتحول من رجل طبيعي إلى رجل شاذ!**

هل من المعقول أن يجتمع في رجل واحد الضدان. فيكون كامل الرجولة معها، وكامل الأنوثة مع رجل آخر ويختلف في كل فراش عن الفراش الآخر؟

□□□

وتذكرت خديجة أنها كانت تلاحظ أحياناً قسوة عجيبة من حافظ.. وكانت لسذاجتها تعتقد أن حبه للبطش والجبروت هو علامة على رجولته. لقد كانت تعجب بهذه القسوة والعنفوان والإرهاب، وكثيراً ما كان يحدثها في نشوة عجيبة عن حفلات التعذيب التي كان يقيمها له صديقه اللواء شاكر عبدالمولى في السجن.

كان يحدث أن مصلحة السجون تأمر بعقاب عدد من المسجونين بجلدهم من أجل ذنوب ارتكبوها داخل السجن وكان اللواء شاكر يدعو صديقه حافظ سري للحضور إلى السجن للتفرج على هذه الحفلات.. وكان حافظ يعود إليها بعد الحفلة في نشوة عجيبة. ويروي لها أن المصلحة أمرت بجلد كل مسجون عشر جلدات ولكن صديقه اللواء شاكر عبدالمولى أراد أن يكرمه لمناسبة تشريفه الحفلة فيأمر بجلد كل مسجون مائة جلدة!

ويروي لها كيف كان المسجونون المجلودون يتلوون من

العذاب، والدماء تنزف من جروحهم. وكانت الآهات التي يطلقونها والسياط تنهال عليهم تطرب حافظ أكثر مما كانت تطربه أغنية «الآهات» التي اشتهرت بها أم كلثوم!

وروى لها حافظ مرة أن أحد المجلودين مات أثناء الجلد، ولكن طبيب السجن الشهم أثبت بأنه مات بأنفلونزا شديدة.. وكان معجباً بهذا الطبيب المزور، لأنه أثبت بهذا التصرف أنه «رجل»!

وقص عليها مرة بأن اللواء شاكر أمر المسجونين المجلودين بأن يستلقوا على ظهورهم، ودعا حافظ بك أن يسير بحذائه فوق بطونهم!

وروى لها مرة أخرى كيف أطلق اللواء شاكر الكلاب البوليسية على بعض المسجونين فأخذت تنهشهم، وأنه أجبر أحد المسجونين على أن يأكل قطعة من لحم المسجون نفسه!

وكان حافظ يروي لها هذه الأحداث بلذة عجيبة، وبنشوة كبيرة وكانت تحس أنه يريدها، عقب كل حفلة تعذيب، أضعاف ما كان يريدها في أي ليلة أخرى!

ولم تكن تعرف أن مناظر الدم وصوت صراخ المجلودين، وتمزيق السياط للحم المسجونين هي التي تثير رجولته، وتحرك رغبته، وكأنه شرب عدة كؤوس من الويسكي، وإنما اعتقدت أنه رجل حريص على احترام القانون، يمقت كل من يخرج على القانون، ويسعده البطش بالمجرمين!!

وفي بعض الأحيان كانت هوايته لعمليات التعذيب وإدمانه على حضور حفلات التعذيب تثير هلعها. كانت تخاف عليه أن ينتقم منه أحد الذين يجلدون أمامه. كانت تخشى عليه من أن يثأر منه

أحد الذين يموتون أثناء التعذيب. وكان حافظ يسخر من فزعها، ويهزأ من خوفها ويؤكد لها أن كل الذين شاركوا في عمليات التعذيب وصلوا إلى أكبر المناصب. وأنهم أثبتوا بالدماء التي سفكوها وبالرؤوس التي هشموها وبالعدالة التي داسوا عليها بالأقدام، إخلاصهم وولاءهم للدولة وكان كل واحد منهم يباهي بما ارتكبه من جرائم، وبعدد الذين قتلهم أو دفنهم أحياء، وكأنه يقول: «هذه أثارنا تدل علينا»!

وكانت خديجة تروي لحافظ قصة جارهم التي طالما سمعتها من والدها المرحوم مراد بك حسين سكرتير عام وزارة الأشغال.

كان يسكن بجوارهم الأميرالاي شاهين بك قائد السواري، وأثناء ثورة ١٩١٩ كان شاهين بك يتعمد تعذيب الشبان الثائرين ضد الانجليز، فكان يربط الشاب منهم في حصانه، ويجري بحصانه في الشارع، ويجر الشاب الثائر خلفه على الأرض إلى أن يلفظ نفسه الأخير، فيربط شاباً آخر في حصانه، ويفعل به ما فعل بالثائر الشاب الأول!

وجن جنون الشعب المصري ضد قائد السواري السفاح. حاول الوطنيون أن يقتلوه، فكان يفلت من رصاصهم، فاتفقوا على أن يقتلعوه من فوق حصانه ويذبحوه في الشارع، فإذا به ينقض على مهاجميه ويقتلهم واحداً واحداً! ورأى الإنجليز أن يرقوه من منصب قائد السواري إلى منصب وكيل مصلحة السجون، ليبعدوه عن عيون الشعب، حتى ينسى الشعب المذابح التي ارتكبها، في بلد وصفه شوقي أمير الشعراء بأنه «ينسى كل شيء بعد حين». . ولكن الشعب لم ينس أبداً شاهين الذي بطش به وقتل شبابه، وجرهم مضرجين بدمائهم وهم مربوطون إلى حصانه!

وفي سنة ١٩٢٤ فرض الشعب لأول مرة في تاريخه وزارة الشعب برئاسة سعد زغلول على الملك فؤاد والانجليز وكان أول قرار أصدره سعد زغلول إحالة الأميرالاي شاهين بك إلى المعاش وأراد الإنجليز أن يساعدوا الرجل الذي عذب المصريين من أجلهم، فعينوا شاهين بك في وظيفة كبيرة بشركة «بوند» الإنجليزية التي كانت تملك أكبر عدد من المخازن في مصر، ومنحوه مرتباً ضخماً!

وانهالت خطابات التهديد من كل أنحاء البلاد، تهدد بإحراق كل مخازن الشركة الإنجليزية إذا لم تطرد شاهين بك فوراً. . وفزع المديرون الإنجليز من تهديد المصريين فأسرعوا بالاستغناء عن شاهين بك بعد تعيينه بيومين اثنين!

وثار اللورد اللنبي، المندوب السامي البريطاني، على مديري شركة «بوند» الجبناء وأمر البنك العثماني الذي يملكه الانجليز بتعيين شاهين بك في إحدى وظائفه، وصدع البنك الإنجليزي بالأمر وانهالت خطابات التهديد بنسف البنك إذا لم يطرد فوراً الرجل الذي كان يعذب المصريين في ثورة ١٩١٩ وصمد المدير البريطاني ٢٤ ساعة أمام خطابات التهديد، وفوجىء في اليوم التالي باستقالة جميع الموظفين المصريين والسعاة المصريين والخدم المصريين من البنك العثماني البريطاني. وقالوا أنهم يخشون على حياتهم من العمل في مكان واحد مع الرجل الذي عذب المصريين. واضطر المدير البريطاني إلى فصل شاهين بك!

ولم تجرؤ أي شركة في مصر على تعيينه، ولم تجرؤ أي حكومة، حتى الحكومات التي اختارها الإنجليز لتحارب سعد زغلول أن تعين شاهين بك في وظيفة!

وفجأة أصيب شاهين بك بمرض غريب لم تعرفه مصر من قبل ذلك.. مرض أذهل الأطباء في ذلك الحين.. كان شاهين بك يستيقظ من نومه فيجد قطعة من جسمه انفصلت عن باقي الجسد.. كأن سيفاً مسحورة اقتطعت جزءاً من جسمه أثناء نومه... سقطت أصابع يديه، ثم أصابع قدميه، ثم كفه، ثم أجزاء من كتفيه ومن ساقيه. وأرسل اللورد اللنبي أكبر أطباء الجيش البريطاني لإنقاذه، ولكنهم وقفوا مشلولين أمام هذا المرض العجيب!

ومات شاهين بك بعد ذلك بوقت قليل، ولم يجد مصرياً واحداً يمشي في جنازته!

وكان حافظ سري يقهقه وهو يسمع خديجة تروي له القصة التي سمعتها من أبيها وكان يقول لها:

- الناس كانوا مجانين في أثناء ثورة ١٩١٩. أما الآن فقد عقل الناس، ولا يهتمون بهذه المسائل التافهة.. والمرض الذي أصيب به شاهين بك هو مصادفة ليس إلا.. وليس من المعقول أن الله أرسل له أحد الملائكة ليقتطع من جسده كل يوم قطعة من اللحم بعدد الذين عذبهم، وربطهم في حصانه.. إن اللواء شاكر عبدالمولى الذي يقوم بعملية التعذيب مضت عليه عشر سنوات وهو يعذب الناس، وصحته جيدة جداً، ويشبه طرزان، وسوف يعيش مائة سنة!

وأخفى عنها حافظ أن اللواء شاكر مات بالسكتة القلبية إلى أن أخبرها بوفاته لمناسبة حضور عبدالمتعال إلى مكتبه. أيصبح مصير حافظ سري مثل مصير شاهين بك. أيجيء يوم تنتزع من جسده

كل يوم قطعة لحم. . ألا تكون إصابته لهذا الشذوذ، هي لعنة من الله لأنه يحرض على تعذيب الناس أم أن هذا التعذيب هو جزء لا يتجزأ من الشذوذ!!

وكان حافظ يقول لها إنه لا يأمر بتعذيب المجرمين فالذين يقولون للحكومة «لا» هم عصاة متمردون وثوار مجرمون، وهؤلاء قتلهم حلال، ويجب أن يكونوا أمثولة للشعب الذي «يخاف ولا يختشيش»!

وكانت خديجة تقتنع بحجج حافظ لأنها كانت تحب، المرأة عندما تعشق تقتنع بقلبها لا بعقلها. الحجة التافهة السخيفة تصبح دليلاً دامغاً وبرهاناً قاطعاً لأنها خرجت من شفتي الرجل الذي تحبه، فإذا توقف الحب تحرك العقل، ورأت السواد فيما توهمته بياضاً، والجريمة فيما تصورته عدلاً، المرأة العاشقة لا تبصر بعينيها، إنما تبصر بعيني الرجل الذي تعشقه. لا تفكر برأسها وإنما برأسه. فهي تذوب في الرجل الذي تحبه، تفني إرادتها في إرادته، تضيع شخصيتها في شخصيته، تحب كل ما يحبه، وتمقت كل ما يكرهه!

المرأة الواحدة ترى الرجل الواحد في صورتين مختلفتين في زمنين مختلفين فهو عظيم عندما تحبه، وهو تافه عندما تزهد فيه. وهو خفيف الدم وهو يحبها، وهو ثقيل الدم عندما يحب امرأة غيرها. وهو أبلغ الرجال عندما يصف جمالها، وهو أسخف الرجال عندما يصف امرأة غيرها!

وأحست خديجة بأنها ترى زوجها حافظ سري في صورة جديدة لم ترها من قبل. لقد كان في قلبها ولهذا عجزت أن تراه على حقيقته، وأصبح الآن تحت حذائها فهي تراه كما هو بوضوح:

حشرة حقيرة، مخلوقاً قذراً، شاهين بك الثاني!

إن الله انتقم منها عندما خانت زوجها عبد المتعال. عندما تصورت أن «النظافة» في الجسد الأبيض، وفي البذلة الأنيقة، وفي الكرافت الوجيه! هذا الفلاح الصعيدي الذي خانته هو أنظف ألف مرة من حافظ سري! هذا العرق الذي كان يتصبب على وجهه وهو عائد من عمله خير ألف مرة من العطور التي يستحم فيها حافظ سري! لقد دفع عبد المتعال ثمن رجولته عندما قال «لا» لشلة سكرتير رئيس الوزراء الذين أرادوا أن يتقاسموا أرباح شركة مصر للبسكويت، الذين طالبوه بأن يدفع «أتاوة» حتى يحتفظ بمقعده. الذي حاولوا إقناعه بأن «ولاة الأمور» أحق بمكاسب الشركة من العمال والموظفين والمساهمين!

لقد توهمت خديجة في أول الأمر أن حافظ سري أدخل زوجها عبدالمتعال إلى السجن لحسابها، لكي يستولي عليها، ثم اكتشفت مع الأيام أن الصفقة الكبرى كانت لحساب حافظ نفسه لقد أراد التخلص من عبد المتعال محجوب ليستولي هو على الشركة التي تكسب ذهباً! وكانت خديجة في شدة حبها لحافظ سري تتصور أن ما فعله بعبدالمتعال هو «عبقرية»! كل الحكومات العبقرية تفعل هذا عندما تريد أن تتخلص من خصومها. تضعهم في السجون. تلفق ضدهم التهم. تجيء بمحاكم صورية تحاكمهم ويصدق السذج والمغفلون أن هذه هي أحكام محاكم، وأن هذا قضاء. بينما هو قضاء استثنائي. فالحاكم هو الذي يأمر بالقبض، وهو الذي يحاكم، وهو الذي يؤلف المحكمة، وهو الذي يصدر الحكم، وهو الذي يصدق! ولقد خدعها حافظ عندما أقنعها بأن زوجها عبدالمتعال غير متجاوب مع الدولة، فالرجل المتجاوب مع الدولة

هو الذي يدفع الرشاوي والعمولات ويقدم الهدايا لولاة الأمور في الدولة. أما المدير الذي يرفض أن يدفع ضرائب الفساد فهو «حنبلي» و«غير منتج» و«دمه ثقيل». . وليس من أهل «الثقة»!

ليتها عرفت أن الرجل الذي يدوس على كل مبدأ من مبادىء الأخلاق من أجلها، لا بد أن يدوسها هي!

هل تطلقه؟ لا. . لن تسعده بطلب الطلاق. يجب أن تذله بأن تبقى معه تتفرج عليه وهي تعرف حقيقته. . تتركه في حيرة لا يعرف ما إذا كانت عرفت حقيقته أم تشك فيها أم تجهلها. . هذا النوع من أنصاف الرجال فيه من الصفاقة ما يجعله يستريح بعض الشيء إذا فهم أقرب الناس إليه حقيقته، وخضعوا أمام الأمر الواقع. ولكنها لا تريد أن تريحه. ستجعله يتعذب بين الشك واليقين، بين أنها ترى كل قذارته، أو بعض قذارته أو أن حبها له أعماها عن أن ترى الفجيعة الكبرى!

وأحست خديجة برغبة جامحة في أن تذل الرجل الذي عبدته ثلاث سنوات. . قررت أن تكون عاهرة مثله سوف تمنح جسدها لأي رجل. . أي رجل في الشارع أي سائق تاكسي. . أي خادم ستقول لكل واحد من هؤلاء الرجال الذين لا تعرفهم أنها صاحبة العصمة حرم حافظ بك سري سكرتير حضرة صاحب رئيس مجلس الوزراء، وأنها تفعل ما تفعل لأن زوجها ليس رجلاً!

ولن تعطي جسدها لرجل إلا مرة واحدة فقط. . إنها تريد أن تفضحه أمام أكبر عدد من الرجال. . كم سمعته وهو يقول إن أهم شيء يهمه في الحياة هو سمعته. سوف تلقي بسمعته في الطين. في أفواه رجال من جميع الطبقات. سوف تجعل الناس

تشير بأصابعها إليه، ويتندرون به، وسوف تحرمه من المجد الذي داس في سبيله على كل القيم وكل الفضائل وكل الأخلاق.

إن في داخل كل امرأة عاقلة امرأة مجنونة. لأن الصدمات القاسية العنيفة تطلق سراح المرأة المجنونة من سجنها، فتنطلق لتهدم وتهشم وتدمر.. وعادة تبدأ بنفسها!

وانتفضت في فراشها، ودقت الجرس لتطلب خادمها النوبي «سيد».. سيكون سيد أول القائمة ستلوث به فراش الزوجية!

وخطر ببالها أن يعود حافظ فجأة من الخارج، ويجد خادمها النوبي بين ذراعيها، ليته يحضر.. ويراها كما رأته.. وفي نفس اليوم بالذات!

ودخلت خادمتها كوثر فقالت لها: !

- **أرسلي إلي سيد السفرجي!**

- لقد خرج من خمس دقائق!

وصرخت خديجة غاضبة كنمرة هائجة:

- **كيف يخرج؟ من أذن له أن يخرج؟ إنني أريده فوراً!**

قالت الخادمة كوثر في فزع:

- إن سعادة البيه قد أمره أن يذهب إلى محل توماس ليشتري صندوق ويسكي!

- **ومتى يعود؟!**

- قال إنه لن يتغيب أكثر من ساعتين!

- **ساعتان؟ لا أستطيع أن أنتظر ساعتين!**

- إنها المسافة بين مصر الجديدة والبلد في المترو!

وصرفت خديجة الخادمة، وضغطت على شفتيها بأسنانها حتى

كادت الشفتان تنزفان دماً!

مسكين سيد.. ليس له حظ. لقد تخيلته منذ لحظات بجسده الابنوسي بين ذراعيها. تصورت دهشته عندما تدعوه إلى غرفة النوم، وتغلق الباب.

ولكنه لن يذوق الجنة إلا مرة واحدة، وبعد ذلك تلقيه في جحيم الحرمان.. ماذا تفعل لو أراد سيد أن يدخل الجنة من جديد؟ سوف تطرده، وتجيء بسفرجي جديد لأنها وضعت قاعدة ألا تمنح نفسها لرجل إلا مرة واحدة.. إن شهوة الانتقام فيها أصبحت أقوى من شهوة الجسد.. هي لا تريد رجلاً، إنما تريد الرجال جميعاً.. تريد أن يعلم جميع الرجال أنهم ناموا في فراش واحد مع حضرة صاحبة العصمة حرم حافظ بك سري سكرتير حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء.

لو استطاعت أن تضع إعلاناً في الصحف يذكر أنها خانت زوجها مع كل رجل في الدولة، لاكتفت بهذا الإعلان واستغنت عن مطاردة كل الرجال.. ولكن الصحف للأسف لا تجرؤ على نشر مثل هذا الإعلان، ولهذ يجب أن تعتمد على نفسها وحدها في الدعاية والإعلام!

ونظرت خديجة إلى ساعتها فوجدت أنها الساعة السابعة مساء. لا بد أن زوجها سيعود إلى البيت هذه الليلة مبكراً على غير عادته لقد عكرت عليه مزاجه عندما فاجأته بقميص النوم النسائي. لا بد أنه مشغول بتدبير كذبة يبرر بها منظره الشائن. لا بد أنه سيعود الليلة حوالي التاسعة مساء!

معنى ذلك أنه لا وقت عندها لتدخل السفرجي سيد إلى

الجنـة. . لا بد أن تخـون حافظ سري الليلة. ستمـوت كمداً إذا لم تخنه هذه الليلة، سوف تنتظر حتى ينام حافظ، وتنسحب بهدوء من الفـراش، وتمشي على أطـراف أصابعهـا، وتخـرج من غـرفـة النـوم متظاهرة بأنها ستدخل الحمام، ستضيء نور الحمام، وتغلق الباب من الخارج، ثم تنزل حافية على درجات سلم الخدم، وتدخل إلى غرفة السفرجي سيد في البدروم. إنه وحـده الذي ينـام في البدروم، أمـا خادمتها كوثر فهي تنام في غرفة فوق السطوح. .

لن تـوقظ سيد من نـومه. ستـدخل في هـدوء إلى غرفـة نومـه. ستجلس على طرف سريره الحديدي. سوف تغمـره بقبلاتهـا سوف يفتح سيد عينيه في دهشة، ويجد سيدته بين ذراعيه.

ولن تفتح فمها بكلمة واحدة. لن تجيب عـلى أسئلته ستستمتـع بذهوله ستتلذذ بدهشته. ثم تنسحب في هدوء خارج غرفته وتصعد إلى غرفة نومها، وترقد بجـوار حافظ، وسـوف تنام مـلء عينيها في هذه الليلة.

وفي الصبـاح سوف تتجـاهل نـظرات سيد وهـو يقدم لهـا طعام الإفطار. . لن يبدو عليها أنها كانت بـين ذراعيه في الليلة المـاضية، سـوف يتصور سيـد أنه كـان يحلم. لن يصـدق أن مـا حـدث مـع سيـدته صـاحبة العصمـة حرم حـافظ بك سري سكـرتير صـاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء كان حقيقة!

وأعجبتهـا الفكرة، ثم عـادت وتذكـرت أن الغرض من الخيـانة ليس إسعـاد سيد السفـرجي، وإنما الغـرض أن يعلم أنـه استمتـع بـزوجة حـافظ بك سري، أن يهمس بهـذا السر في آذان سفرجية الجيران.

وعادت خديجة، وعدلت الخطة، سوف تتركه يتأكد أنها سيدته خديجة وأنها ليست حلماً، وإنما هي بلحمها وعظمها التي كانت تتلوى بين ذراعيه!

وقامت إلى دولاب ملابسها، واختارت قميص نوم شفافاً ومثيراً لترتديه للسفرجي سيد. ثم ترددت أن ترتدي هذا القميص أمام رجل غريب. ولم تكن تقصد بالرجل الغريب السفرجي سيد، وإنما كانت تقصد زوجها حافظ سري. أصبح زوجها في نظرها مخلوقاً غريباً.. لقد رأته اليوم لأول مرة. أحست بأنه بعيد عنها. أجنبي عن حياتها. وخجلت أن ترتدي قميص النوم الشفاف المثير أمام غريب.

واختارت قميصاً طويلاً يغطي ساقيها، ويصل إلى رسغيها، ويخفي صدرها وثدييها. لترتديه أمام زوجها وقررت أن تضع قميص النوم الشفاف المثير الذي يكشف عن كل مفاتن جسدها، في دولاب بالحمام، لترتديه للسفرجي، عندما تنسحب على أطراف أصابعها من غرفة النوم!

□□□

وفي الساعة الثامنة مساء سمعت صوت أقدام زوجها تصعد على درجات السلم، وجلست على مقعد في غرفة النوم.. ودخل حافظ وتقدم نحوها ليقبلها فأبعدته بيدها عن شفتيها..

قال حافظ في صفاقة: !

- ماذا حدث؟ هل أنت غاضبة مني؟!

- لماذا أغضب؟

- لأنك رفضت أن أقبلك!

ـ لأنني مصابة بزكام . . ولا أريد أن تنتقل إليك العدوى!

وكان حافظ يخاف من العدوى، ولهذا تراجع ولم يحاول أن يقبلها . .

وبدأ حافظ يخلع ملابسه صامتاً. وكان يتوقع بين دقيقة وأخرى أن تفتح خديجة الحديث عن المنظر المزري الذي رأته في فراش الجنيدي. ولكنها لم تقل شيئاً، وإنما سألته هل صحيح أنه كلف السفرجي سيد بالذهاب إلى محل توماس لشراء صندوق ويسكي؟

فرد بالإيجاب . .

وضغطت خديجة على الجرس، وجاءت الخادمة كوثر، وسألتها خديجة في اهتمام : !

ـ هل عاد سيد السفرجي؟ !

قالت الخادمة : !

ـ لم يعد بعد!

قالت خديجة والشرر يتطاير من عينيها : !

ـ كيف لم يعد حتى الآن؟

ـ قلت لحضرتك أنه قال سيتأخر ساعتين . . !

ـ لقد مضت الساعتان ! !

ـ لم تمضِ إلا ساعة واحدة!

وصرفت خديجة الخادمة. ونظرت إلى الساعة. وعرفت فعلاً أنه لم تمض إلا ساعة واحدة. كيف شعرت أن هذه الساعة هي ساعتان، بل ثلاث ساعات، بل أربع ساعات؟

واطمأن حافظ إلى أن خديجة مشغولة بشؤون البيت، ومنصرفة عن حكايته ولم يستمر اطمئنانه طويلاً. بدأ صمت خديجة يقلقه.

الصمت يتكلم أحياناً. يصرخ أحياناً، ويدوي أحياناً!

وخيل إليه أنها تقول له إنها عرفت حقيقته أو أنها تحتقره!

واصفر وجهه، وتساقط العرق من وجهه، وخيل إليه أن خديجة صفعته على وجهه، وأن هذا الذي يتساقط من وجهه ليس عرقاً وإنما هو دمه من أثر الصفعة المدوية، وأخرج منديله، ومسح به وجهه، ونظر إلى المنديل، ولم يجد بقعاً حمراء، وإنما وجد قطرات العرق ثم اتجه إلى الحمام!

وسمعت خديجة دقاً على الباب ودخلت الخادمة كوثر وهي تقول:

ـ لقد وصل سيد السفرجي.. هل تريدينه يا سيدتي؟

ولمعت عينا خديجة، وكأن الخادمة زفت بشرى وقالت:

ـ لا.. لا أريده الآن!

وضغطت على كلمة «الآن» وكأنها تريده، تريده، تريده، فيما بعد! ولاحظ حافظ عندما عاد من الحمام أن ابتسامة تملأ وجه خديجة. أنها ازدادت فجأة فتنة وجمالاً. أن عينيها تزغردان.

وفرح حافظ عندما سمع خديجة تنطلق وتغني أغنية ليلى مراد المشهورة «رايداك والنبي رايداك»!

كان حافظ يعرف أن خديجة لا تغني هذه الأغنية إلا عندما تكون سعيدة جداً!

لقد تصور أن هذه الليلة سوف تكون ليلة ليلاء.. سيراها مقطبة الجبين طوال الوقت. ستصفه بأقذر النعوت. ستطلب

الطلاق. ستهدد بأن تفضحه عند رئيس الوزراء، ولكنه لم يتصور أن تغني الليلة أغنية (رايداك . . والنبي رايداك)!

إنه يعرف أن خديجة امرأة ساذجة لا تجارب لها، ولكنه لم يخطر بباله أنها بكل هذه السذاجة، ولا تعرف ما يعني أن ترى زوجها عارياً في قميص امرأة. . لا بد أنها جاءت لتضبطه مع امرأة أخرى، فلما لم تجد امرأة خجلت من نفسها، وفي خجلها من ظنها السيء، لم تلاحظ القميص النسائي الذي كان يرتديه!

لعلها تغني أغنية (رايداك والنبي رايداك) لتعتذر له عن سوء ظنها به بعد أن تأكدت أنه فوق الشبهات!

وعندما جلسا يتناولان معاً طعام العشاء، وجد حافظ زوجته مرحة أكثر من عادتها، تضحك، تبتسم تكاد ترقص وهي جالسة!!

ولم يلاحظ حافظ أن خديجة كانت تتعمد أن تحتك بالسفرجي سيد، في كل مرة ينحني وهو يقدم لها ألوان الطعام. لم يلاحظ أنها كانت تطلب من السفرجي كل دقيقة طلباً مختلفاً لتشم أنفاسه وهو يناولها ما تريد وما لا تريد. . كل الذي لاحظه أن خديجة ازدادت جمالاً، امتلأ وجهها بفرحة غريبة. . لا بد أن هذه الفرحة نتيجة تأكدها من براءته، وإيمانها بإخلاصه، وثقتها في طهارته!

وتمنى لو كانت خديجة لا تشكو من الزكام، وإلا لأخذها بين ذراعيه وأغرقها بقبلاته وضماته.

وصعدا إلى غرفة النوم، وخلع حافظ الروب دي شامبر، ورقد في فراشه يحمد الله على أنه تزوج زوجة غبية إنه يعرف دائماً أن حظه من السماء، ولولا ذلك لما استطاع أن ينجو من كل المخاطر

التي تعرض لها!

وأغلق عينيه وراح في سبات عميق وفوق شفتيه ابتسامة الرضا والغبطة لأنه استطاع أن يستغفل خديجة!

وبقيت خديجة راقدة في فراشها. تظاهرت بالنوم وأغمضت عينيها.. وكانت تفتح عينها اليسرى كل خمس دقائق لتتأكد أن حافظ مستغرق في النوم..

ومضت ساعتان، ثم بدأ يرتفع غطيط حافظ، وخيل لخديجة أن هذا الغطيط هو أجمل موسقى سمعتها طوال حياتها.. كانت عادة عندما تسمع غطيطه توقظه ليعدل رأسه، ويستأنف النوم، ولكنها الليلة تركته يغط كما يشاء.

ثم قامت خديجة بهدوء من الفراش ومشت حافية على أطراف أصابعها، وفتحت باب الغرفة، ثم أدارت رأسها نحو حافظ فوجدته لا يزال مستغرقاً في النوم فأغلقت الباب، وحرصت على ألا يصدر أي صوت من إغلاق الباب..

ونزلت إلى الطابق الأسفل..

وفوجئت بالسفرجي سيد يقفز من فراشه كأن ثعباناً لدغه!
ودفعها بيده وهو يقول:
ـ أستغفر الله.. أستغفر الله عيب يا ست! لا يمكن أن أخون الرجل الذي يطعمني!!

ومشت خديجة إلى غرفة نومها منكسة الرأس..
لقد وجدت (رجلاً) في البدروم.. في الطابق الأسفل!
ولم تجد (رجلاً) في الطابق العلوي!

الفصل الخامس والثلاثون

ازدحمت غرفة مكتب الأستاذ الجنيدي بالمواطنين الذين هرعوا من كل مكان تلبية لنداء صاحب الدولة شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء، الذي ناشد فيه المصريين الشرفاء، أن يتقدموا للدولة، بما لديهم من معلومات عن الفساد في الحكومة ووقائع الرشوة، وحوادث استغلال النفوذ وجرائم الإثراء غير المشروع!

رجال ونساء، شيوخ وشبان، تجار ومزارعون، جاءوا من أنحاء البلاد يحملون القصص والحكايات، يقدمون الوثائق والمستندات التي تتهم سلاطين الظلام الذين داسوا القانون باسم القانون، وحكموا بسطوة الإرهاب، وسرقوا القادرين، ونهبوا الفقراء الضعفاء المسحوقين... كلهم مصلوبون على صلبان مختلفة الأشكال والأحجام، صلبان صغيرة بحجم الموظفين المرتشين الصغار، وصلبان كبيرة بحجم المرتشين الكبار!

لم تكف المقاعد الموجودة في غرفة الأستاذ الجنيدي سكرتير سكرتير رئيس الوزراء فاستعان بمقاعد غرفة سكرتيره الأستاذ كمال الدين، ولم تكف مقاعد كمال الدين فاستنجد بمقاعد غرفة الأستاذ جمجوم!

تزاحم خمسة زوار على الجلوس في كنبة واحدة لا تتسع إلا لثلاثة

قاعدين. . جلس آخرون على حافة نوافذ الغرفة. . افترش غيرهم الأرض. . تحولت غرفة مكتب الجنيدي إلى سيارة أوتوبيس. الواقفون فيها أكثر من الجالسين. المحشورون فيها أكثر من الذين وجدوا مكاناً. . وكان الأستاذ الجنيدي أشبه بكمساري الأوتوبيس، لم يكن يوزع التذاكر، وإنما كان يوزع وعود العدالة على المظلومين، ويؤكد لهم أن سعادة حافظ سري بك سيهتم شخصياً بكل مظلمة، وسوف يحقق بنفسه في كل شكوى، ولن يفلت مجرم واحد من العقاب!

وكان يبدو على الأستاذ الجنيدي سيماء الأهمية. فقد كان يشعر أنه مبعوث العناية الإلهية لإنصاف كل مظلوم، وللاقتصاص لكل مسحوق، وحامل مشعل العدالة لسكان دولة الظلام!

ولم يكن كل هؤلاء المنتظرين يعرفون بعضهم بعضاً! إن مصيبتهم المشتركة وحدها قامت بعملية التقديم والتعريف. . كلهم ضحايا، والضحايا عادة يتكلمون لغة واحدة لها طعم الدموع. أصواتها فيها نغمة الأنين. كلهم مذبوح، وإن اختلفت أحجام السكاكين!

وتأمل الأستاذ الجنيدي هذا العدد الضخم من الزائرين المكدسين في الغرفة وقال في استغراب وكأنه يحادث نفسه:

يا سلام. . لم أكن أتصور أنه يوجد في بلادنا هذا العدد من المظلومين. . وضحايا الاستغلال والفساد. . إن مصر كلها هنا. . غرفة الشكاوى في مجلس الوزراء ضاقت بهم. . وغرفتي. . وثلاث غرف أخرى!

□ □ □

وتنهد رجل عجوز، ملأت التجاعيد وجهه، نظراته الحزينة كانت تفسر هذه التجاعيد بأنها بصمات سياط ظالمين متعددين، ثم قال:

ـ الذي بنى مجلس الوزراء كان مهندساً متفائلاً.. لم يكن يعرف أن فرعون سيصبح ألوف الفراعين.. كان يجب إقامة غرفة للشكاوى على مساحة كل وزارات الحكومة ومصالحها، على مساحة ألف فدان!

وتضايق الأستاذ الجنيدي من صوت الرجل العجوز الذي يشبه الموسيقى الجنائزية. وقال له في تأفف:

ـ أنت تبالغ يا أستاذ في عدد المظلومين.. العدل هو القاعدة والظلم هو الاستثناء.. لولا نداء دولة الرئيس لما تحرك واحد منكم.. ولبقيت غرفة الشكاوى خالية تنعي من بناها!

وهز الرجل العجوز وجهه الذي امتلأ بالتجاعيد وقال في صوت متهدج:

ـ أنين أسوان لا تسمعه القاهرة.. صراخ الذين في الطوابق السفلى لا يقوى على الصعود إلى الطوابق العليا.. إنني لم أرد أن أصدمك وأقول لك أن مساحة غرفة الشكاوى كان يجب أن تكون مساحة مصر كلها.. أما غرفة الشكاوى هذه فكان يجب أن تخصص للذين لم يظلموا في هذا البلد... وسوف تتسع لهم تماماً!

قال الأستاذ الجنيدي هازئاً:

ـ إذا كان كلامك صحيحاً فلماذا لم تجيء الملايين إلى هنا مع أن دولة رئيس الوزراء أذاع نداءه منذ ثلاثة أيام؟

وابتسم العجوز الحزين، وكانت البسمة في عينيه لها طعم الدموع وقال:

ـ بعض الناس جعلهم الظلم مقعدين لا يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم.. وبعض الناس جردهم الظلم من كل ما يملكون حتى أجر السفر في الدرجة الثالثة بالقطار.. وربما أجر ركوب الترام! وبعض الناس يخافون أن يضعوا أقدامهم في أرض حكومية لأنهم يعلمون أن من يدخل دار الحكومة مفقود ومن يخرج منها مولود.. وأغلبية الناس لا تصدق أنكم ستنصفون المظلومين!

وانتفض الأستاذ الجنيدي غاضباً:

ـ لا يصدقوننا؟ كيف يجرؤون على ألا يصدقوننا؟ إن صاحب الدولة شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء رجل لا يقول إلا الحق.. ألا تعرف أن الصحف تسميه (الصادق الأمين) و(أبو الشعب) و(الحاكم العادل) و(الوزير الذي لا يطيق الظلم) يبدو أنك لا تقرأ الصحف!

قال العجوز ساخر:

ـ أقرأها.. أقرأها قبل أن تولد.. وكانت هذه الصفات نفسها تطلق على الذين ظلمونا.. كم وصفوا الأبكم بأنه فصيح. والضعيف بأنه القوي الجبار، ورئيس عصابة اللصوص بأنه الحاكم الشريف.. هذه الصفات لا يكتبها الصحفيون وإنما يكتبها الرقيب.. فهي صفات الكرسي، لا صفات الجالس على الكرسي!

□ □ □

وارتفع صوت رجل معمم وقال في حزن وأسى، وكأنه يعلن

وفاة شخص عزيز:

ـ النزاهة والأمانة والشرف يجب أن توضع في المتحف مع رفات قدماء المصريين.. الموظف النزيه الآن هو الموظف العبيط.. الرجل الشريف هو الرجل الساذج.. الرشوة أصبحت منتشرة في كل مكان.. إنك لا تدخل غرفة أي موظف إلا إذا دفعت ثمن تذكرة الدخول!

واحمر وجه الأستاذ الجنيدي غضباً وقال:

ـ الدليل على أن كلامك غير صحيح، أنك دخلت إلى مكتبي دون أن تدفع مليماً!

قال الشيخ المعمم ساخراً:

ـ لم أدفع لسعادتك شيئاً.. ولكني دفعت للجندي الواقف أمام مجلس الوزراء ليسمح لي بأن أقترب من الباب، ودفعت لعامل المصعد، ودفعت للحاجب الواقف على بابك!

وضرب الجنيدي بيده على مكتبه فانسكب فنجان القهوة فوق الأوراق، وأسرع الحاضرون يقولون: (خيراً خيراً خير) ولكن الأصوات المتفائلة لم تقو على تهدئة الجنيدي الغاضب ومضى يقول:

ـ هذه ليست رشوة، هذا بقشيش.. القانون لا يعاقب على البقشيش.. يجب يا أستاذ أن تتأدب وتعرف كيف تختار كلماتك.. نحن هنا في مجلس الوزراء لا في شارعكم أو حارتكم!

وابتسم الشيخ المعم، ولم يبد عليه أنه تألم من كلمات الجنيدي المهينة. فقد كانت جروحه تغطيه، ولم تترك مكاناً لجروح جديدة،

وأشعل سيجارة في هدوء، ونفخ دخانها، ثم قال:

ـ معك حق يا سعادة البيه. . ولكنها ليست غلطتنا، إنها غلطة الذين ضربونا بالسياط ولم يعلمونا أن نقول (آه) بأدب. . إن الأنين يبدو دائماً قلة أدب في نظر الذين يضربون بالسياط. . إنه يعكر مزاجهم. . يحدث ضوضاء تضايقهم. . الأنين دائماً هو صوت نشاز يفسد النغمة الجميلة التي تحدثها أصوات السياط!

قال الأستاذ الجنيدي في ضيق:

ـ هل نحن الذين ضربناكم بالسياط!؟ نحن جئنا نضمد جراحكم. . جئنا نبحث عن مظالمكم. فكيف تحملوننا جرائم من سبقونا؟ قلنا لكم أن العدل يبدأ من الآن.

□ □ □

واندفعت سيدة ترتدي ملاءة لف وقالت:

ـ هذا هو الظلم بعينه. . الحاكم الذي يقول أن العدل يبدأ من اليوم معناه أنه يقر الظلم الماضي. . معناه أنه يريد أن يحمي الظالمين السابقين، ليحميه الظالمون القادمون. . معناه شرعية الجرائم السابقة. معناه إعطاء حصانة لكل الظالمين والمجرمين والمرتشين السابقين، لا توجد عدالة مرهونة بوقت. العدالة الموقوتة هي ظلم دائم. ولهذا يجب أن يبدأ العدل من الأمس!

ونظر الجنيدي بدهشة إلى السيدة ذات الملاءة اللف. لم يكن يتصور أن في استطاعة امرأة من بنات البلد أن تتكلم بهذه الطريقة فقال لها هازئاً:

ـ من أي جامعة تخرجت؟

قالت المرأة ساخرة:

ـ من جامعة الظلم.. إنها جامعة لها فروع في كل أنحاء البلاد.. الظلم قد يخرس الألسنة، وقد يطلقها.. إنك إذا سمعت امرأة تنتحب على زوجها الذي مات وهي تحبه، تتصور أنها شاعرة كالخنساء، أو مطربة كأم كلثوم.. الألم يجعل الكلمات فصيحة على شفاه المظلومين.. فعندها تختلط الكلمة العادية بالدم والدموع تتحول من كلمة ساذجة إلى كلمة بليغة معبرة يعجز أن يكتبها أعظم الكتاب.. الدموع هي التي تصنع أعظم حبر تكتب به الكلمات!

واهتز الجالسون لكلمات المرأة ذات الملاءة اللف، وأحس الجنيدي بأن هذه الجاهلة كسبت الجولة منه، فمضى يسخر منها ويقول لها:

ـ إذا نفذنا كلامك، فيجب أن نبدأ التحقيق مع الملك خوفو لأنه استغل ألوف العمال في العمل عشرين سنة، دون أن يدفع لهم مليماً واحداً.. طبعاً أنت لم تسمعي عن الملك خوفو؟

ـ بل أسمع عنه، إنه هو الذي بنى الهرم!

ـ يبدو أنك سيدة متعلمة!

ـ لست متعلمة كثيراً، إنني خريجة كلية الآداب!

وفزع الجنيدي.. إنه هو لم يحصل على الشهادة الابتدائية.. فقال وهو يتلعثم:

ـ آسف يا أستاذة.. إن الملاءة جعلتني أتصور أنك جاهلة!

ـ لم أكن أعرف أن ملابس النساء تحدد الشهادات التي تحملها المرأة. . كنت أرتدي فستاناً أنيقاً. ولكني بعت فساتيني لأطعم ابنتي. وهذه الملاءة ليست ملاءتي. إنني استعرتها من جارتي لأخفي بها الثقوب التي في ثوبي. . إنني أرملة موظف يستحق معاشاً. . وعندما أردت أن أتسلم معاشي راودني الموظف المختص عن نفسي. إذا أردت أن أحصل على حقي، فيجب أن أدفع جسدي. رفضت أن أدفع جسدي رشوة، شكوته إلى زملائه فضحكوا. شكوته إلى رئيسه فطلب مني أن أذهب إلى شقته لينصفني. . ثلاث سنوات حفيت فيها قدماي على مكتب المعاشات. . بعت أثاث بيتي. . بعت مصوغاتي. . بعت فساتيني!

قال الجنيدي في صوت يفيض شهامة ونخوة:

ـ اذكري لي اسم هذا الموظف وأعدك أن دولة رئيس الوزراء سيفصله من عمله خلال ٢٤ ساعة!

ـ اسمه عبد القادر عزمي وكيل المعاشات.

صرخ الجنيدي وكأن عقرباً لدغته:

ـ عبدالقادر عزمي؟ مستحيل. . إنه أشرف موظف في الدولة. إنه ابن أخت حضرة صاحب الدولة شفيق باشا فتحي رئيس مجلس الوزراء. لا بد أنك أخطأت في الإسم!

ـ أنا واثقة من الإسم!

ـ هذه تهمة خطيرة. لا يمكن أخذ الناس بالشبهات. يجب أن تكون معك أدلة ومستندات.

ـ معي المستند!

ـ ما هو هذا المستند؟

- خطاب غرام بخط عبدالقادر عزمي!
- إذن هذه مسائل شخصية لا علاقة للدولة بها!

وحدثت همهمة ودمدمة وتمتمة بين الجالسين في الغرفة.. وفهم الجنيدي من هذه الأصوات أنها أصوات تعارض وجهة نظره بأن مساومة موظف لامرأة على شرفها هي مسألة شخصية عائلية، وتراجع بسرعة وهو يقول:

- أعطيني أسبوعاً فقط، وأعدك بأنك سوف تحصلين على المعاش، والمبالغ المتجمدة.. بشرط أن تعديني بألا تتصلي بأحد سواي في هذه المسألة الشائكة..

وهنا قالت آنسة جالسة في ركن الغرفة:
- والموظف المجرم هل سيلقى جزاءه؟

وسارع الجنيدي يقول:
- طبعاً.. طبعاً.. سيلقى جزاءه.. إن دولة رئيس الوزراء لا يعرف أخاه في هذه المسائل، وهو يقول دائماً لو سرق زوج ابنتي قرشاً من أموال الدولة لعلقت رأسه في المشنقة..

ودعا الموجودون في الغرفة لرئيس الوزراء بطول البقاء.. البقاء في كرسي الحكم!

ووقف الجنيدي يتسلم من السيدة ذات الملاءة اللف شكواها في احترام وإجلال. وقال رجل بدين، عليه سيماء أرباب المعاشات، وعلى عينيه نظارة سوداء سميكة:

- كل الموظفين أصبحوا الآن لا يعملون أي شيء إلا بالدفع. القانون أصبح مكتوباً على ورق بنكنوت. الرشوة أصبحت أشبه

بطابع الدمغة، ويجب أن تلصق على كل طلب! فإذا لم تدفع عطل الموظف مصلحتك. في القوانين واللوائح مواد غريبة تتلوى بين أصابع الموظفين. تبيح الشيء وضده في وقت واحد. قوانين من الكاوتشوك تتسع وتضيق كما يشاء هوى الموظف. الأمر الواحد يصبح حراماً وحلالاً في وقت واحد. القانون يبتسم في وجه من يدفع، ويكشر في وجه من لا يستطيع أن يدفع!

وقاطعه الجنيدي قائلاً:

ـ نحن لا نريد أن نسمع خطباً هنا.. نحن نريد أن نسمع وقائع محددة!

وانطلق الرجل المحال إلى المعاش يقول:

ـ وزارة الصحة اشترت مني فداناً من الأرض في مركز سنورس بمديرية الفيوم، لتقيم فوقه مصحة، ومركزاً لرعاية الطفل. واتفقنا على أن ثمن الفدان ثلثمائة جنيه.. ووقعنا العقد، وتسلمت الحكومة الأرض. وبنت المصحة وأقامت مركز رعاية الطفل ومضت خمس سنوات ولم تدفع لي الحكومة مليماً. ولكني أنا البائع، دفعت. دفعت خمسين جنيهاً لتشتري الوزارة هذا الفدن. ثم حفيت قدماي في الوزارات والمصالح والإدارات لأقبض ثمن الأرض. كنت أرجو وأتوسل وألتمس. تحولت من بائع أرض إلى شحات يستجدي نقوده من الدولة.. واضطررت أن أدفع وأدفع لأحصل على حقي. دفعت للصغار، ودفعت للكبار.. وأخيراً تسلمت الثلثمائة جنيه، بعد أن كنت دفعت منها مائتين وخمسين جنيهاً، رشاوى وإكراميات وبقشيشات وتبرعات!

وقهقه رجل في الأربعين من عمره، يرتدي الملابس البلدية وقال:

ـ احمد ربك يا شيخ. إن حظك من السماء!

قال بائع الفدان محتجاً:

ـ بختي من السماء، لأنني دفعت ٢٥٠ جنيهاً لأحصل على ٣٠٠ جنيه. يا ناس يا هوه هل سمعتم عن فدان ثمنه خمسون جنيهاً وبعد ذلك تقول أن بختي من السماء!

قال الرجل الذي يرتدي الملابس البلدية:

ـ نعم، إن بختك من السماء، إن صناعتي توريد اللحوم للمدارس في مديرية القليوبية. وردت لحماً للحكومة بـ ١٥٠٠ جنيه. استلموا اللحم. طبخوا اللحم. أكلوا اللحم. هضموا اللحم. ولم يصل إلى جيبي بعد عامين سوى ٤٠ جنيهاً!

قال الأستاذ الجنيدي مقاطعاً:

ـ هذه مسألة بسيطة.. خطأ في الروتين.. إن يوم الحكومة بسنة كما تعلم.. لا بد أن أوراقك تأخرت بين الإدارات المختلفة.. من حقك أن تشكو من بطء الإجراءات.

ـ شكوت، ففوجئت بهم يضعون تقريراً يقول أن اللحم كان فاسداً، وكان مريضاً بسبعة أمراض.

ـ لا بد أن التلاميذ الذين أكلوا اللحم تسمموا..

ـ لم يتسمم أحد.. أنا الذي تسممت، أنا الذي أصبت بسبعة أمراض!

ـ لا بد أن هناك سوء تفاهم!

ـ أردت أن أتفاهم. عرضت أن أدفع ٥٠٠ جنيه للطبيب الظالم

الذي كتب هذا التقرير الكاذب عن اللحم، فرفض أن يأخذ الخمسمائة جنيه. قال إنه رجل شريف لا يستطيع أن يغير ذمته إلا بألف جنيه.. وعندما قبلت دفع المبلغ عاد وقال إن التقرير موقع من ثلاثة آخرين، وذمة كل واحد منهم بثلثمئة جنيه.. أما سكرتير اللجنة فهو رجل طيب ابن حلال ولا يريد سوى مائة جنيه ثمناً لذمته.. يا بلاش.. وقيل لي أنني إذا لم أدفع الألفين من الجنيهات، فسوف يحولونني إلى محكمة الجنايات!

قال الأستاذ الجنيدي في اهتمام:

- وهل دفعت المبلغ؟

- لو أنني بعت لحم هؤلاء الموظفين الأربعة بالتسعيرة لما كان ثمنهم جميعاً أكثر من ثلاثة جنيهات.. ولهذا قلت: لا.. وقدموني إلى محكومة الجنايات، وحكمت المحكمة ببراءتي!

- إن في مصر قضاة.

- طبعاً فيها قضاة.. ولكن عدد اللصوص فيها أكثر من عدد القضاة، رغم هذا الحكم الذي صدر منذ عامين لم أتسلم بعد قيمة اللحم. رفضت المدارس أن تتعامل معي لأن اسمي أصبح مدرجاً في القائمة السوداء. وعندما ذهبت إلى موظف كبير في المديرية وأطلعته على الحكم، ورويت له القصة، هاج وماج، وقال إنه سيأمر بحذف اسمي فوراً من القائمة السوداء وتفضل وخرج بنفسه لوداعي حتى باب مكتبه، وعند باب المكتب همس في أذني أن المسألة بسيطة جداً ولن تكلفني أكثر من ألفي جنيه!

وسأل الجنيدي في غير اهتمام:

ـ من هو الموظف الكبير في مديرية القليوبية الذي طلب ألفي جنيه حتى نقطم رقبته؟

ـ إنه ذهني بك وهيب مدير القليوبية!

وسقط الاسم على الجنيدي سقوط الصاعقة.. فقد كان مدير القليوبية هو ابن عمة حافظ بك سري سكرتير رئيس الوزراء، وبلع الجنيدي ريقه في صعوبة، ثم سأل وهو يتظاهر باللامبالاة:

ـ وهل أخذت إيصالاً!؟

وضحك مورد اللحم وقال:

ـ إن المرتشين لا يوقعون حتى الآن على إيصالات.. وقد يحدث في المستقبل أن يوقعوا على إيصالات فوقها طابع تمغة!

ـ ونحن لا نستطيع أن نصدق تهمة خطيرة كهذه ضد موظف كبير في الدولة بلا مستند!

ـ المستند موجود.. يمكنك أن تطلب إحصاء بثروة ذهني بك قبل أن يعين مديراً للقليوبية وثروته الآن بعد أن أصبح مديراً للقليوبية. الفرق بين الثروتين هو مجموع ما تقاضاه سعادة المدير من رشوة وبقشيش.

وشعر الأستاذ الجنيدي أن واجبه أن ينبري ويدافع عن مدير القليوبية الذي هو ابن عمة رئيسه حافظ بك سري فقال في حماس:

ـ إن ذهني بك مدير القليوبية رجل عينه مليانة. من أسرة غنية. ليس محتاجاً لأن يمد يده للرشاوى والبقاشيش. إنه يتبرع

للجمعيات الخيرية من ماله الخاص. إنه محسن كبير، ولا بد أنه طلب الألفي جنيه لأحد المشروعات الخيرية التي يهتم بها. عيبنا في هذا البلد أننا نأخذ الناس بالشبهات. وهذا عيب يجب أن يتخلص منه الشعب ليصبح شعباً متمدناً!

وقالت امرأة حسناء رائعة الجمال:

ـ إن الحكومة هي التي تأخذ الناس بالشبهات. إن أخي دخل السجن من عامين، بغير تهمة، بغير جريمة، كل جريمته أنني قلت لأحد الكبراء (لا).. الظالم هو أكبر قواد في الدولة.. مظالمه تحول الشريفات إلى عاهرات، وطغيانه يجعل من الفاضلات مومسات، عندما يسجن بريئاً يقفل بيته ليفتح بيتاً للدعارة. هو الذي يحول القاصرات إلى فاسدات. الإحصاءات تقول أن عدد العاهرات يتضاعف في عهود الظلام ويتناقص في عهود الحرية. الظالم عندما يوقع قراراً باعتقال خصم له، لا يعني بذلك أن يقيد حريته هو، وإنما يعني أن يخرب بيته أن يعهر زوجته، أن يترك أخته للذئاب، أن يرمي ببناته إلى بيوت الدعارة. الطاغية هو تاجر الرقيق الكبير، لا يكفيه أن يحول الرجال إلى عبيد يباعون في سوق النخاسة، وإنما يضع كل شيء في التسعيرة حتى لحم النساء!

قال الأستاذ الجنيدي في امتعاض:

ـ ليس مطلوباً من الحكومة أن تعين جندياً ليحرس فساتين نساء خصومها!

ـ إن الحكومة لا تحرس الفستان، وإنما تنزع الفستان!

ـ تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها!

ـ ممكن للحرة أن تحتفظ بشرفها إذا لم يكن حراس الشرف هم أكبر لصوص الشرف.

ـ إنك استطعتِ أن تقولي للموظف الكبير الذي حاول أن يغتصبك «لا». . هذا يدل على أن كل امرأة تستطيع أن تحافظ على شرفها مهما حدث لها!

ـ أنا قلت «لا» مرة واحدة. ودخل أخي السجن. ولم أقل بعد ذلك «لا» أبداً!.

وجرى ريق الأستاذ الجنيدي. وراح يأكل المرأة الجميلة بعينيه. . ويلتهمها بخياله وتمنى أن تهب عاصفة وتقتلع كلَّ هؤلاء المظلومين ثقلاء الدم من مقاعدهم، فلا يبقى معه في الغرفة إلا هذه المرأة الفاتنة التي لم تعد تقول «لا» أبداً. . وقرر أن يستبقيها إلى أن ينصرف الموجودون بالغرفة.

وتطلع الجالسون في الغرفة إلى المرأة الحسناء يعرونها بفضولهم، يجردونها من ثيابها بعيونهم. بعضهم زنى معها بعينيه. وبعضهم لعنها وتمناها. وبعضهم استعاذ بالشيطان الرجيم. بعضم تساءل هل من حق الفاجرات أن ينشدن العدالة، بعضهم فكر في زوجته وأخته وبناته، وتساءل هل امتد إليهن الظلم الذي أصابه، وفعل بهن سراً، ما فعله الظلم بهذه المرأة الفاجرة علناً!؟

وقطع رجل متوسط القامة، أشيب الشعر، طويل الشاربين، على الجالسين خواطرهم وقال:

ـ أما أنا، فلم أجىء إلى هنا لأطلب العدل. وإنما جئت أطلب الظلم!

وذهل الجالسون وهم يسمعون رجلاً يستجدي الظلم. ومضى الرجل ذو الشاربين الطويلين يقول:

ـ إنني جئت إلى وزير الوزراء ألتمس منه أن يدخلني السجن!

وألقى الجنيدي نظرة استغراب على الرجل وقال:

ـ هذه أول مرة أسمع فيها أن رجلاً جاء يوسط رئيس الوزراء ليزج به في السجن!

ـ أنا هو هذا الرجل!

ـ يظهر يا أستاذ أنك لا تعرف ما هو السجن!

ـ أعرفه تماماً. إنني أمضيت فيه عشر سنوات كاملة، وخرجت منه منذ أسبوع واحد!

ـ هذا دليل على أن السجون تقدمت في بلادنا!

ـ بل تأخرت جداً!

ـ ربما أن نسيم الحرية يجعلك تختنق!

ـ إنني لم أشم بعد هواء الحرية حتى أختنق بها!

ـ يقولون أن الذين تعودوا على الظلام يصابون بالعمى إذا واجهوا النور.. وأن الذين يعيشون في القطب الشمالي يصابون بالزكام إذا أقاموا في أسوان!

ـ كل ما حدث لي أنني انتقلت من زنزانة ضيقة إلى زنزانة أوسع.. الذل هو هو.. القيود هي هي.. الجلادون هم هم!

ـ هل جلدك أحد بعد أن خرجت من السجن؟

ـ السياط تختلف. ولكن طعمها واحد. سياط جسدية وسياط معنوية.. سياط تترك علاماتها فوق الجلد وسياط تترك علاماتها تحت الجلد.. ضربة السوط المعنوي تؤلم أحياناً أكثر من ضربة السوط على الجسد.. الذين جلدوا فوق لحومهم يعلمون جيداً أن ضربة السوط الأولى هي التي تؤلم، والضربات التالية تذوب في آلام الضربة الأولى. أما سياط الروح فيتضاعف عذابها مع تضاعف عددها!

ـ لا أرى آثار السياط على جسمك!

ـ ولن تراها يا سيدي. . لا وقت عندكم لتدخلوا في أعماق الناس لتروا جروحهم الدفينة العميقة ولهذا تكتفون بعلاج الجروح السطحية!

ـ ما هي حكايتك؟

ـ حكايتي أنني من مركز البدارى في مديرية أسيوط. قتلت رجلاً في جريمة ثأر لأنه قتل أبي ظلماً وعدواناً. . وحكم علي بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة! أمضيت ثلاث سئنوات منها في تكسير الأحجار في جبال أبو زعبل. ثم وضعوني في وظيفة نوَبتجي المراحيض، أنظفها وأغسلها مقابل قرشين صاغ كل يوم! وحرمت نفسي من السجاير، ومن الشاي، ومن كل طعام أشتهيه، لأوفر مبلغاً أبدأ به حياتي عندما أخرج من السجن. واقتصدت عشرين جنيهاً. وتم الإفراج عني وبدلاً من أن أخرج من السجن إلى الحرية أخذوني إلى المحافظة، ثم إلى مديرية أسيوط، ثم إلى مركز البداري. . مررت على مكاتب لا أول لها ولا آخر. فيشات وتشبيهات. . خمسون فيشاً وخمسون تشبيهاً. . خمسة أيام لا عمل لي إلا المرور على مكاتب مختلفة. كل مكتب يطالبني أن أدفع لأخرج إلى الهواء الطلق. وعندما كنت أتردد في الدفع كانوا يهددونني بإعادتي إلى السجن من جديد. ودفعت في خمسة أيام تسعة عشر جنيهاً. لم يبق معي سوى جنيه واحد من العشرين جنيهاً التي جمعتها لمدة سبع سنوات من تنظيف المراحيض ودورات المياه: كل المال الذي اقتصدته في عشر سنوات من الذل والهوان وتكسير الأحجار وحمل قذارات المسجونين، أنفقته في خمسة أيام في مكاتب الحكومة!

قال الأستاذ الجنيدي ضاحكاً:

ـ لو كنت أمضيت هذه الأيام الخمسة في فندق شبرد أو فندق سميراميس لما أنفقت أكثر من تسعة عشر جنيهاً!

ـ لا أعرف فندق شبرد.. وإنما أعرف لوكاندة «الكلوب المصري» بسيدنا الحسين. أجر المبيت فيها عشرة قروش في الليلة!

ـ لماذا لا تبدأ حياتك بالجنيه الباقي؟

ـ هذا ما قررته. دفعت خمسين قرشاً أجر السكة الحديدية من البداري إلى القاهرة، وجئت إلى هنا لأطلب من رئيس الوزراء أن يدخلني السجن من جديد!

ـ لماذا؟

ـ لأنني اكتشفت أن اللصوص خارج السجن أكثر من اللصوص داخل السجن. أسعار الرشوة خارج السجن أغلى منها داخل السجن. الرشوة في السجن هي سيجارة. والرشوة خارج السجن هي جنيه. ولهذا فضلت أن أعود إلى السجن من جديد لأن الحياة فيها أرخص ولم أكن أتصور أن الفساد استشرى هكذا في عشر سنوات.

قال مورد اللحم وهو يهز رأسه تأييداً وتصديقاً للقاتل الذي خرج من السجن:

ـ إننا تقدمنا كثيراً خلال عشر سنوات. تقدمنا في كل شيء، حتى في خراب الذمة!

وعاد السجين السابق يستأنف حديثه ويقول في حسرة:

ـ قبل أن أدخل السجن كنت أجد موظفاً واحداً مرتشياً بين عشرة موظفين شرفاء.. واليوم وجدت موظفاً شريفاً واحداً بين كل عشرة مرتشين!

قال الجنيدي في اهتمام:

ـ وماذا فعل لك هذا الموظف الشريف؟

ضحك السجين السابق وقال:

ـ لم يفعل شيئاً كان في إجازة!

وأخرج الأستاذ الجنيدي منديلاً من جيبه، وتظاهر بأنه يمسح دموعه حزناً وأسى وفجيعة مما صارت إليه حالة البلاد ثم قال:

ـ لا حول الله. لا حول الله. سوف يفجع سعادة حافظ بك سري عندما يعلم بكل هذه المآسي. الله يعلم أنه لا ينام الليل منذ أن عهد إليه حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء بهذه المهمة الخطيرة.. هذا حال لا يمكن السكوت عليه. إن مهمة حافظ بك الأولى هي أن يعيد الطهارة إلى هذا البلد.

□ □ □

وانتفض شاب في ركن الغرفة، وبدا من طريقته في الحديث، وحماسته المتقدة، وجرأته في الكلام أنه طالب في الجامعة. وتلفتت إليه رؤوس الجالسين وهو يقول:

ـ كل هذا فساد صغير، يوجد فساد أكبر. السمكة لا تفسد إلا من رأسها. الكبار هم قدوة الصغار. ما دام هناك كبار يسرقون الملايين فيجب ألا نلوم الصغار الذين يسرقون الملاليم. عندما نقطع رؤوس اللصوص الكبار سيختفي أوتوماتيكياً اللصوص

الصغار. اللص الصغير هو ظل اللص الكبير. فإذا ذهب الأصل اختفى الظل!

قال الحاج صبحي الدويري، تاجر اللحوم، مقاطعاً:

ـ وكيف نستطيع أن نمنع الكبار من السرقة؟ هذا يقتضي أن نعين بجوار كل وزير عسكري بوليس، يلازمه في مكتبه، يراقبه في غدواته وروحاته!

واعترض يوسف القاضي الطالب بكلية الحقوق:

ـ هذا سوف يضاعف عدد السرقات ولا يقللها! سيتحول جنود الشرطة إلى لصوص، يسرقون لحساب الوزراء!

وقالت السيدة فكرية حسين ناظرة مدرسة عباس سابقاً:

ـ وما هو الحل؟

ـ الحل أن نضيء الأنوار. المسؤول عن هذا الفساد هو الظلام الموجود. ما دام الظلام هو السلطان فهذا تصريح للصوص بالانطلاق. إذا كممتم الأفواه لا يستطيع أي فرد من الشعب أن يصرخ (يا شاويش) إذا رأى جريمة سرقة ترتكب أمام عينيه.. إذا رفعتم الرقابة على الصحف، وأبحتم حرية الصحافة، فلن يجرؤ اللصوص الكبار على السرقة. عندما نقيد الصحافة نحرر اللصوص. الأقلام الحرة في أيدي الصحفيين الأحرار أشبه بالفوانيس في الشوارع. تصوروا ماذا يحدث لو انطفأت كل الفوانيس الموجودة في ميادين القاهرة وشوارعها، سيتضاعف عدد اللصوص وعدد جرائم السرقة. في النور يتحول الملايين إلى جنود شرطة وفي الظلام يتحول جنود الشرطة إلى لصوص!

والتفت الأستاذ جنيدي في غضب واستنكار نحو الطالب يوسف القاضي وقال له:

ـ أرجوك، أرجوك يا أستاذ. هذا كلام في السياسة. ونحن هنا لا علاقة لنا بالسياسة!

وقال الطالب يوسف القاضي في هدوء:

ـ أنا لست أستاذاً. أنا طالب في كلية الحقوق!

ـ الطلبة ممنوعون من التحدث في السياسة بأمر القانون!

ـ أنا لا أتحدث في السياسة. أنا أتحدث في تطبيق قانون العقوبات!

ـ أنا لا أسمح لك ولا لسواك بأن يقول هذا الكلام الفارغ عن عظماء البلد، عن أصحاب المعالي الوزراء!

وضحك الطالب يوسف القاضي وقال:

ـ إنني لم أذكر أصحاب المعالي الوزراء. إنك تذكرني بالحكاية المشهورة وهي أنه في عهد إسماعيل صدقي باشا صاح أحد الطلبة في ميدان لاظوغلي: (تسقط وزارة اللصوص) وأسرع جندي البوليس وقبض عليه وهويقول:

ـ ضبطتك وأنت تسب في وزارة صدقي باشا!

قال الطالب ببراءة:

ـ أنا لم أذكر حكومة صدقي باشا. أنا قلت فقط (تسقط وزارة اللصوص).. ربما أقصد وزارة عدلي باشا يكن. أو وزارة عبدالخالق باشا ثروت، أو وزارة محمد محمود باشا!

قال الجندي وهو يمسك برقبة الطالب:
- أتريد أن تهزأ بي. لقد مضى علي وأنا أعمل جندياً في البوليس ثلاثون عاماً ولم أر وزارة لصوص إلا وزارة صدقي باشا. . تعال معي إلى القسم!

وضحك الجالسون واكفهر وجه الأستاذ الجنيدي وقال:
- لا تنس يا افندم أن الرجل الذي طالب بالتحقيق في الفساد هو أكبر رجل في الدولة، هو حضرة صاحب الدولة شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء. . وحافظ سري بك الذي سيتولى التحقيق هو من كبار رجال الدولة. . إن الكلام الذي تقوله يدخلك السجن!

قال الطالب يوسف القاضي متراجعاً:
- أنا لا أقصد دولة شفيق باشا فتحي، ولا سعادة حافظ بك سري. . كلنا نعلم أنهما فوق الشبهات. . ولكني أريد مساعدتهما للكشف عن اللصوص. الصحافة الحرة يمكن أن تساعدهما أكثر مما تستطيع الشرطة!

قال الجنيدي متأففاً من جهل الطالب يوسف:
- إن حافظ بك يستطيع، وهو جالس في مكتبه. أن يسمع دبيب النمل في أسوان. إنه ليس في حاجة إلى مساعدة أحد ليقوم بمهمته الخطيرة على أكمل وجه!

قال الطالب يوسف القاضي:

- الدليل على أنه في حاجة إلى مساعدة أن رئيس الوزراء ناشد الشعب أن يتقدم إلى سكرتيره بما لديه من معلومات. لو كان حافظ بك يعرف دبيب النمل في أسوان. لما احتاج رئيس الوزراء لأن

يصدر بياناً يطالب الشعب بأن يتقدم بما عنده من معلومات. . ولهذا اقترحت الاستعانة بالصحافة!

وبدا الملل على وجه الأستاذ الجنيدي. . إن طالباً هلفوتاً يحاول أن يناقش آراءه القيمة. فقال وكأنه يلقي درساً في السياسة:

ـ الصحف لا تهتم إلا بالأخبار المثيرة. . أما حافظ بك فهو يحقق كقاض. . القاضي يحتاج إلى جو هادىء. ليضمن أن تتحقق العدالة ويسود القانون. وكل متهم بريء حتى تثبت إدانته. وإذا فتحنا الباب للصحافة، فسوف تتسابق لنشر الفضائح. وبذلك نعطي لأعداء الوطن سلاحاً يحاربوننا به، ويشهرون بالبلد ويقولون أن فيه فضائح واستغلال نفوذ، وبذلك تصبح سمعتنا الدولية في التراب!

قال يوسف القاضي الطالب ساخراً:
ـ إن رئيس الوزراء نفسه هو الذي أذاع في الصحف تصريحاً رسمياً قال فيه أنه يوجد في البلد فساد ورشوة واستغلال نفوذ. . لماذا أدلى بهذا التصريح ولم يخف من أن يستغله أعداء الوطن ضدنا؟

ونفذ صبر الأستاذ الجنيدي من جهل طالب الجامعة ومن صفاقته في مناقشته وقال له في احتقار:

ـ يظهر أنك لا تعرف من الذي يتحدث إليك. أنا سكرتير سكرتير رئيس الوزراء. يعني الرجل الثالث في الدولة. يعني الرجل العالم ببواطن الأمور. يعني الرجل الذي يعرف أسرار الدولة العليا. هذا الذي أقوله لك لم تأخذوه بعد في الجامعة، ولن تأخذوه أبداً. لأنه نتيجة التقلب في مناصب الدولة العليا!

ومضى الأستاذ الجنيدي يقول:

ـ هناك فرق بين أن يقول هذا الكلام رجل مسؤول، مثل رئيس الوزراء، يزن كل كلمة يقولها بميزان الذهب، وبين أن يقولها صحفي هلفوت لا يهمه إلا أن ينشر الخبر المثير، حتى لو خربت البلد!

□ □ □

وقبل أن يفتح الطالب يوسف القاضي فمه ويرد على الأستاذ الجنيدي الذي طالما رأى الدولة عارية أو بقميص النوم في فراشه أنقذ الموقف دخول عبد المتعال محجوب حاملاً حقيبة.

وهب الجنيدي من مقعده، وفتح ذراعيه وعانق عبد المتعال وهو يرحب به ترحيباً كبيراً، ويقول له:

ـ سعادة حافظ بك ينتظرك. إنه أمرني أن أخبره على الفور عند تشريفك!

وذهل عبد المتعال من هذا الترحيب الحار. لقد بقي في اليوم السابق خمس ساعات (ملطوعاً) على باب حافظ بك، ولم يتشرف بمقابلته!

وأسرع الأستاذ الجنيدي، يزيح الطالب يوسف القاضي من المقعد الذي كان يجلس عليه، وحمله بنفسه، ووضعه بجانب مقعده، ثم دعا عبد المتعال لأن يجلس في مقعده هو أمام المكتب.

وامتنع عبد المتعال وقال:

ـ أستغفر الله.. هذا مقعدك أنت يا جنيدي بك!

قال الأستاذ الجنيدي:

ـ مستحيل، إن مكانتك عند حافظ بك تجعلنا نجلسك فوق

رؤوسنا. ليس عندنا سوى عبد المتعال بك واحد في الدولة. إن سعادة حافظ بك شخصياً قال لي:

مهما كان عندي من أعمال خطيرة، فيجب أن تبلغني على الفور بوصول عبد المتعال بك، حتى ولو كنت مجتمعاً بصاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء!

وعجب عبد المتعال من كل هذا الترحيب المفاجىء، الذي هبط عليه من السماء. صحيح أن الدنيا لا تجعل الماشي ماشياً ولا الراكب راكباً. ولكن عبد المتعال لم يتصور أن القدر سيجعله يركب فوق رأس سكرتير سكرتير رئيس الوزراء. فمنذ أربع وعشرين ساعة فقط كان أشبه بملف ثقيل الدم، يحيله الموظف إلى موظف بغير اهتمام، ولولا قبلة الراقصة كاميليا في اليوم السابق لما استقبله الأستاذ الجنيدي. ومع ذلك لم يدم تأثير قبلة كاميليا طويلاً، فما كاد الجنيدي يدخل أمس إلى مكتب حافظ سري بك حتى خرج وقد زالت آثار قبلة كاميليا تماماً. ووجد الجنيدي يقول له باحتقار شديد أن سعادة البيك مشغول جداً، وأنه لا يضمن أن يستقبله غداً، قد يحدد له موعداً بعد أسبوع أو أسبوعين.

ماذا حدث في الدنيا حتى أصبحت له فجأة مكانة عند حافظ بك.. وأصبح (ليس عندنا سوى عبد المتعال بك واحد في الدولة).. ماذا جرى حتى أصبح عبد المتعال شخصية هامة، يجب أن يبلغ سكرتير رئيس الوزراء بنبأ وصوله على الفور، حتى ولو كان مجتمعاً برئيس الوزراء!

أتكون الممثلة فاطمة رشدي هي التي صنعت هذه المعجزات؟ أتكون فاطمة هي التي اتصلت بحافظ وأمرته بأن يستقبله على

الفور، وهددته بأن تصفعه على وجهه كما صفعته منذ سنوات على باب مسرح رمسيس؟ كانت صديقته الممثلة سلوى وهبي على حق عندما قالت له أن كلمة من فاطمة ستفعل فعل السحر بالمعجب القديم!؟

وقبل أن يصل عبد المتعال إلى إجابة على أسئلته وجد الأستاذ الجنيدي يهرول نحوه، ويقول في اهتمام شديد:

ـ تفضل.. تفضل يا سعادة عبد المتعال بك.. إن سعادة حافظ بك سري ينتظرك على أحر من الجمر!

وحمل عبد المتعال الحقيبة التي بها مستندات فضائح شركة مصر للبسكويت ومشى متمهلاً إلى باب غرفة حافظ بك سري..

وتوقف الجالسون في الغرفة عن الحديث فجأة.. تطلعوا جميعاً إلى عبد المتعال الذي كان يدخل متهادياً إلى غرفة سكرتير رئيس الوزراء.. وقد فتح له الأستاذ الجنيدي الباب على مصراعيه..

وقال بعض الجالسين إنه النائب العام جاء يشترك في التحقيق في الفساد!

وقال أخرون إنه وزير العمل!

وقال غيرهم إنه صهر رئيس الوزراء!

وأطلقت السيدة الجميلة ضحكة رنانة وقالت:

ـ أراهن أنه الحلاق.. جاء يحلق شعر سكرتير رئيس الوزراء!

الفصل السادس والثلاثون

انتفض حافظ سري بك في مقعده الوثير، ودار حول مكتبه الضخم الفخم، واندفع مهرولاً نحو عبد المتعال يستقبله في منتصف الغرفة، ومد كلتا يديه نحو الزائر، وأمسك بهما وراح يهزهما هزة المرحب المشتاق، وهو يكرر كلمة (أهلاً).

وسحب عبد المتعال من يديه إلى أريكة واسعة إلى جانبه، وأجلسه، وجلس بجواره، وهو يكرر كلمة (أهلاً) عشر مرات!

وفوجىء عبد المتعال بهذا الترحيب والإجلال والاحترام من رئيس الوزراء الصغير.. إنه بحكم عمله الماضي في الشركات يعرف أن هؤلاء السكرتيرين آلهة يجلسون فوق عروشهم، إنهم ملوك صغار لا ينقصهم إلا التاج، فراعنة بغير أهرامات. فما الذي جعل سكرتير رئيس الوزراء يستقبله بكل هذا التهليل والتكبير؟

لا بد أن النجمة السابقة فاطمة رشدي أوصت حافظ سري خيراً بعد المتعال، وهددته بأن تصفعه على وجهه كما فعلت منذ أكثر من عشر سنوات عندما كان معجباً بها حينما كانت البريمادونا الأولى (على سن ورمح) في مسرح رمسيس!

وتطلع عبد المتعال بحركة لاإرادية إلى خد حافظ سري، وكأنه

يبحث عن بصمات فاطمة رشدي على خده الوردي المنتفخ، وأخيراً وجد حافظ بك كلمة غير كلمة (أهلا) ليعبر بها عن سعادته بلقاء عبد المتعال (بك) فسأله هل يشرب قهوة أم عصير ليمون أم عصير برتقال؟

وتمنع عبد المتعال وشكره في خجل واستحياء، وقد أذهله الترحيب والتكريم من رجل صاحب نفوذ، ضخم، يراه للمرة الأولى.. وأصر حافظ بك على أن يشرب عبد المتعال شيئاً فقال عبد المتعال أنه يخشى أن يسرق دقيقة من وقت حافظ بك الثمين، وقال حافظ بك محتجاً:

ـ يا سلام يا عبد المتعال بك.. إن كل وقتي تحت أمرك.. لا بد أن تشرب شيئاً!

وإزاء الإلحاح طلب عبد المتعال فنجان قهوة مضبوط. ومد حافظ بك ذراعه إلى جرس معلق في الأريكة وضغط عليه، فدخل أحد السعاة مهرولاً فطلب حافظ بك من الساعي في عنجهية:

ـ هات اثنين قهوة مضبوط.. واثنين عصير ليمون.. واثنين عصير برتقال!

وتساءل عبدالمتعال في دهشة:

ـ هل تنتظر سعادتك زائرين آخرين؟

قال حافظ بك وهو يسيل ظرفاً ولطفاً:

ـ أنت زائري الوحيد اليوم!

ـ ولكنك طلبت فنجانين قوة وأربعة عصير!

ـ سنشربها معاً!

ـ هذا كرم حاتمي!

ـ هذا أقل ما أفعله من أجلك. . إنني آسف لما حـدث أمس. . لقد علمت أنك انتظرت عدة ساعات دون أن تقـابلني. إنني أعتذر لـك عن هذا التصرف الأحمق الـذي تصرفه سكـرتيري. . وسـوف أعاقبه على فعلته هذه!

ـ **لا موجب للاعتذار، فقد علمت أنك كنت مشغولاً في مؤتمـر صحفي.**

ـ لو أخبرني سكرتيري بتشريفك أمس، لقطعت المؤتمر الصحفي لأستقبلك على الفور.

ـ **لا بد أن الهانم حدثتك عني!**

واصفر وجه حافظ. لا بد أن عبد المتعال يقصـد زوجته خـديجة التي خطفها منه وتزوجهـا وزج به في السجن ثم تمـالك نفسـه وقال وهو يتصنع الدهشة:

ـ الهانم! أي هانم؟

ـ **فاطمة رشدي!**

وتنفس حـافظ الصعـداء، وكـأن رقبتـه أفلتت فجـأة من حبـل المشنقة وقال في ازدراء:

ـ من هي فاطمة رشدي؟

ـ **الممثلة المسرحيـة المشهورة التي كـانوا يسمـونها (سـاره بـرنـار الشرق)!**

ـ لم أسمع عنها. . إن أعمال الدولة لا تترك لي وقتـاً للذهاب إلى المسارح ومشاهدة الممثلات!

ـ أنا لا أقصد الآن. أقصد من عشرين سنة!

ـ كنت أيامها أتردد على دار الأوبرا الملكية في موسم الفرق الأجنبية لأشاهد فرقة الكوميدي فرانسيز، والفرق الإيطالية العالمية، ولم أشهد فاطمة سري تمثل!

ـ أقصد فاطمة رشدي!

ـ لا فاطمة رشدي ولا فاطمة سري ولا فاطمة قدري، ولا أي ممثلة مصرية.. أنا رجل لا أحب الهلس!

ـ أستغفر الله يا حافظ بك. لقد خيل إلي من طريقة استقبالك لي واحتفائك بي، أن السيدة فاطمة رشدي أوصتك باستقبالي!

ـ أنا رجل لا أعرف التوصيات والوساطات!

ـ ولكن استقبالك لي أذهلني وأنت لا تعرفني..

ـ إنني أعتبر نفسي خادم الشعب.. كل فرد من هذا الشعب هو سيدي ومولاي. ولقد أخبرني سكرتيري أن لديك مسألة هامة، ولهذا حتم واجبي علي أن أستقبلك فأنا أتقاضى مرتبي من الدولة لأكون في خدمة كل فرد من هذا الشعب العظيم.

ـ هذه روح عظيمة جداً!

ـ هذه هي روح صاحب الدولة شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء، يجب أن تسري في كل موظفي الدولة.. حتى الخفير!

□ □ □

وابتسم عبد المتعال.. وتذكر الباشجاويش عبد الجبار أحد فراعنة السجن، وتساءل بينه وبين نفسه هل ستصل هذه الروح النبيلة إلى الباشجاويش، وهل سيعامل المسجونين بهذا الأدب الجم، وهل سيصفعهم على أقفيتهم ويلعن آباءهم بهذه الرقة

والإنسانية والذوق الرفيع!؟

لقد استراح عبد المتعال إلى شخصية حافظ بك السمحة، وإلى وجهه الصبيح المليء بالطيبة، وإلى كلمات المجاملة والتحية.. فعبد المتعال من شعب يؤمن بشعار (لاقيني ولا تغديني).. إن الكلمة الحلوة تخدره.. المجاملة الحقيقية تسلبه إرادته. الابتسامة المعسولة تعميه عن الشخصية الحقيقية للرجل الذي يتحدث إليه.

ولكنه عجب من تأكيد حافظ بك أنه لا يعرف فاطمة رشدي. هل يمكن لرجل أن ينسى اسم المرأة التي صفعته على وجهه؟ إن صفعة المرأة على خد الرجل تعيش في ذاكرته إلى آخر يوم في حياته.. مهما غسل وجهه يحس بأثر الصفعة على روحه ونفسيته وشخصيته. اللهم إلا إذا كثر عدد الصفعات التي انهالت على وجهه، فالصفعة الجديدة عادة تمسح أثر الصفعة القديمة!

كيف لا يعرف حافظ بك فاطمة رشدي وهو يبدو متأثراً بها. كأنه تلميذ في مدرستها، طريقته في مط الكلمات أثناء الحديث هي طريقة فاطمة رشدي، إشاراته بيديه وبأصابعه هي صورة طبق الأصل من إشاراتها، وكثيراً ما ينبهر الشاب الصغير بممثلة أو بممثل فيقلدهما في طريقة الحديث والمشي والحركة دون أن يدري أنه يفعل ذلك، وتنطبع الشخصية أو المثل الأعلى عليه فيجد نفسه يقلد هذه الشخصية بعد مضي السنين!

إنه وجد شبهاً غريباً بين فاطمة رشدي وحافظ بك سري. كل واحد منهما يمثل. كل واحد منهما مندمج في دوره. كل واحد منهما يتحدث بنفس الطريقة، وبنفس الأسلوب!

لا بد أن اهتمام حافظ بك بالتأكيد أنه لا يعرف اسم فاطمة

رشدي دليل على أن الصفعة حقيقية وأنه يـذكر الصفعـة جيداً. إن أي رجل في سن حافظ لا يمكن أن يجهل اسم فاطمة رشدي الـذي كـان يـدوي في النصف الأخـير من العشرينـات ويـصخـب في الثلاثينات.

كـان الطلبـة يحملونها على الأعنـاق ويقيمون لهـا المـظاهـرات في الشوارع. كانت الصحف تنشر صـورها أكـثر مما تنشر صـور الملك فؤاد.

كـانت هنـاك مجلات متخصصـة في الهجـوم عليهـا ومجـلات متخصصـة في الـدفـاع عنهـا. . كـانت حلمـاً من أحـلام الشبـان المراهقين وأمنية للشباب الذين بلغوا سن الرجولة. كانت صـورها الفوتوغرافية في أغلب أدراج التلاميذ في المدارس، وكانوا يسمونها (صـديقة الـطلبة) لأنها كـانت معبودتهم. . كيف يـدعي سكـرتـير رئيس الوزراء أنه لم يسمع باسمها!؟

ولم يكن يخطر ببال عبـد المتعال أنـه يجلس على مقعـد واحد مـع عدوه الكبير. . لم يتصـور أن الرجـل اللطيف الذي يـرحب به كـل هذا الترحيب هو المجرم الـذي خطف زوجتـه وزج به في السجن، ولوث سمعته.

ولم يكن في ملامح حافظ سري المستقيمة ملامح مجرم. كان يبدو رجـلاً يفيض رقة وظـرفاً ووداعـة وكانت مـلامحه المتسـاوية لا تشي بحقيقته الشريرة. كأن هذه الملامح أشبه بقناع يخفي الشرير فيه.

النـاس يخطئـون عندمـا يتوهمـون أن ملامـح الأنسان هي مـرآة لأخـلاقـه وطبـاعـه كم من وجـوه بـاسمـة تخفي خلفهـا قلوبـاً متحجـرة. . كم من تعبيرات مـلائكية تخدع السـذج عن الثعبـان

الذي يختفي فيها. المجرم صاحب الوجه الوديع، الطيب، هو أكثر إجراماً من الوحش الذي تفضحه أنيابه.. المجرم ذو الوجه القاسي قد يقتل ضحية واحدة وتبقى لعنتها مرسومة على وجهه، والمجرم ذو الوجه الضاحك يقتل عشرات الضحايا ويفلت من العقاب.

لم يكن يخطر ببال عبد المتعال أنه يجلس جنباً إلى جنب مع اللص الكبير الذي سرق أموال شركة مصر للبسكويت ونهب أرباحها. كان عبد المتعال يتصور أن غالب بك مدير الشركة الحالي هو المجرم الأول، ولو أنه اطلع على الحقائق لعرف أن غالب بك هو مجرم صغير، اختاره المجرم الكبير حافظ سري ليكون مخلب القط، يقتسم معه المسروقات ويأخذ حصة الأسد منها. بعض اللصوص الذين نتصور أنهم لصوص كبار، ما هم في الحقيقة إلا أسماء مستعارة للصوص أكبر!

□ □ □

وبدأ عبد المتعال يقص قصته على حافظ سري، كيف قبض عليه بغير جريمة.. كيف حكم عليه بغير محكمة.. كيف أمضى سنتين في السجن بغير تهمة.. كيف خرج من السجن بغير اسم.

وكان حافظ سري يصغي للقصة باهتمام شديد. وكانت ترتسم على وجهه انفعالات الحزن والأسى. كانت الدموع تترقرق في عينيه. استطاع حافظ أن يثبت أنه تلميذ نجيب لفاطمة رشدي.. كان مندمجاً في دور المفجوع على العدالة. الحزين على ظلم الأبرياء. أحس عبد المتعال بأن حافظ يشاركه في محنته، ينفعل بمأساته، يشعر بهول ما أصابه من إرهاب واستبداد وهوان!

وعندما ذكر عبد المتعال أنه بعد خروجه من السجن ذهب إلى

بيته في شارع أبو الفدا في الزمالك فلم يجد زوجته، ولم يجد بيته، وأنه حفيت قدماه وهو يبحث عن زوجته فلا يجد لها أثراً، قاطعه حافظ في بطء وإعياء وكأنه يحمل على رأسه كل هموم عبد المتعال ومآسيه وقال:

ـ هذه كارثة حقيقية. إني مستعد أن أساعدك للعثور على زوجتك فوراً إنني مستعد أن أجند كل أجهزة الدولة للبحث عنها. أي رجل شريف لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين أمام هذه المأساة الفاجعة.

ثم وقف حافظ، واتجه إلى مكتبه وأمسك قلماً وسأل عبد المتعال:

ـ ما هو اسم زوجتك؟

ـ اسمها خديجة حسين ابنة المرحوم مراد حسين بك سكرتير عام وزارة الأشغال سابقاً.

ودوّن حافظ الإسم في مفكرة أمامه، ثم رفع سماعة التليفون وأدار رقماً معيناً وقال:

ـ أرجو أن تبحث فوراً عن السيدة خديجة حسين ابنة المرحوم مراد حسين بك، هل هي في مصر أم غادرتها. وإلى أين ذهبت.. وما هو عنوانها.. نصف ساعة؟ هذا كثير جداً.. هذا دليل على أن الإدارة عندك فوضى. أعطيكم عشر دقائق فقط للبحث عن عنوانها، اتركوا كل الأعمال التي في أيديكم وتفرغوا لهذه المهمة وحدها!

ووضع حافظ السماعة فوق آلة التليفون وابتسم وهو يقول:

ـ هـذه هي طريقتي في العمـل. لا أؤجل عمـل الساعـة الثانيـة عشرة إلى الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق!

وحملق عبـد المتعال مبهـوراً بهذا المـوظف الكبـير، الإنسـان.. وندم على أنـه أضاع أيـاماً وأسـابيع قبـل أن يذهب إلى هـذا المنقذ الكريم.. ورفع عبد المتعال يديه إلى السماء راجياً من الله أن يكـثر من أمثاله!

وعـاد حافظ وجلس بجـوار عبد المتعـال، وربت عـلى كتفـه في حنو وعطف وهو يقول:

ـ اطمئن يا عبد المتعال. إن مسألتك في أيد أمينة!

ـ إنني لم أتـوقع أن أجـد موظفـاً كبيراً في الـدولة بهـذا النبـل والمروءة!

ـ لا تخجل تواضعي.. إنني لم أفعـل سوى واجبي. أنـا أتعذب لمأساتك وكأنها مأساتي.. وأحب كـل حكومـة أن تكون أمـاً وأختاً وصـديقة لكـل فـرد من الشعب يجب أن يعلم الشعب أن الكلمات التي تتحدث عن العدالة والمساواة والقـانون ليست شعـارات معلقة عـلى جدران الشـوارع، إنما هي كتـابها المقـدس. هي صلاة يـومية يجب أن تؤديها الحكومة للشعب الذي هو إلهاً وخالقها!

وترقرقت دموع الشكر والعرفان في عيني عبد المتعال وقال:

ـ إنـك أعدت لي ثقتي في الحكـومة. كـان سعـد زغلول يقـول «أريـد أن ينظر الشعب إلى الحكـومة نـظرة الجيش إلى القائـد، لا نظرة الطير إلى الصائد».. ولكن سعد زغلول ذهب وإذا بالحكومة تتحول إلى بندقية ثم إلى مدفع رشاش!

ـ كل هذا انتهى . . في العهد الجديد الدولة أصبحت في خدمتك!

ـ لم أكن أتصور أن الدولة تعني كل هذه العناية بإعادة زوجة إلى زوجها!

ـ الحكومة المؤمنة بالشعب تعتبر نفسها مسؤولة عن سعادة كل فرد في بيته، وفي عمله، لا يكفي أن تحافظ الحكومة على القانون. المحافظة على الإنسان أهم من المحافظة على القانون. ليس هناك أسهل من المحافظة على القانون. يكفي أن تصدر أمراً بألا يخرج أحد من بيته فلا تقع مخالفات المرور. . أن تصدر أمراً بأن يغلق الناس أفواههم فلا يرتفع صوت معارضة. . أن تصدر قراراً بمنع السكاكين والبنادق فلا تقع جرائم قتل. . أي حاكم تافه يستطيع أن يفعل كل هذا. ولكن مهمة الحاكم أن يسعد أمته، أن يضع ابتسامة على كل شفة أن يعيد الثقة والاطمئنان إلى كل قلب. . أن يشعر الشعب أن الحكومة ليست الجزار الذي سيذبحه. بل الطبيب الذي يداويه. وهو عندما يدفع الضريبة إنما يدفع أجر الطبيب وثمن الدواء الذي يشفيه!

ـ هذه أول مرة أسمع فيها هذه العبارات النبيلة في دار حكومية. . كنت أظن أن كل موظف في الدولة أصبح الباشجاويش عبدالجبار الذي عرفته في السجن. كنت أرى في أروقة السجن شعارات تتحدث عن العدالة، وهي معلقة فوق رؤوس المظلومين. كنت أرى لافتة كبيرة تقول (السجن إصلاح وتهذيب) وتحتها الحراس يجلدون المسجونين!

ـ انتهت عهود الشعارات. . شعارنا الآن هو «المقشة» التي سنكنس بها الظلم والرشوة والفساد!

ودق جرس التليفون، وقفز حافظ من الأريكة ورفع سماعة التليفون وقال:

- هل جئت بالمعلومات؟ برافو. . إنك لم تحتج إلا لسبع دقائق فقط!

وبدأ حافظ يدون كلمات في ورقة أمامه، ولاحظ عبد المتعال أن وجه حافظ تجهم فجأة وراح يردد: حاجة غريبة. . عجيبة. . ثم وضع السماعة في صمت.

ووقف عبد المتعال واتجه إلى حافظ وهو يسأله في صوت ملتاع:

- هل ماتت خديجة؟

- لا، لم تمت. . وإنما غادرت مصر منذ أكثر من عام. . سافرت الى اسطنبول ولم تترك عنواناً وراءها!

- إن اسرتها مقيمة في الأناضول.

- هل تعرف المدينة التي تقيم فيها الأسرة لأبرق إلى السفارة المصرية في أنقرة للبحث عنها؟

- للأسف. . كل ما أعرفه أن لها أقارب يقيمون في الأناضول.

- الاناضول واسعة جداً، وفيها مدن كثيرة وقرى كثيرة. . إن من رأيي أن تسافر أنت إلى تركيا للبحث عنها بنفسك. .

- كيف أستطيع السفر وأنا لا أملك اسما أستخرج به جواز سفري؟

- هذه مسألة بسيطة جداً. . ويكن أن أستخرج لك جواز سفر. .

- باسم عبد المتعال محجوب؟

- هذا سوف يعقد الامور. المفروض انك مت رسمياً في

سجلات الدولة، ومسألة إعادتك إلى الحياة مسألة طويلة تحتاج إلى وقت وإجراءات. يمكن أن أستخرج لك جواز سفر باسم (جرجس بطرس) وهو الاسم الذي قلت انك خرجت وأنت تحمله من السجن!

ـ ولكن كيف أقول في تركيا أن اسمي جرجس بطرس وهو مسيحي وأطالب بزوجتي وهي مسلمة!؟

ـ القانون التركي يبيح زواج المسلمات من مسيحيين!

ـ ولكني لا أملك شيئاً حتى أستطيع دفع أجرة السفر ومصاريف الاقامة في تركيا!

ـ سوف أدفع لك هذه النفقات!

ـ العفو!

ـ واجب الدولة أن تدافع عن حق كل فرد فيها. . وإذا لم يكن في ميزانية الدولة بند للصرف على مثل هذه الأمور، فهذا ليس ذنبك وإنما ذنب الدولة، ولهذا فانني كمسؤول في هذه الدولة يجب أن أدفع لك مصاريف استعادتك زوجتك وعودة الحياة السعيدة إلى بيتك.

ـ هذا معروف لن أنساه طوال حياتي. وإنما أرجو أن تعتبره ديناً أسده لك في المستقبل.

ـ أرجوك أن تمنحني السعادة بأن أشعر أنني اشتركت بتقديم مساعدة متواضعة لإعادة زوجتك إليك!

□ □ □

نظر عبد المتعال في امتنان لحافظ. . قرأ في وجهه صورة ملاك.

وجد نفسه فجأة يكره فاطمة رشدي ويلعنها. . كيف تجرؤ وتصفع هذا الملاك الجميل على وجهه؟ يا لها من امرأة غبية لا تعرف قيمة الرجال. لقد أضاعت بحماقتها كنزاً من الأخلاق الفاضلة والمثل العليا.

خيل إليه أنه يرى فوق رأس حافظ الهالة التي يرسمونها فوق رؤوس القديسين. . كيف تجرؤ هذه الشيطانة على صفع قديس! لا يمكن أن تكون صفعته. إنه رجل صادق لا يكذب. . البراءة والنور يشعان من عينيه. لا بد أن فاطمة رشدي هي الكاذبة، وأنها اختلقت هذه الرواية التي أملاها غرورها لتشوه صورة هذا الملاك الكريم، وتضيف اسماً مخترعاً إلى قائمة العشاق والمعجبين. وتمنى لو يذهب إلى فاطمة رشدي ويصفعها على وجهها، لأنها تطاولت كذباً على هذا القديس الذي لا يكذب أبداً!

وأحس عبد المتعال بأنه يستطيع أن يثق بحافظ سري كما لم يثق بأي إنسان من قبل، حتى بصديقته النجمة سلوى وهبي. لقد روى قصته أمام سلوى وأمام زينب صدقي وأمام جلال حمدي رئيس تحرير جريدة (الصباح الجديد)، ولكن أحداً منهم لم يظهر هذا التجاوب الذي أظهره حافظ سري. لم يبك كما بكى! لم ينفعل كما انفعل، كل واحد من هؤلاء كان يسمع مأساته وكأنه يتفرج على رواية على المسرح، أما حافظ وحده فهو الذي أشعره أن هذه المأساة هي مأساته.

وعندما كان يحكي حكاية السياط التي انهالت عليه في السجن كان يرى أثر السياط على وجه حافظ، وكأنها أصابته هو، وكأنه كان ينزف دماً وهو يسمع صوتها. عندما قص عليه المظالم التي

تعرض لها أحس بأن حافظ ينتفض غضباً وسخطاً على الظالمين الملفقين . .

وهو لم يكتف بمشاركته القلبية في محنته، بل سارع إلى تجنيد أجهزة الدولة للبحث عن خديجة، طلب من الموظفين أن يتركوا كل أعمال الدولة ليتفرغوا للبحث عن خديجة، وقرر أن يساهم من جيبه الخاص بنفقات سفره إلى تركيا!

يا له من إنسان. . كيف لم يعرف عنوان هذا الإنسان من قبل وأمضى أياماً بين الحيوانات، يدق أبواباً مقفلة، ويتحدث إلى الصم، ويحاول تحريك قلوب متحجرة؟

لقد ظلم الدولة عندما تصور أنها الباشجاويش عبد الجبار. كان يتصور أن عهد الفرسان القدماء قد انقضى. الفارس القديم كان يمد ذراعه من فوق حصانه ليساعد الساقطين على الأرض ليقفوا على أقدامهم من جديد. والفارس الجديد يدوس بحصانه فوق رؤوس الناس.

الفارس القديم ينجد المظلوم ويغيث الملهوف، والفارس الجديد يمشي في موكب الظالمين!

الفارس القديم يركب الخيول، والفارس الجديد يركب رقاب الضعفاء والمسحوقين!

هاهوذا يرى الفروسية القديمة بعثت إلى الحياة. هاهوذا يرى فارساً في أكبر مناصب الدولة، وقد أوهمته محنته أن مناصب الدولة الكبرى أصبحت (صفيحة زبالة) لا توضع فيها إلا القاذورات!

لقد ظلم الدولة بينما فيها حافظ سري بك مثال الرجولة والشهامة والشرف!

□ □ □

أما حافظ سري فقد كان سعيداً بأنه خدع عبد المتعال، لقد استغفله في المرة الأولى عندما خطف منه زوجته خديجة وأودعه السجن، ولكن سعادته في المرة الثانية كانت أكبر وهو يتفرج عليه وهو يستغفله للمرة الثانية، ويوهمه بأنه المنقذ، بينما هو يريد أن يدفنه حياً، ويخدعه بأنه يساعد في البحث عن خديجة بينما خديجة راقدة في فراشه.. كان حافظ راضياً عن نجاحه في التمثيل كما يرضى الممثل عن نفسه عندما يستطيع أن يندمج في دوره ويحرك مشاعر المتفرجين كما يريد!

ما أعظمه من ممثل: السافل الذي يجيد تمثيل دور الرجل النبيل!

وشجعه تجاوب عبد المتعال ليمضي في تمثيل دوره. تماماً كما تفعل المطربة عندما ترى الجماهير مسحورة بغنائها، فتمضي تلعب بعواطفهم وتهز مشاعرهم وتغير في اللحن وتبدل في طريقة الأداء حتى تجعلهم يتمايلون فوق مقاعدهم!

وجد حافظ لذة في أن يلعب بعبد المتعال.. أن يسمع بأذنيه إعجاب القتيل بالقاتل، وزغردة الشاة المذبوحة إعجاباً بالجزار.

ولم يعد يشعر بخوف من عبد المتعال كما أحس عندما طلب مقابلته. لقد اطمأن إلى أنه مغفل، وأنه لا يعرف أنه هو الذي خطف زوجته وأدخله السجن واطمأن إلى أنه لم يجيء إليه ليطالبه بإعادة زوجته المسروقة. وشعر فجأة بأن دم عبد المتعال خفيف. إننا

نستخف دم المغفل ونحن نستغفله، ونستثقل دمه إذا عجزنا عن استغفاله وخداعه!

ولم يكن عبد المتعال بطبيعته مغفلاً.. وإنما هي طبيعة الإنسان أن يشعر بأخوة وصداقة نحو كل إنسان يتجاوب معه في محنته.. عود الثقاب في الظلام الدامس له قوة الشمس الساطعة.. الكلمة الحلوة في فم مليء بالمرارة كأنها مأدبة عشاء ملكية... الإصغاء للمظلوم هو أسرع طريقة للدخول إلى قلبه..

والرجل المسحوق لا يتصور أن الجالس على مقعد السلطان في حاجة لأن يكذب أو يخادع. الضعفاء وحدهم هم الذين في حاجة إلى الكذب ليشقوا طريقهم في عالم الأقوياء!

ولم يكن عبدالمتعال يعلم أن فوق مقاعد السلاطين يجلس أحياناً ضعفاء تاجهم من الكذب، وصولجانهم من النفاق!

كانت حياة حافظ سلسلة من الأكاذيب. فهو مدين لنجاحه لكذبه عندما اشترى الخمس بطيخات لزوجة شفيق باشا فتحي. وقد شق طريقه بالكذب، وهو يختلق المفتريات على زملائه في مكتب الوزير حتى ارتفع على جثثهم جميعاً، وهو قد كذب على شفيق باشا عندما أوهمه أنه يكتب خطبه، بينما هو كلف عدداً من أساتذة الجامعة بكتابة هذه الخطب التي ينسبها لنفسه، وهو يكذب عندما يدعي أنه رجل، وسكرتيره محمد الجنيدي يعرف أن رجولته المزعومة إشاعة فيها من الكذب أكثر من الحقيقة!

وكانت أبرز صفات حافظ أنه يجيد التمثيل. لقد استفاد كثيراً من حضور مسرحيات فاطمة رشدي التي كان يعشقها. كان يجيد تمثيل الرجل وهو ليس رجلاً، ويجيد تمثيل المرأة وهو ليس امرأة..

كان يتظاهر بالوفاء وطبيعته الغدر. وكان جريئاً في جبان وخبيثاً في طيب، وداعراً في أدب، وفاجراً في فراشه، وتقياً في مكتبه.. وكان قادراً في أي لحظة على أن يذرف الدموع الساخنة، فيتظاهر بأنه يبكي وقلبه يضحك، ويمثل دور المفجوع الذي ينزف فؤاده دماً، بينما دماء ضحيته لا تزال تلوث يديه!

كان لا يقول «لا» أبداً. يعد ولا يفي. ينسب إلى رئيسه شفيق باشا كلمات لم ينطق بها، ويدعي عليه عهوداً لم يقطعها.. إذا جاءه مظلوم بمظلمة تظاهر بأنه يتبناها، ثم يلقيها في سلة المهملات.. إذا طلب مرؤوس ترقية زعم أنه تحدث فيها مع رئيس الوزراء مرة ومرتين وثلاث مرات، مع أنه لم يفتح فمه مرة واحدة.. لا يدافع عن صديق ولا ينتصر لمظلوم ولا يرد حقاً ولا يدفع باطلاً.. يهز رأسه بالموافقة على كل رأي يقوله رئيس الوزراء مهما يكن تافهاً، ويضحك لكل نكتة يقولها رئيس الوزراء مهما تكن سخيفة.. ويتجه إلى باب رئيس الوزراء منفوخاً كالديك الرومي ولا يكاد يدخل من الباب حتى يتحول إلى فأر مذعور، يسرق الكحل من العين، ويكون عادة أول من يصيح (يا بوليس)!

وكان شفيق باشا فتحي يستريح إلى سكرتيره الخاص، إن سكرتير الحاكم أشبه بعشيقته.. يسر لها أكثر مما يقول لزوجته. يراها أكثر مما يرى أهل بيته، يتبسط في الحديث معها.. يسمع بأذنيها، ويرى بعينيها.

وكان حافظ يحتفظ بوظيفة (صبي الحريم) وهو يقوم بمهمة سكرتير صاحب الدولة رئيس الوزراء. لم يتردد يوماً في أن يزيح ملفاً هاماً من ملفات الدولة ليجيب مطالب دولة الهانم!

وهكـذا أصبح حـافظ (فرخـة بكشـك) في بيت رئيس الـوزراء وفي مكتب رئيس الوزراء، وإذا كان اعتاد أن يضع مطالب الشعب في سلة المهمـلات، فقـد اعتـاد أن يضـع مـطالب بيت رئيس الـوزراء فـوق رأسه.. فهو يهتم بفراخ الهانم أكثر مما يهتم بالجماهير، ويعطي الأولـوية لشراء ديـك رومي من سوق الخضـار عن مذكـرة وزارة الأشغال بفتـح اعتماد لمقاومة الفيضان!

وعندما تتحول الدولة إلى عزبة تصبح المسائل الخاصة أهم كثيراً من المسائل العامة، يصبح البحث عن مربية فرنسية للعنايـة بأحفـاد رئيس الـوزراء أهم من توثيق العـلاقات بـين مصر وفرنسـا.. ويصبح إيفـاد المـوظف إلى أمريكـا لاختيار أجهـزة مطبـخ الباشـا أهم من شراء عقل اليكتروني!

وكانت كفاءة حـافظ سري أنه خلط بـين شؤون البيت وشؤون الدولة، فهـو يعامـل خدم البـاشا كـأنهم وزراء، ويعامـل الوزراء كأنهم خدم الباشا.. امتزجت ميزانيـة البيت بميزانيـة الدولـة، فهو المسؤول عن المصاريف السرية في رئـاسة الـوزارة، وهكذا كـانت الدولة هي التي تـدفع أجـرة خياطـة فساتـين دولة الهـانم، وتدفـع مصـــاريف رحلة ابنـة رئيس الـــوزراء إلى أوربـا لقضـــاء شهـر العسل، وتدفع ثمن كلسونات رئيس الوزراء المشتراة من لندن.

وكـان رئيس الوزراء، والحق يقـال يدفـع من مرتبـه كـل شهـر عشرين جنيهـاً لحافظ كمصـاريف نثريـة.. وكان حـافظ يـزعم أن العشرين جنيهـاً تكفي وزيادة لشراء كـل ما يـريده البـاشا وحـرمـه وابنته مما يصل إلى أكثر من ألف وخمسمائة جنيـه في الشهر.. وكـان الباشا يعجب من كفاءة حافظ في إمساك الدفاتر، وفي علم المحاسبة

والاقتصاد، وفي قدرته العجيبة على أن يشتري كل ما يشتري ويدفع كل ما يدفع في حدود العشرين جنيهاً فقط في الشهر الواحد!

هذه الصورة الحقيقية لحافظ لم يتبينها عبد المتعال وهو يجلس بجواره يتغنى بنبله، وإنسانيته، وشرفه، ومروءته، وحدبه على الشعب المصري الكريم.

وكان هو يسمع حافظ يتحدث عن وجوب إنصاف المظلومين والضرب على أيدي الظالمين والفاسدين والمرتشين، يلعن صديقته النجمة سلوى وهبي، التي حذرته من أن يسلم المستندات إلى حافظ سري خشية أن يعبث بها، وأصرت على أن يحتفظ بصورة زنكوغرافية لها!

المرأة دائماً سيئة الظن. تشك في كل شيء.. تريد أن تحتاط لكي شيء.. يا لعقلها الفارغ. إنها لم تتصور أن حافظ سري هو تمثال للنبل والمروءة والإخلاص!

ربما تكون سلوى أحست بغريزتها كامرأة أن حافظ سري سيعيد له زوجته خديجة، ويجند أجهزة الدولة للبحث عنها، ولهذا أرادت أن تزرع الشك في قلب عبد المتعال حتى لا يثق بالرجل الذي سيعيد له غريمتها خديجة!

وكان عبد المتعال يجهل حقيقة غريبة، وهي أنه عندما تحب المرأة حباً كبيراً يقام في روحها مرصد سحري للأرصاد الجوية.. فهي تشم من بعيد العاصفة قبل أن تهب على حبيبها. ينقبض قلبها لأشخاص معينين يتصور حبيبها أنهم فوق كل شيء، ثم تجيء الأحداث بعد ذلك بوقت طويل لتؤكد مخاوفها. إنه شعور عجيب لا يفسره منطق، وإنما الثابت من التجارب أن في قلب المرأة

العاشقة جهازاً سحرياً يفرز الأشخاص الذين لهم علاقة بحبيبها!

وكان لها عيناً سحرية ترى بها أحداث الغد، فتشم غدر صديق حبيبها قبل أن يغدر بسنوات، بل قبل أن يفكر في أن يغدر بحبيبها.

لقد حذرت سلوى وهبي صديقها عبد المتعال من حافظ صباح اليوم، قبل أن يحضر للقائه. ولم تكن تعرفه ولا التقت به مرة واحدة في حياتها. فلم تكن المسألة مسألة فراسة أو ذكاء، ولا قدرة عجيبة على الحكم على الرجال، وإنما كانت إحساساً داخلياً لم تستطع سلوى تفسيره عندما سألها عبد المتعال عن سر انقلابها على حافظ فجأة وهي التي كانت تشجعه في أول مرة على الذهاب إليه، وصحبته إلى فاطمة رشدي لتوصيه عليه، كل ما استطاعت سلوى أن تقوله هو أن قلبها منقبض منه!

وعندما كان يجلس عبد المتعال مع حافظ ويتبين بنفسه مناقبه وصدقه ومروءته كان يهزأ بينه وبين نفسه بصغر عقول النساء، وبأنهن يتوهمن أشياء لا حقيقة لها، ويرين صفات لا أساس لها.. المرأة تحب وتكره بلا سبب، وترفع رجلاً إلى السماء، وتهبط برجل آخر إلى الأرض بغريزة غير مفهومة للرجل.. ولكن المرأة وحدها تفهمها.. فالمرأة كثيراً ما تفكر بإحساسها.. وكثيراً ما يكون إحساس المرأة أصدق حكماً من أعقل العقلاء!

□ □ □

ووجد عبد المتعال نفسه يفتح قلبه لحافظ ويروي له فضيحة شركة مصر للبسكويت، كيف نهب غالب بك مدير الشركة أموال المساهمين، كيف أدار الشركة بجهل وغرور حتى فقدت السوق

العالمي، كيف طارد الموظفين الأكفاء وملأ الشركة بالأقارب والمحاسيب كيف زور ميزانية الشركة ليخفي سرقاته، كيف قتل عبد الجواد أفندي وكيل الحسابات لأنه شك في أنه سيسلمه الوثائق التي تثبت التزوير.

وكان حافظ يتظاهر بالانزعاج والغضب والسخط على هذه الجرائم ثم وضع ذراعه خلف عبد المتعال وقال له:

- أنا أصدقك في كل ما قلت.. ولكن القانون لا يؤخذ بالكلام... إن شاهدك الوحيد هو عبد الجواد وقد دهسته سيارة ومات، فكيف يتكلم رجل ميت؟

- هناك شهود لا يمكن أن يموتوا. لا يمكن أن تدهسهم سيارة!

- وأين هم هؤلاء الشهود؟

- في هذه الحقيبة.. هذه وثائق ومستندات تؤكد عملية التزوير!

وفتح عبدالمتعال الحقيبة، وأخرج الوثائق ودفعها إلى حافظ.

وأمسك حافظ بالوثائق وبدأ يقرأها. وارتعشت يده التي تحمل الوثائق. وبذل جهداً جباراً كي يخفي رعبه وهو يقرأ بعينيه أدلة جريمته.. ثم قال في هدوء:

- من أين جئت بهذه الوثائق؟

- سرقتها!

- ألا تعرف أن القانون يعاقب على سرقة الوثائق؟

- هذه وثائق تثبت جريمة أكبر جداً من جريمة سرقة الوثائق.. أنا سرقت ورقة، وغالب بك سرق أمة!

- القانون هو القانون، وإذا تقدمت بهذه الوثائق إلى أي جهة

فسوف تقبض عليك بتهمة السرقة قبل أن تحقق في الوثائق نفسها!

- إنني سرقت لأخدم العدالة!

- العدالة تشترط أن يخدمها الناس بطريقة قانونية!

- وماذا تنصحني أن أفعل؟

- لا داعي لأن تثير مسألة شركة البسويت حتى لا تدخل السجن إنني أنصحك كصديق لا تهمه إلا مصلحتك!

- ومصلحة البلد؟

- مصلحتك، هي مصلحة البلد؟

- لقد دخلت السجن بغير جريمة وأنا مستعد أن أدخل السجن مرة أخرى إذا كان هذا ثمن إنقاذ الشركة!

- أنت تحب الشركة أكثر من نفسك!

- لأنني بنيتها بدمي.. إننا عندما نقيم مصنعاً نشعر أنه ابننا.. أخاف على المصنع كما أخاف على ابني.. حتى لو انتقلت ابنتي إلى رجل غريب أبقى أحبها كما كنت أحبها وأنا أقيم معها في بيت واحد. إنني أشعر بأن غالب بك اغتصب ابنتي. داس عليها بقدميه. أساء إلى سمعتها ولا مانع عندي أن أدخل السجن لأنقذ ابنتي من الرجل الذي اغتصبها!

وشعر حافظ بالغيظ من عبد المتعال. أصبح فجأة ثقيل الدم. كان سعيداً به وهو ألعوبة بين يديه، وعندما رفض أن يقبل نصيحته شعر أنه رجل خطر. الحكام يضيقون دائماً بالرؤوس الناشفة، ولذلك يعملون على تحطيمها. وأسرع حافظ يتحكم في غضبه ورسم على شفتيه ابتسامة كبيرة وقال في صوت متهدج:

- أنت رجل طيب يا عبد المتعال بك.. هل صدقت حقيقة أنني

أريـد منك أن تعـدل عن اتهام غـالب بك؟ لقـد كنت أمتحن قـوة صمـودك وإصرارك ووطنيتـك، إنـك نجحت في الامتحـان. أثبت أنـك عند حسن ظني. إنني أعجب بشجـاعتك إنني أحييـك بـاسم الدولة على قوة إيمـانك بـالعدالـة. إنني سأتصـل فوراً بـدولة رئيس الـوزراء وأبلغه بمـوقفك العـظيم. وأرجـوك أن تنتـظرني في غـرفـة سكرتيري الأستاذ الجنيدي حتى أنتهي من الحـديث مع دولـة رئيس الوزراء. ولكن اعطني أولا عنوانك!

ـ إنني أقيم في غـرفة عـلى سـطوح المنـزل رقم ١٧ بشـارع أبـو الفدا بالزمالك.

ـ ورقم تليفونك؟

ـ ليس عندي تليفون، ولكن يمكنك أن تطلبني في شقـة النجمة سلوى وهبي التي تقيم في نفس العمارة.

ـ هل هي قريبتك؟

ـ لا.. صديقتي.

ـ هل تثق بها؟

ـ طبعاً؟

ـ ما الذي يجعلك تثق بها كل هذه الثقة؟

ـ لأنها سـاعدتني في سرقـة المستندات، وهي التي اسـتطاعت أن تحصل على مفاتيح خزانة الشركة من جيب غالب بك!

ـ إنها سيدة عظيمة!

ـ جداً.

ـ لا بد أنها تحبك!

ـ وأنا أحبها!

ـ ولماذا تبحث عن خديجة إذن؟

ـ خديجة زوجتي أمام الله والناس.
ـ هل ستخبر خديجة عندما تجدها أنك خنتها مع سلوى وهبي؟
ـ طبعاً، إنني لا أعرف الكذب.
ـ وهل تظن أن خديجة خانتك طوال هذه المدة؟
ـ مستحيل، إنها سيدة مخلصة جداً!

وابتسم حافظ سري، فقد كان يتصور أنه وحده الذي يعرف مقدار إخلاصها ثم قال:

ـ أرجو أن تذهب إلى سكرتيري وتنتظرني، حتى أتصل بدولة رئيس الوزراء.

□ □ □

وخرج عبد المتعال من الغرفة. وبعد دقائق استدعاه حافظ سري وفتح ذراعيه وعانقه وهو يقول:

ـ مبروك يا عبد المتعال بك.. دولة الرئيس مهتم شخصياً بمسألتك.. يمكنك ابتداء من الآن أن تعتمد على صديقك حافظ سري.. سنعيد زوجتك إليك.. سنعيد منصبك إليك.. سنقبض فوراً على المجرمين!

الفصل السابع والثلاثون

الذين رأوا عبد المتعال وهو يدخل مكتب سكرتير رئيس مجلس الوزراء، ثم رأوه وهو يخرج من المكتب، لا يمكن أن يتصوروا أن الرجل الذي دخل من الباب هو نفس الرجل الذي خرج من الباب!

الرجل الأول محني الظهر، والرجل الثاني منتصب القامة. الرجل الأول يحمل على كتفيه طناً من الهموم، والرجل الثاني يحمل في روحه الأمل.. الرجل الأول في الأربعين والرجل الثاني في الثلاثين. الشباب ليس مرحلة من العمر. إنه إحساس!

اندفع عبد المتعال إلى الأستاذ الجنيدي سكرتير حافظ سري، وشد على يده عدة مرات، ثم اندفع إلى كل الموجودين في الغرفة يصافحهم واحداً واحداً، يوزع على كل واحد منهم ابتسامة.. كان من ساعات يبحث عن البسمة فوق شفتيه فلا يجدها، أما الآن فهو (ثري بسمات) يوزعها ذات اليمين وذات اليسار!

كان يقول لكل واحد من أصحاب المظالم المنتظرين في الغرفة (اطمئنوا). ولم يكن يخدعهم، بل كان يؤمن إيماناً صادقاً بأنه ما دام حافظ سري استطاع أن يحل مشكلته فهو قادر على أن يحل مشاكل الشعب كله!

ولم يكن عبد المتعال أنانياً في هذا الإيمان. إنها طبيعة البشر أن يعتبر الواحد منا مشكلته هي مشكلة الكون.. مصائبنا هي مصائب العالم، وأفراحنا هي أفراح الدنيا.. عندما نيأس نرى الظلام يملأ الوجود، وعندما نسعد نتوهم أننا نسمع الزغاريد من كل الشفاه!

وكان المنتظرون في غرفة الأستاذ الجنيدي ينظرون بدهشة إلى عبد المتعال وهم يرون عينيه توزعان عليهم الأحلام والوعود. ولم يفكر واحد منهم ماذا تعني كلمة «اطمئنوا». كل واحد منهم فسرها أنها تعنيه هو بالذات. الإنسان يصدق ما يتمناه. نفسر أحلامنا على هوانا، نتعلق بأي كلمة عابرة، فنعتبرها فألاً حسناً.. فنحن في هذه الحياة أشبه بالغرقى، نتوهم أن أي قشة نراها في البحر الصاخب هي خشبة النجاة!

وعندما نسمع وعداً خلاباً لا نناقشه، ولا نطبق عليه قواعد المنطق، فنحن نقبل الأنباء السعيدة بلا مناقشة، ونتشكك في الأنباء التي تصدم عواطفنا وأحلامنا.. لو أن أحداً جمع وعود الحكام في كتاب لاحمر وجه مسيلمة الكذاب خجلاً.. ولكننا نسمع الوعد الجميل فنصدقه لأننا نتمنى أن نصدقه لا لأننا نجهل أنه يخرج من فم كذاب!

بدا عبد المتعال في عيون المنتظرين المسحوقين شاباً في ريعان الشباب. النساء الجالسات شعرن أنه شاب جميل الصورة. المسنون رأوه ملاكاً من السماء يحمل إليهم بشرى الفرج. طالب الجامعة الذي لا يعجبه العجب خدرته كلمة (اطمئنوا) وفهم منها أن عبد المتعال لديه أخبار مؤكدة بأن الحرية والديمقراطية والعدالة قادمة

في الطريق. السيدة الجميلة التي تصورت عندما رأت عبد المتعال يدخل غرفة حافظ سري أنه حلاقه الخاص، غيرت رأيها وجعلته وكيل وزارة أو رئيس تحرير جريد كبرى!

المثل العامي الذي يقول (الناس ملافظ) هو صورة فوتوغرافية للنفس البشرية. فالألفاظ هي آخر ما وصلت إليه مبتكرات التجميل. وجوه الناس تتغير مع كلماتهم. عندما يقول الرجل الجميل نبأ يسيء إلينا، تتحول ملامحه إلى ملامح البومة أو الغراب، والرجل المشوه الخلقة عندما يزف إلينا بشرى سارة يبدو كأنه ملك جمال!

وكان عبد المتعال بطبيعته رجلاً رأسمالياً في أحزانه، واشتراكياً في أفراحه، يحتفظ لنفسه بهمومه ومآسيه، ويجد لذة في أن يوزع سعادته على الناس. ولهذا وجد نفسه يطمئن كل من يقابله لأنه اطمأن، يبشر كل من يصافحه لأن قلبه يزغرد بالبشريات السارة التي سمعها في مكتب سكرتير رئيس الوزراء عن العهد الجديد!

وخرج إلى الشارع تتقدمه أساريره، وقد تمنى في لحظة من اللحظات أن يعانق كل رجل يلقاه في الطريق. وتمنى لو استطاع أن يذهب إلى محطة الإذاعة ويذيع على الشعب ما سمعه من حافظ سري عن نوايا الحكومة المخلصة من أجل هذا الشعب المسحوق المظلوم.

وكان الناس يتطلعون إليه في الشارع بدهشة. ولكن ابتسامته الكبيرة جعلت الناس يبتسمون، فالبسمة فوق الشفاه مرض معد كالتثاؤب. فأنت تجد نفسك تضحك عندما ترى رجلاً آخر يضحك، دون أن تعرف سبب ضحكاته. أما الدموع فلا تعدي.

ولـو أننا نبكي لبكـاء الآخرين لتغـير حـال الـدنيـا واختفى الـظلم والمظالم، ورحل الطغيان والطغاة!

وشعر عبد المتعال بأنه لا يمشي على قدميه، وإنما هو يـطير فوق السحـاب، لقد حقق كـل أمنياتـه في دقائق معـدودة. استـطاع أن يـوصل الـوثائق التي تثبت الفسـاد في شركـة مصر للبسكـويت إلى الدولة، إلى أقوى شخصية في الدولة، إلى الرجل الذي يستطيع أن يعيد الحق إلى نصابه بمحادثة تليفونية!

واستطاع أن يحصل على وعد بـأن يعود إلى منصبـه. استطاع أن يجعـل الدولـة تجند أجهـزتهـا في مصر والخـارج للبحث عن زوجتـه خديجة وإعادتها إليه. استطاع أن يعرف ويتأكـد أن الحكومـة لم تعد بندقية مصوبة إلى صدر الشعب، بل مـلاكه الحـارس الجميل فـماذا يريد بعد كل هذا؟

□ □ □

ودخل عبد المتعال إلى شقة صـديقته النجمـة سلوى وهبي وهو يرقص. ووقفت سلوى مبهوتة وهي تراه يرقص. كانت تعرفه رجـلاً متزناً، لا يهتز بسهولة. وسألته في لهفة عـما حدث، فـأجابهـا وهو لا يزال يرقص:

ـ ليلة القدر.. ليلة القدر.. يا سلوى!

ـ اليوم ليس ٢٧ رمضان!

ـ إنها ليلة قدر خاصة بي وحدي وجدت أبواب السماء فتحت في وجهي، بعد أن كانت كل الأبواب مغلقة!

ـ قابلت النائب العام؟

ـ أهم.. من النائب العام!

ـ وزير العدل؟

ـ **أهم من وزير العدل!**

ـ رئيس الدولة؟

ـ **أهم من رئيس الدولة. قابلت رئيس الوزراء الحقيقي!**

ـ شفيق باشا فتحي؟

ـ **قلت لك رئيس الوزراء الحقيقي.. شفيق باشا طرطور.. قابلت أقوى رجل في الدولة.. حافظ سري بك سكرتير رئيس الوزراء، والحاكم الفعلي، والرجل الذي يحكم مصر من وراء الستار!**

ـ والذي صفعته فاطمة رشدي على قفاه؟

ـ **أرجوك.. لا أسمح لك بأن تتكلمي عن صديقي حافظ سري بك..**

ـ لم أعرف أنه صديقك!

ـ **أصبح صديقي.. أعز صديق لي.. أقرب الناس إلى قلبي.. الرجل الذي كنت أبحث عنه.. الملاك الطاهر.. المنقذ الذي كانت بلادنا في أشد الحاجة إليه!**

ـ منذ متى أصبح صديقك!

ـ **من نصف ساعة!**

ـ إنك تستطيع أن تصنع صينية بطاطس باللحمة في نصف ساعة، ولكنك لا تستطيع أن تصنع صديقاً في نصف ساعة.. الزمن والمحن والشدائد هي التي تصنع الصديق!

ـ **استطعت أن أكسبه في نصف ساعة!**

ـ الصديق الذي تكسبه في نصف ساعة تخسره في ربع ساعة!

ـ أنت تفهمين في السينما والمسرح، ولا تفهمين في العواطف البشرية!

ـ الفنان هو أستاذ في العواطف البشرية. ولهذا أقول لك إننا لا نستطيع أن نشتري الصديق جاهزاً، وإنما نحن نحفر بأظافرنا في الصخر لنصنع منه صديقاً. الصديق هو صخرة نستند إليها أثناء العواصف والزوابع والأزمات. إنك لا تستطيع أن تصنع تمثالاً من الصخر في نصف ساعة، وإنما تستطيع أن تصنع تمثالاً من تراب أو طين في هذه المدة القليلة.. ومثل هؤلاء الأصدقاء لا يتحملون هبوب الريح.

ـ لا تتسرعي في حكمك. كل ما قلته لي عن مخاوفك من حافظ سري بك تأكدت أنه كلام فارغ. إنه رجل صادق في عالم من الناقصين. رجل صادق في دنيا من الكاذبين. إنه جنيه ذهب وسط عملة مزيفة!

ـ إننا لا نجد الجنيهات الذهبية ملقاة في الشارع.

ـ أنا لم أقابله في الشارع، أنا قابلته في مجلس الوزراء

ـ معلوماتي أنه كلما علت المناصب زادت نسبة الزيف فيها!

وفقد عبدالمتعال أعصابه. إن سلوى تلقي **دوشاً** على إعجابه المتوهج بحافظ سري، فصرخ فيها مشيراً إلى مقعد:

ـ اجلسي هنا، ولا تفتحي فمك حتى أروي لك ما حدث، وبعد ذلك يمكنك أن تقولي ما تشائين.

وبحركة لا إرادية وجدت سلوى نفسها تجلس على المقعد، ورفعت عينيها إليه وفتحت كل أذنيها!

وجلس عبد المتعال بجوارها، وقص عليها موقف حافظ سري النبيل واهتمامه بقضيته، وكيف جند أجهزة الدولة كلها للبحث عن خديجة. كيف اكتشف أنها سافرت إلى تركيا. كيف عرض عليه أن يدفع أجر سفره من جيبه الخاص ليعثر عليها. كيف عرض مسألته على الفور على رئيس الوزراء وحصل منه على أمر بتبني هذه القضية. كيف وعده بأنه سيعيد إليه زوجته وسيعيده إلى منصبه في شركة مصر للبسكويت، كيف وعده بأن يضع كل المجرمين في السجن!

وانتهى عبد المتعال من مرافعته، ونظرت إليه سلوى ببرود وقالت في سخرية:

ـ وهل صدقته؟

ـ كيف لا أصدقه؟ كل نبرة من صوته كان فيها رنة الصدق والإيمان.. إنه وعدني.

ـ إن وعود الحكام مثل قبلات الغواني، الغانية تمنح قبلاتها بسخاء ولا تعني بها أي شيء!!

ـ إنه ليس غانية، إنه سكرتير رئيس الوزراء!

ـ الغواني لا تجدهن في الكباريهات فقط، تجد أكثر منهن في المناصب الكبرى!

ـ أنت متضايقة من حافظ بك لأنه سيعيد إلي زوجتي خديجة!

ـ لقد قلت لك رأيي فيه قبل أن أعرف أنه وعدك بأنه سيعيد خديجة إليك!

ـ عيبك أنك تظنين أن الدنيا لم تتغير. نحن الآن في عهد جديد في عصر النزاهة والأمانة والعدالة. لن يجلس اللصوص في مقاعد الحكام والأشراف في قفص الاتهام!

ـ لقد كنت في السوق اليوم ولم ألاحظ أي تغيير. دفعت شلناً لجندي البوليس ليسمح لسيارتي أن تقف في مكان ممنوع فيه الانتظار. اشتريت فاكهة بأغلى من التسعيرة. دفعت عشرة جنيهات رشوة لتركيب تليفون آخر في شقتي!

ـ **التطهير يحدث من فوق!**

ـ إذا بدأ التطهير من فوق فسيصل إلى تحت بعد خمس دقائق!

ـ **أؤكد لك أننا سنشهد عهداً جديداً من العدالة!**

ـ من عيوبنا أننا شخصيون. إذا نال فرد واحد حقه تصور أن مصر كلها نالت حقوقها. . وإذا خرج واحد منا من السجن ظن أن مصر كلها خرجت من السجن، ونسي ساعة خروجه أنه ترك وراءه ألوف المظلومين والأبرياء. العدالة لا تتجزأ. العدالة (بالقطاعي) هي ظلم (بالجملة)!

تغيظ عبد المتعال لأن سلوى لم تقتنع بحافظ سري كما اقتنع هو به. لم تبهر بنبله ومروءته ووطنيته كما بهر هو بها. تأفف لأن سلوى ألقت نقطة حبر سوداء على اللوحة الجميلة التي رسمها لحافظ سري الفارس الشهم المغوار!

كان يتمنى طوال الطريق من مجلس الوزراء إلى بيت سلوى أن يقص عليها قصة الرجل الكنز الذي عثر عليه.

كان يريد أن يقبلها ويعانقها، ويدور بها في أنحاء الغرفة، يقبلها بين كل كلمة وكلمة ويعانقها بين كل جملة وجملة. لقد انطفأ شوقه إليها عندما استقبلت أنباء انتصاره بهذا البرود!

كان في الماضي يجد لذة في حوارها معه، ذكاؤها كان يفتنه كما

تفتنـه أنوثتهـا. كان يعجب بها لأن الحوار معها كـان أشبـه بلعبـة التنس بين لاعبين محـترفين، الكـرة تنتقل من مضرب إلى مضرب، ولا تسقط عـلى الأرض، أما اليـوم فقد ضـاق فجأة بلعبـة التنس. وقال بينه وبين نفسه إن لعبة التنس لعبة لذيذة لـوقت قصير أمـا أن يلعبها ٢٤ ساعة كل يوم فهذا شيء لا يطاق!

ووجد نفسه يتحسر على خديجة. كانت لا تنـاقشه أبـداً في عمله أو في السياسة، تفرح لفرحـه دون أن تعرف سبب فـرحه، وتحـزن لحزنه دون أن تسأله عن سر حزنه.. أمـا سلوى وهبي فتناقشـه في كـل شيء، وتحـاوره في كـل مـوضـوع. مـاذا تفهم هـذه الممثلة في السياسة العليـا، ما هي خـبرتها أو دراستهـا حتى تحكم على حـافظ سري دون أن تعرفه أو تراه؟ إذا كانت تحبه حقيقة فقد كان واجبها أن ترقص فرحاً كما رقص. أن تؤمن بنبل حافظ سري كما آمن به. أن تقـدر مروءتـه وبطولتـه كما قـدرهما بعـد أن رآهما بعينيـه ولمسهما بيديه!

ما أتفه عقلية النساء، ما أحمق قاسم أمـين الذي دعـا إلى تحريـر المرأة! ما أقصر نظر سعد زغلول الذي وعد بمنح المرأة المصرية حق الانتخـاب بعد جـلاء الإنجليز عن مصر. مـا أجهـل هـدى هـانم شعـراوي زعيمة النهضـة النسـائيـة التي تـطالب بـأن تكـون المـرأة المصرية نائبة ووزيرة! لو أن امرأة تجلس في المقعد الذي يجلس فيـه حافظ سري بك في مجلس الوزراء، فهل كانت تستطيع أن تتصرف في مسـألتـه بمثـل هـذه الكفـاءة والشجـاعـة والمـروءة! إنها كـانت ستتصرف مثل سلوى وهبي، تثير الشكوك، تحكم على الأمـور بغير علم، لا تفرق بين الحق والباطل!

كان والده الشيخ محجوب، رحمه الله، على حق عندما كـان يقول أن

المرأة (ناقصة عقل ودين). فهو لا يذكر أن المرحومة أمه فتحت فمها مرة أمام والده إلا لتتثاءب، إذا قال لها أن الشمس تشرق من الغرب وتغرب في الشرق، وهزت رأسها مؤمنة وهي تقول له (مضبوط يا سيدي).. لو أن أمه كلمت أباه بالطريقة التي تكلمه بها سلوى لذبحها!

وتذكر عبد المتعال أنه قرأ ذات مرة أن الزعيم التركي المشهور مصطفى كمال أتاتورك كان متزوجاً من امرأة رائعة الجمال حادة الذكاء، وكان يحبها وتعبده، وقد تزوجها بعد قصة حب مشهورة وفوجىء الناس ذات يوم بزعيم تركيا يطلق زوجته لطيفة هانم!

وسأله أحد أصدقائه: لماذا طلقت لطيفة هانم؟

قال زعيم تركيا: لم أستطع أن أحتمل ذكاءها!

وها هو عبد المتعال يحس بأنه لا يستطيع احتمال ذكاء سلوى وهبي. أصبح يحس بحنين غريب إلى (غباوة) زوجته خديجة هانم. لم يعد عبد المتعال يستكثر على سلوى صفة الذكاء.. عيب المرأة الذكية جداً أنها تتحول فجأة إلى غبية جداً. لولا هذا الغباء الشديد لاستطاعت أن تفهم قيمة النصر الذي حققه مع حافظ سري! ولم ييأس عبد المتعال من محاولة إقناع سلوى بأن مخاوفها من حافظ لا أساس لها. فعاد يروي لها تفاصيل لقائه مع سكرتير رئيس الوزراء، نسي أن يذكرها لها وهو يقص عليها الرواية الأولى. وفوجىء بسلوى تستند إلى هذه التفاصيل الجديدة في زيادة شكوكها وعدم ثقتها بسكرتير رئيس الوزراء.

وأحس برغبة في أن يضربها حتى تفيق من غبائها، ثم رأى أن من الأفضل أن يصعد إلى غرفته فوق السطح حتى لا ينفجر فيها

ويقول لها أنها امـرأة غيور، وأن الغـيرة أعمتها، عنـدما شعـرت أن حافظ سري سيبحث له عن خديجة ويعيدها إليه!

واعتـذر بإصـابتـه بصـداع، وألحت سلوى عليـه أن يبقى حتى تجيء له بأقراص الأسبرين واضطر أن يبلع الأسبرين، ولم يستـطع أن يقول لسلوى أنها هي الصداع!

□ □ □

استلقى عبد المتعال عـلى فراشـه في غرفتـه في السطح.. ووجـد نفسه يفكر في زوجته خديجـة. إن حافظ بـك وعده بـأنه سيعيـدها إليـه، ووعد الحـر دين. ما دامت الـدولة ستضـع كل أجهـزتهـا في خدمته فقد أصبح العثور عليها أمـراً سهلاً.. سـوف يعطيـه حافظ بك توصيـة لسفير مصر في أنقـره. ستقوم السفـارة المصرية وتقعـد لتوصية حافظ بك. سيتصل السفير فوراً بالحكومة التركية، ستـطلق الحكومة شرطتها وعيونها بحثاً عن خديجة في مدن الأناضول!

كل هذا لن يستغرق أسبوعاً، أسبوعين.. وبعد ذلك تعود إليـه زوجتـه خديجـة هانم أفنـدي.. ستعود حيـاته السعيـدة الهادئـة.. سيعود إلى منصب مدير شركة مصر للبسكويت!

وخفق قلب عبد المتعال فجأة.. ماذا يحدث لو تـزوجت خديجـة في الأنـاضـول؟ إن من حقهـا أن تـتزوج بعـد أن أصبحت أرملة وتصورت أنه مات ودفن في مقبرة أسرتها بالإمام الشافعي.

لا.. مستحيل أن تتزوج خديجة بعد وفاتـه.. إنها امرأة مخلصـة جداً إنها ليست من بنات اليوم اللاتي لا يعرفن الوفاء وتفكر الأرملة منهن في العـريس القادم أثنـاء تشييع جنـازة زوجهـا.. إنها تـربيـة

عثمانلي لقد عاش والدها مراد بك حسين بلا زواج بعد وفاة زوجته. لا بد أن تكون البنت مثل أبيها.

من المؤكد أنها ستغفر له علاقته بسلوى وهبي. إنه اضطر إلى خيانة خديجة اضطراراً. لقد خرج من السجن ضائعاً تائهاً ولم يجد إلا صدر سلوى مفتوحاً له. ومع ذلك فقد قاوم.. قاوم بشدة، وضع الوسادة بينه وبين سلوى في فراشها، ولكن سلوى هي التي اغتصبته.. اغتصبته بجمالها وفتنتها وإثارتها. ستبكي خديجة في أول الأمر، ولكنه يعرف كيف يصالحها.

حاول عبد المتعال أن يتصور خديجة بين ذراعيه فلم يستطع.. كان يغمض عينيه ليتخيلها فلا يرى إلا صورة سلوى وهبي. يحاول أن يسمع صوت خديجة وهي تقول له (أحبك) ولكنه يسمع بدلاً من صوتها صوت سلوى المثير الملتهب كقبلاتها!

يحاول أن يتخيل شعر خديجة الذي كانت تربطه فوق رأسها بالمنديل فلا يرى أمامه إلا شعر سلوى وهو ينسدل على كتفيها العاريتين!

طعم شعرها لا يزال في فمه.. لمسة الحرير فيه لا تزال في أصابعه. كان شعر سلوى يسقط على وجهه. يلمس صدره العاري. إنه يشعر بكل رجولته وهو يتخيل سلوى، فإذا ركز فكره في خديجة تحول فجأة إلى قديس.. إنه يحاول أن يعانق خيال خديجة يعانق الوسادة ويقول لها (أنت خديجة) وكأن الوسادة تتكلم وتقول له (لا).. أنا سلوى وهبي، إنه يشم عطر سلوى الفواح، عطرها يطرد من أنفه (ماء الورد) الذي كانت خديجة تدهن به جسدها! يحاول أن يتخيل خديجة فيجد سلوى بين ذراعيه.

لا بد أن يفعل بخديجة ما تعلمه من جسد سلوى. سوف يقبل أناملها سوف يقبل أذنها.. سوف يقبل كتفيها العاريتين. سوف يقبل ويقبل.. ولكنه أراد أن يتخيل شفتي خديجة ففوجىء بشفتي سلوى.

ترى هل ما يصلح لامرأة لا يصلح لامرأة أخرى؟ امرأة تأكلها بيديك وامرأة لا تأكلها إلا بالشوكة والسكين؟ امرأة كالبلح تأكلها بقشرتها، وامرأة كثمرة المانجو يجب أن تنزع قشرتها حتى تذوق كل حلاوتها؟

أيكون بعد أن ذاق طعم المانجو لا يستطيع أن يذوق طعم البلح؟ لا بد أن سلوى أفسدته. جعلته يدمن على طعم الغواني، وبهذا أصبح طعم (صاحبة العصمة) لا يفتح شهيته، ولا يثير نشوته!

ماذا سيفعل عندما تعود خديجة إليه؟ ستكون مصيبة كبرى عندما تنام بجواره فلا تثيره ولا تكهرب جسده. ستكون كارثة الكوارث، بعد أن يجند الدولة للبحث عن خديجة وبعد أن يسافر إلى تركيا، ويسأل عنها طوب الأرض إلى أن يجدها، بعد ذلك يعود بها إلى الفندق، فوق السرير يكتشف فجأة أنه أصيب بالشلل، أو لا يرى بين ذراعيه إلا صورة سلوى وهبي!

كل رجل قادر على أن يستحضر في خياله صورة امرأة عرفها أو عشقها فتجيء إلى خياله تتهادى وهي عارية من كل ملابسها، أما هو فلا يستطيع أن يستحضر في خياله هذه الصورة. خديجة لا تركب على هذه الصورة. إنه قادر على أن يستحضر صورتها وهي تطهو له الطعام، وهي تكوي ملابسه، وهي تنظف البيت، ولكن

خياله لا يتصورها أبداً عارية!

لقد كان سعيداً في الماضي عندما كانت بين ذراعيه وهي في قميص نومها الطويل الذي يخفي رقبتها ويصل إلى أطراف أصابع قدميها ويخفي ذراعيها وصدرها وبطنها وظهرها. وهو الآن يسخر من هذه الصورة، ويتصور أن هذا القميص صالح لتأدية الصلاة لا إلى ممارسة الحب!

لقد غيرته سلوى وهبي. كانت خديجة أشبه بكوب البيرة المثلج، وكانت البيرة تسكره وتملأه بالنشوة، ثم جاءت سلوى فكانت أشبه بزجاجة الويسكي.. جعلته يدمن على طعمها الذي يحرق شفتيه، فإذا شرب البيرة بعد الويسكي، أصبح طعم البيرة في فمه أشبه بطعم الماء الفاتر.. وما أسوأ حظ المرأة عندما يكون طعمها في شفتي الرجل كالماء الفاتر!

وتغيظ عبد المتعال من سلوى التي استطاعت أن تغير مذاق فمه، أن تجعله لا يستطيب إلا الطعام الحراق إنها امرأة (مسبكة) مليئة بالفلفل والشطة والبهارات.. أما خديجة فهي أشبه بالقرع المسلوق مفيدة للمعدة الضعيفة.. امرأة صحية بمعنى الكلمة.. ولكنه ليس مريضاً بمصارينه، بالعكس إنه في الشهور الأخيرة شعر بشهية مفتوحة لم يعرفها طوال حياته!

أيكون كل ما أصبح يربطه بخديجة هو الوفاء وعرفان الجميل؟ وأنه يحب سلوى فعلاً حباً جارفاً مجنوناً!

هل تعرف سلوى كم يحبها، لا يمكن أن تعرف ذلك. لو عرفت لما عارضته في رأيه بنبل وإنسانية وعظمة حافظ بك سري. المرأة عندما تعشق تفكر برأس الرجل الذي تحبه، لأنها تفقد عقلها في

حب الرجل الذي تهواه. المرأة العاشقة تفقد إرادتها في إرادة الرجل الذي تعبده فيحركها كما يهوى ويريد.. وهو لا يستطيع أن يحرك سلوى، ويقنعها بأمر واضح وضوح الشمس في رائعة النهار!

وندم عبد المتعال على أن غيظه من سلوى غلب رغبته فيها.. ووجد نفسه يحملق في شفتيها الغليظتين الحمراوين ويتخيل ساقيها الطويلتين الرائعتين. ويتذكر ذراعيها الجميلتين الفاتنتين..

وفكر في أن يرتدي ملابسه، وينزل إلى شقتها ليمضي الليلة بين ذراعيها. هذه الليلة هي ليلة انتصاره على أعدائه، فكيف يمضيها وحده في غرفته فوق السطوح!

يا لك من مغفل يا عبد المتعال. هل من المعقول أن تضحي بكل هذا الجمال وتدوس على كل هذه المتعة من أجل مناقشة سخيفة.. اذهب إليها واستمتع بها. لا تتحدث عن حافظ سري وإنما حدثها عن شوقك إليها وجنونك بها. لا تحدثها عن خديجة وإنما حدثها عن سلوى. لا تحدثها عن انبهارك بشخصية سكرتير رئيس الوزراء وإنما حدثها عن جمال خصرها وهو يستسلم مسترخياً بين ذراعيك!

□ □ □

وتهيأ عبد المتعال لمغادرة الفراش، وإذا به يسمع طرقاً خفيفاً على الباب، وأسرع إلى الباب يفتحه فوجد سلوى أمامه. وتراجع إلى الوراء مذهولاً.. إنها المرة الأولى التي تصعد فيها إليه في غرفته فوق السطح. كانت عادة ترسل خادمتها الأبنوسية لتستدعيه.. كأنه في تلك اللحظة كان يملك خاتم سليمان.. ودعك الخاتم وتمنى أن تجيء إليه سلوى فإذا به يجدها أمامه بعد دقيقة واحدة. لقد تمنى

أن يراها عارية ولكنها جاءت وهي ترتدي معطف فرو ثقيلاً . . وقالت له سلوى وهي تضع كفها على رأسه :

ـ جئت أطمئن على صداعك . لم أستطع أن أتركك وحدك وأنت تتألم! لقد جئت لك بدواء عجيب يشفي الصداع فوراً . !

ـ ما اسمه؟

ـ اسمه . . سلوى وهبي!

وخلعت المعطف الفرو، فإذا بها بكل جمالها . وحملق عبد المتعال في جسدها العاري الفتان . شعر بشعور مسكر غامر . . ها هي ذي زجاجة الويسكي في فمه مرة أخرى، بكل ما فيها من نشوة وخمر ورحيق وشهد . .

وأحاط عبد المتعال خصرها بذراعه وقبلها بجنون . قبلة طويلة طويلة، أطول قبلة ذاقها منذ أن عرفها . وبدت القبلة بلا نهاية . كانا يلتقيان في هذه القبلة . إذا توقفت شفتاه تحركت شفتاها، إذا انتهت قبلته بدأت قبلتها . اعتصر شفتيها وكأن الشفاه اكتشفت فجأة أنها لم تخلق للكلام وإنما خلقت لتطبع القبلات . قبلات العشاق أحلى من أي كلام . فيها من شعر الغزل أجمل ما يستطيع أن ينظمه أبرع الشعراء . فيها حلاوة تعجز أن تصفها أبلغ العبارات . تصمت الكلمات عجزاً لأنها لا تستطيع أن تباري القبلات، قبلات بلا صوت، ولكنها تغني . يتحول جسد العاشقة بين شفتي الرجل كآلة موسيقية يعزف عليها أروع الألحان .

وأحس عبد المتعال أن سلوى تقبله بطريقة لم تقبله بها في أي يوم من الأيام . شفتاها تتضوران جوعاً شفتاها تحترقان في شفتيه . الشفاه الجائعة تعرف كيف تلتهم القبلات . . كانت تعانقه في

عنف. . كانت تهصره بين ذراعيها. كان جسدها كله يختلج ويرتعش وينتفض وهي تتماوج في جسده. . ورفع شفتيه من فوق صدرها العاري وقال:

- إنك تقبلينني وكأنني سأموت غداً!

قالت وهي تحتضنه في عنف وضراوة:

- إنني أؤمن بحكمة تقول: قبلي حبيبك وكأنه سيموت غداً وعانقيه كأنك لن تعانقيه بعد هذه المرة أبداً!

- هل تصورت عندما قلت لك أنني مصاب بصداع أن هذا مرض الموت؟

- عندما أخبرتني بأن الحكومة تبحث لك عن خديجة عرفت أن هذه نهاية حبنا. . وقد تجد الحكومة زوجتك غداً. . وتكون هذه الليلة نهاية غرامنا!

- قلت لك أن خديجة في تركيا، ولا أظن أنهم يستطيعون أن يعثروا عليها قبل أسبوع أو أسبوعين!

- أشكرك. أنك أجلت تنفيذ حكم الإعدام فيَّ لمدة أسبوعين!

- إن حبنا لن يموت!

- أعرف أنه لن يموت. . ولكن القدر سيذبحه بسكين!

- لو وجدت خديجة فستبقين حبيبتي!

- حبيبتك هي زوجتك. . أما أنا فسأكون أمك وأختك أو صديقتك. . ستدخل هي إلى حياتك من الباب الملكي، وسأدخل أنا من الباب الخلفي، من سلم الخدم. ستكون هي الدائمة وأنا المؤقته، هي القاعدة وأنا الاستثناء، هي التاج فوق رأسك وأنا الحذاء!

ـ كنت أتصور أنك تشعرين بي شعوراً كاملاً. قبل أن تجيئي بثوان كنت أقول لنفسي أنك المرأة الوحيدة التي في إمكانها أن تهزني وتثيرني وتسعدني. كنت أقول لنفسي أنك الفرن وهي الفريجيدير!

ـ ولذلك يخفون الفرن في المطبخ . . ويضعون الفريجيدير في غرفة خارجية . . في الصالة أو حجرة الطعام . . هل رأيت أحداً يضع (الفرن) في الصالون؟!

ـ كل بيت فيه الآن فرن وفريجيدير!

ـ الزوجة هي الفريجيدير الذي يحفظ اللحم، والعشيقة هي التي تحرق اللحم وتشويه . . لقد تمنيت أن أكون وحدي لك الفرن والفريجيدير . . والغسالة أيضاً!

ـ وماذا تريدينني أن أفعل بخديجة؟ هل تريدين مني أن أطلقها بعد وفائها لي كل هذه السنوات!

ـ لماذا لا تتزوجني أنا وتجعلها هي عشيقتك؟

ـ لأنها لا تصلح أن تكون عشيقة!

ـ وأنا لا أصلح آن أكون زوجة!

ـ لم أقل هذا، وإنما القدر جعلني أتزوجها قبل أن أعرفك وأحبك . . وهي لا تقبل أن أكون زوجك وعشيقها!

ـ ولماذا تفترض أن أقبل أنا ما ترفضه هي؟

ـ لأنني أعرف أنك تحبينني أكثر مما تحبني!

ـ وهل جزائي على هذا الحب الكبير أن تضع تاجك فوق رأسها، وحذاءك فوق رأسي؟

ـ وهل تسمين الحب حذاء؟!

ـ المرأة العاشقة على استعداد لأن تكون حذاء في قدم حبيبها بشرط ألا تحمل اسمه امرأة غيرها، بشرط أن يعطيها من نفسه أكثر مما يعطي امرأة غيرها، بشرط ألا يتركها كل ليلة لينام في أحضان امرأة غيرها!

ـ هل تفضلين أن أعطيها قلبي وأعطيك اسمي!؟

ـ إنني على استعداد لأن أضحي من أجلك بكرامتي وأنانيتي وهنائي إذا أعطيتني مقابلاً لهذه التضحية..

ـ أعطيتك حبي!

ـ أريد أن يتجسد هذا الحب في شيء حي، أريد ولداً منك!

ـ لن يرضيك أن يكون ابنك ابن سفاح!

ـ لن يكون ابن سفاح، يمكنك أن تتزوجني زواجاً عرفياً.. عندئذ سوف أتحمل أن تبيت كل ليلة في أحضان امرأة غيري، لأنه سيكون عندي دائماً صورة مصغرة لك هي ابنك!

ـ كيف أتزوج من امرأتين وأنا بلا عمل؟ وأنا بلا اسم؟ وأنا في معركة من أجل استعادة حقوقي المغتصبة؟

ـ إنني أريد أن تتزوجني وأنت معدم، وأنت ضائع في الحياة لا تجد حتى اسمك. لا أريد أن أتزوج عبد المتعال محجوب مدير شركة مصر للبسكويت، لأنني لم أعرفه وإنما أنا أحببت المتشرد المطارد خريج السجن. أحببت رجلاً لا يجد قوت يومه. أحببت رجلاً مجهولاً وأنا النجمة المشهورة. أحببت رجلاً مفلساً، وأنا التي يبلغ إيرادي حوالي عشرة آلاف جنيه في العام!

ـ دعيني أفكر.. أعطيني مهلة!

ـ أمامك دقيقة واحدة!

ـ دقيقة واحدة؟

ـ عليك أن تختار الآن.. إما أن تتزوجني.. وإما سأرتكب جريمة قتل الآن!

ـ ستقتلينني؟

ـ لا.. سأقتل ولدي!

ـ ولدك؟

ـ نعم.. إنني حامل منك في شهري الثاني!

□ □ □

وتهلل وجه عبد المتعال، ومد يده يتحسس بطن سلوى العاري، وهو يقول في فرحة غامرة:

ـ ولد؟ ولد؟ سيصبح لي ولد!

ـ ربما ولد.. وربما ولد وبنت!

ـ توأمان؟ كيف عرفت أنهما توأمان!

ـ شعوري أن في بطني أكثر من ولد!

ـ لقد تزوجت لمدة سبع سنوات دون أن تحمل خديجة مرة واحدة!

ـ بطن المرأة أحياناً يتصل بقلبها. إنني لا أحس بولدك في بطني فقط، بل أحس به في قلبي أيضاً!

ـ سوف أسميه حافظ سري!

ـ سوف أقتله إذا أطلقت عليه هذا الأسم. سأسميه (عبد المتعال)!

ـ إنه اسم بلدي!

ـ إنه أحب الأسماء إلى قلبي!

ـ إنني ألعن أبي لأنه سماني عبد المتعال!

ـ إنك لم ترد على سؤالي.

ـ نسيت أنك سألتني شيئاً!

ـ أريد أن أعرف جوابك الآن.

ـ جوابي انني أعبدك!

ـ أما أن تتزوجني أو سأذهب إلى الطبيب فوراً ليجري لي عملية إجهاض!

ـ مستحيل أن أسمح لك بقتل ابني!

ـ إذن تزوجني زواجاً عرفياً!

ـ ومستحيل أن أتزوجك زواجاً عرفياً.. سأتزوجك زواجاً شرعياً!

ـ وخديجة؟

ـ من هي خديجة؟

ـ خديجة.. خديجة زوجتك!

ـ إنني أشعر الآن أنني لم أتزوج قبل الآن.. أنت زوجتي الأولى يا حبيبتي!

الفصل الثامن والثلاثون

استلقت سلوى وهبي في فراشها الواسع الأنيق الوثير، وانسدل شعرها الأسود الفاحم على كتفيها العاريتين. وكان قميص نومها الأسود الشفاف لا يخفي تقاطيع قوامها الأبيض المثير، كان أشبه بغلالة سوداء تحيط بتمثال من المرمر، ويبرز السواد الفاحم البياض الناصع.. وكانت عيناها الساحرتان تخطفان البصر، أكثر مما يخطفه قوامها الغجري!

إن قوام النساء يتكلم.. فهناك قوام يرتل ويصلي، وآخر يشجع على الركوع.. وقوام يهتف للحب وآخر ينادي بالصلاح!

وقوام سلوى كان يشبه قوام الغجر الذين يرحلون من مكان إلى مكان، ولا يستقرون في مكان واحد. قوام يقول كل الكلمات التي يعاقب عليها قانون العقوبات.. وكان قميص نومها الشفاف أشبه بكمامة موضوعة على فم الغجرية ليمنع القوام من أن يبوح بما لا يباح ومع ذلك كانت عينا سلوى وهبي تصرخان دائماً بصوت أعلى من صوت قوامها الثرثار!

وكانت سلوى تشعر أنها ترقد في أحضان رجل تحبه.. ولم يكن هذا الرجل راقداً بجوارها على الفراش، وإنما كان في بطنها. وراحت تتحسس بأصابعها بطنها. إنها تريد أن تتأكد من أنها لا

تحلم. تريد أن تطمئن على الجنين الذي في بطنها. وخيل إليها أنها تسمع نبضاته في أعماقها، بل هي تسمع صراخه كأنه يغني، بل هي تشعر أنه يتحرك في داخلها!!

كيف يقول لها الدكتور أحمد طبيب الولادة المشهور أنه لا يمكن للأم أن تشعر بالجنين يتحرك في بطنها وهي حامل في شهرها الأول!؟ هذه أول مرة في حياتها تدخل في ضوء النهار إلى عيادة طبيب ولادة مشهور، كانت في الماضي تتسلل متخفية إلى عيادات أطباء مجهولين مغمورين لتجري عمليات الإجهاض في الظلام!

يا لها من مغفلة، لو لم تقم بسبع عمليات إجهاض لكان لها الآن سبعة أولاد يملأون بيتها الهادىء الصامت بالصراخ والصياح.. وكانت في كل مرة من هذه المرات يخطر ببالها أن تحتفظ بالجنين، ولكنها كانت أحياناً لا تستطيع أن تتأكد من الأب الحقيقي وإذا تأكدت منه هرب الأب الجبان.. إن من سوء بختها أنها لا تحمل إلا من صاحب مقام كبير، أو من رجل متزوج يشغل مركزاً محترماً في الدولة!

والرجل من هؤلاء الكبراء يتشرف بأن يكون عشيق النجمة المعروفة سلوى وهبي ملكة الإغراء، ويذعر من أن يكون زوجها أمام الله والناس. الرجل الكريم منهم كان يدفع مصاريف الإجهاض، ويخاف على سمعته الطاهرة من أن يلوثها بمصاحبتها إلى الطبيب، أو يخشى أن تموت أثناء إجراء الجراحة فيتحمل مسؤولية ما جنت يداه!

وكلما كبر مركز العاشق، كان أجبن من أن يتحمل مسؤولية عشقه وهواه.. وكم من مرة أحست بأن حبها للرجل يموت في

نفس اللحظة التي تموت فيها شهامته وتتخاذل رجولته.. وكم من مرة أجهضت علاقة غرامية لها أثناء عملية إجهاضها.. عندما ترى أن الرجل الوغد لم يكد يعلم أنها حامل منه حتى تنشق الأرض وتبتلعه تاركاً آثار جريمته في بطنها. ولم تكن تريد أن يكون ولدها ابن رجل جبان!

وفي هذه المرة قررت أن تحتفظ بالجنين.. إن صديقها عبد المتعال محجوب ما كاد يسمع أنها حامل منه، حتى طار من الفرح، لم يكد يسمع النبأ حتى امتلأت أساريره بهناء غريب. رقص في الغرفة. لم تره منذ أن عرفته بكل هذه السعادة.

نسي كل متاعبه وأزماته وتفرغ للعناية بها والسهر عليها.. إذا أرادت أن تشرب كوب ماء أسرع يجري ويحضر لها الكوب.. إذا فكرت في أن تذهب إلى دولاب الملابس لتحضر منديلاً توسل إليها ألا تتحرك من مكانها، وهرول إلى دولاب الملابس يجيء لها بالمنديل. أصبح يرفض أن تقوم خادمتها بخدمتها. أحست أنه فخور بالجنين الذي في بطنها. سعيد بأنها أمه. لم تشعر لحظة بأنه يشعر بالعار أو الندم لأن أم ابنه كانت غانية في يوم من الأيام..

وأحست بأنها تحترمه أكثر من أي يوم من الأيام. أحست بسعادة أنها اختارت رجلاً ليكون والد ابنها!

□ □ □

ما أعظم الفرق بين عبد المتعال أفندي الرجل الذي بلا اسم، وبلا وظيفة، وبلا سلطان، وبين حضرة صاحب المعالي شفيق باشا الحملاوي وزير المعارف السابق الذي كان يركع أمامها. ويبكي بالدموع من تباريح العشق والهوى، والذي كان لا يحلف إلا

بحياتها، والذي كان يهرب من جلسات مجلس الوزراء ليقابلها في شقتها. لقد قال لها ذات ليلة أنه يحبها ويعبدها، ومستعد أن يضحي بحياته من أجلها، وأرادت أن تداعبه فادعت أنها حامل منه، وأنها قررت أن تحتفظ بالجنين ليكون الرابطة المقدسة التي تؤكد حبهما. واصفر وجه معالي الوزير، وتساقط العرق من جبهته، وقال لها متوسلاً:

- أرجوك أن تذهبي فوراً إلى طبيب إجهاض. إن الدكتور ليفي لينز الطبيب المشهور، صديقي الحميم، وقد ساعدني عدة مرات في هذه المسائل، وهو رجل كتوم.

قالت له سلوى في دهشة: **كنت أتصور أنه سوف يسعدك أن ترزق مني بولد، وأنت تقول أنك تحبني وتعبدني!**

قال شفيق باشا وهو يجفف عرقه:

- نعم أنا أحبك وأعبدك، ولكن هذه الحكاية سوف تقضي على مستقبلي السياسي وأنا كما تعلمين مرشح لرئاسة الوزارة!

- ولكنك منذ دقيقة كنت تقول لي أنك مستعد أن تضحي بحياتك من أجلي!

قال معالي الوزير في ذل وخنوع:

- إنني مستعد أن أضحي لك بحياتي وبثروتي، ولكن رياسة الوزارة هي أملي الوحيد في الحياة.

وبغير أن تشعر سلوى بما تفعل، وجدت يدها ترتفع فجأة، وتصفع حضرة صاحب المعالي شفيق باشا الحملاوي على وجهه، وبهت الوزير ووضع كفه على وجهه، وغطى مكان الصفعة كأنه

خشي أن يرى الناس بصمات أصابع يد ملكة الإغراء على وجه حضرة صاحب المعالي الوزير المرشح لرئاسة الوزارة!

وانتفضت سلوى من مقعدها، وأشارت بيدها إلى الباب وصرخت:

ـ أخرج من هنا يا كلب!

وانكمش الوزير في مقعده، ولكنه عندما رأى الشرر في عين سلوى أسرع مهرولاً إلى الباب.

وتصورت سلوى أنها لن ترى وجه الحملاوي باشا إلى الأبد. ولكنها فوجئت بتليفونها يدق في اليوم التالي، ومعالي الوزير يستجدي عفوها، ويؤكد لها أن صفعتها كانت لها طعم القبلات، وأنه حرص على ألا يغسل وجهه منذ تلك اللحظة حتى تبقى حرارة يدها الجميلة على خده!

وقالت له سلوى ساخرة:

ـ أطمئنك يا باشا أنني لست حاملاً.. إنه لا يشرفني أبداً أن ألد ولداً من رجل نذل.. لقد كنت أمتحن إخلاصك المزعوم لي، وقد تبينت أن إخلاصك لي مثل إخلاصك للبلد الذي تريد أن تحكمه.. اعلم أنه سوف يسرني جداً أن تكون رئيس الوزراء لتنشر المجلات صورتي وتكتب تحتها (الممثلة التي صفعت رئيس وزراء مصر!!)

وفوجئت سلوى بالوزير يقول لها:

ـ يا سلام يا سلوى.. إن دمك خفيف شربات عندما تكونين عصبية!

ووضعت سلوى السماعة بعنف على آلة التليفون . .

وبعد ساعات وجدت خادمتها تحمل باقة كبيرة من زهر الزنبق ومرفقاً بها بطاقة صاحب المعالي شفيق باشا الحملاوي مكتوباً عليها «مع احترامي وإجلالي»!

□ □ □

ومرت أمامها صورة كامل باشا عبد الفتاح وكيل وزارة الخارجية:

هذا الشاب الأنيق الرقيق الذي يسيل عذوبة وأدباً ولطفاً، وكان يصر في كل مرة يلتقي بها أن ينحني على يدها ويطبع قبلة حارة، ويحدثها دائماً عن احترامه للفن وإجلاله للفنانين.

وكثيراً ما روى لها التكريم الذي تحيط به الحكومات الأوربية الفنانين والفنانات . . كان يقول لها أن كبار الممثلين والممثلات هم الأمراء والأميرات الحقيقيون في كل بلد. وأنه حدث مرة أن دخل كبير الأمناء إلى مكتب ملك السويد وقال له أن في الخارج وزير الأشغال السويدي وشارلي شابلن فمن يدخل منهما أولاً لدى الملك؟ وقال ملك السويد: شارلي شابلن طبعاً . . إنه ملك الكوميدي، والملوك يسبقون الوزراء في البروتوكول!

وأعجبها في كامل باشا أنه أول رجل ناداها في حياتها (يا هانم) . . كل عشاقها كانوا ينادونها قبل ذلك باسمها وبعضهم كان يقول لها (يا بت)، وأنور وجدي كان يناديها (يا بنت الكلب)!

وكانت طوال عمرها تتمنى أن تكون سيدة محترمة في يوم من الأيام، ولا تعامل كعشيقة أو خليلة أو بنت ليل . . وها هي ذي

وجدت وكيل وزارة في درجة سفير يعاملها في غرفة نومها كأميرة، وفي فراشها كملكة!

كان هذا أول رجل أرستقراطي في حياتها. كان في كل تصرفاته معها تبدو فيه تربية القصور.. الأدب، الأتيكيت البروتوكول.. لم يحدث مرة واحدة أن تقدمها في الخروج من باب غرفة، أو جلس قبل أن تجلس، أو أشعل سيجارة قبل أن يستأذنها. بل كان إذا أراد أن يقبلها تقدم بهذا الطلب في شكل عريضة استرحام!

وقد رأت فيه رجلاً مختلفاً عن كل الرجال الذين عرفتهم. رأت فيه (الأخلاق الكريمة) التي افتقدتها في الرجال الذين عرفتهم من قبل. إن كثيرين من الرجال عندما يخلعون ملابسهم يخلعون معها وقارهم وأدبهم. ولكن كامل باشا كان عندما يخلع ملابسه يبدو كأنه ارتدى بدلة التشريفة!

وذات يوم عرض عليها أن تسافر معه لتمضية أسبوعين في باريس.. ورحبت بالفكرة، ولم تكن رأت مدينة النور من قبل. وأسعدها أن تمضي نصف شهر عسل مع الرجل الذي يعاملها كملكة، ولم تهتم بأن الرحلة ستكون أثناء موسم فرقة رمسيس المسرحية، وأنها تقوم بالدور الأول في مسرحية (الحب المحرم) الذي امتد عرضها بناء على طلب الجماهير.

وذهبت إلى يوسف بك وهبي صاحب الفرقة، وقالت له أنها تريد أن تحصل فوراً على إجازة شهر، لأنها مضطرة للسفر إلى باريس للعلاج واقترح عليها يوسف وهبي أن تؤجل سفرها إلى نهاية الموسم المسرحي، وعندئذ تحصل على إجازة ثلاثة شهور كاملة تفعل فيها ما تشاء.

وتشبثت سلوى برأيها وقالت أن سفرها هو مسألة حياة أو موت، واحتدت على يوسف وهبي وقدمت استقالتها من الفرقة، ولم تأسف على أنها ضحت بمركزها المرموق في مسرح رمسيس في الوقت الذي تصادف صناعة السينما أزمة أدت إلى قلة فرص الأفلام الكبيرة. كل تضحية تهون بجانب الأسبوعين اللذين ستمضيهما في باريس مع الرجل الذي يعاملها كملكة!

وسافرت مع كامل باشا على ظهر الباخرة اسبيريا. وحجز كامل باشا جناحاً فاخراً في فندق جورج الخامس أعظم فنادق باريس. وبهرتها أبهة الفندق وفخامته وأرستقراطيته. أحست أنها تعيش في قصر ملكي. وأسعدها أكثر من كل هذا أن حبيبها قال لها أنه سجل اسمها في الفندق بأنها زوجته. ووجدت الخدم ينادونها (يا صاحبة السعادة)!

وأمضت مع كامل باشا في باريس أياماً جميلة، وليالي أجمل من الأيام.. صحبته إلى الأوبرا والكوميدي فرانسيز ومسرح الأوديون، صحبته إلى ملاهي الفولى برجير والكازينو دي باري. شاهدت أعظم المسرحيات وأكبر ممثلي فرنسا وممثلاتها. وأحست لأول مرة في حياتها أنها أصبحت ملكة فعلاً. وكان كامل باشا يقول لها أنه مصمم على أن يتزوجها، لأنه اكتشف أنه لا يستطيع الحياة بدونها.

وفجأة اكتشفت أنها حامل، وعندما أخبرت كامل باشا أبدى سروره واغتباطه بالنبأ السعيد، وقال أنه يشرفه أن تكون زوجته ممثلة من أعظم ممثلات مصر. وأنه مضى العصر الذي كان الناس يحتقرون فيه الممثلين والممثلات، حتى أن المحاكم في مصر لا تقبل شهادة القرداتي والممثل وتقول أنها غير أهل لتأدية الشهادة! أما

الآن فقد تغيرت النظرة للممثلات، حتى أن مستر دف كوبر الوزير البريطاني المشهور، متزوج من ممثلة وأن عدداً من الوزراء الإنجليز المشهورين تزوجوا من ممثلات.. وقبلها وعانقها، وحملها بين ذراعيه ودار بها في أنحاء الغرفة وهو يقول فرحاً:

ـ الملكة سوف يصبح لها ولي للعهد!

ثم قال أنه مضطر أن يذهب إلى سفارة مصر في باريس لأنه مرتبط بموعد هام وعاد كامل باشا بعد ساعة متهللاً، وقال لها وهو يضمها بين ذراعيه وينهال عليها بالقبلات:

ـ مبروك.. لقد قررت أن أتزوجك فوراً.

ـ فوراً؟ هذا مستحيل.. يجب أن أستعد!

ـ لا يمكن أن أنتظر. المولود يجب أن يولد وقد مضى على زواجنا ثمانية أشهر على الأقل!

ـ أعطني فرصة أسبوع.

ـ أسبوع؟ لا يمكن أن أنتظر.. سأتزوجك هنا في السفارة المصرية، وقد أعددت كل الترتيبات لهذا الزواج.. ولكن باعتباري من رجال السلك السياسي، فيجب أن أستأذن وزير الخارجية ومن حسن حظنا أن صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا وزير الخارجية موجود الآن في مدينة فيشي، وسوف أسافر الآن إلى فيشي لاستئذانه وسأعود غداً.

ـ وماذا ستفعل إذا رفض وزير الخارجية أن تتزوجني؟

وثار كامل باشا وقال:

ـ كنت أتصور أنك تعرفينني جيداً يا حبيبتي.. لو حدث هذا فإنني سوف أستقيل فوراً!

ـ تستقيل من أجلي؟
ـ أنت استقلت من عملك في فرقة رمسيس لتمضي أسبوعين معي في باريس، فكيف لا أستقيل من منصبي لأمضي معك العمر كله؟
ـ هذه تضحية كبيرة!
ـ إن ملك إنجلترا تنازل عن العرش ليتزوج من المرأة التي يحبها. ما قيمة منصب وكيل الخارجية المصرية بالنسبة إلى عرش أعظم امبراطورية في العالم؟

واغرورقت عينا كامل باشا بالدموع وهو يودع سلوى، وقال في تأثر بالغ:
ـ لا أعرف كيف سأستطيع أن أمكث ٢٤ ساعة دون أن أراك.. إنني سأطلبك بالتليفون من فيشي كل ساعة لأطمئن عليك.

وجففت دموعه بقبلاتها. وأعطاها عشرة آلاف فرنك لتشتري ما تحتاج إليه من باريس أثناء غيابه الذي لن يزيد عن يوم واحد.

وبعد انصراف كامل باشا خرجت سلوى وطافت بمحلات الأزياء في باريس تبحث عن فستان للزفاف، ووجدت في محلات البون مارشيه ثوباً رائعاً دفعت فيه ٩٩٠٠ فرنك، واحتفظت معها بمائة فرنك!

وأسرعت سلوى تعدو إلى الفندق، خشية أن يتصل بها كامل باشا بالتليفون من فيشي ولا يجدها. وعندما وصلت إلى الفندق اتجهت إلى بواب الفندق تسأله إذا كانت تلقت محادثات تليفونية في أثناء غيابها، ونظر البواب إلى الخانة التي تحمل اسمها واسم كامل

باشا وأجاب بالنفي.

ونظرت سلوى إلى ساعتها، وقدرت أنه لم يمض على وصول كامل باشا إلى مدينة فيشي سوى ساعتين. لا بد أنه التقى على الفور بوزير الخارجية، وغير معقول أن يتركه كامل باشا ليحدثها في التليفون.

وصعدت إلى جناحها، وجلست إلى جوار التليفون تنتظر رنينه لتسمع صوت زوجها القادم. ومضت الساعات ولم يدق التليفون، وأقبل الليل وخشيت أن تنام دون أن تسمع التليفون. وبقيت ساهرة حتى الصباح دون أن يدق التليفون.. وعرفت أن كامل باشا أراد أن يفاجئها، وأنه بعد أن حصل على الموافقة فضل أن يعود من فيشي فوراً، ليبلغها بنفسه بالنبأ السعيد!

ومضت الساعات ولم يدق جرس التليفون. وانتظرت سلوى يوماً ويومين وأسبوعاً كاملاً ولم يعد كامل باشا عبد الفتاح.. وخشيت أن يكون أصابه مكروه في فيشي أو في الطريق وندمت أنها لم تسأله عن اسم الفندق الذي يقيم فيه هناك، وأسرعت إلى السفارة المصرية في باريس تسأل عن أنباء حبيبها الذي انقطعت أخباره من يوم الاثنين الماضي، أي منذ أسبوع!

وتذكرت أن لكامل باشا صديقاً في السفارة هو الأستاذ أندريا قطاوي السكرتير الثالث، فطلبت مقابلته وسألته عن كامل باشا.

وقال الأستاذ قطاوي:

ـ إن سعادة كامل باشا سافر إلى القاهرة.

وتصورت أنه وجد عقبات في الحصول على موافقة وزير

الخارجية فسافر إلى القاهرة ليحصل على موافقة علي ماهر باشا رئيس الديوان الملكي، فسألته في براءة:

ـ ومتى سافر وكيل وزارة الخارجية؟

ـ سافر يوم الإثنين الماضي.

وشهقت سلوى ملتاعة:

ـ يوم الإثنين الماضي؟ هذا غير معقول!

واضطرت سلوى أن تستعين بكل قدرتها على التمثيل لتخفي فاجعتها، فإن يوم الإثنين بالذات هو نفس اليوم الذي قال فيه كامل باشا أنه سوف يسافر إلى مدينة فيشي ليحصل على موافقة وزير الخارجية على زواجها. وحاولت سلوى أن تضع أعصابها في ثلاجة متظاهرة بالهدوء:

ـ هل أنت متأكد أن كامل باشا سافر إلى مصر يوم الإثنين الماضي؟

ـ متأكد؟ طبعاً متأكد.. لأنني أنا أوصلته بنفسي إلى ميناء مارسيليا حيث استقل الباخرة ماريبيت باشا إلى الإسكندرية.

ـ وهل دولة عبد الفتاح باشا يحيى لا يزال موجوداً في فيشي؟

وضحك الأستاذ قطاوي وقال:

ـ إن عبد الفتاح باشا ترك مدينة فيشي منذ أكثر من شهر!

وصرخت سلوى:

ـ الكلب!

وفزع السكرتير الثالث في السفارة المصرية وقال:

ـ تقصدين صاحب الدولة وزير الخارجية؟

قالت سلوى ساخرة:

ـ لا . . أقصد صاحب السعادة وكيل الخارجية!

□ □ □

وخرجت سلوى من دار السفارة المصرية هائمة على وجهها. كانت سماء باريس تمطر بشدة، كان رذاذ المطر يصفعها على وجهها، وكأنه يعاقبها على سذاجتها. وكان هزيم الرعد يدوي بشدة، وكأن السماء تقهقه ساخرة من عبطها وغفلتها. . مائة فرنك. . أي جنيه مصري واحد كل ما معها لتدفع حساب الجناح الفاخر في الفندق، ولتشتري تذكرة السفر بالباخرة إلى الإسكندرية، في بلد غريب، لا تعرف فيه أحداً ولا تعرف لغته.

لو لم تستقل من فرقة رمسيس لأرسلت برقية تستنجد فيها بيوسف وهبي أن يرسل لها مبلغاً من المال على حسابها. ولكن الجنيه الذي معها لا يكفي لأجر البرقية. إنها لا تستطيع أن تستنجد بشركات السينما في القاهرة في أزمتها المالية الطاحنة!

لم تقتصد مليماً واحداً من أجورها الطائلة، لقد كانت دائماً تنفق أجرها عن الفيلم قبل أن تقبض هذا الأجر، منذ أصبحت ملكة الإغراء لم تشعر في يوم من الأيام بأنها ستحتاج إلى نقود. . كم من الرجال وضعوا ألوف الجنيهات تحت قدميها. . والآن معها جنيه واحد في باريس!

ولم تستطع أن تستقل سيارة أجرة. فضلت أن تمشي على قدميها وسط المطر المنهمر، ودخلت إلى فندق جورج الخامس وقد ابتلت كل ثيابها، ولم تعرف ما إذا كانت المياه التي تسقط على وجهها هي الأمطار أم الدموع!

واتجهت إلى مكتب الفندق المخصص لدفع فواتير الإقامة، وسألت الموظف عن المبلغ المطلوب منها أن تدفعه أجراً للجناح الذي تقيم فيه. وتمنت أن يكون الباشا النذل قد سدد أجر إقامتها قبل هروبه، وقلب الموظف عدداً من الأوراق ثم قال:

ـ المطلوب هو تسعة آلاف فرنك.. وعشرة في المائة مصاريف الخدمة فالمجموع ٩٩٠٠ فرنك!

وضحكت سلوى وهي تضغط بأصابعها على المائة فرنك التي في جيبها وتقول:

ـ ٩٩٠٠ فرنك فقط؟!

وأحس موظف الحسابات بأنه أمام مليونيرة تستهين بهذا المبلغ الكبير، واعتقد أنها فرصة ذهبية ليقدم الحساب ويحصل على بقشيش كبير، قال:

ـ هل تريدين يا صاحبة السعادة أن أعد لك الحساب الآن؟

قالت سلوى وهي تشمخ بأنفها:

ـ ليس الآن.. ليس الآن!

ومشت سلوى إلى جناحها الفخم مهزومة مقهورة، ذليلة.

وما كادت تدخل إلى جناحها الملكي حتى وجدت نفسها تضحك وتقهقه بصوت عال.. شر البلية ما يضحك.. المطلوب منها ٩٩٠٠ فرنك غير البقشيش، وليس معها سوى مائة فرنك، وتذكرت أن صاحب السعادة الكلب باشا ترك عشرة آلاف فرنك. يا له من سخي كريم معطاء.. إنه دفع لها نفقات الجناح، وترك لها ما قيمته جنيه مصري واحد ثمناً للأسبوعين اللذين أمضاهما معها

في باريس. وأمسكت ورقة وقلماً، وراحت تقسم المائة قرش على الأربع عشرة ليلة، ووجدت أن سعادة كامل باشا عبد الفتاح حاسبها على سبعة قروش ومليم وأقل من نصف المليم عن كل ليلة قضاها بين أحضانها، يا بلاش!

وأحست بهوانها وحقارتها وضعتها وخطر لها أن تنتحر بأن تطلق الرصاص على رأسها، ثم وجدت أنها لا تملك ثمن المسدس!

ثم خطر ببالها أن تذهب إلى محلات البون مارشيه، وهي تحمل فستان الزفاف الذي اشترته منذ ثمانية أيام، وعرضت على المحل أن تعيد ثوب الزفاف وتسترد ثمنه، ولكن الموظف قال إن تقاليد المحل ترفض استعادة أي شيء باعه.. وعرضت أن تبيع الثوب بخسارة فقيل لها أن تقاليد البون مارشيه ألا يسترد أي شيء باعه، حتى ولو كان مجاناً!

وعادت تمشي هائمة على وجهها في شوارع باريس. نسيت أنها لم تتناول إفطارها أو غداءها. وحارت ماذا تفعل لمواجهة الكارثة.. تصورت ماذا سوف يحدث لها لو طالبها الفندق بحساب إقامتها وعجزت عن الدفع، وسلمها إلى الشرطة، وقبضوا عليها. وتصورت الصحف المصرية تنشر خبراً تحت عنوان (القبض على ممثلة مصرية في فرنسا بتهمة النصب والاحتيال).. ستكون فضيحة تقضي عليها.. سيكون كل دفاعها عن نفسها أن تقص حكايتها مع كلب باشا، ولكن لن تصدق الصحف أن الرجل الجنتلمان كامل باشا عبد الفتاح هو بهذه الحقارة والنذالة والسفالة، وستكون الفضيحة الواحدة فضيحتين!

وخطر ببالها أن تبيع جسدها.. وهنا في باريس لا يعرفها أحد.

لن يتصور أحد أن ملكة الإغراء في مصر تبيع نفسها في سوق الرقيق بباريس!

ومشت في شارع الشانزليزيه تتلوى وتتثنى كما تفعل في الأفلام المصرية . . ودهشت أن المناظر التي كانت تقيم المتفرجين وتقعدهم في دور السينما لم تهز أحداً في باريس . . لم يلتفت إليها أحد . . كأن نساء باريس كلهن يتلوين ويتراقصن، وتهز كل واحدة منهن وسطها . . إنها أرادت أن تبيع الماء في حارة السقايين كما تقول الحكم والأمثال. نسيت أن عدد الرجال الذين يشترون النساء في باريس. أقل جداً من عدد النساء اللاتي يشترين الرجال في باريس!

وأحست أكثر من أي وقت بهوانها وضعتها وحقارتها وذلها!

وضاعف من عذابها أن الرجل الذي كان يقبل يدها هو الذي داسها بقدميه!

وعرفت أن (الأخلاق الكريمة) ليست في تقبيل أيدي النساء ولا في الانحناء احتراماً لهن، ولا في الوقوف إجلالاً لهن عند دخولهن وخروجهن، الأخلاق الكريمة تكون داخل الرجال، تكون في رجولتهم وشهامتهم ومروءتهم. إنها تفضل رجلاً يصفعها على وجهها على كلب يلعق بلسانه حذاءها!

وجزت على أسنانها وتمنت أن تستطيع العودة فوراً إلى القاهرة لتنتقم من الرجل الذي عرضها لكل هذا الذل والهوان.

وكرهت باريس . . أحست أن جوها يخنقها. حقدت على كل رجالها الذين لم يحسوا بأن ملكة الإغراء تبحث عن رجل يشتريها،

فلا تجد رجلاً واحداً يشتريها أو يستأجرها ولو لساعة واحدة!

□ □ □

وفجأة رأت أمامها في شارع الشانزليزيه زميلها الأستاذ إدمون توينا الممثل في مسرح رمسيس. وظنت أنها تحلم.. وحملقت فيه. وتأكدت أنه إدمون توينا.

وهجت عليه وقبلته والدموع والضحكات تمتزج في عينيها وقالت له:

- إدمون!. يا حبيبي يا إدمون. أنت جئت من السماء!

قال إدمون وهو ينظر إليها ببلاهة:

- إنني لم أجيء من السماء.. إنني جئت من القاهرة.

- الله أرسلك لي..

- الله لم يرسلني. الذي أرسلني هو مسيو قرداحي لأمثل في فيلم عربي يصورونه هنا في باريس. ولكن لماذا استقلت من فرقة رمسيس؟

- لأنني حمارة!

وقصت سلوى على إدمون توينا مأساتها. وتأثر إدمون الطيب، وأخرج محفظة نقوده من جيبه وأعطاها لسلوى.

وأحصت سلوى ما في المحفظة من نقود فلم تجد سوى ثلثمائة فرنك، وأعادت سلوى النقود إلى المحفظة، وأعادتها إلى إدمون وهي تقول في حسرة:

- المطلوب مني هو عشرة آلاف فرنك على الأقل وأجرة السفر إلى الإسكندرية!

- بسيطة.. ممكن تبيعي ملابسك وأبيع ملابسي، ونحصل على

المبلغ المطلوب.

- وكيف نبيعها؟

- بسيطة.. إنني أعرف محلاً وراء الأوبرا إسمه محل (لازوفسكي) وهو متخصص في شراء الملابس القديمة من الفنانين وكثيراً ما بعت ملابسي لهذا المحل، كلما صادفت أزمة مالية أثناء وجودي في باريس.. ودائماً أعود من باريس بغير حقيبة واحدة!

وعادت سلوى تهجم على إدمون وتقبله وتعانقه وهي تقول:

- أنت جئت لي من السماء يا إدمون!

- يا ست سلوى افهمي.. إنني جئت من القاهرة مباشرة إلى باريس ولم أمر على السماء، ولو كنت وصلت إلى السماء لما تركت الأرض أبداً!

ولكن سلوى أصرت على أن إدمون جاء من السماء!

وذهبا معاً إلى جناحها الفاخر في فندق جورج الخامس وحمل إدمون الحقيبتين المليئتين بملابس سلوى، ثم صحبها إلى غرفة حقيرة في سطح عمارة يقيم فيها وراء كنيسة المادلين وذهبا إلى محل لازوفسكي لبيع الملابس القديمة!

وتفقد مسيو لازوفسكي ثياب سلوى الأنيقة باحتقار، وقلب ملابس إدمون تويما بازدراء وعبث في ثوب زفاف سلوى بغير مبالاة، وقال أنه مستعد أن يشتري الحقائب كلها بما فيها من ثياب بأربعة آلاف فرنك..

وثارت سلوى وصرخت في وجهه محتجة:

- هذه الملابس كلفتني في القاهرة مائتي ألف فرنك!

قال التاجر اليهودي في تأفف:

ـ ما دامت هذه الملابس مصنوعة في القاهرة فلن أدفع سوى ثلاثة آلاف فرنك، لأن مستوى الخياطات في القاهرة أقل كثيراً من مستوى الخياطات في باريس.

وصرخت فيه سلوى:

ـ أنت حرامي يا مسيو لازوفسكي!

وقال التاجر في برود:

ـ إذن سأشتريها بألفين وخمسمائة فرنك فقط.. الخمسمائة فرنك التي خفضتها هي تعويض عن إهانة السيدة لي!

وجن جنون سلوى وبدأت تشتم التاجر اليهودي، وسحبها إدمون من يدها وهو يقول:

ـ لو استمريت يا ست سلوى في شتائمك فسيأخذ الرجل ملابسنا كلها مجاناً!

وحمل إدمون الحقائب الثلاث وخرج مع سلوى من المحل وفجأة توقف عند باب المحل الخارجي وقال:

ـ عندي فكرة جهنمية!

ـ ما هي؟

ـ تهربين من الفندق دون أن تدفعي الحساب!

قالت سلوى في كبرياء:

ـ الباشا يهرب.. ولكن أنا لا أهرب!

ـ سيأخذونك إلى السجن.

ـ أفضل السجن على الهروب!

ـ أنا شخصياً هربت عدة مرات من فندق باريس دون أن أدفع الحساب!

ـ أنت رجل.. والرجال يهربون أما النساء فهن يصمدن

ويدفعن عادة الحساب!

ـ إن الفندق لن يخسر شيئاً. فالجناح محجوز باسم كامل باشا عبد الفتاح، وسوف يطالبه بدفع المبلغ، وسيضطر أن يدفع هذا المبلغ ليحافظ على سمعة مصر!

ـ عندما يكون الرجل بلا شرف لا يهمه شرف بلاده!

وعاد الإثنان إلى الفندق من جديد يحملان الحقائب. وخرج إدمون يبحث عن أي صديق في باريس يستطيع أن يقترض منه المبلغ. . ولكنه قبل أن يخرج حذر سلوى من أنه لم يعرف طوال حياته رجلاً يملك عشرة آلاف فرنك. . إن كل أصدقائي من الفنانين والفنانات، وطبيعة الفنان أن ينفق في شهر فبراير مرتب شهر إبريل!

□ □ □

وبعد ساعتين عاد إدمون متهللاً وهو يقول لسلوى:

ـ قبليني! قبليني! في هذه المرة جئت من السماء!

ـ أين كنت؟

ـ في ستوديو شركة جومون. . لقد رأيت ليلة القدر في الأستوديو. إن الممثلة الجزائرية فتنة التي كانت ستقوم بالدور الأول في الفيلم أصيبت اليوم في أثناء التقاط أول منظر بأزمة حادة في المصران الغليظ، استدعينا الطبيب وأمر بنقلها فوراً إلى المستشفى لإجراء جراحة خطيرة، وقال الطبيب أنها لا يمكن أن تغادر المستشفى قبل شهر. وأسقط في يد مسيو قرداحي صاحب الفيلم، فقد استأجر ستوديو جومون لمدة ثلاثة أسابيع. وكاد الرجل يغمى عليه خشية أن يضيع عليه المبلغ الذي دفعه وأجور الممثلين

والممثلات، وانتهزت هذه الفرصة الذهبية وقلت له أنه توجد الآن في باريس النجمة المصرية المعروفة سلوى وهبي ملكة الإغراء، وإنني أستطيع أن أقنعها أن تقوم بالدور فوراً مقابل ألف جنيه، بشرط أن يدفع صاحب الفيلم مصاريف إقامتها في الفندق، وأفهمته أنك ممثلة عظيمة لست في حاجة إلى مثل هذا المبلغ التافه، لأنك تقيمين في جناح فندق جورج الخامس الذي يكلفك خمسة آلاف فرنك في الأسبوع الواحد واضطر مسيو قرداحي أن يوافق على هذه الشروط مرغماً.. ولم يكتف بذلك بل أعطاني ألف فرنك مكافأة لي على هذه الفكرة الجهنمية التي أنقذته من الخسارة الفادحة!

ـ وقبضت الألف فرنك؟

ـ طبعاً رفضت. لأنني فنان، والفنان لا يبيع أفكاره بمليون فرنك!

ـ أنت عبيط يا إدمون!

ـ كلنا عبطاء يا ست سلوى!

وأسرعت سلوى وذهبت مع إدمون إلى ستوديو جومون، ووقعت العقد وقبضت عربوناً قدره خمسون ألف فرنك.. على أن تبدأ العمل في صباح اليوم التالي.

وما كادت تضع المبلغ الضخم في حقيبتها حتى قالت لإدمون:

ـ لا أستطيع أن أعمل غداً.. إن لدي مشكلة.

ـ أنت الآن حللت مشكلة فاتورة الفندق ولم يعد لديك مشكلات!

ـ بقيت مشكلة كبرى!

ـ أي مشكلة؟

ـ الجنين الذي في بطني.. أنا لا أريد أن أحمل في بطني ابن رجل أكرهه وأحتقره.. يجب أن أذهب أولاً إلى الطبيب وأقوم بعملية إجهاض، وبعد ذلك أبدأ في التمثيل!

ـ أرجو أن تؤجلي العملية إلى أن ينتهي الفيلم.

ـ لا أستطيع أن أمثل وابن هذا الكلب في بطني!

ـ إن دورك في الفيلم هو دور امرأة قرفانة من كل الرجال.. تحتقرهم وتلعنهم وتتحدث عن غدرهم وسفالتهم طوال الفيلم. ووجود ابن الكلب هذا في بطنك سوف يساعد كثيراً على قيامك بدورك خير قيام!

واقتنعت سلوى، وقامت بدورها خير قيام، وعند انتهاء الفيلم إستطاع إدمون تويما أن يقنع مسيو قرداحي صاحب الفيلم بأن يدفع لسلوى مصاريف عملية الإجهاض في باريس.. بحجة أنها حملت أثناء تأدية وظيفتها!

□ □ □

وعادت سلوى إلى القاهرة، ووضعت ثوب الزفاف الذي اشترته من باريس في صندوق من الورق، وكتبت رسالة قالت فيها:

«حضرة صاحب السعادة كامل باشا عبد الفتاح وكيل وزارة الخارجية..

هذا فستانك الذي نسيته في باريس.. وأعتقد أنك ستكون جميلاً في هذا الفستان.. لأن الرجال لا يهربون!

إن ثمن الفستان ٩٩٠٠ فرنك كما يدل التيكت المرفق به..

ومع هذه الرسالة ورقة بنكنوت من فئة الجنيه فيكون المجموع عشرة آلاف فرنك.

وأحب أن تعلم أنني أنتظر منك فاتورة عن المبلغ الذي يجب أن أدفعه لك مقابل الأسبوعين اللذين أمضيتهما معك في فندق جورج الخامس في باريس.. مع اقتناعي بأن أمثالك لا يدفعون للنساء، وإنما يقبضون من النساء!

ويهمني أن أخبرك بأنني اشتريت كلباً من باريس، ليذكرني بسعادتك دائماً!

أما ابنك الذي حملته منك، وهربت عندما عرفت بجريمتك، فقد ألقيت به في دورة المياه ليكون جديراً بصاحب السعادة أبيه!

الإمضاء: سلوى وهبي»!

وأرسلت سلوى الصندوق مع سائق سيارتها إلى كامل باشا عبد الفتاح في مكتبه بوزارة الخارجية.

وبعد أسبوع واحد فوجئت سلوى بالصحف تعلن أنه صدر مرسوم ملكي بإحالة كامل عبد الفتاح باشا وكيل الخارجية إلى المعاش. وأشارت مجلة «المصور» في خبر صغير أن أحد وكلاء الوزارة أحيل إلى المعاش بسبب فضيحة حدثت في باريس!

وذهلت سلوى. إنها لم تخبر مخلوقاً بالنذالة التي ارتكبها معها كامل عبد الفتاح باشا في باريس. الوحيد الذي عرف القصة هو زميلها إدمون توما!

هل تحدث أدمون عن هذه الفضيحة إلى أحد الصحفيين ونقلها إلى الجهات العليا؟ هل أحست الحكومة بأن الصحف قد تنشر

الفضيحة فسارعت إلى إحالة كامل باشا عبد الفتاح إلى المعاش لتتفادى الفضيحة؟ هل أخطأ سعاة وزارة الخارجية في توصيل الصندوق الذي أرسلته مع سائقها، وبدلاً من أن يسلموه إلى كامل باشا عبد الفتاح وكيل الخارجية سلموه خطأ إلى صاحب الدولة عبد الفتاح باشا يحيى وزير الخارجية، وقرأ الوزير رسالة سلوى إلى وكيل الخارجية فأبلغ الأمر إلى محمد محمود باشا رئيس مجلس الوزراء في تلك الأيام الذي كان متشدداً في المسائل الخلقية وسمعة كبار الموظفين؟

إنها حتى الآن لا تعرف سر ما حدث. لم تر وجه كامل عبد الفتاح باشا. كل ما عرفته أنه سافر بعد ذلك مباشرة إلى عزبته في مديرية الغربية، وانزوى فيها وتوارى عن الناس، ولم يظهر في الأفق السياسي على الإطلاق!

أيكون الله هو الذي فعل كل هذا من أجل امرأة مظلومة مجني عليها، حتى وإن كانت مليئة بالخطايا ومحملة بالذنوب!

إنها حتى الآن لا تعرف.

كل ما تعرفه أن القدر كان يقود سيارة ودهس كلباً في الطريق العام!!

الفصل التاسع والثلاثون

حركت سلوى يدها أمام وجهها وكأنها تهش ذبابة!

ـ كانت تطرد من أمام عينيها صور حياتها الماضية. إنها لم تعد غانية. ماتت ملكة الإغراء وولدت الأم. انطفأت أضواء الليل وأشرق النهار الجديد. وعادت تتحسس بطنها بيدها من جديد.. تعتذر للجنين الذي في بطنها أنها غابت عنه بضع دقائق.. عادت تسرح في ولدها!

نعم ولد.. لا بد أن يكون ولداً.. إنها واثقة أن في بطنها ولداً. كانت تحلم طوال عمرها أنها سترزق بولد. كانت هذه أمنيتها منذ كانت طفلة صغيرة تلعب في الحارة. كل طفلة صغيرة لها (عروسة) من الجبس تلهو بها، تدللها، تحتضنها، تقبلها، تهدهدها فوق ذراعيها، تسرح لها شعرها. تصنع لها الأثواب الجديدة والفساتين الأنيقة. أما هي فقد كانت دائماً تقوم بجراحة في (العروسة) وتحولها إلى عريس، قبل أن تكتشف الجراحات التي تحول النساء إلى رجال!

كانت تنتزع ضفائر الشعر الذهبي الطويل من رأس العروسة، وتزرع مكانها شعراً أسود قصيراً من الوبر. كانت تضع فوق الشعر

الأسود القصير طربوشاً، ثم تجرد العروسة من فستانها وتصنع لها بنطلوناً!

وعندما تتحول العروسة إلى ولد تنهال عليه بالقبلات وتحتضنه في حنان، وتناجيه طالبة منه أن ينام حتى تذبح له (جوزين حمام). . ثم تغني له أغنية (خذ البز واسكت. . خذ البزة ونام. . أمك السيدة. . وأبوك الإمام)!

وكانت هذه الأغنية منتشرة في أيام طفولتها. ولم تكن تعرف معنى هذه الأغنية الساذجة، وإن كانت دائماً تكشف عن ثديها الصغير. وتتظاهر بأنها ترضع (العريس) الصغير ليكبر، ويصير رجلاً. وتختار له عروساً ستكون أجمل بنات الحارة!

ولم يكن يعجبها جمال بنات الحارة. كانت أجمل منهن جميعاً، وكانت تحتقرهن جميعاً، وتحتقر عرائسهن، وترفض أن يلعب عريسها الصغير مع عرائس بنات الجيران، قليلات الأدب. . كانت تخشى أن تغتصب عروسة من هذه العرائس ولدها الصغير. . وبحجة أنها أم محافظة مثل أمها ترفض فكرة اختلاط الجنسين!

والذي كانت تأباه على لعبتها كانت تبيحه لنفسها، فقد كانت دائماً تكره البنات، وتفضل أن تلعب مع الأولاد في الحي تعشق ألعابهم العنيفة مثل لعبة (عسكر وحرامية) و(نطة الإنجليز) و(الطرة) ولعبة (الكرة الشراب). . . لم تكن تطيق الألعاب الناعمة الرقيقة التي تقوم بها بنات الحي مثل (لعبة الأولى) وكثيراً ما كانت تضربها أمها لإصرارها على أن تكون دائماً مع أولاد الحي، ولرفضها ملاعبة البنات الصغيرات. ولم يكن هذا الضرب المبرح

ليشفيها من هواية اللعب مع الأولاد. . بل كان يزيدها عشقاً للعب معهم!!

وكثيرا ما كان يعجبها ولد من الأولاد فتقرر سراً أن تختاره أباً لولدها، ثم تتشاجر مع الأب المزعوم في إحدى الألعاب، فتطلقه وتختار أباً آخر من بين الأولاد!

ولم تحلم أبداً أن تكون ولداً. لم تندم أنها خلقت فتاة. . كانت فخورة بأنوثتها. تحس بسعادة عارمة دائماً مع الأولاد، تضربهم ويضربونها، تشتمهم ويشتمونها تعاكسهم ويعاكسونها!

وقد يكون هذا الشعور الغريب هو الذي فجر أنوثتها، وجعلها تجيد معاملة الرجال. وكانت تشعر بنشوة عارمة عندما يبدأ أولاد الحارة في تقسيم أنفسهم إلى فريقين في كرة القدم، ويصر كل فريق أن يضمها إليه!

□ □ □

وعادت سلوى تتحسس بطنها بأصابعها، وتصورت أن الجنين قد خرج إلى الدنيا، وأصبح طفلاً. . وهو يلعب الكرة مع الأولاد، وبنات الشارع يصفقن له عندما يسجل هدفاً!

ووجدت نفسها تصفق!

ودخل عبدالمتعال مهرولاً وهو يقول:

- سمعتك تصفقين يا حبيبتي. . هل تريدين شيئاً!

- إنني لا أصفق لك. . إنني أصفق لابني!

- ماذا فعل هذا الولد الشقي!

- سجل هدفاً!

- هل هو يلعب في بطنك؟

- أنت لا تفهم في هذه الأشياء لأنك لم تحمل من قبل!

- إنني حملت هموم الدنيا كلها!

- ابني ليس هماً؟ إنه يلعب الكرة مثل مختار التتش!

- هل في بطنك كرة؟!

- أنت تمزح في المسائل الجادة.. أنت رجل واقعي لا تستطيع أن ترى أكثر من الذي أمامك.. أما أنا فإنني أرى المستقبل.. أرى الجمال كله!

- أنا أرى الجمال كله الآن!

وتقدم عبد المتعال نحو سلوى، وانحنى عليها في فراشها يقبلها في حب وحنان، ودفعته وهي تصرخ:

- ابعد عن بطني!

- ماذا حدث؟!

- إنك ستقتل ولدي!

- وضحك عبد المتعال، وقبلها في جبينها مبتعداً عن صدرها وبطنها وهو يقول:

- يظهر أنك نسيت إنه ابني ايضاً!

وتحسست سلوى بطنها وقالت وهي تنظر إليه:

- أعتذر لك يا حبيبي، لأنني تركت رجلاً غريباً يقبلني في حضرتك!

- هل أنا رجل غريب؟!

- هذا هو الرجل الوحيد الذي من حقه أن يقبلني ويعانقني!

- معنى هذا أنني لن أقبلك أو أعانقك بعد الآن!

ـ سأسمح لك بأن تقبلني بعد أن أضع الولد!
ـ **يعني بعد ثمانية أشهر؟!**
ـ ألا تؤمن بالحب الشريف؟!
ـ **لقد كنت ملكاً في غرفة نومك وتريدين اليوم أن تجعليني باش آغا القصر الملكي؟!**
ـ أصبح ابني هو الملك الوحيد في هذا البيت!
ـ **لا أمانع في أن يكون ابني ملكاً وأن تكوني أنت الملكة.. بشرط أن أكون أنا الشعب مصدر السلطات!**
ـ أنا أعلنت الدكتاتورية في هذا البيت وألغيت الدستور!
ـ **أحارب الدكتاتورية في مصر وأخضع لها في بيتي؟!**
ـ ألا تعرف أن كثيراً من الطغاة كانوا كالفئران في بيوتهم؟!
وعادت سلوى تتحسس بطنها، وابتسم عبد المتعال وقال:
ـ **إرفعي يدك من فوق بطنك.. أنت طول الوقت تتحسسين بطنك، وكأنك تخشين أن يهرب الجنين منه!**
ـ هل بدأت تغار منه؟!
ـ **لا يمكن أن أغار من ابني، ولكني أذكر المثل البلدي الذي يقول (جاء للعميان ولد.. قلعوا عينه من التحسيس)!**
ـ إنه هو الذي سيقلع عينك!
ـ **وعينك أيضاً!**
ـ مستحيل.. سيكون ابني وصديقي وصاحبي وحبيبي. ستكون عيناه كبيرتين وجميلتين وواسعتين مثل عيني!
ـ **هذه عيون البقرة!**
ـ سيكون غزالاً!
ـ **القرد في عين أمه غزال!**
ـ هذا عيب في الذات الملكية!

- **أعتذر لصاحب الجلالة!**
- ماذا تريد أن تسميه؟!
- **شحاته!**
- أعوذ بالله!
- **هذا اسم أبي!**
- ألا يكفيه أنه سيحمل فوق ظهره اسمك (عبدالمتعال محجوب) وتريد أن تضيف إليه فوق هذا مصيبة أخرى (شحاته)؟ هل سمعت عن ملك اسمه شحاته؟!
- **هل تريدين أن تسميه محمد عبد الوهاب؟!**
- أريد أن أسميه اسماً سينمائياً عذباً، فيه نغم جميل!
- **نسميه (جهاد). فقد حملت به أثناء جهادنا في محاربة الفساد وصراع الطغاة!**
- هل جننت؟!
- **إنه اسم جميل!**
- هل تريده أن يسجن ويضطهد ويشرد ويعذب؟ هل تريد أن يلفق له الطغاة التهم ويضرب بالسياط؟ هل تريد له حياة الذلّ والهوان والسجون والمعتقلات؟ أنا أريد لابني حياة هادئة راغدة سهلة، ليس فيها صراع وتنكيل. ليس فيها كفاح وجهاد!
- **كنت تشجعيني في صراعي ضد الطغاة والمستبدين والفاسدين.!**
- أنت قمت بواجبك وواجب ابنك، وواجب مئات المصريين.. وهذا يكفينا وزيادة!
- **ماذا جرى لعقلك؟!**
- إنني أحبه!
- **وتحبينني أيضاً؟!**

ـ إنني كنت أحبك والآن أعبدك، لأنك ستكون والد ابني!
ـ إذن ماذا حدث؟
ـ أحس بالرعب إذا وضعوا ابني في السجن. أموت إذا علمت أنهم عذبوه وجلدوه كما عذبوك وجلدوك!
ـ أنا احتملت كل هذا.
ـ ولكنه لن يحتمل كل هذا.
ـ سيرث عني الصمود.
ـ أنت صمدت للسجن والاضطهاد لأنك ولدت في أقصى الصعيد. تمرغت في تراب سوهاج. استحممت في الترعة.. غصت في الطين. عرفت شظف الحياة وقسوتها بين الفلاحين أما ابني فسيولد فوق مرتبة من ريش النعام. لحمه الطري الناعم لن يتحمل سياط الجلادين!
ـ سيكون طالباً في الجامعة، يشترك في مظاهرات الطلبة، ويخرج إلى الشوارع ويصطدم مع الشرطة ويضربهم بالطوب.. إنه من لحمي ودمي، وأنا أعرفه جيداً!
ـ أنت لا تعرفه لأنه في بطني أنا وليس في بطنك أنت. ابني سيكون ولداً هادئاً لذيذاً. سوف أمنعه من الاشتغال بالسياسة أو الخروج في المظاهرات!
ـ أبي منعني من الاشتغال بالسياسة، ومع ذلك خرجت واشتركت في كل المظاهرات!
ـ سأجعله موسيقياً. سيرث عني الفن، وحب الفن. لم يحدث في تاريخ مصر أن دخل موسيقار السجن.. الذين يدخلون السجن هم المجانين!
ـ لقد كنت عاقلاً جداً ووجدت نفسي في السجن. ليس المجانين هم الذين يدخلون السجون، المجانين هم الذين

يدخلونهم إلى السجون. !

- يكفي أن يكون في أسرتنا فدائي واحد. يكفي ما فعله أبوه من أجل الوطن!

- أين ذهبت شجاعتك وحماستك وإيمانك بمقاومة الظالمين والطغاة يا سلوى؟!

- أصبحت جبانة!

- لا أصدق!

- هذا الجنين الذي في بطني، حولني، بدلني، جعلني امرأة أخرى، جعلني أمّاً!

- ألم تسمعي عن أمهات الشهداء في ثورة ١٩١٩؟ كانت الأم منهن تزغرد عندما ترى جثة ولدها تدخل بيتها ملفوفة بعلم الوطن.. كانت الأم تعتبر الرصاص الذي مزق صدر وحيدها أوسمة ونياشين على صدره.. كانت جنازات الشهداء تشيع في الشوارع تتقدمها فرق الموسيقى تعزف أغاني الزفاف والأفراح!

- نحن لسنا في سنة ١٩١٩.

- كل سنة من عمر هذا الشعب يجب أن تكون سنة ١٩١٩ إلى أن يتخلص من كل احتلال واستبداد وطغيان. كنت أؤمن دائماً بأنك بطلة!

- لا أريد أن أكون بطلة.. إنني قمت بدور البطلة في عشرات المسرحيات وأفلام السينما. زهدت في أدوار البطولة. أريد أن أكون أماً عادية. أريد أن يعيش ولدي ويكبر ويستمتع بالحياة السهلة التي حرمت أنا منها، وحرمت أنت منها.

- تريدين أن يكون ابن ذوات؟

ـ أريد أن يكون فناناً. . أريد أن يكون مطرباً مثل محمد عبدالوهاب، تطارده المعجبات، تبكي من أجله المراهقات، تركع تحت قدميه العاشقات!

ـ وماذا يضمن لنا أن صوته سيكون جميلاً!؟

مؤكد سيكون صوته ساحراً. . لقد قال لي عبد الوهاب مرة إن صوتي يشبه صوت البلابل ويصلح جداً للغناء. وقال إنه يتمنى أن أغني أمامه في أحد أفلامه. وتصورت يومها أنه يغازلني، ولكنه أصر على أن يلحن لي أغنية، والذين سمعوا صوتي في الأغنية قالوا إنه أحسن من صوت ليلى مراد!

وبدأت سلوى تغني أغنية تقول (حبيت الدنيا في حبك. . حبيبت الحب في حبك)! ولاحظ عبدالمتعال بعض نغمات نشاز في صوت سلوى، ولعن في سره عبد الوهاب الأستاذ في فن المجاملات وقال:

ـ ومع ذلك فإنني أفضلك أن تكوني الممثلة الأولى في مصر على أن تكوني المطربة الثانية في العالم. . يكفيك أن الدنيا كلها تعترف بأنك ملكة الإغراء!

□□□

واضطربت سلوى عندما تذكرت أنها تقوم فعلاً بأدوار ملكة الاغراء. . وقالت وكأنها تحدث نفسها:

ـ ملكة الإغراء. . هذه هي المصيبة الكبرى التي نسيتها. . ماذا سيحدث لابني عندما يكبر، ويذهب إلى المدرسة، ويعايره زملاؤه بأنه ابن ملكة الإغراء التي تتعرى على المسرح وفي الأفلام. ماذا

سيفعل ابني الطفل المسكين عندما يجيء له بعض التلاميذ الأشقياء بصورتي وقد كشفت عن صدري وفخذي وساقي في أحد الأفلام، ويعرضون الصورة على زملائهم ساخرين ويتضاحكون ويتغامزون، ويشيرون بأصابعن إلى ابن ملكة الإغراء؟!

وأجهشت سلوى بالبكاء.. وذعر عبد المتعال وقال:

- ماذا يبكيك الآن؟

- تصورت ابني الصغير يعود إلى البيت، وقد احمرت عيناه الجميلتان من البكاء وهو يحس بالعار من أمه التي تقوم بأدوار الغانيات.. كل ابن سيقدس أمه ويحترم أمه، ويفخر بأمه، إلا ابني!!

- لن يفهم هذه الأشياء إلا بعد أن يبلغ من العمر خمسة عشر عاماً على الأقل!!

- في هذه السن تكون آلام الولد أقسى، وعاره أكبر!

- هل تظنين أن الدنيا ستقف جامدة لا تتحرك لمدة خمسة عشر عاماً!

- كل شيء يتحرك في الدنيا ويتطور إلا عقليتنا الرجعية الجامدة!

- سيجيء يوم يفكر الناس فيه بعقولهم المتحررة!

- وستبقى الأغلبية تفكر بجهازها التناسلي.. سينظرون دائماً إلى الممثلة كغانية.. كمومس.. كعاهرة.. كفتاة ليل!

- سيجيء يوم يحسد فيه هؤلاء التلاميذ ابنك لأنه ابن الفنانة العظيمة المشهورة سلوى وهبي.. ستتغير العقليات الجامدة!

- لن يتغير شيء في بلادنا.. تتغير أسماء الشوارع وتبقى على قذارتها.. تطلى الخرائب بالألوان الزاهية وتبقى على خرابها. يخلع الناس طرابيشهم ويرتدون القبعات وتبقى الرؤوس كما هي!

ـ كل شيء سيتغير!

ـ يتغير اللصوص وتبقى السرقة.. يتغير الفاسدون ويبقى الفساد.. يتغير الظالمون ويبقى الظلم.. نحن نغير أثوابنا فقط، ولا نغير أبداً ما تحت هذه الأثواب!

ـ التغيير هو طبيعة الحياة.. لا شيء يمكن أن يستمر.. كل شيء لا بد أن يتغير، يتغير إلى الأحسن!

ـ يتغير إلى الأسوأ.. في عام ١٩١٤ كان لدى حسين رشدي باشا رئيس وزراء مصر الشجاعة لأن يعقد مجلس الوزراء في عوامة المطربة منيرة المهدية.. أي وزير اليوم لا يجرؤ على أن يزور ممثلة مصرية في بيتها في رائعة النهار.. إن شجاعتهم تظهر في الليل فقط.. وفي عام ١٩٢٧ كان حسين رشدي باشا نفسه رئيساً لمجلس الشيوخ، وكانت فرقة منيرة المهدية تمثل أوبريت (كليوباترا) على مسرح برنتانيا، وإذا برئيس مجلس الشيوخ يتقدم في نهاية المسرح نحو منيرة المهدية، وينحني على يدها ويقبلها أمام الجماهير.. الآن أخبرني: أي وزير أو وكيل وزارة أو مدير مصلحة يجرؤ أن يفعل هذا على رؤوس الأشهاد! إن مجدي باشا الأسيوطي وزير المواصلات كان يقبل أصابع قدمي وهو جالس معي في بيتي، وعندما كان يراني في مكان عام كان يتجاهل أنه يعرفني. وفي ثورة ١٩١٩ كان سعد زغلول زعيم الثورة يقدم الممثل حسن فائق للجماهير في الاجتماعات السياسية ليلقي منولوجاته الوطنية.. أما الآن فإن الصحف تتحدث عن تواضع رئيس الوزراء لأنه صافح أحد كبار الممثلين بأطراف أصابعه!

ـ الحكومة تمنح الآن الممثلات الأوسمة والنياشين.

ـ ونفس الحكومة تشترط على الممثلة إذا أرادت السفر إلى الخارج

أن تحصل على تصريح بالموافقة من شرطة الآداب!

- لا تنسي أن ملكات أوربا هن ممثلاتها!

- ابني سيعيش في مصر، لا في أوربا!

- تأكدي أن عقل ابننا سيكون كبيراً مثل عقلي!

- وقد يكون عقله صغيراً مثل عقلي أنا!

- أنت تشمرين عن ساقيك قبل أن تري البحر. انتظري حتى يكبر ويولد ويدخل المدرسة، وبعد ذلك واجهي هذه المشكلة!

- يجب أن نواجهها من الآن!

- وماذا تستطيعين أن تفعلي الآن؟

- سوف أتوقف على الفور عن تمثيل أدوار الجاذبية الجنسية والاغراء!

- يعني ستعتزلين التمثيل؟

- لن أعتزل.. سأقوم بالأدوار المحتشمة.. لن أكشف عن صدري وفخذي وساقي وظهري!

- الجمهور تعود أن يراك في الأدوار المثيرة!

- جمهور اليوم هو ابني!

- ابنك لن يدفع لك شيئاً.. الجمهور يشعر أنه يشتريك عندما يشتري تذكرة الدخول. كل متفرج يشعر أنه امتلكك عندما دفع ثمنك!

- لا أبيع نفسي ببضعة قروش!

- إعجاب الجماهير بك هو تعاقد بينك وبينها، وعندما تتوقفين عن تمثيل الأدوار التي تحبها الجماهير، فمعنى ذلك أنك أخللت بهذا التعاقد.. تعود الجمهور أن يسمع صوتك وكلمات الغزل والهوى تذوب في شفتيك.. الجمهور الذي يدفع ألوف الجنيهات ليراك وأنت تخلعين ملابسك، لن يدفع مليماً واحداً ليراك وأنت تؤدين

فريضة الصلاة!

- لن أصلي فوق المسرح، سأمثل أدوار الأم!

- ما زلت صغيرة على دور الأم!

- بالمكياج أستطيع أن أضفي تجاعيد الزمن على وجهي.. المكياج جعل روز اليوسف وهي في سن الأربعين تقوم بدور طفل في مسرحية ديفيد كوبر فيلد.. وجعل زينب صدقي وهي في العشرين تقوم بدور عجوز في السبعين!

- لن تنجحي في دور الأم!

- أستطيع أن أنجح في دور الأم كما نجحت فيه فردوس محمد.

- فردوس محمد ولدت لتكون أماً.. صوتها، وملامحها، تعبيرات وجهها تصرخ بالأمومة.. فيها كل شيء من قداسة الأم وطهرها. لا أتصور أنك تستطيعين أن تمثلي دور الأم إلا إذا أغمضت عينيك!

- تقصد أن عيني فاجرتان!

- لست أنا الذي قلت هذا!

- إنها مؤامرة الكتاب والنقاد.. كلهم دمغوني بهذه الصورة الفاجرة.. الأستاذ التابعي وصف عيني بأنهما (فعل فاضح في الطريق العام).. والأستاذ أحمد الصاوي محمد كتب (إن النظرة إلى عيني سلوى وهبي تنقض الوضوء).. والأستاذ فكري أباظة وصفني في أحد مقالاته (بأنه عندما يغمض عينيه ويسمع صوتي يتصور أن امرأة تجردت من كل ثيابها تتكلم).. والأستاذ توفيق الحكيم عندما رآني أقوم بدور القديسة جان دارك على المسرح وقد غطيت صدري بدرع حديدي قال (خيل إليّ من سحر صوت سلوى وهبي وفتنتها وإغرائها أنها ترتدي قميص نوم شفافاً على اللحم، وسمعت كلمات القديسة من شفتي الغانية).. والأستاذ سعيد فريحة كتب عني في

(الجعبة) يقول (عندما أرى عيني سلوي وهبي أرى الجنـة، وعندمـا ألمح جسدها ألمح النار، وعندمـا أقترب منهـا أحس بأنني أعـانقها، وعندما أسمعها تحدثني أحس بأنني أقبلها، وعندما أصـافحها أحس بأنني في شهر العسل). .

ـ هذه ليست مقالات. . إنها صور فوتوغرافية بالألوان!

ـ وماذا أفعل؟

ـ ضعي نظارة سوداء فوق عينيك!

ـ وهل تكفي؟

ـ لا تكفي. ضعي عدة نظارات سوداء في أماكن أخرى!

ـ إنها مشكلة يا عبدالمتعال!

ـ الغد يحل أوتوماتيكياً مشاكل اليوم!

ـ ويخلق مشاكل جـديدة. . كـل مشاكـل الأمس الصغيرة حلهـا اليوم عندما صنع اليوم مشاكل أكبر!

ـ أنت تخلقين من الأوهام مشكلة!

ـ الذي في بطني حقيقة وليس وهماً!

ـ سيبقى وهماً إلى أن يولد!

ـ أكثر الأوهام هي التي أمام عيوننا. . والحقائق وحدها هي التي في أعماقنا. . بصراحة، أنا خائفة!

ـ ما الذي يخيفك؟

ـ أخاف أن يكبر ابني ويحب فتاة، ويتقدم إلى خطبتها، فـترفضه أسرتها لأن أمه ممثلة!

ـ أنت تفكـرين في زواج ابنك قبـل أن تفكـري في زواجنـا. . نسيت أننـا لم نـتزوج. ولكي يكـون ولـدك ولـداً شرعيـاً يجب أن نـتزوج الآن. . وخير أن تقـول أسرة حبيبة ابنـك أنه ابن ممثلة من أن يقولوا انه ابن حرام!

ـ أمامنا ثمانية أشهر نتزوج فيها على مهلنا!
ـ وماذا سيقول ابنك إذا اكتشف أنه ولد بعد الزواج، أو قبل عقد الزواج بشهر أو بشهرين؟
ـ سأقول له أن والدك عذبني ولوعني حتى وافق على أن يتزوج مني!
ـ تعالي نتزوج الآن.
ـ أريد قبل أن أتزوجك أن أسأل سؤالاً ويجب أن تجيب عليه بصراحة.
ـ المأذون عادة هو الذي يسأل!
ـ أريد أن أسألك، هل أنت تتزوجني لأنني سلوى وهبي أم لأنني أم ولدك الذي في بطني؟
ـ أريد أن أتزوجك لأنك سلوى فقط.. لا أم ولدي.. ولا سلوى وهبي.. ولا ملكة الإغراء!
ـ لماذا لا تتزوجنا نحن الأربع..؟ الشرع يبيح لك الزواج بأربع!
ـ بصراحة إنني أشعر بأنك أربعون زوجة لا زوجة واحدة.. أشعر معك أنك عدة نساء في امرأة واحدة.. الرجل يشعر بالملل مع امرأة واحدة.. وكلما كثر عدد النساء داخل المرأة الواحدة تضاعف عشق الرجل وهيامه بها!
ـ أنا الآن لا أريد أن أكون عدة نساء، أنا أريد أن أكون امرأة واحدة.. أريد أن أكون أماً.. أن تحبني لأنني أم ولدك!
ـ هذا وحده لا يصنع الحب الكبير.. إنني مكثت سبع سنوات متزوجاً من زوجتي الأولى خديجة ولم نرزق بأولاد، ومع ذلك لم أفكر في طلاقها.!
ـ ولكنك كنت تريد ولداً!

- **لا . . كنت أريد بنتاً !**
- أنت؟ كنت أتصور أنك تريد ولداً لأنني أريد ولداً !
- **في تلك الأيام لم أكن قد عرفتك بعد . . !**
- والآن؟ !
- **أريد ولداً . . وبنتاً !**
- لا ، ولد فقط !
- **خلاص . . ولد فقط !**
- إذن . . اذهب وهات المأذون !

□□□

ودخل عبد المتعال متهللاً إلى مكتب الشيخ الشافعي الشرقاوي مأذون الزمالك وما وراء البحار ! !

وكان الشيخ الشافعي يعلق فعلاً على واجهة مكتبه لافتة ضخمة تعلن أنه مأذون حي الزمالك وما وراء البحار . . ولا توجد بحار في الزمالك، فهي جزيرة تقع بين فرعي النيل، ولكن كبرياء الشيخ الشرقاوي أبت أن تسمي فرع النهر فرعاً، وجعلته بحراً . . وقصد الشيخ الشافعي الشرقاوي بهذه التسمية أن يبسط سلطانه على حي أبو العلا في بولاق، والمنطقة المحيطة بملهى الكيت كات في امبابة!

وكان الشيخ يسمي نفسه الشيخ الشرقاوى عندما يتولى عمليات الزواج والطلاق، ثم يصبح الشافعي عندما يتولى منصب الإفتاء!

وهو يدعي أنه من أحفاد الإمام الشافعي ، وأن هذا يعطيه الحق في أن يحدد الحلال والحرام، ويحكم بما يجوز وما لا يجوز. وكان يدعي فوق ذلك أنه يكشف الغيب، ويعرف ما تخفيه الصدور. وكان يبيع (حجاب المحبة) للزوجة المهجورة حتى يعود زوجها ويبيع

بخور الجنة للمرأة العاقر حتى ترزق بالأولاد والبنات!

وما كاد الشيخ الشافعي الشرقاوي يرى عبدالمتعال حتى قال:

- أهلاً بالعريس!

- كيف عرفت أنني العريس؟

- هذا سر المهنة!

- نعم أنا عريس وأريد أن تجيء معي فوراً إلى شارع أبو الفدا لتعقد قراني!

- خمسة جنيهات!

- أعرف أن لك نسبة على المهر!

- هذا المبلغ مصاريف انتقال!

- أجر التاكسي سبعة قروش!

- أعرف أنك ستدفع أجرة التاكسي!

- إذن ماذا تقصد بمصاريف الانتقال!

- مصاريف إنتقال الدفاتر والوثائق الرسمية!

- إنني رجل فقير يا فضيلة الشيخ!

- الفقراء لا يتزوجون إنما يطلقون فقط!

- من قال هذا؟

- الإمام الشافعي!

- قرأت كل مذهب الإمام الشافعي وليس فيه هذا الكلام!

- أقصد الامام الشافعي الجديد.. يعني فضيلتنا!

- زادنا الله من علمك.. ولكني رجل فقير!

- كيف تكون فقيراً وتسكن حي الزمالك؟

- أقيم في غرفة فوق السطوح!

- هذا يخفض مصاريف الانتقال إلى خمسين قرشاً. ومن هي العروس!

ـ سلوى وهبي!

ـ أنعم وأكرم.. أعطني بطاقتك الشخصية!

ـ ليس عندي بطاقة شخصية؟

ـ القانون يحتم أن يقدم العريس بطاقة تحقيق الشخصية قبل عقد القران!

وفوجىء عبد المتعال مفاجأة لم تخطر على باله.. عندما تزوج من زوجته الأولى خديجة لم يكن قد صدر بعد القانون الذي يستوجب أن يقدم العريس بطاقة تحقيق الشخصية. ومن أين يجيء الآن ببطاقة تحقيق الشخصية والدولة قررت أنه مات، ورئيس الوزراء أرسل مندوباً لتشييع جنازته، والصحف نشرت نعيه، والورقة الرسمية الوحيدة التي يحملها هي شهادة من السجن بأن اسمه جرجس بطرس.. وهذا اسم مسيحي، والقانون يمنع زواج المسيحي من المسلمة!

وأحس عبد المتعال بالدنيا تسود في وجهه فاتجه متوسلاً إلى المأذون:

ـ ألا يمكن أن نتغاضى عن بطاقة تحقيق الشخصية؟

ـ مستحيل والقانون صريح. وكل عقد زواج بلا تحقيق شخصية باطل!

ـ يعني أن كل زيجات آبائنا وأجدادنا باطلة لأنه لم يكن في أيامهم بطاقة تحقيق شخصية؟

ـ القانون الذي تصدره الحكومة يصبح جزءاً من الشرع.. والخروج عليه خروج على الشرع!

ـ فضيلتك تستطيع أن تفعل شيئاً!

ـ هذا تزوير في أوراق رسمية!

ـ **أرى على الجدار صورة لفضيلتكم مكتوباً عليها (لجنة فرز أصوات الناخبين في الانتخابات) وأنا أعلم والدنيا تعلم أن هذه الانتخابات كانت مزورة!**

ـ التزوير من أجل الحكومة عمل شرعي، ومن أجل الأفراد جريمة!

ـ **حتى لو رفعنا مصاريف الانتقال!**

ـ هذه مسألة فيها نظر!

ـ **إذن نرفع أجر الانتقال من خمسين قرشاً إلى جنيه!**

ـ هل تريد مني أن أدخل النار مقابل جنيه؟

ـ **خمسة جنيهات!**

ـ ولا خمسة جنيهات.. دخول النار يساوي عشرة جنيهات على الأقل!

ـ **إذن سأدفع لك عشرة جنيهات!**

ـ وجنيهاً مصاريف الفتوى!

ـ **أي فتوى؟**

ـ بأنه من الممكن أن تتزوج بغير بطاقة تحقيق شخصية!

ـ **أنا الذي أصدرت هذه الفتوى!**

ـ وأنا الذي باركتها وستدفع جنيهين آخرين للشاهدين اللذين سيشهدان أنك عبدالمتعال محجوب!

ـ **بسيطة!**

ـ وستدفع جنيهين رشوة لبلوك أمين القسم الذي سيختم الشهادة.!

ـ **رشوة؟ أنا لا أدفع رشوة.. أنا طول عمري أحارب الرشوة!**

ـ نعتبرها بقشيشاً!

- البقشيش هو اسم مستعار للرشوة!

- نعتبرها مكافأة تشجيعية!

- **لا مانع.. يعني المطلوب الآن خمسة عشر جنيهاً!**

- لا.. ثلاثون جنيهاً!

- **خمسة عشرة جنيهاً فقط!**

- إنك نسيت باشكاتب القسم الذي سيوقع على الشهادة!

وضرب عبدالمتعال كفاً بكف وقال:

- **وبعد ذلك المأمور.. ثم المحافظ.. ثم وزير الداخلية.. ثم رئيس مجلس الوزراء ثم جلالة الملك!**

وابتسم الشيخ الشافعي الشرقاوي وقال:

- احمد ربنا يا عبدالمتعال أفندي.. أن الشهادة المطلوبة لا تصدر بمراسيم ملكية.. ولا بأوامر ملكية.. وإلا لكنت خربت بيتك!

ورفع عبدالمتعال يديه إلى السماء وقال:

- **فعلاً الحمد لله.. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه!**

الفصل الأربعون

خرج عبد المتعال من مكتب المأذون الشرعي للزمالك محطماً مهزوماً. دخل إلى المكتب عريساً، وخرج مذبوحاً. لم يطاوعه ضميره أن يدفع رشوة لكي يحصل على بطاقة تحقيق شخصية بأنه عبدالمتعال محجوب. أبت عليه المبادىء التي يؤمن بها أن يشتري شهادة أنه لا يزال على قيد الحياة بالغش والتدليس وشهادات الزور!

هذه مرة أخرى يقول في حياته «لا» وتكلفه هذه الكلمة سعادته. كان يتمنى أن يتزوج من سلوى وهبي بعقد زواج شرعي.. كان يتمنى أن يحمل الولد الذي في بطنها اسمه. ولكنه رجل حارب الرشوة والفساد طوال حياته. حاربها في كل وظيفة تولاها.. في كل عمل قام به. ومطلوب منه اليوم أن يدفع رشوة ليسترد اسمه الذي فقده ظلماً وعدواناً، ليتزوج المرأة التي عشقها، ليمنح الشرعية للطفل السفاح!

كل هذه أهداف نبيلة، ولكنه لا يؤمن بأن الوسائل الدنيئة هي الطريق الوحيد لتحقيق الأهداف النبيلة. لا يؤمن بمقاومة الجريمة بارتكاب جريمة أخرى. صحيح أنه اشترك في يوم من الأيام مع سلوى في سرقة المستندات من خزانة شركة مصر للبسكويت التي

تثبت جرائم غالب بك مدير الشركة، ولكن هذه ليست سرقة، إنها عملية استرداد. هذه الوثائق ليست ملكاً لغالب بك، إنها ملك الشعب، ملك المساهمين، وقد أخفاها غالب بك عن الشعب والمساهمين ليخفي جرائمه، وكل ما فعله أنه أظهر الوثائق التي أخفاها المجرم.

أما دفع الرشوة ليحصل على بطاقة تحقيق شخصية فهذه جريمة. وهو يرتكب الجريمة هذه المرة لسبب شخصي، فزواجه بسلوى مسألة شخصية، وليس من خلقه أن يدوس بقدمه على مبادئه من أجل مسألة شخصية!

ولم تعجب هذه الآراء سلوى عندما أخبرها بالأسباب التي منعت مأذون الزمالك من الحضور إلى بيتها لعقد قرانها، واندفعت تقول له وهي تبكي:

ـ أنت لا تحبني.. لو كنت تحبني لما ترددت في أن تدفع الرشوة التي طلبها المأذون.!

ـ هذه جريمة!!

ـ أنا من أجل حبك ارتكبت جريمة.. ذهبت معك إلى شركة البسكويت واشتركت معك في سرقة المستندات. كنت مستعدة أن أقتل من أجل حبي!

ـ وأنا مستعد أن أضحي بحياتي من أجل حبنا.. ولكن هذه جريمة رشوة!

ـ الذين يحبون لا يفكرون في قانون العقوبات. لم أرَ في حياتي عاشقاً يراجع قانون العقوبات قبل أن يفعل شيئاً من أجل المرأة التي يحبها.

ـ سوف تحتقرينني إذا خالفت مبادئي!

ـ بـالعكس كنت سأحـترمك أكـثر. لأنني كنت سأحبـك أكـثر وأكثر!

ـ إننا لا نستطيع أن نحب من لا نحترمهم!

ـ لا علاقة بين الحب والاحترام.. ممكن أن يحب الرجل عاهرة!

ـ يعشقها ولا يحبها.. الحب شيء مختلف عن العشق والهوى.. الحب فيه قداسة، فيه عبادة، ولا يمكن للعبد أن يتعبد لإله يحتقره!

ـ إذن فأنت تعشقني ولا تحبني!

ـ أنا أحبك وأعبدك!

ـ كيف تعبدني وأنت تعرف ماضي حياتي؟

ـ الحب الكبير يغفر ذنوب البشر جميعاً، لا ذنوب امرأة واحـدة فقط.. إنني أشعر أن هذا الحب الكبير هو النار التي طهرتك. هو شهادة ميلاد جديدة بأن امرأة جديدة ولدت فيك، امرأة بلا ذنوب وبـلا معاص، امـرأة بـلا مـاض وبـلا مغـامـرات.. أنت نفسـك تشعرين أنك لست سلوى وهبي القديمة، إنك امرأة أخـرى تحمل نفس الإسم القديم، وليس فيك أي صفة من صفات الغانية، ولا ملكة الإغراء؟

ـ لم أشعر أنني تغيرت إلا بعد أن حملت منك!

ـ وقبل أن تحملي مني أحسست بالتغيير الكبير فيك.

ـ الـدليل أنني لم أتغـير أنني أريد منـك أن تدفـع الرشـوة لنعقد زواجنا.

ـ سوف تعترفين في يوم من الأيام أنني على حق!

ـ بعد أن أضع ابني وأعجز عن أن أثبت أنه ابن شرعي.

ـ يمكننا أن نتزوج زواجاً عرفياً دون حاجة إلى مأذون!

ـ ما أكثر المرات التي عرض علي الرجال فيها أن أتزوجهم زواجاً عرفياً، وأنا أعلم أن الزواج العرفي هو شيك بدون رصيد!

ـ ممكن أن نتزوج الآن زواجاً عرفياً . . وفي خلال شهور أكون قد حصلت على اعتراف من الدولة بأنني عبدالمتعال محجوب. وأنني على قيد الحياة!

ـ وإذا طلبت منك الدولة رشوة؟

ـ لن أدفعها طبعاً!

ـ وماذا أفعل بالولد الذي في بطني؟

ـ سنجاهد معاً، سنكافح معاً لأثبت حقي. !

ـ وهل تتصور أن الولد الذي في بطني سوف ينتظر حتى يكلل كفاحنا بالنجاح!؟

ـ سأرفع قضية على الحكومة!

ـ بعض القضايا على الحكومة تمكث ١٤ سنة أو عشرين سنة في المحاكم!

ـ قال سعد زغلول: «لا يضيع حق وراءه مطالب»!

ـ سعد باشا قال: «مفيش فايدة»!

ـ سعد زغلول لم يقل هذه الكلمة أبداً. كل ما حدث أنه وهو على فراش الموت أرادت زوجته صفية زغلول أن ترفع روحه المعنوية في ساعاته الأخيرة فقالت له «أنت بخير» فرد عليها بقول «أنا انتهيت» وأغمض عينيه وأسلم الروح. فأخذ بعض الانهزاميين هذه الكلمة وادعوا أن سعد زغلول قال «مفيش فايدة». أي لا فائدة في هذه الأمة. . ولو كان سعد يؤمن بأن لا فائدة في هذا الشعب، لما قام بثورة ١٩١٩ التي هزت أعظم امبراطورية في العالم تلك الأيام!

ـ ما دمت لا تريد أن تدفع الرشوة فسوف أدفعها أنا. . وهكذا تحافظ على مبادئك ونحافظ على ابننا في الوقت نفسه!

ـ الساكت على الرشوة شريك فيها!

ـ كل باب أفتحـه أمامـك تغلقه عـلى مصراعيه. . لـماذا لا تقول صراحة أنك لا تريد أن تتزوجني!

ـ قلت لك إنني سأتزوجك، سواء كنت حامـلاً أو غير حـامل. ولكن الزواج شيء وارتكاب جريمة رشوة شيء آخر!

ـ لماذا تسمي المبلغ المطلوب رشوة ولا تسميه هدية؟

ـ كل الراشين والمرتشين لا يستعملون كلمة «الـرشوة». . كلهم يسمونها هدية!

ـ إن هذا المبلغ هو أشبه بعلب الملبس التي نوزعها على المدعوين في الأفراح. ألم تفكر لماذا يرتشي هؤلاء المسـاكين؟ الحـاجة هي التي تـدفعهم لأن يمدوا أيـديهم للمال الحرام. قـد يكـون الـواحـد منهم محتـاجاً لهـذا المبلغ ليشتري دواء لـطفله المريض، أو لإدخـال ابنتـه للمدرسة، أو لإطعام عائلته الجائعة.

ـ كل المرتشين يشعرون بالحاجة. . المقامر في حاجة إلى تسديـد ديون القمار. . والعـاشق في حاجـة لينفق على الليـالي الحمراء مـع عشيقتـه. . والموظف الكبـير يشعـر بـأنـه في مسيس الحـاجـة لهـذه الرشوة ليبني عمارة. . ولو كنا نعتبر الحاجة عـذراً مقبولاً لارتكـاب الجرائم لوجب أن نلغي قانون العقوبات!

ـ أتصور أننا لو رفعنا مرتبات صغـار الموظفـين لامتنعت الرشـوة بين صغار الموظفين. !

ـ وبقيت بين كبار الموظفين!

ـ وما هو الحل؟

ـ الحرية!

ـ ما العلاقة بين الحرية واللصوصية؟

ـ في الـظلام يتحرك اللصـوص، وفي ضوء النهـار يختفون. . لا

يمكن أن توقف الحكومة شرطياً بجوار كل موظف. ولكن الشعب وحده هو الذي يستطيع أن يكون هذا الشرطي. وإذا أصبحت الصحافة حرة تراقب اللصوص والمرتشين والخارجين على القانون، وإذا رجعت إلى الإحصاءات، لوجدت أن الرشوة والفساد ينتشران في ظل الرقابة الصحفية وتكميم الأفواه.

ـ هذا هو عيبك.. تحول كل مسألة خاصة إلى مسألة عامة.. لقد كنت أحاول أن أقنعك بأن تدفع للمأذون الشرعي المبلغ الذي يطلبه، وإذا بك تجرني إلى حكاية حرية الصحافة.. ما هي العلاقة بين زواجنا وحرية الصحافة؟ أقول لك «ثور» تقول لي «احلبوه». إن كلمة «لا» أصبحت في فمك مثل «السلام عليكم» أفهم أن تقول للحكومة الظالمة «لا» لا أن تقول «لا» للمأذون الشرعي!

ـ إنه جزء من الحكومة الظالمة!

ـ هل تريد أن أقول للجنين الذي في بطني: لا تتحرك ولا تكبر، حتى تسقط الحكومة الظالمة وينتهي الفساد وتجيء كل الحريات.

ـ لا أقول للجنين ألا يتحرك وإنما أقول للشعب أن يتحرك!

ـ أين هو الشعب؟

ـ أنا وأنت!

ـ وماذا أفعل أنا وأنت؟

ـ نقول «لا»!

ـ لقد قلنا «لا» وإذا بنا لا نستطيع أن نتزوج كما يتزوج الملايين. لا نستطيع أن نسجل ولدنا كابن شرعي كما يفعل الملايين.. لماذا لا نقول «نعم» مرة واحدة؟

ـ الذي يقول للظالمين «نعم» مرة واحدة، لا يستطيع بعد ذلك

أن يقول «لا» أبداً!

ـ هذا ما كسبناه.. الفلسفة!

ـ من سخرية القدر أن كلمة الحق في هذا البلد أصبح اسمها فلسفة!

ـ أنت لا تحبني.. أنت لا تحب ولدي!

ـ إنني أعبدكما!

ـ لو كنت تعبدنا لقلت «نعم» مرة واحدة من أجلنا!

ـ إنني أقول «لا» من أجلكما. ومن أجل الملايين!

ـ ما لنا الآن بالملايين؟ دعنا نفكر في أنفسنا أولاً.. الصدقة تصبح حراماً على الجامع إذا حرمت منها أهل بيتك!

ـ أنا أشعر أن البلد كله هو أهل بيتي!

ـ أنا أريد أن أتزوجك أنت.. لا الشعب المصري!

ـ كنت افكر في نفسي إلى أن دخلت السجن بغير ذنب وبغير جريمة، وعندئذ عرفت أنني لن أكون حراً إلا إذا كان الشعب كله حراً!

وانفجرت سلوى في البكاء ولطمت خديها وهي تقول:

ـ ما ذنبي أنا يا رب أن أحب رجلاً يحب الشعب المصري كله. المرأة العاشقة تغار على حبيبها إذا أحب شخصاً آخر، ومصيبتي أن الرجل الذي أحبه يحب الشعب المصري كله. أنا كنت لا أرضى «بضرة» واحدة فإذا بي أفاجأ بملايين الضرائر!

ـ هل تغارين علي من الشعب المصري!؟

ـ نعم!

ـ ولماذا لا أغار أنا من الشعب المصري عليك؟ أنت معبودة

الملايين.. الجماهير تهتف لك.. النساء يقبلنك في الشوارع.. الشبان يعلقون صورتك في غرف نومهم.. وأنت تسكرك هتافاتهم وتمتلئين بالنشوة عندما تسمعين عبارات الإعجاب والحب والتقدير!

ـ قلت لك أنني مستعدة أن أضحي بكل هذا الحب. وأعتزل المسرح والسينما، لكي أعيش معك ومع ابني في غرفة فوق السطح، نأكل خبزاً ودقة.. وأنت لست مستعداً أن تضحي بشيء من أجلنا. إن المطلوب منك أن ترتكب جريمة واحدة فقط!

ـ الجريمة الأولى هي التي تصنع المجرم المعتاد الإجرام!

ـ هذه ليست جريمة.. كل شيء يسير الآن بالرشوة.. المثل يقول: عندما تكون في روما افعل ما يفعله أهل روما!

ـ ولكننا في القاهرة، ولسنا في روما!

ـ هل تتصور أنك أنت وحدك تستطيع أن تصلح هذا البلد؟ هل أنت زعيم؟ هل أنت رئيس حزب؟ هل أنت غاندي!!

ـ نعم أنا غاندي.. وأنت المعزة التي لم تكن تفارقه!

ـ أنت تمزح في مأتمي.. أنت تسخر من دموعي!

ـ دموعك تحرقني!

ـ كنت أتمنى أن تشعل دموعي النار فيك، وإذا بها تحولك إلى رماد!

ـ لأنك تبكين كثيراً يا حبيبتي!

ـ إن دموعي تضحك.. إنني أريد الآن أن أخيرك بين أمرين: إما أن تدفع الرشوة ليصبح زواجنا شرعياً وابننا شرعياً، وإما أن نفترق وأنا لا أريد رداً منك الآن. أعطيك مهلة أربعاً وعشرين

ساعة. لا تراني فيها ولا أراك.. وبعد ذلك أنتظر منك كلمة واحدة «نعم» أو «لا»..

وانتفضت سلوى من فراشها، ومدت يدها إلى عبد المتعال تودعه، وأراد أن يقبلها فأشاحت بوجهها وهي تقول: !

ـ لماذا تقبلني أنا؟ اذهب واطبع هذه القبلات على شفاه شعبك المصري الكريم!

□ □ □

صعد عبد المتعال إلى غرفته فوق السطح. حاول أن يستلقي على فراشه فأحس كأنه ينام فوق مسامير، تحولت غرفته إلى زنزانة. خيل إليه أن نافذة الغرفة سدت فجأة بقضبان حديدية. أحس أنه يختنق في غرفته. هذه القضبان الحديدية الوهمية سدت منافذ الغرفة.. كان يعض على شفته في ألم. شعر أن قرار سلوى أشبه بالسياط التي كان ينهال بها عليه الباشجاويش عبد الجبار في السجن. ضربة العدو تؤلم وضربة الحبيب تذبح وتميت.. الذين ابتكروا المثل الذي يقول «ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب» لم يعرفوا عذاب ضربة الحبيب. أو لم يذوقوا طعم الزبيب!

وشعر برأسه يحترق وبأعصابه تلتهب. هذه الكلمة التي قالتها سلوى نقلته من الجنة إلى الجحيم. لقد لام أهل الأرض آدم لأنه ترك الجنة إلى الأرض من أجل تفاحة، وها هو ذا يطرد من الجنة إلى عذاب النار من أجل مبدأ!

إنه لا يتصور حياته من غير سلوى. لقد أحبها كما لم يحب أبداً. وعشقها لا لأنها تعشقه. بل لأنها تعشق المبادىء التي يؤمن بها! ترى هل يكف عن حبها لأنها كفت عن الإيمان بمبادئه؟

وأحس بأنه لا يزال يحبها ويعبدها فهي تدوس على مبادئه لأنها تحبه. لأنها تريد أن تتزوجه، لأنها تتمنى أن يحمل ابنها اسمه. . إن حبها نفذ إلى قلبه. سرى كالدم في عروقه. لا هو يستطيع أن ينزع هذا الحب. ولا أن ينتزع المبادىء التي يؤمن بها!

وقام من فراشه. وراح يذرع غرفته الصغيرة جيئة وذهاباً وأحس بأنه يختنق، واتجه إلى النافذة ليفتحها ويدخل منها الهواء، فوجد أنها مفتوحة. .

وفتح دولاب ملابسه يبحث عن كتاب يقرأ فيه، وتناول كتاباً وفتحه وإذا به يجد بين صفحات الكتاب وردة ذابلة أهدتها له في أول قصة حبهما. وتشمم أوراق الوردة الذابلة وخيل إليه أن الوردة تنشر عطر سلوى. . كانت سلوى تضع هذه الوردة في صدرها قبل أن تعطيها له. وخيل إليه أن ما يشمه ليس عطر الوردة بل عطر صدرها وأنه لا يعبث بأصابعه في الأوراق الذابلة وإنما يعبث بصدرها. . وخيل إليه أن سلوى نفسها تخرج من أوراق الوردة الذابلة وهي مليئة بالنضارة والحيوية والجمال والشباب والإغراء!

أحس برأسها الجميل يميل على رأسه، وشعرها المتماوج يقبل فمه، وذراعيها المرمريتين تحيطان به وتضمانه في رغبة واشتهاء. ورأى عينيها تشعان بنور غريب. فيه كهرباء تشعل جسده بالنار وخيل إليه أنه يسمع صوتها الملائكي وهو يقول له: قل «نعم» يا عبد المتعال!

وأحس بأنه يضعف ويضعف ويتخاذل ويقول: ألف «نعم» يا حبيبتي!

ومد ذراعيه ليعانقها. فعانقت ذراعاه الهواء. . وانتفض، وأعاد

الـوردة إلى الكتاب. وألقـاه على الفراش وبـدأ يعدو عـلى درجـات سلم العـمارة إلى الـدور الأرضي وهـو يصرخ: لا.. لا.. لا..!
وقـد خيِّـل إليـه أن سلوى تعـدو وراءه وتـطارده ليعـود إلى حـظيرة «نعم».

ونـظر الصاعـدون والهابـطون على درجـات السلم في دهشـة إلى الرجل الذي يقفز درجات السلم وهو يقول: لا.. لا.. لا!

ومشى في شوارع الزمالك هائماً عـلى وجهه.. يتـطلع إلى وجوه الناس.. ولا أحد يلتفت إليـه أو يشعر بـه.. وتذكـر كلمة سلوى وهي تقـول لـه: اذهب واطبـع هـذه القبـلات عـلى شفـاه شعبـك المصري الكريم!

ورأى فتاة أنفها كبير، وأسنانها بارزة تمشي بجواره وكأنها تعرج، ولاحظ أنها تنظر إليه شزراً.. ثم رأى أفنديـاً قصير القـامة يـرتدي سترة سوداء باهتة اللون، كأن الدهر قد ارتـداها قبـل أن تنتقل إلى هذا الأفندي بطريق الوراثة، وكان الرجل مكتئباً حزينـاً يمشي محني الظهر، وكأنه يضع الدهر فوق كتفيه مع جـاكتة البـذلة.. ثم رأى عجوزاً ترتدي ثياباً سوداء. وتنتعل حذاءين ضخمين يحدثان صوتاً في الشارع يشبه صوت لطم الخدود!

وإبتسم عبـد المتعال سـاخراً. هـذا هـو الشعب المصري الـذي طلبت منه سلوى أن يذهب إليه ويعانقه ويغمره بالقبلات. ووجد نفسه يقارن بين شفتي سلوى المثيرتـين وشفتي العجوز التي تـرتدي الملابس السوداء، وكان يقارن بين كلمة «نعم» وكلمة «لا»!

وفجأة خطف بصره منـظر رجل يمشي الهـوينا بجـوار قصر الأمير لطف الله بـالجزيرة (فنـدق عمر الخيـام الآن) وحملق في الرجـل وهو

على بعد سبع خطوات منه، وتساءل أين سبق له أن رأى هذا الرأس الأسود الذي يختلط بشعر رمادي؟ أين رأى هزة الكتف هذه؟ هل رآها في السجن؟ لا يمكن.. إن وجوه الضباط والحراس والمسجونين محفورة في ذاكرته.. لا.. إنه تذكره.. إنه برعي أفندي متولي وكيل الأرشيف بشركة مصر للبسكويت!

واتجه عبد المتعال نحوه متهللاً وهو يقول: أهلاً برعي أفندي!

وتسمر برعي أفندي مشدوهاً وقال: بسم الله الرحمن الرحيم!

وبدأ برعي أفندي يتلو آية الكرسي. وضحك عبد المتعال وهو يقول:

- اطمئن يا برعي أفندي، أنا لست عفريتاً من الجان!

وكان برعي أفندي قد اصفر وجهه وارتعشت أطرافه وقال وهو يتلعثم:

- مش.. مش.. مش.. مش معقول!

- هل تذكرني يا برعي أفندي!

- كيف لا أذكرك؟. أنت سعادة عبد المتعال محجوب بك مدير عام الشركة!

- أنا عبد المتعال محجوب فقط!

- ولكنني متأكد أنك مت!

- كيف تأكدت؟!

- أنا بنفسي مشيت في جنازتك.. أنا لم أكتف بتشييع الجنازة.. أنا ذهبت مع جثتك إلى المدفن في الإمام الشافعي ورأيتهم وهو يوارونك التراب!!

- هاأنذا أمامك حي يرزق!

ـ القطط وحدها لها سبعة أرواح.

ـ أؤكد لك يا برعي أفندي أنني لست قطة!

ـ العفو يا عبد المتعال بك.. ولكنني قرأت نعيك بنفسي في الصحف.. وقد أوفد دولة رئيس الوزراء سعادة حافظ بك سري سكرتيره الخاص لتشييع جنازتك!

ـ أعلم ذلك!

ـ هل كنت حياً داخل النعش؟

ـ لم أكن في داخل النعش!

ـ من الذي كان في داخل النعش!

ـ جثة رجل آخر!

ـ لولا أنني أعرف أنه ليس لك إخوة لظننت أنك الشقيق التوأم لعبد المتعال بك محجوب ولكن يخلق من الشبه أربعين!!

ـ لكي أثبت لك أنني عبد المتعال محجوب وليس شقيقه التوأم ولا شبيهه.. سأقول لك أن زوجتك اسمها بهية!

ـ كل الناس تعرف أن زوجتي اسمها بهية!

ـ وكانت موظفة معك في الشركة!

ـ كل الناس تعرف أنها كانت موظفة معي في الشركة!

ـ ورفض أهلها أن يزوجوك بها وطلبت مني أن أذهب إلى أبيها وأزكيك عنده، فذهبت إليه وكذبت عليه وقلت له أن لك مستقبلاً وستكون في يوم من الأيام مديراً للشركة!

وهجم برعي أفندق على عبد المتعال وعانقه وقبله وهو يقول:

ـ هذا سر لا يعرفه أحد إلا عبد المتعال محجوب بك.. أنت عبد المتعال محجوب بك..

ـ أنا عبد المتعال محجوب فعلاً؟

ـ وكيف بعثت إلى الحياة؟

ـ أنا لم أمت حتى أبعث!

ـ أين كنت إذن؟

ـ هذه قصة طويلة . .

ـ أريد أن أسمعها

ـ لا أستطيع أن أرويها ونحن نمشي على كوبري أبو العلا!

ـ إنني مستعد أن أبقى معك طول الليل!

ووصلا إلى نهاية الكوبري وجلسا في قهوة أبو العلا . . وروى عبد المتعال مأساته كلها لبرعي أفندي وقال في ختامها:

ـ هكذا ترى أن مشكلتي هي أنني أريد أن أثبت أنني عبد المتعال محجوب!

ـ أنا مستعد أن أشهد بذلك أمام الله والناس!

ـ شهادتك لا تكفي!

ـ عندي مستندات تثبت أنك عبد المتعال محجوب.

ـ ما هي المستندات؟

ـ بهية!

ـ بهية زوجتك لا تكفي لإثبات ذلك!

ـ عندي ملف خدمتك في الشركة.

ـ لقد قال لي المرحوم عبد الجواد أفندي وكيل الحسابات قبل أن يقتلوه أن غالب بك مدير الشركة الحالي أمر بإعدام الملف.

ـ فعلاً أصدر غالب بك أمراً لي بإعدام ملفك ولكني لم أعدمه . . أبقيته عندي في درج مكتبي . . شعرت أنني إذا أحرقته فإنني أحرق صديقاً عزيزاً.

ـ وماذا في الملف الموجود عندك؟

ـ شهادة ميلادك، وشهادة الابتدائية، وشهادة الكفاءة وشهادة البكالوريا، وشهادة دبلوم كلية التجارة. وجواز سفرك!

ـ جواز سفري؟

ـ نعم.. لقد استخرجنا لك جواز سفر قبل وفاتك.. أقصد قبل اختفائك.. وعندما حدثت الوفاة أودعت الجواز في الملف، وفيه صورتك ومختومة بخاتم وزارة الداخلية!!

ـ أنت رجل عظيم يا برعي أفندي!

ـ أنت صاحب فضل علي لن أنساه.. أنت الذي عينتني في الشركة.. أنت الذي رقيتني.. أنت الذي منحتني العلاوات.. بعدك لم أحصل على علاوة واحدة.. أنت الذي زوجتني بهية!

ـ ولكنك أنت الذي بعثتني إلى الحياة.. هذه المستندات سوف تعيدني إلى قيد الحياة!

ـ إنني أقيم في شقة متواضعة في الدور الأول بشارع حسين صبري رقم ٧ بالزمالك، والشقة ٤، يمكنك أن تحضر إلي في الساعة الثانية والنصف بعد ظهر غد. سأخرج من الشركة مباشرة ومعي الملف وسوف أعطيك إياه، وسوف يسعد بهية جداً أن تراك.. وسيكون اليوم أسعد يوم في حياتها عندما تعلم أنك عدت إلى قيد الحياة!

ـ هل أنت سعيد في زواجك يا برعي أفندي؟

ـ سعيد؟ منتهى السعادة.. إننا في كل يوم نذكرك أنا وبهية ونقول: الله يرحمك يا عبد المتعال بك؟

ـ تصورت أنكم نسيتموني!

ـ كيف ننساك وقد أصبحت الشركة بعدك خراباً . . والفضل لعلي بابا والأربعين حرامي!

ـ **إنك رجل شجاع يا برعي أفندي**

ـ إنني أبرىء ذمتي وأرضي ضميري!

ـ **لو كان مثلك في البلاد كثيرين لما أصبحنا في هذه الحال!**

ـ العمر واحد، والرب واحد . . إنني أنتظرك في بيتي الساعة الثانية والنصف بعد ظهر غد!

ـ **أفضل أن نلتقي في نفس القهوة! . .**

ـ ولكن بهية تريد أن تراك!

ـ **سأزورك بعد ذلك في بيتك!**

□ □ □

وفكر عبد المتعال في أن يذهب على الفور إلى سلوى ويبلغها المفاجأة السارة، ثم عاد وقرر ألا يخبرها إلا قبل أن تنتهي الأربع والعشرين ساعة بدقائق . . وكأنه أراد أن يعاقبها على الإنذار الذي قدمته له!

وفي الساعة الأولى من بعد ظهر اليوم التالي، ذهب عبد المتعال إلى قهوة أبو العلا وجلس ينتظر صديقه برعي أفندي. كانت عيناه تتطلعان حوله وكأنهما تتعجلان قدوم الصديق العزيز. وانتصفت الساعة الثالثة بعد الظهر ولم يحضر برعي أفندي . . ودقت الساعة الثالثة في القهوة ولم يصل برعي أفندي . . واستمر عبد المتعال ينتظر حتى الساعة الرابعة والنصف . . ولم يحضر برعي أفندي!

وأحس عبد المتعال بالانزعاج على صديقه الحميم. هل يمكن أن يكونوا قتلوه كما قتلوا صديقه عبد الجواد أفندي وكيل الحسابات في

الشركة عندما حاول أن يحصل على ميزانية الشركة الحقيقية التي تثبت فساد وتزوير غالب بك مدير شركة مصر للبسكويت؟

هل سيقرأ غداً في الصحف خبراً صغيراً بأن سيارة دهست برعي أفندي متولي وكيل الأرشيف، كالسيارة التي دهست عبدالجواد أفندي وكيل الحسابات؟

وأحس عبد المتعال بالندم لأنه وافق برعي أفندي على أن يقوم بهذه المهمة الفدائية بإحضار الملف الذي يثبت بجلاء أنه على قيد الحياة، وتذكر برعي أفندي وزوجته بهية..

وسارع عبد المتعال يعدو إلى شارع حسن صبري، واتجه إلى العمارة رقم ٧ وصعد على درجات السلم واتجه إلى الشقة رقم ٤، ووضع أذنه على الباب.. فلم يسمع بكاء ولا نحيباً، فتنفس الصعداء.. إن بهية لم تعلم بعد بالكارثة.. لن يخبرها بشيء. لن يكون هو الذي يحمل لها النبأ المشؤوم سيكتفي بالسؤال عن برعي أفندي!

وضغط على جرس الباب.. واستمر يضغط على الجرس.. وبعد دقائق فتح الباب وأطل برعي برأسه من ثنايا الباب..

وصرخ عبد المتعال مبتهجاً وقال والكلمات تزغرد بين شفتيه:

ـ الحمد لله.. الحمد لله.. هذه المرة أنا الذي ظننت أنك مت!

ولم يرد عليه برعي أفندي، بل أسرع بغلق الباب في وجهه في صمت. ثم فتح برعي أفندي نافذة الباب الزجاجية وقال: «حضرتك غلطان في الشقة» ثم أغلق النافذة الزجاجية!

غلطان في الشقة؟ لا يمكن أن أكون غلطان في الشقة.. هذا هو

وجه برعي وهذا هو صوته.. أيكون هو الذي له شقيق توأم يشبهه هذا الشبه العجيب؟ وعاد يضغط على الجرس، ولم يفتح أحد الباب. وبدأ يدق بيده في هستيرية على الباب الزجاجي!

وفتح برعي أفندي الباب في هدوء وقال:

- أفندم؟
- **أفندم ازاي؟ أنا عبد المتعال يا برعي!**
- عبد المتعال مين؟
- **عبد المتعال مين؟ عبد المتعال محجوب!**
- عبد المتعال محجوب مات منذ سنوات!
- **أنا كنت معك أمس في قهوة أبو العلا!**
- لم أذهب أمس إلى قهوة أبو العلا!
- **مستحيل أن تكون نسيت!**
- أنا ذاكرتي قوية!
- **آسف لسوء التفاهم.. لا بد أنك شقيق برعي أفندي متولي التوأم!**
- أنا برعي متولي.. وليس لي شقيق توأم!
- **وأنا صديقك وحبيبك عبد المتعال محجوب!**
- فعلاً عبد المتعال محجوب صديقي وحبيبي.. ولكنه ليس أنت!
- **إذن من أنا؟**
- أنت نصاب!
- **أنا نصاب يا برعي أفندي؟**
- طبعاً نصاب وستين نصاب!
- **هل نسيت ما فعلته لأجلك من أجل زواجك من بهية!**

ـ عيب يا أفندي أن تذكر أسماء كرائم العائلات!

وأقبلت شابة جميلة ترتدي ثوباً من المخمل الأسود مزيناً بزهور حمراء. . وشعرها الأحمر الكثيف ينسدل وراء ظهرها. وأزاحت برعي أفندي جانباً. وصاح عبد المتعال في فرح:

ـ بهية؟!

وقالت بهية وهي تتفرس في عبد المتعال في دهشة:

ـ من أنت؟ . .
ـ **أنا؟ أنا عبد المتعال. . عبد المتعال محجوب يا بهية!**
ـ أنا أعرف عبدالمتعال بك محجوب، ولكنك لا تشبهه!
ـ **لا أشبهه؟!**
ـ أبداً. . كان عبد المتعال محجوب قصيراً وأنت طويل. . وكان أبيض وأنت أسمر!
ـ **أبيض!**
ـ نعم كان يشبه الأتراك!
ـ **عبد المتعال محجوب الصعيدي المولود في سوهاج يشبه الأتراك؟**
ـ نعم. . أنا أعرفه جيداً وقد كنت أعمل موظفة عنده في الشركة عدة سنوات. الله يرحمه كان رجلاً طيباً!
ـ **إنني كنت أتصور أنك لن تنسيني. . إن برعي أفندي كان معي في القهوة بعد ظهر أمس.**
ـ برعي لم يخرج من البيت بعد ظهر أمس على الإطلاق!
ـ **إذن من الذي كنت معه في القهوة أمس!**
ـ اسأل نفسك!

- إنني أستحلفك بأولادك الثلاثة أن تقولي الحقيقة!

- ما دمت تعرف أن لي أولاداً ثلاثة، فكيف تريد أن تعرض زوجي للمهالك؟! ألم يكفك أنك قتلت المرحوم عبد الجواد أفندي وكيل الحسابات وتريد أن تقتل زوجي؟..

- أنا قتلت عبد الجواد أفندي؟

- أنت قلت أمس لزوجي في القهوة أن عبد الجواد أفندي قتلوه بسببك!

- الحمدلله.. هأنتذي تعترفين الآن أن زوجك كان معي في القهوة؟

- أنا لم أقل هذا.. أنت الذي قلت!

- أنا الذي قلت؟

- ألم تسمع بأذنك يا برعي أنه هو الذي قال هذا؟

وقال برعي على الفور:

- نعم إنه قال هذا بعظمة لسانه!

والتفتت بهية إلى عبد المتعال وقالت له:

- أرأيت؟ إنك بدأت تكذب على الأموات، والآن تكذب على الأحياء.. اسمع يا أفندي.. أنت لا تعرفنا ونحن لا نعرفك.. أقصر الشر وانصرف، وإلا فسوف أتصل بشرطة النجدة!

- وماذا تقولين لشرطة النجدة؟

- أقول لها أن رجلاً مجنوناً أراد أن يدخل شقتنا.. وقال إنه عفريت رجل ميت!

- أنا قلت أنني عفريت رجل ميت؟

والتفتت بهية إلى زوجها تسأله:

ـ ألم تسمع بأذنك أنه قال هذا يا برعي..؟

وهز برعي رأسه موافقاً وهو يقول:

ـ مضبوط.. هذا ما قاله بعظمة لسانه.. اذهبي يا بهية واطلبي بالتليفون شرطة النجدة!

وثار عبد المتعال في غضب:

ـ أنا الذي سوف أستدعي شرطة النجدة.. سوف أطلب إليها أن تذهب إلى مكتبك في الشركة وتضبط به ملف خدمتي!

ـ حرقناه!

ـ أنت قلت لي أن غالب بك أصدر أمره بحرق الملف ولم تحرقه!

ـ حرقته اليوم!

ـ وكيف تحرقه؟

وتقدمت بهية نحو عبد المتعال وقالت له وهي تبتسم:

ـ برعي نسي أن يقول لك أن غالب بك مدير الشركة أصدر اليوم قراراً بترقيته من منصب وكيل الأرشيف إلى منصب مدير الأرشيف!

الفصل الحادي والأربعون

ـ أقفل برعي أفندي باب الشقة، وزفر زفرة طويلة، وقال لزوجته بهية:

ـ الحمدلله.. مشى.. انصرف.. غار.. راح في داهية!

ـ رجل ليس عنده دم!

ـ رجل لا يختشي!

ـ صحيح.. اللي اختشوا ماتوا!

ـ خلصنا والحمدلله من المصيبة..

ـ اعترف يا برعي.. لولاي لكنت أنت الآن في السجن!

ـ لولاك لما أصبحت مدير الأرشيف يا حبيبتي!

ـ يا لك من رجل مغفل!

ـ أنا أقول لك «يا حبيبتي» وأنت تقولين «يا مغفل»!

ـ أنا أقول الحقيقة!

ـ ربع ساعة كادت تقضي على عمرنا كله.. كنت تريد أن تضحي بزوجتك وبنفسك وبأولادك وبوظيفتك في الشركة!

ـ من أجل المروءة!

ـ وهل من المروءة أن يضحي خمسة أشخاص بحياتهم من أجل رجل واحد؟

ـ ورجل ميت!

ـ حتى ولو كان حياً. . ما لنا نحن ومشاكل الناس؟ نحن ناس في حالنا. ثم يجيء هذا الرجل ويعكر صفو حياتنا. . ولكن غلطتك أنك قابلته!

ـ أنا لم أقابله. . إنه سقط فوقي كأنه قنبلة!

ـ كانت عيني ترف قبل أن تخرج بعد ظهر أمس من البيت. . ليتني منعتك من الخروج حتى لا تلتقي بهذه المصيبة!

ـ أنا خرجت لأذهب إلى بيت خالتي!

ـ المصائب كلها تجيء من الأقارب!

ـ ولكنها جاءت سليمة!

ـ رأيي فيك دائماً أنك رجل ضعيف. . يسهل إغراؤك!

ـ تقصدين أنك أغريتني بسهولة حتى تزوجتك؟

ـ أنا لم أغرك. . أنا اغتصبتك. . أما هذا الرجل فقد حرضك على سرقة الملف!

ـ الحقيقة أن عبد المتعال لم يحرضني، أنا الذي عرضت عليه أن أسرق له ملف خدمته!

ـ ما دام عبد المتعال وافقك على ارتكاب هذه الجريمة فهو شريك في الجريمة!

ـ ليس الشريك فقط. . بل هو المحرض. . إنني تأثرت بقصته، وحركتني مأساته وتذكرت أفضاله علينا، وأردت أن أسدد له هذه الأفضال!

ـ نحن سددنا له كل ديونه!

ـ كيف سددناها؟

ـ ألم نكن نترحم عليه طوال هذه السنوات؟ لا أظن أن أحداً

غيرنا ترحم عليه كما ترحمنا نحن عليه!

ـ ترحمنا عليه وهو ميت، وذبحناه وهو حي!

ـ إنه ميت، ميت فعلاً، ميت بحكم القانون. وليست جريمة أن تقتل رجلاً ميتاً!

ـ كنت أفضل لو اعتذرنا له بأدب عن عدم استطاعتنا مساعدته.

ـ إننا تصرفنا معه بمنتهى الأدب

ـ إننا قلنا له أنه مجنون ونصاب وأقفلنا الباب في وجهه!

ـ هذا أقل ما نفعله في رجل أراد أن يخرب بيتنا، وييتم أطفالنا!

ـ إنني خجلت من نفسي وأنا أشتم رجلاً كان رئيسي في يوم من الأيام، وكنت أزرر الجاكتة قبل أن أدخل إلى مكتبه.. إننا كنا في منتهى القسوة!

ـ كنا في منتهى الحكمة!

ـ الجبن في هذه الأيام هو سيد الأخلاق!

ـ هذا ليس جبناً، إن ما فعلناه هو منتهى العقل.. أنت قمت بواجبك كموظف في الشركة.. ذهبت إلى غالب بك مدير الشركة وقلت له أن عبد المتعال طلب منك مستندات تثبت أنه على قيد الحياة، وأنك رفضت بإباء وشمم. وأنك قلبت الملفات في الأرشيف رأساً على عقب، خشية أن يكون بين الملفات أي ملف يفيده، وفوجئت بهذا الملف، وتبينت أن الملف الذي أحرقته بعد وفاته هو ملف آخر، وقدمت للمدير ملف عبد المتعال، وأثنى غالب بك على نبلك!

ـ الواقع أنه عندما تحدث غالب بك عن نبلي شعرت أنني في

منتهى السفالة!

- وبعد أن قال لك غالب بك أنه رقاك فوراً مديراً للأرشيف، ماذا شعرت؟

- شعرت أن عبد المتعال في منتهى السفالة!

- كل هذا حدث بفضل توجيهاتي لك وخططي!

- الخطة جهنمية فعلاً. ولكن بقيت مسألة الوفاء والإخلاص!

- الوفاء؟ الإخلاص؟ الوفاء والاخلاص يكونان أولاً للشركة التي تأكل منها العيش والملح!

- والبسكويت!

- الآن سنأكل يا برعي البسكويت.. بعد أن أصبحت مديراً للأرشيف.. ولو كنت مشيت وراء الوفاء والإخلاص لأكلنا التراب!

- كان من الممكن بهذا الملف الضائع أن يثبت عبد المتعال أنه عبد المتعال محجوب، ويعود مديراً عاماً لشركة البسكويت!

- وماذا كنا سنكسب نحن من عودته مديراً عاماً؟

- كان من المؤكد أنه يرقيني مديراً للأرشيف مكافأة على موقفي معه.

- وقد يحدث أن تفشل محاولته فتفقد وظيفتك في الشركة ونموت من الجوع.. ولنفرض أنه أصبح مديراً عاماً للشركة، فهل كنت متأكداً أنه كان سيعطيك علاوة استثنائية كما فعل غالب بك؟ أنا كنت موظفة في الشركة، وأعرف أن عبد المتعال كان دائماً ضد منح العلاوات الاستثنائية والمحسوبيات!

- كان سيعطيني ثلاثة جنيهات شهرياً علاوة الدرجة.. لا عشرة جنيهات شهرياً كما فعل غالب بك!

ـ أي أنك كنت تكسب بالنبل ٣٦ جنيهاً في السنة، بينما كسبت بالسفالة ١٢٠ جنيهاً في السنة!

ـ فعلاً.. الفرق بين النبل والسفالة هو ٨٤ جنيهاً في العام!

ـ الحياة عملية حسابية، جمع وطرح وقسمة وضرب!

ـ ضرب أصدقائنا في ظهورهم بالخناجر!

ـ هأنتذا عدت مغفلاً من جديد!

ـ هل يكون الإنسان مغفلاً عندما يكون صاحب مروءة ووفاء؟

ـ صدعتني يا برعي بكلمات المروءة والوفاء.. إنها كلمات جوفاء، لا تدفع أقساط الفريجيدير والبوتاجاز والسيارة..

ـ وهل سنشتري سيارة؟

ـ سفالة أخرى مثل هذه السفالة ونشتري سيارة!

□ □ □

وهنا قال لها:

ـ أنت فكرتك سيئة عن البلد والناس.

فقالت له:

ـ أنا خبيرة بالسوق.. المروءة والوفاء هما عملة ملغاة كأوراق النقد الملغاة التي لم تعد تستعمل في عصرنا الحالي!

ـ أنت امرأة عملية!

ـ أنا أعيش في عصري وأتكلم لغته. في عصور الظلم

والاستبداد تنخفض أسعار العملة عادة، وتنخفض معها قيمة المروءة والوفاء والشرف والصداقة. . وكلما زاد الظلم هبطت قيمة هذه المعاني، حتى تتحول إلى أوراق نقد مزيفة. وإذا ضبطت الحكومة هذه الفضائل عند أحد الأشخاص حاكمته كما تحاكم مزيف النقود!

- يعني تتحول الفضائل في عهود الحرية إلى رذائل في عهود الاستبداد؟

- رذائل فقط؟. إنها تتحول إلى جرائم!

- بيني وبينك. . كنت لا أريد أن أكون سافلاً إلى هذه الدرجة!

- هل تريد أن تتعامل بعملة غير مستعملة في السوق؟ إن هذه الفضائل موضة قديمة. . إنها أصبحت كلمات بلا قيمة كالمارك الألماني عندما هبطت قيمته بعد الحرب العالمية الأولى، أو كالدراخمة اليونانية بعد إفلاس اليونان، عندما كان السائح في اليونان يشتري علبة سجائر بثلاثة ملايين دراخمة!

- وكم أصبح سعر الوفاء الآن؟

- إنه لا يشتري لك سيجارة واحدة!

- أنا أعترف أن موقفنا موقف اقتصادي، موقف حكيم، موقف عاقل. . ولكنه غير شريف!

- تقصد غير مجنون. الشرف في عصرنا الحالي هو الجنون. . هو الحماقة. . هو العبط. . هو الخيبة القوية!

- فعلاً. . الكلمات يتغير مدلولها بتغير الأزمان!

- إن حاكمنا الآن هو شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء رجل طاغية وديكتاتور ويتحدث عن الحرية. يسرق ويتكلم عن

الشرف.. يظلم ويبشر بالعدل.. تذكر أنك في عصر شفيق باشا فتحي.. لا في عصر هارون الرشيد!

ـ الناس على دين ملوكهم!

ـ ولهذا يجب أن نتكلم لغة العصر الذي نعيش فيه، وإلا فلن يفهمنا أحد ويتصورنا الناس نتكلم لغة أجنبية!

ـ اخفضي صوتك يا بهية.. الجدران لها آذان!

ـ لا خوف علينا.. بعد السفالة التي أظهرتها لعبد المتعال أثبت ولاءك وإخلاصك لغالب بك مدير شركة البسكويت، وغالب بك قريب حافظ بك سري مدير مكتب رئيس الوزراء.. فابتداء من اليوم أصبحنا محاسيب الدولة، ولا خوف أبداً على محاسيب شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء.

ـ وإذا سقطت حكومة شفيق باشا؟

ـ نصبح محاسيب الحكومة القادمة، محاسيب الحكومة السابقة هم محاسيب الحكومة الحاضرة، وسيكونون محاسيب الحكومة القادمة!

وأين نجد «سفالة» نقدمها للحكومة القادمة؟

ـ اطمئن.. إن السفالة كنز لا يفنى!

ـ أريد أن أعترف لك يا بهية أنني لم أنم ليلة أمس!

ـ ماذا كان يؤلمك؟

ـ ضميري!

ـ ستنام الليلة كما لم تنم طول حياتك!

ـ وضميري؟

- سينام معك!

- أخشى أن يستيقظ ضميري!

- علاوة العشرة الجنيهات شهرياً ستجعلك تنام وتغط في النوم.. هذه العلاوة الاستثنائية هي أحسن أقراص منومة في العالم!

- أنت لم تجربي عذاب الضمير يا بهية!

- الضمير مثل المصران الأعور، الأطباء مجمعون على أن لا فائدة منه، وإزالته تفيد ولا تضر.. والحمدلله أننا أزلنا هذا المصران الأعور!

- بصراحة، ما زلت أحس ببعض «النغزات» من تأثير الجراحة.

- بعد أيام قليلة سوف تزول كل آثار الجرح.. وتنسى أنه كان لك مصران أعور.. أقصد ضميراً.. في أي يوم من الأيام!

- لا بد أن أفعل شيئاً لأكفر عن هذه السفالة!

- ما رأيك في أن نذهب إلى قبر عبد المتعال في الإمام الشافعي ونقرأ عليه الفاتحة؟!

- هذه فكرة عظيمة، لقد استراح ضميري الآن.. المفروض قانوناً أن عبد المتعال محجوب ميت، وليس من المعقول أن نكذب الحكومة والجهات العليا ونصدق هذا المعتوه الأفاق.. وذهابنا إلى قبره، وقراءة الفاتحة على روحه، دليل على صداقتنا ووفائنا وإخلاصنا لذكرى المرحوم عبد المتعال بك محجوب!

- ونوزع مبلغاً على الفقراء والمساكين صدقة على روحه الطاهرة!

- نعم نوزع عشرة جنيهات!

- عشرة جنيهات؟ هل جننت؟

- إنها جزء من ١٢ جزءاً من علاوتي السنوية!

- عشرة قروش فقط!

- إنها صدقة على ضميري يا بهية!

- إذن تكفي عشرون قرشاً!

□ □ □

وخرج عبد المتعال من بيت برعي أفندي يمشي في شوارع القاهرة على غير هدى.

لم يلعن برعي أفندي وزوجته بهية على جبنهما، وكيف يلوم بهية لأنها خافت على أولادها الثلاثة ولا يلوم سلوى وهبي لأنها خائفة من أجل الجنين الذي في بطنها، والذي لم يولد بعد؟

إنها ليست خطيئة الخائف المذعور إنما هي جريمة الذي ملأ قلوب الملايين بالخوف والذعر. نخطىء إذا اتهمنا الشعب كله بالجبن لأن سلوى خائفة وبرعي خائف وبهية خائفة!

كلنا نخاف في وقت من الأوقات. الفرق بين التردد والإقدام لحظة واحدة، في هذه اللحظة يتحدد من هو الشجاع ومن هو الجبان!

كانت والدته الست أم عبده تصاب بحالة هيستيريا من الذعر إذا رأت فأراً صغيراً وذات ليلة هاجم بيتهم في قرية بجوار سوهاج عدد من الذئاب، وفوجىء عبد المتعال الصغير بأمه الجبانة الرعديدة وقد حملت مقشة وهجمت على الذئاب، وجرت وراءها تطاردها، والذئاب المفترسة تعدو أمامها. . وذهل عبد المتعال وأهل القرية من هذه الشجاعة التي هبطت فجأة على أم عبده، وسألوها

عن سر هذه الجرأة فقالت:

ـ خوفي على ابني عبد المتعال أنساني شراسة الذئاب!

فلا بد أن يكون لدى هذا الشعب شيء يخاف عليه لكي يتحدى المخاطر ويهاجم الذئاب!

لو أن لدينا الشعور المشترك والإحساس المشترك لعرفنا أن الظلم الذي يقع على واحد منا إنما هو ظلم يصيبنا جميعاً. ولكننا نتفرج على مآسي المظلومين موهمين أنفسنا، أنها لن تمسنا ما دمنا نجلس في مقاعد المتفرجين، ناسين أن الظالم يصاب عادة بالعمى، يضرب بعصاه عشوائياً يحطم رؤوس الأبرياء ورؤوس المجرمين على حد سواء، وكثيراً ما يفلت المجرم لأنه يحتاط لنفسه، ويتحطم البريء الذي توهم بسذاجته أنه ما دام لم يرتكب ذنباً فلن يصاب بسوء!

إن بهية قالت له وهي تطرده «اتركنا في حالنا». . كل الناس يتمنون أن نتركهم في حالهم، أن ندعهم في غيبوبة السلبية. . ما أسهل أن يغمض الإنسان عينيه عندما يرى الأسد هاجماً عليه، وبذلك يوفر على نفسه شعور الرعب من منظر الأسد، وشعور الرغبة في الدفاع عن النفس، وشعور محاولة المقاومة، ولكنه بعد ثوان من هذه الراحة اللذيذة يجد نفسه في فم الأسد!

إن عبد المتعال كان يعيش في حاله قبل أن يدخل السجن. لم يكن يتكلم في السياسة. لم يكن يهاجم الفساد في الدولة. . لم يفتح فمه بكلمة واحدة عن الرشوة والفساد واستغلال النفوذ. . كل ما فعله أنه كان يؤدي عمله في الشركة بذمة وأمانة وإخلاص، ومع ذلك وجد نفسه في السجن بلا جريمة، ثم وجد نفسه خارج السجن بغير اسم!

في العهود التي يسود فيها القانـون يمكنك أن تمشي فـوق رصيف الشـارع آمنـاً بـأن السيـارات وعـربـات الـترام لن تصـدمـك. . فـالسيـارات تحترم إشـارات المـرور، وعـربـات الـترام تمشي فـوق القضبان. وعندما تداس سيادة القانون بالأقدام، يفاجأ السائر فوق الرصيف بالسيارات تسير فوق الرصيف وتدهسه، وبعـربات الـترام تـدخل البيـوت الآمنة فتهـدمها عـلى من فيها. . ذلـك أن القانـون للحاكم هو الفرامل للسيارة، والويل للشعب عندمـا يصبح الحـاكم بلا فرامل!

وهز عبد المتعال رأسه وتنهد وقال مخاطباً نفسه:

ـ كيف ألـوم سلوى أو برعي أو بهيـة على خـوفهم؟ كيف ألـوم الـذين يختبئون في بيـوتهم ويقفلون عليهم الأبواب، ويخشـون على أنفسهم أن تدوسهم السيارات المجنونة التي تمشي بلا فرامل في ظل اختفاء القوانين واختفاء الدستور أبي القوانين؟!

إنه هو نفسه لم يخرج إلى الشارع ليقاوم السيـارات التي تمشي بلا فـرامـل. لقـد كـان جـالسـاً في الـطابق العـاشر في شركـة مصر للبسكويت، متربعاً في مكتب مدير عام الشركة، وفجأة وجد عربـة تـرام تدخـل إلى مكتبه، ثم وجـد نفسه معلقـاً بين عجـلات الترام المجنون، ثم وجد نفسه ملقى في الشارع!

إنـه يريـد أن يقاوم الآن كـل سيارة بـلا فرامـل، وكل تـرام بلا فرامل، لأنه ضحية، ولـو لم يكن ضحية لمـا فكر في المقـاومة، ولمـا عـرف قيمة الفـرامل، ولمـا أحس بخطر الحيـاة في بلد بلا قـانون وبـلا دستور!

ترى، هل ستبقى الملايين غـافلة عن الخطر حتى تـدوسها جميعـاً

السيارات وعربات الترام؟! ألا تأخذ الملايين عبرة من رأس الذئب الطائر.. كما حدث في قصة كليلة ودمنة؟ أم أن العبرة تحولت إلى خوف عام، وبدلاً من أن يطالب الشعب بوضع فرامل للسيارات وجد السلامة في أن يقبع داخل البيوت!

واستيقظ عبد المتعال من أفكاره على صوت رجل عجوز يصيح:

ـ ألا يوجد رجل في هذا البلد يا رب؟

وتلفت مذعوراً نحو هذا الصوت الذي قطع عليه فجأة حبل تفكيره؟ وتجول بعينيه يبحث عن مصدر الصوت، فرأى رجلاً مكوماً تحت شجرة يتحدث إلى نفسه!

كلنا نتحدث إلى أنفسنا. لا يجرؤ واحد منا أن يتحدث بما في نفسه إلى الناس!

وخيل إليه أنه يعرف هذا الصوت من قبل. إنه سمعه في مكان ما.. إنه صوت أجش مجروح كأنه يخرج من قبر!

وأحس برغبة في أن يتحدث إلى هذا المجهول الذي يبحث عن رجل واحد بين الملايين!

هو أيضاً يبحث عن رجل، أي رجل.. وعندما لم يجد رجلاً بين الرجال بحث عنه بين النساء!

وخيل إليه في وقت من الأوقات أن سلوى هي الرجل.. ثم فوجىء بها تتحول إلى امرأة، إلى أم، عندما أحست بالجنين في بطنها!

ثم وجد الرجل في زميله برعي أفندي متولي ولم يلبث أن فجع فيه.. لم تستمر رجولته سوى بضع ساعات تحول بعدها إلى فأر صغير!

واقتربت قدماه من الرجل العجوز الجالس تحت الشجرة وإذا به يكتشف أنه الحاج رشوان العشماوي الذي كان ساعياً في مكتبه أيام كان مديراً عاماً لشركة البسكويت.. وتقدم نحوه قائلاً:

ـ هل تناديني؟

ورفع الحاج رشوان عينيه نحوه، ولم يعرفه، فقد كان معروفاً دائماً بضعف بصره، ولم يكن يضع نظارته على عينيه!

وقال الحاج رشوان في غير اهتمام:

ـ لم أكن أنادي بشراً.. كنت أنادي الله!

ـ سمعتك تقول ألا يوجد رجل في هذا البلد يا رب!

ـ وهل أنت ربنا؟

ـ لا.. أنا الرجل!

ـ الرجل الذي أبحث عنه في السماء لا يمشي على الأرض!

ـ ماذا تريد أن يفعل لك هذا الرجل؟

ـ يرفع الظلم عنا!

ـ هل تظن أن في قدرة رجل واحد أن يرفع الظلم عن الملايين؟

ـ الله يرسل لنا رجلاً!

ـ انتهى عصر الأنبياء والمرسلين!

ـ ولم ينته الظلم!

ـ الآن تقوم الشعوب بمهمة الأنبياء والمرسلين، هي وحدها التي تستطيع أن تصنع المعجزات!

ـ وكيف يعرف الشعب أنني مظلوم؟

ـ عندما لا تسكت عن الظلم. تتحدث عنه، تشهر به، تفضحه. ولا تكتفي بأن تتحدث مع نفسك كما تفعل الآن!

ـ لم أكن أتحدث مع نفسي.. كنت أتحدث مع الله!

ـ صوتك يصل إلى الله عن طريق أفواه الملايين أسرع مما يصل لو همست به!

ـ يا سيدي أنا أبحث عن رجل لا عن فيلسوف!

ـ أنا لست فيلسوفاً، أنا رجل مثلك، مظلوم مثلك!

ـ إن الظلم الذي وقع علي لم يقع على إنسان من قبل!

ـ كل مظلوم يتصور دائماً أن ظلمه أفدح من ظلم الآخرين.. والظلم بحجم واحد.. الظلم الصغير يذبح البريء كما يذبحه الظلم الكبير.. لافرق بين أن أموت برصاصة أو أموت بقنبلة!

ـ أما أنا فقد مت بقنبلة ذرية، قنبلة سقطت على رأسي وحدي!

ـ القنبلة الذرية تقتل عشرات الألوف لا فرداً واحداً!

ورفع الحاج رشوان رأسه نحو عبد المتعال وقال له:

ـ إن صوتك يذكرني بصوت رجل أعرفه!

ـ ربما أكون هو!

ـ الرجلُ الذي أعرفه مات وشبع موتاً!

ـ ربما أكون أشبهه.

ـ لا تشبهه أبداً، كان ذلك الرجل رجلاً عظيماً!

ـ وهل تراني صعلوكاً؟

ـ أستغفر الله، إنما الرجل الذي أفكر فيه كان رجلاً ضخماً!

ـ لعله كان رجلاً ضخماً وهو يجلس في مقعده.. الأقزام يبدون فوق المقاعد الكبيرة عمالقة، فإذا تركوا هذه المقاعد تحولوا إلى أقزام

من جديد!

ـ الرجل الذي في بالي كان كبيراً فوق المقعد، وبعيداً عن المقعد!

ـ لا أظنك ستعرفه لو رأيته الآن!

ـ سأعرفه على الفور عندما أراه في الجنة!

ـ وما الذي جعلك متأكداً أنه في الجنة وليس في النار؟

ـ لأنني عرفت عن قرب الذي سيذهبون إلى جهنم!

ـ الذين ظلموك!!

ـ وعلى رأسهم غالب بك مدير الشركة!

ـ ماذا فعل بك غالب بك؟

ـ لقد كنت أعمل ساعياً في مكتب المدير العام أيام عبد المتعال محجوب بك رحمه الله وبعد وفاته بقيت أعمل مع غالب بك المدير الجديد!

ـ وهل هناك فريق بين المديرين؟

ـ كالفرق بين السماء والأرض

ـ أيهما الأرض؟

ـ غالب بك طبعاً. . كان عبد المتعال بك ملاكاً طاهراً، بينما غالب بك شيطان رجيم!

ـ لأنه لا يصلي في المكتب؟

ـ بالعكس. . غالب بك يصلي في مكتبه في الشركة بينما عبد المتعال بك لم يكن يصلي أبداً في المكتب!

ـ إذن سيدخل غالب بك الجنة ويدخل عبد المتعال النار!

ـ الصلاة ليست جواز المرور الوحيد لدخول الجنة، ولا عدم

الصلاة يؤدي إلى دخول الجحيم . .

- وهل ستدخل أنت الجنة؟

- كل مظلوم سيدخل الجنة!

- كيف عرفت ذلك؟

- لأن الظلم في الدنيا هو عذاب أفدح من عذاب النار، ونار الظلم التي تكوي المظلوم تطهره من كل ذنوبه وتغفر له ما تقدم وما تأخر!

- إذن، ما دمت واثقاً من هذه النتيجة، فلماذا تبحث الآن عن رجل ليرفع عن الناس الظلم؟

- لأن الظالم يجب أن يتعذب في الدنيا ليكون عبرة للظالمين!

- وهل تظن أنك سوف تجد هذا الرجل الذي يرفع الظلم عن المظلومين!

- لن أجده طبعاً، ومع ذلك سوف أستمر في البحث عنه!

- كل واحد منا يبحث عن هذا الرجل في كل مكان، ولكنه لا يبحث عنه في نفسه. إن في داخل كل منا رجلاً شجاعاً ولا نعرفه. . لقد مرت فترات في التاريخ على مصر كان كل واحد فيها يقول مثلك: «ألا يوجد رجل في هذا البلد»؟ ثم تجيء لحظة يخرج من أرض هذا البلد الرجل المرتجى، الذي يستطيع أن ينبه كل رَجل أو امرأة إلى أن في داخله بطلاً!

- متى حدث ذلك؟

- في ثورة ١٩١٩ ظهر بطل واحد هو سعد زغلول، وفي يوم وليلة جعل من كل رجل وامرأة في هذا الشعب بطلاً مغواراً!

- إنني اشتركت في ثورة ١٩١٩

- هل كنت قبل هذه الثورة بطلاً؟

ـ كنت أخاف من خيالي.. كنت أصاب بالرعب من رؤية أي جندي بريطاني في أحد شوارع القاهرة. إذا رأيت جندياً بريطانياً يمشي فوق الرصيف، انتقلت على الفور إلى الرصيف الآخر.. وعندما اعتقل الإنجليز سعد زغلول وجدت نفسي بغير تفكير أخرج وأهاجم الجيش البريطاني بالطوب.. وكان الجنود الإنجليز يطلقون علينا الرصاص ويحصدوننا بالمدافع، واستطعنا بالطوب أن نهزم أقوى جيش منتصر في العالم.. ولكن أين نجد الآن سعد زغلول؟

ـ لو اجتمعت كلمة هذا الشعب فسيكون أقوى من سعد زغلول!

ـ هذا زمن انتهى ولن يعود!

ـ الطين هو هو.. وماء النيل هو هو!

ـ تحول الطين إلى تراب!

ـ دم الشهداء عندما يسقط على التراب، يتحول إلى طين يصنع الأبطال!

ـ إن غالب بك لم يجد رجلاً واحداً يقف أمامه في الشركة!

ـ ماذا فعل غالب بك؟

ـ كل ذنبي أن غالب بك كلفني أن أذهب إلى عش الغرام الذي يملكه في الزمالك لأنظفه فقلت «لا»!

ـ أنت قلت «لا»؟ وقعتك سودة!

ـ سودة فقط؟! لقد كانت هباباً.. إن كلمة «لا» أحالتني إلى المعاش!

ـ إنك أسعد من غيرك.. غيرك قال «لا» فدخل السجن!

ـ الحياة في السجن أهون من الموت جوعاً!

ـ لــو دخلت السجن لعــرفت أن المـوت أرحـم من عــذاب الزنزانة. !

ـ إن عندي ١١ ولداً ومعاشي خمسة جنيهات، وإحالتي للمعـاش معناها أن يموت كل هؤلاء من الجوع!

ـ هل بلغت سن المعاش؟

ـ باق لي خمس سنوات

ـ وكيف أحالك للمعاش؟

ـ عندما قلت لغالب بك أن مهمتي هي العمـل في المكتب لا في عش الغرام وأنني رجل أديت فـريضة الحـج ولا أستطيـع أن أنظف الفـراش الذي تنـام فيه الغـانيات والـراقصات، وأجمـع زجاجـات الويسكي الفارغة، أمر بإحالتي إلى الكشف الـطبي. . وجاء أطبـاء الشركة وقرروا أنني مختل القوى العقلية!

ـ مختل القوى العقلية لأنك رفضت أن تنظف عش الغرام؟

ـ نعم. . والأعجب من ذلك أنني كلما ذهبت إلى موظف كبير في الشركة ورويت له قصتي قال إن رفض تنظيف عش الغرام هو دليل لا يقبل الشك على أنني مجنون. . وأعجب من ذلك أن الأستاذ سالم حليم وكيل الحسابات قال لي: «هل يوجـد عاقـل في الدنيـا يرفض تنظيف عش غرام سعادة المدير العام، إن هـذا شرف عظيم لـك. إن هذه ثقة عظيمة فيك يا حاج رشوان. . أقسم لـك بشرفي لو أن سعـادة المديـر طلب مني أن أنظف لـه عش الغـرام لاعتـبرت هـذا تكريماً لا يقل عن تعييني مديراً للحسابات»!

ـ ولماذا لم تتقدم بشكوى؟

ـ شكــوت. . ذهبت اليـوم إلى مكتب رئيس الــوزراء وقـابلت حافظ بك سري مـدير مكتبـه، ورويت له قصتي مـع غالب بـك،

وإذا بحافظ بك يدق الجرس ويطلب جميع سكرتيريه، ويطلب مني أن أعيد عليهم رواية قصتي، ورويتها لهم، وإذا بهم جميعاً يغرقون في الضحك وينظرون إلي كرجل مجنون!

ـ ولكن.. أنت عاقل يا حاج!

ـ أنت أول رجل قابلته وقال أنني عاقل!

ـ في مستشفى الأمراض العقلية يشير المرضى إلى أي عاقل ويقولون أنه مجنون!

ـ ولكن مستشفى المجاذيب كبر.. حتى أصبح البلد كله مستشفى لمرضى الأمراض العقلية!

ـ أنت أرضيت الله!

ـ وأغضبت الإله الصغير.. إن غالب بك هو الآن إله شركة البسكويت، يرفع ويذل، يحيي ويميت.. ويحول العاقل إلى مجنون.. حتى أصبحت أشك أنني مجنون حقيقة!

ـ أنت لست مجنوناً يا شيخ رشوان؟

ـ كيف عرفت أنني الشيخ رشوان؟

ـ لأنني عبد المتعال محجوب!

ـ مستحيل: الدنيا كلها تقول أنك مت!

ـ والدنيا كلها تقول أنك مجنون!

الفصل الثاني والأربعون

ارتعشت شفة الأستاذ حنا مرقص السفلى. وتمتمت شفته العليا بكلمات هامسة غير مفهومة، وتأرجحت عيناه الضيقتان يمنة ويسرة تحت أهدابه الرمادية المسبلة.

وفتح الأستاذ جبر العفيفي عينيه ببطء، وهرش رأسه بإصبعه وكأنه يبحث بلا جدوى عن شعرة سوداء في شعره الأبيض الفضي..

وقلب الأستاذ طه زكريا ملفاً أمامه بعصبية، ثم حرك الجالسون رؤوسهم ناحية مجاهد العطار فراش قسم الأرشيف بشركة مصر للبسكويت وهو يحمل فوق صينية صفراء فناجين القهوة الفارغة، ويمشي متباطئاً نحو الباب..

وعندما تأكد موظفو الأرشيف الثلاثة أن الساعي مجاهد خرج من الغرفة تنفسوا الصعداء في وقت واحد، وقال الأستاذ حنا بصوت خافت:

ـ الحمد لله.. خرج الجستابو!

قال الأستاذ جبر وهو يبتسم ابتسامة ذاهلة:

ـ ألم تلاحظوا أنه تعمد أن يجمع فناجين القهوة في بطء شديد؟

ـ لعل وعسى أن يلتقط كلمة متناثرة هنا أو هناك!

ـ المصيبة أن في كل قسم من أقسام الشركة جستابو، مهمته أن يتجسس على الموظفين ويعرف أخبارهم ويتصنت على أحاديثهم، ويراقب خطواتهم!

ـ بعض هؤلاء الجستابو في درجة (ساعي)، وبعضهم في درجة مدير إدارة!

ـ ورجال الجستابو هم وحدهم المنتجون المخلصون، الذين يستحقون العلاوات والترقيات، أما الذين يحملون الشركة فوق رؤوسهم فهم المنبوذون المنسيون!

ـ ربما يكون برعي أفندي كتب تقريراً سرياً، واستحق لذلك أن يرقوه من منصب وكيل قسم الأرشيف إلى منصب مدير الأرشيف!

ـ أنا أعرف برعي أفندي من عشر سنوات، ولا أعرف أنه يكتب تقارير سرية عن زملائه.

ـ لماذا رقوه إذن؟ إن زوجته ليست جميلة، أنا أعرف ست بهية منذ أن كانت موظفة معنا في الشركة، وأعرف ذوق غالب بك في النساء. ذوقه من الراقصة كاميليا وطالع، ولا يمكن أن ينزل ذوقه إلى مستوى الست بهية.

ـ قد تكون لها أخت جميلة!

ـ أنا رأيت أختها وهي تشبه الأستاذ طه زكريا!

وانتفض رأس طه زكريا الذي يشبه القرد وقال:

ـ أنا أحتج.. إن زوجتي قالت لي اليوم أنني أشبه القمر ليلة ١٤!

ـ لعلها تقصد القمر ليلة ٢٩!

وضج الموظفون بالضحك، وضحك معهم طه زكريا وقال:

ـ **المرأة لا تبحث عن الرجولة في وجوه الرجال!**

ـ زوجتي تبحث عن الرجولة في جيبي.. فإذا لم تجد في جيبي نقوداً قالت لي بصراحة (أنت لست رجلاً)!

ـ على هذا الأساس فنحن رجال لمدة يوم واحد في الشهر.. هو يوم أول الشهر!

ـ الرجولة ليست مطلوبة في هذا الزمن!

ـ لا بد أنهم أذلوا برعي أفندي قبل أن يعينوه مديراً للأرشيف؟

ـ أظن أنهم أركعوه.. لأن معلوماتي عنه أنه كان رجلاً طيباً!

ـ ولم يسرق!

ـ ولم يرتش!

ـ ولم يشترك في تزوير الميزانيات!

ـ ولم يمسح الجوخ لسعادة المدير.. وليس قريباً لأحد الحكام.

ـ إذن لماذا عينوه! إنه لا يتوافر فيه أي شرط من شروط الترقية إلى الوظائف الكبيرة!

ـ ربما رقوه بطريقة الاستثناء، وربما وشى به أحد زملائه وقال للمدير أن برعي أفندي نصاب ولص وأفاق ويقيم في بيته الليالي الحمراء وموائد القمار، وعندئذ سارع المدير بتعيينه مديراً للأرشيف!

ـ وإذا اكتشفوا بعد ذلك أن كل هذه التهم غير صحيحة؟

ـ سيرفتونه طبعاً!

ـ إنك بصفتك صديقاً قديماً له يا طه أفندي، يجب أن تبصره

بالعواقب الوخيمة إذا اكتشفت الإدارة العليا فجأة أنه رجل شريف!

- اطمئن، إن الإدارة العليا في الشركة تدقق وتبحث وتدرس وتفحص قبل أن تعين أحداً في منصب مدير أحد الأقسام!

- هذا صحيح.. فإن حسني رمضان مدير المستخدمين متخصص في شراء المقويات للمدير العام... وعش غرام المدير باسم حمدي مفتاح مدير الإنتاج.. وناجي عبد الهادي مدير المبيعات هو مدير عش غرام المدير!

- معنى ذلك أن المهام الخطيرة في الشركة كلها مشغولة.. فأي مهمة يمكن أن يقوم بها برعي أفندي متولي؟

- ربما سيتولى تنظيف عش الغرام بعد أن رفض الحاج رشوان العشماوي تنظيفه!

- الحاج رشوان مجنون!

- وبرعي أفندي عاقل!

- لو كلفك برعي أفندي يا أستاذ حنا أن تساعده في تنظيف عش الغرام فهل تقبل هذه المهمة الخطيرة؟..

- أرفض طبعاً.. أرفض بإباء وشمم.. أنا رجل لا أحب المسخرة والكلام الفارغ!

- وإذا عرض عليك أن يعينك مكانه وكيلاً لقسم الأرشيف؟

- هنا.. هنا.. المسألة هنا فيها نظر!

- كأننا جميعاً ننتظر في الطابور ليدفنونا رجلاً بعد الآخر!

- أنا لم أقل أنني سأقبل المساعدة في تنظيف عش الغرام، أنا قلت فقط أن المسألة فيها نظر!

ـ عندما تقول المرأة أنها ستفكر في هل تخلع الفستان أم لا تخلعه، فهذا يدل على أنها قررت خلع الفستان!

ـ أرجوك يا أستاذ جبر إنني لا أحب المزاح عن الملابس النسائية!

ـ إنني لم أقل ما قلت إلا بعد أن خلعت ملابسك النسائية فعلاً، وقبلت هذا الاغتصاب الأدبي!

ـ أنا لم أقبل.. أنت قليل الأدب يا أستاذ جبر.. أنا رجل شريف وسأعيش شريفاً وأموت شريفاً!

ـ إنني لا أقصد (الفستان) بمعناه الحرفي، أقصد المبادىء!

ـ لمعلوماتك أنا لا أرتدي (فستاناً).. أنا أرتدي سروالاً من الصوف يصل إلى أطراف قدمي... أنت لا تعرف أقدار الناس يا أستاذ جبر!

ـ ولكنك قلت لي إنك تفكر في هل تقبل تنظيف عش الغرام للمدير العام أم ترفض!

ـ أنا، لو عرضت علي مثل هذه المهمة فسوف أشترط شروطاً.. سوف أقبل تنظيفه باعتباره مكتباً فرعياً لسعادة مدير الشركة... سوف أرفض أن أنظف غرفة النوم وأتركها لبرعي أفندي!

وقهقه طه زكريا ضاحكاً.. وانتفض حنا غاضباً وقال:

ـ ما الذي يضحك في كلامي؟

وانطلقت ضحكات جبر العفيفي وطه زكريا تهز أركان غرفة الأرشيف، وانتفض الأستاذ حنا مرقص وقفز من مقعده، ثم وضع طربوشه على رأسه وخرج من الغرفة وهو يقول:

ـ قلة أدب.. وقاحة.. هذا جزاء الذي يتكلم مع العيال!

□ □ □

وعاد الموظفان يستأنفان ضحكهما الطويل، ودخل الغرفة الأستاذ مجلي غبريال الموظف بقسم الإنتاج وهو يضحك ويقول:

ـ لماذا تضحكان؟

ـ نضحك على خيبتنا!

ـ خيبتكم أم خيبة الشركة!

ـ خيبة البلد كلها!

ـ أما أنا فأضحك من إعلان في صفحة كاملة منشورة اليوم في كل صحف الصباح بعنوان (النجاح الضخم لشركة مصر للبسكويت)!

ـ هذه نكتة فعلاً!

ـ النكتة ليست في العنوان فقط، إنما في الموضوع، يقول الإعلان أن سعادة غالب بك مجدي هو الذي أسس شركة مصر للبسكويت، وأنه هو الذي بنى مصنعها في القاهرة والإسكندرية وطنطا، في حين أن الدنيا كلها تعرف أن المرحوم جلال السيد هو الذي بنى هذه الشركة قبل أن يولد غالب بك!

ـ قد يكون غالب بك بنى الشركة وهو في بطن أمه!

ـ الرجل الذي بنى الشركة هو جلال السيد، حذفوا اسمه.. والرجل الذي كانت تدر الشركة في عهده الذهب، وهو المرحوم عبد المتعال محجوب، نسوا اسمه.. والرجل الذي خرب الشركة هو الذي نشرت الصحف صورته في حيز أكبر من المكان الذي

خصصته لنشر صورة المصنع نفسه!

ـ هذا شيء ورثناه عن قدماء المصريين!

ـ هل كانوا ينصبون مثل غالب بك؟

ـ الفراعنة النصابون هم الذين أشادت بهم كتب التاريخ!

ـ إننا درسنا في كتب التاريخ أن رمسيس كان أعظم الفراعنة!

ـ لأنه كان أعظم نصاب في تاريخ الفراعنة. !

ـ هذا غير معقول! كلنا نعرف أمجاده وانتصاراته!

ـ كما سيعرف قراء الصحف اليوم أمجاد وانتصارات غالب بك مجدي.. إن كتب التاريخ الحديثة اكتشفت أخيراً أن الملك رمسيس الثاني خدع الشعب المصري.. هزمه الحيثيون في موقعة قادش هزيمة منكرة، وأسروا نصف جيشه، وفر النصف الآخر.. ودخل رمسيس إلى مصر دخول الفاتحين تتقدمه الطبول والزمور، تعلن كذباً عن إنتصاراته الكبرى.. ورقص الشعب فرحاً في الشوارع، ونظم الشعراء قصائد التمجيد في بطولة البطل الصنديد، وأنشد المغنون الأغاني إشادة بفرعون المنتصر، وحملته الجماهير على الأعناق!

ـ وبقي المصريون مؤمنين بخرافة رمسيس الثاني، إذا أنشأوا مسرحاً أسموه (مسرح رمسيس).. وإذا أنشأوا طريقاً واسعاً أطلقوا عليه (شارع رمسيس).. وإذا أنشأوا قهوة أسموها قهوة (رمسيس) وإذا اختاروا تمثال فرعون من الفراعنة ليقيموه في أكبر ميدان اختاروا تمثال رمسيس.. وإذا اخترعوا سيارة أسموها سيارة رمسيس.. وإذا فتحوا دار سينما أسموها (سينما رمسيس).. أما الفراعنة العظام حقيقة، فلم يهتم أحد بهم.. هل سمعت بشارع إسمه شارع خوفو الذي بنى معجزة الهرم الأكبر؟ أو أطلقوا على مسرح إسم (مسرح أحمس) الذي طرد المحتلين من مصر؟ ألوف

المصريين أطلقوا على أولادهم اسم النصاب (رمسيس) ولا يوجد في دفتر التليفون أحد باسم أحمس إلا الدكتور أحمس الحمامصي أستاذ العظام في القصر العيني!!.

ـ معنى ذلك أن المصريين لن يكتشفوا أن غالب بك مجدي مدير شركة مصر للبسكويت هو رجل نصاب إلا بعد ثلاثة آلاف سنة!

ـ بعد أربعة آلاف سنة من فضلك.. ومع ذلك لم تعرف هذه الحقيقة إلا أقلية من المؤرخين، وكما فعل غالب بك مع المرحوم جلال السيد عندما حذف اسمه كمؤسس للشركة ووضع اسمه هو، كذلك فعل رمسيس فقد وضع اسمه على كثير من آثار أجداده وتماثيلهم، وادعاها كلها لنفسه!

ـ أذكر أن هذا نفسه حدث في عصرنا الحالي.. عندما تولى علي ماهر باشا رياسة الديوان الملكي سنة ١٩٣٨، في عهد الملك فاروق، استصدر مراسيم ملكية بتسمية كل شيء في مصر باسم الملك فؤاد والد الملك الحالي.. أصبحت جامعة القاهرة اسمها جامعة فؤاد الأول.. جمعية الإسعاف أصبحت جمعية فؤاد الأول.. الجمعية الجغرافية أصبح اسمها جمعية فؤاد الأول الجغرافية.. جمعية الحشرات أصبح اسمها جمعية فؤاد الأول للحشرات.. كل شيء أصبح باسم فؤاد الأول.. حتى أن أحمد الصاوي محمد كان يصدر مجلة واسعة الانتشار اسمها (مجلتي) وخاف الصاوي يومها أن يصدر مرسوم ملكي بتسميتها مجلة فؤاد الأول!

ـ هذا يدل على أن غالب بك يسير على التقاليد القديمة والجديدة في بلادنا!

ـ يجب أن نشكر غالب بك لتواضعه لأنه لم يطلق على (شركة

مصر للبسكويت) إسم (شركة غالب بك للبسكويت)!

□ □ □

وهنا دخل الساعي مجاهد العطار. وماتت الكلمات على شفاه الموظفين الثلاثة وتظاهر كل واحد أنه يقرأ في ملف أمامه، وقطع الساعي مجاهد عليهم صمتهم وقال:

- لماذا سكتم؟

وفوجىء الموظفون الثلاثة بهذا السؤال البارد. واستنجد كل واحد منهم بعينيه نحو الآخرين يطلب منهما أن يردا على هذا السؤال المحرج.. وتشجع الأستاذ مجلى غبريال وقال:

- كنا نتكلم في العمل.

- إنني سمعتكم بأذني تذكرون اسم سعادة غالب بك مجدي مدير الشركة!

وسقطت جملة الساعي الجستابو عليهم كالصاعقة.. وتضاعف عمر الأستاذ مجلى في لحظة واحدة، وأصبح مهيأ لبلوغ سن المعاش.. واصفر وجه الأستاذ جبر العفيفي وتظاهر بأنه يبحث عن علبة سجائره في جيوبه، ناسياً أنها موضوعة أمامه على مكتبه.. وحملق الأستاذ طه زكريا في سقف الغرفة وكأنه يستنجد بالسماء!

وعاد الساعي الجستابو بسماحة يقول:

- لقد سمعتكم تسخرون وتقولون (شركة غالب بك للبسكويت)!

وأحس طه زكريا أنه جاءته نجدة من السماء، فأسرع يقول:

ـ نعم، هذا ما قلناه فعلاً. . نحن لا نخاف من أن نقول كلمة الحق. . كنا نقول إنه بعد الأعمال العظيمة التي قام بها غالب بك في شركة مصر للبسكويت كان يجب على مجلس الإدارة أن يطلق على الشركة إسم (شركة غالب بك للبسكويت)!

وبدت خيبة الأمل على وجه الساعي الجستابو. . لقد تصور أنه ضبط جريمة العيب في الذات الملكية. . ذات غالب بك مدير شركة البسكويت. . ثم استعاد توازنه وقال:

ـ هذه فكرة عظيمة. . ولهذا سأحضر لكم ثلاث زجاجات كوكاكولا على حسابي!

قال طه زكريا وهو يبتسم:

ـ الذي يعجبني فيك يا مجاهد هو إخلاصك لغالب بك. . أكثر الله من أمثالك في الشركة!

وقال الأستاذ مجلى وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:
ـ إن أمثاله كثيرون في البلد. . أقصد الناس كلها معجبة بكفاءة غالب بك وعبقريته!

وخرج الساعي مجاهد ليحضر زجاجات الكوكاكولا. . وأخرج الأستاذ جبر منديله من جيبه وجفف عرقه، وبلع الأستاذ مجدي ريقه، وعاد الأستاذ مجلى يتنفس بانتظام. . وخيم الصمت على غرفة مكتب الأرشيف، كأن الساعي مجاهد قطع ألسنتهم وأخذها معه فوق الصينية التي كان يحملها!

وبعد دقيقتين من الصمت استعاد الأستاذ مجلى النطق، وقال بصوت متحشرج:

ـ أنت أنقدتنا يا أستاذ طه. . من أين تعلمت أن تكذب بسرعة؟

ـ تذكر أنني متزوج من عشر سنوات!

ـ وزوجتك جستابو؟

ـ جستابو فقط، إنها الهر هيملر رئيس الجستابو. . أحياناً أتصور أن فكرة الجستابو أخذوها من امرأة متزوجة. . إن زوجتي مزيج من المباحث والمخابرات. . إن لها أنفاً يشبه أنف الكلب البوليسي. . ولها خبرة في اكتشاف الجرائم الزوجية أكبر من خبرة شارلوك هولمز!

ـ وكيف عرفت؟

ـ وجدت زوجتي في (الصندرة) التي أضع فيها كتبي القديمة وأشيائي التي لا أحتاج إليها فستان الخادمة الضيق!

ـ وماذا قلت لزوجتك؟

ـ قلت لها أن هذا فستان أمي!

ـ وهل صدقتك؟

ـ طبعاً، واحتفظت به في دولابها باعتباره من مقدسات الأسرة. . وكلما كذبت عليها، وأردت أن تصدق الكذبة، أخرجت الفستان من الدولاب ووضعته على رأسي وقلت (وحياة هذه الذكرى الطاهرة) وعندئذ تصدقني زوجتي على الفور!

ـ أظنك كنت تريد أن تقتل هذه الخادمة التي خدعتك وخانتك!

ـ كنت أريد أن أذبحها. . ولكن القدر شاء أن يضطرني أن أقبل يدها هنا في الشركة!

ـ تقبل يد الخادمة التي خانتك!؟

ـ كنت بين نارين. . إما أن أقبل يدها أو أطرد من الشركة.

ـ لـو كنت مكانـك لصفعتها عـلى وجهها . . حتى لـو رفتوني من وظيفتي!

ـ عندما تكون أباً لأربعة أطفال، تضـطر أحيانـاً أن تقبل أقـدام من تريد أن تبصق في وجوههم!

ـ ماذا يجيء بخادمة حقيرة مثل هذه إلى الشركة؟

ـ كانت في مكتب غالب بك المدير العام!

ـ المدير العام؟

ـ نعم المدير العام . . وحدث أن طلب غـالب بك من الأرشيف مذكرات وضعها عبد المتعـال محجوب عنـدما كـان مديـراً للشركة، وحملت هذه المذكرات ودخلت إلى مكتب غالب بك، وفوجئت بأن الخـادمة روحيـة جالسـة على مقعـد أمامـه، وتراجعت إلى الخلف، ولكن غـالب بك قـال لي: تعال يـا طه . . وتقـدمت نحوه دون أن أنظر ناحية الخادمة روحية وسلمتـه المذكـرات المطلوبـة، واستدرت لأخرج من الغرفة وإذا بغالب بك يقول لي: ألا تعرف المدام!

ونـظرت إلي المـدام من فـوق إلى تحت وكـأنها تنـظر إلى حشرة حقـيرة لا تعرفهـا ومدت أطـراف أصابعهـا نحوي، ومـددت يديَ لأصـافحها وإذا بغـالب بك يقـول لي مستنكـراً أظن أنـك يـا طـه تعرف البروتوكول والإتيكيت . . قبل يد المدام . . إنها مدام كاميليا الراقصة العـالمية . . وأحنيت رأسي وقبلت يـد خادمتي روحيـة التي خانتني مع السفرجي في الصندرة وأصبحت راقصة عالمية!!

وصاح الأستاذ مجلى ثائراً:

ـ وماذا فعلت بعد ذلك؟

ـ أطبقت فمي!

ـ لو كنت مكانك للعنت سنسفيل جدودها!

ـ لقد علمت بعد ذلك أنها عشيقة المدير العام!

قال جبر العفيفي معترضاً:

ـ لو كنت مكانـك لذهبت إلى بيتهـا في اليوم التـالي، وقابلتهـا، وقدمت لها الفستان.. وقلت لها.. جلالتك نسيت هذا الفستان في الصنـدرة.. وعندئـذ كانت سوف تشتري سكـوتك، وتـطلب من غالب بك ترقيتك!

ـ لو فعلت ذلك لطردني غالب بك في اليوم التـالي.. ولكن، يا ليت المصيبة وقفت عند هذا الحد.. لقـد كانت كـاميليا بعـد ذلك تحضر لإحياء الحفلات السـاهرة التي يقيمهـا غالب بـك للترفيه عن مـوظفي وعمال الشركـة.. وذات يوم قـال لي بـرعي أفنـدي وكيـل الأرشيف: مبروك.. إن سعادة غالب بك أمر بمنح علاوة استثنائيـة قدرها مائة وخمسون قرشاً!

ـ قلت له في دهشة: ما سبب هذه العلاوة؟

قال برعي أفندي: إن الراقصة كاميليـا قالت لسعـادة المديـر أن والدك كان يعمل خادماً في سراي أبيها!

ـ سراي أبيهـا؟ إن والدهـا كان يعمـل خفيراً في قـريتنا.. وأبي كان يملك في القرية عشرين فداناً!

وإذا ببرعي أفندي يضع إصبعه على فمه ويقول:

ـ هس.. وأطبق فمـك إن كاميليـا هـانم هي صـديقـة المـديـر العام.

ـ وهسست.. وأطبقت فمي.. لم أقل أن المائة والخمسين قرشاً علاوة هي نفسها المرتب الذي كنت أدفعه لخادمتنا روحية في مقـابل أن تكون خادمة وعشيقة في وقت واحد!

ـ وهل قابلت كاميليا بعد ذلك؟

ـ حدث مرة في إحدى سهرات الشركة، أن كان غالب بك جالساً مع الراقصة كاميليا وفوجئت بكسرتير المدير يجيء إلي، ويقول أن سعادة المدير يريدك! وذهبت إليه وإذا به يقول لي في غضب:

ـ أنت مرة أخرى لا تعرف الإتيكيت والبروتوكول.. كيف لم تذهب إلى مدام كاميليا وتشكرها للعلاوة التي طلبتها لك!

وأسقط في يدي.. لم أعرف ماذا أقول.. وإذا بكاميليا تقول لي في تبجح غريب: أنا تذكرت وجهك عندما خرجت من مكتب غالب بك.. تذكرت أنني كنت أراك كثيراً في سراي بابا.. ولكن يظهر أنك لم ترني في تلك الأيام!

ـ لا.. رأيتك كثيراً يا افندم!

ـ يظهر أن ذاكرتك أصبحت ضعيفة!

وإذا بغالب بك يتدخل ويقول:

ـ المفروض في موظف الأرشيف أن تكون ذاكرته جيدة جداً!

ونسيت في هذه اللحظة أولادي الأربعة ووظيفتي في الشركة ووجدت نفسي أقول:

ـ أنا ذاكرتي قوية جداً يا افندم.. إنني أذكر تماماً المدام وهي صغيرة.. عندما كانت تصعد إلى (الصندرة) وتلعب.. وأذكر أنها نسيت ذات يوم شيئاً.. وقد عثرت عليه واحتفظت به للذكرى!

قالت كاميليا في دهشة:

ـ ما هو هذا الشيء.. منديل!

قلت:

ـ لا، شيء آخر.. وأنا مستعد أن أحضره لك غداً في بيتك!

وذهبت إلى البيت، وأردت أن آخذ من زوجتي الفستان الذي تضعه في دولابها ولكنها صرخت وولولت، وقالت أن الفستان لا يمكن أن يخرج من البيت، لأنه (بركة) من أمك يجب أن تحتفظ به دائماً.. وصممت أن أحصل عليه لألطم به كاميليا..

واستيقظت في اليوم التالي ولم أجد شجاعتي.. وجدت بدلاً منها أولادي الأربعة.. ولم أعد الأسد الغضنفر الذي كنته في مساء اليوم الماضي، عدت فأراً من جديد. وعدلت عن الذهاب إلى كاميليا في بيتها لأواجهها بحقيقتها.. ووجدتني أحمل قاموس لاروس الفرنسي، وأذهب إلى الشركة وأقدم لاروس لغالب بك وأنا أقول:

ـ هذا هو الشيء الذي نسيته كاميليا هانم في سراي والدها عندما كانت طفلة!

وتهلل وجه غالب بك، وقلب صفحات القاموس الفرنسي في يده وقال:

ـ إن كاميليا أخبرتني أنها كانت طالبة في مدرسة الليسيه فرانسيه.. وتخرجت فيها!

الليسيه فرانسيه!؟ إن كل علاقة كاميليا بالليسيه، أنها كانت تقيم معي في شقة متواضعة في حارة وراء مدرسة الليسية فرانسيه.. وقد تحولت الخادمة إلى طالبة، والشقة المتواضعة التي أملكها إلى سراي يملكها أبوها! وما ذنب كاميليا؟ الدنيا كلها أصبحت الراقصة كاميليا.. تزور التاريخ، وتخفي الحقائق، وتهز

بطنها أمام الشعب.. والجماهير تصفق لها، والصحف تشيد بالراقصة المثقفة التي تخرجت من الليسيه فرانسيه، والقلائل الذين يعرفون الحقيقة لا يجرؤون على النطق بها خوفاً من غالب بك!

كل واحد منا له (غالب بك) يخاف منه ويرهبه. ما أكثر عدد الآلهة الصغيرة في عهود الظلام.. لقد أصبحت الإدارات والمؤسسات والشركات في بلادنا كلها ترتدي بذلة الرقص، تكشف عن مفاتن مزعومة، وتخفي حقائق بشعة. والجماهير تلهب أيديها بالتصفيق والهتاف، وتودع راقصة لتسقبل راقصة.

هل نلوم الخادمة روحية أنها تخفي الحقيقة على الشعب، ولا نلوم رمسيس الثاني ولا نلوم الذين يضللوننا، ويسخرون من عقولنا؟

قال الاستاذ مجلي:

ـ يجب أن نلوم الفيران!

ـ الفأر هو الذي يشجع القط على التهامه عندما يجري أمامه فزعاً.. لو اجتمعت الفيران ووقفت صامدة أمام القط لأسرع القط بالفرار.. وما دامت الفيران مختلفة فيما بينها، فسوف يأكلها القط واحداً بعد آخر!

□ □ □

وتوقفت الكلمات فجأة في فم الاستاذ طه، وعض على شفته، وبدا عليه أنه ندم على الآراء الثورية التي قالها، وندم أكثر لأنه أفشى سراً عن عشيقة المدير العام كان يجب أن يحبسه في صدره.

ولم يستطع أن يتراجع، ولا أن يسترد الكلمات من آذان الذين

سمعوها . . لقد حفظ هذا السر في صدره بضع سنوات، لم يخبر بـه مخلوقاً، فما الذي جعله اليوم يقـول كل هـذه الحقائق التي كـان قد اعتزم أن يكتمها إلى أن يموت باعتبارها من أسرار المقامات العليا!

أيكون تخطيه في الترقية، وتعيين برعي أفندي مديراً لـلأرشيف، هو الذي جعله يطلق لسانه!

ووقف الأستـاذ طه فجـأة، وانـدفـع إلى البـاب ونـظر إلى يمينـه ويساره، ولم يجد الساعي مجاهد العطار يسترق السمع عـلى الباب، واطمأنت نفسه، وعاد إلى مقعده وقد أحس أنه عاد أسداً جديدا!

ووجد طه أن عيـون زميليه تعلقت بـالباب، ولمـا رأى الزميـلان نظرة الاطمئنان في عيني زميلهـما انتقلت إلى عيونهما مشـاعر الـراحة والطمأنينة من أن الجستابو ليس واقفاً بالباب!

وتشجع الأستاذ جبر العفيفي وقال هامساً :
ـ الأمل الوحيد هو في عمال المصنع!
ـ وماذا يعمل العمال؟
ـ ينتهزون فرصة إحدى الحفلات الساهرة التي يقيمها غالب بك للترفيـه عن العمال وتـرقص كاميليـا، ويطفئـون النـور، ويهجمـون عليهما ويقتلونهما، وهكذا تتخلص الشركة من الفساد!
ـ كاميليا هي معبودة عمال الشركـة. . عندمـا ترقص يتخيـل كل واحد من العمال أنها تـرقص له وتبتسم لـه، وعندمـا يعود إلى بيتـه يتخيل أنه يحتضنها في فراشه!
ـ بينما تكون هي نائمة في أحضان المدير العام!
ـ هذا هو نفس ما يفعله شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء عنـدما يخطب في الجماهير، ويتحدث عن الحـرية، ويتـوهم كل واحـد من

هـذه الألوف أنـه سوف يستمتـع بالحـرية، وفي نهايـة الحفلة يأخـذ شفيق باشا كل الحرية لنفسه، ولا يترك منها شيئاً للناس!

وهز الاستاذ مجلى رأسه وقال في حسرة:

ـ ماذا حدث لنـا؟ أين ذهبت شجاعـة هذا الشعب؟ أين ذهبت قدرته على الانقضاض؟ هل مات هذا الشعب؟

ـ الشعـوب لا تمـوت. . إنها تغمض عيـونها فقط. . وتتـظاهـر بالنوم بينما هي ترى كل شيء وتسمع كل شيء!

ـ ومتى تتحرك!؟

ـ عندما تجد قائداً!

ـ وأين تجد هذا القائد!

ـ عنـدما يلده هـذا الشعب. هو الآن جنـين في بـطنـه، وفجـأة سيخرج إلى الأمة!

ـ بعد تسعة أشهر؟

ـ ربما بعد تسع سنوات!

ـ من المضحك أنني تصورت في يوم من الأيام أن الأستـاذ ناجي عبد الهادي مدير المبيعـات في الشركة يصلح قـائداً لهـذا الشعب. . إنـه أستاذ في فن النصب عـلى الزبـائن، وخـداعهم وبيـع الأشيـاء الـرخيصة بـأثـمان غـاليـة، واخـتراع الشعـارات التي يضعهـا عـلى إعلانات الشركة التي تنشر في الصحف والمجلات!

ـ وبعد ذلك تبين أن ناجي ليس قـائداً للشعب، وإنمـا هو قـواد للمدير العام. . الصفات التي تـذكرهـا ليست صفات القـائد، إنها صفات النصاب. . البلد ليس في حاجة إلى نصاب يبيع لـه التزام.

وإنما في حاجة إلى سواق يسوق له الترام . . وعندما يتحرك الترام سوف يدهس كل الحشرات التي تجلس في مقاعد السلطان!

- وفي مقدمتهم برعي أفندي متولي مدير الأرشيف الجديد!

- وزوجته بهية!

- تعيين برعي مديراً للأرشيف هو صورة صغيرة لما يحدث في هذا البلد، التافهون يوضعون فوق الرؤوس، والأكفاء تدوسهم الأقدام. . الذين يعملون في صمت هم المنبوذون المنسيون، والذين لا يعملون أي شيء سوى الكلام يبرزون إلى الصفوف الأولى. . الأطباء العالميون يأتمرون بأمر حلاق. . أساتذة الجامعة يرأسهم من لا يحمل شهادة التوجيهية!

- كل شيء يمشي بالمقلوب!

- إذا سرنا فوق أيدينا، ورفعنا سيقاننا في الهواء فسوف نرى كل شيء معدولاً!

- برعي أفندي الذي يحمل شهادة الابتدائية يصبح مديراً للأرشيف، وأنا الذي أحمل شهادة كلية الآداب لا يمكن أن أصل إلى وظيفة وكيل الأرشيف؟

- في مملكة العميان يصبح المبصر رجلاً شاذاً!

- وما هو الحل؟

- أن نغلق عيوننا لنعيش!

وظهر بالباب الأستاذ برعي متولي مدير الأرشيف الجديد. .

وانتفض الفيران الثلاثة، وقاموا من مقاعدهم، وأسرعو يضعون طرابيشهم فوق رؤوسهم.

تشجع الأستاذ طه زكريا وتقدم نحو برعي يصافحه ويشد على يده ويقول:

ـ ابن حلال يا برعي بك.. لقد كنا نتكلم الآن في إقامة حفلة تكريم لسعادتك!

الفصل الثالث والأربعون

نظر عبد المتعال إلى ساعته وعرف أنه لم يبق سوى نصف ساعة على نهاية موعد الإنذار الأخير، النهائي، الذي وجهته له سلوى.

وكان قد وصل إلى ناصية شارع سليمان وشارع فؤاد (شارع طلعت حرب و٢٣ يوليو الآن) وتوقف أمام إشارة المرور الكهربائية حتى أضاءت العلامة الخضراء.

وخطا بضع خطوات في طريق المشاة المحدد بالطباشير الأبيض ليذهب إلى الجانب الآخر من الشارع، وإذا بسيارة بيضاء طويلة، أنيقة، فخمة تندفع نحوه بسرعة جنونية، ورفرف السيارة يدفعه أربعة أمتار، ويلقيه على الأرض!

وأنكفأ عبد المتعال على وجهه، واعتقد أول الأمر أنه مات، ثم سمع ضجة حوله وظن أن هذا موكب الملائكة جاء لمحاسبته.. واشتدت الضجة.. واستطاع أن يرفع رأسه فوجد عدة أيد تمتد نحوه، وترفعه من الأرض وسمع أصواتاً تقول له: مبروك.. مبروك.. بختك من السماء.. أمك ولدتك في ليلة القدر!

وتحسس ظهره الذي يوجعه ثم التفت إلى المهنئين وقال وفوق شفتيه ابتسامة مغتصبة وهو لا يزال يرتجف من الرعب!

ـ أشكركم . . إنكم تهنئونني لأنني نجوت من الموت المحقق بأعجوبة!

ووجد أمامه رجلاً طويلاً، يفتل شاربه بيده اليمنى ويقول له باسماً:

ـ نحن نهنئك لأن الراقصة كاميليا هي التي صدمتك!

ـ وهل هذا شيء يستحق التهنئة!؟

ـ طبعاً . . هذا شرف كبير . . كل واحد منا يتمنى أن تدهسه كاميليا العظيمة، راقصة مصر الفاتنة!

وسمع عبد المتعال أصواتاً مختلفة تصيح: أنت لست غلطانة يا مدام كاميليا، نحن مستعدون لأن نذهب إلى قسم الشرطة ونشهد أنه هو الذي خالف قواعد المرور . . أنا رأيته بعيني رأسي وهو يعبر الطريق أثناء العلامة الحمراء التي تحظر المرور . . إنه كان يمشي في غير الطريق المخصص للمرور . . والدليل أنه وقع على بعد مترين من الخط الأبيض المحدد بالطباشير . . أنت أنقذت حياته يا مدام كاميليا بالفرملة العجيبة التي أوقفت السيارة فجأة . . خذه يا شاويش إلى القسم . . نحن نعرف هذا النوع من النصابين الذين يلقون بأنفسهم تحت عجلات سيارات المشهورين ليحصلوا على تعويضات منهم . . أياك أن تدفعي له مليماً يا ست كاميليا، فهؤلاء النصابون يجب أن يزج بهم في السجون، لا أن يأخذوا أموال الأبرياء . . أنا أعرف هذا المجرم شخصياً، لقد رأيته منذ عام وهو يلقي بنفسه أمام سيارة المطربة ليلى مراد في شارع الملكة نازلي واستطاع أن ينصب عليها ويأخذ خمسة جنيهات، ولولا طيبة قلبها لأودعوه السجن، ولما حاول الآن أن يقوم بنفس لعبته . . أنا رأيت ذلك الحادث بنفسي ومستعد أن أقسم على كتاب الله . .

ونظر عبد المتعال، وهو لاهث الأنفاس، زائغ البصر، إلى هؤلاء الـذين يكيلون له الاتهـامات.. كيف انشقت الأرض وخـرج منهـا عشرة شهود زور، كل واحـد منهم يقسم ويؤكد أنـه المخطىء وأنـه خالف علامة المرور وأنـه مجرم ونصـاب، وأنه نصب منـذ عام عـلى ليلى مراد في شارع الملكة نازلي بينما كان هو في ذلك الوقت بـالذات في زنـزانة السجن.. وكيف يستـطيـع أن يثبت أنـه كـان في ذلـك التاريخ في السجن، بينما سجلات السجن خالية من اسمه!!

□ □ □

وبدأ ينفض التراب عن الجاكتة والبنطلون، وإذا بيد قوية تقبض بقسوة على كتفه وتدفعه أمامها، وتلفت إلى صاحب اليـد الغليظة، فوجد شرطي الدورية يقول له بصوته الأجش:

ـ ضبطتك يا مجرم!

ـ **أنا لست مجرماً.. أنا المجني عليه!**

ـ لو كنت المجني عليه لما جريت محاولاً الهرب!

ـ **أنا جريت؟ إنني لا أكاد أستطيع المشي على قدمي**

ـ أنا رأيتك وأنت تعدو في الشارع وعدوت خلفك حتى ضبطتك متلبساً!

ـ **يا ناس.. يا مسلمين.. أنا لم أتحرك من مكاني!**

وتلفت شرطي الدورية إلى الواقفين وقال لهم:

ـ ألم تروا هذا الرجل يحـاول الهرب؟ وأنـا قبضت عليه في نهايـة الشارع وأحضرته إلى هنا؟

وصاح الواقفون في صوت واحد:

ـ حصل!

والتفت عبد المتعال إلى أحد المتحمسين ضده وقال:

- أنت بالذات قلت أنك رأيتني منذ عام وأنا ألقي بنفسي تحت عجلات سيارة ليلى مراد لأنصب عليها، وأنني فعلت هذا مع الراقصة كاميليا لأكرر عملية النصب..

- هذا حدث فعلاً ورأيته بعيني..

- ما دمت أريد أن أستغل عملية الاصطدام، فلماذا أعدو؟

- أنت عدوت عندما رأيت الشرطي قادماً نحوك، وخشيت أن تفتضح لعبتك ويظهر أنك من أصحاب السوابق!

وضرب عبد المتعال كفاً بكف.. ماذا جرى للناس! كيف تحولوا جميعاً إلى شهود زور وملفقين؟ هل هم خائفون أيضاً من كاميليا، كما خاف برعي أفندي متولي من غالب بك؟ وما هو نفوذ الراقصة كاميليا وسلطانها حتى تخيف الناس وتحولهم إلى مزورين وملفقين؟ أم أن الجمال له سلطان مثل سلطان أصحاب النفوذ، وإننا عندما نعجب بإنسان نصاب بالعمى، فلا نرى إلا ما يرضيه، ونصاب بالصمم فلا نسمع إلا ما في مصلحته، ونصاب بالتعصب له فنؤيده قاتلاً أو مقتولاً!

لا يمكن أن تكون كاميليا استطاعت أن ترشو كل هؤلاء الشهود العشرة وتتفق معهم على شهادة واحدة، ينطقون بها بلسان واحد وصوت واحد بغير أن يتلعثموا أو يترددوا، أو يخجلوا!

ورأى عبد المتعال عدة أشخاص يجرون وهم يحملون أكواباً من المياه، وأكواباً من عصير الليمون، ويقبلون نحوه، وتنفس عبدالمتعال الصعداء. الدنيا ما زالت بخير.. هؤلاء الذين لا يعرفهم جاءوا له بالماء والليمون ليشربه. إنه فعلاً في أشد حاجة إلى

كوب ماء. نشف ريقه من الفزع ومن الشرطي، ومن شهادات الزور، ومن احتمال القبض عليه ووضعه في سجن قسم الشرطة! *

وماذا يقول لهم في قسم الشرطة. إنه رجل بلا اسم، وبلا وظيفة، وبلا ورقة إثبات شخصية. ولكنه محتاج الآن أولاً إلى كوب ماء ليسترد أنفاسه المقطوعة، وليفكر كيف ينجو من هذا المأزق الجديد.

وفوجىء عبد المتعال بحملة أكواب الماء والليمون لا يتوقفون عنده، بل يعبرونه بغير أن ينظروا إلى ناحيته، ويسرعون بالأكواب إلى كاميليا الجالسة في السيارة، وتمد كاميليا يدها في دلال إلى أكواب الليمون والماء، وتشرب من كل كوب جرعة صغيرة فقد أرادت أن توزع رضاءها السامي على كل المعجبين الذين خشوا عليها من «الخضة»!

يا للعجب! الرجل الذي دهسته سيارة وألقته على الأرض لا يستحق قطرة ماء، والمرأة التي صدمته جالسة في سيارتها الأنيقة تستحق عشرة أكواب ماء مثلج وليمون!

وتلفت عبد المتعال نحو السيارة الفخمة ورأى الرجل الطويل الذي شهد أنه رآه بعينيه يلقي بنفسه تحت عجلات سيارة ليلى مراد، يشرب كوب ماء من الذي شربت منه كاميليا جرعة، ثم يصيح وهو يرقص:

ـ يا سلام.. الماء تحول إلى سكر.. تحول إلى عسل!

وابتسم عبد المتعال في حسرة وقال لنفسه أنه من الطبيعي أن يتحول فم الراقصة كاميليا إلى سكر، من كثرة ما أكلت من أموال شركة مصر للبسكويت!

وسمع عبد المتعال هتافاً عالياً: تعيش كاميليا. . تحيا كاميليا النبيلة. . نموت وتحيا كاميليا!

ثم رأى شهود الزور يتوجهون نحوه مهللين مصفقين، وتقدم نحوه واحد منهم وهو يقول: الست كاميليا أمرت بالعفر عنك!

ـ العفو عني أنا!؟ أنا لم أرتكب جريمة!

ـ أنت أحدثت إصابات في رفرف السيارة!

ـ رفرف السيارة؟ الإصابات حدثت في جسمي أنا!

ـ ما هي قيمة جسمك كله، خمسون جنيهاً؟ مائة جنيه، هذه السيارة ماركة كاديلاك وثمنها ستة آلاف جنيه على الاقل!

ـ أنا متنازل عن حقوقي!

ـ حقوقك؟ نحن رأينا بأعيننا الخدوش في السيارة!

ـ وهل رأيتم الخدوش التي في جسمي؟

وتقدم واحد منهم في عصبية والتفت إلى شهود الزور وقال لهم:

ـ ألم أقل للست كاميليا أنه نصاب؟ إذا أنت أكرمت الكريم ملكته. . وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا!

وأراد عبد المتعال أن يشتم هذا الشاهد الوقح، ولكن شرطي الدورية بادره بقوله:

ـ يجب أن تعتذر لكاميليا هانم!

ـ أعتذر لها لأنها صدمتني!

ـ أنت الذي أحدثت إصابات في السيارة تحتاج إلى علاج أكثر من عشرين يوماً، وهذه جناية!

ـ جناية؟ والإصابات التي حدثت في جسمي هل هي جنحة. أم مخالفة فقط؟

ـ عليك أن تختار: إما أن تذهب للست وتعتذر وتستسمح وتشكرها على عفوها، أو تذهب معي إلى قسم الشرطة!

وما كاد عبد المتعال يسمع اسم قسم الشرطة حتى انتفض، واتجه نحو سيارة كاميليا وهو يقول: **معكم حق، معكم حق.. أنا المخطيء.. أنا الغلطان.. أنا الذي خالفت إشارة المرور!**

□ □ □

وفتحت كاميليا عينيها الواسعتين المستديرتين في دهشة وقالت:

ـ مش معقول.. موش معقول.. عبد المتعال بك محجوب!!

ـ لا.. أنا المجرم النصاب، الأفاق الذي تعمد أن يرمي بنفسه تحت عجلات سيارتك ليأخذ منك قرشين!

والتفت كاميليا نحو شهود الزور وقالت:

ـ الحقيقة أنني أنا المخطئة.. أنا التي خالفت قواعد المرور.. عبد المتعال بك لم يكن مخطئاً!

وارتفعت الهتافات مدوية بحياة كاميليا النبيلة وكاميليا المتواضعة!

وعادت كاميليا تؤكد للجماهير أنها هي المسؤولة عن الحادث، وعادت الجماهير تقول:

ـ يا سلام.. هذه هي الأخلاق.. أخلاق ملوك.. ملكة الرقص طبعاً لا بد أن تكون ملكة في كل شيء!

ما أغرب الجماهير عندما تعشق.. قلوبها تتحول إلى عقول.. صحيح أن الجماهير تستيقظ فجأة من غفلة العشق، وتتحول من النقيض إلى النقيض، وكلما أحبت شخصاً أكثر كانت مستعدة لأن تكرهه أكثر وأكثر إلا أنها في فترة العشق المجنون تنسب للمحبوب

كل الفضائل، وترفض أن ترى فيه نقيصة واحدة. . أسوده، تراه أبيض، ظلمه يصبح عدلاً. الكذبة التي يقولها هي كلمة الحق. إذا قسا فهو قوي، وإذا عفا فهو ملاك. . وإذا بطش فهو الحازم، وإذا ضعف فهو الرجل الطيب، ذو القلب الكبير الذي يشبه اللبن الحليب!

وأراد عبد المتعال أن يشكر كاميليا لأنها صدمته بسيارتها، ويستأذن في الانصراف ولكنها تشبثت بيده وهي تقول:

ـ مستحيل أن أتركك. . يجب أن تركب معي!

ـ إنني مرتبط بموعد هام!

ـ أنا الذي عطلتك عن موعدك وأنا التي يجب أن أوصلك!

ـ أستطيع أن أركب سيارة أجرة. . لا أريد أن آخذ شيئاً من وقتك!

ـ وقتي كله لك. . إنني كنت أبحث عنك في كل مكان منذ أن التقينا في مجلس الوزراء. . بحثت عن اسمك في دليل التليفون فلم أجده. . سألت عن رقم تليفونك السري فلم أعثر عليه. . سألت عنك زينب صدقي فقالت إنها لا تعرف عنوانك. . كنت أبحث عنك في كل فندق أو كباريه فلا أعثر لك على أثر!

ـ أنا لا أذهب إلى الفنادق والكباريهات!

ـ هذا هو الرجل الذي يعجبني!

ودار عبد المتعال حول السيارة ليركب بجوارها، وعندما جلس بجانبها، لاحظ أنها تضحك، وهي تنطلق بالسيارة ثم قالت له وهي مبتسمة:

ـ هل تعرف أن بنطلونك مقطوع؟

ـ مقطوع؟

ـ مقطوع من الخلف!

وتحسس عبدالمتعال بنطلونه بيده ففوجىء بقطع كبير في مؤخرة البنطلون، وبدا عليه الانزعاج، وقالت كاميليا باسمة:

ـ إنها مصيبة!

ـ مصيبة كبيرة.

وكاد عبد المتعال يصارحها بأن سبب كبر المصيبة ليس كبر القطع فيها، وليس لأن بنطلونه الوحيد فقط، وإنما هو بنطلون شقيق سلوى وهبي الذي اشتراه من انجلترا.. لكنه فضل أن يصمت، وعاد يتحسس قطع البنطلون من جديد.. ومالت عليه كاميليا وقالت:

ـ هذه غلطتي، وسوف أتولى إصلاحها.. سأصحبك معي الآن إلى بيتي وأصلح لك هذا القطع في خمس دقائق!

ـ أشكرك، ولكني مرتبط الآن بموعد هام.

ـ لا يجوز أن تذهب إلى موعد هام ببنطلون مقطوع من الخلف!

ـ سوف أتعمد طول الوقت أن أضع يدي خلف ظهري!

ـ أين موعدك؟

ـ في شارع أبو الفدا.

ـ إنه قريب من بيتي.. وفي أي ساعة؟

ـ الساعة السادسة مساء!

ـ إنها الآن الخامسة والنصف، وفي خمس دقائق سيتم إصلاح البنطلون وتذهب إلى موعدك بكل أناقتك!

وتوقفت السيارة أمام عمارة كاميليا، وأعطته كاميليا حقيبة يدها وهي تقول:

ـ ضع هذه الحقيبة وراء ظهرك! إن الموضة الآن في باريس أن يحمل الرجال حقائب السيدات!

ومشى عبد المتعال خلف كاميليا، وقد وضع حقيبة يدها خلف ظهره!

□ □ □

وأدخلته كاميليا إلى شقتها، ثم صحبته إلى الصالون، وبعد أن أجلسته في أحد المقاعد الوثيرة استأذنته في أن تحضر من غرفة نومها إبرة وخيطاً.. وعادت إليه بعد دقيقة واحدة مشرقة الأسارير وهي تقول له:

ـ حظك من السما يا عبد المتعال!

ـ **حظي دائماً كان على الأرض!**

ـ حظك مدهش.. لقد وجدت خيطاً من نفس نوع قماش البنطلون.

وطلبت منه أن يقف فوقف، وأن يستدير فاستدار، وبدأت تخيط القطع، ثم توقفت وقالت له:

ـ مستحيل أن أستطيع خياطة البنطلون وأنت ترتديه.. يجب أن تخلعه.

ـ **أخلع البنطلون؟ لا أستطيع أن أخلع البنطلون!**

ـ أنا مثل أختك!

ـ **لو كانت لي أخت لما جرؤت أن أخلع أمامها البنطلون.. لا، لا، كله إلا البنطلون!**

ـ ما رأيك في أن ترتدي أحد بنطلونات بيجاماتي؟

ـ **أنا راجل صعيدي ولا يمكن أن أرتدي بنطلون ست؟**

ـ إن دمك خفيف يا عبد المتعال!
ـ دمي من غير بنطلون يكون ثقيلاً جداً!

ـ هـذا شيء يجعلني أعجب بـك. . ومـا دمت تـرفض خلع البنطلون فسوف أحضر لك ملاءة سرير بيضاء تضعها على ساقيك بعد أن تخلع البنطلون!
ـ هذا حل سعيد!

وذهبت كاميليا وأحضرت ملاءة بيضاء، وخرجت من الغرفة وأقفلت الباب خلفها حتى لا تحرج عبد المتعال.

وخلع عبد المتعال بنطلونه، ولف نفسه بالملاءة البيضاء، وأصبح نصفه الأعلى عبد المتعال محجوب، ونصفه الأسفل المهاتما غاندي!!

ـ وعادت كاميليا إلى الغرفة وأغرقت في الضحك وهي تراه في هـذا المنظر العجيب! . . وأمسكت بالبنطلون واستأنفت خياطة الجزء المقطوع، ثم رمت البنطلون بعصبية وقالت:
ـ إن خياطة البنطلون بهذه الطريقة سوف تستغرق ساعتين على الأقل!
ـ ساعتان؟ . . أنت قلت لي أنها لن تستغرق سوى خمس دقائق، وعندي موعد بعد ٢٥ دقيقة!
ـ عندي فكرة مدهشة. . إن محل رفا موجود في نفس العمارة وهو أسرع رفا في مصر. ويمكن إصلاح القطع في خمس دقائق، وسأرسل البنطلون مع خادمتي سعاد وستقول له إنني سأدفع ضعف أجره إذا انتهى منه في ثلاث دقائق!
ـ ولماذا لا أذهب أنا إلى محل الرفا!؟
ـ عندما يعلم الرفا أن هـذا البنطلون من عندي، سيترك كل

أعماله، ويتفرغ له!

واستدعت كاميليا خادمتها سعاد وشددت عليها على ضرورة الانتهاء من رفي البنطلون في دقيقتين!

وخرجت الخادمة مهرولة تحمل البنطلون، وقال عبد المتعال وهو يتنفس الصعداء:

ـ سوف أذكر لك هذا الجميل دائماً!

ـ إنني صدمتك بسيارتي!؟

ـ إنك أنقذتني من مأزق البنطلون المقطوع!

ـ أنا أتمنى أن أنقذك من جميع مآزقك، ولكنك تهرب مني. هربت مني عندما التقينا معاً في حفلة زينب صدقي، ثم هربت مني مرة ثانية عندما قابلتك في رياسة مجلس الوزراء.. وهذه هي المرة الثالثة التي تهرب فيها مني!

ـ إنني لم أهرب هذه المرة!

ـ الملاءة البيضاء التي تلف نفسك بها دليل على الهروب!

ـ إنني رجل عاشق ومخلص للمرأة التي أحبها!

ـ أنا يعجبني دائماً الرجل المخلص!

ـ وسوف أتزوج المرأة التي أحبها!

ـ هذا أكبر شيء يثيرني فيك!

ـ لقد كنت أنوي أن أعقد قراني على هذه المرأة بعد نصف ساعة!

□ □ □

ودق جرس الباب.. وتوالت الدقات بعنف.. ونظرت كاميليا

حولها بدهشة وقالت: إنني لا أنتظر أحداً الآن؟

ـ قد تكون الخادمة عادت بالبنطلون!

ـ الخادمة معها مفتاح.

ووقفت كاميليا واتجهت نحو الباب، وتشبث عبد المتعال بفستان كاميليا وهو يقول في هلع:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ سأذهب لأرى من يدق الجرس.

ـ وكيف تتركيني هكذا بغير بنطلون؟

ـ اطمئن، أنا لن أفتح الباب، سأنظر فقط من العين السحرية في الباب، لأعرف من يدق الجرس...

وعادت كاميليا ملتاعة وقد اصفر وجهها وقالت لعبد المتعال:

ـ اخرج.. اخرج!

ـ كيف أخرج؟

ـ اخرج من سلم الخدم!

ـ كيف أخرج بغير بنطلون!؟

ـ خذ معك الملاءة البيضاء!

ـ لا أستطيع أن أخرج إلى الشارع في هذه الصورة.. سوف يتصورون أنني لص أو مجنون، وسيقبضون علي!

ـ أفضل أن تقبض عليك الشرطة في الشارع، ولا يقبض عليك غالب بك في بيتي!

ـ هل هو غالب بك الذي يدق الجرس؟

ـ نعم.. ولم يسبق له الحضور في هذا الموعد أبداً.. ولكن في قلب العاشق رادار عجيب.. في كل مرة أريد أن أخونه تحدث مصيبة!

ـ يمكنك أن تخفيني في أي مكان!

ـ إنه رجل صاحب مزاج غريب.. في كل مرة يختار غرفة مختلفة ليجلس فيها معي..

ـ أختبىء في المطبخ!

ـ إن هوايته أحياناً أن يقبلني ويعانقني في المطبخ!

ـ ما رأيك أن أختبىء تحت السرير؟

ـ وماذا أفعل إذا دخل غرفة النوم؟

ـ سأكتم نفسي ولا أتحرك!

وأدخلت كاميليا عبد المتعال إلى الصالة، وأخفته خلف إحدى الستائر.

وأسرعت كاميليا إلى الباب تفتحه... وارتمت بين ذراعي غالب بك وهي تبكي وتنتحب.. وقبلها غالب بك وهو يقول:

ـ ماذا حدث.. مالك ترتعشين؟

ـ صدمت اليوم رجلاً!

ـ وهل قتلته؟

ـ لا، جرحته فقط!

ـ ليتك قتلته!

ـ كانوا سيحبسونني!

ـ كان محامي الشركة هو الذي سيترافع عنك، ويثبت للمحكمة أن الذي قتل الرجل هو سحر جمالك، وأنت لست مسؤولة عما صنعه الله!

ـ كان موقف الجماهير رائعاً.. لقد قاموا بمظاهرة من أجلي وهتفوا بحياتي!

ـ لأنك صدمت الرجل؟
ـ لا . . لأنني عفوت عنه!
ـ أنت مخطئة بعفوك عنه . . إنني ألاحظ دائماً أن السائرين على أقدامهم يتحدون أصحاب السيارات، ولولا القلوب الطيبة مثل قلبك يا حبيبتي لما وقعت حوادث السيارات.

ثم أخرج غالب بك منديلاً وجفف به عرقه وقال:
ـ الجو في الصالون حار . . فلنذهب إلى الصالة!
ـ دعنا نجلس هنا قليلاً . . !
ـ إنني أمضيت يوماً عصيباً شاقاً . . وأريد أن أستلقي بين ذراعيك وأستريح من أحداث اليوم . . غرف الصالة كبيرة ومريحة!

وصحبته كاميليا إلى الصالة، واستلقى غالب بك على كنبة كبيرة وجلست كاميليا بجواره . .

وجذبها غالب بقوة وهو يقول:

ـ إنني أتعب عندما أراك جالسة . . أحب أن أراك دائماً راقدة . .

وضمها غالب إلى صدره وقبلها . . وكانت كاميليا تحاول أن تهدىء من هواه وتدفعه بيدها بعيداً عنها، ونظر إليها غالب بك في استغراب وقال:

ـ مالك باردة اليوم؟
ـ إنني مضطربة فقط . . فقد أخبرتك أنني صدمت رجلاً، ومنذ تلك اللحظة أعصابي مشدودة . . وأشعر أن صورة هذا الرجل لا تفارقني أبداً!

ـ يعني أنه معنا في نفس الصالة.

ـ إنني أحس أنه موجود أمام عيني.. إن صورته لا تبارح عيني!

ـ لا بد أنه كان شاباً!

ـ بالعكس، إنه رجل عجوز في السبعين من عمره محني الظهر.. شعره أبيض، بلا أسنان!

وتململ عبد المتعال من هذا الوصف، وتمنى لو استطاع أن يخرج من خلف الستار ليدافع عن نفسه، ولكنه آثر الصمت!

عادت كاميليا تقول في تأثر:

ـ لم أتعذب في حياتي كما تعذبت عندما صدمت هذا الرجل، عندما رأيته على الأرض تمنيت لو كنت أنا التي على الأرض، وأن يكون هو جالساً في السيارة.

ـ لم أعرف أن لك مثل هذا القلب من قبل!

ـ وهذا هو الشيء الذي يدهشني.. إنني أريد أن أضمد جراحه.. أريد أن أفتديه بحياتي! لا أتصور أنك تعانقني وتقبلني وهذا الرجل راقد بلا حراك!

ـ لماذا لم تعطيه جنيهاً.. الجنيه يعيد الميت من مثل هؤلاء إلى الحياة!

ـ عرضت عليه أن أعطيه مائة جنيه ورفض!

ـ رفض مائة جنيه؟ لا يوجد في هذا البلد من يرفض مائة جنيه!

ـ لقد حملق فيَّ بعينيه الجميلتين وقال لي: ما أجمل الموت إذا كانت القاتلة امرأة جميلة مثلك!

ـ إنه رجل قليل الأدب!

ـ أبداً.. لم أر في حياتي رجلاً بمثل هذا الأدب والحياء.. كنت

أحس بأن وجهه يحمر من الخجل وهو ينظر إلي!

ـ ماذا تنتظرين من رجل عجوز في السبعين من عمره. في هذه السن يتحول الرجل إلى جثة، إنه ميت مع إيقاف التنفيذ، والموتى لا يغازلون النساء!

ـ أما أنا فقد كنت أتمنى أن أغازله وأقبله!

ـ السبب في هذا الشعور أنك حرمت من أبيك في سن مبكرة!

ـ شعرت أنني وجدت في هذا الرجل أبي وأخي وصديقي!

ـ لماذا لم تحضريه معك إلى البيت؟

ـ تمنيت أن أفعل ذلك، ولكنه رفض!

ـ لو قبل لقطمت رقبته ورقبتك معاً!

ـ تغار من عجوز في السبعين من عمره؟

ـ حتى ولو كان عمره مائة سنة يا حبيبتي!

ـ إنني أريد أن أفعل أي شيء لهذا الرجل!

ـ أرسليه إليَّ في الشركة وأنا أعينه فراشاً فيها. . إن عندنا وظيفة فراش شاغرة، منذ أن طردنا الحاج رشوان العشماوي الساعي الذي رفض أن ينظف عش الغرام. . ولا أظن أن صديقك سيكون مجنوناً هو الآخر ويرفض تنظيف عش غرام المدير العام.

ـ لا أظن أن مثل هذا الرجل يقبل أن ينظف عش غرام!

ـ إن خمسة من المديرين عندي جاءوا إلى مكتبي وعرضوا علي أن ينظفوا عش الغرام بعد أن سمعوا حكاية الحاج رشوان العشماوي المجنون. . أنت ذكرتني بالشركة وقد جئت هنا لأنسى متاعب الشركة بين ذراعيك!

ـ وما هي متاعبك في الشركة؟

ـ كـل شيء كان يسـير في الشركة عـلى ما يـرام إلى أن ظهر لنـا فجأة رجل اسمه عبد المتعال محجوب.

ـ عبد المتعال محجوب؟!

ـ ماذا يدهشك؟ هل سمعت بهذا الإسم من قبل؟

ـ لا، هذه أول مرة أسمع فيها باسمه، ولم يسبق لـك أن ذكرت لي اسمه!

ـ كلما تصورنا أننا قضينا عليه، فوجئنا به يبعث من جديد. إنـه مثل القطط له سبعة أرواح. هذا الرجـل يريـد أن يأخـذ مكاني في كل مكان!

ـ في كل مكان؟!

ـ ما عدا هنا طبعاً يا حبيبتي!

ـ وماذا يفعل ضدك؟!

ـ يجمع مستندات يريد أن يثبت بها أنه لا يزال على قيد الحياة!

ـ ولكنك تقول أنه فعلاً على قيد الحياة!

ـ أنا أقول هذا بيني وبينك.. ولكن الدولة تعتبره ميتاً!

ـ وما الضرر في أن يثبت الحي أنه حي؟!

ـ إذا أثبت أنه على قيد الحياة فيجب أن أموت أنا!

ـ لا أفهم!

ـ إنـه كان مـدير الشركـة قبـلي.. وقـد عينت في هـذا المنصب بسبب وفاته، فإذا ظهر أنـه حي فمعنى هذا أن يجلس هـو في مقعد مدير عام شركة مصر للبسكويت، وأجلس أنا في الشارع!

ـ وماذا تنوي أن تفعل به؟

ـ سأقتله طبعاً!

ـ تقتله؟

ـ شركة مصر للبسكويت لا تتحمل مديرين عامين . أما أنا وأما هو، فلكي أعيش أنا يجب أن يموت هو!

ـ لماذا لا تحاول أن تتفاهم معه؟!

ـ لا يمكن التفاهم معه لأن كل الذين عرفوه يقولون أنه رجل صاحب مبادىء، إنه من هؤلاء الرجال المتعبين الذين يقولون «لا» دائماً.

ـ دعني أنا أتفاهم معه!

ـ أنت لا تصلحين لهذه المهمة!

ـ وما يدريك؟ قد أستطيع أن أحضره إلى هذا المكان!

ـ الذين يعرفونه يقولون أنه كان مستقيماً جداً، وليست له مغامرات نسائية، وإن كنا بعد موته لفقنا له خطابات غرامية ادعينا أنها خطابات من عشيقاته الراقصات والغانيات.. وكان أحد الخطابات بخطك أنت!

ـ أنا كتبت لعبد المتعال خطاباً غرامياً!؟

ـ أنت لم تكتبي شيئاً، إن سالم حليم وكيل حسابات الشركة هو الذي زور الخطاب ووقعه بإمضائك!

ـ لم أكن أتصور أنك قادر على كل هذا...!

ـ لو لم أكن قادراً على كل هذا لما أصبحت مديراً عاماً لشركة مصر للبسكويت!

وحاول غالب بك أن يحتضن كاميليا ولكنها دفعته وهي تقول:

ـ إنني متعبة اليوم.. دعني أنام قليلاً قبل أن أذهب لأرقص في فندق شبرد الليلة!

ـ سأراك بعد انتهاء الرقص!

ـ إنني متعبة جداً وأريد أن أنام لأريح أعصابي!

ومشت كاميليا أمام غالب بك إلى الباب، ثم عادت بعد دقـائق وأزاحت الستار وهي تقول:

ـ هذا هو عبـد المتعال محجـوب، الذي كنت تبحث عنـه في كل مكان يا غالب بك!

الفصل الرابع والأربعون

أين ذهب عبد المتعال؟

أحست الراقصة كاميليا بالرعب والهلع، عندما لم تسمع صوته قادماً من خلف الستارة حيث أخفته، إنها لا تسمع صوت ضحكاته العالية رداً على مداعبتها له بأنها سوف تسلم رأسه إلى عدوه غالب بك.. لعل المسكين لم يفهم الدعابة، وأغمي عليه من هول المفاجأة، ربما توقف قلبه من الذعر!؟

وأزاحت كاميليا الستارة المطرزة بالورود، وأدخلت رأسها خلفها ولم تجد عبد المتعال حياً أو ميتاً!

أين ذهب عبد المتعال؟ إنها واثقة أنها أخفته بنفسها خلف الستارة، قبل أن تذهب إلى باب الشقة وتسمح لغالب بك بالدخول.. لا بد أن عبد المتعال لم يعجبه مكانه، ولا بد أنه انتهز فرصة وجودها في غرفة الصالون وهرب من مخبئه الأمين!

وتلفتت كاميليا حولها، بحثت عنه خلف الستائر الساقطة من سقف الصالة إلى أرضها فلم تجده. بحثت عنه في دواليبها التي تحوي أثوابها وفساتينها.. بحثت عنه تحت المقاعد.

وشعرت كاميليا بخيبة أمل.. ها هوذا قد أفلت من يدها للمرة

الثالثة. كانت تتمنى لو أن عبد المتعال سمع الحوار الذي دار بينها وبين غالب بك. إنها كانت تقصد أن تغازل عبدالمتعال وتناجيه بكل كلمة قالتها في هذا الحوار..

كانت تريد أن يعلم أنها رفضت أن تستجيب في هذا اليوم لغالب بك احتراماً لعبدالمتعال ومحافظة على كرامته، وخشية أن تجرح إحساساته وهو قابع في مخبئه!

كانت تريد أن يسمع بأذنيه التضحية الكبرى التي قدمتها من أجله. إنها أول مرة في حياتها قالت لرجل (لا).

إنها تقول في الصالة للمعجبين (لا).. وألف مرة (لا) وهي تقصد (لا) واحدة، وتقول عند باب شقتها (لا) واحدة وهي تعني ألف (نعم)!

وما دام العاشق دخل الشقة، فإن كلمة (لا) تختفي من شفتيها، ويصبح كل شيء فيها يصرخ (نعم) وألف (نعم)!

واليوم قالت لعشيقها رقم واحد غالب بك (لا) قاطعة! (لا) بمعنى الرفض.(لا) حاسمة ليس فيها دلال ولا إغراء ولا إثارة.. هذه أول مرة في حياتها قالت لرجل (لا) وهي تقصد معناها الحرفي.

كل (لا) قالتها قبل ذلك كانت طعماً في صنارتها. أو كانت قشرة موز تلقيها أمام العاشق ليتزحلق عليها، أو كانت ترفع بها سعراً. كانت إذا أرادت أن ترفض رجلاً لا تقول له (لا) أبداً.. كانت تحدد له موعداً ولا تذهب إليه، أو تطلب منه أن يتصل بها تليفونياً في بيتها ثم تنكر أنها موجودة في البيت.. إنها تعلمت من

عبد المتعال أن تقول (لا). أثارها أن تجد رجلاً يقول (لا) في عـالم لا يقول إلا (نعم)!

ومضت كاميليا تطوف غرف الشقة وهي تنادي (عبد المتعال.. عبد المتعال) ولم تسمع رداً. كانت تسمع صدى صوتها يـدوي في أنحاء الشقة. الكلب! السـافل! قليـل الأدب! لا بد أنـه خرج من الشقـة! إنها لم تقل لغـالب بـك (لا) إلا لكي تقـول لعبـد المتعـال (نعم).. ولكن كيف خرج من الشقة بغير بنطلون لا بد أنه أخـذه من خادمتها بعد إصلاحه.

ونادت على خادمتها فلم تجدها. يا له من رجل عديم الـوفاء.. كيف يخرج من الشقة دون أن يودعها؟

ثم بحثت عن المـلاءة البيضاء التي غـطى بها سـاقيـه فلم تجد الملاءة. إنه ليس كلبـاً وسافـلاً وقليل الأدب وعـديم الوفـاء فقط، ولكنه لص أيضاً.. ولم يضايقها أنه لص.. كانت تتمنى لو بقي في الشقة وسرق كل ما فيها. كانت تتمنى أن يكون مجرماً متوحشاً.

منذ ساعتين فقط كانت تشتهي هذا الرجل وتريده وتتمناه. أمـا الآن فهي تشعر أنها تحبه.

وعجبت كـاميليا أن تحب رجـلاً بهذه السرعـة. إنها في السنوات الأخيرة تصورت أن قلبها توقف عن الخفقـان. جسدهـا هو الـذي كـان يخفق للرجـال. كـانت تقـول لنفسهـا إن الله خلق القلب في أجسامنا لنتنفس بـه، لا لنحب به. إننـا نجهده في عمليـات الحب والهوى وخيل إليها أن دقات قلبها توقفت، ولم تعد تسمع إلا نبض جسدها.. وها هي ذي الآن تسمع دقات قلبها من جديد.. قلبها وجسدها ينبضان لرجل واحد. وقبـل أن يتوقف قلبهـا عن الحب،

كانت تلاحظ أن قلبها يدق لرجل، وجسدها يدق لرجل آخر.. هذه هي المرة الأولى التي تسمع صوت الدقتين معاً!

مستحيل.. غير معقول.. كيف تحب رجلاً بهذه السرعة. إنها ليست فتاة مراهقة. إنها تقلبت بين أحضان الرجال.. تمرغت بين أذرعهم. تعلمت في مدارس الحب وحصلت على أكبر درجات جامعات الهوى والغرام.. إنها قد تفهم أنها تريده، تفهم أن يسيل لعابها عليه عندما علمت أنه يحب امرأة أخرى، وعندما قال لها إنه سيتزوج اليوم من المرأة التي يحبها.. تريد أن تذوق في ساعة واحدة كل العسل الذي ستذوقه المرأة الأخرى في شهر العسل كله.

الرجل المشغول بامرأة أخرى كان دائماً يكهربها أكثر من الرجل الخالي. كانت دائماً تشعر بنشوة الانتصار عندما تنتزع رجلاً من امرأة تحبه.. أحياناً تكون الأشياء المستعملة أغلى ثمناً من الأشياء الجديدة كالسجاجيد والرجال!

□□□

لقد أحست منذ رأته لأول مرة في حفلة زينب صدقي أنه يعجبها. أما الآن فإنها تهواه وتعشقه.. بل المصيبة أنها تحبه.. تحب رجلاً كلباً وسافلاً وقليل الأدب، وقليل الذوق ولصاً وعديم الوفاء! إنها تحبه لأنه يختلف عن كل الرجال. لأنه أول رجل قال لها (لا). لأنه لم يركع تحت قدميها.. لأنه لم يطاردها بل هرب منها.. كل هذه الأسباب تكفي لأن تحبه، ولكنها لا تكفي أن تحبه وتهواه!

إنها لم تذق طعم قبلاته، ولم تعرف حلاوة ضماته، ولم تكتشف إذا كان أستاذاً في الحب أم لا يزال يحبو في روضة أطفال الهوى والغرام..

ربما كان هذا الرجل جاهلاً بفنون العشق، لماذا لا تنتظر حتى تمتحنه في الحب، فإذا نجح بتفوق أحبته وعشقته، وإذا سقط في الامتحان تخلصت من عشقه وهواه؟

كيف تحب رجلاً يحمر وجهه كالعذارى عندما تقترب منه، ويضع فوق ساقيه العاريتين ملاءة بيضاء، وكأنها حزام العفة؟!

لا بد أنها جنت. . هذه ليست كاميليا التي تعرفها. . كاميليا لا تؤمن بالحب من أول نظرة. ولا تعرف العشق من أول لقاء. . هي تزن الرجل بنفس الميزان الذي يعتمد عليه تاجر المجوهرات في وزن الماس!

الرجل الذي تحبه هو أشبه بشقة تريد أن تستأجرها لتقيم فيها فترة من الزمن. يجب أن تتفقد كل غرفة، يجب أن تعاين كل مرفق، يجب أن تتفرج على المطبخ والأوفيس والحمام. . يجب أن تتأكد من جمال الشقة من الداخل. . أن يعجبها الديكور. . أن يثيرها المنظر. . وتزور الشقة مرة ومرتين، وتستشير أصدقاءها وصديقاتها، وتفكر وتتردد، وبعد هذا توقع عقد الإيجار!

هكذا فعلت مع كل رجل أحبته. ومع ذلك كانت في كل مرة تكتشف في الشقة عيوباً لم تتبينها إلا بعد أن تسكن فيها. . أما اليوم فهي تقرر العزال من الشقة المريحة التي تقيم فيها لتنتقل إلى شقة جديدة لم تدخل من بابها بعد!

إنها أحبته عندما قال غالب بك أنه يريد أن يقتله. شعرت في تلك اللحظة أن غالب بك يريد أن يقتلها هي. شعرت لأول مرة في علاقتها بغالب بك مدير شركة مصر للبسكويت أنه وهو صاحب النفوذ والسلطان، يرتعش رعباً من هذا الرجل المختبىء خلف

الستارة. شعرت أن القوة الحقيقية موجودة خلف ستارة الصالـون. لـو كان غـالب بك قـوياً كـما كانت تتـوهم، لما فكـر في أن يقتـل عبــد المتعال ليتخلص من خطره.

وتـذكرت كـاميليا من تجـربتهـا في الحيـاة أن القتلة هم أضعف النـاس وأجبن البشر، كـل قـوتهم في السـلاح الـذي يحملونـه في أيـديهم. فإذا سقط هـذا السـلاح تحـول الأسـود منهم إلى فـيران، وأدعياء الشجاعة والفروسية إلى أنصاف رجال!

إنها لا تنسى القصة التي وقعت لها في بـداية حيـاتها كـراقصة في ملهى (صالة رتيبة وإنصاف رشدي) بشارع ألفي بك.

كانت يومها مبهورة بفتوة الصالة (الزناتي) الذي كان يثير الرعب في شارع عماد الدين حيث تجمعت يومهـا المسارح والصـالات ودور اللهو وصناديق الليل.

كـان يرهب، بقـوته وبـطشه وقـامته العمـلاقة راقصـات الصالـة والجرسونات والمتفرجين.

وكـانت ترى الكـل يتنافسـون على تملقـه واسترضـائه. وكـانـوا يتحدثون عن السكين التي يحملها في جيبه، ويستطيـع أن يشوه بهـا وجـوه الـراقصـات، ويقـطع بهـا رقـاب الـذين لا يحنـون رؤوسهم خضوعاً لإمبراطور شارع عماد الدين.

وكانوا يسمونه (الزناتي خليفـة) تشبهاً بـأحد أبـطال قصة الـزير سالم وهي قصة شعبية مليئة بالمغامرات والبطولات!

ويومها كـانت كاميليـا تحلم بأن يحبهـا الزنـاتي خليفة الجـديد.. كانت تتخيل نفسها كل ليلة وهي بـين ذراعيه القـويتين الجبـارتين،

وهو يعتصرها.. وكثيراً ما حاولت كاميليا أن تلفت نظر الفتوة الزناتي، ولكن الفتوة الجبار لم يشعر يومها بوجودها، فقد كانت الراقصات المشهورات يتنافسن على حبه وهواه!

وذات يوم وقعت مشادة في صالة رتيبة وإنصاف رشدي، وانطلق الزناتي يحمل مقعداً، ويهوي به على الرؤوس، وتساقط نصف الزبائن، وهرب النصف الآخر أو اختفى تحت الموائد.. وتقدم شاب أصغر حجماً من الزناتي العملاق، واختطف المقعد من يده ثم لكم الزناتي على وجهه لكمة قوية، وترنح الزناتي، ثم دس يده في جيبه وأخرج سكينه المشهور. ولمعت السكين في ضوء ثريات الكهرباء الساطعة. وأصيب كل من بقي في الصالة بالرعب والهلع.. سوف يذبحه.. سوف يقتله.. سوف يمزقه إرباً إرباً.

وتصورت كاميليا وهي تختبىء تحت الموائد أن الشاب الصغير سيعدو هارباً من سكين الزناتي المشهورة التي كان يتحدث عنها شارع عماد الدين وكأنها قنبلة ذرية.. وفوجئت كاميليا بالشاب الصغير ثابتاً في مكانه.. وهمست كاميليا بصوت مذعور: اهرب! اهرب! اهرب!

ولكن الشاب الصغير اندفع نحو الزناتي العملاق، وقبض على يده التي تحمل السكين وضغط على اليد بقوة، وهو يلويها حتى سقطت السكين على الأرض!

وما كادت السكين تسقط على الأرض حتى تضاءل العملاق، وأصبح قزماً.. كانت كل شجاعته وبطولته وجرأته وعنفوانه داخل هذه السكين فلما سقطت السكين على الأرض، سقطت معها على الأرض الشجاعة والبطولة والجرأة والعنفوان!

وانهال الشاب الصغير بالضربات واللكمات والصفعات على امبراطور شارع عماد الدين. وإذا بالامبراطور الذي أرهب شارع الملاهي والمسارح والصالات يسقط على حذاء الشاب الصغير يقبله ويبلله بدموعه ويقول له «أبوس جزمتك. . ارحمني!».

وتوقف الشاب الصغير عن الضرب ومشى الامبراطور السابق يتعثر ويجفف الدم المتدفق من وجهه.

وفي تلك الليلة عشقت كاميليا هذا البطل الجديد. ولم تسأله عن اسمه إلا في صباح اليوم التالي. وعرفت أن اسمه (حمدان). . وعندما ظهر الزناتي بعد ذلك في شارع عماد الدين أصبح سخرية الراقصات ونكتة في أفواه الجرسونات وحكاية في أفواه باعة الفزدق والجبنة السميط!

وها هي كاميليا تشعر اليوم أن عبد المتعال هو (حمدان) الجديد وأن غالب بك هو (الزناتي) المحطم المهزوم!

ولكن حمدان استعمل قبضته، أظهر قوته، أثبت بطولته. وهي قد أحست بقوة عبد المتعال وهو خلف الستارة، وغالب فوق المقعد، بغير أن ترى لكمة واحدة في يد عبد المتعال. ولكنها شعرت بغريزتها كامرأة أن الرجل الضعيف هو الذي يجلس بجانبها فوق الكنبة، وأن الرجل القوي هو الذي يختفي وراء الستارة. إنها أحست ببطولة عبد المتعال وقوته وأنه هو العملاق الحقيقي، عندما سمعت غالب بك يشكو من أن عبد المتعال رجل صاحب مبادىء لا يمكن أن يشتريه!

إن هذه أول مرة تسمع فيها كلمة (مبادىء) في شقتها. . كانت تقرأ هذه الكلمة في الصحف، وتسمعها في الإذاعة، وكانت تتصور

أن هذه المبادىء واحدة من المستحيلات مثل الغول والعنقاء والخل الوفي!

ولم يخطر ببالها أن ترى في حياتها رجلاً صاحب مبادىء من لحم ودم، وأن هذا الرجل موجود فعلاً في شقتها!

وهزها قول غالب بك أن هذا رجل لا يمكن أن يشتريه.. كانت تتصور من قبل أن كل رجل يمكن شراؤه.. إننا نعيش في سوق كبير للرقيق. كل رجل له ثمنه. ترتفع وتنخفض أسعار الرجال طبقاً لنظرية العرض والطلب. ودائماً المعروض من الرجال أكثر من المطلوب.. وهكذا يبدو السوق وكأنه دائماً في حالة (أوكازيون)!

ها هي ذي ترى لأول مرة رجلاً (ليس للبيع)، رجلاً لا يموت، كلما تصور غالب بك أنه قضى عليه فوجىء به أمامه حياً من جديد!

المرارة والغيظ والحقد والكراهية التي كانت تملأ فم غالب بك وهو يتحدث عن استقامة عبد المتعال، عن تلفيق التهم الباطلة ضده، كانت ألواناً زاهية يرسم بها غالب بك صورة عبد المتعال في عيني كاميليا. وتمنت في تلك اللحظة لو أنها قبلت عبد المتعال.

وهزت كاميليا رأسها في أسى.. لقد كانت تتمنى أن تنام هذه الليلة بين ذراعي المبادىء!

□ □ □

وأحست كاميليا بيد تلمس كتفها وذعرت، ونظرت خلفها فوجدت عبد المتعال وهو يغطي نفسه بملاءة السرير البيضاء فقالت له في دهشة:

ـ أين كنت؟

- كنت في الحمام!
- ماذا كنت تفعل هناك؟
- لقد سمعت غالب بك يقول أنه قرر أن يقتلني!
- كنت أتصور أنك البطل الذي لا يخاف!
- أنا لم أدَّع أبداً أنني طرزان!
- إن غالب بك كان يرتعش خوفاً منك. . كان يتكلم عنك برعب. . أنت لم ترَ وجهه المذعور وهو يتحدث عنك لأنك كنت خلف الستارة!
- عرفت من نبرة صوته ومن طريقة حديثه أنه خائف وخائف جداً!
- إذن كيف تخاف أنت منه؟
- لأن الرجل الشجاع لا يخاف من رجل شجاع. يخاف دائماً من الرجل الجبان. . الخصم الشجاع يبارزني في وضح النهار، والعدو الجبان يغمد خنجره في ظهري في الليل. . إن غالب بك رجل خطر!
- ظننت أن البطل هو الذي لا يرى الخطر!
- أنا أولاً لست بطلاً! .
- لا. . أنت بطل!
- لنفرض أنني بطل، البطل يرى الخطر أكثر مما يراه الشخص الخائر القوى. . الفرق الوحيد بينهما أن البطل يرى الخطر ويقدم عليه، والشخص الضعيف يرى الخطر ويهرب منه!
- الدليل على أنك بطل أنك لم تهرب من الشقة!
- ذهبت إلى الحمام!
- أنت رجل غير عادي!
- أنا رجل عادي جداً. . كل ما هنالك أنني أقول (لا) لكل

شيء يخالف مبادئي!

- ولذلك فأنا أموت في مبادئك.. أنا مستعدة أن أفعل من أجلك ما تشاء.. أطلب مني ما تريد!

- بنطلوني!

- بنطلونك؟! بنطلونك؟! أنا نسيت حكاية البنطلون!

- أنا لم أنسها أبداً.. أين خادمتك؟

- لم تحضر بعد!

- كيف لم تحضر وقد مضى على غيابها أكثر من ساعة وأنت قلت إن الرفا سيرفو البنطلون في خمس دقائق!

- هل مللت البقاء معي؟

- بالعكس.. الجلسة معك ممتعة جداً.. ولكن يجب أن أذهب.. أنا مرتبط بموعد هام كما قلت!

- لن أعطيك بنطلونك إلا غداً صباحاً!

- هل جننت؟ لا يمكن أن أبقى هنا حتى الصباح!

- حتى الفجر فقط؟

- ولا دقيقة واحدة بعد الآن!

- كنت أتصور أنك ستحفظ جميلي.. بأنني لم أسلم رأسك إلى عدوك غالب بك!

- سأذكر لك دائماً موقفك العظيم!

- يا فرحتي بموقفي العظيم.. امض الليلة معي وانس هذا الموقف العظيم!

- إنني مرتبط، مرتبط بامرأة أخرى، سأتزوجها!

- لم أطلب منك أن تفك ارتباطك بها، كل ما طلبته ليلة واحدة!

- أنت قلت لغالب بك إنك سترقصين الليلة في الفندق؟

ـ سأتصل بالفندق وأعتذر عن عدم الذهاب. !

ـ وجمهورك؟

ـ أنت جمهوري هذه الليلة!

ـ وجمهوري أنا؟ المرأة التي أحبها وتنتظرني الليلة، ماذا أقول لها؟

ـ قل لها إنك مشغول، إنك في اجتماع هام!

ـ أنا لا أكذب أبداً؟

ـ إذا كنت لا تكذب فكيف تتزوج؟.. كذب الزوج هو الذي يصنع السعادة الزوجية!

ـ إن الصدق منجي!

ـ الصدق ينجيك في كل شيء ويغرقك في الحياة الزوجية!

ـ لو كذبت عليها فسأحتقر نفسي!

ـ ما دمت لا تريد أن تكذب عليها، فيمكنك أن تقول لها أنك منهمك في كشف أسرار غالب بك!

ـ هذا كذب!

ـ هذا صدق.. لأنني سأقول لك كل أسرار غالب بك!

ـ يمكنك أن تقوليها لي الآن!

ـ لا أستطيع أن أقولها إلا وأنت بجانبي!

ـ مستحيل! مستحيل!

ـ تصورت أنك مستعد أن تضحي بكل شيء في سبيل مبادئك!

ـ أنا مستعد أن أعطي عمري كله من أجل مبادئي!

ـ أنا لا أطلب عمرك كله.. أنا أطلب ليلة واحدة بس..!

ـ دعيني أخرج الآن.. أعدك أن أحضر إليك غداً؟

ـ أنا مستعدة أن أفعل لك الليلة كل شيء.. وأخشى أن أغير رأيي غداً! أنا رفضت اليوم من أجلك أن أسهر مع غالب بك..

وعندما تشرق الشمس غداً قد أندم.. فأنا امرأة نبيلة في النهار وسافلة في الليل!

ـ كنت أتصور أن ضمائر الناس تنام في النهار وتستيقظ في الليل!

ـ أنا ضميري بالعكس!

ـ ضميرك يشتغل في كباريه!

ـ أنا خنت غالب بك الآن معك.. ومستعدة أن أخونه الليلة معك مرة أخرى!

ـ خنته معي؟ أنا الذي كنت خلف الستارة!

ـ ليست خيانة المرأة للرجل الذي تعشقه بالجسد فقط.. خيانة القلب أشنع.. إنني كنت أحس طول وقت حديثي معه أنني أحدثك أنت.. أناجيك أنت.. ألم تفهم؟

ـ فهمت طبعاً..!

ـ وبعد هذا ترفض أن تمضي الليلة معي!

ـ مبادئي!

ـ ألا تستطيع أن تأخذ إجازة من مبادئك لمدة ساعة واحدة؟

ـ الرجل الذي يأخذ إجازة من مبادئه لمدة ساعة واحدة، لا يعود إليها أبداً!

ـ أنت رجل غريب!

ـ غرابتي أنني أقول (لا)!

ـ بدأت أشك في رجولتك!

ـ لا أستطيع أن أتخلى عن رجولتي لأثبت أنني رجل!

ـ لا بد أنني لا أعجبك!

ـ أنت تعجبينني.. وقد أعجبتني أكثر عندما سمعتك تدافعين عني أمام غالب بك وتحاولين أن تقنعيه بالعدول عن قتلي!

ـ وبعد أن دافعت أنا عن حياتك كلها. . تستكثر علي أن تعطيني ليلة واحدة؟ المفروض أن تتدلل المرأة على الرجل. . ولكن أنت أول رجل يتدلل على المرأة، وكأنك تتصور (أن التقل صنعة). . إنها غلطتي أنني جريت وراءك. . أنني صارحتك بأنني أريدك. . لو أنني عاملتك كسائر الرجال لكنت الآن راكعاً تحت قدمي، تتوسل مني قبلة واحدة بدلاً من أن تأبى أن تمضي معي ليلة واحدة. . أنا كنت مستعدة أن أتخلى عن علاقتي بغالب بك الذي ينْفق عليّ ألوف الجنيهات من أجل صداقتك أنت الذي لا تملك مليماً. . كنت مستعدة أن أترك رجلاً مشهوراً من أجل رجل مغمور. كنت مستعدة أن أطلق حياة الاستقرار من أجل رجل مطارد أعرف أن غالب بك قد يقتله غداً!

ـ ولهذا تصرين على أن أمضي معك الليلة. . لأنك لا تضمنين أن أعيش غداً!

ـ أنا أعلم أنك ستعيش، لأن الذي يقتل لا يقول إنه سيقتل. . وأنا أعرف أن غالب بك لا يستطيع أن يقتل فرخة!

ـ قد لا يستطيع أن يقتل فرخة، ولكنه للأسف، قتل رجلاً، هو المرحوم عبدالجواد أفندي وكيل الحسابات في الشركة، لأنه أراد أن يجيء لي ببعض المستندات التي تثبت الفساد الموجود في شركة مصر للبسكويت.

ـ أنا مستعدة أن أجيء لك بكل ما تريد من مستندات. . ومستعدة أن يقتلني غالب بك، بشرط أن تمضي الليلة معي!

ـ يجب أن أستأذن أولاً!

ـ تستأذن من غالب بك؟

ـ أستأذن المرأة التي أحبها!

ـ لو أذنت لك المرأة التي تحبها بأن تخونها معي فسوف أزهد فيك . . لذتي أن أنتزعك منها، الوردة التي أقطفها بيدي من شجرة الورد أجمل ألف مرة من الوردة الملقاة على الأرض. . إنني لا أحب الرجل السهل! أنت أعجبتني الآن لأنك رجل صعب، لأنك رجل مستحيل، ويوم تحصل على الإذن من صاحبتك ستصبح رجلاً سهلاً لا طعم له. . نحن نسكر من الخمر لأنها ممنوعة، وإذا أباحوا الخمر، وحرموا الماء، أسكرنا الماء وأصبحت الخمر بلا طعم!

□□□

وسمع عبد المتعال خطوات قادمة نحو الغرفة التي يجلس فيها مع كاميليا، فاضطرب وسمع صوت الخادمة تقول:

ـ ستي . . ستي . . لقد أحضرت البنطلون . .

وتهلل وجه عبد المتعال، وامتقع وجه كاميليا . . وأمسكت البنطلون بيدها، ثم دفعت به إلى الخادمة وهي تقول:

ـ الصناعة سيئة . . الخياطة واضحة . . اذهبي بالبنطلون للرفا، وقولي له أن يعيد رفيه من جديد!

وتشبثت يدا عبد المتعال بالبنطلون وصاح في ذعر:

ـ أنا راض به كما هو!

وصاحت كاميليا في الخادمة تنهرها: قلت لك خذي البنطلون!

وراحت الخادمة تشد البنطلون من ناحية، وعبد المتعال يشده، من الناحية الأخرى، وخشي عبدالمتعال أن يتمزق البنطلون بين الشد والجذب فنظر إلى كاميليا متوسلاً وهو يقول:

- **أقسم لك بشرفي أنني سأعود إليك غداً!**
- لا أصدق الرجل عندما يقسم بشرفه وهو خالع بنطلونه!
- **دعيني أرتدي البنطلون وأقسم لك!**
- وإذا رفضت صاحبتك أن تسمح لك بالحضور؟
- **لن ترفض.. إنها متحمسة لقضيتي وتؤمن بها.. وعندما سأقول لها إنني قادم إليك لتساعديني في قضيتي فسوف تقبل.**
- لن تقبل!!
- **أنا أعرفها جيداً!**
- وأنا أعرف كل نساء العالم!
- **سوف أثبت لك أنها امرأة تختلف عن كل نساء العالم، ولولا ذلك لما أحببتها!**

وأمرت كاميليا الخادمة بأن تترك لعبد المتعال البنطلون، وأسرع عبد المتعال إلى الحمام، وأرتدى البنطلون وعاد بعد دقيقة يتحسس بنطلونه ويقول:

- **الآن أقسم لك بشرفي أنني سأعود إليك غداً!**
- وستبيت عندي!
- **سأبيت عندك!**
- هل تقسم على ذلك بشرفك؟
- **أقسم ببنطلوني!**

□□□

وأفلتت من فم سلوى وهبي آهة خافتة عندما رأته يدخل عليها وقالت:

- أين كنت؟ لقد تصورت أنك مت.. وكدت أتصل بشرطة النجدة!

ـ **كنت سأموت فعلاً؟**

ـ ظننت أنك هربت من موعد نهاية الإنذار!

ـ **أنت تعلمين أنني لا أهرب من الحياة.. إنني هربت من الموت.. كادت تدوسني سيارة!**

ـ لا بد أنه حادث مدبر من غالب بك.. أراد أن يدهسك بسيارة، كالسيارة، التي دهست عبدالجواد وكيل الحسابات!

ـ **لم تكن سيارة غالب بك.. وإنما سيارة عشيقته!**

ـ كاميليا!

ـ **نعم كاميليا!**

ـ أراهن أنها أرادت أن تدهسك لحساب عشيقها غالب بك!

ـ **بالعكس.. لقد فوجئت بأنها امرأة نبيلة!**

ـ نبيلة لأنها حاولت أن تقتلك بسيارتها؟

ـ **لأنها ألحت أن تحملني بسيارتها بعد سقوطي على الأرض!**

ـ حملتك إلى المستشفى؟

ـ **لا.. إلى بيتها!**

ـ لا أعرف أن في بيت كاميليا مستشفى أو فرعاً لجمعية الإسعاف!

ـ **لقد تمزق بنطلوني وكان في حاجة إلى الرفا**

ـ وهل في بيتها رفا؟

ـ **تحت بيتها محل رفا..**

ـ وخلعت بنطلونك أمامها في محل الرفا؟

ـ **لا.. خلعت بنطلوني في بيتها. وأرسلت هي البنطلون للرفا!**

ـ شيء ظريف.. وماذا فعلت بعد أن خلعت البنطلون؟

ـ **لففت ساقي بملاءة بيضاء!**

ـ ملاءة سرير؟

- **نعم ملاءة سرير!**
- كنت طبعاً جالساً بجوارها؟
- **لا.. كنت خلف الستارة!**
- شيء عظيم.. شيء رائع!
- **إنها لم تكن خلف الستارة!**
- أين كانت؟
- **كانت جالسة على كنبة!**
- هل تظن أنني طفلة ساذجة أو امرأة بلهاء؟ هل تريد أن تطلب مني أن أصدق أن الراقصة كاميليا كانت جالسة على كنبة وتتركك أنت خلف الستارة وخاصة وأنت بغير بنطلون!
- **كان من المستحيل أن أجلس بجانبها، لأن رجلاً آخر كان يجلس بجوارها!**
- ومن هو هذا الرجل؟
- **غالب بك!**
- يا خيبة آمالي فيك! تختفي خلف الستارة، بينما عدوك يعانق امرأة أمامك.. المقصود بهذا هو إذلالك.. هو أن يحولك غالب بك من قائد مصلح إلى دلدول!
- **أقسم لك أنه لم يحدث بينهما أي شيء!**
- لعلهما كانا يتحادثان في الشعر والأدب!
- **كان يقبلها فقط!**
- فقط؟
- **نعم.. فقط!**
- أي نوع من الرجال أنت؟ كيف تقبل على كرامتك أن يضعك غالب بك في هذا الوضع المزري الشائن!
- **إنه لم يضعني.. أنا الذي وضعت نفسي خلف الستارة!**

ـ هذا أشنع وأفظع . . كأنك أنت الذي تبرعت أن تكون شاهد هذه المظاهرة الغرامية!

ـ إنه لم يعرف أنني خلف الستارة لقد فوجئنا بحضوره، وخشيت كاميليا أن يظن بها السوء، فاقترحت أن أختبىء خلف الستارة!

ـ طبعاً القديسة الطاهرة، العفيفة كاميليا تخشى أن يشك فيها عشيقها المغفل عندما يجد معها رجلاً في شقتها!

ـ كنا في الصالة . . ننتظر الخادمة حتى تحضر البنطلون من محل الرفا ودق الجرس فجأة، ورأت كاميليا غالب بك من العين السحرية بالباب وأرادت أن تخفيني في مكان. ولم تجد إلا أن تخفيني خلف الستارة!

ـ وبقيت ساعتين خلف الستارة؟

ـ بقيت نصف ساعة فقط، حتى انصرف غالب بك!

ـ وأمضيت الساعة والنصف الباقية معها!

ـ لا، أمضيتها في الصالة!

ـ هل تظن أنني مغفلة حتى أصدق هذه القصة المختلقة؟ إن حكايتك المكذوبة لا يقبلها عقل . . سأقول لك الحقيقة التي لا تريد أن تعترف بها! لم تصدمك سيارة كاميليا، ولم تقع على الأرض وإنما وقعت في هواها . . ولم ينقطع بنطلونك . . وإنما هي التي قطعت بنطلونك . . أنا أعرف أنها امرأة مثيرة عندما يعجبها الرجل تتحول إلى امرأة متوحشة، فهي لم تنتظر حتى تخلع البنطلون، بل جذبتك منه وتمزق في يدها!

ـ لنفترض أن روايتك هي الصحيحة!

ـ لا تفترض، إنها هي الحقيقة!

ـ إن بنطلوني مقطوع من الخلف. . نفس الحكاية التي حدثت لسيدنا يوسف عندما اتهمته زليخا امرأة فرعون بأنه أراد أن يغتصبها، وعندما وجد فرعون أن ثوب يوسف مقطوع من الخلف أصدر قراره ببراءة سيدنا يوسف!

ـ أنت لست سيدنا يوسف. . ولا كاميليا هي زليخا. . إخلع هذا البنطلون فهو دليل الجريمة!

وتردد عبد المتعال في أن يخلع البنطلون!

وضحكت سلوى ضحكة عصبية وقالت:

ـ لماذا تتردد في خلع البنطلون؟ إنها ليست أول مرة تخلع فيها البنطلون!

ـ لا أرى داعياً لخلع البنطلون!

ـ لو كنت ترددت في أن تخلع البنطلون أمام كاميليا لما وضعتك في هذا الوضع المزري خلف الستارة. . قلت لك اخلع البنطلون!

واستسلم عبد المتعال أمام النظرات الغاضبة، وخلع البنطلون وسلمه إلى سلوى. .

ولكن سلوى لم تنظر إلى البنطلون وإنما صرخت وهي تنظر إلى ظهر عبد المتعال:

ـ هذه بصمات قبلات. . !

ـ قبلات؟!

ـ نعم. . يمكنك أن تراها في مرآة الدولاب!

واتجه عبد المتعال في دهشة وذهول نحو المرآة، ونظر إلى ظهره فوجد علامات زرقاء وحمراء في لحمه، وابتسم وقال:

ـ هذا ليس أثر قبلات. . إنها رضوض من أثر رفرف السيارة!

ـ رفرف السيارة؟! هذه آثار بصمات كاميليا. . أنا أعرف أسنانها جيداً!

الفصل الخامس والأربعون

ضرب عبد المتعال محجوب كفاً بكف، وهو يسمع المرأة التي يحبها تنهال على رأسه بالاتهامات الظالمة.

ها هي ذي حبيبته سلوى وهبي تضرب الأرض بقدمها وتؤكد أنه خانها مع الراقصة كاميليا. . هذه مسألة لا تقبل مناقشة، مسألة بديهية مثل واحد زائد واحد يساويان اثنين!.

ها هي ذي تصف الخيانة بأدق تفاصيلها، وكأنها هي سلوى وهبي التي كانت خلف ستارة كاميليا وسمعت بأذنيها كلمات الهوى التي تبادلها عبد المتعال مع كاميليا، ورأت بعينيها الجريمة الكاملة من أولها إلى آخرها!

لقد تعود عبد المتعال أن يتحمل ظلم الحكومة التي يكرهها، ولا يستطيع أن يتحمل ظلم المرأة التي يحبها. ظلم العدو يؤلم، وظلم الحبيب يميت، سياط الشاويش عبد الجبار التي كانت تنهال عليه وهو في السجن كانت تمزق جسده، ولسان حبيبته يمزق روحه.

كان يتصور أن من الممكن أن يظلمه الناس جميعاً ويجد العدل عند سلوى وهبي. كان من الممكن أن تسيء الدنيا كلها فهمه ما عدا امرأة واحدة من المستحيل ألا تفهمه. .

هذه المرأة التي تسمع كلماته قبل أن ينطق بها، وتقرأ ما في عينيه وهو مغمض العينين.

هذه المرأة آمنت بقضيته وتحمست لها وتحملت عذابه وتشرده وقاسمته مغامراته وفشله..

هذه المرأة التي أحست به وتجاوبت معه منذ لقائهما الأول!

ماذا جرى لها؟ ليست هذه سلوى وهبي التي عرفها وأحبها. سلوى امرأة تتفجر بالذكاء. كانوا يقولون أن أذكى امرأتين في مصر هما أم كلثوم وسلوى وهبي، فأين ذهبت أذكى امرأة رقم اثنين؟

كان يبهره فيها أنها امرأة لماحة.. لم تتخرج في جامعة وحصلت من مدرسة الحياة على أكبر درجاتها. الوسط الفني في بلادنا هو بحر غدار، متلاطم الأمواج، مليء بالعواصف ومن يستطيع أن يسبح فيه لا يغرق في أعظم المحيطات، فما بال سلوى غرقت في شبر ماء!

الإنسان يموت بالسكتة القلبية، فهل من الممكن أن يموت ذكاء المرء بالسكتة القلبية؟

ما أصغر عقل المرأة عندما تعشق، وتغار على الرجل الذي تحبه. عندما تدهم الغيرة قلب العاشقة يصبح عقل أذكى امرأة في العالم في حجم أغبى امرأة في العالم. تتساوى عقول عالمات الذرة والخادمات.. لعل في قلب المرأة شرياناً اسمه شريان الغيرة متصلاً بشريان العقل مباشرة، فإذا انفجر شريان الغيرة تعطل العقل عن العمل!

قلوب النساء لا تتغير بتغير مراكزهن الاجتماعية، أو درجاتهن

العلمية، أو ثقافتهن، أو تجربتهن في الحياة. . في قلوبهم جميعاً نفس المخاوف، ونفس الأوهام. درجة الدكتوراه قد تجعل من المرأة عـالمة في الكيمياء وتستحق جائزة نوبل، ولكنها في حبها للرجل تنسى أنها حـاملة دكتوراه أو حـاصلة على جـائزة نـوبل. كـل ما تـذكـره أنها امرأة. . امرأة فقط. أنثى لها عقل الأنثى. . وكلما كـبر حبها صغـر عقلها!

سلوى وهبي، ملكـة الإغراء التي تقف عـلى المسرح تمثـل أدوار الذكاء والدهاء، أستاذة العشق والهوى والغـرام، صاحبـة التجارب العديدة في الرجال تتحول فجأة إلى عاشقة غبيـة، كتلميذة مـراهقة تتـوهم أنها ضبطت جـارها التلميـذ ينـظر إلى نـاحيـة بنت الجـيران الأخـرى، فتقيم مأتمـاً في قلبها للحب الـذي طعنـه حبيبهـا الغـادر بسكين في ظهره، وقضى عليه عندما تطلع إلى بنت الجيران!

هـا هي ذي سلوى تفعل نفس الشيء، تخلق من الـوهـم قضية، ومن حادث تصادم بسيط جريمة خيانة عظمى!

أيكون قد أخطأ عندما ترك سلوى تحبـه بجنون؟! المـرأة عندمـا تعشق رجـلاً بجنـون تشبـه الحـاكم الـظالم الـذي يـأخـذ النـاس بـالشبهات. . لا وقت عنـدهـا للتحقيق والاستجـواب والمحـاكمـة والاستئنـاف والنقض والإبرام، فهي تصـدر الحكم أولاً، وتنفذ في الرجل الذي تحبه حكم الإعدام، وبعد ذلك تبدأ في التحقيق!

والحـاكم الظالم عـاشق مجنون. . يعشق السلطة، يغـار عليها لا يطيق منافساً، الشبح يتوهمه جيشاً جراراً، والكلمة العابـرة يتوجس منها باعتبارها مؤامرة محبوكة الأطراف!

وهـو يتوهم أن كـل الناس يتمنـون عشيقته ويسعـون في الظلام

إليها، ويحاولون الاستيلاء عليها. . الفرق الوحيد بين العاشقة والحاكم الظالم أن العاشقة لها أظافر تخربش بها وجه الحبيب الخائن، والحاكم الظالم له سيف يقطع به رقاب الذين يتوهم أنهم يتنافسون في عشقه وهواه!

□ □ □

وعض عبد المتعال على شفته حزناً على سوء حظه. اكتشف فجأة أنه يتمتع «بالظلم أبيل» مثل «السكس أبيل». . فيه جاذبية عجيبة تجذب الظلم. . شركته تظلمه وحكومته تظلمه. الناس الذين رأوه في الشارع تحت عجلات سيارة الراقصة كاميليا ظلموه لله في لله. . والمرأة التي لم يشك في إخلاصها لحظة واحدة، التي داس على ماضيها كله مؤمناً بأنها تطهرت بحبها له، هذه المرأة نفسها تظلمه وتتهمه بالخيانة!

وأحس عبد المتعال أن قلبه انسحق بهذا الاتهام الظالم.

لو كانت تحبني حقيقة لأحست بالموقف النبيل الذي وقفته منذ ساعة واحدة. عندما قاومت فتنة كاميليا الصارخة. عندما صمدت أمام إغرائها الجبار!

كان يمكن أن أعطيها ساعة الحب التي ألحت في طلبها. كان يمكن أن أخفي عن سلوى أنني ذهبت إلى شقة كاميليا، وأنني خلعت بنطلوني. . كان يمكن أن أدعي أن السيارة التي كانت صدمتني كان يقودها رجل. . لو أنني قلت هذا لأخذتني سلوى بين ذراعيها، وضمدت جراحي، وقبلتني في مواقع الكدمات والرضوض، حتى تلتئم جروحي بأسرع مما تفعل صبغة اليود.

ولكن مصيبتي أنني لا أكذب.. مبادئي تحتم علي أن أقول الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء إلا الحقيقة!

في مدينة الكذابين تصبح الحقيقة جريمة.. في الإظلام التام أثناء الغارات، يصبح إشعال عود ثقاب تعاوناً مع الأعداء.. أصبح الصدق في هذه الأيام رذيلة ووقاحة وقلة حياء!

كل مصائبي في حياتي صراحتي. لو كذبت ونافقت وتساهلت في مبادئي لما دخلت السجن، ولما فقدت بيتي وزوجتي ووظيفتي وحريتي، ولما حكم علي بالإعدام المدني، أعيش بلا اسم، وبلا بطاقة تحقيق شخصية!

عندما يسير أهل المدينة على رؤوسهم يصبح السائر على قدميه رجلاً شاذاً.. المبصر الوحيد في زاوية العميان يصبح رجلاً مرذولاً خارجاً عن الأصول والنظام!

لماذا لا أمشي على رأسي كما يفعل سائر الناس. لماذا لا أكذب كما يكذب باقي الناس.. لماذا لا أغمض عيني، ما دامت العيون المفتوحة تؤذي حكام مملكة العميان!

ووضع عبد المتعال يده على رأسه يتحسس عقله، فاطمأن إلى أن عقله لا يزال في رأسه وعاد يقول «لا» من جديد!

□ □ □

وفجأة وجد عبد المتعال أصبع سلوى وهي تندفع نحوه وهي تصرخ في وجهه وتقول:

ـ اعترف!

ـ أعترف بماذا؟

ـ بأنك خنتني مع كاميليا!
ـ صدقيني . . هذا غير صحيح .
ـ هل تريد أن أصدقك أنت وأكذب عيني؟!
ـ هل رأيتني بعينيك أخونك مع الراقصة كاميليا؟
ـ يكفي أنني رأيت بصمات شفتيها على ظهرك!
ـ أقسم لك بأن هذا لم يحدث!
ـ لا بد أنك وضعت كمامة على وجهها كما يفعلون مع الكلاب . وإذا لم تكن هذه هي بصمات شفتيها، فما رأيك في هذه البقع الحمراء على ظهر القميص؟ هل كان رفرف السيارة يضع «روج» على شفتيه؟!
ـ هذه آثار دمي!
ـ دمك؟ أنا أعرف الفرق بين الدم البشري وأحمر شفايف ماكس فاكتور!
ـ وعرفت أيضاً نوع أحمر الشفايف؟!
ـ كل امرأة خبيرة في أنواع أحمر الشفايف!
ـ خذيني إلى الطبيب الشرعي وسيقول لك أن هذا دم بشري!
ـ قلبي هو الطبيب الشرعي، وقلبي لا يكذب!
ـ أؤكد لك أن هذا دم بشري . . وأنا مستعد أن أذهب فوراً معك إلى الطبيب.
ـ حتى لو أكد الطبيب أن هذا دم بشري، فهذا لا يبرىء ساحتك. بل يثبت التهمة أكثر وأكثر!
ـ يثبت التهمة؟
ـ نعم . . ألم أقل لك أنني أعرف أن كاميليا امرأة متوحشة! إنها أسالت دمك وهي تنهش لحمك! . . وهذا يثبت أن اللقاء كان حاراً جداً!

ـ يظهر أن مصلحتي أن تكون هذه بصمات الروج من شفتي كاميليا!

ـ مصلحتك أن تعترف بأنك خنتني. . انتهزت فرصة أنني حامل، لم تستطع أن تنتظر ثمانية أشهر حتى أضع ولدي. انتهزت أول دورة مياه قابلتها لترتكب فيها هذه الخيانة!

ـ هل كاميليا دورة مياه؟

ـ نعم. . ودورة مياه عمومية. . هأنتذا تدافع عنها!

ـ أنا دافعت عنها؟

ـ كنت أتصور أنك تختلف عن كل الرجال، فإذا بك مثلهم تماماً. . كلكم لا تعرفون الإخلاص والوفاء. . كلكم تتركون الجنة التي تعيشون فيها لتذهبوا إلى أول دورة مياه!

ـ أنا متمسك بالجنة التي اخترتها!

ـ إذا كانت حواء استطاعت أن تخرج سيدنا آدم من الجنة، وهو أحد الأنبياء، أفلا تستطيع الراقصة كاميليا أن تخرجك من جنتك. . وأنت لست ملاكاً ولا نبياً؟!

ـ أنا لست ملاكاً ولا نبياً. . ولكني رجل ذو مبادىء!

ـ يبدو أن مبادئك كانت في بنطلونك. . وعندما خلعت البنطلون أصبحت بلا مبادىء!

ـ أؤكد لك أنني احتفظت بمبادئي عندما خلعت بنطلوني.

ـ الرجل الذي لا يستطيع أن يحتفظ ببنطلونه لا يستطيع أن يحتفظ بمبادئه!

ـ أنت تعلمين أنني لا أكذب أبداً!

ـ إذا كنت تحبني حقيقة فاعترف أنك خنتني. . وتأكد أنني سوف أسامحك.

ـ كيف تسامحيني إذا خنتك؟

ـ لأنني أحبك!

ـ **كنت أظن أن المرأة التي تحب قليلاً تغفر كثيراً. والمرأة التي تحب كثيراً لا تغفر أبداً!**

ـ إذا اعترفت بأنك خنتني فمعنى ذلك أنك نادم على جريمتك.. وهذا دليل على أن توبتك صادقة.

ـ **أنا لم أرتكب جريمة حتى أعترف بها.**

ـ كل الناس يعترفون بجرائم لم يرتكبوها!

ـ **هذا يحدث أثناء التعذيب!**

ـ تلومني يا عبد المتعال لأنني لم أعذبك؟

ـ **إن ما تفعلينه بي الآن هو أحد أنواع التعذيب!**

ـ إذن اعترف.. سوف أعتبر جريمتك السابقة الأولى.. والحكومة تنوي أن تلغي السابقة الأولى!

ـ **أنا بريء!**

ـ أنت اعترفت!

ـ **أنا لم أعترف بشيء!**

ـ أنت اعترفت بنفسك بأنك خلعت البنطلون في شقة كاميليا!

ـ **ولم أعترف بالتهمة الثانية!**

ـ الإعتراف بالتهمة الأولى يؤكد التهمة الثانية!

ـ **أنت ظالمة يا سلوى مثل حكومة شفيق باشا فتحي!**

ـ لكي أثبت أنني لست ظالمة، سوف أتنازل عن تهمة الخيانة العظمى إذا اعترفت بأنك ارتكبت مخالفة بسيطة!

ـ **مخالفة مرور!**

ـ لا.. أبسط من هذا.. يكفي أن تعترف بأنك قبلت وعانقت كاميليا فقط لا غير!

ـ **فقط لا غير!**

ـ هيا يا حبيبي، اعترف!

ـ **أنا لا قبلتها ولا عانقتها!**

ـ لو كنت تحبني حقاً لاعترفت هذا الاعتراف البسيط لتريحني!

ـ **معك حق. . الحقيقة متعبة جداً، والكذب مريح جداً. . أنني لم أرتكب إلا جريمة واحدة!**

ـ وما هي هذه الجريمة؟

ـ **إنني خلعت بنطلوني!**

ـ ولماذا خلعت بنطلونك؟

ـ **لست وحدي الذي خلع بنطلونه. شعوب كثيرة قبلي خلعت بنطلوناتها. . دساتير الشعوب هي بنطلوناتها، تحفظ كرامتها، تستر عوراتها، ويجيء حاكم مثل شفيق باشا فتحي ويقول للشعب إن بنطلونك مقطوع، ويحتاج إلى «رفا». . اعطني بنطلونك أيها الشعب خمس دقائق فقط لأرفوه وأعيده إليك جديداً جميلاً، أنيقاً، خالياً من البقع، خالياً من الرقع، خالياً من العيوب، ويخلع الشعب الطيب البنطلون. ويسلمه إلى الحاكم. ويأخذه الباشا الرفا. وبدلاً من أن يبقيه عنده خمس دقائق يحتفظ به خمس سنوات. حيناً يقصره، وحيناً يطيله. مرة يوسعه ومرة يضيقه. . ويعيش الشعب المسكين سنوات طويلة بلا بنطلون. . أي بلا دستور، وبلا عدالة، وبلا حرية وبلا حقوق. . ثم يفاجأ الشعب بالباشا وهو يرتدي البنطلون، ويتمتع بكل الحريات وكل الحقوق وكل السلطات، ويبقى الشعب عارياً من كل حرية وسلطة وكرامة. . ولهذا فإنني أفضل البنطلون الممزق والبنطلون المقطوع والبنطلون الضيق، والبنطلون الواسع المرهره، على الحياة بغير بنطلون!**

ـ هأنتذا كعادتك هربت من مشكلتك إلى مشكلة البلد!

ـ مشكلتي هي مشكلة البلد!

ـ نحن الآن لسنا في حكاية بنطلون الشعب أو بنطلون شفيق باشا فتحي.. نحن الآن في حكاية بنطلونك أنت!

ـ ما حدث لي هو نفس ما حدث للشعب المصري.. منذ أن خلع الشعب بنطلونه توالت عليه المصائب والنكبات.. محمد محمود باشا جرد هذا الشعب من بنطلونه في سنة ١٩٢٨ ثلاث سنوات قابلة للتجديد. وإسماعيل صدقي باشا أخذ من الشعب في سنة ١٩٣١ بنطلونه الطويل وأعطاه بنطلوناً قصيراً مثل بنطلونات الأطفال.. وتوفيق نسيم باشا جاء إلى الحكم في سنة ١٩٣٥ وأخذ البنطلون القصير والبنطلون الواسع والمرهره، وترك الشعب المصري عارياً بلا بنطلون!

ـ وبعد ذلك جاءت كاميليا باشا وجردتك من بنطلونك!

ـ لأنني رجل طيب مثل الشعب المصري!

ـ الحكام الذين جردوا الشعب من بنطلونه، قيدوه ثم انتزعوا بنطلونه، أما دولتك فقد خلعت بنطلونك طائعاً مختاراً.. هل قيدتك كاميليا؟ هل استعملت معك العنف؟ لماذا لم تقاوم؟

ـ قلت لها أنني لا أريد أن أخلع البنطلون!

ـ المقاومة بالكلام هي أحد أنواع الاستسلام!

ـ ماذا كنت تريدين مني أن أفعل؟ هل أصرخ مستغيثاً بالجيران أو أطلب شرطة النجدة؟

ـ كنت تستطيع أن تصفع كاميليا على وجهها وتخرج من البيت..

ـ لم أكتشف حقيقة نواياها إلا بعد أن خلعت البنطلون!

ـ بعد أن خلعت البنطلون فقدت قدرتك على الحركة!

ـ الحقيقة أنني أخطأت فقط عندما ركبت سيارة كاميليا.

ـ هذا ليس خطأ، إنه جريمة!

ـ إنه قضاء وقدر. عندما صدمتني السيارة وسمعت أصوات المارة وهي تتهمني ظلماً وعدواناً وجدت نفسي أقبل ركوب سيارتها عندما عرضت علي الركوب..

ـ لماذا لم تقل «لا» كعادتك؟

ـ يظهر أن الساقطين على الأرض لا يستطيعون أن يقولوا «لا».. يجب أن نقف على أقدامنا لكي نقول «لا»!

ـ وعندما دعتك كاميليا لتركب السيارة كنت ساقطاً على الأرض أم كنت واقفاً على قدميك؟

ـ كنت واقفاً على قدمي.. ولكني كنت أعرج!

ـ وليس على الأعرج حرج!

ـ عذري أنني رأيت الموت قبل ذلك بدقائق!

ـ ورأيت الحياة في فتنة كاميليا!

ـ لم أر في تلك اللحظة جمالها. كل ما رأيته هو الشرطي الذي كان يريد أن يصحبني إلى قسم الشرطة.. كنت أريد في تلك اللحظة أن أختفي من هذا المكان في أسرع وقت، ولعل هذا هو السبب الذي جعلني أقبل دعوة كاميليا إلى ركوب سيارتها!

ـ ألم تفكر في تلك اللحظة في أن ركوبك في سيارة امرأة سيئة السمعة يسيء إلى سمعتك؟

ـ لم تكن لي سمعة في تلك اللحظة.. الناس في الشارع أجمعوا على أنني نصاب ومحتال ومجرم!

ـ أفضل أن يقول الناس أنك نصاب ومحتال ومجرم على أن يقولوا أنك عشيق الراقصة كاميليا.. وإذا كنت لم تفكر في سمعتك، فهل

فكرت في سمعتي أنا؟ ماذا سيقول هؤلاء الناس عندما يعرفون أنني تزوجتك؟ سيقولون أنها تزوجت عشيق الراقصة كاميليا. . سيقولون أنني خطفتك منها. . سيقولون أنني أخذت رجلاً استغنت عنه الراقصة كاميليا. إنك وضعت سمعتي في الطين. . إنك أسقطتني في عين الرأي العام!

ـ هل الرأي العام هو العشرة الأشخاص الواقفون في شارع فؤاد؟!

ـ يكفي أن ينشر عشرة أشخاص إشاعة عن فنانة في الصباح، لترددها الملايين في المساء. . وتصور ماذا سيقول ابني عندما يعرف أن والده كان عشيقاً للراقصة كاميليا، وخلع بنطلونه في بيتها؟!

ـ إن كاميليا وحدها هي التي رأتني بغير بنطلون؟

ـ وهل تظن أن كاميليا ستسكت عندما تعلم أنني تزوجتك؟ إنها ستمر على كل النقاد الفنيين وتروي لهم القصة، وتضيف إليها وتزيد، وتنشرها المجلات الفنية، وأصبح أنا، سلوى وهبي، فضيحة على كل الشفاه!

ـ أعترف أنني أجرمت عندما ذهبت إلى شقتها، وأجرمت عندما خلعت بنطلوني!

ـ بدأت أعتقد أنك عدت تحبني. . أكمل باقي الاعترافات!

ـ هذه هي كل الإعترافات!

ـ ألا تريد أن تجاملني؟

ـ لا أريد أن أجاملك على حساب الحقيقة.

ـ لو اعترفت أنك خنتني فسوف أحكم لك بالبراءة!

ـ ما أشبهك بالمحاكم الاستثنائية التي كانت تحكم بالإعدام على متهم لأنه قال الحقيقة، وتحكم على متهم بالبراءة لأنه قال كل

الأكاذيب التي تريدها المحكمة!

ـ أنا أموت في الأحكام الإستثنائية!

ـ هذه هي أحكام الهوى!

ـ الحب ليس فيه قانون، وليس فيه دستور!

ـ وليس فيه بنطلون!

ـ إنني ما زلت أشك في أنك مجرم!

ـ في القانون الشك يفسر لمصلحة المتهم.

ـ وفي الحب الشك ضد مصلحة المتهم!

ـ هذه هي القاعدة في عصور الظلم والاستبداد!

ـ عندما تستبد العاشقة بالرجل الذي تهواه فمعنى ذلك أنها تعبده!

ـ إنني أفضل الديمقراطية في الحب. أنا رجل هارب من الطغيان فكيف أعشق الطغيان!

□ □ □

وجلست سلوى على ركبتي عبد المتعال، وطوقته بذراعيها وقبلته وهي تقول:

ـ هل رأيت ظالماً يجلس على ركبتي مظلوم؟

قال:

ـ عادة يجلس الظالم فوق أنفاس المظلوم!

ـ إنني عفوت عنك يا حبيبي!

ـ عفو شامل؟

ـ عفو صحي!

ـ ولن تذليني بعد اليوم بحكاية البنطلون؟

ـ لن أذكر أبداً هذه الفضيحة إلا إذا رأيت بنطلوناً!

ـ معنى هذا أن تتذكري هذه الفضيحة كلما رأيتني!

ـ الحل الوحيد ألا أراك أبداً في بنطلون!

ـ وما هي فوائد هذا العفو الصحي؟

ـ فوائده أنني أجلس فوق ركبتيك وأقبلك!

ـ وتذبحينني بسكين الغيرة!

ـ هذه ليست طعنات سكين. . إنها شكة دبوس!

ـ الجلاد دائماً لا يحس بألم المذبوح!

ـ أنا أحسست بك وأنت تتعذب من اتهاماتي الظالمة. . وقد أحببتك أكثر وأنت تتعذب. آلامك التي رأيتها في عينيك أثارتني، وهزتني، وكأنها قبلات وضمات!

ـ إنك تذكرينني بالأمبراطورة كاترين قيصرة روسيا المشهورة. كانت إذا أعجبت بأحد الشبان من حراسها استدعت كبير الياوران وأمرته بأن يضرب الشاب الذي أعجبها بالسوط، بعد أن يجردوه من ثيابه، حتى إذا رأت الأمبراطورة الدم ينزف من الحارس، صحبته إلى جناحها!

ـ تقصد أنني امرأة سادية؟

ـ أقصد أنني لاحظت دائماً أن الظالم ينتشي من منظر دم المظلوم المسفوك. . دم المظلوم هو الخمر التي تسكر الظالم!

ـ وهذا هو السر في أن كاميليا أراقت دمك في قمة نشوتها!

ـ عدنا مرة أخرى إلى حكاية كاميليا؟

ـ أنت ذكرتني بها عندما تحدثت عن الدم!

ـ هذه مصيبة. . البنطلونات تذكرك بكاميليا. . الدم يذكرك بكاميليا. السيارات تذكرك بكاميليا. الشوارع تذكرك بكاميليا. البلد يذكرك بكاميليا.

ـ وأنت تذكرني بكاميليا.

ـ وماذا أفعل لتنسي كاميليا؟

ـ تصدمك سيارة أخرى تقودها راقصة أخرى!

ـ وإذا مت في هذا الاصطدام الجديد؟

ـ أقيم لك ضريحاً في قلبي!

ـ يا فرحتي!

ـ أنت لا تفهم شعور المرأة العاشقة عندما تعلم أن الرجل الذي تحبه كان بين ذراعي امرأة أخرى!

ـ لم أكن بين ذراعيها!

ـ يا ليتك كنت بين ذراعيها ولست في شقتها!

ـ ماذا تفعلين لو كنت وعدتها أن أذهب إليها غداً؟

ـ كنت أطلق عليك الرصاص!

ـ إنها وعدتني بأن تجيء لي بمستندات جديدة من غالب بك!

ـ المستندات التي سرقتها معك من خزانة الشركة تكفي!

ـ ربما تدعم المستندات الجديدة ما لدينا من مستندات قديمة!

ـ أفضل أن تخسر قضيتك، وتعيش بلا اسم، على أن تذهب إلى بيت كاميليا مرة أخرى!

ـ أنت في مسرحية «غادة الكاميليا» كنت تقولين: المرأة التي تحب، تضحي بكل شيء من أجل الرجل الذي تهواه!

ـ هذا كلام أقوله فوق خشبة المسرح ولا أقوله في بيتي.. إذا كانت كاميليا هي التي ستقضي على الرشوة والفساد، فإنني سوف أصبح من أنصار الرشوة والفساد. إن القضية الشريفة لا يدافع عنها إلا الشرفاء.. وامرأة فاجرة مثل كاميليا، لا تكاد ترى رجلاً حتى تشتهيه ليست هي المرأة التي تعتمد عليها في أن تقف معك في معركة ضد الطغاة. هي باعت غالب بك من أجل ساعة واحدة

تمضيها بين ذراعيك، وسوف تبيعك من أجل يوم تمضيه بين ذراعي رجل آخر!

ـ معارك الشرف لا تحارب إلا بأسلحة شريفة.. ولهذا يكسب الطغاة كل المعارك!

ـ إلا المعركة الأخيرة!

□ □ □

وأقبلت خادمة سلوى الزنجية تقول هامسة: مجدي باشا الأسيوطي في الصالون!

قالت سلوى بغير اهتمام: دعيه يتفضل في غرفة النوم. واعترض عبد المتعال مذعوراً:

ـ وأين أذهب أنا؟

ـ خلف الستارة!

ـ غير معقول!

ـ ما دامت كاميليا قد أخفتك وراء الستارة فمن حقي أن أضعك خلف الستارة.

ـ كرامتي تأبى أن أكون خلف الستارة، والمرأة التي سأتزوجها جالسة فوق السرير مع صديقها القديم!

ـ وأين كانت كرامتك وأنت خلف ستارة كاميليا؟

ـ أنا لا أحب كاميليا ولا أنوي الزواج بها!

ـ سوف أتحدث معه بشأن قضيتك!

ـ لا تهمني قضيتي الآن.. الذي يهمني أنني لا أقبل لنفسي هذا الوضع!

ـ أنت قبلت هذا الوضع.. الذي يفرط مرة يفرط كل مرة!

ـ أنا اضطررت أن أختفي وراء ستارة كاميليا حتى لا يراني

غالب بك.
- وأنا مضطرة أن أدخلك خلف ستارتي حتى لا يراك مجدي باشا الأسيوطي.
- تخافين على إحساساته؟
- أخاف على إحساساتك أنت.. وأريد أن تسمع كل شيء، وتتأكد أنني لن أسمح له بأكثر مما سمحت به كاميليا لغالب بك!
- هذا إذلال لا أقبله.
- وهذا اتهام أرفضه، يجب أن تثق بي..
- كيف أثق بك ورجل آخر معك في غرفة النوم؟
- أنت طلبت أن أثق بك وأنت مع كاميليا في شقتها!
والتفتت سلوى إلى خادمتها وقالت:
- قولي لمجدي باشا الأسيوطي أن يتفضل إلى غرفة النوم!
واستدارت الخادمة لتنفذ أمر سيدتها وتشبث عبد المتعال بيد الخادمة وهو يقول في حزم:
- لا تذهبي.. أنا سيد البيت هنا وآمرك ألا تذهبي!
وتسمرت الخادمة في مكانها.. وقالت سلوى:
- ما دمت سيد البيت فاجلس معنا.
- ويرانا مجدي باشا في هذا الوضع؟
- حتى أضع مجدي باشا أمام الأمر الواقع ويعلم أنك زوجي القادم!
- أنا رجل صعيدي ولا أسمح لرجل غريب أن يراني مع زوجتي في بيتنا..!
- مجدي باشا ليس رجلاً غريباً عن بيتي. كان يتردد على هذا البيت قبل أن تتردد أنت عليه!
- لا.. مستحيل أن أقبل أن يراني معك هنا!

ـ عليك أن تختار. . إما أن تكون فوق السرير أو خلف الستارة. .

ـ **أمري لله. . سأتوارى خلف الستارة.**

□ □ □

ودخل مجدي باشا غرفة نوم سلوى متهللاً، وتقدم نحو سلوى ماداً ذراعيه مستعداً لضمها إلى صدره وهو يقول: هذه ليلة القدر!

ودفعته سلوى بيدها وهي تشير له إلى مقعد في الغرفة:

ـ اجلس هنا. . ولا تقترب مني!

وبدت الدهشة على وجه مجدي باشا وتهاوى على المقعد وهو يقول:

ـ ماذا حدث؟ هل غيرت رأيك؟

ـ أنت تعرف أنني لا أغير رأيي بسهولة.

ـ عندما قالت لي الخادمة أنك سوف تستقبلينني تصورت أن عقلك عاد إلى رأسك!

ـ لم أكن في حياتي عاقلة كما أنا اليوم!

ـ هذه أخبار سارة. . يبدو أن اليوم كله يوم الأخبار السارة. . إنني قادم إليك مباشرة من رئاسة مجلس الوزراء. استدعاني دولة شفيق باشا فتحي رئيس الوزراء وقال لي أنه قرر إنشاء وزارة جديدة إسمها «وزارة إنصاف المظلومين»، وقال لي أن مهمة هذه الوزارة هي كنس الفساد والرشوة واستغلال النفوذ في الدولة ويكون للوزير الجديد «كارت بلانش»، سلطة كاملة ليقوم بكل التحقيقات وإصدار كل القرارات لرفع المظالم فوراً عن المظلومين. . وقال أنه بحث في الدولة عن رجل نزيه، عادل، نظيف، ليتولى هذه الوزارة فلم يجد سواي، ولهذا اقترح على رئيس الدولة تعييني وزيراً لوزارة

إنصاف المظلومين، ووافق الرئيس على هذا الاختيار!

ولمعت عينا سلوى وقالت:

ـ أنت الرجل الذي أبحث عنه!

ـ أنا جئت مباشرة إليك من عند رئيس الوزراء لأبلغك هذا النبأ السعيد. لم يعد ينقصني في الحياة إلا أن تعودي إلي، وبذلك أكون جمعت بين السعادتين، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة!

ـ طبعاً أنا سعادة الآخرة!

ـ لا.. أنت سعادة الدنيا.. والوزارة هي سعادة الآخرة!

ـ وما علاقة الوزارة بالآخرة؟

ـ إن قيامي بوظيفة وزير إنصاف المظلومين هو صلاة يومية! يقول العلماء أن من ينصف مظلوماً واحداً يبني له قصراً في الجنة!

ـ أعرف رجلاً مظلوماً ظلماً كبيراً، وإذا أنصفته فلن تبني قصراً في الجنة، بل عدة قصور وسرايات وعمارات..

ـ هذه هي مهمتي.. وأنا مستعد أن أقوم بها فوراً!

ـ ولكن وزيراً واحداً لا يكفي لإنصاف المظلومين.. إن عدد الوزراء ٢٠ وزيراً..

ـ الآن أصبحوا ٢١ وزيراً.

ـ معنى ذلك أن ٢٠ وزيراً سيظلمون الناس، ووزيراً واحداً سينصفهم.. ستبقى دائماً نسبة الظلم إلى العدل هي واحد على عشرين!

ـ تأكدي أن السلطات التي في يدي ستجعلني قادراً على إنصاف المظلومين.. أخبريني الآن بالظلم وسترين ما سوف أفعل به.

وروت له سلوى وهبي مأساة عبد المتعال محجوب، كيف دخل السجن بغير تهمة وبغير حكم. كيف خرج من السجن بغير إسم.

كيف حصل على وثائق خطيرة تثبت الرشوة والفساد واستغلال النفوذ في شركة مصر للبسكويت، وذكرت له كل التفاصيل. .

وتحمس مجدي باشا وقال:
ـ سوف تكون هذه هي القضية الأولى. . أنا أعدك بأنني سأضع جميع المجرمين في السجن، وسأعيد عبد المتعال محجوب فوراً إلى منصب مدير عام شركة مصر للبسكويت.
ـ لن أنسى لك هذا الموقف طوال حياتي!
ـ هل هذا الرجل قريبك؟
ـ لا. . زوجي!
ـ زوجك؟ لم أعرف أنك تزوجت. . كل ما عرفته منك أنك قررت أن تقطعي علاقتك بي لأنك أحببت رجلاً!
ـ نعم أحببته. وقررت أن أتزوجه!
ـ وتريدين مني أن أنصف الرجل الذي ظلمني واختطفك مني؟
ـ إنه لم يخطفني. أنا التي خطفته!
ـ كيف تريدين مني أن أنصف رجلاً قتلني؟
ـ ألست وزير إنصاف المظلومين؟ وأنا أعرف أنك رجل شهم!
ـ شهم، نعم. . ولكن ليس لهذه الدرجة من العبط. . هذا الرجل أصبح عدوي!
ـ معنى ذلك أنك سترفع المظالم عن أصحابك ومحاسيبك فقط!

ـ ماذا يريد عبد المتعال أكثر مما وصل إليه؟ يكفيه أنه كسب الجائزة الأولى في اليانصيب وهو أنت. . المفروض أن أبدأ أولاً بالتعساء والمسحوقين وعديمي الحظوظ. وبعد ذلك أنظر في مسألة عبد المتعال المجرم!
ـ أصبح الآن مجرماً لأنني أحبه!

ـ أنت تعرفين أن هذه المسائل لها أولـويات. . نبـدأ بالأهم، ثم المهم، وهكذا!

ـ هكذا تبدأ عملك كوزير إنصـاف المظلومـين بارتكـاب جريمـة ظلم!

ـ أنا مستعد أن أنصفه. . إذا أنصفتني!

ـ وكيف أنصفك؟

ـ أنا لست جشعاً ولا طـماعاً. . يمكنـك أن تعطيـه ستة أيـام في الأسبوع وتعطيني اليوم السابع. .

ـ وماذا أقول له؟

ـ تقولين أنك مشغولة في المسرح أو في الأستوديو!

ـ أنا لست الزوجة التي تعطي زوجها إجازة ليلة كل أسبوع!

ـ اعرضي عليه هذا الاتفاق السخي وسوف يقبله!

ـ لو قبله. . فإنني لا أقبل أن أتزوجه!

ـ أنا قبلته من قبل. . وكنت تأخذين مني إجازة أربع ليال في كل أسبوع!

ـ كنت عشيقتك ولست زوجتك!

ـ أنا كنت أعتبرك أقرب إلي من زوجتي!

ـ هل تقبل أن تأخذ زوجتك إجازة ليلة في الأسبوع؟

ـ أنا لست مظلوماً وأريد إنصافاً!

ـ ثمن الإنصاف أن يفرط الزوج في شرفه؟

ـ تذكري أنه سوف يصبح مديراً عاماً لشركة مصر للبسكويت!

ـ أنت قلت لي أن رئيس الوزراء اختارك وزيـراً لوزارة إنصـاف المظلومين لأنك رجل نزيه وعادل ونظيف. يظهر أن رئيس الـوزراء كان يبحث عن الوزير النظيف في بالوعات مصلحة المجاري!

ـ لماذا تغضبين كل هذا الغضب؟ كل شيء في الدنيا بيع وشراء، وليس بين البائع والمشتري إلا كلمة «يفتح الله»!

ـ تريد أن تشتري شرف رجل لتنصفه؟

ـ كل ما أطلبه هو ليلة في الأسبوع!

ـ لو كنت تعرفه لما عرضت هذا العرض القذر!

ـ أنا أتمنى أن أعرفه.. وتأكدي أنني سوف أستطيع أن أقنعه بنفسي!

وخرج عبد المتعال من وراء الستارة وتقدم نحو مجدي باشا الأسيوطي المذهول وهو يقول:

ـ أنا عبد المتعال محجوب.. تفضل يا باشا واقنعني!

الفصل السادس والأربعون

تراجع مجدي باشا الأسيوطي إلى الخلف، وقد فوجىء بخروج عبد المتعال محجوب من خلف الستارة وبذل جهداً جباراً ليتحكم في تعبيرات وجهه، وليخفي ذعره بعد أن انشقت الأرض وخرج منها الرجل الذي كان منذ دقائق يحاول أن يجعل سلوى تخونه، ولو ليلة واحدة فقط في الأسبوع!

وأسرع مجدي باشا يرسم ابتسامة فوق شفتيه. السنوات الطويلة التي احترف فيها السياسة علمته فن التمثيل.. ما أقرب السياسي إلى الممثل.. كل واحد منهما يقوم بدوره.

بعض السياسيين تكتب لهم الخطب العصماء التي يلقونها والشعارات التي يعلنونها والكلمات المأثورة التي يتغنون بها.

وبعض الحكام لهم مؤلفون مسرحيون يرسمون لهم الأدوار، ويحددون المواقف التمثيلية، وبعض الوزراء لهم ملقنون يقفون خلف الستار يلقنونهم أدوارهم!

بعض الوزراء يخفون وجوههم الحقيقة وراء المكياج.. الظالم يبدو عادلاً.. الجاهل يمثل دور العالم.. الفاسد المرتشي يقف على المسرح السياسي في صورة ملاك.. وكلما أجاد السياسي فن التمثيل

واندمج في دوره، نال هتاف الجماهير وتصفيق المتفرجين!

ومد مجدي باشا يده نحو عبد المتعال وهو يقول له:

- تشرفنا يا عبد المتعال بك!

وترك عبد المتعال يد معالي مجدي باشا الأسيوطي معلقة في الهواء، ونظر إليه باحتقار وقال:

- أما أنا.. فلم أتشرف!
- أنا مجدي باشا الأسيوطي وزير إنصاف المظلومين!
- كده هوه؟
- دمك خفيف يا عبد المتعال بك.
- أنا رأيي فيك أنك وزير نذل، سافل، حقير!
- أنا أرحب دائماً بحرية الرأي!
- أنت لا تحرجني ببرودة أعصابك!
- لست بارد الأعصاب.. أنا رجل سياسي!
- وما هو السياسي؟
- هو الذي يتحمل صفعات الجماهير ويحولها إلى قبلات.
- معنى ذلك أنك تريد قبلة
- نعم.. عندما تعرف شرف مقصدي!
- قبلة مني أم من سلوى!؟
- قبلة منك أنت
- لسوء حظك أنا لست منافقاً، أو سياسياً، كما تسمون المنافقين!
- أنت تسيء الظن بي.. أنا مهتم بمسألة الشركة!
- أعرف أنك مهتم بها كل الاهتمام!

ـ وسـوف تكون حكـاية الشركـة أول شيء أهتم بـه بعـد تعييني وزيراً لإنصاف المظلومين.

ـ هذا واضح تماماً!

ـ ما دمت عرفت الحقيقة فلماذا أنت غاضب علي؟

ـ لأنني أعرف الشركة التي تقصـدها.. أنت تـريد أن تشـاركني في سلوى وهبي.. فأكون أنا صاحب الاسم، وتكـون أنت المديـر الفعلي.. أدفع أنا الخسائر وتأخذ أنت الأرباح!

ـ أنت تظلمني يا عبد المتعال.. أنا رجل شريف!

ـ والدليل أنك تحاول أن تقنع امرأة تحب رجـلاً وستتزوجـه أن تخونه معك!

ـ لم أطلب منها أن تخونك.. لا سمح الله!

ـ طلبت منها أن تمضي ليلة معك كل أسبوع!

ـ بغرض شريف جداً.. إنني معجب بذكاء مدام سلوى وهبي. إنني أعتقـد أنها امرأة عبقـرية.. ولهـذا أحب أن أستشيرهـا وأستنير برأيها في المسائل العليا!

ـ من وراء ظهر زوجها!

ـ أنت تعرف يا عبد المتعال بك أن مسائل الدولـة العليا مسـائل حسـاسة، مسـائل دقيقـة، تقتضي الكتمان الشـديد.. وأنـا أعـرف سلوى منـذ وقت طويـل، ولهذا أستـطيع أن أثق بهـا، وأأتمنها عـلى أسرار الدولة.. وتأكد أنني بعد أن أعرفـك جيداً سـوف أثق بك، وأستشيرك أنت أيضاً.

ـ من وراء ظهر سلوى وهبي أيضاً؟

ـ أنا أعذرك لأنك تسخر من حـديثي . . المظالم التي وقعت لـك في حياتك جعلتك تشك في كـل الناس، وتفقـد الثقة في الجميـع، وتتصور أن كل الدنيا لصوص تريد أن تسرق أموال الدولة أو المـرأة التي تحبها. . تأكد أن الدنيا مليئة بالناس الشرفـاء المخلصين. . ولا يجوز أن تأخذ الناس بالشبهات!

ـ حتى ولو سمعتهم بأذني يراودون المرأة التي أحبها؟

ـ أنـا لم أغازل سلوى. . أنـا كنت أمزح معهـا. . والدليـل على ذلك أنها عندما أخبرتني منـذ شهور أنها تحب احـترمت حبها لـك، وامتنعت عن زيارتها، ولم أزرهـا إلا اليوم لأبلغهـا نبأ تعييني وزيـراً لإنصـاف المظلومـين، ولأضع نفسي تحت تصرفهـا. . وأنت لم ترني وأنا أتحدث مع سلوى. . لو رأيت ملامحي وأنا أتحدث إليها لعرفت أنني أمزح معها. . ولكنك كنت خلف الستارة فلم تر الحقيقة!

وقاطعته سلوى وقالت:

ـ أما أنا فلم أكن خلف الستـارة. . ولقد رأيت مـلامحك وكـان واضحاً أنك تغازلني. . بل أنت عنـدما دخلت إلى الغـرفة حـاولت أن تقبلني!

ـ كنت أريد أن أقبلك في رأسك كأختي!

ـ ولهذا فتحت ذراعيك لتضمني إلى صدرك؟

ـ إنني أشكركما على هذا الظلم. . عرفت الآن الألم الـذي يحس به البريء المظلوم، عندما تنهال عليـه التهم غير الصحيحـة. . هذا الشعور سوف يفيدني جداً كوزير إنصاف المظلومين!

□ □ □

قال عبد المتعال ساخراً!

ـ إن مجدي باشا مظلوم فعلاً. . هذه القبلة التي كان يريدها منك يا سلوى هي «ورقة التمغة» التي يجب أن يضعها على طلبات الإنصاف. . ومن يعلم، فقد يضع معالي وزير إنصاف المظلومين سريراً في مكتبه ليستقبل فيه المظلومات!

ـ يجب أن تتعاون مع الحكومة لتنصفك!

ـ التعاون المطلوب أن أقدم للحكومة زوجتي. . إن المطلوب أن أسترد اسمي مقابل أن أنزل عن شرفي. . أن أشتري مقعد مدير شركة مصر للبسكويت وأبيع سلوى وهبي. .

ـ أنت تعقد المسائل يا أستاذ عبد المتعال. . المسألة أبسط كثيراً من هذا. تأكد أنني سأحافظ على شرفك كما أحافظ على شرفي، لن يعلم أحد بعلاقتي بسلوى.

ـ ماذا يهمني ألا تعلم الدنيا وأعلم أنا؟

ـ ستكون علاقة بريئة جداً. . علاقة من أجل المصلحة العامة. . ألم تسمع أن الحكومة تهدم بيتاً من أجل المنافع العامة؟

ـ لم أسمع أن الحكومة تهدم بيتاً من أجل أن تحول البيت إلى ماخور!

ـ هذا هو عيبنا. . نفضل دائماً المصلحة الشخصية على مصلحة الدولة!

ـ مصلحة الدولة أن تكون زوجتي عشيقتك؟ مصلحة الدولة أن أفقد شرفي؟

ـ أنا لم أقل هذا. . كل الذي طلبته أن تكون مستشارة لي. .

مستشارة غير رسمية. . إن سلوى ساخطة على الفساد الموجود في الدولة. . دائماً تطالبني في كل حديث بضرورة التطهير. . بضرورة القضاء على المظالم. . وها قد جاءت الفرصة لتساعدني في مهمتي. . وإذا بك تتحدث عن شرفك وحدك، ناسياً شرف الأمة كلها. . إن علاقتي بسلوى ستكون بريئة جداً. . سأجيء ليلة كل أسبوع ومعي ملفات المظالم وشكاوى الجماهير، وأجلس معها نبحث هذه المظالم!

ـ وما المانع أن أكون معكما؟

ـ لأن هذه أسرار الدولة!

ـ ولماذا لا تذهب سلوى إلى مكتبك وتبحث معك هذه الملفات؟

ـ سوف تثير هذه الزيارات أقوال السوء، وكل ما يهمني سمعة مدام سلوى وهبي!

ـ اخرج من هذا المكان!

ـ ليس من حقك أن تطردني من بيت سلوى وهبي!

وصرخت سلوى مقاطعة!

ـ هذا البيت أصبح بيت عبد المتعال محجوب!

ولم يتحرك مجدي باشا من مقعده وقال بهدوء:

ـ لولا اقتناعي بقضية عبد المتعال محجوب، وبالظلم الذي وقع عليه، لخرجت فوراً. . ولكن واجبي كوزير لإنصاف المظلومين أن أتحمل الرشاش الذي يصيبني وأنا أخدم بلدي!

قال عبد المتعال وهو يهز رأسه:

ـ ما أعظمها خدمة. . تنقذ المظلوم بأن تعشق زوجته. . أنت أشبه بالذي ينقذ المحكوم عليه بالسجن. بإخراجه من السجن، وتعليقه في المشنقة!

ـ أنا لا أعلقك في المشنقة.. أنا أرفعك إلى منصب مدير شركة مصر للبسكويت!

ـ ترفعني إلى الحضيض!؟

ـ هذا ليس بالحضيض.. إنني أحاول أن أساعدك برفع الظلم عنك.. سيعود لك اسمك!

ـ ما قيمة الإسم لرجل فقد شرفه؟

ـ لا تفكر في نفسك.. فكر في مئات العمال بشركة مصر للبسكويت الذين سنرد لهم حقوقهم.. سننقذهم من براثن الذين يستغلونهم، ويسرقون أرباحهم.. إن جان دارك قبلت أن يحرقوها من أجل تحرير فرنسا!

ـ جان دارك لم تشتر حرية فرنسا ببيع عرضها!

ـ كنت أتصور أنك مستعد أن تضحي من أجل الهدف الذي تحارب من أجله!

ـ شرف الرجل هو قلعته الأولى، فإذا استسلمت هذه القلعة، استسلمت باقي القلاع!

ـ لو كنت تقول هذا في البرلمان لصفق لك النواب، ثم أعلنوا الثقة بالحكومة!

□ □ □

قالت سلوى وهي تشعل سيجارة وتضحك:

ـ حكومة تضم معاليك وزيراً بين أعضائها تستحق الثقة طبعاً!

ـ أنا لا أمزح يا سلوى!

ـ أعرف أنك جاد جداً.. ولكن جدك هذا هو نكتة الموسم!

ـ الحياة هي أخذ وعطاء.. خذ وهات.. أنا رجل توليت عدة

مناصب في الدولة ولم أسرق مليماً!

ـ سرقت الزوجات فقط!

ـ إنني أريد أن أساعد عبد المتعال.. سأتبنى قضيته.. سأحارب من أجله قوى ضخمة.. ربما أفقد منصبي الجديد في الوزارة في هذه الحرب.. ولهذا أحتاج في هذه المعركة إلى تأييد شعبي لأستعيد لعبد المتعال شرفه!

ـ والمفروض طبعاً أنني الشعب!

ـ أنت شعبي يا سلوى!

ـ هل سمعت حاكماً يطلب من شعبه أن يفرط في شرفه ليحصل الشعب على شرفه؟

ـ أنا معك في غرفة النوم ولم تفقدي شرفك!

قال عبد المتعال:

ـ لأنني أنا موجود في غرفة النوم!

ـ معنى ذلك أنك لا تثق بسلوى إذا كانت معي وحدها في غرفة النوم!

ـ أنا أثق بسلوى.. ولا أثق بك أنت!

ـ ما دمت تثق بسلوى فماذا يضيرك أن أزورها ليلة واحدة كل أسبوع؟

ـ بأي حق تطلب هذا الطلب الغريب؟

ـ لأنك مظلوم..

ـ هل أبيحت أعراض المظلومين؟ هل أصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية لا كرامة لهم ولا شرف؟ هل تتصورون أن حكمكم الظالم قضى على رجولة جميع الرجال، فتحولوا إلى أغوات؟ الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها!

ـ إن ثديي مدام سلوى فوق رأسي!

ـ أرجوك أن تترك ثديي سلوى وتناقشني أنا!

ـ أنت رجل أناني يا عبد المتعال!

ـ أناني؟ لأنني أحافظ على زوجتي التي تريد الحكومة أن تستولي عليها!

ـ أنت تعلم أن من حق الحكومة أن تستلوي على أي عمارة، وتطرد كل سكانها، وتحولها إلى مكاتب حكومية.

ـ ولكن سلوى ليست عمارة!

ـ وأنا لا أطلب العمارة.. وإنما أطلب شقة واحدة.. شقة من سبع شقق.. ليلة من سبع ليال!

ـ هذه أول مرة في حياتي أسمع أن الحكومة تستولي على عمارة لتحولها إلى عش غرام لأحد الحكام!

ـ كثير من الشقق أخليت من أصحابها، وتحولت إلى عش غرام لكبار الموظفين.. ومع ذلك فأنا لا أطلب منك أن تخلي العمارة كلها.. هذا هو الفرق بين الديمقراطية والدكتاتورية.. في الدكتاتورية يأخذون العمارة كلها.. وأنا أؤمن بالديمقراطية!

ـ أي ديمقراطية هذه التي تجعل وزيراً يساوم مظلوماً على أن يعطيه حقه في مقابل زوجته.. هذا أبشع أنواع الاستبداد!

ـ لو كنت مستبداً لوضعتك في السجن وأخذت سلوى كلها.. وأنا لا أحب الإجراءات العنيفة.. أؤمن بالتفاهم والإقناع!

ـ وإذا لم أقتنع؟

ـ لن أنتقم منك.. أنا ضد الانتقام.. كل ما سوف يحدث أنني

سوف أعاملك كما سأعامل جميع المظلومين!

ـ هذا ما أتمناه. . إنني أطالب بالمساواة!!

ـ معنى ذلك أن ننظر في مسألتك بالدور!

ـ وما هو دوري؟

ـ لا أعرف. . إننا قررنا ترتيب المظالم طبقاً للحروف الهجائية لأسماء المظلومين.

ـ هذا عدل. . إن اسمي سيكون في الفئة الثامنة عشرة، لأن حرف العين هو الحرف الثامن عشر في الأبجدية!

ـ آسف إنك ستكون في الفئة الرابعة والعشرين. . لأننا نرتب الأسماء بأسماء الأسرة وأسرتك اسمها محجوب، أي تبدأ بحرف الميم، وهو الحرف رقم أربعة وعشرين في الأبجدية!

ـ لا مانع عندي أن أنتظر أربعة وعشرين يوماً!

ـ أنت متفائل جداً يا عبد المتعال. . حرف الألف وحده فيه ثلاثة آلاف مظلمة. وكل مظلمة يستغرق بحثها يوماً على الأقل!

ـ معنى هذا أن أنتظر مدة طويلة جداً!

ـ لا، اطمئن. . إن أوامر دولة رئيس الوزراء أن نبت في هذه المظالم بأقصى سرعة وأعتقد أننا سنصل إلى حرف الميم بعد سبع أو ثماني سنوات!

ـ الله يبشرك بالخير!

ـ أنت الذي طالبت بالمساواة. . هذه هي المساواة!

ـ سبع سنوات كاملة لتعيدوا إلي حقي؟. . لقد ظلموني في

دقيقة واحدة، عندما أدخلوني السجن بغير جريمة!

ـ الظلم يركب صاروخاً، والعدل يركب سلحفاة.. الظالم أشبه بقاتل يطلق مسدسه في بضع ثوان ويسقط المجني عليه مضرجاً بدمائه.. فإذا مات دفن بغير جنازة، وإذا عاش احتاج الأطباء إلى وقت طويل لإنقاذ حياته، وإخراج الرصاصة من جسمه.. وأنا مهمتي مثل مهمة الطبيب، أحتاج إلى وقت طويل لاستخراج الرصاص!

ـ أنا أمامك يا دكتور.. هيا أخرج رصاصات الظالم من جسمي!

ـ انتظر حتى يجيء دورك.. أمامك ألوف الجثث.. ويجب أن نفحص الجثث بالترتيب وقد أقنعتني برأيك بضرورة العدالة المطلقة بغير استثناءات.. سنبدأ بحرف الألف وننتهي بحرف الياء!

ـ معنى ذلك أن أموت قبل أن أدخل غرفة العمليات!

ـ اطمئن.. سوف نعالج كل مسألة.. ولن نترك مظلوماً واحداً بغير إنصاف!

ـ أنت تعلم أن جراحي كثيرة. تعلم أن حالتي خطرة. تعلم أن الظلم الذي وقع علي لم يحدث مثله لأحد!

ـ أنا قاض.. ولا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه.. يجب أن أبحث الأوراق.. ويجب أن أدرس القضية بحكمة وروية!

ـ الذي ظلمني ظلمني بجنون، والذي ينصفني يريد أن ينصفني بحكمة!

ـ في التأني السلامة وفي العجلة الندامة!

ـ السكوت على الظلم جريمة مثل ارتكاب الظلم . . الساكت عن الحق شيطان أخرس!

ـ أعدك بأنني لن أسكت على الظلم . . سوف أنشر في الصحف كل يوم تصريحاً بأن الحكومة جادة في رفع المظالم!

ـ وما الذي أستفيده من هذه التصريحات؟

ـ تستفيد كثيراً . . هذه التصريحات مخدر لذيذ يجعلك تنسى آلام جروحك!

ـ ولكنها لن تضمد جروحي . . الزمن سيحول الجروح إلى غرغرينا . . وسوف أتسمم!

ـ إنني أردت أن أنقذك من كل هذا البلاء، ولكنك رفضت؟

ـ أنا رفضت؟

ـ نعم أنت الذي طالبت بالمساواة . . أنت الذي رفضت الاستثناء!

ـ أنا لم أرفض الاستثناء!

ـ الحكومة أشبه الآن بطبيب مشهور، تزدحم عيادته بالمرضى، ويدخل المرضى بالدور. وإذا جاء مريض مستعجل، يمكنه أن يتخطى كل المنتظرين، إذا دفع أجر (الكشف الخصوصي)!

ـ والأجر الذي أدفعه هو زوجتي؟

ـ أنت رجل عنيد يا أستاذ عبد المتعال . . ترفض كل الحلول . . تقول دائماً (لا) بمناسبة وبغير مناسبة . . لو كنت أنا مكانك وجاءتني هذه الفرصة الذهبية لانتهزتها وبعد أن تسترد أسمك ووظيفتك، ونرفع المظالم الواقعة عليك، عندئذ تستطيع أن تفرض شروطك . . أنت الآن واقع على الأرض، وقدم الظالم تدوس على عنقك . ويجيء رجل كريم مثلي ويعرض عليك عرضاً سخياً لا يرفضه

عـاقل، وهـو أن أحارب معـركتيك، وأرفـع قـدم الـظالم من فـوق عنقك، فتقول (لا)!

ـ أنت تريد أن ترفع قدم الظالم من فوق عنقي، وتدوس بقدمك على شرفي!

ـ هأنتذا تعقد المسائل مرة أخرى.. إنك لم تـتزوج سلوى وهبي بعد.. ولا يمكن أن تتزوجها قبل أن تسترد اسمك. فليست هنـاك خيـانة زوجيـة.. انتـظر حتى تسـترد اسمـك وتقف عـلى قـدميـك وتتزوج، وعندئذ تستطيع فرض شروطك!

ـ إنني أعتبر سلوى زوجتي الآن أمام الله!

□ □ □

وهنا قالت سلوى وقد امتلأت عيناها بالدموع:

ـ أنا أقبل شروطك يا معالي الوزير!

واندفع عبـد المتعال إليها والشرر يتطايـر من عينيه وصرخ فيهـا قائلاً:

ـ اسكتي أنت.. اخرسي.. أنا لا أقبل أن أعيش فوق جثتك!

ومسحت سلوى دموعها بكفها وقالت:

ـ أنا موافقة أن أكون عشيقة مجدي بـاشا سبـع ليال كـل أسبوع إذا وعـد بأن تكـون مسألتـك هي المسألـة الأولى التي يبحثها وزيـر إنصاف المظلومين!

وربت مجدي باشا بيده على خد سلوى وقال:

ـ أنا كنت واثقاً دائماً من نبلك وتضحيتك.. أنت امرأة عظيمـة

يا سلوى وأنا أقبل هذا الاتفاق.. وأعدك بأن أحل مسألة عبد المتعال في أسرع وقت!

وقال عبد المتعال في غضب:

ـ أرفض هذا الاتفاق الملوث.. وأمنعك من أن تخضعي لمثل هذا الذل والهوان!

قالت سلوى وهي تبكي:
ـ لا أشعر بأي ذل وهوان.. لم أشعر في يوم بأنني امرأة شريفة كما أشعر اليوم!
ـ لا أقبل هذه التضحية!
ـ ليست هذه تضحية.. إنها لذة!
ـ أنت مجنونة.. أتعلمين معنى أن تصبحي عشيقة هذا الرجل؟
ـ أعرف تماماً أن معناها ألا تتزوجني.. يمكنك أن تصبح عشيقي!
ـ تخونينني مع هذا الرجل وولدي في بطنك؟
ـ سوف أذهب وأجري عملية إجهاض، لأنني لا أريد أن ألوث ولدك!

ـ إنني أفضل أن أبقى كما أنا، مظلوماً كما أنا، مشرداً كما أنا، بلا اسم.. بلا عمل على ألا تفعلي هذا.. أنا أمنعك أن تضحي بجسدك من أجل أن ترفعي الظلم عني!

ـ أنا حرة أفعل بجسدي ما أشاء!

ـ هذا الجسد أصبح ملكي وليس من حقك التصرف فيه!

ـ إنني لم أتزوجك بعد لتصبح المالك الوحيد.. كل ما أفعله أن

أعود كما كنت قبل أن أحبك. . أنت الرجل الوحيد الذي أخلصت له. . أعترف لك بأنني كنت سعيدة وأنا أتنقل بين الرجال. . وقدري هو ألا أكون امرأة طاهرة إلا لشهور قليلة. . سأعود ملكة الإغراء من جديد!

ـ تضحين بحبنا وولدنا من أجل ماذا؟

ـ من أجل أن أرفع الظلم عنك!

ـ أنت ترفعين ظلماً واحداً، وتضعين فوق رأسي ظلم الدنيا كلها!

ـ عندما تحب المرأة كما أحبك، تضحي بحياتها من أجل من تحب!

ـ أقبل أن تضحي بحياتك. . ولا أقبل أن تضحي بشرفك!

ـ امرأة مثلي لا شرف لها!

ـ أصبح لك شرف منذ أن أحببتني!

ـ سوف أشعر عندما يرفعون الظلم عنك أنني أشرف امرأة في العالم!

ـ وسوف أشعر عندما يرفعون الظلم عني أنني أقذر رجل في العالم!

ـ تأكد أن حبنا لن يموت. . سوف أعيش دائماً أحبك!

□ □ □

وهز مجدي باشا رأسه وهو يقول:

ـ أنا لا أمانع أبداً أن تحبي عبد المتعال بك، وأنت معي. . وهذا دليل على أنني أحبك أكثر مما يحبك!

قالت سلوى:

ـ بل هو دليل على أنه يحبني أكثر مما تحبني!

ـ أكبر دليل على أنني أحبك أنني لأول مرة في حياتي أخالف ضميري، أحكم في قضية قبل أن أدرسها، وأقتلها بحثاً وتنقيباً!

ـ لا تحدثني عن ضميرك فأنا أعرفه جيداً!

ـ ضميري دمه خفيف!

ـ قلت لي مرة أنك تعتبر مجلس الوزراء مكاناً مقدساً!

ـ هذا هو شعاري دائماً في الحكم!

ـ وضمائر بعض الوزراء كالأحذية التي يخلعونها قبل أن يدخلوا إلى المكان المقدس!

ـ أنا لا أخلط بين المسائل الخاصة والمسائل العامة.. أنا في الوزارة قديس، وخارج الوزارة دون جوان!

ـ يظهر أنك في الوزارة دون جوان.. أو دون.. فقط!

ـ أنت تعلمين أن منصب الوزارة منصب شاق متعب، العمل في الوزارة مثل الأشغال الشاقة.

ـ ولهذا كلكم تطالبون بالأشغال الشاقة المؤبدة.. يوم تدخلون الوزارة تفقدون نصف عقولكم، ويوم تخرجون منها تفقدون النصف الآخر.. الحكم غندكم يثيركم لأنه عملية اغتصاب.. المقعد عندكم مصعد يرفعكم إلى تحقيق شهواتكم.. وعندما تلتقون بإنسان شريف مثل عبد المتعال، يسيل لعابكم كما يسيل لعاب الفاسق عندما يرى فتاة بكراً.. إنكم تريدون أن تفضوا كل بكارة تريدون أن تكسروا عيون الأشراف، لأن الأذلاء وحدهم لا يستطيعون أن يقولوا لكم (لا)!

ـ إنك عندما تتحمسين يا سلوى تزدادين فتنة وجاذبية وسحراً وإغراء!

ـ أنا الآن أثيرك أكثر مما أثرتك في يوم من الأيام لأنني أخلصت في حبي لعبد المتعال وهكذا تشتهيني وكأنني أصبحت بكراً من جديد. . وعندما سأستسلم سأفقد سحري وإغرائي. . ستعود مسألة عبد المتعال إلى رقم أربعة وعشرين كما كانت، قبل أن تعقد هذا الاتفاق!

ـ أنت تظلمين الوزير الذي يريد رفع الظلم عن الشعب!
ـ أنا لا أظلمك. . بل أقول الحقيقة التي تعلمها جيداً. .
ـ ظلم الحبيب مثل أكل الزبيب!
ـ لن أكون حبيبتك. . أنا لست إلا أجر (الكشف الخصوصي)!
ـ أتمنى أن تحبيني واحداً من ألف مما تحبين عبد المتعال بك!
ـ لكي أحبك يجب أن يكون لك قلب أولاً!
ـ لو دخلت قلبي لوجدت فيه سلوى وهبي!
ـ بل سأجد فيه كرسي الوزارة!
ـ وقد جلست فوقه سلوى وهبي.

□ □ □

وتضايق عبد المتعال من هذا الغزل وصاح ثائراً:

ـ **لا أسمح بهذا الغزل أمامي، إذا لم تحترم نفسك فاحترمني أنا على الأقل!**

قال مجدي باشا:
ـ منذ أن عقدت الاتفاق مع سلوى أصبح من حقي أن أغازلها!
ـ **وأنا لم أوافق على هذا الاتفاق!**
ـ لا تهمني موافقتك. . موافقة سلوى تكفي!
ـ وأرفض أن تنصفني!

ـ كان يسعدني أن أظلمك.. ولكن ضميري يأبى ذلك بعد أن أعطيت كلمة الشرف لسلوى بأن أساعدك!

ـ أنا أقول لك الآن أنني لست مظلوماً.. أنا مجرم ونصاب ومحتال!

ـ في إمكاني أن أعيدك إلى السجن بعد هذا الاعتراف، ولكني رجل شريف، أحترم الاتفاق الشريف الذي تعاقدت عليه مع سلوى!

ـ إذا أنصفتني فسوف أعلن في كل مكان أنني مجرم!

ـ عندئذ سأدخلك إلى مستشفى الأمراض العقلية.. إن مسألتك منذ اليوم أصبحت مسألتي.. سأسهر الليل من أجل إنصافك!

ـ ستسهر وحدك، أم مع سلوى؟

ـ مع سلوى طبعاً!

ـ عندما تنعقد محكمة رفع المظالم في غرفة النوم، سيضع القضاة المظالم تحت السرير!

ـ أنت لا تعرفني يا عبد المتعال.. إنني رجل إذا أعطيت كلمتي دافعت عنها برقبتي!

ـ رأيت هذه الرجولة واضحة الآن.

ـ أنتم أيها المحكومون تسيئون الظن بحكامكم.. نحن بشر قبل كل شيء.. من حقنا أن نحب وأن نعشق.. ولكن هذا الحب لا يتدخل في أحكامنا.. نحن أشبه بتمثال العدالة المعصوب العينين، لا نفرق بين الخصوم والأصدقاء!

ـ هذه أول مرة أرى العدالة تبصبص بعينيها!

ـ أنت الذي تمزج بين المسائل الخاصة والمسائل العامة، لا أنا . . أنا أعلم أن المرأة التي أحبها تحبك أنت . . أعلم أن إعادة الاعتبار إليك سوف تفقدني سلوى وهبي . . ومع ذلك فسوف أعمل على إنصافك ورد اعتبارك . . سوف أعيد بناء الرجل الذي سيحطمني . . سوف أسعد منافسي الذي سوف يشقيني . . أنا الآن أقوم بأكبر تضحية في حياتي، وأنت تتردد في أن تقوم بمثل هذه التضحية . . أنا سآخذ سلوى شهراً أو شهرين . . وأنت ستأخذها العمر كله . . ولو كنت رجلاً غير شريف كما تتصور لاتصلت الآن بالشرطة، وطلبت أن تقبض عليك لأنك هارب من العدالة . . لأنك رجل بلا اسم . . لأنك لا تحمل بطاقة شخصية . . لأنك اعتديت على موظف رسمي، هو وزير في الوزارة، بالقول والإشارة .

ـ إنني أتحداك أن تفعل ذلك الآن!

ـ لن أفعل ذلك لأنني لا أقبل أن أحارب رجلاً سلم سلاحه!

ـ أنا لم أسلم سلاحي!

قالت سلوى في حزن :

ـ أنا استسلمت!

قال عبد المتعال :

ـ وأنا أرفض هذا الاستسلام . . وأفضل أن أذهب الآن إلى السجن من جديد . . هيا يا باشا . . إذا كنت رجلاً كما تقول فخذني إلى السجن!

وانتفض مجدي باشا الأسيوطي . . وتهيأ للوقوف، وقد امتلأ وجهه بالغضب . . فأحاطته سلوى بذراعها وقبلته في شفتيه وهي تقول :

ـ هذه دفعة يا مجدي باشا على حساب العدالة!

وقفز عبد المتعال من مقعده واتجه نحو سلوى، ورفع يده وهوى بكفه على وجهها.. وترنحت سلوى من أثر الصفعة وامتلأت عيناها بالدموع وهي صامتة!

ثم استدار عبد المتعال نحو معالي مجدي باشا الأسيوطي وزير إنصاف المظلومين وصفعه صفعة قوية على وجهه!

وكان صوت الصفعة أعلى من صوت قبلة سلوى!

ثم اندفع عبد المتعال خارجاً من الغرفة!

الفصل السابع والأربعون

أفلتت من فم سلوى آهة خافتة، واندفعت كالسهم تعدو وراء عبدالمتعال، ولحقت به عند باب الشقة، ووقفت في مواجهته، ومدت ذراعيها تسد طريقه نحو الباب.

ولم يتوقف عبدالمتعال. جذبها من يدها بعنف فلم تتحرك. حاول أن يزيحها من طريقه، فتسمرت في مكانها وهي تقول في حزم:

- لن تخرج من هنا!
- دعيني أخرج..!
- لن تخرج.. هذا بيتك!.
- لم يعد بيتي.. أصبح بيت صاحب المعالي مجدي باشا الأسيوطي!
- منذ أن أحببتك أصبح هذا البيت بيتك وحدك!
- منذ أن قبلت مجدي باشا في شفتيه أمامي، كنت أشبه بصاحب البيت الذي يسلم مفتاح الشقة للساكن الجديد!
- هذا البيت لم يعد للإيجار.. أنت مالك هذا البيت!
- لم يعد بيتاً، أصبح بانسيون.. وأنا لا أحب سكنى البانسيونات أو الفنادق.. أنا أريد بيتاً من غرفة واحدة.. لا أريد

أن أسكن في فندق شبرد، حيث يسكن مئات الرجال في مئات الشقق!

ـ لم أعد بانسيون ولا فندقاً، أصبحت امرأة من غرفة واحدة أنت ساكنها الوحيد!

ـ قلت لك دعيني أخرج!

ـ لن تخرج إلا على جثتي!

ـ جثتك؟! أنت وجدت الكلمة التي كنت أبحث عنها.. أنت أصبحت جثة في عيني، منذ اللحظة التي رأيت فيها فمك على فم مجدي باشا.. أنت الآن ميتة في نظري!

ـ وأنا أموت فيك!

ـ كان فم مجدي باشا هو قبرك!

ـ كنت أقوم بدور تمثيلي!

ـ عندما يتحول بيت المرأة إلى مسرح.. لن أرضى لنفسي أن أجلس في مقاعد المتفرجين!

ـ أنت لا تجلس في مسرح، أنت تجلس في قلبي!

ـ لا يشرفني أن أجلس في قلبك بينما يجلس مجدي باشا أمام الباب الملكي!

ـ الباب الملكي لن يكون إلا لك وحدك.. كل أبوابي أنت حارسها.. كل نوافذي أنت تطل منها.. هذا بيتك.. هذه قلعتك.. كيف تتخلى عن قلعتك؟

ـ ماذا أفعل بعد أن قالت القلعة إنها استسلمت؟

ـ قلت إنني استسلمت لتنتصر أنت في معركتك!

ـ كل معارك الحبيبين هي معركة واحدة ويوم يحاربان معركتين مختلفتين ينتهي الحب!

ـ الحرب خدعة!

ـ أنت قبلت العدو في شفتيه!

ـ ألا يكفيك أنك صفعتني على وجهي وصفعته؟

ـ كان يجب أن أقتلك وأقتله؟

ـ لماذا لم تقتلني؟

ـ لأنني لم أعد أحبك.. هذه القبلة التي رأيتها كانت أشبه ببصقة أطفأت نار حبي!

ـ أتوسل إليك أن تقتلني.. ولا تخرج من البيت!

ـ لا يمكن أن أبقى بعد الاتفاق الذي عقدته أنت مع الوزير.

ـ إنني مستعدة أن أدوس على هذا الاتفاق بقدمي!

ـ لن أستريح قبل أن أدوس أنا على هذا الوزير بقدمي!

ـ إفعل به ما تشاء.. سأدوسه معك!

ـ هذا الرجل داس شرفي.. الآن فقط فهمت معنى بيت الشعر الذي يقول (لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى، حتى يراق على جوانبه الدم)!

ـ سأحضر سكيناً كبيراً من المطبخ.. نذبحه معاً، وندفنه في الشقة!

ـ ماذا جرى لك؟ أصبحت قاتلة!

ـ عندما تعشق المرأة ترتكب كل جرائم الدنيا من أجل الرجل الذي تحب!

ـ ولهذا قبلت الوزير في فمه.. هذه القبلة هي عندي جريمة الخيانة العظمى!

ـ إنني لم أطبع قبلة على شفتيه خلف ظهرك، وإنما قبلته أمامك!

ـ هذا ألعن!

ـ أقسم لك بأن هذه القبلة كان لها في فمي طعم المر، والحنظل، والصبر!

- أنا لا يهمني طعم القبلة، الذي يهمني أنني رأيتها بعيني.. ولن أغفر لك هذه الجريمة أبداً!

- حتى لو غفرت لك جريمة أنك خلعت البنطلون أمام الراقصة كاميليا؟

- خلع البنطلون جنحة.. والقبلة جريمة كبرى.

- هل كنت تسامحني لو لم أطبع قبلة على شفتي مجدي باشا، واكتفيت بأن أخلع فستاني أمامه!

- كنت أقطع رقبتك!

- دعني أشرح وجهة نظري.. أنا ضحيت بحبي وضحيت بولدي من أجل قضيتك..!

- هذا ليس حبك وحدك، ولا ولدك وحدك، هذا حبنا معاً وولدنا معاً. نحن في شركة واحدة. كل واحد فينا يملك الكل. وليس من حق أحد الشريكين أن ينزل عن شيء لا يمتلكه.. إن معنى القبلة التي طبعتها على فم مجدي باشا أنك اخترته!

- خروجي خلفك هو الدليل على أنني اخترتك أنت يا حبيبي!

- اخترتني ستة أيام واخترت الوزير لليوم السابع!

- اخترتك للعمر كله.. لكل ساعة.. لكل دقيقة في حياتي!

- لا يكفيني أنك اخترتني.. بل يجب أن أقتل هذا الوزير!

- ألا يكفيك أنك قتلت الوزير أدبياً، عندما صفعته على وجهه؟

- وما قيمة القتل الأدبي، إذا كان القتيل لا يزال حياً في غرفة نومك؟

- سأذهب إليه وأطرده!

- بل أنا الذي سوف أطرده!

- هذا شرف يجب أن نشترك فيه نحن الاثنين معاً!

□□□

تقدم عبد المتعال أمام سلوى، واتجها إلى غرفة النوم، وما أن رآهما مجدي باشا داخلين عليه، حتى ارتسمت فوق شفتيه ابتسامة عريضة، وقال لعبد المتعال في صوت رقيق:

ـ جئت تعتذر؟ أنا قبلت اعتذارك!

ـ بل جئت أطردك!

ـ هذا ليس بيتك!

ـ بل بيتي!

ـ أنا أعرف أن عقد الإيجار باسم سلوى وهبي!

وقالت سلوى في هدوء:

ـ إنني بعت الآن البيت بكل ما فيه، وبكل من فيه لعبد المتعال محجوب، إنه الآن المالك الوحيد، وهو حر أن يفعل في البيت ما يشاء.. من حقه أن يحتفظ بما يريد، ويلقي بما لا يريد من الشباك!

ـ معنى هذا أنني جزء من الصفقة!

ـ ما دمت موجوداً في الشقة.. أنا كتبت في العقد أنني تنازلت لعبد المتعال عن الشقة ومحتوياتها، ومعاليك أحد المحتويات!

ـ وطبعاً لا ينوي المالك الجديد أن يحتفظ بي!

ـ إنه قرر الاستغناء عن الأشياء القديمة!

ـ تطردينني يا سلوى؟

ـ أنا لم أطردك.. وإنما صاحب البيت هو الذي قرر الاستغناء عن المقاعد القديمة والأحذية القديمة، والوزراء القدامى!

ـ أنا لست وزيراً قديماً، أنا وزير جديد!

ـ عبد المتعال قال إنه يريد إعادة ترتيب الشقة.. سينقل بعض الأثاث من الصالون إلى الصالة، وبعضه إلى المكتب، وبعضه إلى المطبخ!

ـ وأنا سينقلني إلى المطبخ!

ـ أنت سينقلك إلى خارج الشقة!

ـ وهل دفع لك ثمن الشقة فوراً؟

ـ لا، سيدفع بالتقسيط!

ـ قسط كل شهر؟

ـ لا.. قسط كل ليلة.. وسيدفعه بالعملة الصعبة التي لا تستطيع معاليك أن تدفعها!

ـ لكي تعلمي أنني لست رجلاً سهلاً، فلن أخرج من هنا!

ـ بل ستخرج.. والا فسوف يرميك عبد المتعال من الشباك!

ـ أنت ترمين معي قضية عبد المتعال!

ـ لا يهمني قضية عبد المتعال!

ـ إذن أنت لا تحبينه؟

ـ بل أعبده.. فضلت أن أتزوج متشرداً عاطلاً، ونعيش معاً وحدنا في غرفة فوق السطح، على أن أتزوج مدير شركة، وأقيم معه في قصر أحد أصحاب المعالي الوزراء!

ـ ستندمين كثيراً!

ـ كنت سأندم أكثر، لو أنني نفذت هذا الاتفاق المزري.. تفضل واخرج!

□□□

واحمر وجه مجدي باشا، وامتلأت عيناه الضيقتان بالغضب، وقال والكلمات تنطلق من فمه كأنها مدفع رشاش:

ـ لن أخرج من هذا البيت.. لي في هذا البيت أكثر مما لك يا عبد المتعال أفندي.. أسكن فيه قبل أن تسكن أنت فيه.. أقمت فيه قبل أن تقيم أنت فيه.. المقعد الذي تجلس عليه أنت أنا الذي

اشتريته من مالي.. السجادة التي تدوس عليها بقدمك أحضرتها أنا من بيتي.. ديكور غرفة النوم هذه أنا الذي دفعت ثمنه لمسيو ليان مهندس الديكور الفرنسي.. هذه الثريا الكهربائية المدلاة من سقف الغرفة اشتريتها من باريس وقدمتها لسلوى في عيد ميلادها!

قالت سلوى ساخرة:

ـ يمكنك أن تحمل كل هذا على رأسك وتخرج به من هنا!

ـ إنني أنفقت عليك أكثر من خمسة آلاف جنيه!

ـ نحن على استعداد لأن نعيد لك كل ما دفعته!

ـ من أين تدفعان.. أنا أعلم أنك مدينة، وأعلم أن عبد المتعال مفلس لا يملك مليماً واحداً!

ـ أنت لا تعلم أن الحب يحول العشاق المفلسين إلى أصحاب ملايين!

ـ إنني مستعد أن آخذ الشقة بكل ما فيها بالخمسة آلاف جنيه.. وأشترط أن تسددي لي هذه الديون فوراً.. معنى ذلك أن تخرجي أنت وعبدالمتعال الآن من هذه الشقة!

ـ أنت لم تدفع لي هذه المبالغ جملة واحدة.. أنت دفعتها على أقساط، وسأردها لك على أقساط!

ـ وفوائد المبلغ؟

ـ أنا مستعدة أن أدفع فوائد المبلغ!

ـ أنت يا سلوى هي فوائد المبلغ!

ـ أنا لم أعد للبيع.. أنا متسعدة أن أبيع كل أثوابي وفساتيني وأحذيتي لأسدد لك كل قرش دفعته لي!

ـ أنا لا أقصد أن أسترد ما دفعته.. هناك أشياء لا يمكن استردادها!

ـ تقصد أنك أنفقت شبابك في هذه الغرفة!

ـ شبابي.. ولياليّ، وأيامي.. وأجمل سنوات عمري!

ـ يظهر أن ذاكرتك خانتك يا باشا.. كثيراً ما قلت لي إنني أعدت لك شبابك المفقود!

ـ هذا صحيح.. ومستعد أن أخصم من الديون ثمن أكسير الشباب!

ـ أنا أفعل هذا للفقراء والمرضى مجاناً!

ـ أنا لا أحب الخلافات والخصومات والعداوات.. لقد عرفتك في سلام، ويهمني أن أفارقك في سلام!

ـ أنا لم أثر الخلافات.. أنا طلبت منك أن تتفضل وتخرج من البيت، وأنت أصررت على البقاء، لتطالب بحقك في السجادة والنجفة!

ـ إنني لم أثر هذه المسائل التافهة إلا عندما أثرتني أنت.. عندما قلت عني إنني أصبحت (روبابكيا) يمكن الاستغناء عني.. عندما طلبت مني أن أحمل هداياي فوق رأسي وأرحل.. لقد حرصت على ألا أجرحك بكلمة واحدة!

ـ سيوفك لا تجرحني.. لقد حولني الحب إلى سيارة مدرعة!

ـ تذكري الماضي الجميل يا سلوى.. من سوء حظي أن فراشك لا يتكلم!

واندفعت سلوى نحو مجدي باشا كاللبوة الهائجة، وجذبته من رباط رقبته وهي تقول في ثورة عارمة: !

ـ اخرس يا كلب.. فراشي الآن أشرف من وزارتك!

قال مجدي باشا في هدوء!

ـ ما أجملك يا سلوى عندما تشتمين.. الكلمات البذيئة في شفتيك تزيدك سحراً وجمالاً!

ـ والكلمات المؤدبة في فمك تزيدك قبحاً!

ـ لهذا أتعمد أن أثيرك لأراك في قمة جمالك!

ورأى مجدي باشا نظرات الغضب والثورة في عيني عبد المتعال فقال له مبتسماً:

ـ لعلك تعتقد أنني أستحق الآن صفعة أخرى من يدك الكريمة!

قال عبدالمتعال وهو يحاول أن يتحكم في أعصابه الثائرة:

ـ العفو يا معالي الباشا.. أنت لا تستحق صفعة.. أنت تستحق شلوتاً؟!

وضحك مجدي باشا وقال:

دمك خفيف جداً يا عبد المتعال بك!

ـ كنت عبدالمتعال أفندي منذ بضع دقائق!

ـ لو كنت تقبل التفاهم معي فستكون عبدالمتعال باشا في يوم من الأيام.

□□□

وانفجرت سلوى فيه قائلة:

ـ إذا لم تخرج من هنا فوراً فسأصرخ، وأستدعي شرطة النجدة!

فقال:

ـ وماذا ستقولين لشرطة النجدة؟

ـ سأقول إنك جئت إلى بيتي لتراودني عن نفسي.. جئت تطلب مني أن أخون معك الرجل الذي قررت أن أتزوجه وأخلص له طول حياتي!

ـ لن يصدقك أحد.. الدنيا كلها تعرف أنك ملكة الإغراء.. والدنيا كلها تعرف أنني أكثر وزراء الدولة استقامة وطهراً وخلقاً.. الصحف كلها كانت تقول أنني الوزير الوحيد الذي يؤدي فريضة

الصلاة في مكتبه.» والمجلات تقول دائماً عني أنني أزور السيدة زينب وسيدنا الحسين، الإذاعة قالت أنني تركت اجتماع مجلس الوزراء في أخطر جلساته لأؤدي فريضة الصلاة في موعدها، بينما كل الناس تتحدث عن استهتار ومغامرات وفضائح الممثلة سلوى وهبي. لن يصدق إنسان في مصر أن الوزير التقي الورع العفيف النظيف الشريف، يراود امرأة سيئة السمعة!

ـ وما الذي يدعو الوزير التقي، الورع، العفيف، النظيف، الشريف، لأن يكون في غرفة امرأة سيئة السمعة عند منتصف الليل؟

ـ كمين.. كمين نصبه لي أعداء الوطن.. شرك أراد أن يوقعني فيه الذين لا يريدون أن أقاوم الظلم والفساد واستغلال النفوذ. مؤامرة مقصود بها منعي من القيام بواجبي كوزير إنصاف المظلومين.. مقصود بها أن يفلت جميع الفاسدين والمرتشين من العقاب!

ـ وماذا ستقول إذا سألوك عما جاء بك إلى غرفة نوم ملكة الإغراء؟

ـ سأقول الحقيقة.. سأقول إن سلوى وهبي اتصلت بي في بيتي، وقالت أن هناك مظلوماً مسحوقاً مطارداً في أشد الحاجة إلى مساعدتي فوراً، وأنه موجود عندها ولا يجد من ينصفه أو يسمع شكواه، وبحكم منصبي كوزير إنصاف المظلومين تركت بيتي وأولادي، وضحيت براحتي، وهرعت إلى نجدة هذا المظلوم، وإذا بي أجد سلوى وهبي تهددني بأن أدفع لها مبلغاً من المال، وإلا فسوف تدبر لي فضيحة تسيء إلى سمعتي.

قال عبد المتعال ساخراً:

ـ يا لك من وزير عبيط. . أنت لن تستطيع إثبات هذه الأكذوبة، لسبب بسيط، وهو أنني سوف أتقدم بالشهادة وأحلف اليمين، وأقول للمحكمة كل ما قلته أنت لسلوى أمامي!

ـ ومن الذي يقبل شهادتك؟ أنت ميت، ولا تجوز شهادة الميت!

ـ سوف أثبت أنني حي!

ـ نعيك نشرته الصحف، وشيع مندوب رئيس الوزراء جنازتك. . وحتى لو أثبت جدلاً أنك على قيد الحياة فأنت رجل نصاب، اختلس أموال شركة مصر للبسكويت، وزور دفاترها، ودخل السجن، ولا يمكن أن تقبل شهادة رجل مجرم، مزور نصاب من أصحاب السوابق، وترفض شهادة وزير تقي، ورع، عفيف، نظيف، شريف بشهادة الرأي العام والصحف والإذاعة. . سيقول الناس جميعاً إنك رجل نصاب!

ـ من النصاب! الذي يلفق التهمة، أم الذي يقول الحقيقة؟

ـ عندما يلفق الوزير تهمة تكون هي الحقيقة، وعندما يقول متشرد مثلك الحقيقة تكون تزويراً ونصباً واحتيالاً!

ـ شيء ظريف جداً. . لقد عرفوا كيف يختارون وزير إنصاف المظلومين!

ـ أول شرط في الوزير أن يعرف كيف ينجو من المكائد والمؤامرات التي يدبرها أعداء الوطن!

ـ هل أصبحنا من أعداء الوطن لأننا نرفض أن نفرط في شرفنا وعرضنا؟!

ـ أعداء الحكومة هم أعداء الوطن. . وأعداء الوزراء هم أعداء الوطن، لأنهم هم الحكومة. . وأنت لست عدو الوطن فقط، بل أنت عدو نفسك أيضاً!

- عدو نفسي؟

- نعم، لأنك لا تعرف مصلحتك؟

- **مصلحتى أن تشاركني في زوجتي؟**

- مصلحتك أن أنصفك، أن أطهر اسمك، أن أرد اعتبارك، أن أجعلك رجلاً محترماً أمام الناس والقانون. !

- **قلت لك ما قيمة أن ترد لي اعتباري أمام الناس، وأفقد اعتباري أمام نفسي؟ ما قيمة أن أصبح محترماً أمام القانون ومحتقراً أمام المرأة التي أحبها!**

- إذا كنت لا تفكر في مصلحتك. . ففكر في مصلحة الوطن!

- **هل مصلحة الوطن في أن يتحول الرجل الشريف إلى رجل بلا شرف؟**

- غلطتك الكبرى أنك تعامل الحكومة كما تعامل الأفراد. . الحكومة شيء والأفراد شيء آخر. . عندما يضع رجل يده في جيبك ويأخذ ما معك من نقود فهذه جريمة، وعندما تضع الحكومة يدها في جيبك فهذا عمل مشروع لأنها تحصل الضرائب. . عندما يدخل رجل غريب إلى بيتك بعد منتصف الليل فهذا لص وعندما تدخل الحكومة إلى بيتك بعد منتصف الليل فهذه هي الضبطية القضائية. . عندما يحتال رجل عليك بمشروع وهمي يقبض عليه ويوضع في السجن لأنه محتال، وعندما تذكر الحكومة مشروعات وهمية للشعب فهذه سياسة تجعلها تفوز في الانتخابات. . وعندما يعتدي رجل على زوجتك فهذه جريمة هتك عرض، ولكن عندما تأخذ الحكومة زوجتك وتسكت على هذا، فهو دليل على التعاون بين الشعب والحكومة!

- وما هي مصلحة الوطن في أن تأخذ الحكومة زوجتي؟

ـ مصلحة الوطن أن أنجح في مهمتي كوزير إنصاف المظلومين، والوزير السعيد هو الذي يسعد شعبه والوزير الشقي يشقي شعبه وينكد عليه الحياة!

ـ ماذا جرى في الدنيا، حتى يطلب وزير من مواطن أن يضحي بشرفه من أجل الوطن!

ـ أليست مصلحة الوطن أن أرفع الجور والظلم عن كل مظلوم في البلد؟

ـ ولهذا تبدأ بظلمي أنا!

ـ ما قيمة ظلم رجل واحد أمام إنصاف الملايين، ما قيمة أن يفقد رجل واحد شرفه من أجل أن تستعيد أمة بأكملها شرفها!

ـ هل الطريقة الوحيدة لتستعيد الأمة شرفها أن أفقد شرفي؟

ـ ما دام كل واحد في هذا البلد يفكر في نفسه فقط، فلن ينال هذا البلد خيراً. واجب كل فرد أن يضحي بكل شيء من أجل المجموع.. كل واحد في مكانه!

ـ وما مكاني أنا؟

ـ في غرفة نوم سلوى!

ـ إما أنني مجنون، وإما أنك المجنون!

ـ أنا لست مجنونا. أنا عاقل جداً. أنا لم أفقد أعصابي عندما صفعتني على وجهي، وعندما هددتني أن تضربني بالشلوت! لو كنت مجنوناً لرددت عليك الصفعة بعشر أمثالها!

ـ الجبن هو منتهى العقل!

ـ لم أخف منك.. كنت وأنا طالب، بطل الملاكمة في الجامعة وبطل لعبة الجودو. وأستطيع بسهولة يا عبدالمتعال أفندي أن أوقعك على الأرض. ولكني تحملت الصفعة لأنني أرى من واجب الحاكم أن يضحي في سبيل خدمة المحكومين. عندما دخلت الوزارة

لأول مرة كنت أعلم أن الجماهير قد تثور ضدي وتهتف بسقوطي. . قد يجيء مجنون مثلك ويغتالني رمياً بالرصاص. . ولكني قبلت هذه التضحية من أجل بلادي. . ما قيمة أن يموت رجل واحد من أجل أن تعيش أمة بأكملها؟ هكذا ترى أنني أضحي بكل شيء من أجل البلد، وأنت لا تضحي بأي شي! ولا بشيء واحد. . ولو كان كل رجل مستعداً للتضحية لأصبح هذا البلد شيئاً آخر!

- لأصبح كباريه!

- بل لأصبح جنة!

- جنة للحكام وجحيماً للمحكومين!

- من عيوبكم أنتم أيها الساخطون الذين تقولون «لا» لكل شيء، أنكم تخلطون بين حقوقكم وحقوق الحكومة. . المفروض أن كل فرد في الشعب ينزل عن بعض حقوقه ويعطيها للحكومة. . وبذلك تقوى الحكومة!

- ما فائدتي أن أضعف أنا لتقوى الحكومة!

- فائدتك أن تكون حكومتك قوية، حرة مستقلة، ذات سيادة!

- ولكي يتحقق هذا يجب أن يكون الشعب ضعيفاً، عبداً ذليلاً، لا توجد حكومة قوية في شعب ضعيف، ولا حكومة حرة في بلد من العبيد!

- لو أنك عرفت حقك وحقوق الحكومة لاسترحت. . لو أن كل واحد من هذا الشعب طالب لنفسه بالحقوق التي للحكومة، فهذه هي الفوضى. . عندما تستغل الحكومة العمال فهذا لمصلحة الشعب، وعندما يستغل صاحب مصنع عماله فهذا للمصلحة الشخصية. . عندما تبطح الحكومة المتظاهرين في مظاهرة فهذا هو النظام وعندما تجرح أنت واحداً في الطريق العام فهذه جناية.

عندما آخذ أنا زوجتك فهذه عملية تأميم أو تنظيم، أو إعادة توزيع الثروة. وعندما تأخذ أنت زوجتي فمعناه اختلاس أموال الدولة، لو عـرفت القـانـون جيـداً لعشت في أمـان.. ملخص القـانـون في كلمتين، وهو أنه لا يجوز للفرد أن يعمل ما تعمله الحكومة!

ـ يعني الـوزير يـأخـذ زوجتي ليلة في الأسبـوع، ولا آخـذ أنـا زوجته ليلة في الأسبوع؟

ـ بـالضبط.. زوجتي امـرأة عجـوز وسـوف تشقيـك، وسلوى وهبي امرأة جميلة وسوف تسعدني!

ـ يفتح الله!

ـ أنت لا تفهمني!

ـ بل أفهمك جيداً!

ـ لو فهمتني لعرفت أن تـرددي على هـذا البيت ليلة واحدة كـل أسبوع هو حماية لك وحماية لسلوى!

ـ ومن قال لك إننا نريد حمايتك؟

ـ لأنني أعرف مصلحتك أنت وسلوى.. قلبي عليكما!

ـ يقول المثل البلدي أن قـطاً رأى فأراً فـوق الجدار، وتـزحلق الفأر وكاد يسقط، فقال له القط (اسم الله).. فقال الفأر (اتـركني أنت ودع العفاريت تأكلني)!

ـ أنت لا تعرف ماذا تستطيع العفاريت أن تفعل بك!

ـ عرفت هذا تماماً.. العفاريت هي التي أدخلتني السجن!

ـ والعفاريت سوف تحميك من دخول السجن مرة أخرى!

ـ أفضل دخول السجن على هذا الهوان الذي تعرضه علي!

ـ فكر في مصلحة المرأة التي تحبها!

ـ لم أرَ في حياتي سماجـة مثل هـذه السماجـة.. ولا صفاقـة مثل

هـذه الصفاقـة. . أنت سمعت بـأذنـك أن سلوى تقـول لـك أنها تحبني، وأنها مصممـة عـلى الإخـلاص لي، فهـل تـريـد أن تكـون عشيقها بالقوة؟. إنها قالت لك عدة مرات: اخرج من بيتي!

ـ عندما تحب المرأة تفقد عقلها. . تصبح غير مسؤولة عن أقوالهـا وأفعالها، كالمجانين تماماً. . ويوم يعود عقلها إليهـا. فلن تذكـر أي كلمة قالتها أثناء جنـون الحب، ولهذا أنـا لا أستطيـع أن أتخلى عن سلوى في حالتها العقلية الحالية واجبي أن أقف بجانبها. . !

ـ إنها حرة تفعل ما تشاء. . !

ـ لو رأيت ابنتي تحاول أن تلقي بنفسها من الشباك، فهـل أدعها تنتحر أم أمنعها من الانتحار؟

ـ ولكنها ليست ابنتك!

ـ إنني أشعر أنها مثل ابنتي تماماً!

ـ أنت تعامل سلوى كما تعاملون الشعب. . الشعب يقـول لكم إنه لا يريدكم، وأنتم مصرون على أن تجلسوا فوق أنفاسه لتحمـوه من خصومه!

ـ نحن نحميه من حماقاته. . نحميه من أن يصاب بـالعدوى من الميكروبات الخارجية. . نحميه من مخالفة النظام!

ـ ولهذا تضعون أيديكم على فمـه حتى تمنعوه من الكـلام خشية أن يخطىء في الكلام!

ـ الأدب فضلوه على العلم!

ـ وتقفلون النوافذ حتى يختنق، لكي تحموه من الزكام!

ـ لأن الزكام مرض ملعون!

ـ وتقيدونه بالأغلال حتى لا يتحرك وتلتوي قدمه أثناء المشي!

ـ أنت تريد أن يكون هذا الشعب أعرج؟

ـ خير للشعب أن يمشي وهو يعرج من أن يبقى مشلولاً!

ـ حبنا للشعب هو الذي جعلنا نخشى عليه من كل الأخطار.

ـ أنتم جعلتم أنفكسم أوصياء على هذا الشعب، كأن هذا الشعب قاصر وأنتم المجلس الحسبي.. كأن هذا الشعب سفيه لا يحسن التصرف وأنتم حجرتم عليه وأصبحتم القوامين عليه.. كأن هذا الشعب مريض وأنتم أطباؤه.. كأن هذا الشعب مجنون ولهذا تضعونه دائماً داخل قميص الأكتاف.. لماذا لا تتركوننا نتكلم كما نشاء؟ قد نخطىء في أول الأمر، وبعد الممارسة سنتعلم الكلام.. لماذا لا تتركوننا نشم أنفاسنا كما نريد؟ قد نصاب بالزكام، ولكننا لن نختنق.. لماذا لا تتركوننا نتحرك كما نحب؟ قد نتعثر في أول الأمر، ثم نجيد بعد ذلك المشي!

□□□

قال مجدي باشا:

ـ أنت تهاجم الآن حكومة شفيق باشا فتحي!

فقال عبد المتعال:

ـ أنا لم أذكر اسم حكومة فتحي باشا!

ـ أنت تكلمت عن كتم الأنفاس وتكميم الأفواه، وتقييد الناس بالسلاسل، وهذا ما تفعله حكومة شفيق باشا فتحي.. أنا لا أسمح لك بأن تقول كلمة واحدة ضد رئيسي المحبوب.. أتحمل أن تصفعني على وجهي، ولا أتحمل أن تطعن في الوزارة التي أتشرف بأن أكون عضواً فيها!

ـ وأنا أتشرف «بلعن أبوها»!

ـ حديثك هذا يؤكد لي أنك عضو في خلية سرية، تعمل لقلب الحكومة بالقوة!

ـ أنت الـذي جئت لتقلب حياتي الـزوجيـة . . وعنـدمـا فشلت اتهمتني بقلب الحكومة ! !

ـ أنت تحاول قلب النظام القائم . . النظام القائم كان قائماً عـلى أســاس أن سلوى وهبي صــديقتي . . وجئت أنت لتـقلب سـلوى علي !

ـ أنا لم أقلب سلوى !

ـ أنت تقول للحكومة «لا» !

ـ أنـا لم أقل للحكـومة «لا» . . أنـا قلت لـك أنت «لا» عنـدمـا أردت أن تعتدي على المرأة التي أحبها !

ـ الـذي يقول «لا» لـوزير واحـد، كأنـه قـال للحكـومـة كلهـا «لا» . . ألا تعرف أن الوزراء متضامنون بحكم الدستور ؟ !

ـ هـل أنت تغـازل سلوى وهبي بصفتـك مجـدي الأسيـوطي أم بصفتك الحكومة ؟

ـ بصفتي الحكومة طبعاً !

ـ إذا كنت أنت الحكومة فلتسقط الحكومة !

وصاحت سلوى : نعم فلتسقط الحكومة !

وأطفـأ مجدي بـاشا سيجـارته في غضب، وقـام من مقعده وهـو يقول :

ـ هذا كثير . . هذا كثير . . أنتـما الآن تقومـان بمظاهـرة سياسيـة ضـد حكـومـة صـاحب الـدولـة شفيق بــاشــا فتحي رئيس مجلس الوزراء . . والقانون ينص على تفريق المظاهرات وتقديم المتظاهرين إلى محكمة الجنايات !

ـ مظاهرة من إثنين ! ؟

ـ لم يحـدد القانـون عـدد المتـظاهـرين . . ممكن أن يكـون الفـرد

الواحد مظاهرة.. ويمكن أن تكون أنت وسلوى مظاهرتين.. ولكني لن أطبق القانون.. سوف أخرج الآن وأعطيكما مهلة للتفكير. نحن في عهد ديمقراطي، لا إجبار فيه ولا إكراه.. حرية تامة.. كل الحرية.. أنا أعطيكما حرية الاختيار.. سأعود إليكما بعد أسبوع يوم الأحد القادم الساعة التاسعة مساء.. لأعرف رأيكما فيما عرضته عليكما وهذه هي المهلة الأخيرة!

وصاحت سلوى:

ـ نحن لا نريد مهلة. لقد أصدرنا قرارنا!

ـ وما هو قراركم؟

ـ أن تخرج من هنا.. ولا تعود إلى هنا أبداً!

وضرب مجدي باشا كفاً بكف:

ـ هذه هي نتيجة منح الشعب حرية الانتخاب!

وتعانقت سلوى وعبد المتعال وتبادلا القبلات.

وخرج مجدي باشا دون أن يصافحهما، ومضى بخطوات سريعة نحو الباب، ثم توقف عند الباب وقال:

ـ بلد لم يعد فيه أخلاق!

□ □ □

ومضت الأيام.. نسي العاشقان مجدي باشا الأسيوطي.. عاشا في شهر عسل جديد.. انتقل عبد المتعال من غرفته فوق السطح وأقام في شقة سلوى. نسيا في حلاوة الحب اللذيذ قضية عبد المتعال!

وذات صباح دخلت الخادمة الزنجية تحمل جريدة (الصباح الجديد) وقدمتها إلى سلوى، وما كادت تقرأ العناوين الضخمة حتى ضمت صفحات الجريدة إلى صدرها، وراحت ترقص في

أنحاء الغرفة وتصيح بصوت كالزغاريد: بشرى.. بشرى.. بشرى..

وكان عبد المتعال قد انتهى من ارتداء بنطلونه، وبدأ يزرر البنطلون.. واكتفى بزرار واحد، وأسرع نحو سلوى يقول:

ـ ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

ـ قامت القيامة!

ـ عندما تقوم القيامة لن تنشر الصحف خبرها في الصفحة الأولى بل في صفحة الوفيات!

ـ استقالت وزارة شفيق فتحي!

ـ هذا غير معقول.. ربما تكون إشاعة!

قالت سلوى:

ـ الجريدة تقول (تشرف حضرة صاحب الدولة شفيق باشا فتحي بمقابلة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم، وقدم كتاب استقالته، فتفضل جلالته بقبول استقالة الوزارة).

ـ هذه بشرى سارة جداً.

ـ وتقول الجريدة (علمت جريدة أنباء الصباح) من مصدر مطلع أن عبد العزيز باشا سيف الله سوف يؤلف الوزارة الجديدة، ولن يدخلها أحد من الوزراء الحاليين!

ـ سيف الله باشا رجل معروف بنزاهته، وقد استقال من منصب رئيس محكمة الاستئناف احتجاجاً على الفساد والطغيان!

ـ كانوا يقولون أن وزارة شفيق باشا فتحي ستمكث عشر سنوات على الأقل!

ـ نجونا يا سلوى من براثن مجدي باشا الأسيوطي!

ـ الله أنقذ مصر من هذه العصابة. وأنقذنا أولاً!

- ألم أقـل لـك أمس أنني حلمت بـأنني رأيت مجدي بـاشـا الأسيـوطي واقعاً في بـالوعـة المجاري وهـو يصرخ «الحقوني»، ولا أحد يتقدم لنجدته؟ إن أحلامي لا تنزل الأرض أبداً يا سلوى!

- نستـطيـع الآن أن نتنفس الصعـداء! سيـدخـل كـل هؤلاء المجرمين إلى السجن!

- وستعود مصر جميلة جداً!

- أعترف لك يا عبد المتعال أنني كنت خائفة جداً من مجدي باشا الأسيـوطي. ما زلت أذكـر تعبيرات وجهـه وهو يخـرج مـطروداً من هنا.. كان يجز على أسنـانه في حقـد وغيظ ومرارة.. أحسست أنـه سيحاول الانتقام منك لأنك صفعته على وجهه أمامي.. كان وجهه يشبه الحية.. كنت أتوقع أن يحاول أن يلدغك.. ومـا زلت خائفـة من لدغاته!

- بعد أن خرج من الوزارة أصبح بلا أسنان!

- كانت مصيبة لو بقي هذا الرجل في الوزارة!

- مصيبة فقط؟ كانت كارثة!

□ □ □

- أريـد أن أعترف لـك بشيء أخفيتـه عنـك.. كنت أخشى أن يحـدث لك مكـروه.. ذهبت إلى صـديقي يـوسف وهبي صـاحب مسرح رمسيس، ورويت له محاولة مجدي بـاشا الأسيـوطي القذرة وتهديداته. وثار يـوسف بك. قـال إن هذه فضيحـة تسقط الدولـة كلها لا الحكومة وحدها. وأنه من العـار أن يبقى مثل هـذا الوزيـر القذر في الوزارة ووعدني بأنه سيبلغ هذه الحكـاية إلى صـديقه عـلي مختار باشا، وعلي بـاشا هـو عم إبراهيم بـك مختار مساعد سكـرتير الملك.. وهكذا وصلت الفضيحة إلى مسامع الجهات العليا!

ـ وما الذي يجعلك تتأكدين أنها وصلت إلى الجهات العليا؟

ـ قابلني يوسف بك في البروفة، وقال أن مساعد سكرتير الملك طلب تقريراً كاملاً بالذي حدث، فكتبت التقرير بخطي، وأعطيته ليوسف بك، وقرأه، وقال إنه بعد هذا التقرير لن يبقى مجدي الأسيوطي ٢٤ ساعة وزيراً في الوزارة.. وقد تحققت نبوءته.. ولم يخرج مجدي باشا وحده، بل خرجت الوزارة كلها!

ـ ولماذا لم تخبريني بكل هذا؟

ـ خشيت أن تنزعج إذا علمت أنني خطوت هذه الخطوة الجريئة!

ـ لو استشرتني لقلت لك لا تفعلي هذا.. لأن الفساد لا يسقط بالتقارير!

ـ الحمد لله أنني لم أستشرك.

ـ تصوري ماذا كان يحدث لنا لو لم تستقل الوزارة. كان لا بد أن يعلم مجدي باشا بأمر هذا التقرير، فله أصدقاء أقوياء في القصر الملكي. إنهم جميعاً أعضاء عصابة واحدة، يحمون بعضهم بعضاً. يدافعون عن أخطاء زملائهم، لأنهم بذلك يدافعون عن أنفسهم. كانوا سيعتبرون تقريرك صفعة للدولة كلها، لا لمجدي باشا وحده!

ـ مشيت وراء إحساسي، وجدت نفسي أصارح يوسف وهبي بما حدث. إحساسي كان يقول لي أن أضرب مجدي باشا قبل أن يضربنا. الهجوم أحسن طريقة للدفاع. وها هي ذي الأحداث تثبت أن إحساسي كان على حق. هذا يدل على أن أمك ولدتك في ليلة القدر يا عبد المتعال!

ـ ترى لو كانت أمي ولدتني في ساعة نحس، فماذا كان

سيحدث لي أسوأ مما حدث؟

- ألا يكفيك أنني أحببتك؟

- هذا هو الشيء الوحيد الطيب في حياتي. باقي حياتي كلها نحس في نحس!

- سقوط شفيق باشا فتحي معناه أن النحس انتهى. هذه نهاية الظلام وبداية الفجر.. من كان يصدق أن مجدي باشا الأسيوطي سيسقط بعد أسابيع قليلة من تهديده لنا! كنت أتطلع إلى السماء في كل لحظة وأقول (يا رب).. الآن تأكدت أن الله كان يسمعني، أن السماء لم تخيب رجائي، أن الفجر الذي طال انتظارنا له أصبح في الطريق!

- المهم أن يكون الوزراء الجدد في نزاهة وإيمان سيف الله باشا رئيس الوزارة الجديد.

- كل رئيس للوزارة يختار وزراءه على شاكلته.. وعلى كل حال، لا يمكن أن تكون الوزارة الجديدة أسوأ من الوزارة القديمة. لقد كانت أسوأ وزارة حكمت مصر!

- إن وزارة شفيق باشا هي التي أدخلتني السجن. وحافظ سري سكرتير رئيس الوزراء هو الذي أخذ مني المستندات والوثائق التي تثبت الفساد في شركة مصر للبسكويت، ووعدني بأن ينصفني خلال أربع وعشرين ساعة، وأن يعيد لي زوجتي خديجة. ومرت الأسابيع والشهور ولم يفعل شيئاً.

- أنت متضايق من حافظ سري لأنه لم يعد زوجتك خديجة إليك؟

- ليس هذا هو السبب. إنني نسيت خديجة.. ولم أنس أنه

خدعني وكذب علي.
- كلهُم كذابون. وعود بعض الحكام مثل قطعة الزبدة، تسيح عند طلوع الشمس!
- لعل الوزارة الجديدة تضع قطعة الزبدة في الفريجيدير
- خلصنا من هذا الكابوس الذي إسمه مجدي باشا الأسيوطي!
- أريد أن أصفعه مرة أخرى!
- صفعتك الأولى تكفي!
- لا تكفي أبداً. أريد أن أصفعه تحريرياً كما صفعته شفوياً... ما رأيك في أن أكتب له خطاباً باسمي واسمك نقول له رأينا فيه بصراحة؟
- لقد قلنا له رأينا في وجهه وهو وزير!
- الكلمة المكتوبة أقوى من الكلمة المسموعة.

□ □ □

واتجه عبد المتعال إلى الدولاب، وأخرج (بلوك نوت) ومظروفاً، وقلماً وجلس على الفراش يكتب:

(حضرة صاحب المعالي (سابقاً) مجدي باشا الأسيوطي، وزير إنصاف المظلومين سابقاً، وعلى المعاش الآن..

لعلك عرفت الآن أن صوت المظلومين أعلى من صوت الظالمين.. لعلك عرفت أن الضعفاء المسحوقين أقوى من الطغاة المتجبرين. لقد توهمت أنك خالد إلى الأبد، فطغيت وتجبرت.. وتصورت أنك حطمت معارضيك، وأنك ملأت السجون بخصومك، ونسيت أن الله موجود مطلق السراح!

نحن نكتب إليك بعد أن تجردت من نفوذك وسلطانك، وهيلك وهيلمانك. فالعز لا يقف أمام باب واحد إلى الأبد. الدنيا دولاب يا مجدي باشا!

لقد توهمت أنك قادر على أن تبطش بالضعفاء، وتستغل المظلومين، وتهتك أعراض الشرفاء.. وتصورت أنك في مركزك الكبير في مأمن من كل حساب أو عقاب.. تصورت أنك أصبحت إلهاً في هذا البلد، تعطي وتمنع، وترفع وتخفض، وتسعد وتشقي، وتحيي وتميت.. تصورت أن الدنيا دامت، وأصبحنا جميعاً عبيدك تشتري فينا وتبيع كما تشاء!

تصورت أن شهواتك هي قضايا الوطن الكبرى.. ومن وقف في طريق شهواتك إنما يقف في طريق هذا الوطن.

هددتنا بالسجن لأننا رفضنا أن نشتري حريتنا ونبيع شرفنا.. هددتنا بالموت جوعاً لأننا رفضنا أن نشبع شراهتك بلحم نسائنا!

شرفنا بقي.. وذهب سلطانك!

كرامتنا بقيت.. وذهبت وزارتك! مسكين يا صاحب المعالي.. سابقاً.

الامضاء: (سلوى وهبي وعبدالمتعال محجوب).

وتلا عبد المتعال نص الخطاب على سلوى.. وكانت سلوى تهتز طرباً وكأنها تسمع موسيقى رائعة أو غناء شجياً، فقامت تعانقه وتقول له:

ـ سوف أقبلك قبلة مقابل كل كلمة.. دعني أعد الكلمات

لأطبع بعددها على شفتيك قبلات . .

وبدأت سلوى تعد كلمات الخطاب، بينما وضع عبد المتعال الخطاب في المظروف وألصق عليه طابع البريد. وفتح دليل التليفون، وبحث فيه عن عنوان مجدي باشا الأسيوطي في بيته فوجد أنه ١١٧ شارع حسن باشا صبري بالزمالك.

وكتب العنوان على المظروف، وألصقه بشفتيه ثم استدعى الخادمة وقال لها:

ـ أتركي الآن كل ما في يديك . . اذهبي فوراً إلى صندوق البريد على ناصية الشارع، وضعي هذا المظروف بنفسك في الصندوق.

وهرولت الخادمة إلى باب الشقة تنفذ أمر عبد المتعال.

وبدأ عبد المتعال يخلع بنطلونه، ليرتدي البيجاما.

وفجأة دق جرس الباب!

وأسرعت سلوى تفتح الباب، ثم تعود وهي تقول:

ـ لا شيء . . إنه بائع الصحف أحضر ملحق جريدة (الصباح الجديد) . .

وألقت سلوى الجريدة بغير اهتمام فوق الفراش.

ونظر عبد المتعال إلى العنوان الضخم في ملحق الجريدة، ثم أسرع يعدو نحو الباب كالمجنون.

وجرت سلوى خلفه وهي تقول في دهشة:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

ـ سألحق بالخادمة قبل أن تلقي خطابنا إلى مجدي باشا الأسيوطي في صندوق البريد.

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ لأن الجريدة تقول أن مجدي باشا الأسيوطي هو الذي رأس الوزارة الجديدة!

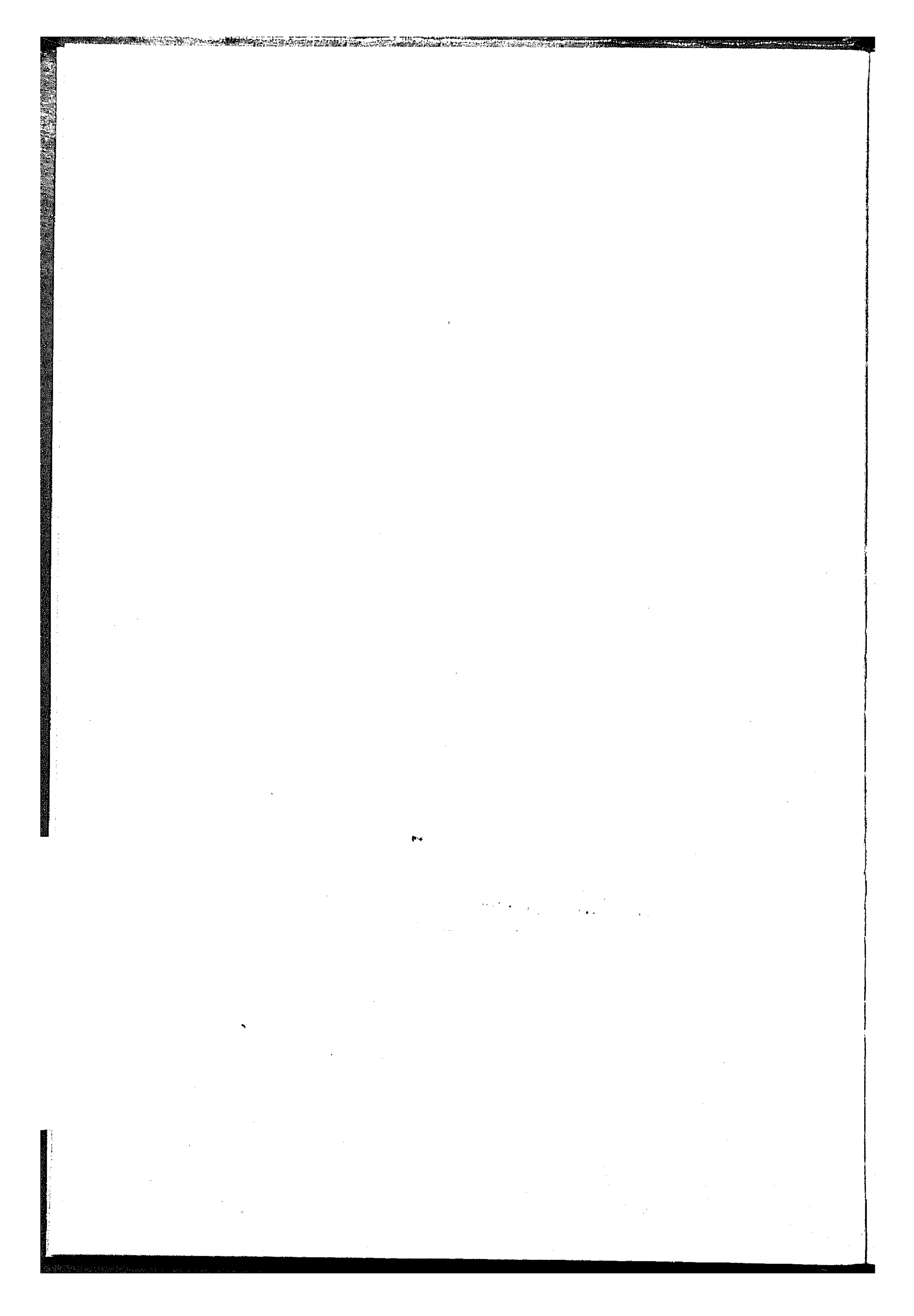
ـ تخرج إلى الشارع بلا بنطلون؟

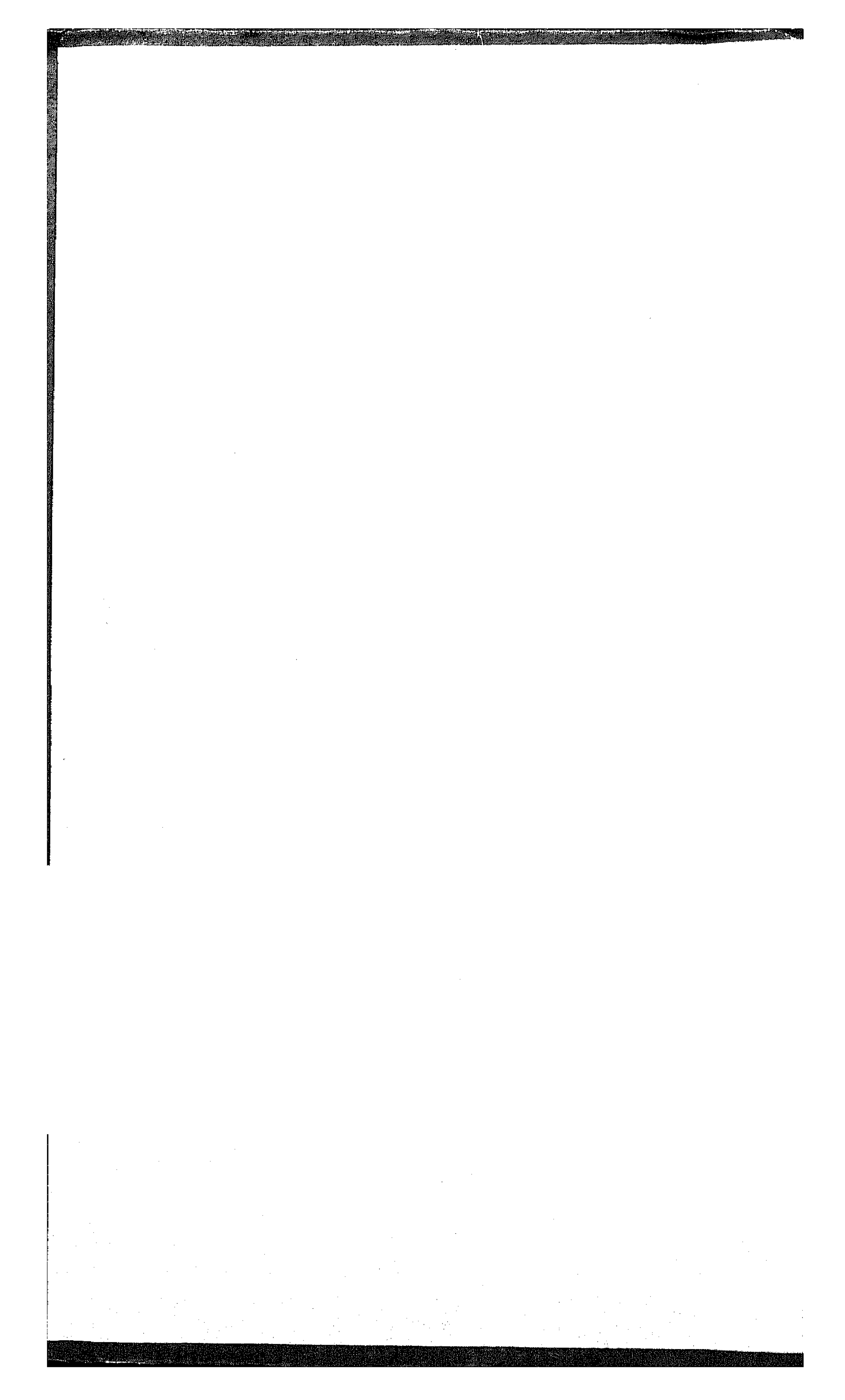
قال عبد المتعال، وهو يقفز درجات السلم أربعاً في أربع:

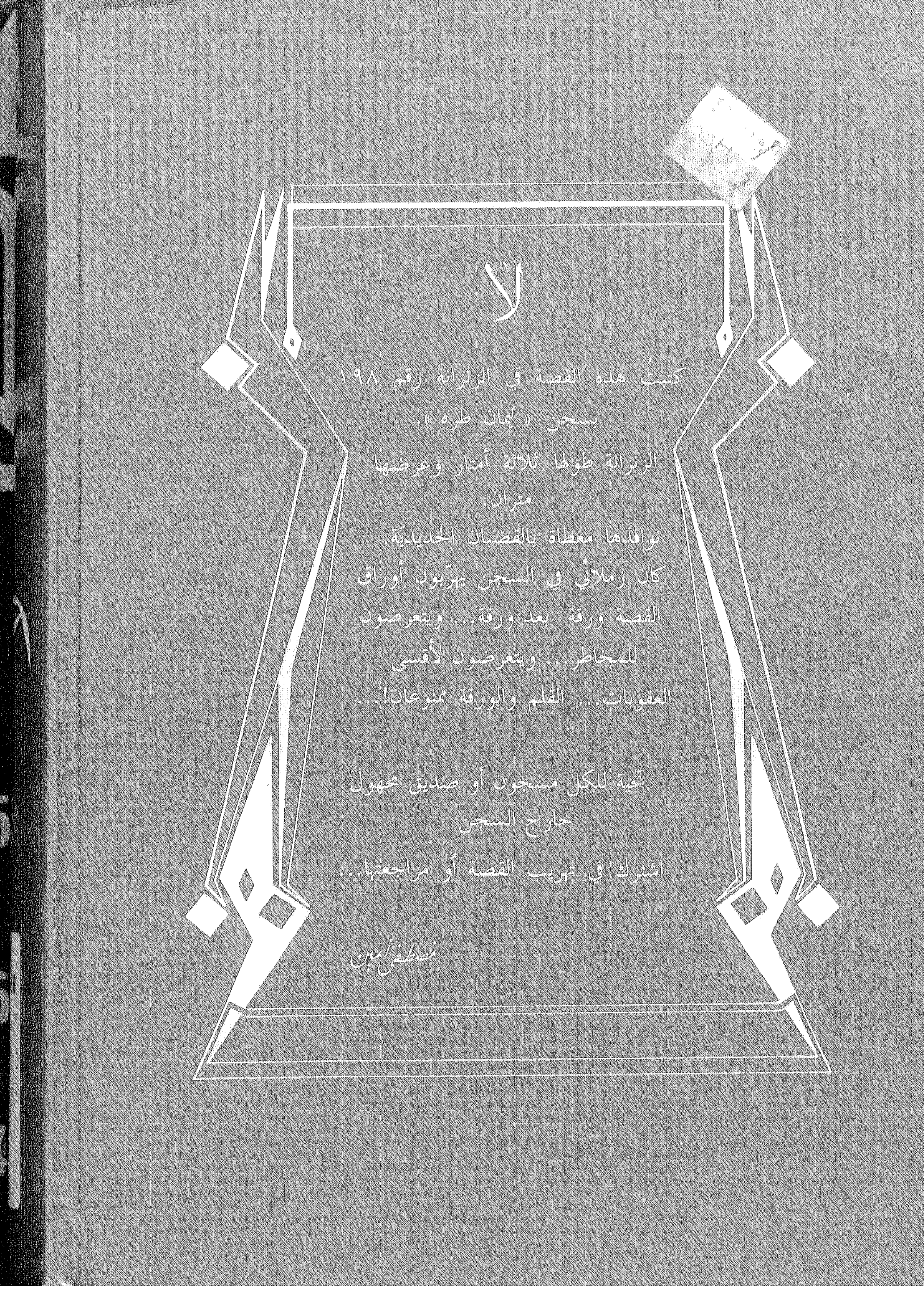
ـ هذا ليس وقت البنطلونات!

«تمت»

«كتبت هذه القصة بأكملها في الزنزانة رقم ١٩٨ بسجن ليمان طره».






لا
كتبتُ هذه القصة في الزنزانة رقم ١٩٨
بسجن «ليمان طره».
الزنزانة طولها ثلاثة أمتار وعرضها
متران.
نوافذها مغطاة بالقضبان الحديدية.
كان زملائي في السجن يهرّبون أوراق
القصة ورقة بعد ورقة... ويتعرضون
للمخاطر... ويتعرضون لأقسى
العقوبات... القلم والورقة ممنوعان!...
تحية للكل مسجون أو صديق مجهول
خارج السجن
اشترك في تهريب القصة أو مراجعتها...
مصطفى أمين